

سيرج أوديه
Serge Audier

مكيافيلي ففي النزاع والحرية

Machiavel, conflit et liberté



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



مكيافيلي في النزاع والحرية

ثمة واقع لا جدال فيه: يمارس فكر مكيافيلي اليوم تأثيراً كبيراً في الفلسفة السياسية. ومن بين الأفكار المؤسسة في هذا المجال تثير أعمال الفيلسوف الفلورنساوي، بلا أدنى شك، مقاربات وقرارات متناقضة عديدة. فكل مرة، كان يعاد اكتشاف هذا الفكر بطريقة أخرى. تارة بنظرة تستنكر ما حوته من رؤية كُليّة للسلطة، وبنظرة الثناء تارة أخرى، لأنها رائدة في مجال علم السياسة. كما أن هناك من رأى في مكيافيلي إحدى الشخصيات البارزة المعبرة عن النزعة الجمهورية الحديثة.

كتاب سيرج أوديه ليس كتاباً إضافياً - ولا، بخاصة، كتاباً زائداً - يُدرج على قائمة الدراسات اللامحدودة حول أعمال مكيافيلي. فما تميز به هي النية النقدية التي ينطوي عليها. وتقوم على أنه يقدم قراءة تركز على موضوع المنازعات السياسية والاجتماعية وفقاً للتفسيرات الرئيسة التي ظهرت في القرن العشرين، والتي كان رهانها التفكير حول العلاقة بين النزعة الجمهورية والنزعة الليبرالية تفكيراً مغايراً يولي أهمية أولى لدور الحرية فيها. الأمر الذي قاد المؤلف إلى اعتبار مكيافيلي منظر «المذهب التعددي النزاعي» ويتيح، عن طريق نظريته في الأمزجة، التفكير حول ما يعود له «انقسامات» من دور في الحياة السياسية للمجتمعات الحديثة. ويستند في ذلك على أطروحته القائلة بأن القراءة الفرنسية التي ينصوي تحتها تدعو إلى التفكير حول الشروط التي يرتبط فيها النزاع مع التوافق، من منظور تحقيق مثل النزعة الكونية المتعلقة بالحدثة الديمقراطية. ويبقى في النهاية السؤال مطروحاً أمام المختصين: كيف يمكن التفكير إنطلاقاً من مكيافيلي، ولكن في ما يتجاوزه أيضاً، حول «الحقيقة الفعلية للسياسة وتبعاتها من منظار صورة النزاع».

المؤلف

خريج مدرسة المعلمين العليا، حائز درجة الأستاذية ودكتوراه في الفلسفة يدرّس حالياً في جامعة السوربون - باريس الرابعة، وعضو المعهد الجامعي الفرنسي. اختصاصه الفلسفة الأخلاقية والسياسية، يكتب ويدرس حول تاريخ مذاهب الليبرالية والجمهورية والاشتراكية، وكذلك حول النظريات المعاصرة المتفرعة من هذه التيارات المتعددة.



سيرج أوديه



Avec le soutien du
CNL
Centre national du livre

جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة لين وفرات، كوم
www.nwf.com



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com



مكيافيلي
في النزاع والحرية
Machiavel, conflit et liberté

مكيافيليه

ففي النزاع والحرية

Machiavel, conflit et liberté

سيرج أوديه

Serge Audier

ترجمة
د. نجيب غزوي



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. ٢٠٠١

عنوان الأصل الفرنسي MACHIAVEL, CONFLIT ET LIBERTÉ

الترجمة العربية لنجيب غزاوي (Traduit en arabe par Najib Ghazaoui)

المراجعة والتحرير غازي برو (Révision et édition Ghazi Berro)

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الناشر

LIBRAIRIE PHILOSOPHIQUE J. VRIN-EHESS Paris

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين الدار العربية للعلوم، ناشرون.

Copyright © 2005 Vrin - Éditions de l'EHESS

ISBN 978-2-7116-1748-7 - septembre 2005

Arabic Copyright © 2015 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى: 1437 هـ - 2015 م

ردمك 978-614-01-1729-7

حقوق الطبعة العربية محفوظة

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون م.م.

تصميم الغلاف: علي القهوجي

التتضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

متابعة ترجمة الكتاب وإنتاجه: محترف القول الجريء بإدارة غازي برو

شكر

يعود أصل هذا الملف إلى رسالة جامعية نوقشت في جامعة كان (CAEN) في كانون الثاني/يناير عام 2000 تحت إشراف روبير لوغرو (Robert Legros) الذي أشكره بحرارة من أجل مناقشاته وملاحظاته. كما أحرص على التعبير عن امتناني لأعضاء لجنة الحكم: ألان رونو (Alain Renaut) الذي تابع مراحل هذا البحث وناقشها وقدم لي التشجيع، ألان بوايه (Alain Boyer) الذي قدم لي مساعدة ثمينة من خلال نصائحه، إضافة إلى جان مارك فيري (Jean-Marc Ferry) من أجل ملاحظاته المحفزة.

كما أعبر عن خالص امتناني لأعضاء جمعية أصدقاء ريمون آرون التي منحت هذا العمل جائزة ريمون آرون لعام 2001، وأسهمت في نشر هذا الكتاب. وأتوجه بخواطري الصادقة، بشكل خاص إلى السيدتين دومينيك شنابير (Dominique Schnapper) وإليزابيث دوتارتر (Elisabeth Dutartre).

لقد عبر جان فرانسوا كورتين (Jean-François Courtine) عن ثقته منذ البداية، وأعترف بما يدين له به هذا الكتاب، وأشكره على ذلك بحرارة، كما أشكر كلاً من پيار أنطوان فابر (Pierre-Antoine Fabre) وجان إيف غرونييه (Jean-Yves Grenier).

مدخل

نسعى من هذه الدراسة إلى تفحص معنى ما نسميه *اللحظة المكيافليّة* الفرنسية وأبعادها. فنحن نهدف من خلال هذه التسمية إلى إظهار تفرد المساهمة الفرنسية في إعادة تقييم مكيافلي الذي شق طريقاً أصيلة من أجل تحديد الفلسفة السياسية. ويقوم رهاننا أيضاً على إظهار متطلبات هذه «اللحظة» وتقويم صلاحيتها من خلال مواجهتها مع «لحظة مكيافليّة» أخرى أكثر شهرة، إنها اللحظة التي تشكلت في الفلسفة الإنكليزية، بدءاً من السبعينيات من القرن الماضي. فقد عُرف ما يسمى بالتيار الجمهوري الجديد بمساهمته في إعادة اكتشاف مكيافلي ضمن إطار إعادة دراسة المساهمة الجمهورية الساعية إلى تحديد تاريخ الفكر السياسي الحديث، وكذلك ضمن النقاشات حول فكرة الحرية السياسية.

إنه لأمر ذو دلالة من دون شك، أي أن يجد اهتمام الجمهوريين الجدد بالفكر المكيافليّ مصدره في بحث شامل مختصّ بتاريخ الفكر السياسي الحديث وبخاصة بالجذور الفكرية للثورة الأمريكية⁽¹⁾، وليس ضمن تقصّ يسعى إلى الإدراك المباشر لأصالة الفلورنساوي (المقصود مكيافلي وأصله من فلورنسا م م)؛ كما كان الحال مع اللحظة الفرنسية. لقد سعينا في الواقع إلى إظهار حدود الفكرة المسيطرة التي ترى أن الأصول العقائدية للثورة إنما تقع ضمن امتدادات الليبرالية، وبشكل أدق ضمن فلك فكر الفيلسوف *لوك*. لقد وجد هذا التفسير الليبرالي، الذي بقي موضع اتفاق لفترة طويلة، وأشير إليه أحياناً بعبارة *(لوك* أو لا أحد)⁽²⁾ أفضل تعبير عنه في أعمال لويس هارت (L. Hartz) الذي أشار، متبعاً في ذلك توكفيل، إلى أنه لم يكن على الأمريكيين الصراع ضد نظام قديم (Ancien Régime)، فكل شيء كان يسير وكأنهم «ولدوا متساوين في الحقوق»⁽³⁾. وهذا التفسير الذي اعتبر صيغة مسيطرة لا تجوز المبالغة في تقدير

هيمنته بشكل ارتدادى، وذلك لأنه قد لقي اعتراضات متنامية لدى مؤرخي الفكر الذين كشفوا عن «الوجه الخفي للفلسفة السياسية الحديثة»⁽⁴⁾ الساعية إلى إرساء تقارب من الثورة الأمريكية ذي تعقيد من نوع آخر، قائم هذه المرة على الإرث المهمل جداً للتقاليد الجمهورية⁽⁵⁾. وقد فرض الفكر المكيافيلّي نفسه بشكل تدريجي ضمن هذا الإطار من النزعة التحريفية الجمهورية باعتباره رهاناً حاسماً بالنسبة إلى الفكر السياسي المعاصر بخاصة بعد صدور مؤلف جون غريشيل آغاردي بوكوك (J. G. A. Pocock)، *اللحظة المكيافيلّية*⁽⁶⁾، الذي أصبح كلاسيكياً اليوم ويستأنف مسار التقصي الذي طوره هانس بارون⁽⁷⁾ (H. Baron). وكما أن عنوان الكتاب لا يشير إلى مضمونه فإن عنوانه الثاني يوحى به، فهو لا يتحدث عن القطيعة التي بدأها مكيافيلّي، بل يستخدم هذه التسمية للإشارة إلى تيار كامل يمثل مؤلف أحاديث حول العقد الأول من حكم تيت ليف (Discours sur la Première décade de Tite-Live) - بكل تأكيد إحدى شخصياته الأساسية - من خلال صفته التمثيلية، وتأثيره إلى جانب مجموعة من المفكرين الإنسانيين الفلورنساويين بخاصة غيشارديني (Guichardin). ومع ذلك، إن غاية بوكوك لا تتوقف عند هذا الحد لأنه يؤكد أن النزعة الجمهورية لعصر النهضة قد وجدت استمراراً لها في «التقاليد الجمهورية الأطلسية»، كما يثبت ذلك فكر جيمس هارنغتون السياسي (J. Harrington) الذي حافظ على حيوية أهم بديهيات النزعة الجمهورية المكيافيلّية من خلال إعادة صوغها.

يمكن لمشروع بوكوك الطموح، والذي كان له الأثر الكبير في فرنسا أيضاً⁽⁸⁾، أن يثير إعجابنا بكل تأكيد، فهو لم يسع، عبر الشعار المكيافيلّي، سوى إلى إنجاز صيغة بديلة تماماً للصيغة الليبرالية التي اعتبرت غير قادرة على التعبير عن الاعتراضات العديدة التي تثار حولها. لقد كان الهدف، باختصار، رفض كل شكل من إعادة الصياغة التاريخية للفكر السياسي المعاصر الذي ظل مركزاً على ما يمكن تسميته لحظة لوك⁽⁹⁾. في الواقع، يقدم الليبراليون أحياناً ظهور الفكر السياسي الحديث على أنه مسار متناغم متواصل مؤدٍ إلى التمكين المتنامي لفضاء حقوقي يسعى إلى المحافظة على حقوق الأفراد الذين استطاعوا أن يتحرروا من معوقات

«حرية القدماء» كي يتفرغوا بشكل كامل لنشاطاتهم الخاصة التي تكفلها القوانين المعتمدة أي «حرية المحدثين». يعارض بوكوك وتابعوه هذه «القصة الليبرالية العظيمة» التي تخصص مكاناً أساسياً لقدم «المجتمع المدني»، ويقولون إنها تطمس ملامح مسألة مختلف تماماً لعبت مع ذلك ولفترة طويلة دوراً أساسياً في تاريخ الحداثة السياسية. لم تكن المسألة مطروحة من قبل الليبراليين، بل من قبل الجمهوريين الذين لم يركزوا انتباههم على القضايا القانونية، بل على القضايا المتعلقة بالمشاركة السياسية والالتزام الفعال للمواطنين في حياة مدينتهم. لذلك فقد انطلقت لدى الجمهوريين عملية تفكير عميق تتعلق بأخطار الفساد التي تهدد الحياة العامة، ولا نجد هذا القلق لدى «التيار الدستوري الليبرالي» الذي يهتم بالمؤسسات القانونية أكثر من اهتمامه «بالعادات السياسية»⁽¹⁰⁾. وضمن هذا المجال، تعتبر الطريقة التي يهتم بها الليبراليون بمساهمة المفكرين السياسيين الذين لا ينتمون إلى مرجعيتهم ذات دلالة، وينطبق هذا الأمر بدقة على مكيافيلي، الذي ليس باستطاعة أي مؤرخ إهماله، ويظن المدافعون عن المرجعية الليبرالية أن باستطاعتهم شرحه بالتركيز على الطريقة التي يبرز فيها مسار علمنة القانون، حتى لو أدى ذلك إلى إفقار فكر جمهوري معبر عن طموح مختلف جداً، وتشويهه⁽¹¹⁾.

غير أنه إذا كان هذا الزيف لدى أتباع بوكوك وعدد آخر من الجمهوريين الجدد، قد سيطر لفترة طويلة - بما في ذلك في فرنسا - فيعود السبب في ذلك إلى عدم وجود مرجعية بديلة جاهزة وقادرة على توضيح الرفض والضعف المتنامي الذي تعانيه، مع ذلك، القراءة السائدة بشكل واضح⁽¹²⁾. وفي الواقع، وعلى الرغم من أن المرجعية الليبرالية لم تنفرد مطلقاً بالسيطرة، فإن الجمهوريين الجدد أي خصوم هذه المرجعية، الأكثر تشدداً في الظاهر، قد اعتمدوا النوع نفسه من التحليل، وبقي التقويم وحده مختلفاً جذرياً، وذلك على حساب معرفة مناسبة بالمساهمة المكيافيلية⁽¹³⁾ في كل الأحوال. لذلك، من الصحيح أن الماركسيين قد طوروا - على عكس الليبراليين - نقداً جذرياً للحداثة، غير أننا إذا نظرنا عن قرب فسنجد أن رؤيتهم العامة للمجتمعات الغربية لا تختلف كثيراً؛ كما يشهد بذلك نقد حقوق الإنسان الذي قدّمه ماركس في كتابه *المسألة اليهودية* حيث

تسدد هذه المقاربة باتجاه مسارات التخصيص والسلطنة (التحويل إلى سلع) وأنانية الأفراد المتناثرين الذين يهجرون الفضاء السياسي العام. ومع ذلك، يتمثل الفرق الوحيد والأساسي، في النهاية، في رفض الماركسيين بشدة لما يهمل به الليبراليون⁽¹⁴⁾. وفقاً لپوكوك وبعض الجمهوريين الجدد، لا يختلف الأمر إلا قليلاً بالنسبة إلى مفكرين مصنفين على أنهم "أرسطيون جدد" مثل آرنلدت (Arendt)، وخاصة ليو ستروس (Leo Strauss)⁽¹⁵⁾، الذين يُدينون نزع الصفة الإنسانية عن العالم الحديث وقدم مجتمع جماهيري يهمل مثاليات الحاضرة القديمة. وهنا أيضاً تعتمد هذه النزعة المعادية للحدث، في الواقع، المقاربة الليبرالية، لتقدم عنها تقويماً معاكساً في المجالات كافة ومن دون أي تنازلات⁽¹⁶⁾. ومما لا شك فيه أن الجمهوريين الجدد الذين انتقدوا ستروس وتلاميذه⁽¹⁷⁾، إنما يفكرون بالضبط في الطريقة التي حدد فيها مؤلف أفكار حول مكيافيلي القطيعة المكيافيلية من خلال التركيز على الدور التخريبي لتقاليد «الحق الطبيعي» مجازاً بتقليص دوره في التيار الجمهوري في عصره، وبنسبة اهتمامات لا يمكن أن تنسب إلى مكيافيلي، من خلال عودته إلى الماضي. ويعني هذا الأمر أن هذه الخطابات التناوبية الموروثة عن ستروس، لا تقدم وفقاً للجمهوريين الجدد، عناصر حاسمة قادرة على إظهار قراءة جديدة ممكنة للحدث السياسية، كما أنها غير قادرة، بخاصة، على تقديم تقييم مناسب لخصوصية المساهمة المكيافيلية، وذلك لأنه، ومهما كان نوع الاختيار سواء أكان ليبرالياً أم غير ليبرالي، تعتبر الحدث مساراً منسجماً بشكل كامل. يرى پوكوك أن هذا التحليل يمنع إدراك أن الحدث قد بقيت لفترة طويلة مسرحاً لصراع بين تيار جمهوري يمنح أهمية رئيسة لموضوع المساهمة ولمسألة الفساد السياسي من جهة، ولتيار ليبرالي يركز على موضوع الحقوق والتجارة من جهة أخرى.

لا تأخذ أعمال مكيافيلي معناها الكامل بدقة إلا إذا وضعت ضمن تيار إنساني فلورنساوي أكمل مع بداية القرن التاسع عشر القطيعة مع التخيلات الميتافيزيقية والسياسية للعصر الوسيط. لقد فتح أصحاب النزعة الإنسانية - من خلال وضع حد لأولية الحياة التأملية - الطريق أمام مكيافيلي، عبر الدفاع عن

فكرة جديدة، الحياة الفاعلة: لا تظهر موهبة الإنسان من الآن فصاعداً من خلال واقعة التأمل حول نظام العالم التراتبي وجودياً، بل ضمن جهده في تشكيل نظام بشري يواجه الطابع العشوائي للحظ. ولقد تم توظيف هذه الموضوعة، بشكل خاص، في المجال السياسي حيث يجب التركيز على التميز البشري في إقامة حاضرة حرة تقاوم عرضية الأحداث؛ وهي فكرة تجد عند مكيافيلي التعبير النموذجي عنها من خلال مفهومي *الفضيلة والحظ*. ومن هنا، ينطلق لدى «الإنسانيين المدنيين» تساؤل متجدد حول وسائل الحفاظ لأطول وقت ممكن على سلامة الحاضرة كشرط وحيد لازم للمحافظة على حرية المواطنين.

من الصحيح أن تحليل بوكوك يتوافق بهذا الصدد، في جزء منه، مع العديد من المساهمات التي سبقتها، بخاصة مساهمة كاسير (Cassirer) الذي كان قد أشار بإطناب، إلى كيفية تحول - مع مكيافيلي - مفهوم العصر الوسيط عن الكون، وبشكل لا عودة فيه، ذلك المفهوم الذي كان يدين بالكثير للفيزياء والميتافيزيقا الأرسطية⁽¹⁸⁾. ومع ذلك، إن التوافق يتوقف هنا، وذلك لأن كاسير يستنتج من هذا التشخيص أن مكيافيلي يحدث اختراقاً في التاريخ من خلال تقديم تصور جديد جذري للسياسة، باعتبارها منذ الآن، علماً وفناً؛ لذلك اعتُبر بشكل ما «غاليليه السياسة». وفي مواجهة التحليلات الحريضة على التخفيف من حدة الكلام المكيافيلي، عبر وضعه في سياقه التاريخي، يدافع كاسير بالقول إن هذا النوع من القراءة يرتكب مغالطة منهجية، ويشير إلى أن الإكثار من إقحام مكيافيلي في السياقات المنبثقة عن الرؤية التاريخية في القرن التاسع عشر، والتي جهل كل شيء عنها، يؤدي إلى إهمال واقعة أن مؤلف كتاب *الأمر* يزعم أنه يقدم أفكاراً حول السياسة والتاريخ الصحيحين بشكل شامل نائياً بنفسه عن حصر صلاحية أقواله ضمن سياق عصره.

يعبر بوكوك، في مواجهة هذا القرار التفسيري، عن قناعته بأن قراءة سياقية صرفة يمكن أن تسمح بفهم أعمال مكيافيلي، وأن التفسيرات التي تعتبره رائداً للعلم السياسي تبتعد عن رهاناته ابتعاداً كاملاً. وربما وقعنا على جوهر الرسالة المكيافيلية في الفكرة الجمهورية الصرفة، وكما هو الحال لدى ممثلي «النزعة

الإنسانية المدنية» - مثل ليوناردو بروني (L. Bruni) - فمكيافيلي يهتم قبل كل شيء بتأهيل المواطنين وبقدرتهم على المساهمة في حياة الحاضرة، وكذلك لمواجهة مخاطر الفساد الذي يمكن أن يحدث حين يقوم بعض الأفراد، وخاصة الأكثر غنى، بتحويل المال العام لمصلحتهم. لا يجوز أيضاً، كما هو الحال لدى كاسيرر وآخرين كثر، أن نضع إرث مكيافيلي أيضاً ضمن تيار «أسطورة الدولة» - الذي يستدرك مؤلف كتاب الأمير من خلاله أسوأ كوارث الحداثة - بل على العكس تماماً، يجب أن نصنفه ضمن التيار الجمهوري البريطاني للقرن السابع عشر، وضمن تطبيقه اللاحق في أمريكا، هذا التيار الذي يركز على نقد المجتمع التجاري والزبائنية السياسية، ويحرص على إعادة التواصل مع أهم المبادئ المكيافيلية بالنسبة إلى وسائل ردع الفساد السياسي. وثمة فرق آخر بين قراءة بوكوك وقراءة كاسيرر جدير بالاهتمام، وخاصة وأنه موجود في قلب الحوارات الداخلية للنزعة الجمهورية الجديدة: ف فيما يبدو أن مؤلف كتاب *أسطورة الدولة* يرى في مكيافيلي حَقَّار قَبْر التقاليد الأرسطية في مجملها، يلج مؤلف *اللحظة المكيافيلية*، بعكس ذلك، على ارتباطه بالتقاليد الجمهورية التي تعتبر وريثة أرسطو، لأنها تعتمد فكرة «الإطار السياسي» (zōon politikon)، التي ترى أن الإنسان يدرك التميز من خلال تحقيق رسالته السياسية الصرفة. وما من شك في أن بوكوك لم يشأ أن يجعل من مكيافيلي - كما اتُّهم بذلك أحياناً - كاتباً أرسطياً في وجوهه كافة، فرمما كان ذلك أمراً غير مقبول على الإطلاق⁽¹⁹⁾. ويبقى أن القطيعة المكيافيلية تندرج لديه ضمن إطار السلم الجمهوري الذي يعتبر الإلهام الأرسطي أحد ملامحه الأساسية، على عكس ما هو عليه الأمر، مثلاً، لدى ستروس.

إن لإعادة البناء التاريخي هذه انعكاسات فلسفية هامة، لأنها اعتمدت أساساً للمواقف المعيارية الغربية جداً، في الأصل، عن الليبرالية السياسية التي جدد موضوعاتها رولس (Rawls)، في كتابه *نظرية العدالة* مثيراً بذلك نقاشاً هاماً حول النزعة الفردية الليبرالية⁽²⁰⁾. لقد استطاع خصوم الليبرالية، رولس بالتحديد، وبخاصة بعض المؤلفين المعروفين بنزعتهم «الجماعية»، أن يجدوا في إعادة البناء التي قام بها بوكوك للنزعة الجمهورية أفقاً يمكن أن يدعم آراءهم. وإذا كان صحيحاً

أن أصحاب النزعة الجماعية "الأكثر ليبرالية مثل مايكل والزر (M. Walzer). قد نأوا بأنفسهم عن النزعة الجمهورية الجديدة⁽²¹⁾، فإن آخرين مثل مايكل ساندل (M. Sandel) أو تشارلز تايلور (Ch. Taylor) قد اكتشفوا في ذلك منظوراً يستحق السير من أجل توضيح مأزق التصور الليبرالي للفرد الذي اعتبر (أنا) «محررة»، أو (أنا) «ذرية» قادرة على تحديد هويتها بذاتها، خارج كل أفق للدلالات المشتركة مع الجماعة⁽²²⁾. وفي مواجهة الأخطار الليبرالية حول أولية «العدل» على «الخير»، وترجيحها للقانون باعتباره ضماناً أساسياً للحرية، لقد ظن بعض أصحاب النزعة الجماعية بذلك أنهم قد اكتشفوا، في إعادة البناء الجمهوري الجديد للفلسفة السياسية الحديثة، وبخاصة في قراءتهم لمكيافيلي، عناصر تسمح بالتأكيد على أنه يجب على الذات أن تنخرط في جماعة خاصة وتعلن عن انتمائها للحيز المشترك للحاضرة من خلال إخلاصها الوطني؛ باعتباره واجباً أكثر منه خياراً.

لذلك لا يدهشنا، سوى قليلاً، أن تظهر النزعة الجمهورية الجديدة، في الغالب، ضمن النقاشات المعاصرة على شكل نزعة أرسطية. ونجد تلك القراءة لدى يورغن هابرماس (J. Habermas) نفسه حين يركز في نقاشاته مع الجمهوريين الجدد، على توجيههم الأرسطي من أجل إظهار أن هذا التيار الفكري - رغم حصافة بعض اعتراضاته الموجهة إلى الليبرالية - لا يستجيب بشكل كافٍ للمهام التي تقع، من الآن فصاعداً، على عاتق الفلسفة المعاصرة التي تواجه متطلبات تحمل مسؤولية تعددية مفاهيم الخير واختلاف الثقافات، في إطار تغيير المرجعية الذي أصبح ضرورياً بعد «المنعطف اللساني»⁽²³⁾.

ومع ذلك، هناك أمر لا يقل دلالة، وذلك لأن بعض الجمهوريين الجدد لا يجدون أنفسهم ضمن هذه المقارنة بين النزعة الجمهورية وهذا النوع من الأرسطية الجديدة. وسنرى من وجهة النظر هذه أن مقاربتهم تنسجم أكثر مع اللحظة المكيافيلية الفرنسية. وهكذا، يلوم أحد أفضل المتخصصين الإيطاليين بمكيافيلي، ماوريزيو فيرولي (M. Viroli)، هابرماس لأنه بسّط بطريقة متعجلة جداً الإسهام الجمهوري، وذلك من خلال حصره في الصيغة الأرسطية⁽²⁴⁾. وقد يعكس هذا

التبسيط، جزئياً، قلة الانتباه التي خصَّ بها هابرماس التقاليد الغنية للوطنية الجمهورية الكلاسيكية - التي كان مكيافيلي أحد وجوهها الأساسية⁽²⁵⁾ - وذلك لمصلحة إعادة تشكيل - اعتُبرت شديدة التجريد - لمفهوم «الوطنية الدستورية». ومن هنا قد يكون هابرماس قلل ليس فقط من شأن مصادر النزعة الجمهورية على المستوى المعياري، بل وقع أيضاً، وتحت تأثير بوكوك، ضحية سوء فهم تاريخي مخيف، وذلك لأن أصل النزعة الجمهورية الحديثة قائم في الفكر الجمهوري الروماني، بخاصة لدى شيشرون⁽²⁶⁾ وليس في الفلسفة الأرسطية.

ليس علينا أيضاً أن نهمّل رولس الذي يعتبر من بين مفكري الكانطية المتجددة، إذ استطاع أن يظهر اهتماماً أكثر من هابرماس، بالتمييز بين مختلف أشكال النزعة الجمهورية. فبعيداً عن المطابقة بين النزعة الجمهورية والأرسطية، وتحديد موقع مكيافيلي ضمن هذه الصيغة الفكرية، عرّف رولس أنموذجين من النزعة الجمهورية: أطلق على الأول اسم «النزعة الجمهورية الكلاسيكية»، والثاني «النزعة الإنسانية المدنية»⁽²⁷⁾. غير أنه لم يعتبر أن الليبرالية السياسية - في جهدها من أجل إعادة التفكير في شروط التعايش بين مختلف مفاهيم الخير - تناقض، بحكم تعريفها، كل شكل من النزعة الجمهورية، بل على العكس من ذلك تماماً، فإذا اعتبرنا النزعة «الجمهورية الكلاسيكية» مذهباً يتطلب من المواطنين التحلي «بالفضيلة المدنية» من أجل المحافظة على حقوقهم الأساسية - بما في ذلك الحقوق المدنية التي تكفل حرياتهم الخاصة - فلا يكون هناك من تناقض مع التوجهات الكبرى للنزعة الليبرالية السياسية. فمن وجهة نظر رولس الليبرالية، من المقبول تماماً أن يستدعي خلاصُ الحريات الديمقراطية «المساهمة الفعالة للمواطنين الذين يملكون الفضائل السياسية الضرورية للمحافظة على النظام الدستوري»⁽²⁸⁾، وذلك لأن هذه الليبرالية تنسجم، من حيث المبدأ، مع احترام التعددية في مفاهيم الخير. يقارن رولس بين هذه النزعة الجمهورية المقبولة و«النزعة الإنسانية المدنية»، بالمعنى الذي اعتمده بوكوك باعتبارها «نوعاً من النزعة الأرسطية» القائمة على مسلمة أن الإنسان كائن اجتماعي بل وسياسي. وتبدو المساهمة في النشاط السياسي، في هذه الحالة وكأنها «المكان المميز للحياة الصالحة»، وبهذه الطريقة تعيد النزعة

الجمهورية ارتباطها مع «حرية القدماء» التي بين بنامين كونستان (B. Constant) بحق مخاطرها⁽²⁹⁾. ويبدو هذا المفهوم الذي صيغ بهذه الطريقة مناقضاً لأسس الليبرالية السياسية، لأنه يتطلب، في أقل تقدير، وجود مفهوم أساسي للخير المشترك لدى الجميع - مما يضعه - لهذا السبب بالذات، ليس في تناقض فاضح مع الواقع وحسب ولكن مع المتطلبات المعيارية للديمقراطيات المعاصرة أيضاً.

من الهام، من أجل المقارنة مع اللحظة المكيافليّة الفرنسية، أن نشير إلى أن رولس قد قدم الفكر السياسي لمكيافليّ مثلاً عن النزعة الجمهورية الكلاسيكية، رغم أنه أشار بطريقة ذات دلالة، إلى أنه بالإمكان إيجاد مثال أفضل حول برهانه في أعمال توكفيل⁽³⁰⁾. وتعود هذه الإشارة الغامضة إلى مكيافليّ بشكل رئيس إلى أن رولس قد اعتبر بشكل خاص، أن النموذج التفسير الذي قدمه كوانتن سكينر (Q. Skinner) ربما انبثق عن النزعة الجمهورية الكلاسيكية. نصل هنا بالضبط - بفضل تفسير سكينر - إلى التوجه الثاني للنزعة الجمهورية الجديدة المعاصرة التي تنأى، في بعض جوانبها عن الصيغة التي قدمها بوكوك، كما تشهد بذلك الطريقة التي عرضت فيها المساهمة المكيافليّة ضمن منظور أكثر انسجاماً، هذه المرة، مع مكتسبات الليبرالية السياسية⁽³¹⁾. وإننا ندين، في الواقع، لأبحاث سكينر حول التقاليد الجمهورية، وبخاصة حول مكيافليّ⁽³²⁾، في مسألة المعايير التي تميّز بين «الأنسنة المدنية» و«النزعة الجمهورية الكلاسيكية» التي ربما غابت حتى الآن، وفي جزء منها، عن أخصائي عصر النهضة. وكما سنرى، تقوم فكرة سكينر - الذي تعتبر خياراته، من وجهة النظر هذه، أقرب إلى اللحظة المكيافليّة الفرنسية - على أن النزعة الجمهورية قد تطورت بدءاً من القرن الثالث عشر، بفضل إعادة قراءة للإرث الروماني، وليس بفضل الفلسفة الأرسطية: «تدين النظرية السياسية لعصر النهضة لروما أكثر من الإغريق»⁽³³⁾. إن النأي عن بوكوك واضح، فالنزعة الجمهورية الإيطالية لا تشير - في رأي سكينر - إلى إحياء فكرة الإطار السياسي، بل إنها تكتسب أصالتها من خلال تحررها من النموذج الخير الأساسي الذي يتقاسمه الجميع، ولا تعود الحاضرة (المدنية) ضمن هذا المنظور، المكان المفضل لإنجاز التميّز البشري، بل تصبح شرطاً لعرض مشروع حياة كل فرد من أفرادها، وبذلك

سُتعرّف الحرية السياسية، بالتوافق مع هذا الأمر، من خلال منهجية *فرائعية* أولاً: إذا كان على الأفراد أن ينكبوا بنشاط على واجبهـم باعتبارهم مواطنين فليس لأن غايتهم السامية تكمن في ذلك، بل لأنهم يستطيعون بهذه الطريقة فقط أن يأمـلوا في المحافظة على حريتهم الشخصية عند سطوة السلطة السياسية و سطوة المجموعات الاقتصادية المسيطرة. هناك أيضاً، وبكل تأكيد «لحظة مكيافيـلية» لدى سكينر، لكن شرط أن نوضّح أن هذه اللحظة لا تنصف أبداً، كما يوحي بذلك بوكوك، بعدم التوافق المفترض مع الأفق التعددي للمجتمعات الليبرالية. لذلك يعتقد سكينر أن من الممكن والمستحب أن نستخرج من النزعة الجمهورية الفلورنساوية، ومن مكيافيـلي بخاصة، تصوراً للحرية يقطع الصلة بشكل واضح مع إرث أرسطو، من دون أن يقودنا مع ذلك إلى الفكر الليبرالي مع مفهوم حرية تُعرّف سلباً بأنها «الغياب القاطع لكل إكراه». يستخرج سكينر، في الواقع، من *أحاديث مكيافيـلي* فكرة مفادها أنه بإمكان الأفراد أن يتحصنوا ضد العشوائية وأن يمضوا حياتهم وفقاً لرؤيتهم للعالم⁽³⁴⁾، شرط الإخلاص للحياة العامة فقط.

قد تسمح إعادة تشكيل الفكرة المكيافيـلية للحرية، على المستوى المعياري، بالهروب من الانتقادات التي غالباً ما وجهها الليبراليون للجمهوريين، فقد اقم هؤلاء بالعمل على إلغاء ضمانات الحرية الفردية لمصلحة «حرية إيجابية» مفترضة. لقد اقتنع جمهوريون جدد، مثل سكينر بأن المشكلة لم تنر بشكل مناسب في العموم، وتكمن هنا أبعاد فكرة أثارها جمهوري جديد آخر، فيليب پتيت (Ph. Pettit)، تمنح على طريققتها أبعاداً لانتقادات سكينر التي ترفض التمييز الشهير الذي قدمه إيزياه برلين (I. Berlin) بين «الحرية الإيجابية» و«الحرية السلبية»⁽³⁵⁾. في مواجهة الانقسامات الكلاسيكية التي توقّعها الليبراليون والتي يأتي في مقدمها التعارض بين "الفرد" و"الجماعة"، يدافع پتيت بشكل أساسي عن طريق ثالثة، قادرة على إغناء الفكر المعاصر، مستنداً إلى النزعة الجمهورية المكيافيـلية⁽³⁶⁾: يمكن للحرية الجمهورية أن تعتبر بدقة أكثر «غياباً للسيطرة» وليست غياباً للتدخل الفعلي فقط. علينا إذاً، هنا أيضاً، أن نتوجه إلى مكيافيـلي، في مواجهته رواد الليبرالية مثل هوبس (Hobbes) الذي ادّعى أن تعريف الحرية يقتصر فقط على

مفهوم عدم التدخل، مبرهنًا بالقول إن المواطنين في حاضرة جمهورية لا يتمتعون بالضرورة بحرية أكبر من حرية رعايا حاكم مستبد.

إن تصوّر الحرية الجمهورية بهذه الطريقة يبعدها جداً عن هدف أساسي في تحقيق الذات فيما تحافظ، من الإرث الليبرالي، على شرط صيانة الحقوق الفردية، أقلّه. وهكذا تبين النزعة الجمهورية الجديدة على طريقة بّييت أن الحرية باعتبارها "نقياً للسيطرة" لا تتطلب منح قيمة أساسية لفكرة "الاستقلال" ولا لفكرة المساهمة كما هي. نحن هنا بعيدون جداً عن مثال «الإطار السياسي»، الذي ظن بوكوك، مع ذلك، أنه يمثل الهدف المركزي للنزعة الجمهورية كما كان هدف ميكافلي نفسه.

من اللافت مع ذلك، أن سكينر قد فضل في النهاية الحديث عن "حرية رومانية جديدة" بدل الحديث عن "حرية جمهورية" بحتة، بعد أن أدمج، بدوره، مساهمة بّييت⁽³⁷⁾. نحن هنا أمام عملية إعادة ارتباط مع مسار خاص للفكر السياسي، يشتمل على كتاب يرفضون تصور هوبس المختصر، من دون أن يكونوا جمهوريين بالمعنى الصحيح للكلمة. وكان الهدف أيضاً اكتشاف موقف لا يزال صالحاً من أجل عملية تصور للحرية وفقاً لصيغة مختلفة عن الليبراليين، مع البقاء ضمن أفق تعددي للحدثة السياسية. ويبدو انبعاث الفكر الميكافلي هنا أيضاً أساسياً، بخاصة أنه الفكر الأصل الذي سيعاد اكتشافه، في النهاية، بشكل جزئي ثم يدفن بدءاً من القرن التاسع عشر، وفقاً لرأي سكينر. ربما سمحت استعادة اللحظة الميكافلية الرومانية بذلك، بالإضاءة على أكثر التحليلات أهمية من أجل تحديد التفكير المعاصر حول فكرة الحرية⁽³⁸⁾.

إذا بدت إعادة بناء الجمهوريين الجدد لتاريخ الفكر السياسي الحديث جذابة للوهلة الأولى، فإنها تثير مع ذلك بعض الحيرة. فهي تهمّل أولاً أصالة الأعمال السياسية التي لا تنبثق عن النزعة الجمهورية والنزعة الليبرالية بالمعنى الحقيقي للكلمة، وذلك من خلال المعارضة بين هذين التيارين المتنازعين، كما فعل ذلك بوكوك. ومثالنا على ذلك الفكر النسوي لماري ولستونكرافت (Mary Wollstoncraft) الذي ينبثق، في الوقت ذاته عن الليبرالية - كما يشهد

بذلك تأثير لوك في ما يتعلق بموضوعات العقد والحقوق الطبيعية - وعن النزعة الجمهورية، حسبما يتأكد في تلقيها الأصيل لروسو وللجمهوريين الإنكليز، الذين تشاركهم في مديح المواطنة الفعالة⁽³⁹⁾. إضافة إلى ذلك، يميل الجمهوريون الجدد إلى المبالغة كثيراً في حداثة مسعاهم: وعلى سبيل المثال إن أحد كتب تاريخ الفلسفة السياسية الأكثر انتشاراً في فترة ما بين الحربين، كتاب جورج هولاند ساين (G. H. Sabine) الذي نشر عام 1937، وهو يخصص حيزاً واسعاً للنزعة الجمهورية الكلاسيكية، وكذلك لأفكار مكيافيلي الجمهورية (النزعة الجمهورية والنزعة الوطنية)⁽⁴⁰⁾، إلى جانب تابعيه الإنكليز (الجمهوريون: هارنغتون وميلتون وسدني)⁽⁴¹⁾. وحول هذه الأفكار بالذات، نشر عام 1945 كتاب الجمهوريون الكلاسيكيون، من تأليف زيرا سلفر فينك (Z. S. Fink)، الذي سجله ستروس وأثر بعمق في كل من هايك (Hayek) في كتابه دستور الحرية وآرندت في كتابها حول الثورة⁽⁴²⁾. أما في ما يتعلق بالجمهوريين الجدد الفرنسيين، فربما قللوا هم أيضاً من أهمية المساهمات الفرنكوفونية التي اكتشفت بشكل مبكر ما قدمه روسو من مساهمة أصيلة في المذهب الجمهوري: تلك حال كل من برنارد غروثويسن (B. Groethuysen)، وجان ستاروبينسكي (J. Starobinski) أو حتى كلود نيكولييه (C. Nicolet) من بين آخرين⁽⁴³⁾.

تستند إعادة البناء التي شهدتها المذهب الجمهوري الجديد، بشكل خاص، إلى لوحة مختزلة للتيار الليبرالي الحديث والمعاصر، ويمكن أن نلتمح إحدى إشارات هذا الاختصار في الطريقة التي شكك فيها سكينر بمنهج برلين كي يبرر أهمية منهجيته التاريخية. وإذا قبلنا بهذا الرأي، فلن تكون منهجية برلين سوى أحد مظاهر "الكسوف" الذي عرفه التصور "الروماني الجديد" للحرية: ولأن برلين قد يتجاهل كل شيء من هذه التقاليد، وهو يعلن التزامه، عبر محاولة "فلسفة صرفة" تسعى إلى توضيح «جوهر مفهوم الحرية»، فإنه يصبح غير قادر على إدراك أن الفروق التحليلية في الظاهر، تقود من جديد وبشكل واقعي إلى مقولات تاريخية مترسبة مفترضة سلفاً من دون علم منه، ويستأنف بذلك الطريق التي سلكها كتاب مثل هوبس، في القرن السابع عشر، من أجل رفض المفهوم الروماني الجديد

للجمهوريين وارثي مكيافيلي⁽⁴⁴⁾ ويتم ذلك بطريقة تسمح معها إعادة البناء للمذهب الجمهوري الجديد لوحدها والمعتمدة على «اللحظة المكيافيلية» بإظهار الافتراضات المنسبة للخطاب الليبرالي "النموذجي"، لدرجة تبدو معها وكأنها تسير من ذاتها من الآن فصاعداً. نحن هنا، مع ذلك، أمام استخفافٍ بحصافة برلين الذي لم يحذر هو نفسه، فقط من منهجية تحليلية⁽⁴⁵⁾ بحثة فقط، بل برع أيضاً في التقاط تفكير متحدد حول التعددية، بما في ذلك لدى مكيافيلي، تفكير يسمح - قبل سكينر نفسه بكثير - بتجنب بعض المآزق في الخطاب الجمهوري الجديد بوجهه المعادي لليبرالية⁽⁴⁶⁾. وهنا كما في الحالات الأخرى عرف برلين تماماً، أن تميزاته الخاصة تفترض ترسيب تاريخي كامل رغم أنه لم يتعود مثل سكينر على التقاليد الرومانية الجديدة. وبالمقابل رجع برلين بشكل واضح إلى التيار «الليبرالي الجديد» مبتعداً عن مفهوم الحرية الذي قدمه توماس هيل غرين (T. H. Green) الذي عرفه بشكل جيد⁽⁴⁷⁾. غير أن هذا التيار الليبرالي الذي بدأه جون ستيوارت ميل (J. S. Mill) وتابعه غرين تحديداً ثم توينبي (Toynbee) وصولاً إلى هوبسوس (Hobhouse) وهوبسون (Hobson) والمروّجون الليبراليون لمفهوم الدولة الراعية (l'État-providence) - والذي تعمق في الولايات المتحدة ضمن نزعة ديوي (Dewey) التعاونية الترابطية- لا يتوافق في شيء مع تعريف الليبرالية الذي قدمه الجمهوريون الجدد. خصوصاً أن تداوله الكثيف، يبين منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى النصف الأول من القرن العشرين، كم علينا أن ندقق في التشخيص الذي اقترحه سكينر والذي يرى أن المفهوم الجمهوري والروماني الجديد يتكامل بالنتيجة برفض هنري سيدغويك⁽⁴⁸⁾ (H. Sidgwick)، ليفسح في المجال لمفهوم فردي ضيق. يعني هذا الأمر أننا نتجاوز بشكل سريع جداً «الليبرالية الجديدة» البريطانية- ومن بعدها الأوروبية⁽⁴⁹⁾ - التي اهتمت دوماً، وبشكل واضح، بالتقاليد الجمهورية. فبالإضافة إلى أن ميل كان يعرف مؤلفات مكيافيلي، فعلينا ألا ننسى بخاصة، الأهمية التي أولاهها «الليبراليون الجدد» للنزعة الجمهورية والوطنية الشاملة لمازيني (Mazzini) بطل الريزورجيمنتو (Risorgimento) (النهضة الإيطالية)، الذي كان تصوره للحرية بعيداً جداً عن التعريف السلبي الذي

ينسب إلى الليبراليين. ويبين عمل الوطني الإيطالي في مجمله - والذي يؤكد، على طريقته، ثبات مشروع مكيافيلي في تحرير إيطاليا⁽⁵⁰⁾ - الأهمية التي يمنحها في الواقع لفكرة الحرية الوطنية باعتبارها شرطاً للحرية الفردية، من دون أن يخوض مع ذلك، في شكل من أشكال المعادة لليبرالية، وبذلك يكون قد فتح الطريق التي سيسلكها الليبراليون الجدد بشكل فعلي⁽⁵¹⁾. ومع ذلك، فلا يتجاهل برلين نفسه هذه التقاليد الجمهورية. ومن اللافت من دون شك، إشارته إلى مازيني في سببه لبعض توجهات ميل⁽⁵²⁾. ويذلل اليوم أيضاً، فلاسفة مثل يثيل تامير (Y. Tamir)، تأثروا بعمق برلين، الجهد لتعريف «القومية الليبرالية» من خلال التوفيق بين الليبرالية والتطلع القومي، راجعين في ذلك، هنا أيضاً، إلى النزعة الوطنية لدى مازيني⁽⁵³⁾. ويمكننا أن نتساءل أيضاً في ما إذا كان سكيتر نفسه قد وقع في الوهم أحياناً بسبب إعادة كتابة تاريخ الليبرالية التي قام بها الليبراليون الجدد لدرجة أنه لم يعد يدرك معها انشقاقها الداخلي⁽⁵⁴⁾.

من الصحيح أن بعض الجمهوريين الجدد قد أدركوا، مثل بتييت، الصعوبة حين أكدوا بشكل عرضي أن حالة توماس هيل غرين لا تتعارض مع صوابية مرجعيتهم، وذلك بمقدار ما لا الفيلسوف البريطاني، في الواقع، عن أنه "جمهوري متخفٍ"⁽⁵⁵⁾. وعلينا على هذا الأساس أن نختم بالقول إن الأمر ينطبق أيضاً على توينبي وهوبهاوس، وجميع «الليبراليين الجدد»، فإذا كانوا جميعاً "جمهوريين متخفين"، فهل تبقى قضية كسوف الفكرة الجمهورية والرومانية الجديدة صالحة؟ لا سيما وأن الليبرالية لم تغير بعض بديهيات النزعة الجمهورية، بل التيار الأوروبي "التضامني" كله، الجمهوري-الاشتراكي "الاشتراكي الليبرالي"⁽⁵⁶⁾. تعتمد اشتراكية روسيلي (Rosselli) الليبرالية، في إيطاليا بخاصة، والتي لا تشبه في شيء «الطريق الثالثة» التي قالها عالم الاجتماع أنتوني جيدنس (A. Giddens)، مفاهيم مازيني الجمهورية-الوطنية العمومية بخاصة- وتقف بعيداً جداً عن فكرة الحرية باعتبارها عدم تدخل. وبشكل أوضح، إن مبدأ الوطنية العمومية يشكل نوعاً من الرفض الدائم لمفهوم الحرية هذا، من خلال تأكيده على أهمية فكرة الواجب، مع الاعتراف بالدور الأساسي للحقوق، كما قال بذلك مؤلف كتاب *واجبات الإنسان*.

وتزداد الصعوبات حدة حين نلاحظ أن الجمهوريين يقدمون في الغالب لوحة مبسطة جداً عن ليبرالية القرن العشرين، متهمين هذه الليبرالية بالدفاع عن فكرة الحرية باعتبارها عدم تدخل فقط، وبالترحيب بمجتمع السوق، وذلك انسجاماً مع النموذج الذي قاله هوبس، وذلك لأننا على سبيل المثال، لا نجد في هذا التوجه في النزعة الليبرالية لريمون آرون الذي يعتبر وفقاً لرأي سكيتّر، أن المساهمة السياسية وحدها تتيح الدفاع الفعلي عن الحريات الفردية. أضف إلى ذلك أن آرون يولي أهمية رئيسة لفكرة الحرية القومية كما هو الحال لدى الجمهوريين الجدد. وربما اعترض معترض بالقول إن آرون نفسه "جمهوري متخف" مثل غرين، ولا شك في أنه يحافظ حقاً على جزء من التقاليد الجمهورية حيّة⁽⁵⁷⁾. لندرس حالة ليبرالي آخر هو لويجي ستورزو (L. Sturzo). لا يقتصر هذا الأخير أيضاً على كيل المديح للحرية السلبية، بل على العكس، إذ يسعى خطابه في كليته إلى إحياء مفهوم المواطنة من خلال تقييم الواجب والروح المدنية والوطنية واحترام القانون⁽⁵⁸⁾. أما نقده لحكم الأحزاب (partitocrazia) فيخضع لمحيات تشبه تلك التي قالها الجمهوريون الجدد: النضال ضد الفساد والزبائنية، تحت اسم البحث عن الخير المشترك⁽⁵⁹⁾.

ونضيف أن من المفارقات أن الكتاب الذين ساهموا بشكل فعال في تجديد "الليبرالية الجديدة" لا يصنفون بسهولة ضمن فئات الجمهوريين الجدد. إن حالة لِيْپْمَان (Lippmann) لافتة في هذا المجال، فبدلاً من أن يمنح هذا الأخير تأييده لمجتمع السوق، عبّر عن قلقه من التخلخل الاجتماعي الناتج من حراك الأفراد ودعم التمسك ببعض الروابط الجماعية⁽⁶⁰⁾. ونجد القلق ذاته لدى ولهم رويكه (W. Röpke) الذي يذكر نقده الجذري للرأسمالية الحديثة وللمجتمع الاستهلاكي بصفحات كتبها أرندت أو مدرسة فرانكفورت. أما لويس مارليو (L. Marlio)، فكان مؤيداً لما يسمى بالليبرالية الاجتماعية التي تقوم على فكرة "الأخوة"⁽⁶¹⁾. نحن بعيدون، هنا أيضاً، بكل تأكيد عن مدح "الأنا المحررة" التي ندّعي، في الغالب، أنها تلخص الليبرالية. ويبدو برتران دُ جوفنل (B. de Jouvenel) من جهته، أنه غير راغب جداً بالترحيب بمجتمع السوق لدرجة أنه يستأنف نقده الليبرالي للسلطة

السياسية من خلال تحليل تجديدي لسلطة أخرى لم تظهر بعد، إنها سلطة التقانة، التي تفتح بذلك تفكيراً يشكل أحد مصادر علم البيئة السياسية⁽⁶²⁾. وفي ما يتعلق بليرالية مايكل پولاني (M. Polanyi) فهو يقف على نقيض المفهوم "الذري" للفرد. وهو يرى - باعتباره فيلسوف "الشخصية" و"الجماعة" الذي سبق كثيراً أصحاب النزعة الجماعية - أنه لا يمكن أن تنتشر الحرية إلا من خلال تعاون الأشخاص، والانتماء الجماعي لبعض المعتقدات، وفقاً لنموذج الجماعة العلمية. لذلك أشار إلى أن «هدف المجتمع الحر هو أولاً أن يكون صالحاً»، أي «بمجموعة من الأفراد الذين يحترمون الحقيقة ويرغبون بالعدالة ويحبون أمثالهم»⁽⁶³⁾. وأكثر من ذلك، يظهر پولاني - وفقاً لبرهان لا يرفضه الجمهوريون الجدد - أن «الفردية الخاصة لا تعدّ دعامة هامة من دعائم الحرية العامة» وأن «المجتمع ليس مجتمعاً مفتوحاً، بل إنه ملتزم جداً بمجموعة ما من المعتقدات»⁽⁶⁴⁾. إن هذا النقد الموجه، بشكل مستتر إلى كارل پوپر (K. Popper) لا ينصف، مع ذلك، مؤلف كتاب *المجتمع المفتوح وأعداؤه*، ولا الفلاسفة من أتباع پوپر الذين لا يؤيدون نزعة فردية صرفة، بل نزعة فردية مؤسسية؛ وهذا أمر مختلف تماماً⁽⁶⁵⁾. ربما رأى الجمهوريون الجدد أن تعريف "الليبرالية" لا ينطبق على هؤلاء الكتاب أيضاً، لذلك ما فائدة صنف لا يبدو أنه يمتلك ملاءمة مثالية أنموذجية؟ مما لا شك فيه أن التعريف الجمهوري الجديد للليبرالية ينطبق على "الليبراليين الجدد" الأكثر راديكالية ولكن لا بد أيضاً هنا من التدقيق. لنأخذ حالة هايك الذي يمكن أن نفكر بحق أنه يقف على طرف نقيض من الجمهوريين الجدد. إذا دققنا بالأمر فسنجد أكثر تعقيداً، فبدل أن يتمسك هايك دوماً بفكرة الحرية باعتبارها عدم تدخل، يمنح دوراً حاسماً للقانون ويؤكد على الأهمية الأساسية لبعض أشكال عدم السيطرة⁽⁶⁶⁾. وتشهد المراجع المعتمدة على التقاليد الجمهورية، بما في ذلك روسو، على هذا الاهتمام. لذلك يمكننا أن نأسف لأن جمهورياً جديداً مثل بتييت لا يشير إلاّ عرضاً إلى حالة هايك، من دون أن يقارنه طويلاً مع موقفه الشخصي كي يبرهن على أصالته⁽⁶⁷⁾. ويبدو هذا النأي بالنفس مؤسفاً للغاية، لأن هايك ينتمي في الغالب أيضاً إلى لوك الذي يربك تفسيره، هنا أيضاً، بتييت بالقدر الذي يبدو معه أن النزعة الدستورية

الليبرالية تضعف عملية إعادة البناء الجمهورية الجديدة كلها لديه⁽⁶⁸⁾. وأخيراً، إن الحالة الوحيدة التي تبدو منسجمة مع تحليل الجمهوريين الجدد هي حالة الفوضويين-الرأسماليين، مثل روثبارد (Rothbard) و"أنصار الحرية المطلقة" والليبراليين الجدد الأكثر جموداً، فالحرية من وجهة نظرهم تعني عدم التدخل الصرف، ومن هنا تأتي انتقاداتهم الموجهة إلى هايك نفسه وليس إلى «الليبراليين الجدد» وحدهم.

إن هذا التذكير المتعلق بما اقترحه هايك في شأن النسب المفهومي لفكرة الحرية - أقله في كتاب *دستور الحرية* - يُظهر أيضاً هشاشة تشخيص الجمهوريين الجدد الذي قام "الليبراليون"، وفقاً له، بإعادة بناء تاريخ الحداثة السياسية مرتكزة على لحظة لوك، إن لم يكن بشكل حصري، فبشكل تفضيلي أقله. ليس الأمر كذلك لدى آرون وروبنه وپولاني ولا نوربرتو بوبيو (N. Bobbio) ولا معظم "الليبراليين"؛ في الحقيقة بمن في ذلك "الليبراليون الجدد" في القرن العشرين. ولا تعتبر حالة لويس هارتز الذي يذكره كثيراً الجمهوريون الجدد باعتباره أنموذجاً للتركيز المغالي على الأفكار الليبرالية، بسيطة بهذا القدر: مؤلف كتاب *التقاليد الليبرالية في أمريكا* لا يتمسك بشكل حصري بتيار لوك، في إعادة قراءته للحداثة السياسية، لأنه يذهب إلى درجة منح النزعة الجمهورية لدى مازيني⁽⁶⁹⁾ أهمية كبرى. أما برلين، فإنه لا ينسب، بطريقة ذات دلالة، أي دور حاسم إلى هوبس، ولا حتى إلى لوك بل إلى مكيافيلي نفسه، وذلك لأن مسألة التعددية موجودة في مركز ليبرالية برلين. ونكشف هذا التوجه لدى مؤلف قريب من طروحات برلين ومتأثر أيضاً بآرث مكيافيلي، إنه ستيوارت هامبشاير (S. Hampshire)⁽⁷⁰⁾.

غير أن بعض ليبراليي القرن العشرين الذين أولوا، هم أيضاً، اهتماماً مميّزاً للدرس المكيافيلي قد ذهبوا أبعد كثيراً في هذا الاتجاه، ملحين بدورهم على موضوع التعددية، التي تأخذ هذه المرة معنى *التعددية النزاعية*. ينطبق هذا الأمر على بعض أكبر الرواد الإيطاليين «للاشتراكية الليبرالية» الذين اجتمعوا حول مجلة *الثورة الليبرالية*، وبخاصة مؤسسها بييرو غوبيتي (P. Gobetti) الذي عرّف الليبرالية من خلال التأكيد على الدور الهام للنزاع الاجتماعي والسياسي، ووجد

بذلك، لدى مكياڤيلي مصدراً خصباً للتفكير حول هذا الموضوع⁽⁷¹⁾. وذلك لأنه حين أكد مكياڤيلي، في كتابه *أحاديث حول العقد الأول من حكم تيت ليف*، أنه من غير المناسب إدانة النزاعات بين النبلاء وعامة الشعب لأنها تشكل مصدراً رئيساً لحرية روما الجمهورية وقوتها، فقد استبق تياراً فكرياً كاملاً في الليبرالية الإيطالية في القرن العشرين، وعالج الدور الإنقاذي للخصومات والخلل في تقدم الحرية والعدالة⁽⁷²⁾ وأغناه. غير أن نَسَب هذه المنظومة الفكرية قد أهمل من قبل الجمهوريين الجدد.

وهناك واقعة لا تقل أهمية مفادها أن الدرس الأكبر لـ *أحاديث مكياڤيلي* قد استثمر ونظم لمصلحة الدفاع عن اللغظ والانقسامات التي تميز الجمهوريات الحرة⁽⁷³⁾، ليس مع قدوم الليبرالية الإيطالية الحديثة فقط، بل منذ القرن الثامن عشر، ومع قدوم ليبرالية مونتسكيو التعددية. ويشرح فيتوريو ألفيري (V. Alfieri) وهو يحلل هذه الفكرة، من خلال العودة إلى مكياڤيلي ومونتسكيو، وذلك في كتابه *في الطغيان (De la tyrannie)* أن النزاع بين النبلاء والشعب كان عاملاً حرياً وخيراً مشتركاً⁽⁷⁴⁾. لقد نقل ليبرالي مثل غوبيتي، وقارئ كبير لألفيري، إلى الليبرالية الإيطالية، مثل هذه الرؤية النزاعية الليبرالية. ويجب ألا ينسينا، تعرض هذه العودة "الليبرالية" لبعض الإهمال الكبير أحياناً، أهمية هذه المنظومة الفكرية التي علينا العودة إليها. ولكن حين يتساءل الجمهوريون الجدد، بطريقة ذات دلالة، عن العلاقة بين مونتسكيو ومكياڤيلي، فإنهم يفعلون ذلك من أجل الإشارة إلى مسألة أخرى: إنها ديمومة موضوعة "الفضيلة" في الحديث عن الشروح في كتاب *روح الشرائع (De l'Esprit des lois)* والمكرسة للتقاليد الجمهورية التي نجد بعض مظاهرها ضمن منظور آخر، في صلب النزعة الجمهورية لدى روسو⁽⁷⁵⁾.

نرتكب خطأ منطقياً إذا اعتقدنا أن الجمهوريين الجدد لا يعرفون شيئاً عن فكرة النزاع لدى مكياڤيلي. إذ يعترف بوكوك وسكينر، في الواقع، كل بطريقته، بالطابع التجديدي لهذا التفكير المكياڤيلي حول النزاع بين الكبار والشعب الذي ينأى به عن خطاب المذهب الجمهوري التقليدي الذي يحفظ مكانة هامة للاستقرار والوفاق. غير أنه وانطلاقاً من هذه الملاحظة، نجد أنفسنا مجبرين على

الإقرار بأن بوكوك وسكينر وغيرهما من الجمهوريين الجدد، لم يستخلصوا نتيجة حقيقية، سواء أكان ذلك على المستوى التاريخي أم المعياري. فإذا اعتُبر مكيافيلي مجدّداً في هذا المجال، فلماذا لم يمنح الجمهوريون الجدد، في النهاية، سوى أهمية محدودة لموضوعه النزاع هذه، إذا اعترفوا بهذه الأهمية أصلاً؟ وما الغاية من تعنتهم في تدوين فكر مكيافيلي أو إغراقه أحياناً، في تيار أكثر اتساعاً يشمل مؤلفين تعتبر أفكارهم معادية لأي شكل من أشكال فكرة النزاع؟ وهكذا يغامر الجمهوريون الجدد في النيل من أصالة مكيافيلي، بالرغم من الجهود التي يبذلونها، والتي نوه بها مفسّر مثل أغوستين رونوديه (A. Renaudet) منذ أكثر من نصف قرن.

وتزداد الصعوبة بسبب المرجعية الجمهورية الجديدة التي لا يبدو أنها قادرة على توضيح الطريقة التي تطورت بها حركات التحرر في القرنين التاسع عشر والعشرين، بخاصة نضال المنظمات العمالية من أجل الحصول على حقوقها، وكذلك المعارك التي أثارها «الحركات الاجتماعية الجديدة». ليس هذا النضال سهل الفهم من وجهة نظر بوكوك، فهو لا ينسجم مع النموذج الإطار السياسي لأنه يدفع الفضاء القانوني للقيام بدور رئيس أقلّه. ويرى سكينر أن الأمور ليست بهذه البساطة، وذلك لأن تصوره للحرية لا يسمح بتوضيح النضالات من أجل انتزاع الاعتراف والتي تستمر في تحريك تاريخ المجتمعات الحديثة.

وبالمقابل، في فرنسا، يمكننا تقدير أن القناعة التي تقف وراء هذا المؤلف تستند إلى أن ثمة لحظة مكيافيلية خاصة أكثر خصوبة لهذه الأسباب - سواء أكان ذلك على المستوى التاريخي أم المعياري - وأنها تفتح، اليوم أيضاً، آفاقاً تستحق الدراسة. وجد هذا التيار الفرنسي، في الواقع، في فكرة النزاع لدى مكيافيلي، مصدر تفكير مميّزاً يسمح بتوضيح مكانة "النفقة" (disunione) في الحياة السياسية للمجتمعات الحديثة. ومع ذلك، إن هذه الحساسية الخاصة لمسألة الصراع قد ازدادت قوة من دون شك، من خلال أهمية هذه الفكرة في أعمال ماركس نفسه، الذي لم يتوقف عن سير ظاهرة الصراع الطبقي، مع التأثير الذي عرفناه على جزء هام من الفكر السياسي الفرنسي، بخاصة على فينومينولوجيا

سارتر (Sartre) وموريس ميرلو - پونتي (M. Merleau-Ponty) وكلود لوفور (C. Lefort)، وعلى المؤلفين الليبراليين أيضاً الذين بنوا أفكارهم من خلال نقاش نقدي دائم مع الماركسية، مثل آرون. غير أن إحدى فرضياتنا تقوم اليوم على أن العودة الفرنسية إلى ميكافيلي قد حملت، بكل تأكيد، أجوبة عن الصعوبات وعن مآزق الماركسية، من دون أن تقطع صلتها، مع ذلك، نهائياً، مع بعض الاهتمامات التي تركز عليها الماركسية. لقد فتح التجديد الميكافيلي، المرتكز إلى مسألة الصراع الاجتماعي، وإمكانية وصوله إلى غاية مؤسساتية، الطريق لعودة أصيلة للفلسفة السياسية، عودة ليست ذات نزعة "ما بعد ماركسية" - على طريقة علم الاجتماع النقدي لواحد مثل بورديو - ولا "معادية للماركسية" - كما هي الحال، إلى حد بعيد، بالنسبة إلى الفكر الحالي - تحتفظ من الماركسية بموضوعة النزاع أقله، فيما ترفض بشدة الفرضيات الأساسية لفكر ماركس ومتطلباته التي يعتبر، وبشكل تصاعدي، حاجزاً أمام إعادة اكتشاف السياسية.

من المهم أن نسلط الضوء أيضاً على أهمية هذا التيار الميكافيلي الفرنسي الذي لم يلفت تناسقه وأبعاده، حتى اليوم، فلاسفة الفكر ومؤرخيه، حتى في فرنسا. لقد أهملت، بشكل ممنهج، المساهمة الحاسمة لآرون في التجديد الميكافيلي. فكل شيء يجري وكأن ليبرالية آرون ليست سوى الامتداد العصري لتقاليد ليبرالية فرنسية محضة تقوم على التوازن والاعتدال وفقاً لرؤية جامدة لأعمال مونتسكيو وتوكفيل. ومع ذلك، إننا نجد في مركز تفكير آرون حول الديمقراطية - موضوعة النزاع و"الشغب" - تعبيراً غالباً ما استخدمه، في عودة بديهية إلى مصطلح (tumulti) الذي تحدث عنه ميكافيلي، كما لم يتم أيضاً وبشكل كامل سير أبعاد القراءة الفينومينولوجية التي قام بها ميرلو - پونتي لميكافيلي، مما لم يسمح حتى الآن بتحديد علاقتها الوطيدة مع القراءة التي طورها لوفور لاحقاً في كتابه *تأثير العمل*. لذلك لم يصنف ميكافيلي حتى يومنا هذا.

إن اللحظة الميكافيلية الفرنسية التي أهملت تماماً في فرنسا، لم تعد تجد مكاناً لها في النقاش الدولي، وتجدر الإشارة، من جهة أخرى، إلى أنه عندما يجري البحث، بخاصة في ألمانيا، في التفكير حول قضية النزاع في الفلسفة الفرنسية، فإن

الأنظار تتجه نحو فرانسوا ليوتار (F. Lyotard) وميشال فوكو (M. Foucault). لذلك من اللافت أن يطور أكسل هونيث (A. Honneth) مناقشته لأفكار هابرماس محاولاً تحديد صلاحية مقارنة فوكو للنزاع، لكن من دون أن يعير أي انتباه لفكر لوفور⁽⁷⁶⁾. وتدعونا هذه الرؤية أيضاً إلى توضيح أن التيارات الفرنسية المعروفة اليوم أكثر، في الجماعة الدولية، لم تر في فكر مكيافيلي عملاً يمكن لتفسيره أن يجدد بعمق الفكر السياسي. ويحمل موقف أحد أتباع فوكو، پول فين (P. Veyne)، في منتصف السبعينيات، دلالة في هذا المجال. فبدل أن يرى فين في فكر مكيافيلي، بخاصة كتاب *الأمر*، طريقاً مميزة من أجل إعادة التفكير في السياسة، فإنه يلح على العكس من ذلك، على ضرورة الانسحاق وراء قراءة أكثر ليبرالية ممكنة: «لأنه قد حان الوقت، في النهاية، كما يقول ميشيل فوكو، كي نفهم حرفياً، ما أراد مكيافيلي أن يقوله لنا عن غايته: أن يعلم أميراً المحافظة على ملك استولى عليه أو ورثه، ويتمسك به: لا شيء أكثر»⁽⁷⁷⁾. لم يكن السكرتير الفلورنساوي إذاً لا أخلاقياً ولا مفكراً "ثاقباً" بل وبكل بساطة كان "بطلاً للفكر الجاد، البعيد عن إثارة الأسئلة وعن الفلسفة، والجاهز دوماً كي يصبح فكراً أكاديمياً جديداً لدرجة لا نستطيع معها أن نربط بين مكيافيلي وهوبس، مثلاً، ليس بسبب اختلافاتهما المحتملة، بل لغياب العلاقة بين «غياب الفكر والفكر»⁽⁷⁸⁾. ويكشف هذا التحليل البعيد عن روح المفارقة وعن نزعة وضعية تُنسب بصمت إلى فوكو في *حفريات المعرفة*⁽⁷⁹⁾، وبالنسبة إلى جزء كبير من الفكر الفرنسي-الأكثر وضوحاً بالطبع- إن التفكير حول مكيافيلي لا يقدم أي شيء حاسم تقريباً. ويشذ لويس ألتوسير (L. Althusser) عن هذا الوضع بشكل واضح، فقد رأى هذا الفيلسوف في مكيافيلي مفكراً رئيساً للحدثة، لدرجة قوله إنه قد ذهب إلى أبعد مما ذهب إليه ماركس⁽⁸⁰⁾. وعلينا مع ذلك ألا نغفل عن أن إعادة تقويم مكيافيلي، رغم تأخرها، والتي جرت تحت تأثير غرامشي ولوفور⁽⁸¹⁾ الجزئي والمعلن، لم تكن تسعى، بالطبع إلى إعادة النظر بشكل جذري بالماركسية، من أجل اكتشاف جوهر الشأن السياسي تحت ضوء جديد تماماً.

لقد عبر إذاً فلاسفة ثلاثة عن اللحظة المكيافيلية الفرنسية، كما نفهمها نحن

هنا، بشكل رئيس: آرون وميرلو - بونتي ولوفور⁽⁸²⁾. وبعيداً عن التقليل من أهمية ما يميّز فرضيات هؤلاء الكتاب ومتطلبات خيارات كل منهم، فقد بذلوا الجهد - كل على طريقته - من أجل إظهار صعوبات الماركسية التي لا تقهر، وعدم قدرتها بخاصة على القيام بالمسائل المتعلقة بالفلسفة السياسية، وذلك من خلال إعادة قراءة مكيافيلي باعتباره مفكر الحرية السياسية الذي يخصص للنزاع دوراً حاسماً. إن إعادة اكتشاف مكيافيلي هذه قد تشكلت تدريجياً في فرنسا عبر قطيعة مع التصورات التقليدية، مما يجعل من مؤلف الأمير مفكراً كلياً أو شخصية شريرة أقله، ومسؤولة عن الطفرة التاريخية المشؤومة، وذلك بسبب إخضاعه المتطلبات الأخلاقية جميعاً لمتطلبات السياسة وحدها.

إن المطلوب هنا، في العموم، إعادة صوغ أصل هذه اللحظة المكيافيلية لدراسة أبعادها من خلال إظهار كيف يمكن أن تساعد اليوم أيضاً، في الجمع بين التفكير حول النزاع والتساؤل حول الخير المشترك. وبذلك يُفتح أفقٌ يرفض كل مشروع يعتمد النظرة الاجتماعية ويقوم على أولوية العامل الاقتصادي على العامل الاجتماعي، غير أنه يقف أيضاً بعيداً عن الفلسفات السياسية والاجتماعية. سوف نتفحص إذاً من خلال إعادة قراءة أعمال مكيافيلي هذه مصادر فكر يرفض المقاربات الواقعية الناقصة للسياسة، والتي تعتبر نقطة تفاهم وحيداً أو أولى، من دون أن تنحرف، مع ذلك، نحو مديح ما بعد حدثي "للتعدد" و"الاختلاف"، يستبعد الأفكار الكونية لعصر التنوير. إننا نرى أن اللحظة المكيافيلية الفرنسية تدعو إلى التفكير في شروط الربط بين النزاع والتوافق ضمن منظور يحقق الأفكار الكونية للحدث الديمقراطية. ونعني بذلك تجنب تجاوز بعض حدود «الديمقراطية التشاورية» التي تميل من خلال الإلحاح على دور التشاور العام، إلى إغفال النزاعات والصيغ المحسوسة للالتزام المدني⁽⁸³⁾، أو إلى التقليل من قيمتها أقله، وكذلك تفعل مع مازق «سياسة الاختلاف»⁽⁸⁴⁾، التي يبدو معها نقد الأفكار الجمهورية غير مهمّ بشكل كاف بتحقيق الخير المشترك، متذرّعاً باحترام متطلبات الهوية.

الواقعية المكيافيلية

النزاع في قلب الشأن السياسي

هل كان مكيافيلي رائد المكيافيلية الحديثة؟

المسألة المكيافيلية

في مواجهة صعود التيارات الشمولية

لم تلفت مساهمة آرون في التجديد المكيافيلي الفرنسي، بأهميتها وأبعادها، الأنظار بشكل أساسي. ومع ذلك، فلولا أن الحرب قد حالت دون ذلك، لكان آرون قد نشر كتابه حول مكيافيلي بكل تأكيد⁽¹⁾. كان الهدف من هذه الدراسة - وهي الأولى من نوعها التي تقدم تفسيراً عاماً للمذهب الشمولي - الربط بين فكر مكيافيلي وعلم اجتماع فيلفريدو باريتو (V. Pareto) والمبادئ الأساسية «لأنظمة الطغيان الحديثة». من المهم، من أجل توضيح أبعاد هذا التفسير، أن نذكر أن مسألة المكيافيلية بقيت مركزية خلال النصف الأول من القرن العشرين، ولم يكن الشاب آرون، في الواقع، الفيلسوف الوحيد في فرنسا الذي تساءل عن العلاقة بين فكر مكيافيلي وممارسات الأنظمة السلطوية والشمولية التي فرضت نفسها خلال فترة ما بين الحربين. وكثيراً ما كان المراقبون الذين ظنوا أن باستطاعتهم تفسير التغيرات السياسية في أوروبا، من خلال العودة إلى تعليمات كتاب الأمير، سواء أكان هؤلاء المراقبون مختصين بمكيافيلي أم غير مختصين به، وسواء أحكموا بإيجابية أم بعدم إيجابية على صعود الفاشية أو النازية.

لم تركز جميع التفسيرات حول مكياڤلي، في تلك الفترة، بالطبع على مسألة المكياڤليّة وأنظمة الطغيان الحديثة. ويكفي أن نذكر بالقراءة التي اقترحها ألكساندر كوري (A. Koyré) عام 1930، لنقتنع بذلك. يصنف هذا الكتاب أعمال مكياڤلي ضمن تاريخ الفكر العلمي الحديث، كما يتصوره، بعيداً عن أن يوحى بأي تشابه بين مواقف السكرتير الفلورنساوي والممارسات الفاشية الإيطالية. من هنا جاء حكمه الذي يعبر عن الإعجاب «كم هو جميل خطاب المنهج المستتر في أعمال السكرتير الفلورنساوي»⁽²⁾. أضف إلى ذلك اهتمام بعض المؤلفين بالتمييز بين مكياڤليّة مكياڤلي ومكياڤليّة الطغيان الحديث، في دراستهم للمسألة المكياڤليّة. ذلك كان حال جوليان بندا (J. Benda) في كتابه *خيانة الرهبان*⁽³⁾ الذي يشير إلى أن «الرهبنة» القومية القائمة في أوروبا ظاهرة جديدة لا تشبه المكياڤليّة الكلاسيكية. ويمثل ما يسميه بندا «تعظيم الشأن السياسي» في حديثه عن شارل موراس (Ch. Maurras) في الواقع، مرحلة غير مسبوقة في تاريخ الواقعية السياسية: يمكننا أن نلاحظ أيضاً هذا التحديد لدى الرهبان بالقول إن البشر لم يسمعوا، حتى يومنا هذا، سوى موقفين في ما يخص العلاقة بين السياسة والأخلاق، الأول لأفلاطون الذي كان يقول «الأخلاق تحكم السياسة» والآخر لمكياڤلي الذي قال: «لا علاقة للسياسة بالأخلاق» ويسمعون اليوم رأياً ثالثاً؛ إذ يقول موراس: «السياسة تحكم الأخلاق»⁽⁴⁾. ونجد هنا، باختصار، قطيعة حاسمة بين مكياڤلي والرهبنة «السياسة الحديثة». ومن هنا يأتي أيضاً التمييز الذي قدمه بندا بين «دين القسوة»، كما رأيناه لدى نيتشه، والدفاع عن القسوة لدى مؤلف الأمير، الذي لم يعتبرها، مع ذلك، «دليلاً على ثقافة عالية»⁽⁵⁾.

يُميز بندا أيضاً بوضوح بين فكر مكياڤلي والقراءة التي قام بها فيخته له لاحقاً⁽⁶⁾. لذلك، قام بندا بترصيع اقتباس من نص لفيخته مكرّس للسكرتير الفلورنساوي⁽⁷⁾ بكلمات ساخرة: «نرى هنا تجاوز مكياڤلي»⁽⁸⁾.

يجب أن نذكر هنا، بشكل خاص، ظهور دراستين موسعتين في تلك الفترة، كان لهما أثر دائم على الدراسات المكياڤليّة: دراسة پيار مسنار (P. Mesnard) التي تركت أثراً لدى سكيتر في موضوع المذهب الجمهوري ودراسة رونوديه⁽⁹⁾.

ويبقى أن مكيافيلي يظهر، في حالات كثيرة، وكأنه الرائد الحقيقي للفاشية والنازية، وتلك هي الفكرة التي يعرضها كل من لويس ده فيلفوس⁽¹⁰⁾ (L. de Villefosse) وهنري بير (H. Berr)⁽¹¹⁾ ومارك دوكونسي (M. Duconseil)⁽¹²⁾، تحت صيغ مختلفة، انطلاقاً من خيارات سياسية غير ملائمة في الغالب.

ويبدو هذا النوع من القراءة لمؤلف الأمير مقبولاً في تلك الحقبة، لدرجة أن موسوليني نفسه قد نشر في إيطاليا عام 1924، وفي فرنسا عام 1929 نصاً يمتدح مكيافيلي والمكيافيلية⁽¹³⁾. لقد رفض الفيلسوف الليبرالي بيرو غوييتي في إيطاليا، هذا النص الذي نشر في صحيفة جيرارشيا (Gerarchia)، وبرهن من خلال اقتباسات من الأحاديث على الطابع الخادع والشامل لقراءة موسوليني⁽¹⁴⁾. يلح غوييتي، من جانبه، على مذهب مكيافيلي الجمهوري وخياراته الشعبية ودفاعه عن خصوبة النزاع، فاتحاً بذلك أمام الليبرالية السياسية أحد الأبواب الواعدة جداً كي تضم إليها جزءاً من الإرث المكيافيلي. وبالمقابل، لا يبدو أن فرنسا قد أنجبت شخصاً بمستوى غوييتي: فقد أخذ التفسير الذي قدمه موسوليني عن مكيافيلي على محمل الجد. حتى أن الكتاب المعروفين مثل سيمون فيل (S. Weil) قد وقعوا في الفخ: لقد قرأ موسوليني مكيافيلي وحلله وفهمه، ولم يبق عليه سوى أن يطبقه. ولم يألف ليون بلوم (Léon Blum) بالطبع مكيافيلي، فيزيائي السلطة هذا. فلربما منعه هذا النوع من التأهيل عن إهمال بعض المبادئ الملائمة التي تقوم في ممارسة السلطة بما يقوم به السلم الموسيقي بالنسبة إلى الغناء⁽¹⁵⁾.

لم يظن الكتاب المتواضعون وحدهم أنهم قادرون على كشف روابط بين ممارسات الفاشية ودروس الأمير، فقد شاركهم في هذه القراءة لمكيافيلي المع المفكرين في زمانهم مثل فيل، أو كما سري ماريتان وآرون أيضاً.

ومع ذلك، علينا أن نولي بعض الشروح التي تعود إلى تلك الفترة اهتماماً خاصاً. وينطبق هذا الأمر على كتاب منسي اليوم ألفه شارل بونوا (Ch. Benoist): *المكيافيلية قبل مكيافيلي وبعده*⁽¹⁶⁾. يمثل هذا الكتاب، الذي استغرق تأليفه ثلاثين عاماً تقريباً - من 1907 إلى 1936 - أحد أهم المراجع التي كرس لمكيافيلي في فترة ما بين الحربين العالميتين. ولكن كان يتوجب إيلاء كتاب

بونوا هذا القدر من الأهمية فيعود السبب أيضاً إلى أنه يشكل أحد المصادر الأكثر وضوحاً للفكر الذي طوره آرون مع ذلك، وكذلك ماريتان، حول مسألة ميكافيلية ميكافيلي. وكان الكاتب قد نبّه منذ الجزء الأول من ثلاثيته إلى أن عمله لن يتناول مؤلف ميكافيلي ذاته بل الميكافيلية: ميكافيلية ميكافيلي وميكافيلية بعض تلاميذه ("الميكافيليون")، وميكافيلية "المعادين للميكافيليين"، وأخيراً الميكافيلية التي يعبر عنها «أناس لم يقرؤوا سطرًا واحدًا مما كتبه ميكافيلي». كانت الميكافيلية الأولى موضع الاهتمام الحقيقي لبونوا، أي «ميكافيلية ميكافيلي في مصادرها المباشرة، أي في ميكافيلي نفسه»⁽¹⁷⁾. إن هذه العبارة الأخيرة خادعة، لأن بونوا حين يتحدث هكذا عن ميكافيلية ميكافيلي، لا يقصد الإشارة إلى مذهب أصيل بكتليته، وهنا تكمن المفارقة. ليس ميكافيلي في الواقع من مؤسسي "مذهب" أو "مدرسة" بالمعنى الدقيق للكلمة. يمكن للميكافيلية ميكافيلي أن تعرف في الحقيقة، بالطريقة التي عرفت بها «النزعة الوضعية»، أي باعتبارها «منهجاً». وتوضح الإشارة إلى النزعة الوضعية أقوال بونوا بشموليتها. وكما أن كونت (Comte) يعرف العصر الوضعي، في الواقع، من خلال الرفض الجذري لكل الشروح القائمة على الكيانات الميتافيزيقية، ومن خلال الأولوية الممنوحة أخيراً للتوصيف البحث للظواهر⁽¹⁸⁾، كذلك، قد أهمل ميكافيلي كل مضمون عقائدي، واقتصر على تسجيل الوقائع: «لا نعرف كاتباً كان أكثر "موضوعية" وأكثر تمسكاً بالملاحظة و"التسجيل" من مؤلف كتاب الأمير وأحاديث حول العقد الأول من حكم تيت ليقف على الرغم من توق خياله. فهو لم يخترع عناصر سياسته أكثر مما يخترع عالم الرياضيات معطيات المسألة التي يحلها، أو يخترع عالم الكيمياء عناصر الجسم الذي يحلله. وهو يحلل مثل الكيميائي، ومثله يسجل ويصوغ»⁽¹⁹⁾. وإذا كان بونوا مهتماً بشكل أساسي بميكافيلية ميكافيلي، فلا يعني هذا إذاً على الإطلاق أن على دراسته أن تركز حصرياً على أعماله نفسها. وبالقدر الذي يعتبر فيه ميكافيلي «عيناً صافية جداً مثل مرآة تعكس كل شيء ولا تشوه شيئاً»، من المناسب أن نركز الاستقصاء على الوقائع التي تعكسها بأمانة، أي على الميكافيلية الدائمة. ذلك هو بدقة، موضوع الجزء الأول من ثلاثية بونوا الذي يحمل عنوان ما قبل

مكيافيلّي: يسعى الكاتب إلى إظهار ما يسميه «مواد المكيافيلّيّة». وبكلمات أخرى، إنه يسعى إلى أن يحدد بوضوح «ما راكمه الزمن وما يحتويه الحاضر من مكيافيلّيّة معلقة»، في اللحظة نفسها التي ظهر فيها مكيافيلّي أخيراً. لا يعتري الخاتمة النهائية لهذا التحليل أي غموض، لقد اكتفى مكيافيلّي بإعادة ترتيب وقائع عصر بالدقة الممكنة، بدل أن ينقل مضموناً فلسفياً مهماً كان نوعه: «لم تخرج المكيافيلّيّة من رحم الأرسطية، بل من المحيط والزمان. ولقد رأيناها تخطو خطواتها الأولى مع موزو (Muzzo) وفرانسيسكو سفورزا (F. Sforza) وبيانكا ماريا فيسكونتي (Bianca Maria Visconti) وجيرولامو رياريو (Girolamo Riario)، كما نمت مع كاترينا سفورزا (Caterina Sforza)؛ وأدركت نهاية غوها مع سيزار بورجيا (César Borgia). لقد رأيناها في الأمير وفي المؤامرات والطغيان وقاتل الطاغية. الفرد الحر المتفلت من أي قيد، المندفع تحت ضربات القدر، والوحش المرن والرائع، تارة ذئب وتارة أسد، المتربص بفريسة دوماً أو المنقض عليها، هذا الإنسان الفائق ولد حين أُلّف هذا الكتاب». وباختصار، إذا وافقنا⁽²⁰⁾ بونوا الرأي، لم يظهر مكيافيلّي إلا لأن ظهور المكيافيلّيّة قد حل موعده⁽²¹⁾. وتشير التلميحات الأخيرة لـ «الوحش المرن والرائع» و«الإنسان الفائق» إلى أن بونوا لا يصنّف فقط ضمن تطور التقاليد الوضعية الفرنسية. ونكشف في الواقع في بلاغة نيتشه بالغة الفظاظه هذه، إحدى الخصائص الرئيسة لخطاب اليمين المتطرف في النصف الأول من القرن العشرين. في الواقع، يشكل الكتاب في مجموعه نشيداً من أجل مكيافيلّيّة «الرجال العظام»، نابليون وكافور وبسمارك بخاصة⁽²²⁾. كما يحمل نقداً - ضمناً جداً - للأفكار الديمقراطية. مع ذلك، يجب أن نشير إلى أن بونوا يرجع في الجزء الأخير من ثلاثيته، وبطريقة مادية، إلى مقدمة موسوليني لكتاب الأمير. وفيها، يعلن اللوتشي، «هذا المعلم الحديث في العمل»، أن «مذهب مكيافيلّي أكثر حيويّة اليوم مما كان عليه منذ أربعة قرون، لأنه إذا كانت الأشكال الخارجية لوجودنا قد تغيرت جداً، فإننا لا نلاحظ تغييرات جذرية في فكر الأفراد والشعوب»⁽²³⁾. يعتقد بونوا أنه بذلك يقدم تأكيداً نهائياً لفكرته العامة بثبات المكيافيلّيّة باعتبارها منهجاً وليست مذهباً. أضف إلى ذلك أنه يعلن بوضوح

تقاطعته مع ما يسمى «العبقريّة الإيطاليّة» وكذلك كرهه للديمقراطيّة. يوضح بونوا، في الواقع، أن مكياڤيلّي كما غيشاردان، قد أوحى إليه «بالقرف من السياسة التي يديرها أناس لا يعرفون شيئاً عنها، وبالاحتقار لرجال السياسة الذين يصرون على ممارستها من دون أن يعرفوا ما يقولون وما يفعلون»⁽²⁴⁾. لقد اكتشف أيضاً، وهو يسير على خطى مكياڤيلّي وغيشاردان، «قبح الأشياء التي تخلص منها زمانهما - مثل عبثيّة الاقتراع العام وجنون العدد - والتي تسمم دولنا جميعاً، تلك الشرور المستوطنة أحياناً، والوبائيّة أحياناً أخرى، والتي تبقى فيها الدولة ممزقة بين جميع درجات الديمقراطيّة وجميع أشكال الديماغوجيّة»⁽²⁵⁾. بذلك تحدّد خلاصة ثلاثيّة بونوا، المكرسة لمكياڤيلّي أيضاً، غاية مساره السياسي الشخصي الذي عليه أن يقوده تدريجياً إلى رفض غريزي للاستفتاء العام والأفكار الديمقراطيّة⁽²⁶⁾.

تسمح دراسة كتاب بونوا بإظهار أبعاد قراءة آرون لمكياڤيلّي، فقد تأثر تحليل آرون بعمق، وبشكل مباشر، أو غير مباشر⁽²⁷⁾، بالتحليل الذي قدمه كتاب *المكياڤيلّيّة قبل مكياڤيلّي، ومعه، وبعده*. يُبرز بونوا أولاً، وقبل آرون - كي يرضي نفسه بذلك - الروابط العميقة بين الممارسة الفاشيّة ومذهب مكياڤيلّي، ولقد رأينا أنه لم يكن الوحيد في ذلك. فقد خصص ألبر شيرل نفسه (A. Chérel) مثلاً، في كتابه *فكر مكياڤيلّي في فرنسا* عام 1935، دراسة للمسألة المكياڤيلّيّة، وقدم بالطريقة نفسها، حكماً يعبر عن الإعجاب بمكياڤيلّيّة موسوليني: «لقد لفتتنا حصافة المقدمة التي كتبها الديكتاتور الإيطالي في بداية إعادة الطّباعة الفخمة للأمر: يقول موسوليني في العموم: «لم يقع مكياڤيلّي في الوهم الذي يرى الطّبعة البشريّة طيبة، فقد كان حكيماً، وكم كانت الفاشيّة كذلك فأمنت بذلك، وتصرفت بمقتضاه»⁽²⁸⁾. غير أنه يمكن الاعتقاد أن آرون وجد في كتاب بونوا وليس في كتاب شيرل، مصدراً مميّزاً للتفكير. وعلينا أن نشير، في الواقع، إلى أن بونوا يلتقي في قراءته لمكياڤيلّي، بوضوح مع علم اجتماع پاريتو⁽²⁹⁾. ومن جهة أخرى، يُعد بونوا خبيراً جيداً بتقاليد علم الاجتماع القائمة على مفهوم النخب، باعتبارّه من المطلعين على أعمال موزيّي أوستروغورسكي (M. Ostrogorski)

الذي استيق - في بعض المجالات كما سنرى ذلك لاحقاً - بعض أوجه نظرية باريتو⁽³⁰⁾. والحال هذه، إن هذا الربط بين بونوا وباريتو جدير بالاهتمام، في ما يخص موضوعنا. وبالفعل، يظهر شرح آرون التقارب بين الإشكالية التي عرضها مكيافيلي وتلك التي كان على عالم الاجتماع الإيطالي أن يبحث فيها. بخاصة وأنا نجد في كتاب بونوا ثنائية واضحة توحى، وفقاً لآرون، بإحدى خصائص علم اجتماع باريتو، ومن بعده بخصائص أنظمة الطغيان الحديثة؛ أي نزعة وضعية جامدة من جهة، ونزعة نيتشوية جذرية من جهة أخرى. سيسعى آرون بشكل أساسي إلى إظهار **التكامل** الذي يوحد، بشكل ضمني، النزعة الوضعية الأكثر علمية والمذهب النيتشوي الأكثر فوضوية. وبكلمات أخرى، نحن هنا بصدد إظهار أن المذهب العدمي المطلق لأنظمة الطغيان الحديثة ليس سوى الوجه الآخر لمفهوم علموي للمجتمع والتاريخ.

مكيافيلية مكيافيلي

مهما كان التأثير الذي مارسه بونوا، فلن يكون باستطاعتنا أن نفهم الأهمية التي منحها آرون للفكر المكيافيلي، إلا إذا رجعنا أولاً للفرضيات التي عرضها إيلي هاليقي (É. Halévy) في محاضراته الشهيرة التي حملت عنوان «عصر أنظمة الطغيان»⁽³¹⁾. كل شيء يحدث في الواقع، وكان آرون قد حاول في كتابه **أبحاث حول المكيافيلية** الحديثة متابعة تحليلات هاليقي وتحويرها. فقد تبنى آرون مفهوم الطغيان الذي اقترحه هاليقي لتوصيف الأنظمة الشمولية الصاعدة، ولكنه اتجه نحو تفسير آخر، واضعاً في مركز تفكيره مفهوم «المكيافيلية الحديثة»⁽³²⁾. لم يخفَ على آرون بالطبع أنه يطور تفسيراً جريئاً من خلال إظرية مفاجأة، ومع ذلك هي جوهرية. إن الاشتراكية القومية أو الشيوعية ليست مكيافيلية من وجهة نظرنا، فقط لأنها تمكر وتخدع وتكذب ولا تحترم كلامها وتغتال. إذا كانت مكيافيلية هتلر تقصر على استخدام هذه الوسائل، فليس من المفيد أن نضيع الكثير من الوقت في دراستها. وذلك لأن وسائل مكيافيلية بهذا الوضوح لا تهمنا، إلا باعتبارها مؤشرات لمكيافيلية أعمق في الواقع: أي تصور ما للبشر والسياسة»⁽³³⁾.

إذاً ليس المطلوب توصيف آلية الكذب هذه أو تلك، بل تحليل «الأنظمة المنهجية»، وفقاً للأنموذج الذي تتصور المذاهب المكيافليّة الحديثة على أساسه حكم الشعوب وتحققه⁽³⁴⁾.

مشروع «علم» سياسي

متحرر من كل غاية معيارية

لا يمكن اعتبار مكيافليّة مكيافلي سيرة قديس فقط، فأرون يوضح بالمقابل الأسباب التي تجعل من السكرتير الفلورنساوي مفكراً مكيافليّاً. غير أننا نشترط أن نفهم هذه اللفظة المعيبة بعد تخليصها من أبعادها النفسية أو الأخلاقية كافة. وذلك لأنه من المؤكد أن مكيافلي لم يكن قط المبشر بمذهب شرير، ولا المدافع عن أسوأ أنظمة الطغيان. إننا نعرف أن الاعتراض الكلاسيكي على الفكرة التي تجعل من مكيافلي منظراً مكيافليّاً إنما يقوم على التأكيد، بشكل دقيق، على أنه ليس باستطاعة هذه الفكرة تفسير المديح الموجه إلى الجمهورية والمتضمن في صلب كتاب أحاديث حول العقد الأول من حكم تيت ليف.

ويشير آرون، من خلال استباق هذا النوع من الاعتراض، إلى أن «نصائح كتاب الأمير تنسجم مع اعتبارات الأحاديث في إطار نوع من الفلسفة السياسية»⁽³⁵⁾. إن المطلوب هنا، في العموم، بيان الانسجام بين المؤلفين وكشف الفلسفة المشتركة بينهما. يجب أن نفهم كتاب الأمير، الذي من الممكن مقارنته - في هذا الجانب - مع شروح الكتاب الخامس من سياسية أرسطو المكرّس للوسائل الواجب استخدامها للمحافظة على أنظمة الحكم الفاسدة، باعتباره بكل بساطة نوعاً من التعبير عن آلية الطغيان⁽³⁶⁾، وليس دفاعاً عن الطغاة. نحن هنا إذاً أمام وجهة نظر عملية أساساً، لا تعبر على الإطلاق عن الأماني الشخصية للفلورنساوي. وأفضل من ذلك، كل شيء يسمح بالتفكير بأن تعاطف مكيافلي إنما يتجه إلى نظام الحرية الذي تمثله الجمهورية الرومانية بدل أن يتوجه إلى حكم الطغيان: سواء أكان مكيافلي من ذوي النزعة الإنسانية أم فيلسوفاً، فهو يتمنى بالطبع أن تحظى الأمم بدستور متوازن وبمواطنين فضلاء يضعون حداً لقسوة الأمير

الذي لا يعرف التقاليد ولا الشرعية⁽³⁷⁾. يبين هذا الأمر كم أسيء فهم مكياڤلي: فقد أدى الاهتمام الحصري بالأمير من خلال تقاليد تفسيرية طويلة وعلى حساب كتاب الأحاديث (Discorsis)، إلى الخلط - بطريقة خاطئة - بين نظرية الإمارات الجديدة ونظرية الحكم بشكل عام. وباختصار، وعلى عكس ما تم تأكيده في الغالب، لم يكتب الأمير «بأصابع الشيطان»⁽³⁸⁾.

لا يجوز أن يقودنا رفض اعتبار مكياڤلي تحسيداً للشعر، إلى الخطأ الآخر الذي يتمثل في الاعتقاد أن أعماله غريبة عن كل شكل من أشكال المكياڤلية. ما من شك في أن السكرتير الفلورنساوي لا يتعاطف مع أنظمة الطغيان التي درسها من خلال الروح الحيادية للمنظر، غير أن علينا أن نضيف أن المكياڤلية الحقيقية إنما تكمن في هذه النزعة الحيادية بالذات. يجب ألا يوقعنا ميل مكياڤلي للحرية الجمهورية في الخطأ وذلك لأنه كان باستطاعته، وبطريقة موضوعية كما في كتابه الأمير، أن يطور نظرية للملكيات الفردية أو الجمهوريات⁽³⁹⁾. وما لا شك فيه، أن هذا النأي يبعدها عن الشك في إعجاب مكياڤلي الصادق بروما الجمهورية، وقد كان روسو بكل تأكيد على حق في هذا الاتجاه، حين نسب إلى الفلورنساوي مثالية جمهورية؛ شرط أن نوضح، مع ذلك، أن مكياڤلي كان متمسكاً بدور المراقب لدرجة لا يستطيع معها أن يقترح على الناس مثلاً أعلى لا يمكن تحقيقه في معظم الظروف⁽⁴⁰⁾. وإذا كان مكياڤلي يفضل حياة الجمهوريات على أفعال الأمير غير الشرعي، فإننا مضطرون إلى ملاحظة أن نصائحه إنما تتوجه إلى هذا الأمير الجديد في الغالب⁽⁴¹⁾. وعلى الرغم من أن مكياڤلي كان جمهورياً متحمساً، إلا أنه لا يعترف بضرورة المشرعين والدكتاتوريين وحتى الأمراء المستبدين حين تكون الشعوب الفاسدة غير جديرة ولا تستوعب الحرية⁽⁴²⁾. وبذلك، يبدو أن المشكلة التقليدية للدراسات المكياڤلية والمتعلقة بتناسق الأعمال قد حلت: «إن نظرية الديكتاتورية» التي يعتمد عليها كتاب الأمير، و«مدح الحرية الرومانية» في كتاب الأحاديث ليسا متناقضين، كما يقال في الغالب، بل يستجيبان في العمق للطموح ذاته الذي يسعى إلى المعالجة الموضوعية البعيدة عن كل ميل فردي إلى بعض المواقف الاجتماعية السياسية المختلفة التي تتطلب بالضرورة إجابات خاصة.

حين أسند شرح آرون تهمة المكيافيلية، بشكل حصري، إلى التناسق في عمل مكيافيلي، وليس إلى انجذاب مزعوم لمؤلف الأمير إلى الشر، فإنه قد أظهر بذلك، ضعف الشروح ذات الطابع النفسي؛ من البديهي أن يتجاوز وقع مكيافيلي في تاريخ الفكر الأوروبي كثيراً هذا البعد النفسي. لذلك علينا أن نهمّل المسألة التقليدية لـ "غايات" مكيافيلي - طموح أم تملق - بخاصة وأن الغايات الإنسانية تتعرض في جوهرها لنقاشات لا تنتهي. وعلينا أن نخصص، بالمقابل، مكاناً مركزياً لمشروع تأسيس ما علينا تسميته علم السياسة. من هنا تأتي أهمية أن ندرس المنطق الذي تعرض فيه «منهجية» مكيافيلي.

لا يمكننا أن نعثر على المبدأ الرئيس لمنهجية مكيافيلي معروضاً بطريقة أكثر وضوحاً مما هو عليه في الفصل الخامس عشر من الأمير، الذي يقارن بدقة بين الخيال والحقيقة الفعلية: «كثيرون هم من ظنوا أنفسهم جمهوريات أو إمارات، لكن لم يشعر أحدٌ أو يعرف بوجودهم بشكل فعلي، لأن هناك فرقاً شاسعاً بين الطريقة التي نعيش بها والطريقة التي يجب أن نعيش بها، وإن من يتخلى عما يقوم به لمصلحة ما يجب أن يقوم به يدمر نفسه، بدل المحافظة عليها، فالإنسان الذي يريد أن يعبر عن الطيبة في كل شيء لا يمكن إلا أن يهلك بين الكثير من الناس غير الطيبين»⁽⁴³⁾. وبعيداً عن كل الوعظ الديني وعن الطوباوية، ييوح مكيافيلي «بسر منهجه» ناصحاً الأمير «بالتوقف عند حقيقة الأشياء»⁽⁴⁴⁾ حتى يستمر. وحين يعالج السكرتير الفلورنساوي المسألة التقليدية لواجبات الأمير، لا يثير السؤال الثاني: «ما الذي يجب أن يحدث؟»، بل يكتفي بالسؤال حول معرفة «ما يجري بالفعل». وهكذا تعتمد «أولية الملاحظة على الأخلاق» أي استبدال «المتطلبات الأخلاقية أو الدينية» بالنصائح الفنية، معلنة الاستقلال غير المسبوق للفعل والتفكير السياسي.

وبذلك تتوضح الأولية التي منحها مكيافيلي لدروس التاريخ من أجل تعريف قواعد الفعل. ولن نستطيع، في الواقع، تجاهل أن «الشغف بالأنسنة»، الذي نجده في أصل هذا الاهتمام بالتاريخ، بعيد كل البعد عن التعبير عن معنى هذا الاهتمام بشكل كامل. وتكرس الميزة التي يمنحها مكيافيلي للدراسات التاريخية انقلاباً

جذرياً، وذلك لأن النصائح ستحل، من الآن فصاعداً، محل إنذارات الفيلسوف ورجل الدين⁽⁴⁵⁾.

وعلينا هنا تلمس القطيعة التي أجراها كاتب الأمير: «ربما كان مكياڤلي أول من أسس في أوروبا سياسة مستقلة تماماً عن الأخلاق والدين، واعتبرها فناً مستقلاً مستنبطاً من التجربة التاريخية، وساعياً للحصول على الوسائل الأكثر فعالية من أجل النجاح، أي من أجل النجاة والنمو في غابة الأفراد والأحزاب والبلدان المتصارعة، وليس من أجل تقدم الجنس البشري وكمال المؤسسات»⁽⁴⁶⁾. ويتطلب إعداد هذا الفن، إذاً، استبعاد قواعد الأخلاق كي لا نتمسك من الآن فصاعداً، إلا بالسلطة العظمى للوقائع⁽⁴⁷⁾، وبذلك لا تُستدعى التجربة التاريخية باعتبارها مصدراً للأمثال المدهشة فقط، بل باعتبارها مقدمة لبناء معرفة دقيقة. يتطلب الفن السياسي المستقل، في الواقع، إعداد «مقدمات سياسية عقلانية»⁽⁴⁸⁾، وليس على العالم، ضمن هذا المنظور أن يحدد الوقائع فقط، بل عليه أن يظهر أنها قادرة على أن تتكرر. وعلينا، من أجل بناء مثل هذه «السياسة العقلانية»، أن نفترض وجود "منطق عقلي" في التاريخ، وبكلمات أخرى، علينا أن نسلم بوجود عدد من الثوابت.

وهكذا يمكننا أن نفهم الأهمية التي أولاها مكياڤلي لخلود العواطف البشرية: فتلك فكرة حاسمة لأنها تسمح بتأكيد «وجود طبيعة سياسية». وإذا استخدمنا لغة أكثر حداثة، يعادل تصور مثل هذا «حتمية سياسية» باعتبارها مجموعة من العناصر الثابتة التي أدركها العلم وتستطيع أن تعمل بمثابة دليل للفعل العملي. والحال هذه، إن النزعة السياسية المحافظة القائمة على مسلمة ثبات السلوك البشري، تسمح في الوقت نفسه باستبعاد الطوباوية من خلال وضعها ضمن صنف الخيال الفارغ. إذا كان الماضي مختلفاً في جوهره عن المستقبل، في الواقع، فلا يعود يقدم أنموذجاً، مما يعيد الاعتبار للطوباوية. وبشكل أوضح، إن الادعاء الوارد في الأمير والذي يقول بالفضيلة الفعلية، يمنع بشكل استباقي التفكير ضمن هذا الاتجاه. لقد فتح الفلورنساوي، إذاً، حقلاً للبحث والفعل المتحرر من أي معوق معياري، حين نظر إلى السياسة نظرة العالم: «إن مكياڤلي أول من حلل

السياسة بذاتها، ولاحظ تتابع الأحداث كي يشير إلى انتظامها ويستخلص نصائح الفعل. وبكلمات أخرى، يبدو أن مكيافيلي قد اعتمد موقف العالم وموقف التقاني الذي يستند إلى نتائج العالم». والحال هذه، لا يزال المشروع في علم السياسة - الذي أثار الكثير من الغضب في زمانه - صامداً بحق لأن الاعتبار المولى للفعالية وحدها في القضايا السياسية يوشك أن يؤدي إلى نزعة لا أخلاقية عدوانية»⁽⁴⁹⁾.

التشاؤم الأنثروبولوجي المكيافيلي، تبرير الإكراه

إذا، نجد في أساس مكيافيلية مكيافيلي مسلمة تقول بوجود طبيعة للإنسان، وتمثل هذه الطبيعة في "خبث" متأصل، يعتبر «حقيقة قائمة على التجربة». لا يشكل مثل هذا التأكيد تعبيراً عن وجهة نظر متفردة، بل يبدو أمراً لا ينفصل عن مشروع المعالجة العلمية للأمور السياسية: «تتلخص منهجية مكيافيلي في الملاحظة التاريخية، وتعتبر هذه الملاحظة ذات فائدة لأن مسار الأشياء - بخاصة العواطف البشرية، يستمر على حاله عبر الزمن: ويمثل التاريخ في مجموعه طبيعة تقبل التحليل المقارن»⁽⁵⁰⁾. ولا يجري التعبير عن هذا التصور للطبيعة البشرية في الأمر فقط بل في الأحاديث أيضاً. ويشرح مكيافيلي في الفصل الثالث من الكتاب الأول بالقول إن على من ينشئ دولة ويمنحها قوانين، أن يعتبر الناس خبيثاء ومستعدين دوماً لإظهار خبثهم حين يجدون الفرصة سانحة لذلك⁽⁵¹⁾. يطلق السكرتير الفلورنساوي عبارته الشهيرة حول هذا الموضوع، والتي وصّفها آرون بالضعيفة: «إن البشر لا يفعلون الخير إلا إذا كانوا مضطرين لذلك»⁽⁵²⁾.

وبدقة أكثر، يتلخص المفهوم المكيافيلي حول الطبيعة البشرية بخصائص رئيسة ثلاث: عدم الرضى، والكسل، والضلال. ويشار إلى عدم الرضى في الفصل السابع والثلاثين من الكتاب الأول للأحاديث والذي يرى أن الطبيعة قد خلقت الإنسان بطريقة يمكن معها أن يشتهي كل شيء، لكنه يجد نفسه في الوقت عينه غير قادر على الحصول على كل شيء⁽⁵³⁾. كما يشكل «الكسل» ملمحاً ذا دلالة في السلوك الإنساني لدرجة أنه يصبح جزءاً لا يتجزأ من «الضرورة» التي نعرف أهميتها المركزية لدى مكيافيلي، لا يقدم الناس أفضل ما عندهم إلا في المواقف

المتطرفة، مثل المعارك حين يواجهون الموت، ولا يتمسكون بالفضيلة إلا حين يجبرهم القانون على ذلك. يقدم الضلال البشري، أخيراً، والذي يشار إليه في الفصل الخامس والثلاثين من الكتاب الثالث، برهاناً إضافياً على التشاؤم المكيافيلي. يوضح هذا الفصل في الواقع، أن البشر لا يدركون الخطر إلا حين يصبح وشيكاً، لعدم قدرتهم على الحكم إلا من خلال رؤية النتائج⁽⁵⁴⁾. وبمنح هذا المزيج من الخبث والكسل للعبارة الواردة في الفصل السابع والعشرين من الكتاب الأول معناها الكامل، تلك العبارة التي ترى أن البشر نادراً ما يكونون طيبين بشكل كامل أو أشراراً بشكل كامل⁽⁵⁵⁾. يجب ألا يفهم مثل هذا الحكم على أنه تنازل يسعى إلى التخفيف من الصورة البالغة السواد للطبيعة البشرية، فهو يندرج على العكس من ذلك، وبشكل كامل، ضمن منطق التشاؤم المكيافيلي من خلال هذا التوصيف المتحرر من الوهم للطبيعة البشرية، يستخلص مكيافيلي دروساً عملية لتشجيع الأمير على الذهاب إلى آخر المطاف في الإكراه. وتبين مقولة أن الإنسان ليس طيباً تماماً وليس سيئاً تماماً، ضرورة تجنب أنصاف الحلول⁽⁵⁶⁾. وتوضح بذلك الطريقة التي يُدين بها مكيافيلي الحياد من خلال الإشارة إلى المخاطر التي يمكن أن تقع إذا سوفنا ولم نأخذ موقفاً، ويؤكد هذا الاختيار الحاسم أن مكيافيلي لم يكن مفكراً واقعياً فقط، بل كان «ذهناً كاملاً متعصباً للعقلانية»⁽⁵⁷⁾. وترتبط مسلمات الطبيعة البشرية السيئة، إذاً في النهاية، فعل الأمير الذي لا حدود له. ويتطلب الحُبث البشري، الذي يعتبر «لا أخلاق طبيعية» وليس «دناءة أخلاقية»، نظام حكم بالإكراه. ونفهم، من هذا المنطلق ما قام به فيخته في شرح مكيافيلي، حين أعاد استخدام فكرة اللا أخلاق الطبيعية، كي يجعل منها المبدأ الأول في فلسفته للدولة: على المشرع أن يتصرف وكأن البشر سيئون في جوهرهم ولا يمكنهم الطاعة إلا وهم مرغمون من السلطة⁽⁵⁸⁾. وتشكل الفكرة المكيافيلية حول اللا أخلاق الطبيعية على هذا النحو، المقدمة الضرورية لتبرير الإكراه الذي تمارسه الدولة. فالدولة التي تُعتبر وسيلة الإكراه الشرعية، تفترض بالتعريف، أن لا يتصرف البشر بطريقة أخلاقية بفضل أخلاقهم، بل من خلال الانصياع الدائم للعنف أو التهديد به⁽⁵⁹⁾.

ويمكننا من دون شك، الاعتراض بالقول إن الخبث من خصائص المواقف النزاعية فقط التي وصفت في كتاب الأمير، لذلك فهو يختفي مع العيش في الحرية التي تضمنها كتاب الأحاديث. وبناء على ذلك، يوضح آرون أنه عندما يتحدث مكيافيلي عن الفضيلة، فهو لا يشير أبداً إلى فضيلة أخلاقية بالمعنى الحرفي للكلمة: «من المؤكد أن الفضيلة لا تتداخل إلا قليلاً مع الشجاعة لوحدها، بل إنها أكثر قرباً إليها من الحكمة والصفاء الأخلاقي»⁽⁶⁰⁾. وعلينا ألا ننسى، في الواقع أن فضيلة المحكومين إنما تتمثل في التمتع بروح المصلحة العامة واحترام القوانين، فيما تُعرف فضيلة الحكام بأنها «إرادة القوة المستنيرة بالفهم الدقيق للوسائل». وكما بين ده فيلفوس⁽⁶¹⁾، ليست لهذه الفضائل أية علاقة حقيقية بالأخلاق، «فما من صفة أخلاقية لا تنسجم مع اللا أخلاق البدائية»⁽⁶²⁾. وهنا أيضاً، وبالرغم من المظاهر، نجد تعاليم الأمير في كتاب الأحاديث. وفي العموم تحتوي الفضيلة التي ينشرها مكيافيلي عناصر قليلة تشترك فيها مع الأخلاق المسيحية أو مع الحكمة القديمة، لأنها في العمق «متوافقة مع الجريمة».

مع اعتراف آرون بأن مكيافيلي قدم، في الغالب، براهين لمصلحة الشعب - وهذا ما بينه ده فيلفوس، بوضوح تام⁽⁶³⁾ - إلا أنه يعتبر أن مسلّمة الخبث والضعف البشري تشكل أساس التمييز الأهم بين فعالية الرؤساء وسلبية الجماهير. ويقارن مكيافيلي في الواقع، بين سذاجة الجماهير وحذق الرؤساء، بخاصة في الفقرة الشهيرة من الفصل الرابع عشر من الكتاب الأول للأحاديث المكرّس للتكهنات⁽⁶⁴⁾. ويظهر هذا التمييز أيضاً إذا لاحظنا الدور المكرّس لشخصية المشرّع الذي يقوم بإصدار قوانين وإعادة بناء الفضيلة في أوضاع فساد. تقول الفكرة المعروضة في الفصل التاسع من الكتاب الأول أن على المشرّع التصرف لوحده من دون أن يتردد في استخدام الوسائل غير الشرعية⁽⁶⁵⁾. ويشير مكيافيلي أخيراً إلى ضرورة دعوة أشخاص أقوياء و"فضلاء" في أوضاع الفساد. وبذلك يمنح التشاؤم الأنثروبولوجي شرعية لفعل السلطة الخلاق في جماهير حبيسة للسلبية والضلال.

حكم التقانة

يرتبط ما يميز أصالة الفكر المكيافليّ، بشكل حاسم، بالطريقة التي يعرض فيها تصور تقاني بحث للسياسة: في الأمير، تأخذ الاعتبارات الذرائعية، التي تقتصر تقليدياً على بعض جوانب الحياة البشرية، أهمية غير مسبقة. ونحن نعرف أن المكيافليّة قد اعتبرت، بشكل عام، «نظرية الوسائل أو بالأحرى بعض الوسائل» أي نظرية استخدام المكر والعنف⁽⁶⁶⁾. وإذا قبلنا بهذا التعريف، فما من شك إذاً، في اعتبار مكيافليّ مفكراً مكيافليّاً، فنظرية الوسائل حاضرة بوضوح في صلب مؤلفاته وسيصبح مغرياً لنا الاعتراض بأن تقانة الطغيان المنصوص عنها في الأمير، لا تعتبر دفاعاً عنه. وبعد هذا كله، فإن مكيافليّ يتحدث عن الطغيان بأعين العالم غير أنه لا ينصح أبداً بمثل هذه الممارسات. ومع ذلك، إن هذا الاعتراض لا يحل كل شيء، فإذا كان صحيحاً أن مكيافليّ الجمهوري لا ينصح أحداً بأن يقلد الأمير، فإن مكيافليّ التقاني يدفع الأمير إلى الذهاب حتى نهاية فعلته، ضارباً عرض الحائط بقوانين الأخلاق البشرية والإلهية. أضف إلى ذلك أنه يجب ألاّ توقعنا إدارة الفلورنساوي لأساليب الطغيان في الخطأ، لأنها لا تستند إلى حكم أخلاقي بل إلى تقدير سياسي. ويحظى استخدام وسائل الطغيان، المدانة أحياناً، في الواقع بالتأييد العلني، في حال استخدمت هذه الوسائل نفسها في حالات أخرى، لخدمة غاية أخرى. وحين ينتقد مكيافليّ جرائم الطاغية، بشكل عرضي، يكون ذلك لسبب وحيد، أي حين تبدو هذه الجرائم عديمة الفائدة من وجهة نظر سياسية. وعلى العكس، إنه لا يتردد في الاعتراف بشرعية الجريمة في حالات أخرى، في الفصل التاسع من الكتاب الأول من الأحاديث مثلاً، وفي ما يتعلق بقتل رومولوس لريموس⁽⁶⁷⁾. وفي العموم، «إن وسائل الطغيان موجودة في الغالب، في نظرية أنظمة الحكم الأخرى، مما يسهل عملية الانزلاق»⁽⁶⁸⁾. إذاً تقع نظرية الوسائل في قلب التصور المكيافليّ للعقل السياسي.

يحول السكرتير الفلورنساوي القوانين الإنسانية والبشرية، ضمن هذا المنظور، إلى أدوات بسيطة، جاعلاً، بهذه الطريقة، من السياسة في حد ذاتها غاية نهائية، على حساب جميع الاعتبارات الأخرى. وتلفتنا، في الواقع، طريقته في إخضاع الدين

لاعتبارات ذرائعية بحتة. إذ لا تبدو مسألة حقيقة المعتقدات الدينية وزيفها ذات قيمة أبداً، في إطار مقارنة لا تأخذ في الحسبان سوى الفعلية. وهكذا، وفي الفصل الثاني عشر من الكتاب الأول من الأحاديث، يقول مكياڤيلي أنه على رؤساء الجمهورية أو الممالك أن يشجعوا المشاعر الدينية «حتى لو كان فيها ما يعتبرونه خطأ»⁽⁶⁹⁾. ومع ذلك، ليس الحديث أخلاقياً ولا غير أخلاقي، أو دينياً ولا غير ديني، فالمقصود، بكل بساطة المسألة هو تقديم «رؤية عملية عن الدين»⁽⁷⁰⁾.

تكشف هذه الاعتبارات حول الدين منطقاً ذرائعياً يحكم الفكر المكيافيلي بأكمله، وذلك لأننا نجد هذا الحقل نفسه، والمستبعد من رؤية عملية صرفة للعالم البشري، مجرداً بدوره من كل استقلالية: «وهكذا تتوسع نظرية الوسائل بشكل تدريجي، ويبدو أنها تكافؤ فلسفة بشرية وعملية بحتة، بالقدر الذي تستخدم فيه وسائل أكثر. ولا تعود الاعتبارات اللا أخلاقية للوسائل السياسية والاقتراح المعلن لضرورة الوسائل اللا أخلاقية لوحدها جوهرية، بل يضاف إليها توسيع النزعة العملية لتشمل الوقائع البشرية التي تتحول جميعاً إلى وسائل. وسائل لأي هدف؟ للنظام الاجتماعي الذي يعتبر، هو نفسه، وسيلة قدرة. ولكن إلامّ تهدف قدرة الدولة هذه؟ وبما أنه ليس للسياسة من غاية سوى ذاتها، فهل تعتبر فارغة من أي معنى؟⁽⁷¹⁾ تدرس الأنظمة السياسية، التي تشكل موضوعات لبحث العالم، في الواقع، وضمن هذا المنظور، وفقاً لمعيار القدرة حصراً. وإذا كان صحيحاً أن كتاب الأمير يفضل الإمارات الوراثية على الإمارات الجديدة، فيجب أن لا يخفي هذا التمييز، مع ذلك، حقيقة أن الغاية القرينة لكل سياسة هي المحافظة على السلطة وتوسعها. هكذا يجد المشروع المكيافيلي جدواه المنطقية في «أولية السياسة الخارجية». ويقترح مكياڤيلي، بكل تأكيد، مصلحة الحاضرة هدفاً للعمل السياسي، غير أن هذه المصلحة تتمثل في النهاية في القدرة أو في الاستقلال أقله. ويجب ألا ينسينا عدم تأييد مكياڤيلي للإمبريالية أن الاعتبارات السياسية الخارجية كافة تسعى إلى المحافظة على السلطة، وأن السياسة الخارجية بأجمعها خاضعة، بدورها للمصالح الدبلوماسية للمدينة، وأن السياسة العامة، تعني القوه وتسعى إليها، وأن الوقائع البشرية كافة إنما تدرس في علاقاتها مع السياسة»⁽⁷²⁾.

تكرس المكيافيلية إذا انتصار منطق ذرائعي مستقل تماماً، بعد أن جعلت من الدين أداة بسيطة، ومنحت الأولوية لسياسة القدرة. واستطاع آرون، من خلال استعادة التمييز الذي قام به كانط بين المطلب الحتمي والمطلب الافتراضي، أن يستنتج أن المكيافيلية تعلن إهمال كل تساؤل حول الغايات، لتركز بشكل حصري على استخدام الوسائل: «تعاذل النصائح الموجهة للأمير (بالتعبير الحديث) مطالب افتراضية، أي تحولاً بسيطاً في العلاقات السببية. ولا تفترض هذه المطالب، منطقياً إذاً، أن تكون الغاية المقبولة لذاها صالحة أو مرغوبة. لذلك يمكن أن نقول إن هذه الرؤية الذرائعية لا تتبع عن رغبة بسيطة بالمعرفة، بل تخدم، بكل وضوح، مشروعا للتلاعب التقني،» إذا اعتبر مكيافيلي القوانين البشرية والإلهية وسائل، فهو يبدو وكأنه يستبعد كل قيمة أخلاقية ليهتم بالسياسة فقط ولذاها، والتي تستبعد - بعد أن أصبحت غاية نهائية - كل اعتبار أخلاقي وتُخضع الشرط البشري إلى نظام تقانة طبيعي⁽⁷³⁾. يقودنا مثل هذا التحليل إلى نتيجة مفادها أن مكيافيلي لا يقدم توصيفاً بسيطاً «للحقيقة الواقعة» فقط، فهو يقدم للأمير الكثير من النصائح، ويعتبر التركيز على وسائل حكم الطغيان بذلك دعوة لتطبيقها: «لم يكن ثمة حاجة إلى مكيافيلي كي توجد ممارسات طاغية طبعاً، لكن ترجمة الوسائل الفعالة إلى نصائح تسدى للأمير تسمح بشكل حتمي، بالقول إن مكيافيلي يشجع الطاغية، أو أن الطاغية يتشجع حين يقرأه». إذا تذهب نظرية آرون إلى قول مفاده أن مكيافيلي لم يكتف بتوصيف الواقع، لكنه رغب في أن يفرض صيغة عمل تقني متحرر من كل معيار أخلاقي. وبكلمات أخرى، لم يكن مكيافيلي شاهداً ذكياً على عصره، بل كان متعصباً «لمنطق تجريدي» يحدد الوسائل الأكثر فعالية من أجل تغييره. ولا يكفي من أجل إدراك الممارسات المكيافيلية وتنظيمها أن نوصفها، بل علينا أيضاً أن نضع برنامج عمل يفتح للأمير حقول عمل غير محدود: وهنا تقف حدود «واقعيته»، وهنا أيضاً تقف حدود موضوعيته. ولأنه يظن أن البشر قادرون على كل شيء، لذلك فهو يقول ببساطة: "كل شيء ممكن". ويبدى إعجابه بالكتاب الذين ينتحلون الأسلوب الفخم، إذا هو لم يؤيدهم⁽⁷⁴⁾، وبذلك يتوضح لم اعتبر مكيافيلي رائد أنظمة الطغيان الحديثة التي تضرب عرض

الحائظ بالحواجز الأخلاقية والدينية التقليدية جميعاً. ونلاحظ، من هذا الجانب أن تحليل آرون للمكيافيلّيّة الحديثة يشبه إلى حدّ ما أفكار هانّا آرندت حول النظام الشمولي. ونشر من ناحية أخرى، إلى أن آرندت في كتابها *أصول الأنظمة الشمولية*، سترى، بدورها في عبارة «كل شيء ممكن» التعبير بالذات عن الهذيان الشمولي⁽⁷⁵⁾. إلّا أن علينا ألاّ نخلط بين التحليلين، وذلك لأنّ هذه العبارة لا تأخذ معناها إلّا في ضوء تاريخ المكيافيلّيّة، منذ عصر الأمير وحتى پاريتو وأنظمة الطغيان الحديثة، وفقاً لمنطق لا يجد له مثيلاً في تحليل آرندت للنظام الشمولي.

النزعة العلموية والعقل الذرائعي،

من مكيافيلّي إلى پاريتو

نجد ما يسمى بالنزعة المكيافيلّيّة اللا أخلاقية جذورها في مشروع تأسيس علم السياسة. وتبدو العلاقات بين مكيافيلّي وپاريتو في هذا المجال عميقة: «تؤدي الموضوعات نفسها والمنهج نفسه والرؤية التاريخية نفسها والتصور نفسه للسياسة في كتاب *المطول في علم الاجتماع* إلى منهجية موازية لمنهجية مكيافيلّي»⁽⁷⁶⁾. وإذا لم يكن پاريتو المعلم الأوحد للمكيافيلّيّة الحديثة، وإذا كان علينا اعتباره رائد الفاشية وليس النازية، فإنه سيبقى «منظر المكيافيلّيّة الحديثة» لأنه الأكثر تمثيلاً والأكثر منهجية، وهو لذلك الأكثر أهمية.

يُبرز آرون الروابط بين مكيافيلّي وپاريتو بكل سهولة، لدرجة يبدو معها تفسيره *للأمير* متأثراً جداً، في الحقيقة، بپاريتو نفسه. ويبدو عالم الاجتماع الإيطالي المصدر المباشر للفرضية التي ترى أنه ربما كان باستطاعة مكيافيلّي كتابة نظرية عن الملكات الفردية أو الجمهورية بالروح الموضوعية نفسها، كما في *الأمير*. يرى پاريتو، في الفقرة 1975 من *المطول في علم الاجتماع العام* أن مكيافيلّي ليس في الواقع نصير أنظمة الطغيان البغيضة، على عكس ما يدعي بعضهم: «لقد كتب الأمير، غير أنه كان باستطاعته كتابة *الجمهوريات* وفقاً للأنموذج نفسه، ولقد فعل ذلك، بشكل جزئي في *أحاديث حول العقد الأول من حكم تيت ليف*. ولو عاش في عصرنا، فرمّا وجه دراساته إلى الأنظمة

البرلمانية»⁽⁷⁷⁾. لذلك يوضح پاريتو أنه من العبث التأكيد على أن الفلورنساوي عدو للشعب، وأنه يقدم إرشاداته للمستبدین كي يدمروا الشعب، لأنه وفقاً لذلك يمكننا القول أيضاً إن «الكيميائيين يقدمون إرشاداتهم للمسمّمين». إن إظهار آرون للطابع "العلمي" لمنهجية مكياڤليّی يدين بالكثير إذاً للتفسير الذي جاء به پاريتو.

ترتبط النقطة المشتركة بين مكياڤليّی وپاريتو «بالمنهجية المنطقية التحريية وبالرؤية التاريخية». لأن العلم، وفقاً لعالم الاجتماع الإيطالي، يقوم فقط على استقراء بعض الأنماط التي تقف خلف الحقب التاريخية المختلفة من الوقائع. وتلمس هنا توجهاً رئيساً في الفكر المكياڤليّی، أي في المفهوم الدوري للتاريخ الذي يقف في موقع متوسط بين مبدأ السرمدية ومبدأ الخراب⁽⁷⁸⁾. ويتصور الكاتبان، تبعاً لذلك، الماضي الإنساني بالطريقة نفسها، باعتباره "طبيعة" معتمدين «ثبات القلب الإنساني». تقوم نظرية "البواقي" (Résidus) التي طورت في المطول في علم الاجتماع العام في الواقع، بالوظيفة نفسها التي تقوم بها "الأحاسيس" و"العواطف" في كتاب الأحاديث. ولنذكر من أجل توضيح هذه المقارنة أن علم اجتماع پاريتو يقوم على تمييز أساسي بين "البواقي" و"المشتقات". فهو يقدم في الفصل السادس من المطول هذا التمييز على أنه بمثابة «فصل جزء ثابت، حذسي، غير منطقي، عن جزء استدلالي يسعى إلى شرح الأول وتبريره والبرهان عليه»⁽⁷⁹⁾. وتعبير آخر، تمثل "البواقي" العدد القليل من العناصر التي لا تتغير عبر الزمن، ولا بين الحضارات، بينما تعتبر "المشتقات" في مصطلحات علم النفس التحليلي، عمليات عقلية «متغيرة ومتنوعة، ترافق "البواقي"». وتمثل البواقي الأحاسيس والغرائز: «يقتنع الناس بالأحاسيس (البواقي) خصوصاً، لذلك يمكننا توقع (...) أن تستمد الاشتقاقات قوتها من الأحاسيس، وليس من اعتبارات منطقية تجريبية، أو ليس من هذه الاعتبارات بشكل حصري أقله، بل من العواطف»⁽⁸⁰⁾.

وبذلك يلتحق مشروع پاريتو النظري، بمشروع مكياڤليّی. إذ يستنبط الاثنان، في الواقع، عدداً من القواعد العامة، من حالات ملموسة تقدمها التجربة التاريخية. ولقد كان پاريتو على حق حين انتسب إلى السكرتير الفلورنساوي: إذ

اعترف أن «نصائح مكياڤلي للأمرء ليست سوى تعبير عن ثوابت تجريبية، فإن مهمة اللا أخلاق تزول في الحال، لأن العالم الذي يراقب سلالات الحكم ليس أبعد عن الأخلاق من عالم الفلك الذي يتتبع مراحل كوكب»⁽⁸¹⁾. أضف إلى ذلك أن منهجية پاريتو، كما منهجية مؤلف الأمير، لا تنفصل عن رؤيته التاريخية. فالمعالجة المنطقية التجريبية تقوده في الواقع إلى إعلان «مبدأ القابلية للفساد» الذي يقود إلى «مبدأ الدورية» أو بشكل أدق، إلى مبدأ "التموجات". وبعيداً عن الفروق اللفظية، نجد أنفسنا ملتزمين بملاحظة التشابه الرئيس بين تصورين تاريخيين: «صيرورة سطحية تخفي خلفية أبدية، وصيرورة غير منتظمة تنظم في دورات. ونحن هنا أمام مفهومين مشتركين لدى مكياڤلي وپاريتو، ولدى جميع فلسفات التاريخ التي لا تعرف قوانين أخرى غير العواطف البشرية، وهي بالتالي لا تعرف راحة ولا حلاً لبؤس الإنسان»⁽⁸²⁾. إن المطلوب إذاً في كلا الحالين، وبشكل أساسي، تحرير الواقع السياسي من كل قيد أخلاقي أو من كل أفق أمل يربطه بالمستقبل، من خلال التسليم بحتمية أبدية.

وهكذا تنعز الفرضية التي ترى أن الممارسات اللا أخلاقية التي أوصى بها پاريتو لا تشكل مطلقاً استعادة سطحية لموضوعات مكياڤلي، بل هي، على العكس من ذلك، نتيجة لمسار لا يزال فاعلاً لدى مكياڤلي: «يقود علم الاجتماع پاريتو إذاً، كما سبق أن قاد علم السياسة مكياڤلي، إلى نوع من الذرائعية الجذرية الحيادية تجاه الأخلاق، إن لم تكن لا أخلاقية. وتؤدي المنهجية المنطقية التجريبية إلى النتائج ذاتها التي نجدها في العبارة التالية: "نلاحظ ما هو موجود وليس ما هو واجب الوجود"». إننا هنا أمام تشابه حاسم، وذلك لأن الغاية متشابهة في الحالتين، إنها «رفض النظريات المثالية أو الطوباوية وإهمال الغايات النهائية للأفراد والمجتمعات، وهي أيضاً البحث في الوقائع عن سر الازدهار والقدرة الجماعية»⁽⁸³⁾.

فلسفة مشوهة

كي ندرك بعمق أكبر الطريقة التي تندرج فيها النتائج التي توصل إليها پاريتو، كما مكياڤلي، ضمن منطق نظامه، علينا أن نذكر بتعريف پاريتو للفعل

المنطقي الذي لُخِّص بدقة بهذه العبارة: «يعتبر منطقياً الفعل الذي تكون وسائله منسجمة مع غاياته وفقاً لمعارف المراقب الأكثر اتساعاً». ينتج من هذا التعريف الدقيق أنه بإمكاننا أن ننتع بالمنطقي «الفعل التقني والفعل الاقتصادي المفيد، وأخيراً الفعل الذي نسميه ميكائلياً، أي الذي يطلق وسائل مناسبة، من خلال استدعاء غايات مثالية، وفقاً لمبدأ الفعالية»⁽⁸⁴⁾. وبالمقابل، تُرمى، الأعمال التي تنسب إلى الأخلاق والحق الطبيعي أو العدالة كافة، في غياهب الفعل «غير المنطقي»، وبشكل آلي.

يندرج هذا الرفض الضمني «للفعل من الأنموذج المثالي» والمتلازم مع منح قيمة حصرية للفعل المنطقي، ضمن التقاليد الميكائيلية، وإن اتخذ حلة جديدة: «إن صيغة الإقصاء غير المباشر هذا ذات دلالة. فالعلم الوضعي يقدم الخدمات التي استخرجها ميكائيلي من مبدئه: مراقبة ما يحدث في الواقع. ويكفي أن تقتصر على العلم الوضعي، ونستبعد الأشكال الأخرى من التفكير، وأن لا نعترف إلا بالواقع الصرف كي نرفض كافة الاعتبارات الأخلاقية والدينية كافة: فالحق الطبيعي والعدالة والحرية لا تقدم باعتبارها وقائع، وهي لا تنتظم أبداً ضمن نظام خال من العيوب، كما لا تتحول بشكل كامل إلى مؤسسات»⁽⁸⁵⁾. وهكذا، إن العلم، حين ينعن نفسه بالمنطقي، ينساق إلى إدانة كل متطلبات الشرعية، سواء أكان ذلك على المستوى الفلسفي أم الأخلاقي. ومع ذلك، نحن هنا أمام مسألة خادعة، ذات نتائج مشؤومة. فإذا ادعينا في الواقع، أننا نفسر الفعل البشري، فلا يكفي أن نبين الأهداف المباشرة المدركة تجريبياً وحسب، بل علينا أيضاً إظهار الغايات النهائية ومبررات كل فرد بشكل خاص. والحال هذه، فإن پاريتو لا يهتم بذلك أبداً. ولا يأتي هذا الإغفال بشكل عرضي، فهو ليس سوى نتيجة لمفهومه الحصري للمنهج العلمي: «يدعي العلم الذي يتحول إلى فلسفة حصرية أنه يقوم، في الوقت نفسه، بتحويل الوجود الإنساني إلى مادة صرفة، فكل ما لا يجده في الواقع غير موجود. ونرى أن تجريد الوجود الإنساني من توجهه نحو المستقبل ينزع عنه صفته البشرية كي يتحول إلى طبيعة»⁽⁸⁶⁾. إن العلم المستند إلى فرضيات پاريتو والتي ترزعم إمكانية دراسة السلوك الإنساني كشيء محصور حصراً دقيقاً يصبح حائلاً

دون إدراك دلالة المعتقدات الأخلاقية أو القانونية أو الدينية من الداخل، كما يمتنع عن إدراك الدور الذي تقوم به ضمن التجربة الاجتماعية، وذلك من خلال خفضها إلى مستوى الأسطورة والإيديولوجيا. وفي النهاية، يؤدي مشروع الشرح العلمي للواقع، في الحقيقة، إلى رؤية مشوهة للعلم.

ولأن العالم غير قادر على إدراك معنى الأفعال «من النمط المثالي»، كما تبدو لفاعليها أنفسهم، فإنه لا يقبل بإرجاعها إلى صنف «المعقول» إلاّ قياساً على فائدتها الاجتماعية، أي الفعل المنطقي، باعتباره استخداماً للوسائل المناسبة للغايات، انسجاماً مع معارف المراقب الواسعة. وبتعبير آخر، لا تقدر قيمة المعتقدات التي تحرك الممارسات البشرية لذاتها، بل وفقاً لتائجها الاجتماعية وحسب. وفي العموم، يجوز للعالم وحده تقرير الطابع المنطقي لهذه المعتقدات: «سوف تحفظ الأفكار، من وجهة نظر هذا العلم، إذا أثرت في السلوك البشري من خلال فعل الأساطير»⁽⁸⁷⁾.

ندرك إلى أي مدى يمكن اعتبار پاريتو امتداداً لمكيافيلي: فوفقاً لمنطق مماثل، يولي پاريتو الاعتبار بطريقة عملية لأبعاد الوجود البشري كافة، بما في ذلك المعتقدات الدينية، وكما الفلورنساوي، لا يهتم پاريتو بحقيقة المعتقدات أو زيفها، فليست الأديان سوى مجموعة من المعتقدات المفيدة للجماعة، غير أن هذا النوع من الاعتبارات القائم على فهم كل سلوك وفقاً للمقياس المنطقي، يؤدي إلى نوع من الحياد حيال الأخلاق أو إلى نزعة لا أخلاقية: «إن النتيجة الوحيدة التي يمكن أن يستخلصها الإنسان العملي من الملاحظة الاجتماعية هي إذاً أن الغاية تبرر الوسيلة، وبدقة أكثر، إن تبرير الوسائل هذا ضروري بسبب الغباء البشري». وكما هو الحال لدى مكيافيلي، لا تبدو الغايات المثالية، إذاً ضرورية إلاّ بالقدر الذي تمثل فيه وسيلة فعالة لدفع الجماهير نحو هدف يراه العالم أو الزعيم المتنور ممكناً ومرغوباً.

وهكذا يقوم نقد آرون لمكيافيلي وپاريتو على التشكيك بالطابع "العلمي" لمنهجهما و"واقعيته". ولا يستند هذا التشكيك إلى رفض تجريبي، بل إلى تفكير فلسفي حول ما يعتبر - من حيث المبدأ - "علماً" و"واقعاً". لقد رأينا بوضوح،

أن تعصباً تجريدياً رافضاً أنصاف الحلول يتخفى، في الواقع، خلف ادعاء مكيافيلي بأنه يتحدث عما هو موجود. وبالمقارنة مع ذلك، إن «المشاهد الحيادي» الذي يدعي پاريتو أنه يمثله يفرض في الحقيقة مفهوماً عن الإنسان والتاريخ، لا يعترف بأنه كذلك، أي أن "العلم" وفقاً لپاريتو، ليس سوى «فلسفة حصرية». إذاً تقوم الفرضية التي يدافع عنها آرون، على اعتبار الواقعية التي ينادي بها مكيافيلي وپاريتو على تصور فلسفي مرفوض ومشوه: «فالمنهج لا يتطلب رؤية تاريخية وحسب، بل فلسفة شاملة؛ إذ إنها تعرف حقل الواقع وتحدده، أي الوجود البشري. وهكذا، إننا أمام «فلسفة مفقّرة بالقدر الذي تم فيه «تشويه الوجود البشري بهذا النوع "الواقعي" من الاعتبارات»⁽⁸⁸⁾.

نظرية لا أخلاقية للنخب

نفهم، منذ الآن، لِمَ لا تستطيع مبادئ علم اجتماع پاريتو إلا أن تقود إلى نظرية للنخب، كما لدى مكيافيلي. يرى پاريتو أن كل بنية اجتماعية تحتوي، في الواقع، على تقسيم أساسي بين أقلية قليلة العدد من جهة، وجماهير خاضعة لها من جهة أخرى. ونجد هذا التقسيم لدى مكيافيلي تحت تسمية «مفردتي زعيم وشعب». يعمق مفهوم پاريتو أيضاً التقسيم بين النخب والجماهير لدرجة يحول معها فن الحكم إلى فن حرب «لأن الطبقة الحاكمة والطبقة المحكومة في العموم مثل أمتين أجنبيتين»⁽⁸⁹⁾. ويرى پاريتو أنه لا يمكن تجاوز هذا التقسيم الذي يفسره من خلال عوامل بشرية واجتماعية ثابتة: فأنظمة الحكم كافة تبقى حكم أقليات مهما كانت الفروق بينها.

ويعود أحد أسباب هذا التمييز بين حكام ومحكومين إلى «الطبيعة الثائية للإنسان»، أي «إلى التناقض بين المعرفة والفعل»؛ وهو تناقض يعتبر صدى لمكيافيلي، هنا أيضاً. وعلينا العودة إلى الفقرة 1786 من المطول في علم الاجتماع العام التي توضح أنه «كي نعرف، علينا أن الوثوق بقيمة العلم المنطقي التجريبي، وكي نتصرف من الأفضل أن نقاد لمشاعرنا»⁽⁹⁰⁾. وهنا تظهر، وفقاً لمصطلحات پاريتو، جدوى انقسام الجماعة إلى قسمين، من أجل إزالة هذا

التناقض: يقود القسم الأول (النخب) حيث تسيطر المعرفة، القسم الآخر (الجماهير)، حيث تسيطر العواطف. ويشرح آرون على النحو التالي: «تمنح مشاعر الجماهير طاقة العمل، أما معرفة النخب فتوجهها وجهة سليمة»⁽⁹¹⁾. ويقوم أحد أسباب الفصل بين النخب والجماهير في نظرية پاريتو على التمييز بين بواقى الطبقة الأولى وبواقى الطبقة الثانية: ولذا ذكر أن بواقى الطبقة الأولى تتمثل، في الواقع، في «غريزة التركيب»، أي في «الميل إلى تركيب بعض الأشياء»⁽⁹²⁾: وهي تشير إلى الاندفاع إلى بناء علاقات، واستخلاص نتائج من مبدأ، وإلى المحاكمة الصحيحة أو الخاطئة. أما بواقى الطبقة الثانية («ثبات المجاميع»)، فترجع بطريقة مكتملة إلى غريزة البقاء لدى الإنسان، وإلى ميله للمحافظة على التراكيب القائمة؛ ميل يعبر عنه من خلال التمسك بالعائلة أو الوطن باعتبارهما كيانهين ثابتين⁽⁹³⁾.

وهكذا تتوضح نظرية النخب لدى پاريتو: إذا كان على الجماهير أن تكون فاضلة ووطنية أو أن تكون لديها أيضاً مشاعر دينية (البواقى من الطبقة الثانية)، فإن على الزعماء بالمقابل، أن يثبتوا أنهم أذكاء، وأن يتحلوا بروح التركيب والتحديد (بواقى الطبقة الأولى). غير أننا رأينا كيف أن مكيافيلّي نفسه قد شرع بهذا التمييز حين شرح ضرورة أن تؤمن الجماهير بالطالع، وألاّ يتردد الزعماء من جهتهم بالقيام بالحرب، مهما كانت التوقعات، حين يبدو لهم الموقف مؤاتياً. ويؤكد پاريتو، بدوره، من خلال اعتماده مثال الطالع هذا، كم من المرغوب فيه أن تملك الشعوب الشعور بأن السماء معها، فيما الزعماء قد لا يشاطرونها هذا الاعتقاد⁽⁹⁴⁾. وضمن هذا التركيب، الخاص بالبلدان «المتوازنة» تتوافق فضيلة الحاكمين مع أولية بواقى الطبقة الأولى، بينما تتوافق فضيلة المحكومين مع هيمنة بواقى الطبقة الثانية.

يتوافق پاريتو مع مكيافيلّي، مرة أخرى، حين يؤكد أن مصلحة الجماعة تتقاطع دوماً مع مصلحة النخب التي عليها دوماً أن تثير الحماسة الشعبية تجاه الأعمال الوطنية من خلال توجيه عواطفها حتى لو لم تشاطرها تلك العواطف تماماً. غير أنه لا يمكن لمثل هذه النظرة التقانية إلاّ أن تقود إلى نزعة عدمية مطلقة.

وذلك لأن إرادة القوة تصبح غاية في ذاتها: «ولكن بَم ستفكر هذه النخبة التي ستكشف اللعبة الأبدية للآليات الاجتماعية؟» لكن الجواب سيبقى متعثراً، لأنها ستظن أن على الناس أن يؤمنوا. أما هي فتؤمن بنفسها وعمهتها. ويصبح البشر أدوات في يد إرادة القوى التي تعتبر نفسها غاية مطلقة في ذاتها في عالم مجرد من المعنى ومن القيم التقليدية»⁽⁹⁵⁾. وهكذا يبدو علم اجتماع پاريتو استمراراً لمكيافيلي، إضافة إلى أنه ملهم أنظمة الطغيان الحديثة. إذ تجد المكانة المركزية التي تحتلها الدعاية في الأنظمة الشمولية قاعدتها النظرية في كتاب المطول في علم الاجتماع العام: يضع پاريتو - مثل مكيافيلي - البشر أنفسهم في مركز التاريخ، ويميل نتيجة لذلك إلى معاملتهم باعتبارهم موضوعاً للإرادة السياسية، ومادة يشكلها الحكام وفقاً لرغبتهم⁽⁹⁶⁾. وتعرف النخب، المنفصلة بشكل دائم عن الجماهير، الأوهام الجماعية وطريقة فعلها، من دون أن تؤمن به، أو تزعم أنها تهتم بالخير العام من خلال تحريك الشعوب بالإخلاص والعواطف. وحين يعلن پاريتو أنه لا علاقة للوسائل المستخدمة في جعل الناس يقبلون تشريعاً، بالوسائل المستخدمة لإيجاد هذه الوسائل وتجهيزها، فإنه يستبق بذلك المشكلة الرئيسة التي ستواجهها الحكومات الشمولية لاحقاً. نحن أمام مشكلة ثنائية في الواقع، فهي تتمثل في تعريف عدد من الوسائل الفعالة فنياً من جهة، وفي البحث عن تقديم حل يمكن أن تقبله الجماهير⁽⁹⁷⁾. لقد عبّر پاريتو، بشكل مسبق، وكامل عن "الثنائية" بين حكم الفنين وفعل الدعاية. غير أن علينا في النهاية أن نبحث عن المصدر الفكري لهذه الثنائية، في الأولوية التي منحها مؤلف الأمير للاعتبارات الفنية الصرفة ولفن خداع الشعب.

نستطيع من الآن فصاعداً أن نقدّر المسافة التي تفصل تحليل آرون للمكيافيليات الحديثة عن تفسير آرنولد للنزعة الشمولية، على الرغم من وجود بعض أوجه التشابه بينهما. إذ لا يسعى آرون إلى فهم الإيديولوجيا باعتبارها «منطق فكرة»، على ضوء فهم عام للعصر الحديث باعتبارها مسار «استلاب بالنسبة إلى العالم»⁽⁹⁸⁾. وعلينا، لأسباب مشابهة، ألا نذهب بعيداً بالمقارنة مع فكر هايدغر (Heidegger) حول التقانة. من المؤكد أنه حين يصف آرون الطريقة التي

يتحول فيها البشر، مع عصر التفانة المطلق، إلى أدوات لإرادة القوة التي تعتبر نفسها غاية مطلقة في ذاتها، فإنه يبدو وكأنه يلتحق جزئياً بشروح هايدغر المكرسة «لإرادة الإرادة»، التي كتبت في الفترة نفسها⁽⁹⁹⁾. ومع ذلك، تسمح الطريقة التي يتبنى فيها آرون تمييز كانط بين متطلب حاسم ومتطلب افتراضي كي يدين النزعة العدمية الحديثة، بفهم أصالة مشروعه النظري الخاص الذي لا يشتمل نقده للحدثة على المتطلبات نفسها. ففيما يفهم هايدغر، في النهاية، اللحظة الكانطية، باعتبارها مرحلة من تاريخ ما وراء الطبيعة الذاتية، واضعاً هذه اللحظة بين «أنا أفكر» الديكارتية وإرادة القوة لدى نيتشه، فإن آرون يخصص، من جهته، مقاماً خاصاً للنزعة النقدية⁽¹⁰⁰⁾. إن توضيحه لإدخال التفانة إلى العالم ونقده للعقلنة الذرائعية المستقلة لا ينفصلان عن ثقة ثابتة بمصادر العقل العملي من أجل تأسيس معايير العيش المشترك. ينتقد آرون، من أجل هذا الأمر بالتحديد، النزعة العلمية التقديرية لدى پاريتو، باعتبارها نتيجة اختيار اعتباطي. وفي الحقيقة، إذا كان نقد آرون لپاريتو، الذي يشر بمناقشته لنزعة فيبر الحتمية⁽¹⁰¹⁾، يتميز عن هايدغر وآرندت، فإنه يستبق بالمقابل، وفقاً لصيغة براجمية، ما سيكون عليه الطموح الفلسفي لمدرسة فرانكفورت الثانية، أي «أخلاقية النقاش» لدى كارل أوتو آبل (K.-O. Apel) وهابرماس. يبين آبل، في مشروعه من أجل إبراز مشكلة «البناء العقلاني للأخلاق في عصر العلم» مستنداً، مثل آرون، إلى تشخيص فيبر، أن الحدثة باعتبارها مسار عقلنة «تخليص العالم من الأوهام» تتميز بنظام تكامل يوحد، بشكل مثير للاستغراب، النزعة العلمية الوضعية، (القائمة على مرجعية عقلانية العلم الحيادي قيمياً) من جهة والوجودية (باعتبارها مذهباً يعتبر القيم والمعايير الأخلاقية قضية اختيار غير عقلاني بحث) من جهة أخرى⁽¹⁰²⁾.

لهذا يسعى آبل إلى برهنة أن عقلانية العلم لا تستبعد عقلانية ممكنة للأخلاق تقوم على مشروعية بين الأفراد⁽¹⁰³⁾. هنا نجد أنفسنا أمام تقويم آخر للفكر الحديث مختلف عن تقويم هايدغر، الذي لام هذا الفكر بسبب ارتكابه «هذا الخطأ الكبير» الذي يرى في إرادة القوة لدى نيتشه التطور المنطقي لفهوم كانط حول الذات السامية⁽¹⁰⁴⁾، ويستبق آرون، بطريقته الخاصة، هذا الخيار الفلسفي،

من خلال الجمع بين النقد الجذري لإدخال التقانة إلى العالم، والدفاع عن الفرضيات الكونية للديمقراطية: ولا تتبع هذه الرؤية من خطاب مناهض للحدثة، بل تجيب عن رغبة في استخلاص الشروط التي تسمح بتجنب النزعة الذاتية غير المنضبطة التي تميز الوجه المظلم للحدثة، من أجل إظهار ما تعد به.

تعصب العقل المجرد

نحو عقنة متكاملة للسياسة

إذا كان علم اجتماع پاريتو العلموي يمثل مرحلة هامة في الطريق المؤدية من مكيافيلي إلى أنظمة الطغيان الحديثة، فعلينا ألا نهمّل الوثاق المباشر الذي يربط هذه الأنظمة بمؤلف الأمير. وهكذا، ووفقاً لآرون، يكون مكيافيلي قد أرسى بوضوح قواعد التمييز بين الجماهير والزعماء «عقيدة المكيافيلية الحديثة». وما من شك في أن تعقيد فكر الفلورنساوي أكثر تعقيداً من مجرد فكرة تعظيم شخصية الزعيم في أنظمة الطغيان الحديثة. لا يعتبر مكيافيلي الشعب مادة سلبية خاضعة لهيمنة الحاكم المطلقة. لذلك علينا أن نقبل بأن نظرية خبث البشر لا تؤدي مباشرة إلى احتقار متعال للأغلبية وإلى تمجيد المستبدين والكبار⁽¹⁰⁵⁾. وعلى العكس، إن آرون يذكر، بعد ده فيلفوس أن مكيافيلي المعجب بالجمهورية قد وقف إلى جانب الشعب وإلى جانب العامة أيضاً⁽¹⁰⁶⁾. وهكذا، إن مكيافيلي يختار الشعب بشكل واضح⁽¹⁰⁷⁾، في الفصل التاسع والعشرين من الكتاب الأول من الأحاديث، المكرس لمسألة معرفة «من الأكثر إنكاراً للجميل الشعب أم الأمير؟» ويعتمد الفصل الخامس الشهير من الكتاب الأول منهجية مشابهة، حيث يبرهن أنه بإمكاننا أن نعهد، بكل اطمئنان، بحماية الحرية إلى الشعب أكثر من الكبار⁽¹⁰⁸⁾. وأخيراً، وفي الفصل السادس والستين من الكتاب الأول يؤكد السكرتير الفلورنساوي أن الشعب لا يخطئ في القضايا الخاصة مثل توزيع الوظائف والمرتبات⁽¹⁰⁹⁾، بالرغم من أنه معرض للخطأ في القضايا العامة. ويجب أن نشير، ضمن هذا المنظور وبعيداً عن كل تشبيه متسرع، إلى أن «هتلر كان أكثر تشاؤماً من مكيافيلي في ما يتعلق بالطبيعة البشرية عموماً»، وذلك لأن عمله مستوحى من «تصور بيولوجي بحت»، ينتهي

«في نوع من التدجين للأنواع البشرية»⁽¹¹⁰⁾. وهكذا يبدو آرون متفهماً للطابع غير المسبوق لأنظمة الطغيان الحديثة، بخاصة النازية. وبهذا المعنى، لا يجوز أن يعتبر ميكافيلي مسؤولاً بشكل مباشر عن هذه الأنظمة: «يبدو القرن العشرون، وكأنه القرن الذي وعى فيه الإنسان ذاته بوضوح لدرجة أصبح معها قادراً على التعامل معها، كما يتعامل مع الطبيعة»⁽¹¹¹⁾. ويجب ألا ينسبنا إبراز النزعة الطبيعية لدى ميكافيلي الفروق الأساسية بين ميكافيلي السكرتير الفلورنساوي والهتلرية: «تناقض مبادئ الأمير قواعد الأخلاق المسيحية، غير أن ميكافيلي لا ينفي صلاحية هذه الأخلاق. وهو يبدو لا أخلاقياً في الظاهر لأنه يعزل السياسة ويهمل الحق الطبيعي والديني. من الصحيح أن المكيافيلية الحديثة تشق طريقها ضمن هذه السياسة المستقلة، غير أنه كان من خصائص القرن العشرين رفض فكرة القواعد المكرسة للحد من إرادات القوة وتشجيع إطلاق غرائز العنف»⁽¹¹²⁾، باعتبارها طبيعية وعظيمة ومثيرة للإعجاب. وتشكل أنظمة الطغيان الحديثة، عموماً، تجديداً تاريخياً علينا فهمه كما هو، حتى لو أنها أصبحت ممكنة بفضل القطيعة التي قام بها مؤلف الأمير، قبل ذلك بكثير. وبتعبير آخر، تجد المكيافيلية الحديثة، باعتبارها ثقافة سياسية، بذور نشأتها في مكيافيلية ميكافيلي. لقد نقل ميكافيلي إلى الوعي جميع الأفعال المكيافيلية التي ارتكبتها البشر لأزمان طويلة بصمت وبطريقة مخجلة، من خلال تنظيمها.

مكيافيلية الأنظمة العقائدية الجزئية

من اللافت أن آرون لم يعد يوصف الأنظمة الشيوعية بعد الحرب بأنها «مكيافيلية حديثة». إن هذا المصطلح الذي بدا له، في زمن ما، أنه يوضح بطريقة مرضية النقاط المشتركة بين الشموليتين، النازية والفاشية من جهة، والشيوعية من جهة أخرى، لم يعد يراه، على ما يبدو منسجماً مع التوصيف الذي يناسب الواقع السياسي الجديد. لقد عبر آرون في الحقيقة، دوماً وبالرغم من كل شيء، عن بعض التحفظ في ما يتعلق بالتحليلات التي تطابق بشكل كامل بين هذين النوعين من الأنظمة الشمولية. إذاً ليس غريباً أن يضطر آرون إلى التراجع، بشكل كبير،

عن مفهوم «المكيافيلية»⁽¹¹³⁾، حين واجه الشمولية السوفيتية بمفردها. ومع ذلك، إن آرون لم يتخل بشكل كامل قط عن فكرة المكيافيلية في تحليله للنظم الشيوعية، غير أنه لا يقصد في الظاهر سوى مكيافيلية جزئية ومؤقتة لأنها تتبع دوماً الإيديولوجيا. تمتلك الشيوعية، باعتبارها "نظاماً عقائدياً"، بعداً مكيافيلياً بكل تأكيد، غير أنها ليست مكيافيلية كاملة، كما هو الحال بالنسبة إلى النازية والفاشية. وما من شك في أن آرون يعترف في مقالة مكرّسة لمكيافيلي وماركس⁽¹¹⁴⁾ أنه على الماركسي التصرف بطريقة مكيافيلية في عالم يمزقه العنف والنزاعات. وبهذا المعنى، يمكن أن نميل لأن نرى في الموضوع الذي أعده غرامشي⁽¹¹⁵⁾ (Gramsci) عن «الحزب-الأمير الجمعي»، مساراً خصباً للتفسير: «على الحزب المعرض لمصادفات الحرب، وتقلبات العواطف الشعبية، هو أيضاً، كما أبطال مكيافيلي المسلحين، أن يتحكم بالأوضاع من أجل خلاص الجميع، وليس من أجل مجد شخص»⁽¹¹⁶⁾. في الواقع ليس من الممنوع التفكير بأن الحزب «أمير جمعي» يتشكل من أقلية فاعلة تدعي أنها تجسد إرادة الجماهير. ضمن مثل هذا المنظور، لا يتردد الرؤساء المخلصون لفكر مكيافيلي في استخدام المكر والعنف في مواجهة الأعداء الخارجيين، وفي فرض إخلاص لا يعرف الخلل على قواهم الخاصة. وهكذا لا تبدو مقارنة الحزب بالأمير مخالفة لفكر مكيافيلي «يستمد الحزب باعتباره «بشيراً مسلحاً» قوته من عدد الذين يستمعون إلى رسالته، ومن تركيز سلطة القرار أيضاً. لا يمكننا أن نذهب بعيداً في هذه المقارنة المغربية، و«ذلك لأن الحزب لا يصبح مع ذلك أميراً من القرن السادس عشر، ساعياً للقوة والمجد»، لأن عمله يتجه إلى «غاية سامية». تبقى مكيافيلية الحركة الشيوعية محدودة في الواقع، بالرغم من كل شيء طالما أن الهدف الذي تسعى إليه ينبع من إلهام آخر، أقله في المبدأ: فإذا توقفت عن السعي وراء هذه الغاية، وإذا اكتفت بأهداف شرعية وواقعية لا تتخطى من خلالها التاريخ الذي يرسمه أعداؤها لأنفسهم، يصبح تحول الماركسية إلى مكيافيلية حتمياً. مكيافيلي هو الأمير الذي يتلاعب بإيمان الذين يوالونه من دون أن يشاطرهم إيمانهم، وماركسي هو الأمير المستعد لاستخدام الوسائل كافة في أية لحظة كانت، والذي يجمل، عن

حسن نية ضرورات المعركة لأنه لا يشك أبداً في أنه يعمل من أجل الحقيقة في اللحظة التي يكذب فيها، ومن أجل إنسانية سعيدة، في اللحظة التي يفرض فيها نظام رعب»⁽¹¹⁷⁾. وهذا المعنى يكون لينين ماركسياً أكثر منه مكيافيلياً، ويمكن قول العكس في ما يخص ستالين، ومع ذلك، وحتى حين همين المكيافيلية، مع فرد مثل ستالين، على الماركسية، يقدر آرون أن ليس من الواجب أن نعت الأنظمة الشيوعية بأنها مكيافيلية صرفة⁽¹¹⁸⁾.

إذاً علينا أن نلاحظ أن آرون لم يعد يعبر المشكلة المكيافيلية سوى اهتمام محدود، بعد الحرب، إذ لم يعد النظام الشيوعي، في نظره، قابلاً للتحليل وفقاً لهذا المفهوم إلا بشكل جزئي. غير أن هذا التطور قد ترافق مع تحديد هام في شرحه لمكيافيلي، وعلينا أن نشير قبل أن نخوض في ذلك، إلى أن تعقيد قراءة آرون يظهر مع الكتابات التي سبقت نهاية الحرب. يقترح آرون في الواقع، تفسيراً لا يمكن أن يعتمد على فكرة أحادية: فهو لا يقتصر على رفض المكيافيلية باعتبارها فساداً حديثاً، بل يسعى إلى تحديد سياسة تتضمن استخدام مكيافيلية معتدلة وتبريرها. وبالتلازم مع هذا، لا يبدو مكيافيلي في نظر آرون، رائداً لمفهوم تقني وطبيعي بحث للسلطة فقط. إذ يبدو عمله ضرورياً أيضاً من أجل التفكير في تناقضات السياسة.

تناقضات السياسة من فيبر إلى مكيافيلي:

«أخلاقية الإقناع» و«أخلاقية المسؤولية»

يعود اهتمام آرون بمكيافيلي إلى أعماله الأولى حول فيبر. فقد كان من الصعب على آرون وهو يدرس المشكلات الأساسية لعلم اجتماع فيبر أن يتجنب الأسئلة التي يثيرها الفلورنساوي. ولما كان آرون بعيداً عن تقاليد علم الاجتماع الفرنسي⁽¹¹⁹⁾، فقد أكد على الأهمية الحاسمة للتمييز الذي قاله فيبر بين «حكم الواقع» و«حكم القيمة»، الذي أدى إلى حرمان «العلم الخالص» من حل المشكلات الناتجة من الفعل. ويشكل هذا الفصل بين مجالات العلم والسياسة الوضعية طريقاً خصبة تناقض مبادئ علم الاجتماع الوضعي. تشكل عبارة

أوغست كونت: «لا مكان لحرية المعتقد في علم الفلك والفيزياء، ولن يكون لهذه الحرية مكان في السياسة حين يتشكل علم الاجتماع»، قناعة ضمنية أو علنية لدى معظم الوضعيين الفرنسيين»⁽¹²⁰⁾. نتلمس هنا قدرة فير الذي يرى أن بالإمكان إيجاد حل علمي للمشكلات الأساسية للسلوك. ويرى فير أن العلم يتجاوز، في الواقع، حقل عمله حين يزعم أن باستطاعته الحكم على المشكلات الأساسية، لأنه إذا كان صحيحاً أن بإمكانه أن يكشف لنا ما نريده وما نستطيع فعله، إلا أنه بالمقابل غير قادر على أن يعلن ما علينا فعله. وفي العموم، يمكن للعلم أن يوضح القرار، غير أنه لا يستطيع أبداً أن يقرر بدلاً عن كل شخص. وفي الواقع، إذا كان واضحاً علمياً أن فعلاً ما آيل للفشل، فلا يمكن أن يحرم الإنسان من حريته في اتخاذ القرار، إذ لا يجوز أن يجبر أحد على البحث عن النجاح.

يبدو الفعل مكاناً للتناقضات الأساسية بسبب استقلاله عن إرشادات علم عالمي وضمائنه. ويلج آرون على أكثر التناقضات خطورة: «أن يهيمن على السياسة نقيض "أخلاق المسؤولية" و"أخلاق الإيمان". فإما أن نسعى إلى اتقاء نتائج أعمالنا والتغلب على ما يحيق بنا، قدر الإمكان، وإما أن نخضع لمتطلبات الضمير وحدها و"نسلم أمرنا لمشيئة السماء". إن المبدئين أخلاقيان بالدرجة نفسها فلا مناص من الاختيار»⁽¹²¹⁾. وهكذا يرتسم التناقض المركزي بين الأخلاق والسياسة، فتجد الأولى تعابيرها الأكثر وضوحاً في المتطلب الحاسم لكانط، وفي العظة على الجبل. ويرى فير أن مواجهة الفعل ضمن هذا المنظور لا يمكن أن تقود إلا إلى صعوبات لا يمكن تجاوزها، طالما أنه من البديهي أن تحتوي كل سياسة محسومة على استحالة معالجة نذرها باعتباره غاية وليس وسيلة. وينقاد رجل السياسة بالضرورة، خلال فعله، إلى تركيب الوسائل وتقدير النتائج. غير أن آرون يلفت الانتباه إلى أن «النتائج هي ردود فعل بشرية، ويعالجها باعتبارها ظاهرة طبيعية. أما الوسائل فهي أيضاً، بشكل جزئي أقله، الأفعال البشرية التي نزلت إلى مستوى الأداة»⁽¹²²⁾.

وهنا يجد فير نفسه منقاداً للعودة إلى إشكالية مكيافيلي. وهكذا، ومن أجل تقديم تعريف لأخلاق المسؤولية، يلمح فير إلى المبدأ الذي أعلنه فيخته الذي يرى

«أن ليس من حقنا الاعتقاد بطيبة الإنسان وكماله»⁽¹²³⁾. وهو المبدأ الذي نعلم أنه استوحاه من مؤلف الأمير⁽¹²⁴⁾. يجد في أعمال ميكافيلّي، خصوصاً، التوضيح حول معنى أخلاق المسؤولية. عرض ميكافيلّي في الواقع بأمانة، للنزاعات التي ليس لها حل، بين «أخلاق المسؤولية» و«أخلاق القناعة»، تلك النزاعات التي كانت عنيفة جداً في مدينة فلورنسا: «إذا لم تخني الذاكرة، سنرى أن ميكافيلّي قد ألح في مقطع جميل من قصص فلورنساوية إلى هذا الوضع، وأنطق بطل مدينته بالكلمات التالية من أجل تمجيد مواطنيه: "لقد فضلوا عظمة حاضرتهم على خلاص أرواحهم"»⁽¹²⁵⁾. ويوضح فير أننا إذا ترجمنا هذه العبارة إلى لغة عصرية، فعلينا ألا نتحدث عن مسقط الرأس أو الوطن، بل عن «مستقبل الاشتراكية» أو عن «السلام الدولي»، وذلك لأننا «لا نستطيع تحقيق هذه الأهداف جميعاً إلا من خلال النشاط السياسي الذي يستدعي بالضرورة الوسائل العنيفة ويسلك طرق أخلاقية المسؤولية التي تضع خلاص الروح في خطر»⁽¹²⁶⁾. وفي العموم، إذا كانت الكلمات والأوضاع تتغير، فإن المشكلات المثارة من قبل مؤلف قصص فلورنساوية تبقى مطروحة. في ما عدا ذلك، يشرح آرون أن فير لم ير في السياسة الواقعية لبعض معاصريه سوى "تصوير ساخر" لأخلاق المسؤولية، لكنه رأى في المواطن الفلورنساوي صورة الذي يضحي بخلاص روحه من أجل خلاص مدينته، وهو بذلك خير ممثل لها⁽¹²⁷⁾. يقوم درس فير إذاً على فكرة ترى في كل سياسي شيئاً من الميكافيلّيّة، «وذلك لأنه من أجل الوصول إلى أهدافنا، لا نستطيع استخدام وسائل تنسجم مع إرادتنا القيمية فقط»⁽¹²⁸⁾. فهل يسمح هذا الأمر باعتبار فير ميكافيلّي ألمانيا⁽¹²⁹⁾، كما يعتقد ذلك ماينكه مثلاً؟ من الصحيح أنه ليس على رجل السياسة، وفقاً لفير، أن يتردد في استخدام الوسائل الضرورية، وأن الدولة تعتبر مشروعاً عقلانياً بالنسبة إليه، وأن السياسة كما يفهمها، تهدف قبل كل شيء إلى تحقيق القوة، ومع ذلك، «لم يقل، ولم يفكر بأن الغاية تبرر الوسائل كافة». لا بل أفضل من ذلك، لقد وصل أحياناً إلى حد التأكيد على أن هناك لحظات يجب أن يزول فيها التناقض بين أخلاق القناعة وأخلاق المسؤولية. وبدلاً عن الإذعان لسياسة عقلانية مسطحة، يعتبر عالم الاجتماع الألماني أنه «إذا

كانت السياسة فن الممكن، فعلينا دوماً أن نحاول المستحيل للوصول إلى الممكن». وعلينا أيضاً حين نعرف الفكر السياسي لغير أن «نخفف من دلالة عبارة مكيافيلي، بالمعنى الشائع للمصطلح»⁽¹³⁰⁾، أقله.

حدود النزعة السلمية

لقد أدت أفكار آرون هذه المتعلقة بإشكالية فيير حول الفعل، وبالمكيافيلية، دوراً هاماً في إعادة النظر التدريجية بنزعة السلمية التي رافقت شبابه⁽¹³¹⁾. فمن خلال استدعاء مقولات فيير، وبالعودة إلى الأمير، رفض آرون المذهب السلمي، من موقعه باعتباره شاهداً دقيقاً على تصاعد الأخطار في أوروبا.

ومنذ صدور كتاب *علم الاجتماع الألماني المعاصر*، كان آرون يذكر أن فيير قد انتقد بعنف «السياسيين من ذوي الإلهام الصافي، السلميين المتشدددين والثوريين حاملي شعار المبادئ المسيحية»⁽¹³²⁾. غير أن آرون قد شرع برفض أهم تبريرات النزعة السلمية المطلقة العقائدية، وذلك من خلال الحرب، وضمن إطار تفكير حول «فلسفة النزعة السلمية»⁽¹³³⁾. هناك، بالطبع، نزعة سلمية لا يمكن رفضها: إنها النزعة السلمية المطلقة ذات الطابع الأخلاقي الصرف. وما من شك في أن الرغبة في المحافظة على الاستقامة في أثناء الحرب، بدل العمل على تلافيتها، تعتبر موقفاً تحب المحافظة عليه بشكل فعلي: «يجيب مسالم من هذا الطراز، بكل تأكيد، بأنه يفضل خلاص روحه على خلاص الحاضرة، إذا اضطر إلى الاعتراف بأن رفض النضال سيسرع في ضياع الدولة»⁽¹³⁴⁾. يكرر آرون عبارة مكيافيلي المحببة إلى فيير، ويشير إلى أن «مثل هذه النزعة السلمية لا علاقة لها بالسياسة» لأنها «ذات طبيعة أخلاقية» لدرجة لا تعود معها "مذهباً" بل تصبح "إيمانا". ويعبر هذا الإيمان عن نفسه من خلال رفض الحرب، أي من خلال الرفض الفردي للمساهمة في الحرب، باعتبارها شراً مطلقاً، مهما كانت نتائجها⁽¹³⁵⁾.

ومع ذلك، يمثل هذا النوع من النزعة السلمية الأخلاقية الكاملة - التي تتوافق مع أخلاقية الاقتناع - مشكلة ذات طابع نظري غير عملي، وذلك بالقدر الذي يبقى فيه عقائديو اللا عنف هؤلاء قليلي العدد لدرجة لا يتمكنون معها من تهديد

أمن الدولة. وبالمقابل، لا يجهل آرون أن استغلال الشعور السلمي لمصلحة «سياسة اللاعنف» الحقيقية، قد أدى إلى نتائج هائلة⁽¹³⁶⁾. علينا أن نرفض، فلسفياً هذا النوع من النزعة السلمية *العقائدية*: «لقد كانت لهذه السياسة، في الواقع، الجذور نفسها التي قامت عليها فكرة رفض الحرب. لقد كانت إيماناً وليست فكراً، غير أنها اعتبرت نفسها نظرية، ودافعت عن نفسها من خلال براهين يمكن أن تعتبر منطقية على ضوء التجربة القريبة»⁽¹³⁷⁾. وتمثل هذه النظرية في اعتبار أن الحرب تثير، في الواقع، نتائج أسوأ من السلام، من الأوجه كافة، وبخاصة وأنا قد قلنا ورددنا في السنوات التي سبقت الحرب الحالية إن الديمقراطيات ستضطر إلى التنازل أو الخضوع بدورها إلى نظام شمولي كي تدافع عن نفسها ضد الدول الشمولية»⁽¹³⁸⁾. لقد سعى خطاب آرون، في مجمله، إلى إيضاح الطابع الخطر، والوهمي في الوقت نفسه، لهذه البراهين المؤيدة للنزعة السلمية. غير أن هذا النقد لا يمكن أن ينفصل عن الدفاع عن المكيافيلية، وبشكل أدق، عن *مكيافيلية معتدلة* تسمح بمواجهة المكيافيلية المطلقة لأنظمة الطغيان الحديثة.

من أجل مكيافيلية معتدلة

لقد جرى تبرير اعتماد الديمقراطيات بعض أشكال المكيافيلية، من خلال مداخلة تحمل عنوان «الدول الديمقراطية والدول الشمولية»⁽¹³⁹⁾، أكد آرون فيها أولاً، أن الفاشية والقومية الاشتراكية تتميزان بارتباط الاقتصاد بالسياسة، من خلال إعلان أولية السياسة الخارجية. إنه تحليل يجب أن يقود الديمقراطيات إلى نتيجة مفادها أنه لن يكون هناك «حل اقتصادي» للمشكلات الدبلوماسية الحالية. بعد أن يعترف آرون بأبعاد «النجاحات التقانية» للأنظمة الشمولية في المجالات الاقتصادية والسياسية والعسكرية، يؤكد أنه ليس باستطاعة الديمقراطيات أن تبرر وجودها «بالاقتصار على الحديث عن القيم التي يحتقرها خصومها» لذلك عليها أن «تظهر أنها قادرة على امتلاك الفضائل نفسها، تلك الفضائل التي تدعي الأنظمة الشمولية احتكارها»⁽¹⁴⁰⁾، ويتمثل خطأ الحركات المناهضة للفاشية في

هذا الإطار في أنها شددت على الأخطاء السياسية والأخلاقية للديمقراطيات، مقدمة بذلك براهين إضافية لمصلحة أنظمة الطغيان. غير أن الديمقراطيات غير قادرة على الدفاع عن أنفسها بشكل فعال إلا إذا وعت بشكل كامل أن «التفاؤل التاريخي للقرن التاسع عشر قد مات في جميع البلدان».

لا يمكن للفرضية التي ترى أن على الديمقراطيات أن تمتلك «الفضائل نفسها» التي تمتلكها الأنظمة الشمولية إلا أن تثير الحيرة. لذلك لا بد من توضيح: «يبدو الحديث الدائم عن النزعة السلمية سخيلاً في مواجهة أنظمة تعلن أن القوة هي المبرر الوحيد، في مواجهة أنظمة تعلن أنها بطولية وأن الديمقراطية جبانة، ما يقود إلى ترسيخ الرأي بأن الديمقراطيات آيلة فعلاً إلى الزوال، في أذهان القادة الفاشيين». وعلينا أن نحافظ على فرق جوهري بين النظامين، كي تبقى الديمقراطيات محافظة على ذاتها: وحتى حين يكون على الشعوب الديمقراطية أن تظهر الفضائل نفسها التي يظهرها خصومها، فإنها لن تتمكن من ذلك إلا من خلال "القبول" وليس "الإكراه". يجب ألا تتردد الأنظمة الديمقراطية، إذاً، في استعارة بعض المنهجيات الخاصة بالأمم التي تحاربها: ولا تتيح لنا مثل هذه الاستعارات، مع ذلك، أن نعتها بالفاشية. وعلى النخب أن تعبر عن شكل ما من المكيافيلية: «يتمثل الشرط الضروري لبقاء الأنظمة الديمقراطية في تكوين نخبة لا تكون لا أخلاقية ولا مدانة، بل تملك الشجاعة السياسية من دون الوقوع في المكيافيلية الصرفة»⁽¹⁴¹⁾. ولا يقود نقد المكيافيلية، باعتبارها مذهب أنظمة الطغيان الحديثة، إذاً بالضرورة إلى إدانة كل شكل من أشكال المكيافيلية: إذا كان علينا أن نحارب المكيافيلية المطلقة «الخالصة» ونرفضها، فلن يكون بالمقابل، بالإمكان تجنب مكيافيلية معتدلة.

هل هذه نهاية المكيافيلية؟

أفكار ماريان التوماوية الجديدة

يقع نقاش النزعة السلمية هذا في صلب الحوار الذي قام بين آرون وجاك ماريان (J. Maritain) صاحب الموقف التوماوي الجديد، حول مكيافيلي والمكيافيلية. كانت الرهانات من وراء نقد آرون قد طرحت من قبل، أثناء

المناقشة التي أعقبت بالمداخلة التي حملت عنوان «دول ديمقراطية ودول شمولية». خاب ظن ماريتان، في الواقع، من الأطروحة التي ترى أن على الديمقراطيات أن تعبر عن «الفضائل نفسها» التي تعبر عنها الدول الشمولية، وقد ألح من جانبه على الفرق الجوهرية الذي يجب أن يقوم بين «الفضائل البطولية» للديمقراطيات والفضائل الشمولية: «أعتقد أن من الخطأ السعي لمواجهة الشموليين بالفضائل نفسها، وليس بموقف عام رافض للحرب، إذا كان هذا ضرورياً، أو بتكثيف العمل»⁽¹⁴²⁾. المطلوب إذاً تقديم تعريف للفضائل الخاصة بالديمقراطية، وذلك لأننا «إذا استعرنا النقاشات الشمولية والفضائل الشمولية، فإننا سنصبح مثلهم ونحن نقاومهم». يوضح آرون في رده على ماريتان، من جديد، أن تعبير «امتلاك الفضائل نفسها» صحيح جزئياً، لأن هذه الفضائل ستقبل من الأفراد وستسعى إلى هدف مختلف تماماً. وعلينا ببساطة «أن نقبل بالوسائل الفعالة، فلا يصد السلاح إلاً السلاح إذا أردنا أن ننجو في نظام التاريخ». وعلينا أن نأخذ اعتراض ماريتان على حمل الجد في الوقت نفسه، إذ لا شيء يضمن في الواقع ألاً تتحول الديمقراطيات من خلال استخدام العنف: «لا أحد يعرف ما سيخرج من استخدام الوسائل الضرورية للمقاومة»⁽¹⁴³⁾. علينا إذاً أن نقبل باستخدام الوسائل الفعالة من دون أن ننسى، مع ذلك، الأخطار التي يمكن أن تنتج منها.

لا يبدو أن مواقف ماريتان بعيدة عن مكيافيلية مخففة، كما فهمها آرون لدرجة يمكننا معها أن نتصور أن خلافهما يقوم بشكل أساسي على سوء فهم. ومع ذلك، إن نقاش آرون للأفكار التي أعلنها ماريتان بعد عدة سنوات، في كتابه «نهاية المكيافيلية»⁽¹⁴⁴⁾ يظهر اختلافاً فلسفياً أكثر عمقاً حول مكيافيلي والمكيافيلية.

مكيافيلي أو كارثة الحداثة

لم يسع ماريتان - كما هو الحال مع هنري بير - إلى النضال ضد العنف المكيافيلي باسم قيم العقلانية الديكارتية⁽¹⁴⁵⁾. غير أن المقصود هنا غير ذلك: ففي إطار نقده الجذري للحداثة وللنزعة الإنسانية المتمركزة حول الذات البشرية، يريد

ماريتان أن يبين عبر خياراته الفلسفية التوماوية الجديدة، أن الفكر السياسي لعصر النهضة، ومكيافيلي خاصة يمثل قطعة «كارثية» في تاريخ الحداثة، كما هو الحال مع لوثر وديكارت وروسو⁽¹⁴⁶⁾. وتعني فكرة «نهاية المكيافيلية» في الواقع، أن الأنظمة الشمولية وريثة لمكيافيلي. وعلى عكس هاليقي، لا يهتم ماريتان بالطرفة التي أحدثها قدوم اقتصادات الحرب: ولقد سعى، من خلال عرض تحليل فلسفي، إلى شرح التاريخ الفكري للمكيافيلية. وبالمقابل، يحتوي منهج ماريتان على تقارب مع منهج آرون لأنه يولي، أيضاً، أهمية كبرى للقطعة التي قام بها مكيافيلي في التقاليد السياسية الأخلاقية الأوروبية. لا يجهل ماريتان أن فكرة من هذا القبيل، تنسب إلى مكيافيلي مسؤولية حاسمة يمكن أن تبدو مفاجئة، لأن سياسة القوة كانت تمارس في القرن السادس عشر، وحتى قبله، ويُفسر الأمير من هذا الجانب، باعتباره توصيفاً بسيطاً للممارسات السياسية القائمة. ومع ذلك، إن هذا التوضيح المستوحى من كتاب شارل بونوا⁽¹⁴⁷⁾ لا يمكن أن يكفي للتخفيف من الطابع الجديد للتعاليم المكيافيلية: «ما يهم بهذا الصدد، بشكل دقيق، هو أن مكيافيلي قد بحث في فضاء الوعي عادات زمانه والممارسات المشتركة بين سياسيي القوة في كل الأزمان»⁽¹⁴⁸⁾. ومهما كان حجم الجرائم التي يرتكبها الأمراء في كل العصور، فإنها تبقى مع ذلك مترافقة بالشعور "بالذنب". غير أن هذا الوضع قد تغير بعد الدروس الغريبة التي أعلنها الأمير برودة: «فما كان واقعة بسيطة، مع كامل الضعف وعدم الثبات الذي يصيب الأشياء الطارئة والعرضية، حتى في الشر، قد أصبح وجوداً، بعد مكيافيلي، مع كل الحزم والصلابة اللذين تتصف بهما الأشياء واجبة الوجود». يعتبر ماريتان، القريب هنا من قراءة آرون، أنه لا يجوز تقليص المسؤولية التاريخية لمكيافيلي: فهي تتمثل في «إدراك» وسائل بقيت تستخدم حتى الآن بشكل صامت. فمن خلال تحويل الواقعة اللا أخلاقية إلى قاعدة، شوه مكيافيلي بشكل جذري غايات السياسة، وذلك لأن السياسة في جوهرها، قد اعتبرت، منذ ذلك التاريخ، «سياسة لا أخلاقية» وبذلك يكون فكر مكيافيلي قد أنجز منعطفاً رئيساً في تاريخ السياسة الحديثة، فلم يعد الهدف الرئيس للسياسة المصلحة العامة والسلام، بل السلطة والحرب، بعد الأمير⁽¹⁴⁹⁾.

هل يعني هذا أنه علينا أن نعتبر مكيافيليّ المسؤول المباشر عن المبادئ المؤسسة لأنظمة الطغيان الحديثة؟ إن الأمور أكثر تعقيداً، وذلك لأنه، ضمن مسار مستمر، يمكن لبعض اللحظات الحاسمة أن تظهر. كما أن علينا أن نميز نوعين من المكيافيليّة: الأول الذي يوصّف بأنه «مكيافيليّة مخففة»، يشجع على استخدام الوسائل غير العادلة مع احترام بعض الحدود. فالسياسة الواقعية تستمر في احترام بعض القواعد والهواجس الأخلاقية: «إذا حاولت أن أصف بدقّة أكثر هذه المكيافيليّات المعتدلة، فسأقول، في ما يخص غاية السياسة، بأنها حافظت، إلى حد ما، أو ظنت أنها حافظت على المصلحة المشتركة، وكانت بذلك مخلصّة لمعلمها، وأنها قد استخدمت بكل صراحة المكيافيليّة، في ما يتعلق بالوسائل التي تؤدي إلى المصلحة المشتركة». (150) تمتلك المكيافيليّة المعتدلة إذاً، أقله، ميزة تخفيف البعد التخريبي لتعاليم مكيافيليّ، من خلال المحافظة على منظور الخير المشترك، غير أن أحداً لم يعترض، في العمق، على المنطق الذي أطلقه، رغم أنه قد حمل في طياته نتائج مشؤومة بكل تأكيد، وذلك لأن التمييز الذي قاله مؤلّف الأمير، من بين الوسائل والغايات، ما كان بإمكانه إلا أن يقود، في النهاية، إلى تخريب مفهوم الخير المشترك نفسه الذي وجد نفسه مقتصرأ على مجموعة مزايا مادية ومكاسب إقليمية.

أما «الشكل الثاني للمكيافيليّة» أي «المكيافيليّة المطلقة»، فقد وجد بذور نشأته في النوع الأول. إلا أن هناك عاملين جديدين قد ساعدا على تفتحه، وفقاً لماريتان؛ الأول وضعي فرض نفسه في القرن التاسع عشر: لم تعد السياسة، ضمن هذا المنظور، تعرّف على أنها "فن"، بل هي «علم طبيعي» تطبق قوانينه شبه العلمية في ميدان الكفاح من أجل حياة المجتمعات الإنسانية. أما العامل الثاني الأكثر أهمية، فهو الفلسفة الرومانطيقية الألمانية من فيخته إلى هيغل. وذلك لأن ماريتان لا يلفت انتباهنا فقط إلى أن مؤلّف خطاب إلى الأمة الألمانية قد كتب خلق مكيافيليّ، بل إلى أن إجلال هيغل للدولة ليس سوى «التصعيد الميتافيزيقي لمبادئ مكيافيليّ». وتشير المكيافيليّة المطلقة، منذ ذلك الوقت، إلى نهاية مسار متوقع: «وهكذا تغلق الدائرة وتغرق الأخلاق نفسها في النفي السياسي للأخلاق،

وتصبح السلطة والنجاح المعياران الأخلاقيان الأسميان». و«لا تعود المكيافيلية»، في الواقع، ومع فلسفة هيغل، «سياسة، بل تصبح ميتافيزيقا وديناً وحامساً رسولياً صوفياً»⁽¹⁵¹⁾. إن فهمنا «للمكيافيلية المطلقة» على هذا النحو، يقودنا بشكل مباشر إلى الممارسات اللا عقلانية للدول الشمولية. وكان يكفي من أجل ذلك، أن يتبنى الرؤساء اللا عقلانيون الحماس الرسولي للمكيافيلية المطلقة، معتمدين هذا المذهب بمفهومه الحرفي، مع النتائج الكارثية التي نعرفها كافة: «نحن هنا أمام مكيافيلية منحطة ولا عقلانية ثورية وحشية وشيطانية، تعتبر الظلم اللا محدود والعنف اللا محدود واللا أخلاق والكذب اللا محدود، وسائل سياسية طبيعية، وتستمد من هذا الشر اللا محدود نفسه قوة بغیضة»⁽¹⁵²⁾. وفي النهاية تنهار الحواجز التي لا تزال موجودة في المكيافيلية المعتدلة، كاشفة عن الوجه الحقيقي للمكيافيلية.

نهاية المكيافيلية، نحو تجاوز لتناقضات السياسة

تشكل المكيافيلية إذاً كارثة فكرية وأخلاقية. لذلك يرى ماريتمان أن من الممكن والمرغوب فيه الخروج منها: فبدل أن تشير بشكل فعال إلى تدبير ثابت لكل فعل سياسي، تعلن المكيافيلية عن انحراف جذري في الغايات التقليدية للحياة المشتركة، كذلك نحن نخطئ في اعتبار السياسة مكاناً للتناقضات الرئيسة، فهذه التناقضات لم تأخذ أهمية في التاريخ إلا بفضل القطيعة المكيافيلية. إن علينا إذاً العودة إلى ما قبل هذه القطيعة.

يتوجب أن ننسب الطلاق الحاسم بين السياسة والأخلاق إلى مؤلف الأمير، الذي قاد الفكر السياسي الحديث إلى تناقضات وهمية ومسيئة: «لقد أدت التعاليم العملية للمكيافيلية بالضمير الحديث إلى انقسام عميق وإلى فصل لا رجعة فيه بين السياسة والأخلاق، وبعد ذلك إلى تناقض وهمي وقاتل بين ما يسمى مثالية (أدجت خطأ مع الأخلاق) وما يسمى واقعية (أدجت خطأ مع السياسة)»⁽¹⁵³⁾. يسعى خطاب الفيلسوف التوماوي الجديد كله إلى توضيح الطابع المزيف لهذا التناقض. وعلينا أن نعترف، من دون شك، بالطابع الخاص للسياسة الذي

«يشتمل على جزء هام من الفن والتقانة». ولا يمكن لهذا الطابع الخاص أن يقود، مع ذلك، إلى التسليم باستقلال الشأن السياسي عن الأخلاق، إن السياسة تتمايز ببساطة عن الأخلاقية الفردية «كما يتمايز غصن عن آخر في الشجرة الواحدة». إن من الخطأ الانزلاق من الطابع الخاص للسياسة إلى استقلاليتها، لشدة ما هو واضح أن السياسة «مندججة بمبادئ الأخلاق»، بحكم تعريفها⁽¹⁵⁴⁾.

تقود المكيافليّة، بالمقابل، إلى نقائص مضللة بسبب طابعها المتناقض. وذلك لأن مؤلف الأمير يشجع على الاستخدام غير الأخلاقي للقيم الأخلاقية، ولكنه لا يلحظ، وهو يقوم بذلك، أنه يدمر شرط عمله نفسه. يفترض مكيافيلي، في الواقع، أن القيم الأخلاقية لا تؤثر أبداً في سلوك «الفنان السياسي»، أي الأمير، بالرغم من أنه يشير إلى أن هذه القيم تبقى حيّة في «المادة البشرية»؛ أي في الشعب الذي يسعى الأمير إلى السيطرة عليه. غير أن هذا الفن السياسي اللا أخلاقي لا يمكن، على المدى البعيد، أن يقود إلا إلى إضعاف القيم الأخلاقية التي تعتبر الشرط الأساسي الوحيد لازدهاره⁽¹⁵⁵⁾.

ليس المطلوب، إذاً، حل نقائص السياسة بالاستناد إلى متطلبات الأخلاق الفردية الصرفة. إذ يحق للضمير الأخلاقي، بكل تأكيد، وفي مواجهة إغراء المكيافليّة أن يجيب أنه لا يحق لأحد أن يفعل الخير من خلال الشر، مهما كان هذا الشر. غير أن إجابة الكائن البشري هذا، الذي يعتبر كائناً أخلاقياً ودينياً، توشك أن تعقد التناقض بدل حله. نحن هنا، في الواقع، أمام إجابة تقدمها «الأخلاق الشخصية» عن مسألة تثيرها «الأخلاقية السياسية» التي تتجاوز، بهذه الصفة، المسألة «كما يتجاوز شخص ما الدولة، في ما يخص مصيره الأبدي»⁽¹⁵⁶⁾. إذاً، من المستحيل ادعاء رفض المكيافليّة بالاستناد إلى المتطلبات الأخلاقية الفردية لوحدها: «من الواضح أنه لا يمكن لأي تأكيد للأخلاق الشخصية، مهما كانت صحيحة وحاسمة أن يحمل إجابة مناسبة وأ نموذجية لمشكلة تثيرها أخلاقية الدولة»⁽¹⁵⁷⁾. هل من المناسب للمتطلبات الأخلاقية، في عالم تنتصر فيه المكيافليّة، أن تسلم الأمم المسألة نفسها فريسة لأنظمة الطغيان الحديثة. إن هذا الأمر مرفوض قطعاً، لأن أخلاقية الدولة تحتوي على متطلبات خاصة⁽¹⁵⁸⁾. إذ علينا، في

الواقع، أن نميز بين روح الأمة والروح الفردية: «فروح الأمة ليست سرمدية. والغاية المباشرة والخاصة، والخير المشترك لأمة ما، مسألة زمنية وأرضية يمكن، ويجب، أن يسمو المرء في نظامها الخاص بفضائل منصوص عنها في الشرائع الزمانية»⁽¹⁵⁹⁾. ويمكن للطابع الخاص للغايات الأرضية، بعد ذلك، أن يقودنا، بشكل مثير للاستغراب، إلى الاعتقاد بأن الفساد السياسي الذي يمثل الوسيلة الأولى لتخريب الخير المشترك لدولة ما، يعتبر في الوقت ذاته شرط ازدهارها نفسه.

تقود فكرة مارتان إلى إزاحة المشكلة إذاً: فالمطلوب، من الآن فصاعداً، أن نشرح كيف أن التمايز بين الأخلاق الشخصية وأخلاق الدولة لا يشتمل على تناقضات جديدة عصية على الحل. أما جوابه فيتمثل في توضيح فكرة مركزية في برهنته، تقول «بعدم انتصار الشر» وبكلمات أخرى، يتمثل خطأ المكيافليّة القاتل في «وهم النجاح المباشر». لذلك يعتبر مارتان، شخصياً، أن السياسة المبنية بشكل سليم لا تحتوي على نقائص أساسية، إذ تميل العدالة والاستقامة، من ذاتهما، إلى المحافظة على الدول، فيما يميل الظلم والشر إلى تدميرها، أقلّه على المدى البعيد. إنه الدرس الذي علينا استخلاصه من رفض المكيافليّة: «لذلك، يبقى صحيحاً أنه، طالما أن السياسة هي في ذاتها أمر أخلاقي، فإن الشرط الأول للسياسة الصالحة هو أن تكون عادلة. ومن الصحيح، في الوقت عينه، أن العدالة والفضيلة لا تقوداننا، على العموم، إلى النجاح في هذا العالم. غير أن التناقض قد أزيل لأن (...) النجاح في السياسة لا يعني السلطة المادية ولا السيطرة على العالم، بل تحقيق الخير المشترك، مع شروط الازدهار المادي الذي يتطلبه ذلك»⁽¹⁶⁰⁾. وبالتالي نستطيع الاستنتاج أن «التناقض والانقسام القاتلين اللذين نشأ بين الأخلاق والسياسة»، واللذين يتحمل المكيافليّون مسؤوليتهما، إضافة إلى "الأخلاقيين المتطرفين"، قد تم تجاوزهما في النطاق الذي تكون فيه السياسة أخلاقية في جوهرها، والأخلاق واقعية في جوهرها؛ ليس بالمعنى المكيافليّ للكلمة طبعاً، بل باعتبارها تسعى إلى تحقيق الخير المشترك.

هل بالإمكان تجاوز تناقضات السياسة؟

أوهام مارييتان

لا يرى آرون في الدعاية التي قام بها مارييتان لهذه «الفلسفة المعادية للمكيافيلية» جواباً مرضياً على الأسئلة التي تثيرها المواقف الملموسة. ومن المؤكد أنه إذا اتبع الناس جميعاً، دوماً، المبادئ المعادية للمكيافيلية، فإن المشكلة ستحل، منذ الآن. ولكن ما إن نواجه المشكلة، منطلقين من السلوك البشري بدل الاكتفاء بجلها فكرياً، حتى تواجهنا مسألة معرفة طريقة تصرف نظام حكم ما، مهما كان صادقاً في إرادته، بالقطيعة مع المكيافيلية. وبالنتيجة يجد مارييتان نفسه مضطراً لأخذ هذا الاعتراض في الاعتبار، حين يشير إلى أن على العدالة أن تتسلح بالسيف، وأن على الأمير أن يتمتع بالحذر والمكر. وهو لذلك يرفض بحزم أن ينعت هذه الممارسات بالمكيافيلية. غير أننا نستطيع أن نعترض عليه بالقول إنه من الصعب تحديد: «أين ينتهي المكر المشروع وأين يبدأ الخداع اللا أخلاقي»⁽¹⁶¹⁾.

أضف إلى ذلك أننا مضطرون للاعتراف أنه ليس هناك تعريف دقيق يسمح بالتمييز الصحيح بين الحالات التي يكون فيها استعمال القوة في خدمة المحافظة على السلام، وتلك التي لا يمكن أن يؤدي فيها إلا إلى الشرور التي تميز الأنظمة العنيفة. ويعني هذا أنه لا توجد «إجابة عامة» عن هذه المسائل: «تتوضح التناقضات والحلول الممكنة لها من خلال تحليل الحالات الخاصة، ضمن نطاق تحليل دقيق للأخلاق السياسية». ومما لا شك فيه أن دعوة مارييتان لنبذ المكيافيلية ليست فارغة من المعنى، وأن علينا أن نبذل الجهد لمواجهة «بفكر مختلف جذرياً». غير أن هذه الثورة في المقاربة السياسية، لا يمكن أن تنهي المشكلات كلها، لأن من غير المجدي أن نتصور أننا نملك دوماً «حرية اختيار الوسائل».

ويبدو ضعف نزعة مارييتان المبدئية والمعادية للمكيافيلية واضحاً إذا نظرنا إلى المشكلات التي تثار في الأوضاع القصوى: يمكن للحكام، في حالات الحرب، أن يضطروا للجوء إلى استخدام وسائل مكيافيلية لتأمين نجاة الجماعة التي يتحملون مسؤوليتها. ويعني هذا أن طبيعة الوسائل التي يستخدمها نظام ما، مهما كان معادياً للمكيافيلية، ترتبط بشكل كبير بالشروط الاجتماعية السياسية التي تفرض

على هذا النظام. وبالنتيجة، إن التناقض بين شروط العمل الفعال (على المدى القريب أقله) والمتطلبات الأخلاقية لا يظهر في الظروف الاستثنائية فقط، بل يرتبط أساساً «بنقص الطبيعة البشرية وشروط العمل السياسي». إن على كل سياسة، في الواقع، أن تأخذ في الحسبان بعض الانتظام كي تتمكن من تحقيق أهداف محدّدة. وبكلمات أخرى، لا يتوجه العمل السياسي إلى المتطلبات المعيارية فقط، بل يشتمل دوماً على بعد ذرائعي. يشير آرون من خلال دراسته لمسألة الدعاية، إلى أنه على السياسة المثالية أن تسعى إلى تربية تنويرية للمواطنين، وذلك على عكس السياسة اللا أخلاقية التي لا تتردد في تنمية المشاعر، بما في ذلك الرديئة، التي يمكن أن تساهم في ازدهار الدول. ومع ذلك، لا يمكن للممارسات السياسية الحقيقية، في الغالب، أن تحقق هذه المثل العليا للعقل التواصل، وتضطر إلى التآرجح بين حدين، وذلك لأنه من المستحيل إهمال القوة بشكل كامل. لذلك، ووفقاً لكل حالة على حدة، يثار السؤال المخرج حول معرفة كيف نرسم الحدود بين «الاستخدام الشرعي للآليات النفسية والاجتماعية» و«الاستغلال اللا أخلاقي للدناءة البشرية». غير أنه يجري التخفيف من خطورة هذه المسائل من خلال موقف ماريان المعادي للمكيافيلية الشرسة، وذلك لأنه لا يمكن، من وجهة نظره، أن يكون للسياسة من هدف سوى الخير المشترك، وليس القوة، ما يقود إلى تأكيد أولية السياسة الداخلية على السياسة الخارجية. ومع ذلك كيف يمكن للقوة الخارجية أن تكون شرطاً للخير المشترك؟ إن الأمة التي ترفض كل سياسة قوة ستكتشف بسرعة أنه «في عالم البشر، تفنى الأمم العزلاء، كما تفنى كل صنوف طلائعها المهمة العزلاء»⁽¹⁶²⁾. أما درس مكيافيلي الشهير حول «سافونارول» (Savonarole) الشخصية المهمة العزلاء فيبقى صالحة⁽¹⁶³⁾.

وتتلاقى، في قلب السياسة، مرة أخرى، التناقضات التي من الوهم التخفيف من حدتها. وهكذا وكما بين ذلك پاريتو سابقاً⁽¹⁶⁴⁾، «نقع في تفاؤل ساذج، إذا تصورنا أن هذه الأهداف المختلفة - ومن بينها الوحدة الوطنية القائمة على العدالة والرفاه، والقوة المادية للجماعة - تتطلب بشكل أساسي وحتمي، استخدام الوسائل نفسها»⁽¹⁶⁵⁾. لقد أراد ماريان نفسه، أن يقدم تعريفاً أخلاقياً واقعياً

للسياسة، في الوقت عينه، متجنباً عقبة «التطرف الأخلاقي المجرد» من جهة - والذي لا يمكن لمتطلباته المتطرفة إلا أن تتحول في النهاية إلى نزعة لا أخلاقية - و«عقبة المكيافيلية» التي تراهن بتصميم على الخبث والشر» من جهة أخرى. ونتساءل، إضافة إلى ذلك، هل تضع محاولة التوفيق هذه حداً لتناقضات السياسة؟ هذا ما يمثل، بكل تأكيد، قناعة الفيلسوف التوماوي الجديد. غير أننا نخشى أن يهمل هذا الفيلسوف «نقص الطبيعة البشرية والاجتماعية وحمولها وماديتها». إذا كان صحيحاً أن ماريثان لا ينكر حجم التقانة الموجودة في السياسة، إلا أنه لا يقدر جيداً أهميتها ولا أبعاد متطلباتها كافة.

أضف إلى ذلك أن ماريثان يميل - باعتباره عضواً من أنصار السلم - إلى إخفاء «تناقضات الوجود»، حيث يؤكد من دون ترو أن المكيافيلية لا تنجح أو لا تستطيع أن تقود إلا إلى انتصارات على المدى القصير. وحتى لو احتوى هذا الموقف على جزء من الحقيقة، تبقى إمكانية ظهور التناقض بين «متطلبات النجاح الزمني والمتطلبات الأخلاقية» قائمة، لذلك يأمل ماريثان إذاً في التخلص من هذه التناقضات من خلال مسلكة ميتافيزيقية لا تنفصل عن موقفه التوماوي الجديد. ليس في استطاعتنا، في الواقع، أن ننسى أن مجمل تفكيره يستند إلى إيمانه بالذات الإلهية. ولكن، ما الموقف حين يغيب هذا الإيمان؟ وفقاً لآرون «إن ماريثان لا يجهل في الواقع هذا المظهر الجدلي، أو بتعبير أفضل، المأساوي للوجود، طالما أنه يعلن أنه لا يمكننا تجنب إغراء المكيافيلية بشكل كامل، إذا تخلينا عن الإيمان بالذات الإلهية». وباستطاعتنا حتى أن نتساءل في ما إذا كان رجل الدولة المسيحي لم يواجه هذه المشكلة بالطريقة نفسها، «هل سيثق بالله كي يحقق انتصار الخير، بعيداً عن النتائج المباشرة لقراراته؟» يعني هذا الأمر أنه مهما كان مفهوم الخير المعتمد من الحكام، فإن النظام السياسي يفرض، في الغالب، سلوكاً يمكن أن يتعارض حتى مع قناعاتهم الأكثر حميمية: «إن ما يمنح الحياة السياسية عظمتها القائمة، أن رجال الدولة يضطرون إلى القيام بأعمال يكرهونها لأنهم يظنون أنفسهم، في يقينهم وضمائرهم، محاسبين القدر المشترك»⁽¹⁶⁶⁾.

من مارييتان إلى ليو ستروس

إحراجات النقد الراديكالي للحادثة

يسمح هذا التساؤل حول قضايا السياسة وحول المكيافيلية بإظهار بعض الحدود الفلسفية لقراءة ليو ستروس لمكيافيلي في نقده للحادثة السياسية، ويقترح آرون من خلال عودته المتأخرة إلى جداله مع مارييتان⁽¹⁶⁷⁾ أن رفضه للتفسير التوماوي الجديد ينطبق على ستروس أيضاً، بعيداً عما يمكن أن يفصل بين هذين الكاتبين. يظهر ما استرعى انتباه آرون من قراءة ستروس⁽¹⁶⁸⁾ في إلحاحه على مسألة تصور مكيافيلي للسياسة، بشكل أساسي، انطلاقاً من *المواقف الحدية*. وما من شك في أن الوقائع والممارسات التي وصفها مؤلف *الأمير* قد عولجت من قبل الأقدمين، ولكن مع هذا الفارق الكبير، بالنسبة إليهم، والذي يرى أن السياسة لا يمكن أن تعرف من خلال أوضاع حدية، بل من خلال المواقف الطبيعية. كذلك لم يكن معنى السياسة قائماً على أساس الشر الحتمي، بل وفقاً لمتطلبات الخير لذلك تمثل القطيعة المكيافيلية مع المبادئ المكونة للفلسفة السياسية الكلاسيكية منعطفاً رئيساً، حمل أكبر الكوارث في العصر الحديث.

ومع ذلك، لسنا أمام برهان أكثر إقناعاً من برهان مارييتان. وذلك لأننا ما إن نبذل الجهد بالتساؤل حول ملائمة الأسئلة التي أثارها مكيافيلي، بدل تقييم مسؤوليته التاريخية في انحرافات الحادثة، حتى نجد أنفسنا مضطرين إلى ملاحظة أنه ليس من السهل جداً تجاوز هذا التساؤل. نستطيع الاعتراض على ستروس، الذي يحكم بقسوة على القطيعة المكيافيلية التي تسعى إلى عدم رؤية السياسة إلا من خلال منظور الأوضاع الحدية، بالقول: «نأسف لأننا لا نستطيع أن نجد في القرن العشرين، لحظات ليس فيها أوضاع حدية⁽¹⁶⁹⁾». لا يعتمد الاعتراض إذاً، بشكل كبير، على إعادة دراسة موقع الخطاب المكيافيلي ضمن تاريخ الفلسفة - كما هو الحال بالنسبة إلى ستروس أو مارييتان - بل على معرفة قدرته على الإضاءة بوضوح غير مسبوق، على الأوضاع الحقيقية التي على العاملين في السياسة مواجهتها. إذا كانت أعمال مكيافيلي لا تزال تثير، في الواقع، اهتمامنا، فلأنها تُظهر كيف يمكن أن تنبعث، من قلب العمل نفسه، بعض الأسئلة التي لا يمكن لأحد ادعاء القدرة

على تقديم إجابات نهائية عنها: «إن الحديث عن مكيافيلي من دون الاهتمام، من وقت لآخر، بالظروف التاريخية الملموسة، ربما يبدو لي، من باب تذليل الصعوبات والابتعاد عما بقي جوهرياً بالنسبة إلى مكيافيلي، وبالنسبة إلينا في كل الأحوال، أي عن حالات الوعي».

نجد أنفسنا مضطرين، إذًا، للاعتراف بالطابع الثابت للتناقضات السياسية. ويرز آرون، المخلص لأفكار فيبر، هشاشة البراهين التي قدمها مارتان أو ستروس من بعده، مبيناً الصعوبات التي تتعرض لها حين ندعي استبعاد المشكلات الحقيقية التي أثارها مكيافيلي بشكل نهائي. ويبين آرون بالنتيجة، إلى أي حد تبتعد الأخلاق التي روج لها مارتان عن أفكار فيبر: إذا عرفنا، مع عالم الاجتماع الألماني، الأخلاق باعتبارها مجموعة القواعد المجردة الإلزامية، فإننا نرى من الصعوبة بمكان نفي وجود تعارض بين الأخلاق والسياسة. يختلف رأي مارتان، بشكل واضح عن رأي فيبر، لأنه يسلّم بأن تناقضات العمل الوهمية جداً قابلة للحل: «إن أخلاق مارتان محسوسة، وبما أنه ليس هناك أخلاق مهنية، فإنه يتحدث عن أخلاق سياسية لا تتناقض بشكل مباشر وشامل مع المفاهيم الأخلاقية»⁽¹⁷⁰⁾، إلا أن علينا أن نضع موضع الشك فعالية هذه «الأخلاق السياسية». وبشكل عام، تعتبر نهاية المكيافيلية التي قالها مارتان بكل تأكيد فالاً حسناً، غير أنه خيالي وخطر في النهاية⁽¹⁷¹⁾.

وهكذا يرفض آرون اتباع العودة التوماوية الجديدة إلى التمييز الأرسطي بين الممارسة والإبداع (praxis et poièsis) الذي تقوم عليه إعادة صوغ "الحذر" (phronésis)، باعتبارها حلاً لإحراجات السياسة. إن المطلوب بالأحرى إدماج المثاليات الكونية في تصور للفعل المسؤول الحريص على النتائج. يستبق التوضيح الذي قدمه آرون عن التناقضات السياسية هنا أيضاً، ومن وجهة النظر هذه، ما سيكون عليه مشروع مدرسة فرانكفورت الثانية، بخاصة لدى آبل. مع ذلك، إن آبل يستند إلى مكيافيلي وإلى مفهوم فيبر «لأخلاقية المسؤولية» كي يرفض كل أشكال النزعة الأرسطية القائمة على مفهوم «الممارسة العملية». ويقوم الرهان هنا على الفهم القائل إنه لا يمكن لرجل السياسة، باعتباره مسؤولاً عن «نظام إثبات الذات» هذا، أي الدولة، أن يسلّم بأن الدول الأخرى ستستخدم متطلبات

الاحترام المتبادل، لدرجة لا يستطيع معها الاكتفاء بالتصرف «وفقاً لعقلانية توافقية»، بل يصبح عليه أن يتصرف "بطريقة استراتيجية"⁽¹⁷²⁾. وإذا كان على السياسي أن يسعى حتماً إلى تحقيق شروط نقاش يقوم على البرهان والتبادل التام، فإن عليه أيضاً أن يكون مستعداً عند الضرورة للجوء إلى العنف ليدافع عن الجماعة. ومن هنا تأتي مآزق النزعة السلمية التقريرية التي يرفضها آبل من خلال حجج قريبة جداً من حجج آرون⁽¹⁷³⁾. ولا يقوم البرهان، في الحالتين على العودة إلى فلسفة أرسطو العملية، بل على ترتيب إرث كانط، مع الأخذ في الاعتبار، وبشكل جدي، فرضية فيبر حول «أخلاقية المسؤولية».

هل كان مكيا فيلي

تقاني سياسة أم مفكر التناقضات

ما من شك في أننا قد بدأنا بتقييم تعقيد تفسير آرون لمكيا فيلي. فإذا كان آرون لا يزال يقدر أن الفلورنساوي مؤسس المفهوم العلمي للسياسة، فيبدو، عموماً، أن مكيا فيلي قد طور مفهومي للفعل يحملان طابعاً تناقضياً، يعرف الأول الممارسة السياسية باعتبارها التطبيق البسيط للمبادئ التي أعلنها العالم وفقاً لأنموذج تقاني صرف، ويواجه الثاني - على عكس ذلك - الفاعل السياسي بمواقف معقدة تثير تساؤلاً دائماً. فهل حدد آرون اختياره النهائي بين هذين البعدين المتعارضين؟ إذا درسنا مقدمة كتاب الأمير⁽¹⁷⁴⁾، نستطيع القول إن شيئاً من هذا لم يحصل. وأكثر من ذلك، توحى قراءة آرون بإمكانية رؤية تفسير آخر لمكيا فيلي في النهاية. يشرح آرون، المخلص للفكرة القائلة إن التعارض بين الأمير والأحاديث وهمي، بأن المنهج المكيا فيلي يتمثل في إهمال "الأوهام" و"الأحكام المسبقة" والاقتصار على ملاحظة أنواع الدول المختلفة وتصنيفها، بهدف بناء «قوانين علمية وليست أخلاقية» يتم - بناء عليها - غزو كل إمارة وحكمها. ويظن الشارح أنه قد توصل إلى يقين: فبدل أن يكون مكيا فيلي «منافقاً كريهاً أو سامياً» يصبح «عالمًا، ويُرضي هذا النعت عصرنا المنتشي بالعلم، بشكل كامل». ومع ذلك، إن مشكلات التفسير لم تحل، فرمما قادتنا الأفكار المسبقة التي تؤثر في

القراءات المعاصرة إلى اكتشاف منهجية علمية صرفة لدى مكيافيلي، مما يجعل مقاربة أخرى أكثر ملائمة في النهاية. تدفع دراسة الفصل السابع المرعب من كتاب الأمير، الذي يعرض بيرودة، «تقانة كبش الفداء»، بخاصة، إلى الشك في الطابع "العلمي" الصنف للمقاربة المكيافيلية. فإذا كان من المستحيل، ربما، رفض حجة الفلورنساوي، فليس من السهل، مع ذلك، القبول بها. فهل يكفي أن تنجح هذه التقانة الجريبة، في الغالب، كي يصبح من حق طبيب الأجسام الاجتماعية أن يوصي باعتمادها؟ وبمكثنا التساؤل، عند هذه النقطة، عن "حياد" مكيافيلي المفترض. يمكن لتحويل مؤلف الأمير إلى عالم صرف أن يضل القارئ: «ألم يكن مكيافيلي يتفاخر بالقول إن الوسائل السياسية الفعالة تناقض تعاليم الكنيسة؟ ألم يكن يكشف من خلال اختياره لأبطاله، تأييده الأكثر ثباتاً مما كنا نتمنى، لما سمي «الحكم على الطريقة الفلورنساوية»؟» إن هناك تفسيراً آخر فرض نفسه منذ ذلك الحين، استوحى بشكل ضمني من ستروس⁽¹⁷⁵⁾ هذه المرة، يبدو فيه مكيافيلي مفكراً مكيافيلياً في لبوس العالم. ويجب ألا تنسينا دقة العالم المزعومة، المواقف المنحازة التي تقف وراء تحليلاته.

في النتيجة بالإمكان الاعتراض، في النتيجة، بالقول إن المراقبين قد استخلصوا من التجربة التاريخية دروساً مختلفة عن دروس مكيافيلي، من دون أن يظهروا أنهم غافلون عن قسوة التاريخ: يشهد بذلك تحليل ماريان الذي واجه المكيافيلية «بحقيقة الأمد التاريخي». وإذا كان رفض ماريان للمكيافيلية غير مقنع بشكل كامل، فلا يمكننا مع ذلك إلا الاعتراف بفضله في توضيح «أن القراءة المكيافيلية للسياسة ليست الوحيدة الممكنة، وأنها تنبع من غاية ما». بذلك تؤكد العودة إلى ماريان الشكوك التي يمكن أن تظهر حول حياد مكيافيلي، غير أنها، مع ذلك، لا تضع حداً للتساؤلات. وفي الواقع، مهما كان الجواب الذي يقدم على السؤال الكلاسيكي حول غايات مكيافيلي النهائية، فإننا مضطرون لملاحظة أن هناك جدلاً باقياً «عادياً وغامضاً» يرتبط بجوهر السياسة. ويمكن إعادة صوغ هذا الجدل على النحو التالي: «السياسة فعل، والفعل يسعى للنجاح، وإذا كان النجاح يتطلب استخدام الوسائل المرفوضة أخلاقياً، فهل على الأمير أن يحجم عن النجاح؟ وتلطخ الأيدي والتضحية

بخلاص روحه من أجل خلاص المدينة؟ وأين يتوقف على الطريق الذي لا يستطيع إلا أن يسلكه؟ أية كذبة يرفض إذا كان اعترافه بالحقيقة تؤدي إلى دماره؟». غير أن الفلورنساوي لم يكتف بإثارة هذه المشكلات، لأنه كان يملك الشجاعة «للذهاب إلى نهاية منطوق الفعل الذي يسعى القارئ للهروب منه عبر تساؤلات بلا أجوبة»⁽¹⁷⁶⁾. لا تشكل تعاليمه، بهذا المعنى، مصدر ثقة علمية مزعومة، كما أنها لا تعتبر، كما ظن ستروس، تحريماً في الفلسفة الكلاسيكية: تثير هذه التعاليم، لدى القارئ، تساؤلاً لا نهاية له حول تناقضات السياسة.

نخب وتعددية: من مكيافيلي إلى المكيافيليين

يقترح شرح آرون، بذلك، مقاربتين لأعمال مكيافيلي. فهو يعتبر مؤلف الأمير رائد مفهوم تقاني صرف للسياسة، مفهوم يشرّ بعدمية أنظمة الطغيان الحديثة من جهة، غير أنه يرى أن أهمية مؤلفاته تكمن في الطريقة التي تثار فيها تناقضات السياسة من جهة أخرى. إن هذين التساؤلين اللذين يبدوان متناقضين للوهلة الأولى يتكاملان من وجهة نظر معينة، لأنهما يلبيان الغاية نفسها. ففي مواجهة المكيافيلية المطلقة في الأنظمة الشمولية، علينا أن نوضح حدود النزعة السلمية العقائدية، من أجل شرعنة استخدام الديمقراطيات للمكيافيلية المعتدلة، اللازم من أجل تأمين بقائها. لم يهمل هذان الخياران التفسيريان بشكل كامل خلال فترة ما بعد الحرب، فقد حافظت نظرية التناقضات السياسية وظهور مكيافيلية معتدلة، بشكل واضح دوماً، على أهمية خاصة. وبالمقابل، اتخذت الفكرة التي ترى في مكيافيلي منظرراً لأنظمة الطغيان الحديثة، صيغة جديدة بعد زوال النازية والفاشية. أما الصورة الوحيدة المتبقية من الآن فصاعداً، الأنظمة الشمولية الشيوعية، فلا تزال تبدو أنها مكيافيلية، ولكنها مكيافيلية جزئية تخضع عملها بشكل نهائي للإيديولوجيا⁽¹⁷⁷⁾. ولقد أصبحت قراءة آرون أكثر تعقيداً، بخاصة بعد الحرب. يعيى آرون، في الواقع، فكر مكيافيلي ضمن توجه جديد، فاتحاً حقل استكشاف خصباً لإدراك جوهر الديمقراطية. وما من شك في أنه يجمع بين اسمي

مكيافيلي وباريتو، غير أن تحليله لعلم اجتماع باريتو⁽¹⁷⁸⁾ قد تغير بشكل ملحوظ. يبدو فكر باريتو، من الآن فصاعداً، في نظر آرون، أداة قوية في كشف الإيديولوجيا الشيوعية، بعد أن كان قد اعت بر- قبل الحرب وبعدها - مبشراً بالفاشية؛ بالرغم من أنه ليس بالإمكان حصر هذا الفكر ضمن هذا البعد وحده⁽¹⁷⁹⁾.

لا نستطيع، في الواقع، أن نتجاهل كل ما يدين به نقد الإيديولوجيات في كتاب *أفيون المثقفين* (*Opium des intellectuels*) للمبادئ الأساسية لعلم اجتماع باريتو. في الواقع، لقد اعتمد آرون بشكل كبير على باريتو، في تحليله للظاهرة الشيوعية، كما حاول ذلك جول مونرو (*Jules Monnerot*) قبله⁽¹⁸⁰⁾. ومن جهة أخرى، يظهر تعاطف آرون مع بعض أوجه أعمال باريتو بوضوح في مقدمته لكتاب *المطول في علم الاجتماع العام*: «لنسمح لي بالاعتراف أن الأحداث في عمومها، قد رجحت في الغالب، ومنذ نصف قرن، آراء باريتو، لدرجة لا أستطيع معها إنكار وضوح الرؤية التي يدين بها المراقب للتشاؤم، في الغالب»⁽¹⁸¹⁾. ويشرح باريتو في الفصل التاسع من كتاب *الأنظمة الاشتراكية* قائلاً إنه «لا يمكن لمشكلة التنظيم الاجتماعي أن تحل من خلال تصريحات تعتمد على فكرة غامضة إلى حد ما عن العدالة، بل من خلال أبحاث علمية محضة»⁽¹⁸²⁾. ويؤيد آرون مثل هذا المنهج. وهكذا لا يعود باريتو يبدو، من الآن فصاعداً، باعتباره أباً لموسوليني، بل حفيداً لقولتير: «رجل فلسفة التنوير، الذي يضع العلم والحقيقة فوق كل شيء»، ويظهر فجأة من وراء الشك والبيان الساخر»⁽¹⁸³⁾. يبدو آرون هنا أكثر قرباً من فكرة لا فيرلا (*La Ferla*) الذي يرى أن باريتو «فيلسوف قولتيري»⁽¹⁸⁴⁾. وحتى حين تبقى حدود علم اجتماع باريتو واسعة، فهو يوحى إذاً بأنه ليس باستطاعتنا أن نجعل منه المبشر بالفاشية، من دون أن نقع في تبسيط خاطئ. ويشير آرون، في الواقع، في كتابه *مراحل الفكر الاجتماعي*، ومن خلال إعادة النظر في التفسير الذي عرضه في فترة ما قبل الحرب، إلى أن باريتو «لم يكن متوحشاً قط» وأن أعماله قد شوّهت وحولت إلى أداة على أيدي الفاشيين: «إذا كان يقبل أن يكون هدف السياسة التقليل، قدر الإمكان، من حجم العنف

التاريخي، فإنه يضيف بأن الادعاء الوهمي بإلغاء العنف يؤدي في الغالب إلى زيادته بشكل غير محدود»⁽¹⁸⁵⁾. لقد تم التحضير بكل تأكيد لهذه المقاربة لپاريتو ضمن إشكالية آرون حول تناقضات السياسة. غير أن آرون لم يخرج من هذه الإشكالية بتميز صارم بين علم اجتماع پاريتو والمذهب الفاشي.

إعادة تقويم مكيافيلّي: المكيافيلّيّة الجديدة

تظهر أسباب هذا التغير في التفسير إذا لاحظنا أن اسم مكيافيلّي لم يعد، بعد الحرب، مرافقاً لاسم پاريتو فقط بل أضيف إلى هذا الأخير كل من غايتانو موسكا (G. Mosca) وريبرت ميشيلس (R. Michels). وهكذا، «توضع أعمال پاريتو ضمن سياق المفكرين السياسيين الذين كان مكيافيلّي أولهم وأعظمهم». ربما كنا هنا بصدد تيار ثقافي إيطالي يركز على مسألة النخب: «إن الإلحاح على ثنائية الحاكمين والمحكومين، والملاحظة اللامبالية أو اللا أخلاقية لدور النخب، وطيش الجماهير، تشكل علم اجتماع مرتكزاً على الموضوع السياسي، الخاص بتقاليد إيطالية، عبّر عنها كل من غيشاردان وموسكا إضافة إلى مكيافيلّي»⁽¹⁸⁶⁾. وربما أثرت هذه التقاليد أيضاً في فرنسا، كما أثرت في الكاتب جورج سوريل (G. Sorel) الذي يتبع «المدرسة المسماة مكيافيلّيّة».

حتى لو أن تحليل آرون لا يتراجع تماماً عن التلميح إلى العلاقات الممكنة بين الفكر السياسي الإيطالي والفاشية، فإن التفسير يأخذ اتجاهاً آخر. وهكذا يُعتبر موسكا وپاريتو في كتاب *خيالات أمل التقدم* (Les Désillusions du progrès) «أهم ممثلين للنظرية المكيافيلّيّة الجديدة» للنخب، والتي تسعى إلى إخضاع الديمقراطية البرلمانية وكذلك الطوباويات الاشتراكية لنقد راديكالي: «تدين المكيافيلّيّة الجديدة، أو تقضض، من دون تمييز، الأحزاب الحاكمة كافة، وجميع الأنظمة القائمة. إنها نظرية مشؤومة، في شرق الستار الحديدي كما في غربه، وهي تتوضع ضمن سياق التقاليد الإيطالية التي تأخذ اسمها من مكيافيلّي، المعظم والملعون»⁽¹⁸⁷⁾. يشكل موسكا وپاريتو وميتشلس أو سوريل أيضاً، إذاً، تياراً حقيقياً، لا يوجد محرض وراءه سوى مؤلف الأمير، لذلك لا يتردد آرون في

الكلام عن مكيافيلية جديدة، وبتواتر أكبر، عن "مكيافيليين"، للإشارة إلى هذه المدرسة الأصيلة في الفكر السياسي. غير أن هذا التصنيف لا يسير أبداً تلقائياً. ربما تمكن آرون، أولاً، من اعتبار پاريتو وميتشلز منظرين للفاشية. وإذا لم يتردد بعض المؤلفين، مثل فيتوريو زينكوني (V. Zincone) في إيطاليا، خلال فترة ما بعد الحرب، في تعبئة علم اجتماع ميتشلز السياسي من أجل بناء نقد لـ «الدولة الشمولية»⁽¹⁸⁸⁾، يبدو محللون آخرون أكثر تحفظاً. وهكذا يذكر سيرج تشاخوتين (S. Tchakhotine)، أيضاً، عام 1951 في كتابه *اغتنصاب الجماهير بالدعاية السياسية*⁽¹⁸⁹⁾، بمسؤولية أعمال فرد مثل ميتشلز في ظهور الحركات الشمولية. ولنصف أنه حتى لو تم في الغالب تأكيد⁽¹⁹⁰⁾ العلاقة الواضحة بين موسكا وپاريتو، وسوريل وميتشلز، فلا يجوز أن نقودنا هذه العلاقة، بالضرورة، إلى تصنيف هؤلاء الكتاب في تيار متجانس. وبهذه الطريقة، قام ألكسي نادر ليفينغستون (A. Livingston) بالتقليل من أهمية تأثير موسكا على پاريتو⁽¹⁹¹⁾، وذلك في مقدمة النسخة الأمريكية لكتابه *مبادئ علم السياسة*. وأخيراً، لا يبدو بديهياً أبداً أن نصنف هؤلاء الكتاب المختلفين، في إطار الفكر المكيافيلي، لدرجة نعتهم فيها "بالمكيافيليين"، كما فعل آرون ذلك. لقد دافع جيمس بورنهام (J. Burnham) عن هذا الرأي في مؤلفه المنسي تماماً اليوم: *المكيافيليون المدافعون عن الحرية*⁽¹⁹²⁾. يقوم رهان هذه الدراسة، في الواقع، على إظهار الإيحاء المشترك الذي تلقاه هؤلاء المفكرون السياسيون. ومع ذلك، يعرف آرون جيداً هذا المؤلف المنسي ولا يجهل مؤلفه⁽¹⁹³⁾، وذلك لأنه قد ترجم ونشر تحت إشرافه، في فرنسا⁽¹⁹⁴⁾. لقد ساهم هذا الكتاب، ذو العنوان المستفز بكل تأكيد، والذي عرف، في زمانه، بنجاحاً أقل من كتاب *الثورة المدبرة* (Managerial Revolution)، في تحديد النظرة لمكيافيلي، وكذلك لأعمال موسكا أو پاريتو أو ميتشلز، الذين اعتبروا، عامة، وحتى تلك اللحظة، مبشرين بالفاشية. وكما ذكر بذلك جيوفاني سبادوليني (G. Spadolini)، إن تفسير بورنهام قد قام بذلك بدور حاسم، في نجاح النقد لموسكا، لأنه جعل منه، بعد الآن، «مدافعاً عن الحرية»⁽¹⁹⁵⁾ بدل أن يكون مكيافيلياً. أما نوربرتو بويو، فيشرح، معتمداً بشكل رئيس على بورنهام، بأن المفتاح التفسيري الذي

يرى في پاريتو إنساناً لا أخلاقياً ومكيا فيلياً - وهو الأكثر انتشاراً - يبدو مفتاحاً رديئاً، في النتيجة، ولا يصلح لفهم المطول في علم الاجتماع العام⁽¹⁹⁶⁾.

ويبدو التأثير الذي تركه بورنهام لدى آرون، بخاصة، واضحاً. وفي ما يتعلق بالتصنيف المقترح قبله، في كتاب المكيا فيليين، ييدي آرون، في الواقع، إخلاصه أو أقله قربه، من هذا التصنيف الذي لم يتحقق مطلقاً، وذلك من خلال اللجوء، من الآن فصاعداً، وحتى في كتاباته الناضجة إلى صنف المكيا فيليين.

وفي كل الأحوال، كانت إعادة القراءة التي اقترحتها بورنهام موضع شك على أصعدة كثيرة. ويذكر بوبيو نفسه، وهو يعارض رأي بورنهام، بالمسافة الواضحة التي تفصل موسكا عن مكيا فيلي⁽¹⁹⁷⁾. أما في ما يتعلق بـ جيمس هـ. ميسل (J. H. Meisel)، فقد طور في كتابه أسطورة الطبقة الحاكمة، نقداً معمقاً لمقولة بورنهام التي تعتبر موسكا متابعاً حقيقياً لمكيا فيلي⁽¹⁹⁸⁾. وتظهر دراسة مركزة ما هو قابل للنقاش بعمق في منهج بورنهام: «لقد قرأ المحدثون موسكا وپاريتو، وحتى مكيا فيلي، ثم وبمهارة عالية، قلب المسار للوصول إلى مدرسة المكيا فيليين الجديدة⁽¹⁹⁹⁾. ويدفعنا هذا الأمر، بالمقابل، إلى ملاحظة أن الطابع الفريد والهش لتصنيف بورنهام لم يسترع انتباه آرون قط. فقد اعتمد هذا الأخير، وبشكل منتظم، مصطلح "المكيا فيليين"، ضمناً إليهم مكيا فيلي نفسه، من دون أن يقف مطولاً على أسباب هذا الاختيار، لذلك من الضروري الخروج من إهمال كتاب بورنهام. وسنرى، في الواقع، أن عدداً من تحليلات آرون المكرسة لمكيا فيلي وتابعيه، تعود بشكل ضمني إلى القضايا التي صاغها في كتابه المكيا فيليين وذلك من أجل إعادة صوغها وتحويرها أو نقدها أيضاً.

جيمس بورنهام:

مكيا فيلي والمكيا فيليين المدافعون عن الحرية

ينطلق شرح كتاب المكيا فيليين من تحليل الفلسفة السياسية لدى أليغييري دانتي (A. Dante) الذي يعارض مكيا فيلي في كل شيء. ووفقاً لتقدم بورنهام، يشير كتاب الملكية (De Monarchia) ثلاث قضايا رئيسية: أولاً، إن البشرية

بأسرها تطمح أن تحكم من قبل إمبراطورية واحدة ووحيدة، ثم إن على الإمبراطور أن يمارس هذه السيادة، وأخيراً لا يجوز أن ترتبط سلطة هذا الإمبراطور بسلطة الكنيسة. وتقوم النقطة الأولى على المبدأ الذي يرى أن الغاية النهائية للإنسان تتمثل في تحقيق كامل إمكانياته، أي، وفي التحليل الأخير، الخلاص الأبدي وملاقة ربه. وبذلك يكون هدف السياسة الأرضية تقدم الشروط - التي يقع السلام الشامل في الصنف الأول منها - التي تساعد على تحقيق هذه الغاية النهائية. وأخيراً، إن هذا السلام الشامل سينظم من أجل الواحد: باعتبار أن الله هو الوحيد العلي، والغايته أن تكون الوحدة البشرية على صورته، فمن الضروري أن تتوحد البشرية تحت سلطة واحدة⁽²⁰⁰⁾. لقد استند تقدم كتاب *الملكية*، إلى تحليل نقدي لدانتي يرى أن الهدف النهائي هو «الخلاص الأبدي في الجنة». أما الأهداف على الأرض المرتبطة بهذه الغاية النهائية - أي تطوير الطاقات البشرية والسلام الشامل الحكم الموحد - فهي غير قابلة للتحقق بكل تأكيد، بل تبقى طوباوية، وليس بالإمكان إدراكها⁽²⁰¹⁾.

ومع ذلك ليس المطلوب إدانة الطابع الطوباوي لفكر دانتي وحسب، إنما يقوم الرهان على إظهار أن «الدلالة الشكلية» لكتاب *الملكية* تعبر - من خلال وضعه في سياقه التاريخي - وبشكل غير مباشر، عن «دلالة حقيقية» أو تخفيها؛ دلالة تعني تأييد الجلبيلين (Les Gibelins)، أنصار الإمبراطورية. وستكون للطابع النبيل و"المثالي" للأهداف التي أعلنها دانتي، بالنتيجة، وظيفة إيديولوجية بحثية. إنها إقناع القارئ «بحسن نيته» وبدفعه بذلك، لقبول انحياز أكثر ابتذالاً، بطريقة ملتوية. يرى بورنهام أن هذه النقطة بحاجة إلى توضيح، وخصوصاً أن هذا الطراز من المنهجية التي اتبعها دانتي لا تزال ترفد، الخطابات السياسية، عبر القرون. لم يعد أحد اليوم يتحدث، طبعاً، عن «الخلاص الأبدي» في المذاهب السياسية. ومع ذلك، إذا غيرت الأساطير والأشباح والتجريدات المثالية أسماءها وأشكالها، فإن "المنهج" ذاته يبقى وبشكل أساسي: وكما في كتاب *الملكية*، نلاحظ أيضاً، في الغالب، فصلاً بين «الدلالة الحقيقية» و«الدلالة الشكلية»، في الخطاب والمعاهدات السياسية. في الواقع لا تقترح البرهنة الصريحة، وفي معظم الأحوال، إلا أهدافاً ذات

طابع ميتافيزيقي، فارغة من الدلالة بالنسبة إلى تعريف العمل السياسي الملموس، أو مستحيلة التنفيذ في العالم الذي نحن فيه⁽²⁰²⁾.

لا تشبه إشكالية دانتي إذاً في شيء إشكالية مكياڤيلي. وعلى عكس كتابات السكرتير الفلورنساوي، إن كتاب الملكية لا يحتوي في الواقع، أية دراسة علمية للسياسة. وعلينا أيضاً أن نؤكد أن السبب الرئيس لهذا النقص لا يعود إلى أن دانتي يشير إلى بعض الغايات الأخلاقية الواجب تحقيقها. وذلك لأنه، وفي النهاية، لا يقتصر مكياڤيلي نفسه أيضاً، على ملاحظة بسيطة وحسب، فليست الأهداف التي يقترحها من النوع الذي يعرض في كتاب الملكية، وذلك لأنها قابلة للتحقيق بشكل كامل. ويذكر بورغهام أولاً، ومن أجل تبرير هذه المقولة، أن العلم يشتمل على أهداف خاصة: التوصيف الدقيق والمنظم للوقائع، وبناء القوانين، وأخيراً استشراف الوقائع المستقبلية. وهكذا يجب أن يكون أي بلاغ علمي واضحاً بشكل كافٍ، كي تتمكن من الطعن فيه تجريبياً. وكما هو الحال لدى مكياڤيلي تماماً، يمكن لتحقيق العالم أيضاً أن يقترح أهدافاً عليها أن تحترم بعضاً من المتطلبات، حتى وإن اختلفت عن الأهداف الملزمة للعلم: أن تكون قابلة للصوغ بمفردات ملموسة، وأن تتضمن حداً أدنى من احتمال التحقق، على عكس الأهداف ذات الطابع "السامي"، وكذلك، علينا ألا نغفل عن أن «الأهداف تمثل تمنياتنا وآمالنا ومخاوفنا، غير أنها لا تُثبت شيئاً من وقائع العالم الحقيقية». وينطبق هذا الأمر على الملكية التي لا تعبر إلا عن «إسقاط منظم لثمن، وهي لذلك لا تعلمنا شيئاً»⁽²⁰³⁾. ويعود الفضل إلى مكياڤيلي - ولتابعيه كما سنرى - في أنه قد حدد للسياسة غايات يمكن أن يعتبرها العلم ملائمة. وكان الهدف المباشر الذي حدده مكياڤيلي، في الواقع، هو التوحيد القوي لإيطاليا. وما من شك في أن هذا المشروع التاريخي لا يبدو على درجة عالية من النبل، غير أنه لا يمكن لأحد أن يدعي أن لا معنى له أو أنه طوباوي، في أوروبا القرن السادس عشر. علينا، إذاً، أن نؤكد أن فكر مكياڤيلي لم يزعم مطلقاً أنه يقيم السياسة على مثاليات غير قابلة للتحقق، وأنه لا يحتوي على أي فرق بين «المعنى الشكلي» و«المعنى الحقيقي»، على عكس ما ورد في الملكية⁽²⁰⁴⁾. ويعتبر الفصل الأخير من الأمير ذا دلالة من

وجهة النظر هذه، فهو يحمل عنواناً صريحاً: «دعوة لتخليص روما من البرابرة»، ويقترح غاية ملائمة للسياق التاريخي، بعيدة عن كل غموض و"تقدمية"، بكل تأكيد، في نهاية المطاف⁽²⁰⁵⁾.

لا تقوم المساهمة المكيافيلية إذاً، كما ادّعي، في الغالب، استناداً إلى كروتشي (Croce)-، على الفصل الحاد بين الأخلاق والسياسة⁽²⁰⁶⁾. وفيما يعتبر معظم الشارحين أن مكيافيلي قد حقق القطيعة «الخطرة» بتحرير السياسة من الأخلاق، بهذا الشكل الحاد، فإن بورنهام يرى، من جانبه، أن مكيافيلي لم يفصل السياسة إلاّ عن نوع معين من الأخلاق، أي ما يعرف بالأخلاق "السامية" غير القابلة للتحقق، وذلك كي يدمجها بشكل حازم في «العالم الحقيقي». لذلك، إننا نخطئ حين نقارن، بطريقة تقليدية سياسة دانتي الأخلاقية بحياة مؤلف الأمير الأخلاقي: «إن مكيافيلي أخلاقي مثل دانتي. والفارق الوحيد يكمن في أن أخلاق مكيافيلي أفضل»⁽²⁰⁷⁾. ويأتي هذا التفوق، بكل تأكيد، من واقعة أن مكيافيلي ينظر إلى البشر كما هم، ولا يقترح أهدافاً غير قابلة للتحقيق.

يشبه منهج مكيافيلي، بهذا المعنى، منهج العلوم المطبقة في السياسة. وتشكل أعماله، كما أعمال دافنشي أو كوبرنيك، المرحلة الأولى من العلم الحديث. والدليل على ذلك أن مؤلف الأمير قد استخدم اللغة استخداماً "معرفياً" و"علمياً"، لم يكن هدفه التعبير عن انفعالات، بل إثارة تأكيدات دقيقة ترجع إلى العالم الحقيقي، تأكيدات قابلة للرفض تجريبياً؛ وهذا ما أسماه بوبر بلاغات "قابلة للتحريف". ثم يقوم مكيافيلي بالتحديد الدقيق لحقل السياسة: إذ لا يهتم بحته بمسألة المجتمع المثالي أو بالطموح الذي يقود البشرية إلى السلام والانسجام. وعلى العكس من ذلك تماماً، يظهر أن السياسة هي قبل كل شيء «دراسة النزاعات بين البشر على السلطة». ويهمل السكرتير الفلورنساوي من خلال تقليص حقل استقصائه، الأحلام المثالية ويحفظ درساً قاسياً من التجربة - درساً مؤداه أن الإنسان يتوق دوماً إلى زيادة سلطته وامتيازاته، بدل السعي بشكل طبيعي، لبناء مجتمع طيب أو من أجل السلام. وهكذا، وعلى العكس من دانتي، لا يستتبط مكيافيلي مبادئه السياسية من مبادئ عامة يفترض أنها تعرف جوهر الإنسان

والمجتمع والكون والغاية من ذلك. والواقع، وحده، ينبغي أن يكون دليلاً. من غير المجدي، بالنتيجة - وتلك قناعة لدى بورنهام - التمييز بين الدلالة الظاهرة والدلالة الباطنة لدى مكيافيلي. فإن مثل هذا النوع من التمييز بعيد، في الواقع، عن مفكر سياسي يحركه «شغف شديد ومهيمن بالحقيقة»⁽²⁰⁸⁾.

ندين لهذا العلم المكيافيلي، بشكل خاص، بتوصيف دقيق «للإنسان السياسي». وذلك لأن الفلورنساوي لا يهتم «بالطبيعة البشرية» عموماً، بل بسلوك الإنسان باعتباره كائناً سياسياً. ليس تشاؤم مكيافيلي المفترض والمتعلق بالكائن البشري، سوى توصيف دقيق «للسلوك السياسي» وحده لدى الأفراد⁽²⁰⁹⁾. وهكذا فقد عرف مؤلف الأمر نوعين أساسيين من «البشر السياسيين»، على ضوء هذه الملاحظات: «النموذج القائد» و«النموذج المنقاد» (المقود). ويشير النموذج الأول إلى الذين يحتلون مناصب القيادة في المجتمع وإلى من يطمعون بمواقع الهيمنة، ويجمع الثاني غالبية الأفراد الذين لا يمتلكون أي وظيفة قيادية، كما أنهم غير قادرين على التطلع إليها. ويرى تشخيص بورنهام أن مكيافيلي - كما أولئك الذين انتسبوا إليه لاحقاً - يشير إلى هذا التمايز باعتباره الواقعة الأولى في السياسة: يقتصر الصراع من أجل السلطة، في الواقع، على أقلية، بينما تبقى الأغلبية خاضعة ومحكومة دوماً. ويرى مكيافيلي، في الواقع، أن الصفة المميزة للأغلبية تتمثل في سلبيتها السياسية: إن المحكومين لا يسعون إلى امتلاك السلطة، ويكتفون بالحد الأدنى من الأمن، إذا هم لم يدفعوا إلى العمل من خلال استفزاز القادة، أو من خلال ظرف استثنائي. غير أن كلام بورنهام يسعى، بعيداً عن إعادة قراءة مكيافيلي هذه، إلى إثبات أن درسه قد استؤنف وعمق في أعمال موسكا وسوريل وميتشلس وباريتو الذين ينتمون إلى التقاليد، رغم الفروق القائمة بينهم، وذلك بعد فترة طويلة من النسيان وسوء الفهم. وعلينا الآن أن نظهر انسجام هذه التقاليد، كما فهمها بورنهام.

غاييتانو موسكا منظر «الطبقة الحاكمة»

لقد كان المفكر السياسي الإيطالي موسكا، أول محرض على إحياء الأفكار المكيافيلية. يسلم مؤلف مبادئ في علم السياسة⁽²¹⁰⁾ بوجود واقعة ثابتة شاملة

تتمثل في مجموعتين متميزتين تماماً، «الطبقة الحاكمة»، وهي أقلية دوماً، و«الطبقة المحكومة» التي تمثل غالبية أعضاء المجتمع، وذلك من خلال تبني منهجية ذات طابع "علمي"، مقلداً بذلك ميكافيلّي وبدقة لا تقارن⁽²¹¹⁾. يشير موسكا، في الفصل الثاني من مبادئ في علم السياسة، في الواقع، إلى الطابع المستمر للطبقة الحاكمة، وكذلك إلى ضرورتها: «نحن نعرف جميعاً أن إدارة الشؤون العامة في بلادنا هي في يد أقلية من الأفراد ذوي النفوذ، وتحمل الأغلبية - شاءت أم أبت، - إدارتها، والأمر كذلك في كل مكان، وليس باستطاعتها أن تتصور عالماً منظماً بطريقة مختلفة يكون فيه الجميع خاضعين لشخص واحد، أو أنهم يديرون شؤونهم السياسية بشكل جماعي، على قدم المساواة، ومن دون أية تراتبية»⁽²¹²⁾. ويوضح بورنهام بقوله: تبقى نظرية «الطبقة الحاكمة» صالحة مهما كانت الصيغ السياسية والاجتماعية، وسواء أكان المجتمع إقطاعياً أم رأسمالياً، وسواء أكان ملكياً أم أقلياً أم ديمقراطياً، فإن هناك - وسيكون دوماً - مجموعة أقلية منظمة تمارس سلطتها على أكثرية سلبية وغير منظمة⁽²¹³⁾. يرى موسكا أنه من البديهي أن تحكم أقلية، وليس الشعب بشكل مباشر، حتى في الديمقراطية، وعلى عكس ما يعلنه الخطاب الرسمي. وذلك لأن الاقتراع العام لا يغير شيئاً في هذه الواقعة الأبدية في المجتمعات البشرية، بالرغم من المظاهر: «ففي الانتخابات كما في بقية مظاهر الحياة الاجتماعية، أولئك الذين يملكون الإرادة وبخاصة الوسائل الأخلاقية والفكرية والمادية اللازمة لفرض أنفسهم على الآخرين يصبحون قادة وحكاماً»⁽²¹⁴⁾.

لا تنفصل هذه النظرية، حول استمرار النخب المنظمة، عن مفهوم «الصيغة السياسية». ويبين موسكا، في الواقع، أن «الطبقة السياسية» تسعى دوماً إلى بناء معتقدات مهيمنة في المجتمع، بدل أن يقتصر عملها على فرض سلطتها باعتبارها سلطة الأمر الواقع. ومن بين الصيغ السياسية هناك تلك التي تقوم على مبدأ «الحق السماوي» الذي يمنح الشرعية لنمو الملكيات، كما يعتبر مبدأ «الإرادة الشعبية» كصيغة أخرى في المجتمعات "الديمقراطية" المعاصرة صيغة. وينبه موسكا، مع ذلك، إلى أن الصيغ المختلفة ليست مشعوذات سوقية اخترعت من أجل انتزاع طاعة الجماهير وحسب⁽²¹⁵⁾: تشبع «الصيغة السياسية» في الحقيقة، حاجة إنسانية

مشتركة لدى الناس جميعاً؛ إنها حاجة أن تحكم أو تحكم على أساس مبدأ أخلاقي، وليس بالقوة وحدها.

هكذا يسمح تفحص هذين المفهومين «الطبقة السياسية» و«الصيغة السياسية» بفهم إخلاص مؤلف كتاب *مبادئ الفكر السياسي* لدرس مكيافيلي. ويمكن توصيف منهجية موسكا أيضاً بأنها "مناقضة للشكالية": إن المطلوب في الحالتين البعد عن الفهم الحرفي لمنح الشرعية السياسية. وذلك لأن علينا أن نكشف الطريقة التي تصرف بها النخب السياسية بشكل حقيقي. إذ يعتبر موسكا أن الصراع، من أجل الهيمنة بين الأفراد، هو أحد الملامح الأساسية للحياة السياسية. ويدرس، كما مكيافيلي، الصفات المطلوبة من أجل السيطرة على الحكم والمحافظة عليه، من خلال الوقائع المعينة لوحدها. ولا تعتبر الحكمة أو الغيرة من هذه الصفات، بل القدرة على العمل والطموح الاستثنائيان؛ بكلمة واحدة يقصد بتلك القدرة «فضيلة مكيافيلي». وحول هذا الموضوع، يرجع موسكا بشكل صريح إلى مكيافيلي: «نحتاج كي نحكم الناس إلى الحصافة والحدس السريع، وعلم نفس الأفراد والجماعات، وبخاصة إلى الثقة بالذات وقوة الإرادة، أكثر من روح العدالة والغيرة وسعة الفكر والأفق. لم يكن مكيافيلي عابثاً حين أورد على لسان كوسيمو دي ميديتشي (Cosimo de Medicis) العبارة الشهيرة: لا تقاد الدول بالصلاة والدعاء وحدهما»⁽²¹⁶⁾. أضف إلى ذلك أننا سنرى أن موسكا لا يتوقف عند هذه الملاحظة المتنورة: فقد سعى إلى تحديد نوع الحكم الأفضل، من خلال اعتبار التقسيم بين حكام ومحكومين بنية دائمة للمجتمع. ولا يمكننا، هنا أيضاً، أن نشكك في إخلاصه لمكيافيلي.

روبرت ميتشلس أو «حدود الديمقراطية»

ربما يعود الفضل، إذاً، إلى منهجية موسكا "العلمية"، في إثبات أن الديمقراطية نفسها حكم أقلية. ومع ذلك، فقد كان ميتشلس⁽²¹⁷⁾ أول من قدم دراسة "مكيافيلية" عن الأنظمة الديمقراطية. ويعتبر هذا التوجه ذا قيمة بالغة لأنه يقطع الصلة بشكل حاسم، مع رأي مغاير مسيطر وخاطئاً. يدعي معظم منظري

السياسة، في الواقع، أنهم يشرحون «كيف نفعل الديمقراطية»⁽²¹⁸⁾. ويقوم هذا النوع من المقاربة على مسلمة تقول إن الديمقراطية شيء «مرغوب وممكن في الآن نفسه»؛ غير أن هذه المسلمة تكشف، من جهة أخرى، أن هذا النظام يبقى من حيث الممارسة بعيداً جداً عما يمكن أن يثبه المبدأ الديمقراطي من أمل. وفي المقابل، لا يطلب المكيافيليون، بخاصة ميتشلس، تبني الأفكار الديمقراطية، من دون تبصّر، بل إنهم يطلبون، وعلى العكس، التحديد المسبق والدقيق لماهية هذه الأفكار: «قبل أن نسأل مثلاً كيف يمكن أن نحكي الديمقراطية، علينا أن نسأل إن كانت قابلة للتطبيق، وإلى أية درجة. ويحرص المكيافيليون، في العموم، على فصل المسائل العلمية الخاصة التي تحدد حقيقة المجتمعات، من جهة عن النزاعات الأخلاقية المتعلقة بمسألة معرفة المجتمع المنشود من جهة أخرى»⁽²¹⁹⁾. وهكذا يقوم منهج ميتشلس في دراسته لتفعيل المنظمات السياسية في المجتمعات "الديمقراطية" على إهمال «المبادئ الأولى» و«القضايا الميتافيزيقية»: ليس الرهان أن نقول «ما يجب أن يكون» بل أن نوصّف فقط ما هو كائن. لم يتبنّ مؤلّف كتاب الأحزاب السياسية، في الواقع، التصريحات والمعتقدات البشرية، بل أخذ في الحساب ما لاحظته تجريبياً. ولم يتبع، في أثناء قيامه بذلك، «منهج دانتي بل منهج مكيافيلي». وتشكل دراسة الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني، ضمن هذا المنظور، اختباراً حاسماً، بالمعنى الذي يمنحه پوپر لهذا المصطلح. وإذا كان بإمكاننا أن نلمح اتجاهات أساسياً نحو حكم الأقلية، بما في ذلك هذه الحركة التي تتبع الأفكار الديمقراطية، فإن علينا أن نستنتج عندئذٍ بأن الديمقراطية، كما تفهمها النظرية السياسية أقلّه، أمر مستحيل. إنها نتيجة أبحاث ميتشلس التي قادته إلى التأكيد على أن ديمقراطية مثالية لا يمكن أن تقوم بشكل فعلي في المجتمعات الحديثة، ولا حتى في أي مجتمع، بكل تأكيد.

تقوم النظرية الديمقراطية على مبدأ "الحكم الذاتي": ووفقاً لهذا التعريف، إن أعضاء المجتمع كافة لهم القدرة - وكذلك الواجب - على أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم⁽²²⁰⁾. ومع ذلك تبين الدراسة الدقيقة أن مثل هذه المبادئ غير قابلة للتحقيق. إذ يلاحظ ميتشلس أولاً أن الجماعة تجد نفسها محدودة دوماً - يُستبعد،

مثلاً، الأطفال أو المحرمون - وأنه غير صحيح، من وجهة النظر هذه، أن الجميع يشارك في القرار، مهما كان نوع المجتمع. وبعد ذلك، يبدو تحقيق الديمقراطية المباشرة مستحيلاً، بخاصة في المجتمعات الكبرى، لأسباب «آلية وتقنية» بديهية: فأين نجد النسخة الصالحة لجمع المواطنين كافة؟ يجب أن نأخذ بالاعتبار أيضاً، الواقعة الرئيسة التي تتمثل في أن بعض القرارات الحيوية بالنسبة إلى الجماعة تتطلب قرارات مختصرة وتنفيذاً لا يتوافق مع المثالية الديمقراطية. وأخيراً، إن تعقيد المنظمات الحديثة يزيد، بشكل لا مناص منه، من أعداد مواقع القيادة. يعترف بورنهام بأن هذه الواقعة قد ضُمَّت، بشكل جزئي، إلى المذهب الديمقراطي نفسه، من خلال نظرية التمثيل. فوفقاً لهذه النظرية، يدير الشعب نفسه، ولكن بشكل غير مباشر من خلال وساطة الممثلين. ونفترض، ضمن هذا المنظور، أن ليس باستطاعة هؤلاء الممثلين أن يمتلكوا أي استقلال، أو عليهم أن يكتفوا دوماً بالالتحاق بالإرادة الشعبية. ولقد تمت «المحافظة على مبدأ الديمقراطية من خلال هذا الشرط فقط». ومع ذلك، من البديهي أن نحكم بأن نظرية التمثيل هذه زائفة. ألم يثبت الناقد الرئيس للنظام التمثيلي، روسو، في النتيجة، ومنذ زمن، أنه لا يمكن للإرادة العامة أن تتمثل من دون الوقوع في التناقض⁽²²¹⁾؟

وتؤيد الدراسة التزيهة للوقائع هذا التحليل، عبر التوضيح بأن النخبة الحاكمة التي تدّعي أنها تمثل بصدق إرادة الشعب، تفرض، في الواقع، رقابة على هذا الشعب. ويبين ميتشلس، في سياق دعم هذا الرأي، الأسباب النفسية التي تدعم وجود أقلية مهيمنة، بعيدة عن الرقابة الشعبية. إن تخلي الجماهير عن حقوقها الديمقراطية، لمصلحة أقلية فعالة لا يتم - في رأيه - بواسطة المكر، والعنف بنسبة أقل، فهو ينتج، بشكل رئيس، من رغبتها الدفينة في أن يحكمها رؤساء: «تنتشي الأكثرية، في العمق، من وجود أناس راغبين بالاهتمام بشؤونها، بالرغم من أنها تشتكي أحياناً. إن هذه الحاجة للانقياد والتوجيه قوية جداً لدى الجماهير، بما في ذلك الجماهير المنظمة للحزب العمالي. وتترافق هذه الحاجة مع تعظيم الرؤساء وصولاً إلى اعتبارهم أبطالاً»⁽²²²⁾. ونذكر هنا، وفقاً لبورنهام، بعض التشابه مع إشكالية مكيافيلي. ويلاحظ ميتشلس، بالطريقة نفسها التي اعتمدها مؤلف الأمير،

أنه لا يمكن تعبئة الجماهير إلا من خلال إخضاعها لرئيس: «نجد أفضل دليل على العجز العضوي للجماهير في الواقعة التي ترى أنه ما إن يُفقد الصراع الجماهيري رئيسها حتى تفر من المعركة، في انسحاب غير منتظم. وتبدو بذلك مجردة من كل غريزة تنظيم، إلا إذا ظهر، من وسطها، قادة جدد قادرون على الحلول محل الرؤساء الغائبين بشكل عفوي ومباشر»⁽²²³⁾. ويرى ميتشلس أن من بين الصفات التي تجعل الرؤساء أهلاً لقيادة الجماهير، لدرجة يكسبون معها عرفاناً بالجميل، نجد البراعة الخطابية والتميز، وبخاصة القوة المخارقة التي تسمح بفرض إرادتهم على الآخرين. نجد هنا أيضاً صدى طبيعياً لفكرة أحبها مكيافيلي: *الفضيلة*⁽²²⁴⁾. وتسمح منهجية ميتشلس المكيافيلية بذلك، بالإثبات بشكل عملي، وعلى الرغم مما تدعيه النظرية الديمقراطية، أن الزعماء هم الأقدر على التحكم بالجماهير وقيادتها. وإذا لم نستبعد أن تكون الديمقراطية حكماً «من أجل الشعب»، فلا يمكن أن تكون، بالمقابل، حكماً «من الشعب»، إذا أردنا الحديث بشكل دقيق. إنها النقطة الأكثر أهمية في برهان ميتشلس: ليست الجماهير من يراقب الزعماء، في الواقع، بل الزعماء هم الذين يراقبون الجماهير.

وعلى الرغم من تحليل اعتبره بورنهام، نفسه، مغرقاً في التشاؤم، فإن ميتشلس لم يستنتج، مع ذلك، أنه من اللازم التخلي عن النضال من أجل الديمقراطية وعن الكفاح ضد الاتجاهات الأقلوية. فإذا كان صحيحاً أنه سيكون هناك حكم أقلوي دائماً، يبقى ممكناً أن نفرض على هذا الحكم نوعاً من الضوابط التي تؤدي إلى نتائج يمكن أن تكون على قدر من الأهمية. يرى ميتشلس، ضمن هذا الهدف، أن التشبث بالترويج لأنموذج مثالي للديمقراطية غير قابل للتحقيق، يعتبر موقفاً عقيماً: «تبقى سيادة الجماهير أمراً مجرداً دوماً. لذلك لا تمثل المسألة التي نحن بصددتها في معرفة كيف بالإمكان تحقيق ديمقراطية مثالية. علينا، بالأحرى، أن نسأل إلى أي حد تبدو الديمقراطية مرغوبة وممكنة وقابلة للتحقق في لحظة معينة»⁽²²⁵⁾. وهكذا باستطاعة موقف سياسي فقط المساهمة في تحقيق تحرر فعلي أو في تقليص الاضطهاد في كل الأحوال⁽²²⁶⁾.

پاريتو: طبيعة العمل الاجتماعي

إذا كان المكيافيليون، على عكس دانتي، لا يمزجون «رغباتهم بالواقع»، فهم يبدلون الجهد، مع ذلك، وفي معظمهم، من أجل تقديم تعريف عن النظام السياسي والاجتماعي الذي يعتبر "الأفضل" في نظرهم، أو "المستحب" أكثر، في أقل تقدير. ذلك هو حال موسكا وميتسلز كما أشرنا إلى ذلك سابقاً. وبالمقابل، لا ينطبق هذا الأمر على پاريتو الذي يقتصر، من جهة، على توصيف الوقائع الاجتماعية، واستخلاص قوانينها الأساسية. ويذكر تقديم بورنهام أولاً بالتعريف الأكثر أهمية في كتاب *المطول في علم الاجتماع العام*، أي تعريف الفعل المنطقي: يعتبر سلوك فرد ما منطقياً إذا كان فعله مبرراً بهدف مدروس، وإذا كان هذا الهدف ممكناً، وأخيراً، إذا كانت الوسائل المستخدمة لتحقيقه مناسبة⁽²²⁷⁾. والحال هذه، إن الأفعال والمعتقدات البشرية لا تبدو خاضعة للأهداف العقلانية والواعية، إلا بنسبة ضعيفة جداً. وبالإمكان أن نستخلص من الأمثلة العديدة التي درسها پاريتو، في الواقع، الفكرة التي ترى أن الأفعال غير المنطقية هي الأكثر انتشاراً في جميع المجتمعات، بما في ذلك تلك التي تظن أنها متحررة تماماً من المعتقدات التقليدية: «إن المحرمات والسحر والتطير والتجريدات الشخصية والأساطير والآلهة والزعة اللفظية الفارغة في جميع الثقافات والمراحل التاريخية، تعبر عن استمرار الاندفاعات غير المنطقية لدى الإنسان. لقد حلت مرجعيات جديدة مثل التقدم والإنسانية، وحتى العلم، محل مرجعيات أسطورية مثل أثينا أو جانوس أو آمون. كما تركت أناشيد جوبيتر مكانها للتضرع للشعب ولسحر التصويت، وورثت التلاعبات الانتخابية الممارسات السحرية، فيما يقوم الإيمان بالتقدم التاريخي بدور الإيمان بمرجعيات آبائنا»⁽²²⁸⁾. إننا مضطرون، بهذا الصدد، للاعتراف بملاءمة تحاليل پاريتو المتعلقة بالحياة السياسية والاجتماعية. إذا كان البشر يتصرفون، في الواقع، بشكل منطقي في هذا المجال، فإن الأهداف المعروضة عليهم - والتي يجري التعبير عنها من خلال دساتير أو برامج أو موثائق - يجب أن تتسجم مع معايير الفعل المنطقي. ومع ذلك، الأمر ليس كذلك؛ فبدل أن تقدم كل هذه التصريحات نتيجة واضحة المعالم وقابلة للتحوير وفقاً لمنهجية تجريبية واضحة، تبقى هذه النتيجة غامضة لدرجة

يمكن معها أن نصل إلى تصرفات متناقضة، وهي غامضة، لدرجة يمكن معها لأي عمل أن ينسب إليها. وهكذا تتم التصريحات، في الغالب، من دون أي تحديد لمفهوم الحرية، فيما الحقيقة أنه لا وجود للحرية «في العموم»، بل هناك، فقط ودوماً، حرية تجاه أو من أجل بعض الأشياء، ما يستتبع بالنتيجة قيوداً في اتجاهات أخرى. يبدو علم اجتماع پاريتو خصباً في مجال توضيح الطابع غير المنطقي للتصريحات السياسية: «برنامج حزب ما يؤيد» "القانون والنظام"، ولكن أي قانون وأي نظام؟ وقانون من؟ يقول الدستور إن السيادة كلها للشعب، غير أن البرلمانات الأكثر ليبرالية والأنظمة البونابرتية الأكثر استبداداً تعلن احترامها لسيادة الشعب»⁽²²⁹⁾.

وهكذا، يتمثل درس پاريتو بإظهار أن الإنسان ليس «حيواناً عقلياً»، على عكس ما قاله أرسطو، لأن معظم أفعاله تنبع من صنف العقل غير المنطقي. غير أنه نادراً ما تم الاعتراف بهذه الواقعة، ليس لأن الذين كانوا يعملون من أجل إصلاح المجتمعات كانوا يميلون إلى رفض بديهية محبطة إلى هذا الحد، بل لأن لدى كل فرد منا «دفعاً منطقياً قوياً يجعل أعمالنا وأعمال الآخرين منطقية في الظاهر». تقود نظرية "البقايا" إلى نتائج مماثلة: إذ يقتصر عمل "الاشتقاقات"، في الواقع، على تقوية البقايا الموجودة لدرجة لا يقود معها الرفض المنطقي للنظريات السياسية إلى شيء، طالما ظلت البقايا قائمة. وهنا أيضاً، وبفضل هذا التحليل للعمليات العقلية، يبقى انتماء پاريتو إلى المدرسة المكيافيلية بعيداً عن كل شك. فبعيداً عن التمسك بالمضمون السطحي للخطابات السياسية، يثبت پاريتو طابع هذه الخطابات غير العلمية ويكشف الفارق الكبير في الغالب، بين التأكيدات النظرية والممارسات الفعلية.

يحمل تفكير پاريتو حول «الفائدة الاجتماعية» «تأكيداً على هذه المقاربة، فبدل الاهتمام «بالمجتمع المثالي»، يبين هذا المفكر أن هذه المصطلحات غامضة: فكل جماعة متنوعة، ويتج من ذلك، أن ما هو صالح لفئة ليس بالضرورة كذلك بالنسبة إلى فئة أخرى. ومن الطبيعي ألا يمارس الناطقون بلسان الفئات المختلفة «تحليلاً دقيقاً لأنهم يستخدمون المشتقات، ويقترحون دوماً برنامجاً تكون نتائجه لمصلحة فئتهم، تحت اسم الجماعة بأسرها»⁽²³⁰⁾.

ويتوضح هذا التوتر من خلال تمييز أساسي قاله پاريتو: إنه التمييز «بين فائدة الجماعة» و«الفائدة من أجل الجماعة». وترتبط الصيغة الأولى بنجاة الفئة بمجموعها، أي بقومها وقدرتها على المقاومة، فيما تشير الثانية إلى رفاهها الداخلي، أي، سعادة كل فرد من بين أعضائها ورضاه. ويبين پاريتو أنه يمكن أن يكون هذان المطلبان متناقضين، مُقرأً أنه من المفيد أن تجهل الجماهير هذه الحقيقة، وأن تستمر في الاعتقاد بأن سعادة كل فرد ترتبط بازدهار المجتمع في كليته. وبتعبير آخر، قول آخر، علينا أن نبقي الشعوب ضمن الاعتقاد بأن الفائدة «من أجل الجماعة» و«فائدة الجماعة» تتطابقان بالضرورة. وهكذا، بدلاً من اعتبار المعتقدات والإيديولوجيات والأساطير أضاليل مؤسفة يجب إزالتها لمصلحة المعرفة العلمية، رأى پاريتو أنها، على عكس ذلك، ضرورية لحياة المجتمعات.

تتركز المساهمة الخاصة التي حملها پاريتو إلى التقاليد المكيافيلية، إذًا في هذا التوصيف الدقيق للفعل الاجتماعي. ويؤكد بورنهام بالتذكير بأن عالم الاجتماع الإيطالي قد حضر⁽²³¹⁾، مع جميع المكيافيليين الآخرين، نظرية للنخب. وفي الواقع، يعتبر پاريتو، القريب من موسكا في هذا المجال، أن كل مجتمع منقسم بين نخبة في القمة وأغلبية في القاعدة. وتشكل هذه النخبة أقلية مقسمة بدورها، إلى «نخبة حاكمة» و«نخبة غير حاكمة». ويؤكد إضافة إلى ذلك أن نخبة مجتمع ما ليست ثابتة دوماً، وأن صيغة اختيار النخب تختلف وفقاً للمجتمعات. غير أنه وفي كل الأحوال، يبقى طابع النخبة عنصراً أساسياً، لأنه يحدد، في النهاية، طابع المجتمع.

يرتبط ازدهار مجتمع ما، من هذا المنظور، بعنصرين أساسيين. علينا، في المقام الأول، تأمين تجدد الطبقات الحاكمة، وهذا ما يسميه پاريتو «دوران النخب»، ويتغير، في المقام الثاني، طابع المجتمع وفقاً لتوزع «البقايا» بين مختلف الطبقات. يذكر بورنهام، من أجل توضيح هذه النقطة، أن پاريتو يميز - بالرجوع بشكل واضح للأمر - بين «بقايا» الصنف الأول ("التركيب") والتي تطابق "الثعالب" وبقايا الصنف الثاني («ثبات الجامع»)، التي تطابق "الأسود"، التي أشار إليها مكيافيلي في شرح شهير⁽²³²⁾. يرى پاريتو أن التركيب الاجتماعي الأكثر قوة هو الذي تكون فيه بقايا الصنف الأول مسيطرة (إلا أنها غير حصرية) في النخب،

بينما تسيطر بقايا الصنف الثاني في الشعب. ويبدو واضحاً، هنا أيضاً، ثبات تعاليم ميكافيلي⁽²³³⁾.

علينا أن نختم أيضاً بالقول إن موسكا وميتشلز وباريتو، ومن دون أن ننسى سوريل، ينتمون إلى المدرسة الميكافيلية⁽²³⁴⁾. ويمكننا، في الواقع، أن نستخرج من أعمالهم بعضاً من المبادئ المشتركة الأساسية التي تتيح تعريف الميكافيلية باعتبارها تقاليد فكر سياسي خاص⁽²³⁵⁾. إن هذه المبادئ الموجودة في أعمال ميكافيلي، قد أعيد صوغها بشكل واضح، قبل ذلك بزمان طويل، من قبل هؤلاء «الميكافيليين الجدد» المزودين بتجربة تاريخية لا تضاهى. وهكذا، تبين التقاليد الميكافيلية إمكانية قيام علم للسياسة، يتمثل أول أهدافه في الصراع من أجل السلطة، ويرى أن كل مجتمع منقسم، بشكل لا رجعة فيه، بين النخبة والجماهير. ويؤكد بشكل مواز، أنه علينا ألا نفهم التصريحات السياسية في حرفيتها، وأن الفعل المنطقي أو العقلي لا يقوم سوى بدور ضعيف في الحياة الاجتماعية والسياسية، وأن كل بنية اجتماعية تستند إلى «صيغة سياسية» لا تفصل، عموماً، عن الدين والإيديولوجيا أو عن أسطورة يشارك فيها الجميع. ومع ذلك، وتلك نقطة أساسية، لا يستسلم الميكافيليون أمام شك جذري: إذا كان صحيحاً أن الهدف الرئيس للنخبة هو المحافظة على سلطتها وامتيازاتها، فهناك، مع ذلك، «فروق حقيقية وذات دلالة بين البنى الاجتماعية من وجهة نظر الجماهير»⁽²³⁶⁾. إن الأنظمة المختلفة تمايز، بشكل خاص، كما سنرى، في ما يتعلق بطريقتها في استقبال النزاع السياسي أو رفضه.

الاستقبال الفرنسي لأفكار بورنهام

لقد نوقش كتاب الميكافيليون في الولايات المتحدة وإيطاليا، بخاصة، من كروتشي⁽²³⁷⁾ (Croce)، كما عرفه الوسط الفلسفي الفرنسي أيضاً. ويبدو أنه لم يستقبل فيه بشكل جيد، في الغالب، إذا أخذنا بالاعتبار بعض الانتقادات ذات الدلالة. وهكذا ينظر مارتان، ومن خلال الرجوع إلى بورنهام «نظرة شؤم، إلى وقوع بعض المفكرين في الفخ القلسم، وهم صاغرون، وذلك من خلال سعيهم،

بسذاجة لا تغتفر، لجعل مكيافيلي أنموذجاً للعلم السياسي أو مبشراً بالديمقراطية»⁽²³⁸⁾. ويهاجم الماركسي جورج مونان (G. Mounin) بعنف، كتاب **المكيافيليين**: فالدفاع الذي قدمه بورنهام عن مكيافيلي، وكذلك تفسيرات ميرلو - بونتي أو إريك فيل (É. Weil) ليست سوى تبسيط سيئ يستجيب لاعتبارات إيديولوجية. وهكذا يعتبر مونان، من خلال وقوعه في سوء الفهم هذا، أن بورنهام يكتب **المكيافيليين المدافعون عن الحرية** كي يضع مكيافيلي في خدمة **ثورة التكنوقراط** التي ينادي بها، وكي يعظ بالقول إنه «كي يبقى "الحكام علميين، فهم مضطرون إلى الكذب"»⁽²³⁹⁾. أما رفض **المكيافيليين** القائم بشكل أفضل على البراهين، فنجدته في مقالة إريك فيل «مكيافيلي اليوم»⁽²⁴⁰⁾. من المؤكد أن فيل يعلم أن الفيلسوف الأمريكي قد أضاع على بعض الملامح الهامة من الفكر المكيافيلي، على الرغم من نقص الدقة التاريخية لديه، وتتمثل هذه الملامح في: استقلال التقانة السياسية، وروح الوحدة الوطنية، والشغف بالحقيقة. كما تظهر براعته في توضيحه أن مكيافيلي «عدو الطغاة الشرس»، على عكس ما تقول به خرافة ثابتة. ومع ذلك، إن مؤلف بورنهام يبقى ضعيفاً لأنه يعتمد على «فلسفة في غاية السوء»، وذلك لأن «نزعة لا أخلاقية خسيصة» تشوب التوضيحات الثمينة التي يحتويها كتابه. فمن خلال الادعاء بإرجاع مجمل الظواهر التاريخية إلى فكرة الصراع من أجل السلطة لوحدها، يحدد العلم السياسي المكيافيلي لنفسه مهمة سهلة جداً: «من المؤكد أن بإمكاننا القول إن كل سياسة هي صراع من أجل السلطة. غير أن ما نريد أن نعلمه: هو أي سلطة نقصد؟ وأي شكل من أشكال الصراع؟ وأي بشر؟ فهل من المعقول القول إن جيلاً ما قد ناضل، بشكل حصري من أجل السلطة إذا كان جميع رجال هذا الجيل مقتنعين بالعمل من أجل خلاصهم؟ وماذا تعنيه هذه المعرفة الكلية التي نمنحها لأنفسنا حين ننتع بالإيديولوجيا كل مضمون لوعي الآخرين؟ ألا تمثل قناعات الفاعلين القوى الحقيقية للتاريخ؟»⁽²⁴¹⁾. يكشف فيل، من أجل دعم نقده، تناقضاً أساسياً في كتاب **المكيافيليين**: إذ لا تنسجم الدعوة إلى النضال من أجل الحرية في هذا الكتاب مع المسلّمات الأساسية للنزعة الوضعية العلمية التي قام بورنهام بالدفاع

عنها. فمن وجهة نظر قليل، إذا لم يكن الهدف من هذه المناقشة تأييد "المثاليين"، فإن موقف "الواقعيين" لا يبدو أقل هشاشة في نظره، إذ ليس باستطاعتهم أن يفخروا بأنهم استبعدوا الميتافيزيق، إلاّ لأنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء التفكير في مذهبهم الميتافيزيقي من أجل توضيحه. لا يتوجه برهان قليل، إذاً، إلى النقاط نفسها التي توجه إليها ماريان أو مونا: فلم يكن هدفه إدانة الفرضية التي تعتبر ميكافيلي مدافعاً عن الحرية، بل رفض «النزعة الوضعية المبسطة والمزيفة التي جاء بها بورنهام». ومع ذلك، فقد رأينا أن هذا النوع من النقد للنزعة العلمية لباريتو قد ظهر مع آرون، منذ صدور كتابه *مقالات في المكيافيلية الحديثة*: يقود تعريف باريتو للفعل المنطقي بشكل خادع إلى رفض جميع القيم والمثاليات التي يتنسب إليها البشر باعتبارها غير ملائمة⁽²⁴²⁾. ويتابع آرون، المخلص لهذا النقد، رفضه «للفلسفة المكيافيلية» ومسلّماتها الوضعية الخفية. ونخطئ إذا اكتفينا بهذا التشخيص السلبي الذي يكاد يخفي خصوبة الحوار شبه الدائم الذي قاده آرون مع التقاليد المكيافيلية.

منهجية آرون المكيافيلية

تسمح دراسة المحاضرات التي ألقيت في الخمسينيات⁽²⁴³⁾، بإدراك العلاقة التي تربط فكر آرون بفكر بورنهام، وبالمكيافيلية، بشكل أوسع. وذلك لأن أبحاث آرون الخاصة تندرج ضمن مسار ميكافيلي. وبما أن آرون قد اعتبر الفلسفات السياسية بنى مختلفة جداً، فقد ميّز بين منهجين متناقضين. لا ينفصل النموذج الأول من الفلسفة عن رؤية للعالم ذات طابع ميتافيزيقي أو ديني؛ إن المطلوب في هذه الحالة، هو شرح الحياة الإنسانية على ضوء مفهوم عام للكون والتاريخ، وبناء سياسة تنبثق عنه، ويهتم النموذج الثاني من الفلسفة السياسية، بشكل رئيس، «بالمشكلات المتعلقة بالحياة المشتركة للبشر»، كما تبينها التجربة التاريخية. وتحتوي هذه الفلسفات، من دون أدنى شك، على بعد ميتافيزيقي أو ديني أيضاً، غير أن هذا البعد يأتي في المقام الثاني في هذه الحالة. وتتوافق أعمال «أهم مفكر سياسي» أو أحد أهمهم أقله، ميكافيلي⁽²⁴⁴⁾ مع هذا النموذج الثاني من الفلسفة.

وحتى لو وجدنا لدى السكرتير الفلورنساوي رؤية محددة للكون ومفهوماً دينياً، فإن هذه الرؤية وهذا المفهوم لا يتضمنان، في الواقع، من الأصالة ما يميزهما في نظر عصرهما. علينا البحث عما يميز ميكافيلّي في مكان آخر، إذ يركز جهده الفكري كله في ملاحظة «مسار السياسة، بما هو عليه»، وتحليله، «وليس بما يجب أن يكون، وفي استنباط بعض النتائج القائمة على التجربة منه»⁽²⁴⁵⁾. تندرج فلسفتنا مونتسكيو وتوكفيل ضمن هذه التقاليد الميكافيلّية أيضاً. وتتمثل مساهمتهما، بشكل رئيس، في التفسير الذي اقترحاه للشروط الفعلية للحياة المشتركة، وليس في تصورهما الميتافيزيقي للإنسان. وتتعارض مثل هذه المنهجية، بشكل جذري، مع منهجية كانط. فإذا كان (كانط) لا يهتم، إلّا قليلاً، بمسألة تنظيم الحياة المشتركة، فإنه يسعى، بالمقابل، إلى تحديد «ما يجب أن تكون عليه السياسة»، وفقاً لتعريف فلسفي للإنسان. وما من شك في أن التعارض بين هذين النموذجين من الفلسفة بسيط، إلّا أنه يسمح بالتمييز بين مقاربتين: الأولى التي تدرس الطريقة التي «تعمل بها السياسة» بشكل فعلي، والأخرى التي تبحث عن تعريف «كيف عليها أن تعمل». ويرى آرون أن الطريقة الثانية - التي أبدعها ميكافيلّي - لا تزال تشكل سبيلاً خصباً للبحث، وذلك لأنه لم يعد هناك ميتافيزيقا في أيامنا هذه، على ما يظهر، كما لم يعد هناك تصور للكون أو معتقدات دينية - أي ما يعرف اليوم «بمفهوم الخير» - مقبولة بشكل شمولي. يأخذ المنهج الميكافيلّي، إذاً، على عاتقه التعددية القيمة التي تميز الحداثة، ولا يدعي أنه يعيد تشكيل مذهب شامل وأفق دلالة أساسي يمكنهما أن يرشدا جميع المواطنين إلى التوجهات النهائية لسلوكهم.

وهكذا تسعى مقارنة آرون، من خلال اتباع «المنهج الاستقرائي»، إلى الانطلاق من الوقائع السياسية للوصول إلى المشكلات الأساسية للحياة المشتركة وللسلطة، ضمن الشكل الذي أثّرت فيه هذه المشكلات عبر التاريخ. لقد تم تجريب هذا المنهج، انطلاقاً من الفصل الأول الذي حمل عنوان «مقالة في تعريف الديمقراطية»، حيث جرى تقديم تعريف "اجتماعي" للديمقراطية باعتبارها «تنظيماً للتنافس السلمي من أجل ممارسة السلطة»، وقد تميز هذا التعريف بمعالجة الديمقراطية من خلال "المؤسسات" وليس من خلال "الأفكار"⁽²⁴⁶⁾. وبينه آرون،

الوفا على ما يبدو لدرس المكيافيليين - پاريتو وكذلك موسكا أو ميتشلس من دون أن ننسى شومبتر (Shumpeter) - إلى أن تعريف الديمقراطية باعتبارها «سيادة الشعب» غامض، ويوشك أن يثير جدالات لا نهاية لها. وعلى العكس، يمكن لكل إنسان أن يعترف «أن هناك رجالاً يمارسون السلطة في كل مجتمع» وأن «المنافسة من أجل معرفة من يمارس السلطة مسألة تتعلق بالملاحظة». يتميز المنهج "الاجتماعي" بالإضافة إلى ذلك، بإظهار «التلاعب» الذي يمكن أن يمس مفهوم الشعب الغامض جداً. تستطيع أقلية فعالة، في الواقع، أن تصل بسهولة إلى الادعاء بأنها تجسد الشعب، من خلال فرض إرادتها على الأغلبية السلبية. لذلك يصبح من الأفضل، على طريقة پاريتو، أن نحذر من «المفاهيم الغامضة» التي تستخدمها «الإيديولوجية السياسية»، في الغالب، وأن نكتفي «بوقائع بسيطة جداً».

يقوم تصميم كتاب *ديمقراطية وشمولية* بأكمله على هذه المنهجية المكيافيلية أيضاً. ومن الصحيح أن الإخلاص للمكيافيلية الجديدة لا يتحقق أبداً هذه المرة. أضف إلى ذلك أن الفصل الثاني من الكتاب مكرّس لنقد جذري للنزعة العلمية لدى المكيافيليين. وسوف نعود إلى هذا الرفض الذي يشير إلى نأي بالنفس في ما يتعلق بالتقاليد المكيافيلية. ومن المهم الآن، أن نشير إلى استمرار المنهجية التي صيغت في *مدخل إلى الفلسفة السياسية*. يسعى آرون، في الواقع، ومن دون الوقوع في النسبية أو التشاؤم المطلقين، إلى تطوير البحث حول الديمقراطية التي تهمل، مع ذلك، المفهوم الكلاسيكي «لنظام الأفضل»، المرتبط بالمفهوم الغائي للطبيعة البشرية، لتهتم بالأنظمة السياسية، في واقعها وتنوعها⁽²⁴⁷⁾. يمنع هذا النوع من الاستقصاءات، الوفية لتعاليم پاريتو، استخدام مفاهيم «واسعة وغامضة»، ذات طابع فلسفي. وإذا نظرنا، مثلاً، إلى المفهوم القانوني للسيادة، فإننا نلاحظ أنه غامض، وذلك لأن الذي يجد نفسه مالكاً، بشكل رسمي، للسلطة الشرعية، ليس دوماً المالك للسلطة الفعلية. وهكذا، تقوم الأنظمة المعاصرة على السيادة الشعبية، غير أن الشعب لا يحكم نفسه قط، بالمعنى الدقيق للكلمة، أي ليس الشعب من يمارس مهام الحكم بشكل مباشر ومستمر⁽²⁴⁸⁾. ويظهر هذا الأمر بشكل أوضح

بالنسبة إلى المجتمعات المعاصرة حيث السيادة «خيال حقوقي». ومع ذلك ربما استطاعت الأنظمة الديمقراطية والفاشية والشيوعية ادعاء وجود فكرة الشعب السيد. وبالمقابل، إن ما يميز هذه الأنظمة جميعاً بشكل جوهري، يتمثل في «إجراءات اختيار الرؤساء السياسيين وصيغ تعيين مالكي السلطة الواقعية والآليات التي تنتقل من خلالها من خيال السيادة إلى واقع السلطة». إن من المهم، بخاصة، تحديد الأساليب التي يتم من خلالها نقل السلطة إلى أقلية حاكمة، حتى لو كانت نظرية السيادة ذات دلالة مؤكدة. سنرى حينئذ أنه إذا كان من المحتمل وجود حكومات من أجل الشعب، فلن يكون هناك، بالمقابل، أي نظام حكم من الشعب، بالمعنى الحقيقي للكلمة، في مجتمعات عديدة ومعقدة⁽²⁴⁹⁾. أضف إلى ذلك أنه لن يكون التصور الفلسفي القائم على الحرية والمساواة مقبولاً بشكل تام، كما هو الحال مع اللغة القانونية للسيادة، وذلك لأن هذا التصور يتطلب «اتخاذ موقف سياسي»، خاضع دوماً - وهنا أيضاً - للمنازعات. وهكذا تلح نظرية آرون الاجتماعية، حول الأنظمة السياسية، على دور المؤسسات، وليس على «التبريرات أو المثاليات التي تنتسب إليها». إذا كان آرون يدرج بحثه الخاص هذه المرة «ضمن تقاليد مونتسكيو»، فإن المسافة التي تفصله عن التبريرات السياسية والقانونية، وتركيزه، بشكل عام، على «الواقع» بدل "الفكرة"، يرتبطان تماماً بالمقاربة المكيافليّة، بالمعنى الذي تأخذه في علم الاجتماع الإيطالي.

نظرية النخب، علم اجتماع سياسي مخرب

يعود الفضل إلى المنهجية المكيافليّة في إظهار ديمومة أقلية حاكمة في كل مجتمع. وتبدو نظرية النخبة هذه فعالة في كشف الكذبة التي تقوم عليها الأنظمة الشيوعية: «لا يمكن تصور نظام تقوم فيه البروليتاريا، أي بضعة ملايين من البشر العاملين في المعامل، بممارسة السلطة. ومن البديهي تماماً أن لا نستطيع القول إن البروليتاريا قد أصبحت طبقة حاكمة. ذلك تعبير لا معنى له، فالطبقة الحاكمة في مجتمع ما، هي دوماً، أقلية حاكمة»⁽²⁵⁰⁾. يرجع آرون أيضاً في كتابه *أفيون المثقفين* إلى مكيافلي والمكيافيليين، بشكل ضمني، من خلال رفضه للطوباوية

الشيوعية التي تتحدث عن مجتمع خالٍ من أية هيمنة. ويلج آرون على ديمومة الواقع الأقلوي في المجتمعات كافة، بالتوازي مع نقده «للسلالات الدنيوية»، الذي يعتمد كثيراً على علم اجتماع پاريتو: «إن بالإمكان الوثوق بالافتراع الشعبي وليس بالوراثة لاختيار الرؤساء السياسيين، ويمكن أن ننسب للدولة، وليس للأفراد الخاصين، إدارة وسائل الإنتاج: إن إلغاء الأرستقراطية الوراثية، أو الرأسماليين، لا يغير من جوهر الإنسان السياسي»⁽²⁵¹⁾. إن من الوهم، أيضاً، الاعتقاد أن الثورة الاقتصادية والاجتماعية يمكن أن تزيل كل شكل أقلوي وتُجنب الصراع من أجل السلطة، وكأن هذه الصراعات لا تشكل جزءاً لا يتجزأ من الحياة السياسية.

تبين المدرسة المكيافليّة، وفي موقف يعارض الرؤيا الماركسية، إذاً، أن الأقليات تمارس السلطة السياسية في جميع المجتمعات وإلى الأبد: «يظن بعض علماء الاجتماع، منذ مكيافلي وحتى پاريتو، أن التمييز الأساسي في المجتمعات جميعاً، ليس تمييزاً بين الطبقات الاجتماعية، بل بين الأغلبية المحكومة والأقلية الحاكمة»⁽²⁵²⁾. لا يمكن لهذه النظرية التي تمنح السلطة السياسية البحتة أهمية أكبر من القدرة الاقتصادية، إلا أن تحرض فعلاً انعكاسياً رافضاً لدى الماركسيين، «لأنها لا تنطبق على المجتمعات الغربية، فيما تنطبق بشكل رائع على المجتمع السوفييتي»⁽²⁵³⁾. ونفهم من ذلك لماذا أدت الفكرة المكيافليّة، التي ترى أن التمييز الأكبر إنما يقوم بين الجماهير والعدد القليل من الحاكمين، إلى الكثير من عدم الثقة لدى الماركسيين كما لدى الأوساط العلمية أيضاً: «يظن مكيافلي وتابعوه أن البشر قليلاً ما يتغيرون، وأن من يملك السلطة يسيء استعمالها، وأن المستفيدين من السلطة يتغيرون أكثر من الطريقة التي تتم فيها ممارستها، ومن الفوائد التي يجنونها منها. لقد رُفض هذا التشاؤم من المفكرين الذين يرون - سواء أكان ذلك خطأ أم صواباً - أن الإلحاح على ثبات الطبيعة الفردية أو الجماعية يؤدي إلى إحباط لدى البشر وإلى دفعهم إلى نزعة لا أخلاقية»⁽²⁵⁴⁾. ويعتبر آرون، في تساؤله عن أسباب هذا الرفض، أن نظرية النخب، الموروثة عن مكيافلي، تصطدم بمقاومات تعتبر نفسها علمية، لكنها تشي بأحكام مسبقة من نوع آخر. ونستعين، هنا أيضاً، ومن جهة أخرى، بالإلهام المكيافليّ الجديد. وذلك لأن فكرة المقاومة، بالمعنى الذي

تأخذه في علم النفس التحليلي⁽²⁵⁵⁾ تستخدم في كتاب المكيافيليون من أجل تفسير سمعة الفلورنساوي السيئة، والتي تنسب إلى الطابع البشع للحقائق التي يثبته. يشير بورنهام، المتأثر بباريتو، إلى أن البشر لا يريدون أن يعرفوا، في الواقع، بل يفضلون أن يؤمنوا، وربما كانوا على صواب في مقاومتهم، طالما أن المعرفة التامة بما نحن عليه وبالطريقة التي نتصرف بها، ربما شكلت علاجاً عنيفاً جداً⁽²⁵⁶⁾. اعتبر آرون نفسه، ومن خلال تبني حجج باريتو هذه، أن رؤية التاريخ التي اقترحها المكيافيليون مخيبة، وهي لذلك «كريهة» حتى في مظاهرها الأكثر ملاءمة⁽²⁵⁷⁾.

الأقلية والديمقراطية

ومع ذلك، يقر آرون، بخلاف بورنهام، بأن الضيق، أو الرفض الذي أثارته النظرية المكيافيلية ليس من دون أساس، في مجمله. لكنه يلح على المظاهر غير المقبولة والمخيبة في نظرية النخب، وتمثل اعتراضه الرئيس في القول: إذا كانت هذه النظرية تقدم براهين غنية من أجل نقد الأنظمة الشيوعية، وإذا أدينت الأنظمة الشيوعية، في الواقع، لأن أقلية تمسك فيها بالسلطة - وفقاً لنقد استوحاه جيلاس من مكيافيلي، بشكل خاص⁽²⁵⁸⁾ - فيمكننا أن نقول الشيء نفسه عن الديمقراطيات، ولا نرى، عندئذ ما يمكن أن يميز النظامين بشكل جوهري. وهكذا، يمكن لإبراز الطابع الأقلوي للأنظمة الديمقراطية والشمولية، كافة أن يتحول - نرى ذلك لدى باريتو - إلى نقد من النوع الفاشي ضد الديمقراطية، المدانة باعتبارها "سلطة أثرياء"⁽²⁵⁹⁾. لذلك، إن البرهان المكيافيلي الجديد، والصحيح تماماً في أحد معانيه، يشكو من أنه «مفرط في صحته» و«مفرط في بساطته». وفي الواقع، ما إن نعترف أن جميع الأنظمة، بما في ذلك الديمقراطية، أقلوية، فإن السؤال المناسب الوحيد الذي يجب أن نثيره يرتبط بالبيئة الخاصة لكل أقلية مهيمنة، وبقدرتها على العمل تجاه المواطنين، إضافة إلى الضمانات التي يمتلكها هؤلاء المواطنون للحفاظ على حريتهم. وتبين هذه الدراسة، على عكس نظريات باريتو المتشائمة، أن بالإمكان وجود فروق متطرفة بين الأقليات، وأن تصريحات المكيافيليين التخريبية المزعومة، على هذا الصعيد، ذات بعد محدود نسبياً.

نفهم، إذًا، سبب عدم تردد آرون، في مواجهة هذه المسألة، في الإشارة إلى «الطابع الأقلوي للأنظمة الدستورية التعددية»⁽²⁶⁰⁾، بدل الدفاع عن الديمقراطية على أسس نظرية بحتة. في الواقع، علينا أن نقدم، وبكل بساطة، "واقعة" - وليس "اعتراضاً" - يعترف بها المكيافيليون أنفسهم، ونقول «لا يمكننا تصور نظام لا يكون أقلويًا، بهذا المعنى»، وذلك في مواجهة نقد المكيافيليين القائم على الطابع الأقلوي للديمقراطيات. ووفقاً لآرون، من المؤكد، أن «جوهر السياسة الحقيقي يتمثل في القرارات من أجل الجماعة وليس بواسطة»؛ فلا يمكن لسيادة الشعب أن تعني أن تحمل أغلبية الجماهير بنفسها، وبشكل مباشر ومستمر، مسؤولية القرارات في مجالات مثل المال العام، وينطبق الأمر أكثر على السياسة الخارجية⁽²⁶¹⁾. علينا، إذًا، ألا نضعف وتتنازل أمام الإغراء "العبي" الذي يتمثل في الحكم على الديمقراطيات الحديثة بمقياس مثال ديمقراطي لا يمكن أن يتحقق، لأن علينا أن نقارن بين الأنظمة الحقيقية والأنظمة الممكنة. وعلينا أيضاً ألا نمنح اكتشافات مكيافيلي طابعاً انقلابياً، كما علينا أن نستقبل بحذر الفرضية التي تقول إن أقلية ظاهرة أو خفية، تتلاعب بشكل سيادي بالجماهير، وفي النتيجة، إن مؤلف الأمير لم يؤكد قط أي شيء من هذا، إذ تركز تعليمه، بخاصة، على الإضاءة على واقعة بديهية ومعروفة، إنها واقعة النخب: «يضع مكيافيلي، أكثر من أرسطو، في مركز ملاحظاته وأفكاره، التعارض بين الحاكمين والمحكومين، والأقلية التي تحكم والأكثرية التي تطيع. ويعتبر هذا التعارض بديهياً ومنسجماً مع الوقائع المؤكدة، وبعيداً عن أن يكون فاضحاً»⁽²⁶²⁾. إذا كان من المؤكد أن بعضهم يحكم وبعضهم الآخر يطيع، فبالمقابل «لا أحد يفترض أن الحاكمين متحدون بنحو غامض، وأن الطائعين سلبيون بنحو عجيب». ويكفي أن نتذكر الواقع السياسي الإيطالي الذي قام مكيافيلي بدراسته بنفسه، ليبرهن على بطلان هذه الفرضية: «إن الخصومات بين الطامحين بالعرش أو الجماعات البرجوازية مفرطة في العنف ضمن الإمارات أو المدن الإيطالية، وهي تبدو على السطح براءة فائقة، لدرجة يأخذ معها التفسير البوليسي للتاريخ ("الحكومة الخفية"، ومؤامرة الأقوياء) طابعاً شبه حقيقي»⁽²⁶³⁾. وبالتالي لم يكن مكيافيلي ساذجاً مثل بعض المكيافيليين،

أحياناً، لدرجة يؤمن معها بالقوة المطلقة لطبقة حاكمة متجانسة، تملك وسائل القوة بشكل كامل. إن القول إن الديمقراطيات تديرها أقلية، أمر مؤكد وغير صادم، وعلينا عدم التستر عليه.

الديمقراطية والأقلية:

المتناقضات الجديدة للسياسة

ومع ذلك، إن الحضور الدائم لأقلية لا يمكن إلا أن يثير توترات كبرى، بخاصة في المجتمعات القائمة على الشرعية الديمقراطية. إذ نكون، هنا، في مواجهة ما يعرف «بالتناقضات الجديدة للسياسة». ونذكر أن إحدى فضائل مكيافيلي تتمثل في كشف تعذر تجاوز المتناقضات السياسية، لدرجة يصبح معها الاعتقاد، مع ماريتان، «بنهاية قريبة للمكيافيلية» وهماً. وضمن الأفق نفسه، يسعى فكر آرون المتعلق بنظرية النخب المكيافيلية في العصر الديمقراطي، إلى الإضاءة على التوترات الحتمية بين الشرعية الديمقراطية للمجتمعات الحديثة من جهة، و«قانون الأقلية الحديدي»، الخاص بكل نموذج للمجتمع، بما في ذلك المجتمع الديمقراطي. تحتوي السياسة أولاً على تناقض أساسي، وتقدم أنظمة الحكم كافة حلاً جزئياً له، من خلال «إرادة التوفيق بين تنوع المهام، وعدم المساواة بين الأشخاص والامتيازات، ومشاركة الجميع في الجماعة»⁽²⁶⁴⁾. ويمكن أن تفسر جميع الأنظمة، في الواقع، على أنها جهد التوفيق بين التراتبية والمساواة. وقد اعتمد توجهاً من أجل حل هذا التناقض: سعى الأول إلى تبرير عدم المساواة الاجتماعية والتراتبية؛ كما هو الحال في نظام الطوائف المغلقة (castes)، فيما ركز الثاني على إعلان المساواة بين الناس وعلى تطوير سياسة اقتصادية واجتماعية تعتمد المساواة. ويرى آرون، من خلال هذين الاتجاهين الأساسيين أنه إذا قاد «الحل التراتبي» إلى إقصاء مجموعات من البشرية تعتبر تابعة، فإن «الحل الديمقراطي» سيتضمن ضعفاً تكوينياً، يضعه بعيداً عن إمكانية تقديم مخرج نهائي لهذه المشكلة. ويتطلب الحل الثاني، هذا، في الواقع، «نفاقاً دائماً»، لأنه من المستحيل تحقيق مساواة تامة في مهمات الأفراد ومداخيلهم وامتيازاتهم. وبهذا المعنى يعتبر آرون، مثل ماركس

(ومن دون أن يشعر مع ذلك بالإهانة) ومثل المكيافيليين (من دون أن يكون لديه الشغف التخريبي نفسه) أن المجتمعات الحديثة تنقاد بالضرورة إلى الكذب على نفسها. وليس الاعتراف بهذا الكذب، إذاً، برهاناً كافياً لإدانة النظام السياسي، إذا قبلنا بأن «نظام المساواة نظام شكلي حتماً، تحاول كل سلطة قائمة تمجيده، مع إخفاء اللا مساواة الحقيقية». وهكذا، لا نستطيع، حتى الأنظمة الأكثر استبداداً، في المجتمعات الديمقراطية، أن تقوم إلاّ باسم الديمقراطية. ألم يبين توكفيل أنه إذا تمكنت أنظمة الاستبداد من الظهور في العصر الديمقراطي، فإنها ستندرع، بالضرورة، بمبادئ المساواة كي تمنح الشرعية لسلطتها؟ لقد طور المكيافيليون الحديثون، في النتيجة، هذا النوع من التحليل. لذلك يؤكد بورنهام أن نظريات موسكا وميتشلز تكشف الخطر «البونايرتي» اللصيق بالمجتمعات الديمقراطية⁽²⁶⁵⁾. وفيما يذكر هذا المفكر بأن الفضل يعود للمكيافيليين في إظهار «الاستحالة العملية» لقيام الديمقراطية - باعتبارها حكماً من الشعب - فهو لا ينفي، مع ذلك، الأهمية الحاسمة للصيغة الديمقراطية (بالمعنى الذي قصده موسكا) في العصر الحديث: إذا كان صحيحاً أن «البونايرتية أمموزج حكم مختلف جداً عما فهمه رجال القرن التاسع عشر عن الديمقراطية»، فعلينا ألاّ نغفل عن أن «البونايرتية تحرق الصيغة الديمقراطية والمكانة الملحوظة للاقتراع العام»⁽²⁶⁶⁾. وبكلمات أخرى، لا يمكننا إلاّ أن نلاحظ الفرق بين صيغة الشرعية والحقيقة الفعلية لعملها في المجتمعات كافة، وبشكل أوضح في المجتمعات البونايرتية. لا تشكل الإحالة إلى المجتمعات المستبدة، بهذا المعنى، إلاّ حالة حدّية تظهر تناقضات المجتمعات الديمقراطية الحديثة. وكما بيّن هذا ميتشلز (في إطار فكر فيبر)، وكذلك بورنهام، فإن المجتمعات الحديثة معقدة، وتتطلب - بالتعريف - فصلاً بين عدد قليل من الحكام وجمهور المحكومين. وعلينا أن نلاحظ أن المجتمعات الحالية «معقدة وعديدة في آن معاً»، ما يتطلب نظام سلطة معقداً في تنظيم العمل وفي الدولة»⁽²⁶⁷⁾. إلاّ أن هذا المبدأ يتعارض مع الشرعية الديمقراطية التي تعتمدها، مع ذلك، المجتمعات الحديثة. وبكلمات أخرى، إن هناك «نوعاً من التناقض الدائم بين إرادة المساواة وتراتبية الواقع». لذلك يرى آرون سوء نية في إدانة عدم المساواة في المجتمعات

الحالية، تحت اسم «مطالب مطلقة»، وكأن بالإمكان تحقيق هذه المطالب بشكل كامل.

يتمثل المنهج المرغوب، على عكس ذلك، في الاعتراف بأنه ليس بمقدور أي نظام «احتكار النفاق». ليس لأن الأنظمة متساوية: على المحلل أن «يقيس الدرجة التي يدفع إليها كل نظام بوسائله المزعجة واللازمة في الوقت ذاته». ويمكننا أن نقدر أن هناك حقيقة لا يمكن تجاوزها، ليس في الفكر المكيافليّ وحسب - بالمعنى الذي أدركه بورنهام - بل في المكيافليّة بالمعنى الدارج للكلمة: إنها ضرورة وجود الكذب في المجتمعات كافة، بدل إدانته، بما في ذلك، في المجتمعات القائمة على الشرعية الديمقراطية. وذلك لأن النفاق لا يمكن أن يشكل معياراً يسمح بإدانة نظام حكم، لأنه، في مثل هذه الحالة - تتساوى أنظمة الحكم جميعاً، ولا نجد نظاماً يستحق الدفاع عنه، وإن مكيافليّة معتدلة تبدو أمراً لا مناص منه في هذه الحالة.

يأتي الإحراج الثاني في السياسة من التناقض القائم على «المطلب الثنائي في أن تكون الحكومات حكيمة، وأن تتصرف بشكل مناسب لرغبات المحكومين». وإذا قلنا - كما في الديمقراطية - إن على المحكومين أن يجدوا أنفسهم في من يحكمهم، وإذا استنتجنا أن على الحكام ألا يتصرفوا أبداً بما يخالف رغبة المحكومين، فإننا سنواجه صعوبات لا يمكن تجاوزها. لأن هذا التأكيد يقودنا إلى القول: إما أن يكون المحكومون حكماء دوماً - وتبدو هذه المسلّمة غير مقنعة - وإما أنه يتوجب على الحكام طاعة المحكومين، حتى حين تكون إرادتهم غير منطقية بشكل واضح⁽²⁶⁸⁾. ويكفي، كي ندرك خطورة هذا النقيضة، أن نستدعي تجربتنا الشخصية: حين نقنع بأن إجراء ما كان يجب أن يتخذ، إلا أنه لم يتخذ لسبب وحيد، إذ خشي الحكام حكم الرأي العام فإننا نتهمهم بالديماغوجية، ومع ذلك، فنحن لا نتأخر عن التأكيد، من جهة أخرى، بأن على الحكام الانسجام مع إرادة الناهيين، فذلك هو مبدأ الديمقراطية. وإذا لم يستطع نظام حكم ما إيجاد حل لهذا التناقض فإن الأنظمة القائمة كافة تعتبر محاولة ناقصة للتوفيق بين «حكومة حكيمة» و«حكومة توافقية». غير أن البحث عن حل وسط بين هذين المطلبين

يتطلب من الحكام نوعاً من الكذب، أو التخفي أقله: «إن ديمقراطية تعمل بشكل جيد، هي تلك التي وجدت الوسيلة للإيحاء للشعب بأن الحكام ينفذون إرادته، تاركة للحكام إمكانية ترجيح الحكمة»⁽²⁶⁹⁾. كيف لا نرى هنا ترجمة لدروس مكيافيلي من أجل المجتمعات الحديثة؟ ويمكننا أيضاً أن نفكر في أنه - في مجتمع ذي شرعية ديمقراطية - تكتسب تعاليم مكيافيلي، في رأي آرون، عمقاً جديداً.

وتمثل قدرة الجماعة والعدالة الاجتماعية الإحراج الثالث والأخير في السياسة. لقد رأينا أن هذا الإحراج الذي صنفه پاريتو، قد ذكر في أثناء مناقشة لأفكار ماريتان حول مكيافيلي. وفي كل الأحوال، نقف هنا على دراسة أكثر عمقاً لمسألة الموازنة النهائية بين المتطلبات الديمقراطية والدفاع عن الجماعة. وما من شك في أن من المرغوب فيه أن لا تفصل القدرة الدفاعية لبلد ما عن أفضل تنظيم ممكن. ويشك آرون، مع ذلك، وهو الوفي لدرس مكيافيلي، في التوافق بين المرغوب فيه والواقع. لا تدعم التجربة التاريخية، في كل الأحوال، الفكرة التي ترى أن على الجماعة التي تسعى إلى القوة المطلقة، ديمقراطية مؤسساتها وتطوير المساواة في المداخليل. ونصل هنا إلى نقيضة لا تقل بأساً: «نحن، من جديد، أمام ضرورة تنسيق نظام يجب أن يكون عادلاً وقادراً على تأمين خلاص الجماعة، وأمام استحالة هذا التنسيق في آن واحد»⁽²⁷⁰⁾. وإذا لم تكن القوة والعدالة مطلبيين متناقضين بالضرورة، فعلينا، في الواقع، الاعتراف بإمكانية أن تكونا كذلك.

تبرير مكيافيلي للديمقراطية:

التعددية السياسية والاجتماعية

لا يقتصر منهج آرون المكيافيلي على الإضاءة على الطابع الأقلوي للأنظمة الديمقراطية وحسب، ولا على التوترات التي تنتج منه بشكل حتمي. إذ يعرف هذا الفيلسوف، من موقع قريب من المكيافيليين غالباً ما ينكره، الديمقراطية بتفتت النخب، وبالتعددية السياسية والاجتماعية، بشكل أساسي. يتوجب علينا، في الواقع، من أجل فهم خصوصية الأقليات في الديمقراطيات المعاصرة، أن ننظر إلى آلية الحدثة التي تتميز، وفقاً لفيير⁽²⁷¹⁾، بتعددية مجالات الفعالية واستقلالها.

وترسم في أثناء هذا المسار، أربع نقائص أساسية: سلطة زمنية/سلطة روحية، سلطة مدنية/سلطة عسكرية، سلطة سياسية/سلطة إدارية، وأخيراً سلطة سياسية/سلطة اقتصادية. توضح هذه النقائص «التمايز الحديث لوظائف القيادة وتعددية المجموعات القادرة على ممارسة وظائف القيادة بشكل فعلي، أو على التأثير بشكل جوهري، على من يمارسها»⁽²⁷²⁾. ويمكن تفسير النظام الشيوعي، على ضوء هذا المنظور، باعتباره رد فعل تجاه الحركة الحديثة، طالما أن هدفه هو إزالة الفوارق من خلال استيعاب المجتمع ضمن الدولة. ونلمس هنا ميزة تسمح بالقيام بالتمييز بين نوعين من الأقليات في القرن العشرين: «يقوم زعماء الأحزاب في الشرق، وبشكل دائم، بدور سادة السلطة التنفيذية، والقيادة الجماهيرين والإيديولوجيين الرسميين، في آن معاً. أما في الغرب، فتواجه الحكومات معارضة، وأمناء سر النقابات المستقلة إلى حد ما، وكتاباً وعلماء وإيديولوجيين لا يكفون عن النقاش حول الصحيح والخطأ، وحول الأمور العظيمة الشأن وتلك الفاضحة، من دون أن يكون باستطاعة صوت الحكومات الزمنية السيطرة على ضجيج النقاشات والدعاية»⁽²⁷³⁾. وإذا كان بالإمكان استخدام النظرية الإيطالية حول النخب بشكل مفيد، ضد الإيديولوجيا الشيوعية، فإنها تبدو، مع ذلك، ذات تأثير أقل، حين تسعى إلى نزع القناع عن الديمقراطية وإظهار طابعها الأقلوي.

ومع ذلك، يرتكب آرون هنا بعض الظلم، من خلال الحكم على المكيافيليين بهذه الطريقة. إذ تتركز انتقاداته على فضح الغموض الخطير لنظريات النخب، بدل فحصها في تعقيدها. ولا يقدم آرون، في النتيجة، حكماً قاسياً على الدوام، كما يؤكد ذلك التحليل المكترس لباريتو في كتاب *مراحل الفكر الاجتماعي* الذي يسلّم بمشروعية عرض التأويلات المتعددة لأعمال عالم الاجتماع الإيطالي. ويعتبر آرون أن التأويل الأكثر انتشاراً من بين هذه التأويلات، أي ذلك الذي يجعل من باريتو مفكراً فاشياً، بات موضع جدل بالنسبة إليه، بعد الآن. وإذا اعترف بأن هذا الرأي - الذي حمله في مرحلة "الشغف" السياسي - لا يزال مقبولاً، فعلياً أن نلاحظ أنه مشوب ببعض الضعف. لذلك بإمكاننا أيضاً، وبشكل أفضل، أن نفسر باريتو «ضمن مسار الليبرالية» و«نستخدم حجة باريتو لتبرير المؤسسات

الديمقراطية أو ديمقراطية الأثرياء»⁽²⁷⁴⁾. من جهة أخرى أيضاً، تبدو قراءة من هذا النوع صالحة لإدراك تطور موسكا: فإذا كان هذا الكاتب قد نزع القناع عن أنظمة ديمقراطية الأثرياء في الجزء الأول من كتابه، فإنه قد انتهى إلى القبول بأن هذه الأنظمة تظل الفضلى، رغم عيوبها. ونستطيع عموماً، «من خلال قبول عدد من انتقادات پاريتو للأنظمة الديمقراطية، أن نرى في هذه الأنظمة أنظمة أقل سوءاً للأفراد، باعتبار أن كل نظام أقلوي». وتتميز الأقلية الديمقراطية للأثرياء بأنها منقسمة ومحدودة في إمكانية عملها، في الوقت ذاته». لذلك تبقى النخب الديمقراطية «أقل خطراً على حرية الأفراد»⁽²⁷⁵⁾. كيف لا ندرك أن آرون يشير هنا، بشكل جزئي إلى مشروعه الخاص في منح الشرعية الليبرالية للديمقراطيات المعاصرة، من خلال تقسيم حجة پاريتو المكيافيلية؟

علينا إذاً أن نفسر نقد آرون الحاد أحياناً ضد المكيافيليين على ضوء سياق سجالي خاص. ويعرف آرون، في الحقيقة، أن المكيافيليين لا يكتفون بتقديم معاناة مخيبة حول طبيعة الديمقراطيات الحديثة، ولذلك فهو يسلم في كتابه *حييات التقدم* بأن الأفكار المكيافيلية لا تقود حتماً إلى تصور نسبي ومتشكك. فلا تخضع الواقعة الأقلوية لفرضية الطبقة الحاكمة المتحانسة ولا للرؤية التشاركية الحصرية للتاريخ: «يميل المكيافيليون الجدد أحياناً إلى نزعة لا أخلاقية سوقية، فيما تقتصر المكيافيلية الجديدة، التي أحسن فهمها، على توضيح الفرق بين الصيغة (سيادة الشعب، ديكتاتورية البروليتاريا) والواقع (نظام تمثيلي، ونظام الحزب الواحد). وهو لا يوحى بأن هذه الأحزاب متساوية، ولا بأن الصيغ خالية من المعنى أو التأثير»⁽²⁷⁶⁾. وإذا تصورنا المكيافيلية الجديدة على هذا النحو - إنها رؤية بورهام في الواقع - فإن علينا، إذاً، أن نعترف بأن آرون، هو أيضاً وعلى طريقته، ليبرالي ذو إلهام مكيافيلي، مهما كانت تحفظاته.

التعددية التنازعية والحرية

يعتبر تفتت النخب أو توحيدها، إذاً، معياراً للتمييز بين الديمقراطية والشمولية. غير أنه لا يجوز أن يتوقف تعريف الديمقراطية عند هذا الحد، لأن

تفتت النخب ليس سوى أحد الأبعاد، الهامة طبعاً، للتعددية السياسية والاجتماعية التي تميز الأنظمة الديمقراطية. ولا يلتزم آرون، هنا أيضاً، بإشكالية المكيافيليين وحسب، بل بمكيافيلي نفسه أيضاً. أما اعتبارنا هذا الأخير منظرًا للتعددية، فذلك في الواقع، رأي ظهر سابقاً، في كتاب *أبحاث حول المكيافيلية الحديثة*، ولو بشكل عرضي آنذاك. يبدو آرون سلفاً، وعلى عكس ماريتان عموماً، متأثراً بأعمال مكيافيلي. ويشير إلى أنه إذا كانت العبقرية السياسية لمؤلف الأمير قد قادتته إلى مديح القوة، أي الدولة القوية، فلا نستطيع أن ننسى، من جهة أخرى، كم يبقى فكره مديناً للمفاهيم القديمة، ولمفاهيم العصر الوسيط، أقله. يرغب مكيافيلي الإنسان أن يكون للأمم «دستور متوازن» ومواطنون فضلاء يسمحون بالاستغناء عن الأمير⁽²⁷⁷⁾. ويبدو الفلورنساوي، من خلال تمسكه هذا بالدساتير، نصيراً لحكومة مختلطة: «ما من صيغة مستثناة من الشر من تلقاء ذاتها. هذا ما يوصي به طالما أنه يوصي بصيغة؛ الصيغة المختلطة التي تحقق التوازن بين السلطات العائدة للجميع: الشعوب والنبلاء والملك. ليس المطلوب، من جهة أخرى، حكومة مثالية بل المطلوب توليف حقيقي. وبما أن كل نوع من الحكومات يقوم على طبقة (الشعب والنبلاء والملك) فإن النوع الأكثر ثباتاً هو ذلك الذي يجمع الأنواع الثلاثة، وبطريقة لا تؤدي إلى إلغاء النزاعات، بل إلى المحافظة على الحرية من خلال إدارة النزاع في إطار القانون⁽²⁷⁸⁾. علينا، إذًا، أن نكشف لدى مكيافيلي، تأثيراً كلاسيكياً، ألا وهو نظرية الحكومة المختلطة التي تؤمن الاستقرار. ومع ذلك، إن مديح الصيغة المختلطة لا يعني اعتبارها أنموذجاً مثالياً: إذا فضل مكيافيلي هذه الصيغة، فليس لأنها الصيغة الكاملة، بل لأنها تقلل من عيوب الصيغ كافة، كل على حدة.

حتى لو لم يكن هذا البعد لأعمال مكيافيلي مهماً، فإن أهمية هذه الأعمال تبقى ضعيفة جداً. غير أن الفضل يعود إلى بورنهام، بخاصة، في إظهار أهمية مكيافيلي باعتباره منظرًا للتوازن التنازعي للقوى الاجتماعية. يشير مؤلف *المكيافيليون* إلى أن تفضيل الفلورنساوي للجمهورية لا يتناقض مع ندائه لمصلحة عمل الأمير الهادف إلى توحيد إيطاليا. وإذا كانت الجمهورية، في الواقع، أفضل

شكل للحكومة، في رأيه، فلا ينتج من ذلك أن نظاماً جمهورياً ممكن في المواقف جميعاً⁽²⁷⁹⁾. أضاف إلى ذلك أن الجمهورية التي يصفها في كتاب الأحاديث ليست طوباوية. يبين مكيافيلي عيوب مثاليته كما يبين فضائلها، وهو لا يولي، على عكس المفكرين الطوباويين، أية أهمية نهائية إلى شكل الحكومة. إن الحرية هي الشغل الشاغل لمكيافيلي في الواقع، باعتبارها تمثل استقلال الحاضرة الذي يقوم على حرية المواطنين. تلك الحرية التي تضمنها حكومة القانون الذي يضع حداً للمصالح الخاصة. وذلك لأن مكيافيلي لا يثق بالأفراد، بما هم عليه، من أجل بناء الحرية. أما اللوحة التي يرسمها لذلك فهي شديدة التشاؤم. تفسد السلطة دوماً البشر الطموحين والكذابين. وبالرغم من هذا كله، يمكننا في الواقع، ومن خلال تشريع قوانين مناسبة، أن نضبط العواطف الفردية، إلى حد ما أقله، ولفترة زمنية ما. من هنا جاء الإلحاح على أنه لا يمكن لأي شخص أو قاض أن يكون فوق القانون. ومن الواجب أن تكون هناك وسائل شرعية لدى كل مواطن كي يجري ملاحقات، وأن تكون العقوبات عادلة ونزيهة، وأن توجه الطموحات الخاصة، أخيراً، من خلال المؤسسات العامة.

إذا كان مؤلف الأحاديث لا يؤمن، في العموم، بفضيلة الأفراد الفطرية - يرى بورنهام أن لا شيء أبعد عن مكيافيلي من الأنموذج الأرسطي للإطار السياسي - فإنه يعتبر، بالمقابل، أنه بإمكان مجموعة من القوانين، أعدت بمهارة، أن تساهم في الحرية السياسية. وتوضح، ضمن هذا المنظور الأهمية الرئيسة التي يوليها لتوازن القوى: «لم يكن مكيافيلي ساذجاً لدرجة يتصور معها أن القانون لا يحتاج لأية ضمانة سوى ذاته. فهو يستند إلى القوة، ولكن يمكن للقوة أن تدمر القانون؛ إلا إذا أمكن كبحها من خلال قوة مقابلة. فمن وجهة نظر اجتماعية، إذاً، يقوم أساس الحرية على توازن القوى، وهذا ما يسميه مكيافيلي حكومة "مختلطة"»⁽²⁸⁰⁾.

ويذكر بورنهام، من أجل دعم هذه الأطروحة، الفقرة الشهيرة من الفصل الرابع من المجلد الأول من الأحاديث الذي كان المفكر الليبرالي الإيطالي غوييتي قد سلط عليه الضوء، والذي سيبقى في جوهر شرح لوفور (Lefort)؛ يمتدح الفلورنساوي في هذه الفقرة النزاعات بين الرعاع والنبلاء باعتبارها عاملاً حاسماً في مسألة

الحرية⁽²⁸¹⁾. وهكذا يبين مكيافيلي، من خلال سعيه لتطوير حرية ملموسة، غير طوباوية، كم يعترى النفاق النداءات من أجل "الوحدة" التي هي، في الواقع، كذبة تهدف إلى إلغاء التناقضات، وإلى أي مدى يمكن أن تكون خداعة، الفكرة التي ترى أن الحرية تمثل صفة فطرية لفرد أو جماعة معينة⁽²⁸²⁾.

يعتبر موسكا أفضل من تعلم، من بين المكيافيليين، درس السكرتير الفلورنساوي في ما يتعلق بدور القانون النزاعي بين القوى المتخصصة. وعلمنا أن نتوقف عند هذه المسألة: فقد قاد الشرح الذي قدمه بورغهام عن آرون - على ما يظهر - إلى إغناء تصويره الخاص عن الديمقراطية باعتبارها نظاماً قائماً على الاعتراف بالنزاع. وعلى عكس ما يمكن أن يوحي به استعراض سريع لكتاب *مبادئ في العلم السياسي*، يشير بورغهام إلى أن الخيارات المعيارية لعالم الاجتماع الإيطالي لا تحتل الشك: «فموسكا، كما مكيافيلي، لا يتوقف عند تحليل توصيفي للحياة السياسية، إذ يعرض بوضوح أولوياته وآراءه المتعلقة بأفضل أشكال الحكومات وأسوتها»⁽²⁸³⁾. لا يقترح موسكا، بكل تأكيد، أي طوباوية، متبعاً بذلك مكيافيلي والمكيافيليين الآخرين، كما لا يحلم بأية «عدالة مطلقة» أو «دولة كاملة». وعلى العكس، إنه يوحي بأن النظريات السياسية الساعية من أجل عدالة مطلقة، تؤدي في النهاية، إلى آثار أكثر سوءاً من النظريات التي تعتمد طموحاً أقل، في البداية. وذلك لأن استحالة الوصول إلى عدالة «مطلقة» لا تمنع أبداً العمل من أجل تحقيق «عدالة نسبية»، هي الوحيدة التي يمكن تصورها في هذا العالم. وهكذا يتصور موسكا، مثل مكيافيلي، إمكانية تنظيم الرغبات الفردية المتنازع عليها، بفضل مجموعة من القوانين. ويعتبر عالم الاجتماع الإيطالي أن الحرية - باعتبارها «دفاعاً قانونياً» - لا يمكن أن تولد إلا من التعارض المتبادل بين طموحات كل فرد وغرائزه. وهذا يعني أن «الدفاع القانوني» لا يرتبط بمجموعة نصوص دستورية وحسب: إذ لا يكفي أن تصدر مجموعة من القواعد من أجل تحقيق التعددية الضرورية للحرية. يجب أن تحمل مجموعات اجتماعية غير متجانسة ومتخصصة هذه التعددية. في الواقع، «السلطة وحدها قادرة على مراقبة السلطة بشكل ملموس في الحياة الاجتماعية. كما لا يمكن ضمان الدفاع القانوني

إلا حين نفعل الميول والقوى المتنوعة والمتنازعة. ويعنى نظام الطغيان، وهو أسوأ الحكومات، زوال الدفاع القانوني الذي يزول دوماً حين يتوصل تيار اجتماعي إلى استيعاب الآخرين أو إلغائهم»⁽²⁸⁴⁾. ويبن موسكا، باعتباره مريداً لمكيافيلي، أن الإنسان، هذا الكائن الناقص، يميل دوماً إلى سوء استخدام السلطة. غير أنه ليس مطلوباً إذا إلغاء الغرائز الأساسية للطبيعة البشرية - فهذا أمر طوباوي وخطر - بل تنظيمها كي تتوازن في ما بينها. ويلخص بورهنام على هذا النحو: «إن الحرية في العالم، كما هو عليه، نتاج للنزاع والاختلاف، وليس الوحدة والانسجام»⁽²⁸⁵⁾. لقد سار موسكا باتجاه موقف من هذا القبيل، في النسخة الأخيرة من مبادئ في علم السياسة عام 1923، حين امتدح الحكومات البرلمانية في القرن التاسع عشر والتي وصلت إلى أعلى مستوى من الحضارة والحرية، مديحاً ربما أثار الدهشة، إذا نظرنا إلى الانتقادات العنيفة الواردة في معظم فصول المؤلف، ضد الأنظمة البرلمانية. غير أن علينا أن نتذكر أنه لا يجوز الحكم على المجتمعات إلا بطريقة نسبية، يكون معها «أقل الشر هو الأفضل واقعياً». ويعود الفضل إلى الأمم البرلمانية والليبرالية، في القرن التاسع عشر، في تشجيع انتشار مجموعات كبيرة وغير متجانسة، يمكن لكل منها أن يدعي السيطرة على الآخرين، إضافة إلى بزوغ عدد قليل من القوى الاجتماعية. لقد حققت هذه التعددية النزاعية ازدهاراً غير مسبوق في مختلف حلقات النشاط - التجاري والفني أيضاً - رافقه دعم لا يقل أهمية، للحرريات الفردية⁽²⁸⁶⁾.

يخلص مؤلف المكيافيلتيون من هذا التفكير حول مساهمة مكيافيلي وموسكا، وكذلك ميتشلس، إلى ضرورة التمييز الدقيق بين تعريفين للديمقراطية: يعتبرها التعريف الأول حكماً من الشعب ومن أجله، والثاني نظاماً يمنح حق التعبير للمعارضات⁽²⁸⁷⁾. وسيكون للتعريف الأول، كما رأينا، طابع وهمي وطوباوي بشكل واسع، على الرغم من أن من الصحيح أن «الصيغة الديمقراطية»، ليست من دون تأثير على البنية الاجتماعية. ومع ذلك، يشير بورهنام إلى أننا عندما نتحدث في العادة عن الديمقراطية، فإننا لا نشير، بالضرورة إلى شكل من "الحكم الذاتي"، وهذا أمر لا يبعث على الدهشة، لأن مثل هذه الصيغة بالمعنى الحرفي

للكلمة، مستحيلة الوجود. من هنا تأتي إذاً ضرورة وجود تعريف ثانٍ: تشير الديمقراطية في الحياة العملية، وبعيداً عن الخطاب الإيديولوجي، إلى نظام يكون فيه «الدفاع القانوني» محمياً من كل تدخل اعتباطي. وبتعبير آخر، تعادل الحرية، في هذه الحالة، «حقوق المعارضة»؛ أي الإمكانية المضمونة للمعارضين بالتعبير علانية عن اعتراضاتهم ضد النخب الحاكمة. وهذا المعنى لا يمكن للديمقراطية، في أية حال، أن تقتصر على «صيغة» بسيطة أو على أسطورة. وخير من ذلك، تسمح الديمقراطية بإقامة تراتبية دقيقة لمختلف أنظمة الحكم⁽²⁸⁸⁾. لم يُنس إذاً درس مؤلف كتاب الأحاديث، بل ظل محافظاً على ملاءمته كاملة في القرن العشرين: «لا يضع المكيافيلليون الحديثون، كما مكيافيلي نفسه، وقتهم، في مناقشة أسطورة الديمقراطية التي تعرف بأنها حكم ذاتي، بل ينشغلون - بعمق - بالديمقراطية باعتبارها حرية. وهم يعرفون، أن مستوى الحرية في مجتمع ما، واقعة ذات نتائج واسعة على طبيعة البيئة الاجتماعية في مجملها، وعلى الأفراد الذين يعيشون فيها»⁽²⁸⁹⁾.

تشكل التعددية النزاعية السياسية والاجتماعية، التي يعتبر مكيافيلي منظرها الأول ورائدها، إذاً، الضمانة الأساسية لمجتمع حر.

فكرة نزاعية عن الديمقراطية

نجد لدى آرون أصداء هذه الإشكالية القائمة على موضوع النزاع الاجتماعي. وتقوده منهجيته، "مكيافيلية" الأنموذج، في الواقع، إلى نتائج ليست أقل مكيافيلية، في ما يتعلق بجوهر الديمقراطية. عرف تصور آرون، في الواقع، توجيهين رئيسيين، مختلفين تاريخياً وفلسفياً، في النظام الديمقراطي. ويعبر الفكر السياسي للوك (Locke) عن التوجه الأول، فيما نجد صيغة واضحة للثاني في العقد الاجتماعي، أو في إعادة صوغه إبان الثورة الفرنسية، أقله⁽²⁹⁰⁾. ويظهر «مفهوم شبه صوفي للسيادة الشعبية»، مع هذا التوجه الأخير، لا يولي مسألة تحديد السلطات سوى أهمية ثانوية⁽²⁹¹⁾. ويقوم هذان الاتجاهان - الشعبي والليبرالي - على تيارين فلسفيين متنافرين، يعتبر الأول "متشائماً"، والثاني "متفائلاً". يحيل التيار

الأول، الدستوري أو الليبرالي، إلى تحديد لسلطات الدولة متلازم مع ضمان أفضل للحقوق الفردية. أما الثاني، الذي يلح على «السلطة المطلقة للشعب أو الأغلبية»، فيقوم على تصور متفائل للطبيعة البشرية. وترى هذه النظرية، في الواقع، أنه تكفي إزالة التقاليد غير العقلانية والامتيازات كي يستطيع البشر الذين تحرروا أخيراً، أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم⁽²⁹²⁾. ومع ذلك، من الممكن أيضاً أن نبرر الديمقراطية - وذلك موقف مكيافيلي - على أساس أنثروبولوجيا متشائمة: «فقد برر روسو الديمقراطية من خلال فكرة أن البشر طيبون. ولنقل إن المكيافيليين يبررونها من خلال فكرة أن البشر غير طيبين. ويمكننا القول في الواقع: الناس طيبون، لذلك عليهم أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم، غير أن باستطاعتنا القول أيضاً إن البشر ليسوا طيبين. فلنحد، إذًا، من السلطات التي نمنحها لبعضهم، فكلما قلت طيبة البشر، أصبح من الواجب تقليص سلطات الحكم»⁽²⁹³⁾. ومن الصحيح، أن آرون قد أولى الأهمية نفسها للوك كما للمكيافيليين، من أجل توصيف النموذج "الليبرالي". إن هذا النوع من النزعة التلقينية مخيب. ويدعو بناء ليبرالية تشبه ليبرالية لوك على أساس أنثروبولوجيا مكيافيلية مستحيلاً. وكما أن آرون لم يتمكن من تجاهل مثل هذا التناقض، فعلى أن نعتبر أنه قد قدم، هو نفسه، دفاعاً عن الليبرالية السياسية، باعتباره مكيافيلياً، أكثر منه وريثاً للوك. وفي الواقع، وانسحاباً مع مبادئه المنهجية، لم يظهر آرون مميزات الديمقراطية الليبرالية على أساس تصور كوني أو ميتافيزيقي، بل انطلاقاً من رؤية واقعية للطبيعة البشرية.

وبالتلازم مع هذا، ومن خلال التعارض بين تفاؤل روسو وتشاؤم مكيافيلي، تعمم مقارنة آرون تمييزاً اقترحه موسكا نفسه الذي شرح في كتابه *مبادئ العلم السياسي*، وجهات نظره الخاصة التي تشكل نقيضاً لوجهات نظر روسو. وفيما يعتبر مؤلف كتاب *العقد الاجتماعي* الطبيعة طيبة بفطرتها، وأن المجتمع يحولها إلى سيئة، فإن موسكا، يعتبر بالمقابل أن على التنظيم الاجتماعي مراقبة غرائز الإنسان السيئة جداً وتنظيمها بدل *إلغائها*، من خلال حيلة مؤسساتية *تقودها* إلى أن تكبح بعضها بعضاً تتعارض⁽²⁹⁴⁾. ويمكن ضمن هذا الشرط أن نضمن «الدفاع القانوني»، الشغل الشاغل لليبرالية موسكا. ولا يرى آرون، كما المكيافيليون، إذًا،

في الديمقراطية الليبرالية «دولة مثالية» تضع حداً نهائياً للنزاعات. بل تتطلب الديمقراطية، على العكس من ذلك، ووفقاً لهذا الفهم، الاعتراف بالانقسامات على أنها عنصر أساسي للحرية.

وتبدو هشاشة مثل هذا النظام واضحة، لأن قبول "الشغب"، (*tumulti*) وفقاً لمصطلح مكيافيلي، يوشك أن يوصل إلى الفوضى. لذلك يجب تحليل أسباب عدم الاستقرار في الديمقراطيات والعلاجات التي يمكن أن نقدمها. وبما أن الديمقراطية تتصف بالتنافس السلمي من أجل ممارسة السلطة، وبأنها نظام «غير مستقر في جوهره» فعلى تحديد كيفية الوصول إلى المحافظة على عدم الاستقرار هذا «ضمن الحدود المسموح بها»⁽²⁹⁵⁾. يضع تحليل آرون، من خلال الرجوع إلى مكيافيلي، سبباً أولاً لعدم الاستقرار: «طموح البشر» و«استدعاء الجماهير». ومع ذلك، ليس المطلوب كما هو الحال لدى مكيافيلي، إدانة الطموح في حد ذاته، واتخاذ موقف وغط أخلاقي: فالطموح بعيد عن أن يكون أمراً «في حد ذاته»، لأنه سلوك طبيعي مرتبط بالطبيعة البشرية أو بطبيعة رجال السياسة أقله. وربما كانت السياسة نفسها سيئة، إذا لم يقدها رجال طموحون، غير أن المشكلة كلها تتمثل في العمل كي يكون هذا الطموح مفيداً للحاضرة. وتعبير آخر، علينا أن ننظم «شروط المنافسة» كي لا يعرض طموح البشر النظام نفسه للخطر⁽²⁹⁶⁾. غير أنه، ومن خلال دراسة عدم استقرار الديمقراطيات، سننقاد، من هذا المنظور، إلى إعادة اكتشاف المسائل التي أثارها مؤلف الأحاديث نفسه، سابقاً: «تبقى الأنظمة السياسية كافة، وفقاً لتعبير مكيافيلي، وسيلة من أجل استخدام عيوب البشر أو أنانياتهم، من أجل خير الحاضرة. إن المشكلة التي تثار في نظام ديمقراطي ترتبط بتنظيم المنافسة بطريقة يصبح معها الطموح البشري مفيداً للجماعة»⁽²⁹⁷⁾. تأتي، من هنا، الأهمية التي تولى للمسائل الدستورية، من أجل تأمين استقرار الديمقراطيات؛ يجب أن تعتبر الدساتير وسيلة «لتطبيع مسار الطموحات البشرية»⁽²⁹⁸⁾. إن المطلوب، من وجهة نظر مكيافيلي، هو تحديد الشروط التي تستطيع معها الديمقراطية تلافي أخطار الفساد: ويتمثل الهدف في إيجاد وسيلة تنظيم قانونية للعواطف كي تصبح مفيدة للمصلحة العامة للجماعة.

التعددية السياسية والاجتماعية

لدى مكيافيليين والمكيافيليين

وهكذا نعيد اكتشاف درس مكيافيلي وكذلك درس موسكا، وبخاصة مديح «النظام المختلط» في كتاب *مبادئ العلم السياسي*⁽²⁹⁹⁾، حيث يؤيد موسكا الفكرة القائلة أن أفضل الأنظمة هي الحكومات المختلطة، أي تلك التي لا يهيمن فيها النظام السلطوي ولا الليبرالي، وحيث تلطف النزعة الأرستقراطية من خلال التجديد المستمر للطبقة الحاكمة. وباختصار، إن أفضل الحكومات (أو أقلها سوءاً) هي تلك التي لا يسيطر عليها أبداً مبدأ واحد وصيغة اختيار واحدة للطبقات الحاكمة⁽³⁰⁰⁾. لا يقول آرون شيئاً غير ذلك، في الواقع؛ بما أنه قد لاحظ أن الحديث يجري غالباً، وفي القرن التاسع عشر، عن «حزب المقاومة» و«حزب الحركة»، فقد رأى أن الديمقراطية المستدامة هي النظام «الذي لا يُدفع فيه بعيداً بالأمر التي تسعى إلى إسقاط القيم الأخلاقية وإلى تجديد الفئة الحاكمة، وذلك في ما يتعلق بالمحافظة على التراتبية والامتيازات التقليدية»⁽³⁰¹⁾، ويفترض بقاء الديمقراطية أن يكون هناك «توازن بين قوتين»، فيما لا يمكن لحالة عدم التوازن إلا أن تقود إلى «تذبذب بين الأشكال الثورية اليمينية واليسارية»⁽³⁰²⁾. ويبين هذا المديح الضمني للأنظمة المختلطة أن ليبرالية آرون، كما لدى موسكا والمكيافيليين، تقوم على فكرة أنه لا يمكن للتعددية السياسية أن تبقى إلا إذا استندت إلى تعددية اجتماعية. ويشرح آرون، من خلال تساؤله ضمن هذا الاتجاه، عن التوافق بين نظام اقتصادي موجه جزئياً ونظام المنافسة، بالقول إن الشرط الأول للمحافظة على هذا النظام يتمثل في «وجود تعددية قوى»، وهذا شرط «ألمح عليه الكتاب المكيافيليون دوماً»⁽³⁰³⁾. ولا يكون للعبة الانتخابات والبرلمان في الواقع معنى، إلا عندما لا تتركز السلطة في الأيدي نفسها. وبالمقابل، إذا اندمجت السلطة السياسية والاقتصادية، وإذا لم تكن هناك، مجموعات مستقلة نسبياً، وقادرة على المواجهة والمنافسة - كما هو الحال في الأنظمة الشيوعية - فتكون الانتخابات، عند ذلك، بلا معنى⁽³⁰⁴⁾. وبكلام آخر، إن الديمقراطية التي تعني الاعتراف

بالمنافسة بين المجموعات غير المتجانسة من أجل ممارسة السلطة، ليس لها وجود في الأنظمة التي تسعى إلى إلغاء المسافة التي تفصل بين المجتمع المدني والدولة.

الديمقراطية، النظام الأقل نقصاً

تسمح دراسة التعددية التنافسية لمكيافيلي وتابعيه، إذاً، بالاستنتاج أن التقاليد المكيافيلية لا تؤدي بالضرورة إلى نزعة لا أخلاقية ولا إلى نزعة نسبية. ويسمح «علم السلطة» الذي شرع به مكيافيلي وتابعوه، بإدانة الطابع المخيب للطوباويات وبتحديد الأنظمة الأقل سوءاً في العالم، بما هو عليه. إن هدف المكيافيليين في الواقع، توضيح أن النظرية الإيطالية للنخب تميل، عموماً إلى نظام يفضل التعددية والنزاع بين القوى السياسية والاجتماعية. ويدل على ذلك، أن ميتشلس نفسه، الذي بين في كتابه الأحزاب السياسية، وبشكل حاسم، الطابع الأقلوي للديمقراطية، يعبر بالرغم من كل شيء عن تفضيله لهذا النظام الذي يعتبر «أقل الشرور»، وذلك لأنه يترك فسحة تسمح بوضع حد للطابع المطلق والمتعمد، للسيطرة الأقلوية⁽³⁰⁵⁾.

يندرج تبرير آرون للديمقراطية بدوره ضمن هذه التقاليد. ويلاحظ آرون، من خلال وضع موازنة بين فضائل النظام الديمقراطي وعيوبه، أن الديمقراطيات أنظمة ذات هشاشة عالية، تهددها النزاعات العقيمة التي يمكن أن تتحول إلى انعدام للفعالية وإلى دمار. نكتشف هنا نقد المكيافيليين، بخاصة پاريتو. غير أن مكيافيلي والمكيافيليين يقدمون، في الوقت ذاته، براهين حاسمة لإظهار ميزات الديمقراطية: «الفضائل هائلة - وهنا تتدخل المكيافيلية - شرط ألا نسعى إلى نظام كامل. وإذا انطلقنا من فكرة أن جميع الأنظمة على صورة الطبيعة البشرية، وإذا صنفنا الديمقراطية بين الأنظمة السيئة، فسيكون النظام الديمقراطي في الغالب أفضل الأنظمة السيئة بكثير، أي أفضل جميع الأنظمة الممكنة»⁽³⁰⁶⁾. وانطلاقاً من الفكرة «التشاؤمية والمكيافيلية البحتة» حول الطبيعة البشرية، يمكن الاستنتاج أنه لا توجد ملكية جيدة ولا أرستقراطية جيدة، بل إن «الديمقراطية نظام أقل نقصاً بكثير، من بين الأنظمة الناقصة، لأنه يضع حداً بشكل أكبر، لقدرة الحكام على

التصرف»⁽³⁰⁷⁾. وهكذا، نجد في قلب فكرة الديمقراطية هذه، عدم ثقة حيال السلطة: «انطلاقاً من الفكرة التشاؤمية بأن كل سلطة مفسدة، وأن السلطة المطلقة تولد فساداً مطلقاً، نستنتج أن السلطة الديمقراطية تفسد بنسبة أقل وترتكب تجاوزات أقل»⁽³⁰⁸⁾. إن باستطاعتنا، طبعاً، أن نقدم عن هذه الفكرة صورة أخرى أكثر تفاؤلاً بالتأكيد، إن الديمقراطية نظام يقدم السلطة الأكثر دستورية. ليس علينا أيضاً أن ندفع بهذا التفاؤل بعيداً جداً، إلى حد التسليم بأن هذا النظام الأفضل هو الأقوى في النزاعات التاريخية: «ما من سبب في أن يحرز النظام الأكثر انسجاماً مع ميولنا الأخلاقية، بالضرورة، الانتصار في التاريخ»⁽³⁰⁹⁾. ويشكل درس باريتو الواقعي حول هذه النقطة الحد الحاسم. كيف بإمكاننا القول بوضوح، مرة أخرى، إنه ليس باستطاعتنا الهرب من دروس المكيافيين؟

لقد تم تعميق هذا التفكير المكيافي حول الديمقراطية في كتاب *ديمقراطية وشمولية*، بالرغم من أن آرون لم يعد يصرح، بشكل ظاهر، هذه المرة، بانتمائه إلى أتباع مكيافي. لذلك، فهو يبين، على طريقة بورنهام، أن الأنظمة الدستورية التعددية ركيكة وذات فضائل سلبية في الجوهر، وهذا ما يفسر طابعها المخيب: «إنها ركيكة لأنها تركز، من حيث التعريف، على العيوب الطبيعية البشرية؛ وتقبل أن تأتي السلطة من التنافس بين المجموعات والأفكار؛ وتسعى إلى وضع حدود للسلطة، منطلقة من قناعتها بأن البشر سيئون استخدام السلطة ما إن يتسلمونها»⁽³¹⁰⁾. وما من شك في أن هذه الأنظمة تحوز على «فضائل إيجابية» مثل احترام الدستور والحريات الفردية، ومع ذلك، ربما بقيت أسمى فضائلها "سلبية"، وذلك لأن لها الفضل في منع ما لا تستطيع الأنظمة الأخرى منعه⁽³¹¹⁾. تعكس الديمقراطيات الدستورية التعددية، بالضرورة، طبائع البشر الذين يتصارعون في هذه النزاعات، لأنها تسمح بالنزاعات بين الأفكار والمصالح والمجموعات والأشخاص. ويأتي طابعها التناقضي، نتيجة لذلك بشكل دائم: «من الحسّن الحُلم بنظام دستوري زالت نواقصه، غير أننا لا نستطيع تصور احتمال قيام نظام حيث رجال السياسة واعون، وحيث تنفجر النزاعات الفكرية، غير أن الصحافة تبقى فيه موضوعية، وحيث يحافظ المواطنون على روح التضامن، بالرغم من الصراعات التي

تضعهم في مواجهة بعضهم بعضاً»⁽³¹²⁾. وهكذا، وضمن هجوم على الذين يهتمون الأنظمة التمثيلية الحديثة باعتبارها حيزاً لصراع المصالح، يحذر آرون بأنه لا تجوز المقارنة بين «نظام حقيقي» وآخر «مثالي لم يسبق له وجود قط»: إن الطلب من نظام دستوري تعددي أن لا يسمح بالتعبير لمختلف مجموعات المصالح، يعني تصور «نظام مستحيل ومتناقض»⁽³¹³⁾.

إذاً، علينا أن نميز، في إطار فكر مكيافيلي جذري بين النقص الخاص بالأنظمة الدستورية التعددية من جهة، والنقص الذي يميز أنظمة الحزب الواحد من جهة أخرى. فالأولى ناقصة، إما بسبب «الإفراط الأقلوي»؛ حين تتخفى أقلية قوية وراء لعبة الأحزاب، أو بسبب «الإفراط الديماغوجي»؛ حين تنسى المجموعات المتنازعة روح الخير العام، وأخيراً ودائماً بسبب «الحد من الفعالية»، وذلك لأن نظاماً يحق فيه، للمجموعات كافة الدفاع عن مصالحها لا يستطيع اتخاذ إجراءات جذرية، إلا بصعوبة⁽³¹⁴⁾. وعلى العكس، فالنقص في نظام الحزب الواحد "مغاير" و"أساسي"، لارتباطه بتناقض لا يمكن تجاوزه. وذلك لأننا إذا اعتبرنا أن المجتمع متجانس، كما تدعي الإيديولوجيا الشيوعية، فيجب أن يزول احتكار الحزب. أما إذا منعنا حرية التعبير عن الرأي، فهذا يعني أن المجتمع غير متجانس بحكم الحقيقة. ويمكن لنظام يفرض إرادته بالعنف، أن يسمح لنفسه، بكل تأكيد، بالوصول إلى نتيجة "سامية"، غير أنه لا يستطيع الادعاء بأنه يمثل انجازاً الديمقراطية⁽³¹⁵⁾. لذلك يفترض فكر آرون حول الديمقراطية، تصوراً من النوع المكيافيلي: إن الأنظمة الدستورية التعددية ناقصة بسبب طابعها النزاعي، غير أن هذا الطابع نفسه يجعل منها نظاماً أقل سوءاً في آن.

تفسير لمونتسكيو من منظور مكيافيلي

من المثير للدهشة اعتبار ليبرالية آرون تعددية نزاعية ذات إلهام مكيافيلي. فمن المسلّم به عموماً، أن يندرج فكر آرون، في الواقع، في سياق التقاليد الليبرالية الفرنسية. ألم يعتبر آرون نفسه، في النتيجة، وريثاً متأخراً لمونتسكيو وهاليفي⁽³¹⁶⁾؟ ومع ذلك، إذا لم نأخذ بالاعتبار سوى دراسته الوحيدة الموسعة والمكرّسة لمونتسكيو، فلا يمكننا إلا أن نتأثر بالروح المكيافيلية البحتة لشرحه.

ونجد، لدى موسكا، في النتيجة، شروحاً حول مونتسكيو تستبقي شرح آرون. ولندكر أن من أسباب اهتمام موسكا بمونتسكيو، رأي هذا الأخير حول عدم إمكانية الضمانات الدستورية والقانونية تحقيق الحرية، أي «الدفاع القانوني»، إلا إذا توفر، ضمن المجتمع وبشكل فعلي، عدد من القوى الاجتماعية المتميزة التي تستطيع أن تواجه بعضها بعضاً، وأن تعبر كل واحدة منها عن مطالبها. ويفسر هذا التمسك بالتعددية، وفقاً لبورنهام، ميول موسكا الواضحة، بعد مكيافيلي، إلى «الدستور المختلط». وهكذا، فهو يشير في كتابه *مبادئ علم السياسة* إلى أن كبار المنظرين «للدستور المختلط» - أي أرسطو وبوليبي (Polybe) وشيشرون والقديس-توما، وأخيراً مونتسكيو - قد أحسوا جميعاً أن تضامن المؤسسات السياسية يرتبط بشكل رئيس بمزيج مناسب ومتوازن من المبادئ والنزعات المختلفة⁽³¹⁷⁾. وفي ما يخص مؤلف كتاب *روح الشرائع*، يشير موسكا إلى أن معظم شارحيه، بخاصة المختصين بالقانون الدستوري، قد أخطأوا كثيراً بالإلحاح على الجانب القانوني الصرف لنظرية فصل السلطات، مبرزين بذلك "عيباً" معروفاً إلى حد ما لدى مونتسكيو نفسه⁽³¹⁸⁾. وبذلك فقد ارتكبوا خطأ منح أهمية «للمظهر الشكلي» على حساب «الجوهر السياسي» لهذه النظرية، ناسين أن على الجهاز السياسي أن يمثل بالضرورة قوة سياسية؛ أي «تنظيم سلطة وتأثيراً اجتماعياً»⁽³¹⁹⁾، كي يصبح فاعلاً ويحد من تأثير تنظيم آخر. يتوجه نقد موسكا، في كتابه *تاريخ المذاهب السياسية*⁽³²⁰⁾، هذه المرة، إلى كتاب *روح الشرائع*، وليس إلى أتباع مونتسكيو، وإلى نظرية فصل السلطات لأنها لم تلح، بشكل كاف، على الجانب السياسي لهذا التقسيم: «وذلك لأن التقسيم لا يمكن أن يعمل بشكل طبيعي إلا من خلال وجود قوة سياسية خاصة، وراء كل تنظيم، سواء أكانت الملك أو البرلمان. فوراء الملك هناك المجد الذي لا يزال التاج يتمتع به، وهناك الطبقة الميسورة والمتوسطة الإنكليزية التي تمتلك التفوق الاقتصادي والتي تشارك بفضل الحكم الذاتي، بشكل كبير، في القيادة الإدارية للبلاد»⁽³²¹⁾. لقد تم التأكد من هذه الفكرة، من خلال الوقائع، عبر فشل المشرعين الذين ادعوا، بعد مونتسكيو، أنهم سيتبنون أنموذج فصل السلطات كما هو، بما في ذلك لدى الأمم

التي لا تعرف التعددية السياسية والاجتماعية: «يفسر هذا الإهمال عدم نجاح فصل السلطات بشكل مناسب في بعض البلدان حيث اعتمد النظام التمثيلي، وما استتبعه من فصل السلطات، رغم ضبطه بالنصوص الدستورية. ويعود السبب في ذلك، بدقة، إلى غياب تعددية القوى القائمة في هذه البلدان، تلك التعددية التي أتاحت، في انكلترا، نجاح صيغة الحكم هذه»⁽³²²⁾. وهكذا تشكل نظرية تقاسم السلطات، التي تبقى «الجزء الأكثر ثباتاً لدى مونتسكيو»⁽³²³⁾ «مرحلة رئيسة، في اكتشاف التعددية السياسية والاجتماعية، باعتبارها شرطاً للحرية، رغم وجود المعوقات».

من الصعب أن نعرف، بدقة، ما إذا كان آرون قد اطلع على تحليلات موسكا هذه حين قدم شرحه عن مونتسكيو. ومهما يكن، تحتوي قراءة آرون على العديد من التشابهات مع القراءات التي قدمت في *مبادئ العلم السياسي*. ويمثل الفرق الوحيد في أن آرون يظن، من جهته، بأنه عثر، وبشكل واضح تماماً، على نظرية التعددية السياسية والاجتماعية في صلب كتاب *روح الشرائع* نفسه. ويرى آرون أن ما يميز ليبرالية مونتسكيو موجود في هذا التنظيم للتعددية، مستبعداً بذلك تشبهه بليبرالية لوك. ويحذر آرون، من خلال دراسته للفصل السادس الشهير، من كتاب *روح الشرائع* المكرس للدستور الإنكليزي، من الاستسلام للمقارنة بين إشكالية مونتسكيو ولوك. وإذا استطعنا أن نتلمح، بسهولة، بعض العلاقات التفصيلية، فلا يمنع هذا من القول إن غايات الكاتبين مختلفتان بشكل جوهري: «فغاية لوك وضع حدود للسلطة الملكية، وأن يبين أن الملك يتجاوز بعضاً من حدوده ويخل ببعض التزاماته، وأن من حق الشعب، المصدر الحقيقي للسلطة، أن يرد. وبالمقابل، لم تكن الفكرة الرئيسة لدى مونتسكيو هي فصل السلطات بالمعنى القانوني للكلمة، بل ما يمكن أن نسميه توازن القوى الاجتماعية الذي يعتبر شرط الحرية السياسية». لا يجري التركيز، وبشكل مقصود هنا، على النزعة الفردية، في بناء لوك الفكري -ربما شكل هذا الأمر برهاناً - بل على مبدأ السيادة الشعبية. وينتج من ذلك، بشكل رئيس، أن مونتسكيو لا يتكلم بلغة السيادة، إذ يقوم تحليله على لعبة القوى الاجتماعية

المتنازعة. يرى آرون، انسجماً مع هذا الأمر، أن المواجهة بين الرعايا والسلطة المركزية لا تشكل أصالة النظرية المعروضة في روح الشرائع، بل يجد أن التمايز الاجتماعي في الدستور الإنكليزي يشكل الشرط الضروري من أجل كبح جماح السلطات، وذلك من خلال إيضاحه أن السلطة التشريعية تتجسد في مجلسين: الأول يمثل الشعب والثاني الأرستقراطية. وبكلمات أخرى: «يعني مفهوم التوافق الاجتماعي توازن القوى أو السلام القائم على فعل المجموعات الاجتماعية وردة فعلها»⁽³²⁴⁾. علينا بالنتيجة، أن نبقي متيقظين للبعد الاجتماعي أو الاجتماعي السياسي لنظرية مونتسكيو، أكثر من جانبها الشكلي البحت: «تقع نظرية الدستور الإنكليزي في جوهر علم اجتماع مونتسكيو، ليس لأنها أتمودج للبلدان جميعاً، بل لأنها تسمح بإيجاد أسس دولة معتدلة وحرّة، ضمن الآلية الدستورية للملكية بسبب التوازن بين الطبقات السياسية وبفضل التوازن بين السلطات السياسية»⁽³²⁵⁾. وتبدو أوجه التقارب بين قراءة آرون والتفسير "المكيافيلي" بديهية، حتى لو اختلفت النتائج.

النزعة العلمية للتقاليد المكيافيليّة

لا يستطيع آرون، مع ذلك، الانضواء تحت لواء النزعة العلمية والتشاؤم المحافظ الذي تقوم عليه النظريات المكيافيليّة، انسجماً مع نقده، في فترة ما قبل الحرب. وهكذا يتوضح، تماماً، رفضه للعلم المكيافيليّ الوهمي، في الفصل الثاني من كتابه *ديمقراطية وشمولية*، والذي بدأ به، حول مكيافيليّ وباريتو في كتابه *بحوث حول المكيافيليّة الحديثة*. يقوم برهان آرون على إيضاح حقيقة الفلسفة المستترة التي يقوم عليها هذا العلم السياسي المنعوت "بالمحايد". فمن خلال استبعاد أية عودة سواء أكان إلى القيم الكونية أم إلى غائية الطبيعة، يتطلب علم الاجتماع «الموضوعي المزعوم» هذا، في الواقع أيضاً، فلسفة لا نرى كيف يمكن أن تكون أكثر صدقاً من الفلسفة الغائية للطبيعة البشرية: «إنها تضع أسس الفلسفة الكلية بدل فلسفة العقل، وترى أن معنى السياسة هو الصراع وليس البحث عن سلطة مبررة»⁽³²⁶⁾. ليس البرهان على نفي المعنى، في الواقع، أكثر موضوعية من التأكيد

على تثبيته. وعلى العكس، لا يرى آرون سبباً لاعتبار نفى المعنى حركة غير فلسفية بالضرورة، «وذلك من خلال إبعاد الفلسفة عن إضفاء دلالة على الوجود البشري»⁽³²⁷⁾. ومع ذلك، ليس محتملاً هنا أن ينفي عالم الاجتماع، تحت ذريعة النزعة العلمية، الدور التأسيسي للقيم في حياة المجتمعات: «فهو لا يقع حتماً، في النزعة الكلية، لأن الأفكار السياسية أو الأخلاقية التي يعتمدها في الحكم على الأنظمة السياسية تشكل جزءاً من الواقع نفسه. ويقوم الوهم الأكبر للفكر الكليبي المهوروس بالصراع من أجل السلطة، على إنكار وجه آخر للواقع: البحث عن السلطة الشرعية، والسلطة المعترف بها والنظام الأفضل»⁽³²⁸⁾. وبكلمات أخرى، إذا كان الصراع من أجل السلطة يشكل بعداً أساسياً للسياسة بكل تأكيد - المساهمة المكيافيلية مؤكدة في هذا المجال - فإن هذا الصراع لا يحتزل معناها كله.

حدود التصور المكيافيليّ للديمقراطية

تفسر هذه النظرة الكلية للسياسة، في نظر آرون، الصعوبات التي يواجهها المكيافيليّون في توصيف الأنظمة الديمقراطية. لأن مفهوم آرون للديمقراطية لا يمكن توصيفه بالمكيافيليّ من دون قيد ولا شرط، وذلك على الرغم من التقارب العميق الذي أشرنا إليه في ما سبق. ويمكننا أن نتبع بهذا الصدد، وإلى النهاية، مقولة توماس برتون بوتومور (T. B. Bottomore)⁽³²⁹⁾، التي ترى أن آرون يتمسك بتعريف أقلوي وتعددي للنظام الديمقراطي، شبيه بتعريف موسكا في الواقع. يلوم مؤلف نخب ومجتمع، في الواقع، آرون لاعتماده مفهوماً دفاعياً للديمقراطية. غير أن بوتومور يوضح أن سياق الحرب الباردة لوحده قد منح بعض "الصدقية" «لمطابقة الديمقراطية مع التعددية الحزبية والنظام التمثيلي». لقد ابتعد آرون بذلك، وبشكل كامل، عن معنى الحركة الديمقراطية، من خلال إلحاحه الشديد على التوازن النزاعي للنخب، باعتباره ضماناً للديمقراطية. ويذكر بوتومور، في الواقع، أنه وخلال القرن التاسع عشر، لم تعتبر الديمقراطية قط «منجزة وكاملة»، بل اعتبرت مساراً مستمراً توسع من خلال الحقوق السياسية والقدرة على ممارسة التأثير على

السياسة الاجتماعية لتشمل فئات من الشعب كانت محرومة منها حتى ذلك الحين»⁽³³⁰⁾. وبالتلازم مع ذلك، حددت الحركة الديمقراطية، عندئذٍ وبشكل واضح، مثلاً أعلى مجتمعيًا يستطيع البشر فيه أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم. وبذلك، إن ليبرالية آرون تتنازل أمام مفهوم تعسدي خاص ومحافظ جداً للديمقراطية، من خلال رفضها فكرة أن يقوم نظام ديمقراطي على حكم من الشعب، ومن خلال إصرارها على أنه حكم حصري من الشعب⁽³³¹⁾. ومع ذلك، تعبر هذه القراءة للمفهوم الديمقراطي، لدى آرون، عن ابتعاده عن المكيافيلية الجديدة.

يظهر هذا الابتعاد في مقالة حول ألان (Alain)⁽³³²⁾، بخصوص التجديد الذي يمثله اعتماد الاقتراع العام. يسلّم آرون أولاً، وضمن منظور مكيافيليّ أن مثل هذا التغيير لا يبدل شيئاً في الجوهر: «يعترض المكيافيليّون، بحق، على اعتبار سيادة الشعب صيغة تخفي حقيقة أخرى، مثل بقية الصيغ السياسية» أي «ممارسة السلطة من قبل أقلية مميزة». وربما كان ألان قد اعترف بهذه الواقعة، غير أنه ربما قد أشار أيضاً إلى أن مبدأ السيادة الشعبية يشكل، فعلياً، طفرة بالقدر الذي يغير فيه، بشكل معنوي، العلاقة بين الحاكمين والمحكومين. وبهذا المعنى، علينا أن نقبل أنه «مهما يقول بعض المكيافيليين، نحن هنا أمام ثورة». ويظهر هذا النقد الموجّه إلى المكيافيليين الجدد في كتاب *مدخل إلى الفلسفة السياسية*، أي في نص ذي طابع مكيافيليّ صريح. يعترف آرون بكل تأكيد، وبأسلوب مكيافيليّ «أن لكل أقلية حاكمة إيديولوجيا تبريرية» عليها أن تسوّقها كي يكون لدى الناس "انطباع" بأن السلطة شرعية. وهكذا، وفي عصر لم نعد نؤمن فيه بالوراثة كمبدأ لاختيار الحكام، تبقى الصيغة الوحيدة للشرعية «الشرعية الديمقراطية واختيار المحكومين للحكام»⁽³³³⁾. ومع ذلك، إن هذه الصيغة السياسية ليست عادية. فمن المؤكد أن باستطاعتنا أن نعتبر، على طريقة پاريتو، أن الفكرة التي ترى أن السلطة التي تأتي من الشعب "غامضة" بل و"أسطورية" ليس من السهل أن نعرّفها بدقة⁽³³⁴⁾. وعلينا أيضاً أن نعترف بأن النظرية الديمقراطية مكرّسة، في بعض جوانبها، لمنح الشرعية لحق رجال السياسة في حكم الشعوب. ومع ذلك، من

الوهم، ألا نذكر سوى هذا البعد من الديمقراطية: «فمن الصحيح جداً، أن هذا تبرير يشبه الحق السماوي الذي تركز عليها الشرعية الملكية، أو حق البروليتاريا في المجتمعات الشيوعية. إننا أمام ميتافيزيقا تحمل طابعاً خاصاً لأنها تؤدي إلى الاعتراف بأن الحكام في خدمة المحكومين، أو أيضاً، ومن وجهة نظرية، أن الكلمة الفصل يجب أن تكون للمحكومين. ومن الصحيح أيضاً، في الغالب، أن من يطلق هذا النوع من الأفكار، يظن أنه يمكن أن يؤكد على قدرتها، وأنه يمتلك إمكانية الحكم وفقاً لأفكاره، غير أننا ما إن نضع في التداول أن الحكام يمثلون المحكومين، حتى يصبح بإمكان النتائج أن تتجاوز ما يرغب به الحكام»⁽³³⁵⁾.

يتوافق هذا النقد لنزعة موسكا وباريتو المحافظة، مع الاعتراضات الموجهة للمتطلبات العلمية للمكيافيليين: ويرتبط اللوم الرئيس الموجه للمدرسة المكيافيلية الجديدة والذي يسعى إلى استبعاد الدلالة التي بمنحها الناس للسياسة، بشكل خاص، بهذه التحليلات المختصرة للأنظمة الديمقراطية. لأنه ومن خلال التقليل من أهمية التمثيل والمثل العليا في التحولات الاجتماعية، ينساق المكيافيليون، في الغالب، إلى تصورات متشائمة، أو كلبية عن السياسة والتاريخ، تغمض عيونهم عن حركة المجتمعات الديمقراطية. وعلى العكس، يشير آرون، المتيقظ للمعنى الذي يمنحه البشر لأعمالهم، إلى الطابع المتجدد بعمق للديمقراطية الحديثة. وهكذا، لا ينفصل رفض تصور موسكا المحافظ، عن إبراز الطابع الوضعي الأساسي لعلم السياسة المكيافيلي. ويطابق ناقد، مثل بوتومور، إذاً، وبشكل سريع جداً، بين مفهوم آرون للديمقراطية والمفهوم الذي أعده موسكا. أضف إلى ذلك أنه لا يلاحظ فقط أن آرون يستدعي أيضاً، من أجل التفكير حول الديمقراطية، شرحاً آخر للحدث، بعيداً جداً عن التقاليد المكيافيلية، إنه الشرح الذي قدمه توكفيل⁽³³⁶⁾. غير أن حدود هذا النقد تظهر ضمن منظور يقطع الصلة مع النزعة السياسية المحافظة، إذا أخذنا بالاعتبار الطريقة التي يواجه بها آرون مساهمات كل من مكيافيلي وماركس.

مكيافيلي وماركس

أولية السياسة أم أولية الاقتصاد والاجتماع

على الرغم من حدة انتقادات آرون الشاب لپاريتو مرید مكيافيلي، فإنه لا يقتصر في كتابه *أبحاث حول المكيافيلية الحديثة* على إدانة حاسمة. إنه يشير في الواقع إلى أصالة مقارنة پاريتو التي تقوم على التخفيف من أهمية العوامل الاقتصادية. ولا تعتبر هذه العوامل غاية في ذاتها، بل وسيلة تسمح للزعماء بتثبيت سلطتهم على الجماهير، وتحقيق ازدهار الأمة: «الهدف النهائي هو القوة: ويعلم پاريتو، كما مكيافيلي، أن الفضيلة تقرر انتصار الأمم وقدرها وليس المال»⁽³³⁷⁾. لا يدين آرون هنا المنظور الذي اعتمده پاريتو، بل يبحث بالأحرى، باهتمام، إلى أية درجة قام هذا المنظور بقلب المسلّمات المشتركة في عصره، وبطريقة مفيدة: «وهكذا نصل، في مجتمع لا يعود يريد أن يعرف سوى المشكلات الاقتصادية أو الاجتماعية، إلى إعادة بناء *الأولية السياسية* ليس باعتبارها "أولية سببية"، بل "أولية هامة وذات قيمة"⁽³³⁸⁾. وحين نعرف الأهمية التي أولاها آرون لاحقاً للأولية السياسية⁽³³⁹⁾، لا يمكننا إلا أن ندهش من اكتشافنا لأول صياغة لها هنا، في نص شديد اللهجة ضد مكيافيلي وپاريتو.

لا ينفصل هذا الإبراز لأولية السياسة عن اكتشاف نزعة مناهضة الشيوعية في مؤلفات پاريتو، أشد قوة من "عدائه للبرالية"⁽³⁴⁰⁾. إذا اعترف پاريتو، في الواقع، بفضل ماركس في التعبير عن صراع الطبقات، فإنه مع ذلك يولي هذا الصراع مقاماً آخر. فعلى عكس النظرية الماركسية، يعتبر عالم الاجتماع الإيطالي أن صراع الطبقات واقعة أبدية، في الواقع، تستند إلى الطبيعة البشرية والاجتماعية، وإلى النزاع بين المجموعات، وإلى تقسيم المجتمع بين أقلية حاكمة ومستغلة وأكثرية محكومة. ويعني هذا الأمر أن الطابع النزاعي للعلاقات الاجتماعية في النظام الرأسمالي يشكل واقعة ثابتة في المجتمعات كافة، بدل أن يكون ظاهرة عرضية، أي قابلة للتجاوز. نحن هنا أمام عملية قلب للمنظور الماركسي: «فبدل أن نبحث عن البنية التحتية في التنظيم الاقتصادي، نعيد النزاعات كافة، بما فيها الاقتصادية إلى الحرب السياسية كما الاقتصادية أو الاجتماعية، بين الأفراد والشعوب»⁽³⁴¹⁾.

وتسمح هذه الرؤية، أقله، بكشف الطابع المزيف للرؤيا الماركسية: إن تحويل الاقتصاد إلى ملكية جماعية وزوال الدولة (أي، وفقاً لتعبير سان سيمون، الانتقال من «حكم الأشخاص» إلى «إدارة الأشياء») لن تفضي أبداً حلاً للصراع من أجل السلطة وللانقسامات الاجتماعية⁽³⁴²⁾.

لا تلغي الأولية الممنوحة للسياسة الفكرة العريضة على الليبراليين التي ترى أن على الدولة تقليص دورها ليقصر على «حماية السلم». وبذلك نستطيع أن نفتتح بأن الماركسية والليبرالية الاقتصادية تميزان، على الرغم من خلافاتهما الواضحة، برفض التفكير في البعد السياسي البحت والنزاعي دوماً الذي يميز العيش المشترك. وعلى العكس، كان پاريتو على حق حين ذكر، ضمن مسار مكيافيلي المباشر، بالأهمية الأساسية لهذا البعد الذي طمسه كثيراً، القرن التاسع عشر: «لن نضع فضل المطول في علم الاجتماع موضع الشك، من دون مناقشة هذه المقترحات. فإذا أصبح العديد من الديمقراطيين أو الماركسيين غير قادرين على فهم أحداث القرن العشرين، فذلك لأنهم يتمسكون بعدم الاعتراف بالحقيقة الخاصة بالسياسة. فحين تمنح تقانة السلطة، في عصرنا، الحاكمين إمكانيات غير محدودة، وحين تضع حروب التصفيات وجود الشعوب موضع التساؤل، نصبح معصوبي الأعين وعمياناً إذا لم نعترف بالبعد الحاسم للسؤالين التاليين: «من يحكم؟» «من الأقوى عسكرياً؟»⁽³⁴³⁾. وهكذا يثار أولى عناصر التعارض بين مكيافيلي/پاريتو من جهة، وماركس من جهة أخرى. تسمح استعادة پاريتو لأفكار مكيافيلي بالتذكير بصفاء «بأولية السياسة»؛ مثيرة بذلك سؤالاً، إذا لم تحرّمه الماركسية، فقد طمسته، أقله.

من أجل توليفة ماركس - پاريتو

لقد جرى تنظيم التعارض بين ماركس وپاريتو وتعميقه، بشكل خاص، في المقالة التي تحمل العنوان: «البنية الاجتماعية وبنية النخبة»⁽³⁴⁴⁾. ومع ذلك، إن آرون لم يعد يكتفي بالتمييز الواضح بين إشكالية پاريتو وإشكالية ماركس: فعلى التعارض أن يقودنا، في رأيه، إلى "توليفة" قادرة على المحافظة على جانب الحقيقة

في كل من الصيغتين المتنازعتين. ويبقى التعارض بين ماركس وباريتو، في نظر آرون، أصيلاً بالقدر الذي لا يولي به مريدو ماركس مشكلة النخب أية أهمية. ويصر مريدو باريتو، من جهتهم، على التقليل من أهمية المسائل المرتبطة بإشكالية الطبقات. يرى مريدو ماركس في التاريخ حركة جدلية تقود حتماً إلى مجتمع خال من الطبقات، ومنسجم مع ذاته. أما مريدو باريتو، فيرون أن هناك، وستبقى دوماً ومهما كانت التحولات، نخبة حاكمة تملك السلطة السياسية وتستفيد من امتيازات غير محدودة إلى حد ما. ونجد هذين المفهومين للتاريخ في الإيديولوجيا الشيوعية والفاشية: «الثورة من أجل إلغاء الطبقات من جهة، والثورة من أجل منح الجماعات القوة والازدهار القائمة دوماً على الفضيلة، بالمعنى المكيافيلي، والتي يتمتع بها بعض من يهيمنون على الجماهير من جهة أخرى»⁽³⁴⁵⁾.

ليس المطلوب، مع ذلك، هذه المرة، الإضاءة فقط على ملاءمة توجه باريتو "المعادي للماركسية". يشير آرون، من دون إهمال هذه الفكرة، إلى نواقص كل من المقاربتين بخاصة: لا يسمح توصيف مجتمع من خلال الطبقة الحاكمة المالكة لوسائل الإنتاج أو من خلال الطابع النفسي الاجتماعي للنخبة، بتوضيح تعقيد الواقع. تبين دراسة حوادث تشرين الأول 1917، في الواقع، ضرورة القيام بعملية تركيب هذين التوجهين الأحاديين: «إن الثورة ذات النموذج الماركسي، واستلام الحزب الذي ينتمي إلى البروليتاريا السلطة، ينسجم مع صيغة باريتو وماركس في آن. إنه انتصار نخبة واستبعاد مالكي وسائل الإنتاج»⁽³⁴⁶⁾. علينا إذاً تجنب التضليل الماركسي الذي يقوم على الاعتقاد بأن إلغاء الرأسمالية يترافق بالضرورة مع زوال الدولة، وحلول مجتمع بلا طبقات وأسياد، فيما يخضع هذا المجتمع، في الواقع، لسيطرة «سيد وحيد وقادر كلياً». غير أن علينا أن نستبعد أيضاً، الخطأ الموازي لهؤلاء الذين يرفضون أن يروا أن تغيير السيد وإزالة مالكي وسائل الإنتاج، «تقودان إلى تغيير جذري للبيئة الاجتماعية وتراتبية الناس والأفكار». وتلك طريقة أخرى في القول إن الرؤية الدورية للتاريخ التي جاء بها باريتو لا تعبر عن بعض الطفرات غير المتوقعة التي تميز المجتمعات الحديثة على الرغم من حقيقتها الثابتة. لذلك، ليست الماركسية - مهما كانت نقاط ضعفها - فلسفة تقريرية، بل

إنها منهج وصيغة خصبة من أجل تفسير المجتمعات الحديثة⁽³⁴⁷⁾. لا يجوز أن يخفي هذا الحكم المتوازن، مع ذلك، تعاطف آرون العميق، مع تحليل عالم الاجتماع الإيطالي الذي غالباً ما وقف الماركسيون ضده. ويعني آرون بذلك أن «الثورات الماركسية اللينينية توضح مفهوم باريتو حول الطبقة الحاكمة والثورات»⁽³⁴⁸⁾. وتبدو مقارنة باريتو الأكثر ملائمة إذاً، ضمن هذا السياق، على الرغم من المعوقات التي تنتج عنها.

ماركسيون ومكيافيلتيون:

تفاؤل ثوري «تشاؤم» ديمقراطي

لا تقتصر إشكالية آرون، مع ذلك، على هذا التعارض وحده بين ماركس وباريتو. فهو يقيم، في كتابه *مدخل إلى الفلسفة السياسية*، مقارنة بين الحركة الثورية التي تنسب إلى المذهب الماركسي من جهة، والفكر المكيافيلّي والمكيافيليين من جهة أخرى. ويتميز الفكر الثوري والفكر الديمقراطي بالوضوح، ضمن هذا المنظور. فالأول فكر «تفاؤلي» يقوم على التأكيد على أن معظم رذائل المجتمعات القائمة يمكن أن تزول من خلال تغيير مؤسسي⁽³⁴⁹⁾. أما المثال الديمقراطي، فيرى آرون، على طريقة موسكا، أنه لا يشكل حالة مثالية «للخير المطلق». وعلمنا في الحالة الثانية، أن نعمل بشكل نجد فيه القوى المتصارعة المختلفة حلاً وسطاً، من خلال عملية تطور تدريجي يرفض العنف المتطرف والمتسرع، والذي يعتبر من خصائص الانفجارات الثورية. ومع ذلك، إن طرفي التناقض غير واضحين، إذاً، أمنا بأنهما لا يستطيعان، كل على حدة، التعبير عن تعقيد الواقع. نجد في الواقع، عناصر تشاؤم في المذهب البلشفي، طالما أنه يؤكد أن العالم الرأسمالي فاسد لدرجة أنه يجب أن يُزال بشكل كامل، غير أن هناك، بالمقابل، عنصر تفاؤل مرتبطاً بالديمقراطيات، بالقدر الذي تعتمد فيه، وبشكل ضمني، على المسألة التي ترى أن البشر يستخدمون مساحات النزاع والنقاش الحر المضمونة لهم، بشكل منطقي.

علمنا، في الواقع، أن ننظر إلى التشاؤم والتفاؤل من جانبيين مختلفين، سواء أكنّا نواجه الطبيعة البشرية أم السيرة التاريخية. فإذا اعتبرنا البعد الثاني، بشكل

حصري، يصبح «الثوار متفائلين بالتقسيط ومتشائمين دفعة واحدة»⁽³⁵⁰⁾. غير أنه، طالما أن الدفعة الأخيرة تعتبر أساساً لديهم، فإنهم يبقون متفائلين بشكل عميق، طالما أنهم يؤمنون بمعنى ما للتاريخ⁽³⁵¹⁾. غير أن هذا التفاؤل يشمل التاريخ وليس الإنسان لأن «النظام المنطقي للتعایش البشري سيولد من خلال العواطف البشرية». وباختصار، إن الفرضية المقترحة هنا ترى أن النهج الذي يستند إليه المشروع الثوري الماركسي يستجيب للأ نموذج الهيجلي لـ «مكر العقل».

إذا رجعنا الآن إلى المفهوم المكيافيلّي للديمقراطية، فعلى أن نشير إلى أنه لا يقوم، بشكل كامل، على تشاؤم أنثروبولوجي جذري. وكما يشير بورهام إلى أن تشاؤم مكيافيلّي لا يخص الإنسان عموماً، بل «الإنسان السياسي» لوحده⁽³⁵²⁾، ينبّه آرون إلى أن مثال الديمقراطية لا يقوم على تعريف الكائن البشري، بل على مراقبة السلطات: «إن الديمقراطية، باعتبارها نظام توازن للسلطات، لا تنطلق بالضرورة من فكرة أن البشر سيئون (ليسوا أكثر جودة من جانب آخر): إن هذه الصيغة الجذرية لا تحمل الكثير من المعنى. وبما أن الديمقراطية تنطلق من فكرة عدم الثقة بالناس في السلطة، فعلى أن نحذر من الحكام، وعلينا ألا نعرضهم للغواية»⁽³⁵³⁾.

وهكذا يستطيع آرون أن يعرض موقفه الخاص المؤيد للديمقراطية باعتبارها النقيض الحقيقي لموقف الثوريين، أي «المتفائلين دفعة واحدة والمتشائمين بالتقسيط». بتعبير آخر إن الديمقراطيات الحديثة ليست بدرجة السوء التي يعلنها المثقفون الثوريون، وأنظمة المستقبل المنبثقة من الثورات لن تكون بدرجة الجودة التي يتمنون.

في الحقيقة، تقوم الحركات الثورية الرسولية على المسألة القائلة أن في الإمكان والمستحب أن يوضع حد للنزاعات الدائمة التي تتواجه فيها المجموعات المختلفة. غير أنه كي تتحقق مثل هذه النبوءة لا بد أن تتحول الشروط المادية بشكل جذري، أو أن تتغير الطبيعة البشرية في العمق. وتتطلب النقطة الأولى مجتمعاً وافر الثروات، وذلك أمر طوباوي بالكامل، ضمن مستقبل منظور، أما النقطة الثانية، فتقوم على وهم. من الصحيح من دون شك أن أنظمة القيم أو

أشكال ردود الفعل على الأحداث أيضاً تتغير مع الزمن. غير أن - وهنا يتدخل الدرس المكيافيلّي - ملاحظة الماضي تؤكد استمرار بعض التصرفات التي من غير المجدي أن نأمل في زوالها: «حين أقول إن الإنسان لا يمكن أن يتغير بشكل جذري، أفهم من ذلك، بشكل تقريبي، ما يقوله مكيافيلّي أو الكتاب الذين ندعوهم (خطأ) متشائمين: ويعني هذا الأمر أن هناك احتمالاً بسيطاً في أن يتوقف البشر عن الاهتمام بمصالحهم الخاصة وأن يكونوا موضوعين، بشكل كامل، ضمن مستقبل منظور. كما أن هناك احتمالاً بسيطاً في أن يجد الأفراد في الجانب السيئ من المجتمع، في مستقبل منظور، أن الأشياء جيدة كما هي. وهناك احتمال بسيط في أن يجد الأفراد الذين يحتلون المناصب المميزة أنهم ليسوا أهلاً لاحتلالها»⁽³⁵⁴⁾. وهناك توضيح يستحق الملاحظة: يرى آرون أن من «الخطأ» أن ننتع بالتشاؤم مؤلفين - أي مكيافيليين - يعتبرون نزاعات مصالح الأفراد أمراً لا مفرّ منه. وذلك لأننا، هنا، أمام واقعة تقوم على الملاحظة، ولا يجوز لهذا السبب، أن نثير "اللعن" و"البلاء"⁽³⁵⁵⁾، إذا اعترفنا بهذه الواقعة، فمن الممكن تصور أنظمة «جيدة أو سيئة» أو أقله، أفضل أو أقل جودة. ومن المستحيل بالمقابل، أن نتصور، بشكل جدي «نهاية الصراعات بين البشر، في ما بينهم، أي هذا النوع من الاستقرار في النظام السياسي والاجتماعي الذي يعتبر حلم هؤلاء الذين يؤمنون بنهاية التاريخ»⁽³⁵⁶⁾. ذلك هو أساس «التفاؤل نقداً» و«التشاؤم بالتقسيط»، الذي يبدو أنه يقع في أساس ليبرالية آرون هنا. تشكل تعاليم مكيافيلّي والمكيافيليين، إذاً، وبشكل مسبق، رفضاً ثميناً للتفاؤل الثوري الماركسي من خلال التذكير بالطابع الطبيعي والذي لا نستطيع تجاوزه للنزاع السياسي الاجتماعي.

«سياسة الإدراك» و«سياسة العقل»

علينا العودة إلى التناقض بين «سياسة الإدراك» و«سياسة العقل» المعروض في كتاب مدخل إلى فلسفة التاريخ، كي نوضح هذه المواجهات. يتطابق هذا التناقض وفقاً لآرون، مع التناقض بين المصادفة والتطور: «ليست الاستراتيجية في التناقض الأول سوى تكتيك متحدد إلى ما لا نهاية. أما في الثاني، فيرتبط التكتيك

بالاستراتيجية المتوافقة مع صورة الضرورة»⁽³⁵⁷⁾. وتسعى «سياسة الإدراك» - التي يمثلها فير وآلان⁽³⁵⁸⁾ - إلى المحافظة على بعض الخيرات، مثل السلام والحرية. ويمكن أن تسعى، ببساطة، لتحقيق هدف ملموس مثل «المجد الوطني». وفي جميع الأحوال، لا يضمن تحقيق هذه الأهداف أي منطق ملازم للتاريخ. ويواجه من يعمل ضمن هذا المنظور، وفي كل مرة، مواقف فريدة لا تنتظم ضمن مجموعة قابلة للفهم، «مثل قبطان يبحر من دون بوصلة»⁽³⁵⁹⁾. تقوم «سياسة العقل» بعكس ذلك، على فهم مصطلح التطور التاريخي. ويتوافق موقف الماركسيين مع هذا التعريف: فبدلاً من مواجهة العديد من اللحظات الفريدة، يستند هذا الموقف إلى مسئلة ترى أن نهاية الرأسمالية حتمية. فليس المطلوب، إذاً، مواجهة الأحداث غير المتوقعة، بشكل فردي، بل تكييف التكتيك مع الاستراتيجية التي تقوم على نهاية متوقعة للتاريخ.

ليس علينا، مع ذلك، أن نقتصر على هذا التناقض الجذري بين «سياسة الإدراك» و«سياسة العقل»: نحن هنا أمام «نماذج مثالية» تحدد موقفين حديين وخطيرين. يمكن للموقف الأول أن يقودنا إلى نوع من الشلل بسبب نسيان التاريخ. أما الثاني فيمكن أن يقود في النهاية إلى القنوط بالاستناد إلى ثقة مفرطة في الضرورة التاريخية. غير أن كل سياسة تشتمل، في الحقيقة، على بعدين متعارضين وذلك لأنه، «ليس هناك من فعل آني لا يخضع لهم بعيد»، وبالمقابل «ليس من نجيّ للسماء إلاّ ويترصد الفرص المتفردة لدرجة، يزول معها عدم التوافق بين صفات صاحب البشرى والعالم التجريبي متطابقة»، وذلك لأن السياسة هي فن الخيارات التي لا رجعة فيها والأهداف بعيدة المدى، في الوقت نفسه. ومع ذلك، فنحن لا نحترم دوماً هذا التوازن الذي يشكل جوهر الفعل السياسي.

يقوم التعارض بين باريتو وماركس على هذا التناقض. يشجع مفهوم باريتو، الذي يشبه في الكثير من الأوجه سياسة الإدراك⁽³⁶⁰⁾، وعلى طريقة مكيافيلي، فضيلة النخب، باعتبارها شرطاً لازدهار الأمم، فيما يعتبر المذهب الماركسي «سياسة العقل» حركة جدلية للتاريخ تقود بالضرورة إلى مجتمع خال من الطبقات. وكما أن السياسة تقوم، في الحقيقة، على الإدماج بين هذين النوعين من

الفعل التاريخي، فقد نجح آرون في إدماج هاتين المقاربتين المتعارضتين في نظرية عن المجتمعات الحديثة. وبطريقة مماثلة، يبين كتاب *مدخل إلى الفلسفة السياسية* أن المفهوم المكيافيليّ للديمقراطية (الذي يقوم، في الظاهر، على «سياسة الإدراك») متشائم، على المدى البعيد، فيما يقوم المشروع الثوري الماركسي («سياسة العقل») على مفهوم متفائل للتاريخ. إلا أننا قد رأينا في الواقع، أن المفهوم المكيافيليّ ليس متشائماً بشكل جذري، بل يسمح بنزعة إصلاحية (مما يتيح لهذا المفهوم أن يشتمل، إلى حد ما، على «سياسة العقل»، رغم كل شيء): وعلى العكس من ذلك، يترافق تفاؤل الثوريين مع تشاؤم عميق حول الإنسان (ينشق هذا التفاؤل إذاً من «سياسة الإدراك» أيضاً). ويمتزج النموذجان الكبيران المثالان هنا أيضاً، كما في السياسة، من أجل التعبير عن التناقض بين الديمقراطية والثورة.

الواقعية والرؤيوية

إذا كانت المقارنة بين پاريتو وماركس، وبين الماركسية والمكيافيليّة الجديدة تقوم على هذا التعارض، فإنها لا تتطابق معه بشكل كامل. لأن التعارض بين «سياسة الإدراك» و«سياسة العقل»، يشير بدقة شديدة، إلى صيغة العمل التي يعتمد عليها رجل السياسة. غير أن هذا الموضوع لم يناقش، بشكل فعلي، إلا في الدراسة التي تحمل عنوان «مكيافيليّ وماركس»⁽³⁶¹⁾. تتم العودة، بوضوح هذه المرة، إلى التعارض الذي أشير إليه في كتاب *المدخل إلى فلسفة التاريخ*، حيث اعتُبر ماركس «نَجِيّ السماء»؛ وهو تعبير استخدم سابقاً في تحليل عام 1938، من أجل تعريف «سياسة العقل». وهكذا يمكن أن يفسر التعارض بين مكيافيليّ وماركس أولاً، على أنه خيار بين النزعة "الواقعية" وتلك المرتكزة على "التنبؤات". ومن المؤكد أن الذين يعتبرون الفلورنساوي نصيراً للنزعة الجمهورية - مثل سبينوزا أو روسو - لم يكونوا على خطأ، إلا أنهم بسّطوا أفكاره. وعلمنا ألا ننسى، في الواقع، أن مكيافيليّ قد كتب، في هذين المؤلفين الأساسيين، باعتباره «مستشاراً للأمير»، أن على الأمير أن يكون «رجلاً أو جمهورية»⁽³⁶²⁾. ويذكر آرون بأن مكيافيليّ لم يتوقف عن التكرار بأن من اللازم النظر إلى الواقع كما هو،

وليس كما يجب أن يكون. ويعلن مؤلف الأمير، من هذا المنطلق، ما يسميه بعضهم واقعية، وبعضهم الآخر نزعة كلبية، وآخرون فكراً علمياً. أما ماركس، فيقوم جوهر تعاليمه، في نظر أتباعه الثوريين، على مقولة الدمار الذاتي الحتمي للرأسمالية، الذي يؤدي إلى «أن تصبح الاشتراكية حركة التاريخ نفسها، بدل أن تكون طوباوية بحاجة إلى تصور أو تحقيق». ومع ذلك، إن هذا التعارض بين مكيافيلي وماركس أكثر تعقيداً. وكما أن «سياسة العقل» تتطلب «تكييف التكتيك مع الاستراتيجية»، فإن آرون يوضح أن إشكالية مكيافيلي موجودة في الرؤية الماركسية، ضمن صيغة جديدة: فلا تعود مركزية، بعد الآن، الطريقة التي يتصرف بها البشر والتعليمات التي يوجهها مكيافيلي للأمرأ، بل العلاقة بين ما يستشرفه ماركس والماركسيين في شأن ما سيفرج عنه المستقبل والنصائح التي يقدمونها للأمرأ للبطاء الفانين أيضاً⁽³⁶³⁾. ولا يستطيع عالم الأخلاق، في كلا الحالين، وفقاً لآرون، إلا أن يتساءل عن العلاقة بين ما هو موجود وما هو واجب الوجود.

وهكذا ندرك سبب تباين مواقف مكيافيلي وماركس. ينتمي الاثنان، من دون شك، ومعنى ما، إلى أسرة المفكرين نفسها، بالقدر الذي يدوان فيه مهتمين بما يقسم الناس أكثر من اهتمامهم بما يوحدهم. ويتفق آرون، في هذه النقطة، مع كروتشي الذي رأى في ماركس «مكيافيلي البروليتاريا»⁽³⁶⁴⁾. وهكذا تصف الفلسفة الماركسية للتاريخ، بتشاور، تتابع أنظمة الحكم التي تمرقها جميعاً تناقضاً داخلياً وتدمرها، تلك الأنظمة التي تتصف بالاضطهاد والاستغلال. ومع ذلك، فمن الخطأ الاقتصار على هذا التشخيص التشاؤمي، لأن «درب معاناة البشرية» ينسجم، في رأي ماركس، مع التطور التدريجي للقوى المنتجة. وما أن الاشتراكية تمثل النهاية السعيدة لهذا المسار، فإنها تحدد نهاية لما قبل التاريخ، وبدء عصر جديد، «عصر التقدم الاجتماعي من دون ثورة سياسية». إن باستطاعتنا أن نقدر، بشكل مؤقت أن أفكار ماركس ومكيافيلي تتعارض بشكل جذري، بعيداً عن إلحاحهما المشترك على الانقسامات التي تمرق المجتمعات: «تندرج واقعية ماركس، على عكس واقعية مكيافيلي، في فلسفة التاريخ رغم كل شيء، وتستحق أن تنعت بأنها

تفاوتية». لا شيء في الواقع، أبعد عن الفكر المكيافيليّ، من النزعة التطورية والتقدمية للفلسفة الماركسية للتاريخ.

وكما بين آرون أن النزعة التقريرية لماركس يمكن أن تتحول بسهولة إلى نزعة نسبية، فقد أوضح أنه يكفي أن نخلص الماركسية من «تفاوتها الكارثي»، كي يبدو أن النظام المدعو إلى الحلّ محلّ الرأسمالية، يقوم على سيطرة بعضهم، كما في غيره من الأنظمة. كان هذا تشخيص پاريتو «الذي يصحح ماركس كي يوافق بينه وتشاؤمه الخاص ويضعه ضمن أتباع مكيافيليّ». غير أن هذا الانعطاف الذي انتقده پاريتو والذي غيّر معنى المذهب الماركسي بشكل جذري، قد أضاع على الفرق الأساسي بين ماركس ومكيافيليّ.

مستشار الأمير ونجّي السماء

يفترض آرون، من أجل تفسير التعارض بين الواقعية المكيافيليّة والرؤيوية الماركسية، أن يكون «مكيافيليّ مستشار الأمير، ويعتبر نفسه كذلك»، بينما «يعتبر ماركس نفسه نجّي السماء». تناسب صورة مكيافيليّ، مستشار الأمير، بشكل واضح، النموذج المثالي لـ «سياسة الإدراك»؛ إذ يعتبر السكرتير الفلورنساوي نفسه، في الواقع، قادراً على «القول للأمير ما عليه أن يفعله، في ذلك الزمان والمكان، كي يصل إلى هذا الهدف أو ذاك»⁽³⁶⁵⁾. ويشرح آرون في هذا النص من عام 1938، أن الهدف المحدد لـ «سياسة الإدراك» يمكن أن يكون خيراً، مثل السلام والحرية، أو هدفاً وحيداً، مثل «العظمة الوطنية». ويشير هنا، من خلال أتباع هذا المنطق، إلى أن مكيافيليّ «لا يتلمح، في هذا العالم الأرضي سوى ثبات البشر غير الثابتين وقصر عمر الأنظمة المؤقتة وصراع الأمراء القلقين المستمر من أجل تثبيت سلطتهم - في ما يتعلق بالإمارات الجديدة - والمنشغلين بتثبيت أسسها - في ما يتعلق بالإمارات القديمة. أما عن العبارة المستخدمة لتعريف ماركس «نجّي السماء» فهي نفسها التي تعرّف «سياسة العقل» في كتاب مدخل إلى فلسفة التاريخ، والتي تشير إلى الماركسية. يشرح آرون، بالطريقة نفسها، أن ماركس، نجّي السماء، يدّعي المعرفة المسبقة بالغايات التي ستقود إليها تقلبات

التاريخ. ومع ذلك، يشير توضيح، هنا، إلى أن هذه السيورة، كما تفهمها النظرية الماركسية، تتحقق من دون علم البشرية، التي تعتبر بكل تأكيد، مبدعة تاريخها، ولكن من دون أن تفهم منطق العميق. لا يعيد التاريخ نفسه، ضمن هذا المنظور، وفقاً لبنية دورية، كما يعتقد مكيافيلي، «بل يحمل في ذاته الوعد بالفداء».

علينا أن نبحث عن السبب الرئيس لهذا الاختلاف في التقييم، من خلال النظر إلى الطريقة التي يعود فيها كل مؤلف إلى التاريخ، ففيما يستند ماركس إلى «الفلسفة الاقتصادية للتاريخ»، يطور مكيافيلي «فلسفة سياسية». وبكلمات أخرى، يركز الأول اهتمامه على نمو القوى المنتجة وتطورها وعلى التشكيلات الاجتماعية، فيما يهتم الثاني «أولاً» بالبشر وبالصراع الدائم الذي يواجهه الأمراء في ما بينهم ومع رعاياهم. وتخرج عن هاتين الصيغتين المختلفتين، توجهات مستقبلية مختلفة تماماً: «فتحلم الصيغة الأولى بمجتمع شبه شفاف يرفض فيه المواطنون كل فكرة للتسامي ويخضعون لنظام انضباط جماعي تحت تأثير أسباب عقلية، من دون اللجوء إلى أوهام الإيديولوجيا، بينما «لا تترك الصيغة الثانية الأمل بشعب فاضل، على طريقة شعب الجمهورية الرومانية. غير أن الفضيلة السياسية وليس الأخلاقية، تنتقل من شعب لآخر وفقاً لما تشتهي رياح الحظ غير المتوقعة، ومن دون أن تتوقف طويلاً في المكان عينه»⁽³⁶⁶⁾.

نحو توليفة مكيافيلية - ماركسية؟

ومع ذلك، يستدعي التناقض بين فلسفة ماركس الاقتصادية للتاريخ والفلسفة السياسية لمكيافيلي توليفة أو يسمح بها أقله. إنها التوليفة التي اقترحت جزئياً بين «سياسة العقل» و«سياسة الإدراك». وذلك لأنه إذا كان الماركسي الذي يعرف نهاية التاريخ، ويعارض مريد مكيافيلي الذي يقتصر على العلاقات السببية التي تلاحظ بشكل منتظم، فإن عليه، مع ذلك، هو أيضاً، أن يقرر في الحال: «أن الواقعية بعيدة المدى والمرتبطة برؤية حتمية للتاريخ، تتشارك، منطقياً، مع واقعية قصيرة المدى تتطلبها فلسفة النزاعات التي لا يمكن أن تغتفر»⁽³⁶⁷⁾. وبكلمات أخرى، إن «سياسة العقل» هي أيضاً «سياسة الإدراك»، وذلك لأنه لا

وجود لنجى للسماء لا يترصد الفرص الفريدة. يوضح آرون أن عظمة الهدف البعيد الذي يقترحه ماركس تسمح بإضفاء الشرعية على استخدام الوسائل المدانة أخلاقياً. لقد أشار في نص عام 1938 إلى أمر مستغرب في الظاهر، حين ذكر بأن الحكمة (أي سياسة العقل) تخضع غالباً، لخدمة مشروع مجنون»⁽³⁶⁸⁾.

وإذا اعتبرنا، بالمقابل، أن النظام المستقبلي مختلف في جوهره عن النظام الحالي - تلك إحدى المسلّمات الداعمة «لسياسة الإدراك» - عندها يبدو ضرورياً أن نقارن بين التضحيات المقدمة والنتائج المحققة أو المتوقعة. ونذكر أن غياب هذا الانفتاح نحو المستقبل، بالذات، هو ما يميز التشاؤم والنزعة الكلية لدى مكيافيلي، في نظر آرون الشاب. غير أن ما يُذكر هنا هو فضائل هذا الفهم الواقعي للتاريخ، وذلك لأن التاريخ يفرض على الناشط السياسي الابتعاد عن الشرور الكبيرة من أجل مستقبل يفترض أن يكون مختلفاً في الصفات، كما يفرض عليه بالنتيجة التساؤل حول ملائمة أفعاله وانسجامها⁽³⁶⁹⁾.

لذلك يجد الماركسي نفسه، في الحال، مسوقاً إلى التصرف مثل المكيافيلي، إنما الفكرة التي طورها غرامشي في أفكاره حول «الحزب-الأمير الجمعي». نحن نعرف أن هذا الموضوع الذي يحتوي، من وجهة نظر آرون، على جزء من الحقيقة، لا يرضيه، مع ذلك بشكل كامل. فهو يرى أن الفرق الأساسي الذي يفصل الحزب عن الصورة المكيافيلية للأمير، يتمثل في أن عمله بالذات، يبقى متوجهاً نحو «غاية سامية». ونضطر، في الوقت عينه، إلى ملاحظة أن الفضل يعود إلى هذا النموذج في المقاربة المقترحة من غرامشي - والتي، لنشر إلى ذلك، تحتوي على بعض التشابه مع الإشكالية التي طورها المفكرون المكيافيليون⁽³⁷⁰⁾ - في الإضاءة على البعد الأساسي لثورات الزمن المعاصر: «يجد مريد مكيافيلي الليبرالي في مصير الماركسية في القرن العشرين، العديد من قناعات الفلورنساوي، سواء أرتبط الأمر باستمرار الصراع من أجل السلطة أم بأولية الشأن السياسي، الذي يعرف بهذا الصراع. إن من نفى هذه المقترحات النظرية يتحقق من وجودها بشكل عملي»⁽³⁷¹⁾. ليست تناقضات الرأسمالية، في الواقع، سبب الثورة بل عناصر متعددة - هشاشة التقاليد واستهلاك الأنظمة وضعف الأقليات الحاكمة - أتاحت، كما في

المدن الإيطالية، الفعل الحاسم للأقليات الفاعلة التي يقودها رئيس استثنائي. وهكذا جرى التحقق من الدرس المكيافيليّ، في جزء كبير منه، مع فارق يتمثل، بالطبع، في أن آليات الاستيلاء على السلطة وممارستها قد عرفت في القرن العشرين عملية عقلنة لا سابق لها.

يمكننا أن نختم، مؤقتاً، بأن صيغة الحكم بـ "الحزب الأمير" تثبت درس مكيافيليّ وپاريتو: «تقوم الأقليات بقلب الأنظمة القائمة، باسم الشعب، وتستدعي صيغة جديدة، غير أن الفرق لا يزول بين القلة التي تملك السلطة وامتيازاتها، والأكثرية التي تخضع بالقناعة أو الخوف». وما من شك في أن من الخطأ القول إن الماركسيين، وفقاً لقول شهير لماركس، لا يكتفون بتفسير العالم، بل يغيرونه بالفعل. إن تأثير ماركس على مسار التاريخ هو، من دون أدنى شك، أكبر من تأثير مكيافيليّ، بخاصة وأنه يعتقد، من جهته، بإمكانية تغيير العالم. ومع ذلك، «يحتفظ الفلورنساوي بحق الرد: "كلما تغيّر الشيء، حصلنا على الشيء نفسه"»، محتفظاً إلى حد ما، بـ «الكلمة الأخيرة في الحوار»، ويؤكد آرون ساخرأ، حتى لو كان هذا الانتصار على مُحاور ماركسي، في النظام السوفييتي، قصير الأمد بالطبع⁽³⁷²⁾.

ونصل بذلك إلى التوليفة الأولى: يتصرف الماركسي مثل المكيافيليّ، وحين يمتلك جهاز الدولة لا يختلف حكمه إلا قليلاً عن نخب الماضي في الإمارات التي ربما أسماها مكيافيليّ جديدة. لا تحل هذه النتيجة كل شيء، بل تثير أسئلة أخرى. لقد رأينا أن مكيافيليّ يهتم، بخاصة، بالمواقف الحدية التي تقود حتماً إلى التصرف بطريقة غير أخلاقية. ويرى آرون ضرورة الربط بين هذه المقاربة ومقاربة ماركس من أجل شرح تعقيد الوقائع: «غير أن تحليل الأنظمة يتسلل بين القرارات الآنية، مثل تلك التي يتخذها الاستراتيجي في المعركة ومثل الصيرورة الموجهة نحو طفرة جذرية في التاريخ، والرؤية التنبؤية للماركسية، فلكل من هذه الأمور طبيعتها الخاصة وصيغة عملها، أي نوع خاص من الحكومات ووسائل الحكم». تتمايز مقاربات ماركس ومكيافيليّ أيضاً حول هذه المشكلة، فيميز مكيافيليّ، في الواقع، الأنظمة ويحدد ميزاتها وعيوبها الخاصة، ضمن إطار تقاليد الفلسفة السياسية

الكلاسيكية من أفلاطون إلى أرسطو بخاصة. ولا نشك كما رأينا، بميل مكيافيلي للجمهورية والحرية والشرعية، وبالمقابل إنه لا يهتم بالأنظمة السياسية، بل بطبيعة التشكيلات الاجتماعية. ولا تتوصل النظرية الماركسية بهذا الشكل، إلا بصعوبة، إلى التمييز بين «تنوع أشكال الحكم». وعلينا، مع ذلك، التخفيف من هذا التعارض. وذلك لأنه، إذا كان الصراع من أجل السلطة يحتل المكانة الأولى في الفكر المكيافيلي، فإن مكيافيلي لا يفكر مع ذلك، في ما إذا كانت غاية ماركس كشف الأسباب الاقتصادية والاجتماعية للنزاعات، فهو يعرف أن الطبقات الحاكمة، في كل عصر، لا تمارس السلطة بالطريقة نفسها. وهكذا تتم الإشارة، من وجهة نظر "مكيافيلية - ماركسية"، إلى إمكانية بناء نظرية معقدة للتشكيلات الاجتماعية والأنظمة السياسية في الوقت ذاته، «من دون إنكار للاستقلال الجزئي للمقامات، وتنوع السلطات في تشكيلة من نوع ما، وكذلك التغيير الجذري أو المفاجئ للتشكيلات، بفضل الفعل الإصلاحي أو الثوري للنخب والجماعات». وبكلام آخر، تقع الدراسات الموضوعية للأنظمة والقواعد والاتجاهات الثقيلة والاستنتاجات المحتملة، بين الحدث الذي يواجه رجل الفعل والطفرة النوعية أو التغيير الذي يتصوره صاحب الرؤيا». يؤكد آرون، في هذا المجال، أن «العالم المستشرف للمستقبل» أي ذاك الذي يحاول الكشف عما يمكن حدوثه، على المدى البعيد للمجتمعات الصناعية، سيضطر إلى الانفصال عن مكيافيلي وماركس في آن معاً. ينفصل عن الأول لأن الأحداث السياسية ضعيفة الأثر في قياس أهم التوجهات الاقتصادية، وعن الثاني لأن «الطفرات النوعية»، مثل قيام مجتمع اشتراكي جديد جذرياً، تبدو غير محتملة. ومع ذلك، يتساءل آرون في ما إذا كانت الطفرة الجذرية لا تحدث كل يوم في القرن العشرين، طالما أن تطور قوى الإنتاج يبعث على الأمل بالتحرر من اللعنة الأبدية للعمل. وهو يوحي بذلك بأن المفهوم الدوري المكيافيلي يخضع لقيود، بكل تأكيد، غير أن الرؤيا الماركسية التي تعتبر أكثر ملاءمة، من وجهة النظر هذه، ترتكب، مع ذلك، خطأ تحميل حدث ثوري ما مهمات يبدو أن المجتمعات الصناعية تنجزها تدريجاً وعلى المدى الطويل.

النزعة المحافظة المكيافيلية

والنزعة التقدمية الماركسية، حوار لا ينتهي

إذا عدنا إلى العالم الحالي، الذي لا يزال خاضعاً للقانون القاسي للعمل وتمزقه أعمال العنف، يمكن أن نتساءل من من الاثنين، مكيافيلي أم ماركس، يستحق في النهاية «لعنة الأخلاقيين»؟ يجب أن توجه الانتقادات الأكثر خطورة، في هذا المجال، إلى ماركس وأتباعه. أما عن السؤال حول معرفة من هم الذين وضعوا الإيمان في خدمة السياسة وتلاعبوا بالجمهير وازدروا القوانين لمصلحة عمل "الأمير الجماعي"، فيجب آرون أولاً بثقة، بأنه إذا لم يقدّم مكيافيلي هذه الممارسات، «فإنه لم يدها قط بشكل صريح». ويجدر بنا أن نعترف، مع ذلك، مرة أخرى، بصوابية الأسئلة التي لم تجد إجابة عنهما والتي يثيرها السكرتير الفلورنساوي حيث يقول آرون: «لا يمل المرء من سؤال مكيافيلي لأنه ذهب إلى نهاية مطاف تناقض لا حل له: إن حجب وسائل النجاح عن السياسي لا يتحقق من خلال نوع من العبثية الداخلية، بعيداً عن النفاق؛ أما السماح له باستعمال وسائل كريمة، فلا يأتي بالرضى أيضاً. ليس أمامنا مخرج، وعلى السياسي القبول بمساوية شرطه»⁽³⁷³⁾. غير أن عليه أن يتجنب ما أمكن هذه المواقف الاستثنائية التي تبرز بوضوح تام الطابع القسري لهذه التناقضات لأنها لا تتيح الخيار إلا بين فشلين». كان هذا هدف مكيافيلي نفسه باعتباره منظرًا «لسياسة المستحب»، أقله: فقد سعى إلى تجنب المواقف التي تتطلب عملاً من الأنموذج المكيافيلي ما أمكن، وذلك بالمعنى السيئ للكلمة. يرى الفلورنساوي، بالطبع، أن الإجراءات الجذرية ضرورية من أجل إنقاذ دولة أو إصلاح نظام فاسد، غير أنه يحذّر بعمق نظاماً جمهورياً، أي حكم القانون وفضيلة المواطنين «وهرج ومرج الساحة العامة»⁽³⁷⁴⁾. غير أنه، من المؤكد أن هذه النزعة الجمهورية المكيافيلية القائمة على ما يسميه مكيافيلي نفسه «الشغب»، تميّت بصلات قوية إلى الليبرالية السياسية، وفقاً لآرون. وتعتبر نقطة التوافق هذه جوهرية: «وبما أنه كان واثقاً من أن كل إنسان قادر على إساءة استخدام السلطة المطلقة، فقد أوصى على غرار الليبراليين، بمواجهة السلطة بالسلطة، وبفضيل عيوب الأنظمة وعدم استقرارها، تلك الأنظمة التي تعيش

صراعات معلنة، على النظام الخادع لطغيان فرد أو جماعة»⁽³⁷⁵⁾. نكتشف، هنا بالطبع، التفسير الذي قدمه بورهام في كتابه *المكيافيلتيون*. يعود آرون بالنتيجة، إلى هذا الكتاب، بشكل ضمني، من خلال تحديد مكانة المدرسة المكيافيلية في تاريخ زمانه: «يبدو المكيافيلتيون بمثابة المدافعين عن الحرية أحياناً في قرن شهد سفك الكثير من الدماء من قبل الذين يأملون الكثير من السياسة والإنسانية. إن التشاؤم يحمي من الوهم، وما من صاحب رؤيا بلا أوهام»⁽³⁷⁶⁾. إذا اعتمدنا الرؤية الليبرالية المكيافيلية الجديدة هذه، تصبح الماركسية بذلك هي التي تستحق أن تنعت بالمكيافيلية وليس مكيافيلي، وتلك مفارقة واضحة. إن منح الثقة للأمير الجماعي تعني منح السلطة المطلقة لسيزار بورجيا الذي سيتذرع بغاية سامية لإنجاز أعماله اللا أخلاقية، بكل راحة ضمير. يمكننا ان نختتم إذاً، بأن ممارسة "الحزب الأمير" تستحق أيضاً، وللسبب عينه، نقد عالم الأخلاق، إذا هي لم تشبه ممارسة الأمير المكيافيلي الشغوف بالقوة والمجد.

هل يعني هذا الأمر أن تسمية الكاتب الرجيم تنطبق، في النتيجة، على ماركس وليس على مكيافيلي، كما يقال في الغالب؟ يذكر آرون أن المكيافيليين قد درّسوا ذلك في زمن ستالين «لكنه يوضح بأن برهائم لم يكن مقنعاً تماماً». من المؤكد أن الدرس المكيافيلي الذي يرى «أن على من يريد أن يصبح ملاكاً أن يصبح وحشاً» يحتوي على جزء من الحقيقة: فالإنسان العملي الذي يسعى إلى التغيير الجذري لمسار العالم مضطر إلى اعتماد سلوك قاس، في الغالب، وبعيد جداً عما يمكن أن يحلم به المنظّرون الطوباويون. ومع ذلك، ترفض الليبرالية التي نادى بها آرون الاكتفاء بهذا التشخيص، الذي قاله بورهام، كما نعلم. بالفعل، إن مساهمة المنظّرين المتشائمين المؤكدة تبدو في الوقت ذاته محدودة. ويشير آرون، انطلاقاً من إخلاصه لنقده لليبرالية موسكا المحافظة، إلى أن المتشائمين يحمون أحياناً المجتمعات من اندفاعه العواطف الفارغة، لكنهم نادراً ما يحمون أصحاب الامتيازات من مغريات النزعة المحافظة. وبكلام آخر، يعود الفضل إلى المدرسة المكيافيلية في تقديم البراهين ضد التفاؤل الثوري، لكنها تخطئ، من جهة أخرى، لأنها تحمل الآلية الديمقراطية للمجتمعات الحديثة. غير أن آرون يعترض قائلاً، إذا

كان «من الخطر، واقعياً، أن نقدم للبشر فكرة سامية جداً عن مصيرهم المحتمل» فإن «إقناعهم بأنهم غير جديرين وعاجزون ليس أقل خطراً من ذلك على الإطلاق».

إن هذا البرهان، الذي يشير بشكل لافت إلى پاسكال، هنا كما في مكان آخر، من خلال ذبذباته ولغته⁽³⁷⁷⁾، لا يمكن أن يحمل معناه كاملاً وبشكل صحيح، إلا على ضوء تقاليد فلسفة أخرى، إنها تقاليد النزعة النقدية⁽³⁷⁸⁾. لا تراجع فلسفة آرون، مع ذلك، وبسبب عدائها العميق للنزعة التقريرية في الفلسفة الماركسية، عن ترتيب الوقائع انطلاقاً من فكرة نهاية التاريخ، مشترطة، مع ذلك، فهم هذا التاريخ باعتباره «فكرة العقل»⁽³⁷⁹⁾. وكما رفض آرون التعددية الجذرية التي قالها شبنغلر (Splenger) لاغياً كل فكرة تقول بوحدة الصيرورة⁽³⁸⁰⁾، فإنه لا يستطيع أن يوافق على المفهوم الذي يفتت التاريخ إلى العديد من اللحظات المتفردة، كما هو الحال لدى مكيافيلي. علينا إذاً، أن نحافظ على فرضية تتجاوز التجريب، حول المصير البشري، باعتبارها ضرورة عقلية أقل⁽³⁸¹⁾. يتمتع الإدراك السياسي المقتصر على معرفة الواقع، بفضيلة توضيح أن من غير المشروع أن نستنتج من فلسفة التاريخ صيغ العمل الملموس الذي يدعي تحقيق القدر النهائي للبشرية، الآن وهنا، لأنه لا يمكن لمثل هذا المشروع إلا أن يقودنا إلى نزعة تطوعية عمياء، أكثر قسوة من المكيافيلية السوقية؛ وعلى العكس، إذا اقتصرنا على معرفة موضوعات التجربة واستبعدنا كل ملاءمة لأفكار العقل، باعتبارها أحلاماً مثالية وخطرة، نكون قد وصمنا الإنسانية بالمحافظة والتشاؤم، من خلال حرمانها من متطلبات تبقى، بعد نقدها، شرعية بالرغم من ذلك. إنه جوهر «النزعة التقدمية» لدى آرون: فالمطلوب إدماج «سياسة الإدراك» بـ «سياسة العقل»: من أجل تصور التاريخ على شكل سلسلة متقطعة من التحولات المتجهة بشكل غير محدود إلى نهاية قائمة في الأفق تهرها مبادئ مجردة⁽³⁸²⁾، وليس باعتبار هذا التاريخ تكراراً للأمر نفسه (مكيافيلي) أو نموذجاً ثورياً لمجتمع اكتمل أخيراً (ماركس). من المناسب أيضاً، هنا، الاعتراف بأن عملية الإدماج المقترحة لا تنهي الذبذبات بين مكيافيلي وماركس. ولا يؤيد آرون، في ختام تساؤله، في الواقع، مستشار الأمير

و«سياسة الإدراك» ولا نجح السماء و«سياسة العقل»: «من الأفضل ألا نختار بين مكياقيلي المراقب البعيد عن الأوهام، وماركس الرؤيوي، وأن نترك الحوار غير المتناهي وغير المحدود قائماً في السر والعلن»⁽³⁸³⁾.

وهكذا تعكس المواجهة بين مكياقيلي وماركس فرضيات معيارية تتوضع على طرف نقيض لكل ليبرالية محافظة. لذلك فإننا نرتكب خطأ فادحاً إذا قارنا فكر آرون بنوع من «النزعة المحافظة الجديدة» المعادية جذرياً للماركسية⁽³⁸⁴⁾. ترتبط ليبرالية آرون، في الحقيقة، بعلاقات وطيدة مع تيار منسي، اليوم، إنه «الاشتراكية الليبرالية» أو «الليبرالية الاشتراكية»، من خلال مشروعها القائم على مسألة العدالة الاجتماعية عبر تولي إرث الليبرالية السياسية. يقوم أحد أوجه أصالة آرون، مع ذلك، على رفضه القيام بعملية توليف كلامي بين الاشتراكية والليبرالية، من خلال إظهار التوترات المتبقية بين هذين التقليدين. وعلى الرغم من بعض الصياغات التي يشير آرون من خلالها إلى بعض المصادر الليبرالية الحقيقية للاشتراكية، فإنه يصرّ على الفرضية التي تقول بوجود تيارين متناقضين، ليس من البديهي قيام التوافق بينهما. ولسنا هنا بصدد تقويم أبعاد هذه المحاولة⁽³⁸⁵⁾. ومهما يكن الأمر، تتمثل أهمية تحليل آرون في الطريقة التي يعيد بها صوغ الفرضيات المكياقيليّة لبورغهام، من أجل إظهار شرعية مطلب التقدم الاجتماعي الذي يحرك المجتمعات الديمقراطية.

فينومينولوجيا التجربة السياسية

«المنعطف» المكيافيلّي لميرلو - پونتي

نحو ماركسية مكيافيلّيّة؟

لا يمكننا أن نفصل اهتمام ميرلو - پونتي بمكيافيلّي عن المسألة المكيافيلّيّة. ومع ذلك، لا شيء يمنعنا من التفكير بأن من بين الانتقادات العنيفة الموجهة لكتاب *النزعة الإنسانية والرعب*، هناك اتهام "بالمكيافيلّيّة"⁽¹⁾. هذا ما يمكن أن نستخلصه، أقلّه، من النظر إلى مقدمة الكتاب، التي ينفي ميرلو - پونتي، من خلالها، أنه قد امتدح النزعة الكلبية والذرائعية⁽²⁾. ومهما يكن، لا يجهل ميرلو - پونتي، الاتهام الموجه للماركسية باعتبارها شكلاً من المكيافيلّيّة، حتى قبل ظهور هذه المنازعات. ويرفض ميرلو - پونتي تماماً هذه الفرضية: إذ يبين من خلال التساؤل عن دور الإيديولوجيا الوطنية في الصراع الطبقي، بالمعنى الماركسي للكلمة، أنه من الممكن أن يكون الشعور الوطني رجعيّاً أو ثوريّاً، وفقاً للمواقف، ما يعني أن السياق التاريخي «يحرر، في بعض الحالات، الواقع الوطني من الفرضيات الرجعية التي ترهق كاهله»، كما يبين أنه ليس بإمكان الماركسيين، البتّة، استخدامه بنحو كلبّي «لمصلحة نضالهم الخاص، من خلال المكر الحالم»⁽³⁾. وبتعبير آخر، ليست الماركسية مكيافيلّيّة، بل إنها تنسجم أكثر مع تعريف *الممارسة*

العملية (Praxis). ونعرف، في الواقع، أن مفهوم الممارسة العملية، كما تفهمه فينومينولوجيا ميرلو - بونتي، يمنع الخط من قيمة العمل السياسي الأصيل، عبر تحويله إلى أنموذج تقني يفترض تمييزاً واضحاً بين الوسيلة والغاية⁽⁴⁾. تنبثق المكيافيلّية، بشكل واضح، عن سياسة تقنية بحتة تتلاعب بال جماهير، بهدف تحقيق غايات تتجاوزها. وتعتبر الماركسية بهذا المعنى خيرة، نظرياً أقله، فهي نقض المكيافيلّية: «من طبيعة الماركسية عدم التمييز بين الغاية والوسائل، ولا وجود، من حيث المبدأ، لسياسة أقل نفاقاً وسياسة أقل مكيافيلّية. وليس مطلوباً هنا السعي إلى مفاجأة حسن نية الوطنيين وسوقهم إلى حيث لا يريدون»⁽⁵⁾. ولا بد من التأكيد على هذا الإيضاح: ليست الماركسية مكيافيلّية، من حيث المبدأ، ما يعني ضرورة التمييز بين تعاليم الماركسية الحقيقية والممارسات التي يمكن أن تنسب إليها.

غير أنه من الممكن إثارة سؤال مماثل يتعلق بفكر مكيافيلي: هل سياسة مكيافيلي مكيافيلّية، من حيث المبدأ؟ يقدم ميرلو - بونتي، في النهاية، إجابة منطقية على هذا السؤال، مشيراً إلى أن هناك طريقة لمدح مكيافيلي «تُنقض المكيافيلّية بشكل تام»⁽⁶⁾. ومع ذلك، لا يبدو أن هذا الموقف قد اعتمد، دوماً، وبشكل واضح. وهكذا، يتمتع ميرلو - بونتي عن نسب النزعة المناهضة للسامية إلى «آلة حرب أعدها بعض المكيافيليين، وخدمتها طاعة الآخرين»⁽⁷⁾، وذلك في مقالة «وقعت الحرب» التي تعالج الفكرة التي ترى أن «محرّضين واعين» أطلقوا هذه النزعة وحملتها «قوى بدائية غامضة». وما من شك في أن ميرلو - بونتي ما كان ليستخدم هذا التعبير «بعض المكيافيليين» لو لم يكن يعتبر مؤلف الأمير بعيداً بشكل واضح عن المكيافيلّية الضيقة جداً.

لقد أصبح الموقف من مكيافيلي غامضاً، لدى صدور كتاب النزعة الإنسانية والرعب. ويبدو أن ميرلو - بونتي قد التزم، أحياناً، بالفكرة التي ترى أن الفلورنساوي مفكر "مكيافيلي". وهكذا يوضح ميرلو - بونتي، في حديثه عن التعارض، الذي قاله فيير، بين «أخلاق المسؤولية» و«أخلاق الإيمان»، أن ماكس فيير «يرفض التضحية بأخلاق الإيمان، فهو ليس مكيافيلي»⁽⁸⁾. ويبدو مؤلف

الأمر هنا منظرًا صرفاً يفضل الفعالية السياسية على أي اعتبار أخلاقي. ومع ذلك، إن الكثير من تحليلات ميرلو - بونتي تذهب في الاتجاه المعاكس. تعتبر هذه التحليلات مكيافيلي مفكراً نافذ البصيرة يدين التحريض الأخلاقي الصرف، تحت اسم الضرورة الأخلاقية الأصيلة، وبعيداً عن كل وجهة نظر كلبية. وتعارض واقعية مكيافيلي، ضمن هذا السياق، نزعة كانط الأخلاقية. يلوم ميرلو - بونتي «كانط» لأنه اقتصر، من جانبه، على باطنية راحة الضمير لوحدها. وذلك من خلال تبني براهين هيغل الذائعة الصيت حول «الروح الطيبة»، وكذلك من خلال ما يسميه «باللوحة المتشائمة» التي رسمتها الماركسية عن الصراع الطبقي والعنف: «إذا كان من الصحيح أن التاريخ صراع، وإذا كانت النزعة العقلية نفسها إيديولوجيا طبقية، فلا أمل في التوفيق بين البشر من خلال الاعتماد المباشر على «حسن الإرادة»، كما قال كانط، أي من خلال أخلاق كونية تتجاوز المعمعة»⁽⁹⁾. إن علينا أن نواجه أخلاقاً كانطية تقوم على «التصرف الواعي» بالأخلاق الحقيقية»، أي الأخلاق التي تهتم، ليس بأمانينا وأفكارنا وحسب، وإنما أيضاً، وبخاصة، بفعالية أعمالنا. وذلك لأن ما يحمل معنى تاريخياً حقيقياً بالنسبة إلى ماركسي، يتمثل في حقيقة الناس ضمن الواقع الاجتماعي، أي في الدور الذي يقومون به، بشكل واعٍ أو غير واعٍ، في الصراع الطبقي، وليس في ما يمكن لهؤلاء الناس أن يفكروا به أو يقولوه بشكل إرادي. ليس مهماً، من وجهة النظر هذه، أن يكون الكاتب تقدماً أو رجعيًا، بل أن يكون مستعداً لكشف لعبة القوى الحاضرة في النزاع أو إخفائها. ويعني هذا أنه علينا أن نعترف، مع ذلك، بأن مكيافيلي كاتب أساسي، حتى لو لم يكن مفكراً تقدماً: «إن مكيافيلي أهم من كانط. ويقول إنجلس عن مكيافيلي إنه "أول كاتب جدير بالذكر في العصور الحديثة". أما ماركس فكان يقول عن كتابه *تاريخ فلورنسا* إنه "عمل خبير". وكان يذكر مكيافيلي، إلى جانب سبينوزا وروسو وهيغل، في عداد أولئك الذين اكتشفوا قوانين عمل الدولة»⁽¹⁰⁾.

وهكذا، إن الفكر المكيافيلي قد ساهم بشكل كبير في إنشاء «أخلاق حقيقية»، قامت بدور إيجابي ربما على غير علم منها. ولا نستطيع أن نقول

الشيء نفسه عن أخلاق الإرادة الطيبة والنية الصافية التي تعرض نفسها لخطر التحول إلى نقيضها، لتبدو هكذا، وكأنها تفرز في النهاية جميع أشكال النزعة الشكّية التاريخية. وذلك لأن هذه النزعة تستمتع دوماً، برؤية كل فكرة تتحول إلى «نقيضها»، ومثال ذلك تحول الحرية والفضيلة في القرن الثامن عشر إلى «رعب ونفاق» بعد الوصول إلى السلطة، وبعبارة أخرى «لقد أصبح كانط رويسبير». وعلى العكس من ذلك، تتميز الجدلية الماركسية بالبحث عن وضع نهاية لسخریات التاريخ، بدل أن تضيف فصلاً إليها. ويقوم مصير هذا التحول على الاعتراف الصريح بضرورة الحلول الوسطية والطرق المتوترة شرط أن نضع هذه الطرق، بشكل واضح، خدمة لغاية أفقها أكثر شمولاً. وعلينا، ضمن هذا الإطار، أن نستبعد النزعة الذاتية الأخلاقية، كما المكيافيلّية الكلبية، باعتبارها مشروعين جرميين، وأن نتهدي بمكيافيلّية أصيلة كي نتجاوزهما: «إن هناك طرقاً ملتوية، إذاً، غير أن النزعة المكيافيلّية الماركسية تتميز عن المكيافيلّية في أنها تحول الحل الوسط إلى وعي بالحل الوسط، وغموض التاريخ إلى وعي بالغموض (...)، وفي أنها تعيد تموضع خصائص السياسة المحلية ومفارقات التكتيك، ضمن منظور شامل»⁽¹¹⁾. ويبدو أن تعاليم مكيافيلي تكمل، إذاً، المفهوم الماركسي للتاريخ وتعمقه، بدل أن تحل محله.

تناقضات الماركسية

وإعادة اكتشاف مكيافيلي

لا يقوم الفكر المكيافيليّ، ضمن رؤية «مكيافيلّية ماركسية»، إذاً، بدور مركزي في عملية البرهنة التي تستخدم في كتاب *النزعة الإنسانية والرعب*. فكيف نشرح، والحال كذلك، ما ذهب إليه ميرلو - بونتي، بعد سنتين فقط، في اعتبار السكرتير الفلورنساوي شخصية أساسية في الفكر السياسي؟ لم نعد نعتبر الفكر المكيافيليّ، في الواقع، مكملًا للماركسية فقط، بل إنه وسيلة مميزة أيضاً لتوضيح السياسة المعاصرة. وترى فرضيتنا أنه يمكن للعودة إلى مكيافيلي أن تفهم على أنها جواب عن التناقضات التي تكتنفها ماركسية ميرلو - بونتي: يعود الفضل للفلورنساوي في التطوير الثابت للبديهيات الخصبة جداً والمنتبهة عن مؤلفات ماركس.

وتختلف، هنا أيضاً، التقييمات التي تقدم بها ميرلو - بونتي حول ماركس، في القسم الأول من كتابه حول هذا الأخير، لدرجة تصل معها إلى التناقض أحياناً. وهكذا نجد، مع صدور كتاب *فينومينولوجيا الإدراك*، نقداً أساسياً يوضح حدود التفاؤل الماركسي، على الرغم من انتماء هذا النقد إلى الماركسية: «يستبعد الوعي كل زيف مطلق أقله، إذا لم يمثل هذا الوعي الحقيقة أو وضوحها المطلق. إن أخطئنا وأوهامنا وأسئلتنا هي حقاً أخطاء وأوهام وأسئلة. إن الخطأ ليس الوعي بالخطأ، فهو يلغي الوعي. لا تنتج أسئلتنا دوماً إجابة، أن نقول، مع ماركس، إن الإنسان لا يشير سوى المشكلات القادر على حلها، فهذا يعني أننا نجدد التفاؤل الديني ونسلم بكمال العالم». ويقوم الموقف الوحيد المشروع، في مواجهة التفاؤل الذي تبني عليه «النزعة العقلانية» الماركسية، على التأكيد على أن «الخطأ والصواب لا يحولان بيننا والحقيقة، لأنهما محاطان بأفق عالم تدعونا فيه غاية الوعي إلى البحث عن حل لهما»⁽¹²⁾. يقارن البرهان المستخدم في كتاب *النزعة الإنسانية والعرب*، المخلص لهذا الموقف والمعتمد بشكل صريح على الفلسفة الماركسية، بين إدراك التاريخ وإدراك «الأشياء المحسوسة»، ويشير إلى أن هذه الأشياء تتميز بأنها محتملة، لأننا لسنا قادرين أبداً على إنجاز تحليلها بشكل كامل. إن من الجهل بطبيعة الإدراك أن «نقلل من قيمة هذا الأمر المحتمل الذي يمثل بالنسبة إلينا الواقع الوحيد، تحت ذريعة وهم يقيني لا يستند إلى أية تجربة بشرية». لذلك من الواجب التراجع عن فكرة تاريخ «في ذاته» تكتب صيرورته على خلفية العالم: «لا يقدم الواقع الاجتماعي الملازم لنا دوماً والمعرف ذاتياً باعتباره شيئاً، والمرتبط بممارستنا على امتداد الحاضر والمستقبل، في كل لحظة، إمكانية وحيدة، وكأن الله قد حدد مستقبله، على خلفية العالم». وهذا يعني أن نجاح سياسة ما لا يثبت أبداً أنها كانت الوحيدة الممكنة، لدرجة «يقدم معها التاريخ ألغازاً أكثر مما يقدم من المشكلات»⁽¹³⁾. ويتميز ماركس عن هيغل بشكل دقيق - وهنا تظهر مساهمته - بالقدر الذي يعتبر فيه أن التركيب بين الداخل والخارج، وبين الإنسان في ذاته والإنسان من أجل الآخرين، يرتبط «بالمبادرة الإنسانية» التي تحجب عنه بهذه الطريقة، «كل ضمان ميتافيزيقي»⁽¹⁴⁾. وهكذا تبدو إشكالية كتاب *النزعة*

الإنسانية والرعب التي تستند إلى الفكر الماركسي، وكأنها تناقض، مع ذلك، بعض مبادئ ماركس كما يفهمها كتاب فينومينولوجيا الإدراك. ويبدو ماركس، في الواقع، استمراراً «للتفاؤل الميغلي»، وناقداً راديكالياً جداً له. لقد قدم ميرلو - بونتي، حتى في لحظة انتسابه إلى الماركسية، إذاً، حول ماركس شروحاً، إذا لم تكن متناقضة، فهي مختلفة بشكل واضح، أقله.

وهكذا، يبدو أن ما احتفظ به ميرلو - بونتي، لاحقاً، من فكر مكيافيلي، يجب بطريقة أكثر ملاءمة من مؤلفات ماركس، على التوجه الفلسفي لكتاب النزعة الإنسانية والرعب، بخاصة في ما يتعلق بموضوع العرضية (la contingence) الهام جداً لدى ماركس، والذي يحتل مكانة مركزية في مؤلفات الفلورنساوي إلى جانب هذا الفارق البديهي، فالفلورنساوي بعيد جداً عن «التفاؤل اللاهوتي» الذي يميز الكثير من الصياغات الماركسية. وهكذا سيلاحظ ميرلو - بونتي أن ما يسبب الصعوبة في فهم مكيافيلي، هو الجمع بين الشعور الحاد جداً بالعرضية واللاعقلانية في العالم، ورغبة الإنسان في الحرية: «فهو لا يرى شيئاً يوصل التاريخ إلى التناغم النهائي، بسبب كثرة الفوضى والاضطهاد والمفاجآت والتحويلات⁽¹⁵⁾». ويولي مؤلف الأمير، مثل ماركس، عرضية التاريخ مكانة مركزية، غير أنه، على عكس بعض التأكيدات الماركسية، يتعد عن كل إثبات موضوعاني يكفل مستقبلاً متوقعاً: إذ يتعارض شعوره العميق باللاعقلانية بشكل واضح، «مع العقلانية» التي تؤسس للفلسفة الماركسية للتاريخ.

هشاشة الماركسية وإعادة تقييم مكيافيلي

في مواجهة التاريخ المعاصر: تجربة الحرب

سوف تثبت الفرضية التي ترى أن العودة إلى مكيافيلي ستؤدي إلى التهشيم التدريجي للماركسية، إذا وضعنا تناقضات كتابات ميرلو - بونتي حول ماركس وغموضها، على ضوء السياق التاريخي الذي رافق ظهورها⁽¹⁶⁾. لقد نقلت تجربة الحرب والعمالة للمحتل أولاً، وقبل المشكلة الماركسية، اهتمام ميرلو - بونتي في التوجه من ماركس إلى مكيافيلي. ولم نلاحظ، من جهة أخرى، أن كتاب النزعة

الإنسانية والوعب يمكن أن يقرأ أيضاً على أنه تحليل مكرّس للمقاومة⁽¹⁷⁾. فكل شيء يسير وكأن ميرلو - بونتي يريد أن يستخلص دروس بطولة أولئك الذين امتلكوا شجاعة مواجهة صيرورة تاريخية لا يمكن إيقافها في الظاهر، ويسمح مكيافيلي، مفكر المبادرة التاريخية، أكثر من ماركس، طبعاً، بتفسير مأساة عصر «وقعت فيه الحرب». إذا ترك المفهوم الماركسي للتاريخ مكانة للعرضية والعنف، فكيف لنا أن لا نرى أن مكيافيلي يسير، في الواقع، هذا البعد بعمق وجذرية لا مثيل لهما؟ يسمح الفكر المكيافيلي، إذاً، وبدقة أكبر، بأن نعبر عن مبادرة "البطل" أو «الرجل العظيم» الذي يواجه مستقبلاً غير مستقر. وما من شك في أن ميرلو - بونتي يدرج ضرورة تدخل الأمراء والبشر الاستثنائيين في تصوره الماركسي للتاريخ. فالماركسية، كما تصورها، تزعم أنها ترفض كل تصور غائي للتاريخ، أي كل فكرة تاريخ «تقوده النيات، سواء أكانت في فكر أولئك الذين يعيشون الأحداث أم في التصورات الماورائية»⁽¹⁸⁾. وبالنتيجة إذا كان لا مناص من أن يتحقق يوماً التطور الذي يرسم في الوقائع، فعلينا مع ذلك أن نوضح بأن «هذا التطور ليس مقدراً». ولا يمكن للمعنى الثابت للموقف أن ينجز إلا إذا أدركه صانعو التاريخ، ما يعني أن «الفوضى» غير مستبعدة على الإطلاق. غير أن ميرلو - بونتي يشدد على أن هذا الوعي يتطلب تدخل بشراً استثنائيين. ولن نستطيع في الواقع التقليل من أهمية «دور رجال السياسة الثوريين»، القادرين على فهم المسارات القائمة وإعطائها شكلاً نهائياً. وبذلك لا يجوز للمؤرخ أن يتنازل أمام «عملية عقلنة استرجاعية»: ليس اتجاه التاريخ مقدراً، فهو لا يتحقق إلا بفضل وجود هذا الفرد الاستثنائي أو ذاك، القادر على "توليد" أحداث «لا تضمن أية قوة حدوثها مطلقاً، حتى لو بدت هذه الأحداث محتملة»⁽¹⁹⁾. ومع ذلك، ليس من الصعب رؤية كمية التوترات، بل التناقضات التي يعج بها المفهوم الماركسي لتاريخ حتمي، لكنه ليس مقدراً، بخاصة وأن ميرلو - بونتي يبدو وكأنه يهمل، في تحليلاته حول الحرب، حتى الفكرة اللينينية عن الفرد الاستثنائي، باعتباره "مولداً للتاريخ". وتبدو العودة إلى مكيافيلي ذات دلالة ضمن هذا السياق، لأن مؤلف الأمير يولي أهمية رئيسة لمبادرة «الرجل العظيم»، غير أنه لا يرى أبداً في التاريخ تنامياً لمنطق

داخلي. وبكلام آخر، تحافظ فينومينولوجيا ميرلو - بونتي، من خلال العودة إلى مكيافيلي، على فكرة الفعل التاريخي «لرجل عظيم» يواجه عالماً معادياً، إلا أنها تبتعد، بوعي، عن منظور عقلانية داخلية للتاريخ. لقد أخذت صورة «الرجل العظيم»، في الواقع معنىً جديداً، منذ تجربة الحرب: ففي هذا «العالم المتحرك»، لم يعد بإمكان فعل البطل الحديث الاعتماد على قانون السماء، ولا على وجهة مرئية للتاريخ، بعد إهمال القناعة الهيجلية «بعبقرية الكون التي هُيئت كل شيء من أجل نجاحه وتدله بوضوح على طريقه»⁽²⁰⁾. إن ما تعلمه تجربة المصادفة والفوضى والفشل للبطل هو أنه يعمل في «زمن تكون فيه الواجبات والمهمات غامضة» لدرجة يدرك معها «بطريقة أفضل عرضية المستقبل وحرية الإنسان». غير أننا إذا اعترفنا بالرباط العميق بين هذين الموضوعين - موضوع مبادرة البطل، وموضوع مبادرة عشوائية التاريخ - يصبح من الصعب إدراك ما تبقى من الخصائص الماركسية، وحتى الماركسية اللينينية، في مثل هذه المقاربة؛ وما من شك، في المقابل، بأن مكيافيلي، مفكر «هشاشة الشأن السياسي»⁽²¹⁾ يرد بشكل أفضل على الخيارات الفلسفية لميرلو - بونتي.

وبالتواكب مع هذا الأمر، تبدو الفلسفة الماركسية للتاريخ غير قادرة على منح الصراعات القومية دلالتها الكاملة. فإذا كان ميرلو - بونتي لا ينتقد ماركس، فهو أقله، ينتقد «ماركسية معينة» تهمل النزاعات ما إن يبدو مصير الطبقات في حالة الخطر، بشكل مباشر. إن الكثير من الماركسيين الذين يعتبرون، في الواقع، أن الفاشية «ولد الرأسمالية الفقير» يرون في الحرب بين الأمم أمراً شكلياً، وذلك لأن حقيقة التاريخ تتمثل، في رأيهم، في التضامن بين كادحي العالم بأسره: «فحين نعرض عليهم وضع بلد محتل باعتباره النموذج نفسه للواقع غير الإنساني، يحاولون إلحاق هذه الظاهرة بظاهرة أشمل تتعلق بالاستغلال والاضطهاد الرأسمالي. وبما أنهم يملكون أسرار التاريخ، فإنهم يفهمون العصيان الوطني، أكثر مما يفهم هذا العصيان نفسه، ويمنحونه غفراناً باسم صراع الطبقات»⁽²²⁾. هكذا، "فيما تحمل العقلانية الماركسية"، في ذاتها، خطر عدم إدراك المسألة القومية، فإن الفكر المكيافيليّ يحيلنا إليها. وهكذا يلفت ميرلو - بونتي إلى أن مكيافيلي قد فهم تماماً ضرورة بناء أمة

إيطالية قادرة على الدفاع عن نفسها ضد أعدائها، لأن «علينا أن نبدأ ببناء هذا الجزء من الإنسانية كي نبني إنسانية بأسرها»⁽²³⁾. ولقد قادت هذه الحالة التاريخية الحرجة مكياڤيلي إلى تنظيم بعض المشكلات المتعلقة بالأمة والوطنية والحرب بطريقة تبقى الأكثر وضوحاً حتى الآن، في القرن العشرين. يقول الدرس الذي نستقيه، في الواقع، من النزاع العالمي الثاني: «كنا نعيش في بيئة سلام وتجربة وحرية قائمة على تضافر ظروف استثنائية، ولم نكن نعرف في ما إذا كانت هذه البيئة أرضاً ندافع عنها، وكنا نظن أن هذا نصيب البشر الطبيعي»⁽²⁴⁾. يسمح التفكير المكياڤيلي القائم على موضوع الحرية القومية، وضمن الحالة القصوى للحرب بتفسير الحاضر بدقة أكبر من الأهمية الماركسية.

تنكس الثورة

ومع ذلك، إن تجربة الحرب لا توضح، بشكل كافٍ، عودة ميرلو - بونتي إلى مكياڤيلي. فعلى الرغم من بواكير الصدوع في انتمائه للماركسية، إن ما قاد ميرلو - بونتي إلى إعادة نظر جذرية في فكر ماركس وإلى إعادة اكتشاف حاسمة لمكياڤيلي يتمثل، على الأرجح، في نتائج عمل الأنظمة الشيوعية. ففي مقالة تحمل عنوان «مضت مئة عام على البيان الشيوعي»، يربط ميرلو - بونتي نقده «للعقلانية الماركسية» بالأحداث التاريخية التي ناقضت هذه العقلانية⁽²⁵⁾. وذلك لأننا مضطرون إلى معاناة انقسام البروليتاريا العالمية، خلافاً لتصور ماركس، أما بالنسبة إلى البروليتاريا السوفييتية، فإذا تأكدنا من إزالة الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، فمن غير الممكن، مع ذلك، الحديث عن «ملكية جماعية» طالما أن «الدخل الاجتماعي» بقي تحت هيمنة «جهاز دولة أكثر ثقلًا وتسلطاً من أي طرف آخر». لذلك، يثار بحدة متصاعدة، السؤال حول معرفة ما إذا كان بروليتاريو العالم قد وعوا مصالحهم الخاصة، وفي هذه الحال، ما إذا كانوا قادرين على المحافظة على السلطة المكتسبة. نحن نعرف أن ماركس لا يشك بذلك، غير أنه، وعلى ضوء الأحداث، كل شيء يدفع للتفكير بأن ماركس قد أظهر تفاقلاً مبالغاً فيه: «وما أتاح لماركس إثبات ذلك ومد خطوط الحاضر إلى مستقبل

"حتمي" هو نزعتة العقلانية التي سيدفعنا التطور اللاحق إلى إعادة النظر فيها: كيف عرف ماركس "أن النمو الحر لكل فرد" يتوافق مع نمو الآخرين؟ إن من التهور تأكيد النقيض. نحن لا نعرف ما يمكن للحرية البشرية أن تفعله. فعلينا إذاً أن نطبق المساواة. إلا أن علينا أن نتفق أنه، ومنذ مئة عام، تواجه المساواة عداوة صماء في الوقائع»⁽²⁶⁾. ويصبح بالإمكان، على ضوء أزمة الماركسية هذه التي شهدتها التاريخ الحديث، أن نفهم المقارنة التي عقدت بين السكرتير الفلورنساوي وماركس، في كتاب *مذكورة حول مكيا فيلي*. يتساءل ميرلو - بونتي في ما إذا كانت قد حلت مشكلة «النزعة الإنسانية الحقيقية» التي أثارها أولاً مكيا فيلي، واستأنف إثارتها ماركس، بعد مئة سنة (أي في مرحلة *البيان الشيوعي* تحديداً). كل شيء يشير إلى أن شيئاً من هذا لم يحصل طالما أن كتاب *النزعة الإنسانية والرعب* يقود إلى الشك القاطع بأن تناقضات التاريخ قابلة «للحل»، وكأن التعايش الإنساني «يشبه مسألة هندسية ما، حيث هناك مجهول فيما يغيب اللا محدود»⁽²⁷⁾. ومهما يكن، تسعى مبادرة ماركس إلى حل مشكلة النزعة الإنسانية الحقيقية، من خلال البحث عن الدعم في حركة الناس الأكثر تعرضاً للاستغلال، وليس في المبادئ، فهو يرى أن هذه الحركة وحدها قادرة على تأسيس سلطة تلغي كل اضطهاد⁽²⁸⁾. غير أن الأحداث قد أظهرت أن المشكلة تتمثل في إقامة «سلطة من ليس لهم سلطة». أي في الصعوبة التي تعانيها الماركسية في التعبير بشكل وافٍ عن القضايا المرتبطة فعلياً *بالسلطة*؛ تلك القضايا التي يمكن أن نحصرها في خيار بسيط: إما أن تتبع السلطة تموجات البروليتاريا، وتعرض بذلك لتهشيم قاتل، وإما أن تختار التملص منها لتنصب نفسها بذلك قاضياً يرعى مصالحها. وتفرق السلطة، في الحالة الثانية، حتماً، ضمن تصرفات السلطة التقليدية لتحول بسرعة إلى طبقة حاكمة جديدة. وكان لا بد من تطوير «علاقة جديدة جداً للسلطة مع رعاياها» كي تتجنب هذا الفشل المتوقع جداً، وذلك عبر إبداع «صيغ سياسية قادرة على مراقبة السلطة من دون إلغائها».

وإذا كانت هذه الصيغ قد رأت النور مع فجر الثورة الروسية، من خلال التطور العفوي للمجالس، فإننا نلاحظ أن السلطة قد فقدت، «ومنذ عصيان

البحرية الروسية في كرونستاد (Cronstadt)، الصلة بقسم من البروليتاريا، وبدأت بالكذب كي تخفي النزاع». في الواقع، هذه السلطة «تعلن أن قيادة العصاة في أيدي الحرس الأبيض، كما كانت قوات بونايرت تعتبر توسان لوفيرتور (Toussaint Louverture)، عميلاً أجنبياً». وهكذا، كما كان متوقفاً أن يفتح - مع قدوم الثورة - عصر جديداً تماماً من التاريخ الذي سيشهد زوال الانقسامات السابقة الكامل، فقد اضطررنا إلى ملاحظة أن النزاعات القديمة عادت إلى الظهور ضمن المسار الثوري نفسه، كما ظهرت سلطة جديدة «بالمعنى التقليدي» للكلمة.

لذلك علينا أن نعترف، «وكأننا نؤيد هنا مكيافيلي»، بأن الانقسامات التقليدية لم تُزل لأنه «بينما يلجأ الحكم إلى مكر السلطة الكلاسيكي، كانت المعارضة تحظى بالتعاطف من أعداء الثورة». وقد أثير، منذ ذلك الحين، في مواجهة هذه الأحداث، السؤال حول ما إذا كان من طبيعة كل سلطة أن تنزع إلى الاستقلال، وإذا كان هذا الأمر «قدرًا لا مناص منه في جميع المجتمعات البشرية» أم على العكس من ذلك، إذا كان فشل الثورة مرتبطاً فقط بأسباب خاصة بالتاريخ الروسي لوحده. نحن نعرف أن كتاب *مغامرات الجملدية*، قد قاد، بعد مرور سبع سنوات، إلى الفرضية الأولى، مع المحافظة على الأمل بقيام أشكال سياسية جديدة قادرة على تجنب النزوع إلى استقلال السلطة⁽²⁹⁾. يضيف ميرلو - بونتي، مع ذلك، ما يعتبره «المشكلة الجوهرية»، رافضاً بشكل قاطع الحسم في مسألة الحل البديل الذي قُدِّم. ومع ذلك، علينا أن نقبل، مهما كانت الإجابة، أنه «بما أن تجربة كرونستاد، قد أصبحت نظاماً، وأن النظام الثوري قد حل فعلاً محل البروليتاريا باعتباره طبقة حاكمة، مع جميع صلاحيات السلطة غير المراقبة، يمكننا أن نستنتج أنه، بعد مئة عام على ماركس، تبقى مشكلة النزعة الإنسانية الحقيقية قائمة، وأن نبدي، إذا التسامح مع مكيافيلي الذي لم يستطع سوى تلمّح ذلك لا غير»⁽³⁰⁾.

إذا كان ميرلو - بونتي يتحدث عن "تسامح"، فذلك أولاً لأن مهمة مكيافيلي كانت صعبة: فلم يكن باستطاعته أن يقدم، وهو يواجه النزاعات

السياسية والعسكرية لزمانه، سوى مشروع وحيد معقول، كما رأينا، إنه بناء أمة إيطالية، وكان يدرك أنه من أجل ممارسة إنسانيته، عليه أن يؤسس أولاً «هذا الجزء من الحياة الإنسانية». كانت أوروبا حينذاك تبحث عن نفسها، في الواقع، لقد جعل تفرق البشر تأسيس «شعب كوني» مستحيلًا. وكان موقف ماركس مختلفًا تمامًا - وواعدًا في جوانب كثيرة - فقد بدا «الشعب الكوني» قادرًا على إحياء الأمل في «إنسانية جديدة»، أي «إنسانية تنتظر الاعتراف الفعلي من الإنسان بأخيه الإنسان»، عبر العالم، إنسانية لا تستطيع أن «تسبق اللحظة التي تمتلك فيها وسائل التواصل والمشاركة»⁽³¹⁾.

من ماركس إلى مكيافيلي:

انبعاث المشكلة السياسية

تحتفظ المسائل المتعلقة بالسلطة، أي المسائل السياسية الحقيقية، إذاً، بأهميتها كاملة، حتى بعد قيام حالة اقتصادية واجتماعية جعلتها باطلة، من حيث المبدأ، أو ثانوية أقله. وفيما على البروليتاريا التي أنتجتها الرأسمالية، والتي تنتج الثورة، أن تلغي الانقسامات السياسية الكلاسيكية، فإن هذه الانقسامات، تظهر، في الواقع، بالحدة نفسها، كما في السابق. علينا إذاً أن نعتبر أن الأحداث قد أيدت مكيافيلي بعيداً عن "التسامح" الذي نادى به. ويعود الفضل إلى الفلورنساوي في الاعتراف بالمكانة المركزية، والتي لا يمكن تجاوزها، للنزاع الاجتماعي والسياسي؛ هذا النزاع الذي تم التستر عليه بشكل لافت في الفكر الماركسي أولاً، ثم أنكرته الطبقات السياسية الجديدة الحاكمة في روسيا. ينسجم الاهتمام الظاهر بمؤلفات مكيافيلي، إذاً، في رأي ميرلو - بونتي، مع العودة إلى المشكلات الكلاسيكية للسلطة في التاريخ الحديث، ويكشف ضرورة التساؤل، الأكثر شمولاً، عن السلطة «ومصيرها المحتوم في كل مجتمع بشري». غير أن هذا النموذج من الإشكالية لم يكن ممكناً في إطار فكر ماركس.

عندما قام ميرلو - بونتي، لاحقاً، بتقييم خيالات العصر في كتابه رموز (Signes)، نوه، من جديد، إلى عدم قدرة ماركس على الإجابة عن أسئلة ذات

طابع سياسي. وبعد أن اعترف أن الماركسية قد أثارت المشكلات الحقيقية، وبأنها تشكل، مهما كانت أسباب ضعفها، "نموذجاً كلاسيكياً"، يفتح حقلاً جديداً للتفكير، إلا أن ميرلو - بونتي أشار إلى أن هذه المكانة تمثل "طفرة" خطيرة، بالنسبة إلى نظرية «أرادت أن تكون تجسيدا لحركة التاريخ بواسطة الكلمات». يعتبر مثل هذا الادعاء، فعلاً، «قمة الاستعلاء الفلسفية»⁽³²⁾. علينا في الواقع، أن نقرّ، في مواجهة رهانات الحاضر، أن الماركسية لا تقدم أي مدد: «هل تمثل هذه الماركسية المخطط العام لسياسة ما؟ وهل يعتبر تملكها النظري للتاريخ تملكاً عملياً أيضاً؟ يتوأكّب التملكان في ماركسية ماركس. ونكتشف الجواب من خلال السؤال، وذلك لأن السؤال ليس سوى بداية الجواب، لقد مثلت الاشتراكية القلقل، أي حركة الرأسمالية»⁽³³⁾. يظهر التفاؤل اللاهوتي، لدى ماركس، من الآن فصاعداً، من خلال قدرته الكاملة على مواجهة المشكلات السياسية. «وحتى حين يعترف البروليتاريون ببعضهم بعضاً»، تثار، في الواقع، بشكل دائم، مسألة معرفة «أي أنموذج عمل مشترك» يمكن أن يقترحوا. ولا يقدم ميرلو - بونتي، هو أيضاً، أية إجابة، غير أنه يشير «إلى أن النتيجة ليست العصيان بل *الفضيلة* من دون أي قنوط» في مواجهة انهيار عديد من حقائق الماضي ومشكلات الحاضر⁽³⁴⁾. وإذا أراد ميرلو - بونتي من خلال هذا التلميح لمؤلف *الأمر*، أن يبين، بخاصة، أن التاريخ لا يقود إلى تناغم نهائي مكتوب على خلفية الأشياء، فإنه يقود إلى التفكير أيضاً بأن المسألة السياسية تجد صياغتها الأكثر عمقاً في الفكر المكيافيليّ. ولا يمكن، في الواقع، الفصل بين هذين الاكتشافين: وذلك لأن التاريخ محروم من كل ضمان ميتافيزيقي، ومشكلة الاختيار السياسي ستبقى مطروحة بإلحاح، على الدوام.

مكيافيليّ ومسألة النزاع

لقد كتبت «مذكرة حول مكيافيليّ»، المنشورة في كتاب رموز، عام 1960، بصيغة مختلفة قليلاً في السابق. ونعثر على المقالة في أعمال المؤتمر الدولي حول الدراسات الإنسانية تحت عنوان «المكيافيليّة والنزعة الإنسانية»⁽³⁵⁾، وذلك بعد

عامين من نشرها في مجلة *الأزمنة الحديثة* ⁽³⁶⁾ (*Les Temp Modernes*) عام 1949. يبدأ نص الكتاب الإيطالي، بخاصة، بجملة لا نجدُها في النسخ الأخرى: «إن مكيافيلي مغلف بالمكيافيلية» ⁽³⁷⁾. يعبر هذا التأكيد عن الغاية العامة لتفسير ميرلو - بونتي، أي رغبته في وضع حدٍّ للمطابقة التي أصبحت شائعة، بين مكيافيلي والمكيافيلية. ليس لأن هذه الشهرة قد اغتصبت بالضرورة: إذ يكشف ميرلو - بونتي لدى مكيافيلي بعض التوجهات المستقاة من المكيافيلية أو من تصور تقني للسياسة أقله. ويبقى أن هذه التوجهات لا تسمح بفهم مؤلفات مكيافيلي التي تبين أنها أكثر تعقيداً مما تعبر عنه الملخصات التي اعتدنا أن نقدمها عنها في العادة. وحتى لو كان ميرلو - بونتي لا يعرف، في الغالب، نصوص مكيافيلي في نسخها الأصلية - لقد اطلع عليها من خلال رونوديه ⁽³⁸⁾ - فقد اكتشف الدرس الحقيقي لمؤلف الأمير، من وراء طبقة الشروح التي شوهت معناه.

غير أن أهم ما نستخلصه من قراءة مكيافيلي يرتبط بمسألة النزاع السياسي والاجتماعي وهو موضوع جرى التفاوضي عن أهميته، أو جرى التقليل من أهميته، أقله، من الشارحين الذين احتزلوا تعاليم مكيافيلي بالمكيافيلية. ومن الصحيح أن بعض تحليلات سيمون فيل قد تطرقت، منذ نهاية الثلاثينيات من القرن الماضي، إلى مسألة النزاع لدى مكيافيلي. ولئن كانت فيل قد أعلنت تأييدها للقرارات "المكيافيلية" للأمير، فإنها، من ناحية أخرى، قد كشفت في أعمال هذا المؤلف تساؤلاً حول النزاع الاجتماعي، كما توضح ذلك في تقديمها وترجمتها لفقرة من كتاب *قصص فلورنساوية* الذي يتحدث عن انتفاضة الـ «تشومبي» (Ciompi) ⁽³⁹⁾. أما لويس ده فيلفوس فقد رأى في مكيافيلي مفكراً في «الصراع الطبقي»، مشيراً إلى أن تحليله لتاريخ الجمهورية الرومانية يبرز الصراع ذا الجذور التاريخية أو الاقتصادية، حتى بين الأرستقراطيين والعامّة، والذي يستبق، بشكل لافت، النضال الحديث للجماهير الشعبية، من أجل التحرر والوصول إلى السلطة ⁽⁴⁰⁾. ومع ذلك، فإن الدراسة الحقيقية لمسألة النزاع لدى مكيافيلي، على المستوى الفلسفي قد توافقت مع الشرح الذي قدمه ميرلو - بونتي. وعلينا كي ندرك أبعادها، أن نشير أولاً إلى أنه لا يمكن فصل هذه المسألة عن الخيار الشعبي للفكر المكيافيلي.

الخيار الشعبي لسياسة مكياڤيلي

من المسلم به عموماً أن تعاليم السكرتير الفلورنساوي لا تختصر في لوحة تشاؤمية، أو كلبية، للحياة الاجتماعية والسياسية. أما قراءة ميرلو - بونتي فتعارض هذه الفرضية، مع الاعتراف بأن مكياڤيلي كان «ميلاً إلى النزعة الكلبية»⁽⁴¹⁾. يوضح مكياڤيلي، في الفصل الخامس والعشرين من *الأمير* بأنه قد وجد صعوبة في الدفاع عن نفسه ضد الرأي الذي يرى أن المصادفة تحكم العالم⁽⁴²⁾. غير أن هذا النوع من التأكيد يفرض متطلبات سياسية هامة: فإذا كانت الإنسانية نتيجة مصادفة، فلن نجد من يدعم الحياة الجماعية، بادئ ذي بدء، إذا لم يأت هذا الدعم عبر الإكراه الصرف»⁽⁴³⁾. لقد حدث، في الواقع، أن قدّم مكياڤيلي الحياة السياسية من وجهة النظر هذه وحدها. وهكذا، نجد في الفصل الرابع عشر من *الأمير* الإثبات الذي يقول إن فن الحكم يوازي فن الحرب⁽⁴⁴⁾. وإذا احتوت الشروح التي تجعل من مكياڤيلي منظرًا للإكراه، بعضاً من الحقيقة، فعلينا، مع ذلك، أن نبحث عن جوهر التعاليم المكياڤيلية في مكان آخر. ويسعى فصل «مذكرة حول مكياڤيلي» في الواقع إلى تبيان أن مؤلف *الأمير* لا يتمسك بهذه اللوحة التشاؤمية للحياة الاجتماعية والسياسية. وتؤكد هذه «المذكرة»، بخاصة، على الخيار الشعبي للسياسة المكياڤيلية. إننا في الواقع أمام موضوع مركزي في الفكر المكياڤيلي، يرى أن على سياسة تسعى لاكتساب الشرعية أن تعتمد على الشعب. ويعتقد ميرلو - بونتي، بهذا الصدد، أنه يقطع صلته بجميع القراءات التي تلح على النزعة الكلبية للفلورنساوي: «ليس تشاؤم مكياڤيلي مغلقاً، إذًا، بل يعرض لشروط قيام سياسة عادلة، إنها السياسة التي تُرضي الشعب. ولا يعني هذا الأمر أن الشعب يعرف كل شيء، بل أنه إذا كان هناك أحد بريئاً فيكون الشعب»⁽⁴⁵⁾. تتم الإشارة، على ضوء هذه الفرضية، إلى تحليل شهير ورد في الفصل التاسع من *الأمير*، يشرح أن بإمكاننا، من دون ارتكاب أي ظلم، أن نرضي الشعب⁽⁴⁶⁾. أضف إلى ذلك أن علينا أن نتذكر الأهمية الرئيسة للمبدأ الشهير الذي يرى أن أميراً ينزع سلاح رعاياه، يهينهم من خلال حملهم على الاعتقاد بأنه لا يثق بهم، وما من شيء أفضل من ذلك من أجل إثارة كراهيتهم»⁽⁴⁷⁾. يدفع هذا المبدأ إلى

الاعتقاد بأننا «كسب، أحياناً، بشكل أفضل، الأشخاص الذين نوليهم ثقتنا»⁽⁴⁸⁾. وبكلام آخر، إن الثقة الممنوحة للرعايا تؤمن، وحدها، قاعدة صلبة للسلطة السياسية. ويعتبر ميرلو - بونتي وفي ما يتعلق بمسألة الروابط بين السلطة والشعب، أن كتاب الأمير لا يقول شيئاً أكثر من ذلك، غير أنه يذكر، من أجل تبرير أطروحته، أن أحاديث حول العقد الأول من حكم تيت ليف من صنع صاحب مذهب جمهوري⁽⁴⁹⁾. ويلمح هكذا، على عكس الكثير من الشروح، إلى أنه ليس هناك من تناقض أساسي بين الكتابين، وأن علينا أن نبحث عن حقيقة ما يقوله الأمير عن هذا الموضوع في الأحاديث. ومن جهة أخرى، يستطیع القارئ أن يطبق، بشكل مشروع، ضمن كتاب الأمير نفسه، ما يقال، في مكان آخر، حول العلاقة التي تربط الأمير بمستشاريه، على العلاقات بين السلطة والشعب، يقول مكيافيلي: ليس على الأمير أن يقرر وفقاً للآخرين كي لا يُحتقر، ولا أن يحكم في العزلة كي لا يفقد بذلك سلطته⁽⁵⁰⁾. ويجب اعتماد السلوك الأفضل بين هاتين الصعوبتين: «هناك طريقة في فرض الذات من خلال استبعاد الآخرين؛ أي تحوّل الآخرين إلى عبيد له. وهناك علاقة استشارة وتبادل مع الآخرين ليست الموت بل فعل الأنا نفسه»⁽⁵¹⁾. يفتح "نشاؤم" مكيافيلي، إذًا، إمكانية عمل مشترك يحتفظ بالمسافة نفسها بين الذوبان والإكراه، بدل أن يقود إلى إدانة كل تجربة بين الأفراد.

حول خبث الشعب

يبدو من المفارقة القول إن فكر مكيافيلي يجذب، في جوهره، سياسة قائمة على الشعب. فكيف باستطاعتنا، في الواقع، التأكيد على أن السكرتير الفلورنساوي قد بيّن أن سياسة ظالمة يمكن أن ترضي الشعب، حينما نذكر الإثباتات الشهيرة التي تعرّف المكيافيليّة وترى أن الشعب سيئ؟ تتطلب فكرة خبث شعبي متأصل، مع ذلك، أن نتمكن من العثور على تعريف دقيق حول طبيعة الشعب، في مؤلفات مكيافيلي. غير أن شرح ميرلو - بونتي يبين، بشكل ضمني، أن الأمير والأحاديث لا يمنحان الشعب هوية محددة. وإذا كان الشعب قد عُرّف، بشكل واضح ولا عودة فيه، بأنه سيئ، فهذا يعني أن على العنف أن يبقى الأفق النهائي للحياة

الاجتماعية، وبشكل أكبر في العلاقات السياسية. ما من شك في أنه يمكن لقراءة سطحية لمكيافيلي أن تدفع إلى الاعتقاد بأنه من غير الممكن أن نجد «أرضاً بلا خصومة»، بين السلطة والرعايا⁽⁵²⁾. بين ميرلو - بونتي مع ذلك، أن مؤلف الأمير قد أشار إلى طرق ممكنة لتجاوز «وحشية الأصول»، وذلك من خلال التبادل والعمل المشترك. وتواجه بعض التحليلات المكيافيلية، بشكل ظاهر، المسألة التي ترى أن الرعايا سيئون بالضرورة. هذا ما تقوله فقرة من الكتاب العاشر من الأمير، حيث يظهر أنه «حين يحتاج العدو البلد، وحين يرى الرعايا المحاصرون في المدينة مع الأمير، أن أملاكهم قد نُهبت وضاعت، فإنهم يخلصون للأمير من دون تحفظ»⁽⁵³⁾. يذكر ميرلو - بونتي عندئذ هذه العبارة لمكيافيلي والتي تناقض تشاؤمه المزعوم، وبخاصة مسلّمته حول الحبث المتأصل لدى الإنسان: «من لا يعرف أن البشر يعبرون عن ارتباطهم من خلال الخير الذي يقدمونه كما الخير الذي يتلقونه؟»⁽⁵⁴⁾. وإنه لأمر ذو دلالة ألا تذكر مع ذلك، النصوص الشهيرة للأمير، التي ترى أن الرعايا خبيثاء وغير مخلصين، ضمن الشرح الذي قدمه ميرلو - بونتي، تلك النصوص التي تعتبر مفتاحاً للكتاب، في نظر العديد من الشارحين، بخاصة الشاب آرون، كما رأينا. وبالمقابل، إن ما أراد فصل «مذكرة حول مكيافيلي» أن يظهره يتمثل في الطريقة التي يمكن أن تبنى بها العلاقة، "التبادل"، بين السلطة ورعاياها. ولا يدل هذا الأمر فقط على أن الأمير ليس ذاتاً عالة متحررة من كل ارتباط، بل يشير أيضاً إلى أنه لا يمكن أن يعتبر الشعب موضوع معرفة صرفاً. يشير شرح ميرلو - بونتي هنا إلى الممارسة العملية وليس إلى النهج ذي الطبيعة النظرية المحضة، وذلك من خلال رفضه ثنائية ذات المعرفة وموضوعها. وبتعبير آخر، تمثل السياسة، كما التربية، في نظر ميرلو - بونتي، تجربة لا تنفصل فيها الملاحظة عن الفعل. ومن المفيد، من وجهة النظر هذه، العودة إلى الطريقة التي تصف فيها محاضرات السوربون العلاقة بين المربي والطفل، لنذكر أنموذج العلاقة التي تربط الأمير بالشعب. وحتى لو أن التربية تمثل مجالاً خاصاً، فإنها تشترك مع السياسة في أنها تصبح عصية على الفهم، إذا فسرناها انطلاقاً من أنموذج ينبثق عن أولية العلاقة الفكرية بين الذات العارفة وموضوعها: «كما أنه

ليس هناك من طبيب ممارس صرف، فمن المستحيل على المربي الفصل بين الملاحظة والفعل. وحين نكون بصدد كائنات حيّة، وبصدد كائنات بشرية، بالأحرى، ليس هناك من ملاحظة صرف: فكل ملاحظة تدخّل، ولا نستطيع التجريب أو الملاحظة من دون تغيير شيء في الموضوع، وكل نظرية ممارسة، في الوقت نفسه. وبالمقابل يتطلب كل فعل علاقات فهم. ليست العلاقات بين المربين والأطفال عرضية بل جوهرية بالنسبة إلى الوضع»⁽⁵⁵⁾. وهكذا، نحن نزيّف معنى العلاقة التربوية إذا اختزلناها في أنموذج تقني يفترض وجود طبيعة ثابتة تماماً، من الآن فصاعداً، لدى الطفل، يستطيع المربي التصرف بها من الخارج ليعدها في ما بعد. وفي ما يتعلق بالمجال الخاص بالسياسة، يعني الرابط الثابت بين الملاحظة والفعل أن سلوك الشعب لا يرتبط بطبيعته المفترضة التي يمكن إظهار ملامحها المحددة، بل بنوع من الرابط الذي يمكن أن نقيمه مع هذا الشعب. ولا يمكن للأمير، إذًا، أن يدعي أنه يمنح تعريفاً للشعب، وكان هذا الأخير موجود بشكل مستقل عن فعله. يوضح هذا الأمر إلى أي حد لا تمثل أطروحة خبث الشعب فكر مكيافيلي: فعلى العكس من ذلك، يجري تشويه تعاليم مكيافيلي من خلال التمسك بأطروحة متشائمة وكلبية من هذا النوع.

الأنموذج التقني لدى مكيافيلي

إذا كان تفسير ميرلو - بونتي يشهد تشكل فكرة الممارسة العملية لدى مكيافيلي، فعلينا أن نلاحظ أن هذا التفسير لا يقتصر على هذه القراءة. وعلى عكس ما يقوله لوفور، فإن فصل «مذكرة حول مكيافيلي» يشير إلى بعض التناقضات الخاصة في العلاقة التي تقوم بين الشعب والسلطة في مؤلفات الفلورنساوي، فتُعرف العلاقة بين الشعب والأمير على أنها فعل مشترك، من جهة، أي «تبادل» «ينمو معه الفرد من خلال الهبات التي يقدمها إلى السلطة». وكما سنرى ذلك، إن واقعة أن الشعب يجب أو يكره، "بشكل عشوائي"، صورة الأمير، لا تعني، مع ذلك، أنه مخدوع: «فحين يتحدث إلى آل دي ميديتشي (Les Médicis)، فإنه يبرهن لهم أن السلطة بحاجة للحرية. وربما أصبح الأمير مخدوعاً

من خلال هذا التحول»⁽⁵⁶⁾. ونكشف، بهذا المعنى، نوعاً من الانحياز "الديمقراطي" لدى مكيافيلي. ومع ذلك يقوم ميرلو - بونتي بتعديل تحليله، إذ يلوم، في الواقع، وتحت تأثير رونوديه⁽⁵⁷⁾، الفلورنساوي لأنه لم يبحث، بما يكفي من الجدية، عن تعريف عادل للسلطة. ويُفسر هذا الامتناع، بشكل نهائي، من خلال المفهوم الدوري للتاريخ الذي يرى أنه ليس بإمكان البشر التصرف إلا بشكل ثابت، وكذلك من خلال التقسيم الضمني للإنسانية إلى مجموعتين متميزتين: «هناك دوماً نوعان من البشر، أولئك الذين يعيشون وأولئك الذين يصنعون التاريخ»⁽⁵⁸⁾. يدعم ميرلو - بونتي هذه الأطروحة في رسالته الشهيرة إلى فرانسيسكو فتوري (F. Vettori)، ويشير إلى أن مكيافيلي يميز بين «الطحان والفران والفندقي» الذين كان يمضي معهم يومه في المنفى من جهة، و«الرجال العظام الذين كان يقرأ تاريخهم مساءً، وهو في لباس البلاط ويسألهم ويحييونه دوماً»⁽⁵⁹⁾. نحن هنا أمام شرح ذي دلالة في ما يتعلق بالتوجهات العميقة للفكر المكيافيلي، فهو يظهر أن مؤلف الأمير يدرك أن «البشر البسطاء» بعيدون عنه، رغم أنه لم يرغب يوماً في الانفصال عنهم.

وعموماً، وعلى الرغم من أن مكيافيلي قد أسس فكرة خصبة عن السياسة باعتبارها عملاً مشتركاً، فهو لا يتعد، في النهاية، عن مفهوم بطولي يرى أن للبعض ميزة صنع التاريخ، فيما بعضهم الآخر محكوم عليه بتحمل هذا التاريخ: «يميل مكيافيلي، من خلال رؤيته للكثير من العشوائية من جهة ولفن قيادي طبيعي جداً من جهة أخرى، إلى التفكير بأن لا وجود للإنسانية بل لرجال تاريخيين ومتلقين، كما يميل إلى الوقوف إلى جانب الصنف الأول من البشر»⁽⁶⁰⁾. وبذلك يتطابق الخطاب المكيافيلي مع خطاب السلطة، انطلاقاً من برجه العاجي. وهكذا نجد في الفكر المكيافيلي - كما أشار ماريتان إلى ذلك - فصلاً جذرياً للبشرية، بين الجماهير التي يدفعها الخضوع الخادع إلى السلبية من جهة، وكبار الشخصيات التاريخية التي تفرض إرادتها الواعية على هذه المادة البشرية من جهة أخرى. لا نعود، عندئذ، ضمن السياسة بمعنى التفاعل الأصيل الذي يربط الأمير برعاياه في مغامرة مشتركة، بل ضمن المعرفة الموضوعية حول السياسة. وتحل المعرفة المفترضة

لسلوك السلطة وتظهرها الواضح، محل التبادل بين السلطة والشعب. وبتعبير آخر، محل أنموذج تقني، في النهاية، محل حس الممارسة العملية، الأساس في كل مشروع تربوي أو سياسي. وربما ارتكب المنظر، مكيافيلي، الخطأ الذي أدانه كتاب فينومينولوجيا الإدراك والمرتبطة بعلاقتنا بالعالم الاجتماعي - ذلك الخطأ الذي يتمثل في معالجة الشأن الاجتماعي؛ باعتباره موضوعاً فكرياً، سواء أكان ذلك حين نتموضع فيه كما بين بقية الأشياء، أم عندما نعالج «المجتمع فينا باعتباره موضوعاً للفكر»⁽⁶¹⁾. وعلينا أن نفكر في مواجهة هذه الفرضية التجريبية المادية والموقف المثالي، وبكلمات أخرى، في مواجهة المفهوم الموضوعي والذاتاني، بأن الشأن الاجتماعي موجود، مثل كل معرفة واضحة وحكم صريح، على شكل "استشارة"، كما أثبت ذلك الحركة العفوية التي وحدثت، مع بداية ثورة 1917، مجموعات اجتماعية أدركت أن مصيرها واحد، على الرغم من الفروق بينها. ويقارن ميرلو - بونتي بين الصيرورة العفوية للتاريخ، والمفهوم المزيف «للرجل العظيم» الذي يدينه حتى لدى مكيافيلي نفسه: «يعيش المرء الطبقة بشكل محسوس قبل أن تصبح إرادة مقصودة. ليس الشأن الاجتماعي، في الأصل، موضوعاً غائباً. يخطئ الفضولي والرجل العظيم والمؤرخ في سعيهم لمعالجته باعتباره موضوعاً»⁽⁶²⁾. كل شيء يدفعنا، في هذا المجال، إلى القول إن مكيافيلي قد وقع في هذا الخطأ من خلال مفهومه الدوري للتاريخ وتشاؤمه، كما يشهد بذلك نأيه عن «البشر البسطاء». من هنا يأتي تصرفه «المغامر» في دعمه لآل دي ميديتشي الذي يكشف غياب «المسار الثابت» الذي يسمح بالكشف عن سلطة من بين السلطات، «يمكن أن نأمل منها بشيء ذي قيمة»⁽⁶³⁾. وهكذا يوحي ميرلو - بونتي بأن النزعات "الديمقراطية" لدى مكيافيلي قد أعيد اكتشافها، بالرغم من واقعيتها، من خلال انتهازيته، وتلك نتيجة مباشرة لمفهومه الموضوعاني للشأن الاجتماعي، في النهاية، وليس نتيجة لخطأ موضعي أو عرضي.

انبعاث النزاع وسياسة الحقيقة

إعادة التفكير بشروط توافق حقيقي

هل يختزل الخيار الشعبي المساهمة الأساسية لمكيافلي؟ يرى ميرلو - بونتي أننا إذا استبعدنا التحفظات التي تم عرضها، فإن جوهر تعاليم مكيافلي يبقى بعيداً عن هذا الخيار بكل تأكيد: وذلك لأن الفضل الأكبر للنزعة الإنسانية المكيافليّة يتبدى في إدخالنا «إلى عالم السياسة الخاص، مما يتيح لنا تقدير المهمة، إذا أردنا أن نمنح هذا العالم شيئاً من الحقيقة». لذلك؛ إن مساهمة مكيافلي في بناء سياسة الحقيقة تستحق الدراسة؛ تلك المساهمة التي لا تنفصل عن الاعتراف بالنزاع والتقسيمات الاجتماعية: «لم يرغب مكيافلي بالقول إن التوافق مستحيل من خلال وضع النزاع والصراع في أصل السلطة الاجتماعية، بل سعى إلى الإشارة، من دون خداع، إلى شرط بناء سلطة على المساهمة في موقف مشترك»⁽⁶⁴⁾. وهكذا يقوم تفسير ميرلو - بونتي على سير الأطروحة، المبررة في مكان آخر، في المجال السياسي، والتي ترى أن الرعايا دوماً منحازون، وليسوا في حالة وعي متحرر من كل تبعية ووجهة نظر. ويشير ميرلو - بونتي نفسه إلى النتائج السياسية المباشرة التي ترتبط بوضع «الليبرالية» بخاصة، والتي يمكن أن تقود إليها التوصيفات المتعلقة بالجدسد باعتباره سبيل العلاقة بالعالم: «فإذا لم يكن الإنسان ذاتاً مفكرة، بل تابعة، فلا يمكن لعلاقتنا مع الآخرين أن تكون علاقات فكر بحت بفكر بحت عموماً؛ إنما تقوم على الفروق في الموقف: وتبدو السياسة الليبرالية الكلاسيكية مجردة»⁽⁶⁵⁾. ويبين ميرلو - بونتي أن هناك «ليبرالية مجردة أو جامدة تتمثل في الاعتقاد أن البشر متشابهون»، مستنداً في ذلك إلى الأطروحة التي تنسب إلى "الليبرالية" عدم القدرة على اعتماد «سياسة فروق» حقيقية⁽⁶⁶⁾. وهكذا تصف دراسات نفسية بعض الشخصيات «الليبرالية» التي لا تحمل أفكاراً مسبقة وتعترف أن البشر جميعاً متساوون، إلا أن هذه الشخصيات تبقى "جامدة" وذلك لأنها ترفض أن ترى بين هؤلاء البشر أنفسهم، فروق الوضع الأكثر وضوحاً، وتحدد هويتهم على هذا الأساس⁽⁶⁷⁾. وتتعارض هذه الليبرالية مع ما أسماه جان بول سارتر بـ «الليبرالية المحسوسة»⁽⁶⁸⁾.

يقوم درس مكيافيلي، بوضوح، على بيان أن «التاريخ صراع، وأن السياسة ترتبط بالناس أكثر من ارتباطها بالمبادئ»⁽⁶⁹⁾. ولقد أثبتت الأحداث التاريخية، في الواقع، تماماً، الفكرة المكيافيلية التي ترى أنه يمكن للمبادئ أن تستخدم، في ذاتها، من قبل السلطات للغايات كافة. ويثير ميرلو - بونتي، بالاستناد إلى هذه الأطروحة، المسألة الاستعمارية، ويشرح مثال جيش بونابارت في مواجهة عبيد سان- دومينغو: يخالف بلد الثورة، بذلك، مبادئها الأساسية، فيما ينادي بها علانية. وتظهر هنا، عموماً، المفارقة التي تقوم عليها السياسة الليبرالية الكلاسيكية: يتقن الليبراليون فن الإمساك بالمبادئ على حافة هاوية النتائج غير المناسبة. وهناك أكثر من ذلك، إذ تصبح المبادئ أداة اضطهاد حين تطبق في الموقف المناسب. ويمكننا، في مواجهة هذا الكذب، حيث نعرف على فعل الإيديولوجيا، أن نكشف لدى مكيافيلي تحريضاً على «كسر الدائرة» التي تخفي العنف. وعلينا، بعد الآن، في الواقع، تعريف السياسة، بشكل خاص، من خلال الأشخاص الذين يحملونها، وليس من خلال المبادئ المعلنة: لقد كان مكيافيلي على حق: «علينا أن نملك قيماً، إلا أن هذا لا يكفي، بل إن من الخطأ الاقتصار على ذلك، وسيذهب جهدنا سدى إذا لم نختبر أولئك الذين يقومون بمهمة حمل هذه القيم في الصراع التاريخي»⁽⁷⁰⁾. وإذا كان مكيافيلي نفسه لم يذهب إلى نهاية هذا المنهج النقدي، بسبب ضياعه، أخيراً، في سياسة مغامرة، فإن الفضل يعود إليه، أقله، في الإرشاد إلى طريق فكر سياسي شغوف بكشف الاحتيال الإيديولوجي. لا ينفصل الخيار الشعبي للفلورنساوي، بالرغم من قصوره، عن سياسة الحقيقة التي تعترف بالتقسيم الاجتماعي، بدل السعي لإخفائه بمبادئ تثير الشفقة، في مختلف الحالات. وتسمح هذه السياسة فقط، بالوصول إلى توافق حقيقي، وليس إلى اتفاق مزيف على إنكار النزاع. ويمكننا بهذا المعنى، أن نعتبر أن الذين يتكسرون لمكيافيلي، يتصرفون بطريقة مكيافيلية حكماً، فهم صنّاع «المكر الحالم» المتمثل في تحويل أنظار البشر نحو سماء المبادئ.

وهذا يعني أن على علاقة الحقيقة التي تقوم بين السلطة ورعاياها، أن تتجنب، قبل كل شيء، النفاق وتزييف المشاركة، حين تتم هذه المشاركة، على حساب

الاعتراف بالفروق. ويبين الفصل المكرّس لـ «الآخرون: العالم البشري» من كتاب *فيتومينولوجيا الإدراك*، بخاصة، أن هناك لحظة وحدة ذات، معاشة وحتمية في العلاقة مع الآخر: «إني أعقد حلفاً مع الآخرين، وأنا مصمّم على العيش في عالم تواصليّ، خُصص فيه للآخرين مكان بحجم مكاني. غير أن هذا العالم التواصليّ مشروعِي الخاص، ومن النفاق الاعتقاد أنني أريد مصلحة الآخرين كما أريد مصلحتي، وذلك لأن الارتباط بمصلحة الآخرين يثيق عني أيضاً»⁽⁷¹⁾. ويعتمد ميرلو - بونتي، في أفكاره حول التربية التي عرضها في محاضراته في السوربون، على هذا التحليل الذي يعالج مسألة «النفاق»: فهو يبين، من خلال الروابط بين الطفل والبالغ، مآزق «الموقف التسلطي» الذي يجعل من الطفل «بالغاً صغيراً»، كما يبين أيضاً مآزق التربية المفرطة في الليبرالية التي تعتبر الطفل «أساسياً»⁽⁷²⁾. وليس الوضع في الحالة الثانية أفضل، إذ يتظاهر المربي بالجهل بوضع كل منهما الخاص: «لا يكتسب الطفل المستوى الذي يتيح له التوازن»⁽⁷³⁾. ويشير ميرلو - بونتي، في مواجهة هذا النموذج التربوي، إلى أن حضور البالغ و«بعض النزاعات» - وتوضح هذه الملاحظة «مذكرة حول مكياقيلي» - بإمكانها أن تكون ذات «قيمة تأهيلية»، ما يعني أن احترام الفروق لا يؤدي، بالضرورة، إلى تحويل «شرط الطفولة إلى عقلية طفولية» عصبية تماماً على البالغين. إن تربية مفرطة في «الليبرالية» تنشق، في الغالب، عن عدم قدرة المربي على تحمل مسؤوليته الشخصية في حل نزاعات ماضيه الشخصي، بعيداً عن التعبير عن اهتمام حقيقي بمصلحة الطفل. غير أنه لا يجوز أن يتحمل الطفل النتائج السلبية لصدماتنا النفسية، فليس من واجبه أن «يواسينا في مصائبنا الشخصية»، فهو هنا، وعلى العكس من ذلك، «كي يعيش حياته». يندرج هذا النوع من التربية في صيغة «تقوم من خلالها النساء بتربية أطفالهن بطريقة سلسة، لأنهن قد تربين بطريقة قاسية»، كي «يشعر الأطفال الذين تربوا بطريقة ليبرالية، بدورهم، أنهم بحاجة إلى النظام، كما يظهر ذلك في أفكارهم السياسية»⁽⁷⁴⁾.

يوضح التذكير بهذه التحليلات، وتلك المتعلقة بالتربية⁽⁷⁵⁾ بخاصة، تفسير ميرلو - بونتي لمكياقيلي. وذلك لأن ميرلو - بونتي يتخذ موقفاً مماثلاً لمكياقيلي

على المستوى السياسي، بالرغم من الفروق في مجالات التجربة، وذلك من خلال التوضيح بأن علاقة السلطة الحقيقية مع رعاياها تمر أيضاً عبر الاعتراف بالفرق بينهما، وإلا فتخضع هذه العلاقة إلى التذبذبات نفسها التي نراها في المجال التربوي. ويعرّف فصل «مذكرة حول مكيافيلي»، في الواقع، *الفضيلة السياسية* بالطريقة نفسها التي تعرّفها بها التربية المصمّمة بطريقة مناسبة، أي باعتبارها فعلاً يتطلب «قوة إرادة حقيقية»، وذلك لأننا بصدد تصور فعل سياسي يمكن أن ينضوي تحته الجميع، ويقع بين الرغبة في نيل الإعجاب والتحدي، وبين الطيبة المائلة لنفسها والخشونة⁽⁷⁶⁾. وينادي مكيافيلي، السياسي الصلب، من خلال ذلك، بفضيلة عصية «على التقلبات التي يخضع لها الشأن السياسي ذو النزعة الأخلاقية»، وذلك لأنها «تضعنا، في الواقع، ضمن علاقة مع الآخرين يجهلها الشأن السياسي عموماً». ومن المفارقة أنه إذا كان الشأن السياسي الأخلاقي، يجهل، في الواقع، الآخرين، فذلك لأنه لا يهتم، في الحقيقة - على طريقة الأهل المفرطين في "الليبرالية" نفسها - إلا بالانسجام مع ذاته، بالرغم من ادعائه الاهتمام بالآخر مثل كل شيء. وعلى العكس من ذلك، تتميز السياسة المكيافيلية برفضها حجب النزاع والانقسام، مما يجعل العمل المشترك ممكناً في النتيجة: «تحتاز السلطة، من خلال علاقتها بالآخرين، الحواجز بين الإنسان والإنسان، وتمنح هذه العلاقة شيئاً من الشفافية؛ وكأن البشر لا يستطيعون، أن يتقاربوا إلا ضمن نوع من التباعد»⁽⁷⁷⁾. ونحتمي مسافة ما، في الواقع، العلاقة من مآزق المشاركة المزيفة الناتجة من الاقتراب الشديد جداً. وهكذا، تتمثل مساهمة مكيافيلي في الطريقة التي اعترف بها بالنزاع، وبدأ برسم إمكانية تجاوزه من خلال عمل مشترك. وعلينا، وبشكل أدق، أن ندرك أن هاتين اللحظتين متلازمتان: **فلأن** ثمة اعترافاً بالنزاع يصبح في الإمكان تحقيق المغامرة الجماعية والاتفاق الجماعي.

النزاع باعتباره تجربة إنسانية

علينا أن نعتبر أن النزاع لا يشير مطلقاً، لدى مكيافيلي إلى حالة طبيعية يمكن أن يضع قيام السلطة السياسية حداً لها، وذلك من أجل تبرير الأطروحة التي ترى

أن مساهمة ميكافلي، تتمثل في اعترافه بالتقسيم الاجتماعي والسياسي. وإذا كان ميكافلي مؤمناً بأولية النزاع واعتقد بإمكانية تجاوزه، فإنه يعتبر، مع ذلك، أنه لا يمكن لهذا التجاوز إلا أن يكون جزئياً. ويدرك مؤلف *الأمير*، في الواقع، إمكانية التجاوز الجزئي للنزاع «لأنه لا يجد في الصراع نفسه شيئاً غير الخصومة»⁽⁷⁸⁾. أما أن يحمل النزاع الأمل في تجاوزه، فيعني أن تبرز منه، إذاً، ملامح قدوم عالم مشترك *بالفعل*. ويصرّ كلام ميكافلي في مجمله على التوضيح بأنه «فيما يندل البشر الجهد كي يتعدوا عن الخوف، فإنهم يشرعون بالخوف من الآخرين، ومن العدوان الذي يردونه عن أنفسهم، كما ينسبون هذا العدوان للآخرين، وكأن من الضروري أن نُهين أو نُهان». ولنشر إلى أية درجة يبعثنا هذا التوصيف عن مبادئ فلسفية ثنائية مثل فلسفة سارتر، ترسم بالأحرى بيئة يرتد فيها العنف على من أنتجه. إن التمييز الجامد الذي قامت به الفينومينولوجيا السارتيرية بين «من أجل الذات» و«من أجل الآخرين»، وبين السلبية والفعالية، لا يمكنه أن يفسّر، في الواقع، ظهور جماعة بشرية ضمن النزاع نفسه. وما من شك في أن هذا التمييز مفيد على مستوى *اللحظة فقط*⁽⁷⁹⁾. يقول درس ميكافلي، في الواقع، إن هناك «حلقة مغلقة للأنا والآخرين، ومشاركة سوداء للقديسين، إن الشر الذي أرتكبه، يرتدّ عليّ، وأقاتل نفسي حين أقاتل الآخرين»⁽⁸⁰⁾. يوحى هذا التوصيف بأن المفكر السياسي الأكثر صفاء، نفسه، لا يرى في الطابع النزاعي للعلاقات البشرية خصوصية.

وهكذا، لا تسمح القراءة الأولى *للأمير* بالتوقف عند هذه الملاحظة الأولى التي ترى أن «الحياة الجماعية جحيم»؛ هذه العبارة ذات الأصداء السارتيرية القوية، والتي لا يمكن أن نشبهها بعبارة مسرحية *الجلسة مغلقة*: «الآخرون هم الجحيم»⁽⁸¹⁾. كل شيء يحدث في الواقع، وكأن تفسير ميرلو - پونتي يميل إلى تقديم إجابة عن فرضيات كتاب *الوجود والعدم* المتعلقة بأولية النزاع في العلاقات مع الآخرين⁽⁸²⁾. يعترض ميرلو - پونتي في مقالته حول «وجودية هيغل» بالقول إن التناقضات بين «من أجل الذات» و«من أجل الآخرين» تبقى «من دون حل» لدى سارتر، لدرجة يصبح معها الجدل مبتوراً. وعلى العكس من ذلك، تقوم

عظمة فكر هيغل على تجاوزه لتشاؤمه الأولي: «تتمثل حقيقة الموت والصراع في عملية إنضاج طويلة، يتجاوز التاريخ من خلالها تناقضاته كي يحقق، من خلال الرابط الحي مع البشر، الوعد ببشرية تبث في وعي الموت والصراع مع الآخر»⁽⁸³⁾. وبكلام آخر، يبدو الصراع تعايشاً، بدل أن يقتصر على عنف يمارس أو يتلقى، محولاً الآخرين إلى شيء. وهكذا، إن ما انطوى عليه فكر هيغل. واستندت إليه الفينومينولوجيا الميرلو - بونتييه من أجل رفض سارتر، قد أعيد اكتشافه لاحقاً تحت صيغة جديدة لدى مكيافيلي. لا يتمسك مؤلف الأمير، في الواقع، بملاحظته المتشائمة الأولى كما يفعل هيغل، كما لا يرى في العنف الجماعي حجيماً: «لكنه كان أصيلاً حين أثار مبدأ الصراع ليتجاوزه من دون أن ينساه أبداً»⁽⁸⁴⁾. يؤكد تحليل النزاع لدى مكيافيلي، بهذه الطريقة، رأي ميرلو - بونتييه في هيغل «وجدلية السيد والعبد»، التي ترى «أن الوعي بالنزاع غير ممكن إلا من خلال الوعي بعلاقة تبادلية وبإنسانية مشتركة»⁽⁸⁵⁾. وعلىنا، كما يبين ذلك بوضوح كتاب فينومينولوجيا الإدراك، أن نجد، بعيداً عن النزاع، لحظة انتفاء الفصل بين الأنا والآخرين: «يبدأ صراع الوعي مع أنا أفكر (Cogito)، الذي يتابع كل منه موت الآخر كما يقول هيغل. وكي يبدأ الصراع، وكي يستطيع كل وعي الشك بالوجود الغريب الذي ينكره، عليهما أن يجدا أرضاً مشتركة وأن يتذكرا تعايشهما السلبي في عالم الطفل»⁽⁸⁶⁾. غير أنه يبدو أن ثنائية سارتر تقلل من قيمة هذا البعد حين تحتل العلاقة مع الآخرين في نزاع لا يمكن حله حيث يقوم كل شخص بتحويل الآخر إلى شيء⁽⁸⁷⁾. إلا أن هذا التوصيف يفتقد إلى ما هو جوهري، كما تبين ذلك نظرية سارتر حول «النظرة» (Le regard) التي تبدو غير قادرة على تفسير لم «لا تزعجني نظرة كلب إليّ مطلقاً». وبذلك تفتقد الوجودية السارترية لهذه الحقيقة الأساسية التي ترى أن «الذاتانية المتسامية ذاتانية ظاهرة، تعرف ذاتها والآخرين، وهي بذلك، ذاتانية تفاعلية»⁽⁸⁸⁾.

يجب ألا نقودنا إذا الصيغة التي ترى «أن الحياة الجماعية جحيم» إلى الخطأ. فهي لا تعبر سوى عن حقيقة جزئية، لأن الصراع لا يقتصر على ممارسة للسيطرة، فهي دوماً وبالفعل علاقة لا يظهر فيها الآخر مثل شيء خارجي، بل مثل أنا آخر.

وبكلام آخر، النزاع نزاع إنساني. وإذا فهمنا القسوة على أنها محاولة تحويل الآخرين إلى شيء فقط - وفقاً للتحليل الذي يقدمه الوجود والعدم⁽⁸⁹⁾ - فإننا نقف بذلك عند علاقة عنف لا تسمح بتفسير إنسانية الآخر: «حين تعترف الضحية بالهزيمة يشعر الإنسان القاسي بحياة أخرى تنبض عبر هذه الكلمات. إذ يجد نفسه أمام نفسه الأخرى. نحن هنا بعيدون عن موازين القوى الصرفة التي توجد بين الأشياء. وكما يقول مكيافيلي، لقد انتقلنا من "الحيوانات" إلى "الإنسان"»⁽⁹⁰⁾. وتوضح محاضرات السوربون، في الواقع، أن القسوة تفترض «تعاطفاً مع الآخر الذي يعتبر أنا آخر»⁽⁹¹⁾.

تبين المقارنة بين «مذكرة حول مكيافيلي» والأفكار المكرسة لهيغل، أن ميرلو - بونتي يشير هنا، بوضوح، إلى مسار الرفع (*Aufhebung*) الذي يجري من خلاله السمو بمبدأ الصراع بشكل جزئي. علينا الحديث، بشكل أدق عن «تجاوز نسبي» وفقاً لتعبير ميرلو - بونتي، بخصوص نظريات التحليل النفسي المتعلقة بنمو الإنسان البالغ، وهو تعبير ينسجم هنا، بشكل كامل، مع تفسيره للفكر المكيافيلي. يشير ميرلو - بونتي، في الواقع، إلى أنه ليس من تجاوز كامل أبداً، عبر فرضية سيقوم بسرهما، حتى في كتابه *الرئي واللا مرئي*: «علينا ألا نعتقد أبداً أن الحاضر يلغي الماضي» كما علينا أن نردد فكرة موازية لفكرة هيغل حول التجاوز: *حافظ وأنت تحول*⁽⁹²⁾. يعني هذا المفهوم أنه لا يوجد تجاوز نهائي للصراع - وهذا ما أدركه مكيافيلي بشكل جيد، في المجال السياسي بتجاوزه لمبدأ الصراع من دون أن ينساه.

سياسة الملاء وسياسة التخيل

قد نميل إلى التفكير، في هذه المرحلة، بأن شرح ميرلو - بونتي لمكيافيلي يقترب من الشرح الذي قدمه بورنهام في كتابه *المكيافيليون*. من المؤكد أن هذه المقارنة تبدو خاطئة، وذلك لأن بورنهام لا يقترح أبداً قراءة مفيومينولوجية لمكيافيلي. لذلك لا يتشارك ميرلو - بونتي مع بورنهام، بشكل كامل، في قناعته بأن مؤلف *الأمير* رائد المفهوم العلمي للسياسة. ويقتضي أن القراءتين تبدوان متوافقتين في جانب منهما، وأكثر وضوحاً، من خلال نتائجهما، أقله، كما يبين

ذلك إلحاحهما معاً على موضوع مركزي لدى مكيافيلي، ألا وهو النزاع والتقسيم الاجتماعي: فالاعتراف الصريح بالفروق يتيح، وحده، عملاً سياسياً يحترم متطلبات الحقيقة. ومع ذلك، يبقى التوافق هنا جزئياً، وهذا ما سنقتنع به من خلال النظر في موضوع آخر مركزي في قراءة ميرلو - بونتي، وهو موضوع يغيب، بالمقابل لدى بورنهام، ضمن هذه الصيغة. وإن من الصعب كشف هذا الموضوع الذي لم يقم الشارحون بسبره بشكل حقيقي، لارتباطه بالمخيال السياسي. غير أنه، وبسبب عدم إدراك أهميته، لن نفهم تماماً دلالة «مذكرة حول مكيافيلي»، لأن مسألة «المخيال» لا يمكن أن تفصل هنا عن مسألة النزاع السياسي والاجتماعي، كما سنرى ذلك.

الملا، حيز السياسة

يفترض الدرس المكيافيلي، في توصيفه الفينومينولوجي الذي قدمه ميرلو - بونتي، أن يكون الشرط الأساسي للسياسة حدوثها في العلن: «فكما تحول المرايا، المنتظمة في حلقة، لهباً بسيطاً، إلى مشهد ساحر، فإن أفعال السلطة، التي تنعكس في كوكبة الضمائر، تتحول لتبدع انعكاسات انعكاساتها مظهراً يمثل الحيز الخاص للفعل التاريخي وحقيقته بشكل عام. ترسم السلطة حولها هالة، أما لعنتها - كما لعنة الشعب الذي لا يعرف نفسه أيضاً - فتأتي من عدم إدراك صورتها التي تقدمها للآخرين»⁽⁹³⁾. وهكذا، فقد طور مكيافيلي فينومينولوجيا حقيقة الشأن السياسي مسبقاً، من خلال وضع مسألة العلن في مركز توصيفاته. وذلك لأن مؤلف الأمير يعتبر العلن في ثباته الخاص ليجعل منه الحيز الخاص للعمل التاريخي ولحقيقته، بدل أن يعتبر هذا العلن وهماً ساذجاً. لا يجري إذاً التقليل من أهمية العلن السياسي لمصلحة حقيقة أكثر عمقاً لا تمثل سوى بداية مؤقتة، يمكن لعلم كامل أن يشرحها بشكل كامل. إن المطلوب في متابعة فينومينولوجيا الإدراك هو توصيف العالم المعاش من أجل ذاته، من دون أن نعتبره أقل واقعية من التمثيل العلمي للعالم. ويجهد فصل «المذكرة حول مكيافيلي»، في الواقع، في استعادة تجربة

السياسة كما تحدث في حالتها ما قبل الموضوعية، قبل التفكير والحكم. إن ما هو معروف هكذا، هو أن مكيافيلي قد وصف الحيز العام باعتباره حيزاً للعلن، وذلك بدل التقليل من قيمته وتقييمه على أساس حقيقة نعتبرها أكثر عمقاً وضرورة، مخالفاً بذلك التقاليد التأويلية العريقة، وبعيداً عن تأسيس مفهوم علمي للسياسة.

تظهر فينومينولوجيا السياسة هذه استحالة فصل مبادرات السلطة عن الانعكاسات التي يمكن أن تنيرها. إننا هنا أمام موقف فيه مفارقة، لأن على السلطة أن تتبنى بشكل كامل هذه الحقيقة التي تتبدى في العلقن من خلال «آلية المرايا» والتي لا يمكن، مع ذلك لهذه السلطة السيطرة عليها إلا بشكل جزئي. ويظهر معنى هذه التحليلات حول التوصيف المكيافيلي للعمل حين نرى كيف تنقل، إلى حقل جديد، المواقف المعروضة في فينومينولوجيا الإدراك والتي تبين أنه ليس علينا أن نفهم الذات «في ذاتها» متحررة من كل ارتباط لتبقى بعيدة عن أي تعريف، بل باعتبارها حاملة «هالة العمومية» في ذاتها⁽⁹⁴⁾. كل إنسان محكوم بالظهور أمام الآخرين، في الواقع: إنه يحمل صورة لا تشبهه، إلا أنه مضطر مع ذلك لتحملها. ويبقى من الواجب الانتباه إلى واقعة أن مثل هذا التوصيف الفينومينولوجي لا يعني التأكيد على أن وجود الآخرين يحدد ما يسميه سارتر «من أجل الذات»، من خلال تقديم تعريف مفاجئ له. وبنه ميرلو - بونتي بأن من الخطأ الاعتقاد بأنني وعي صرف، وبأن نعوتاً مثل - برجوازي أو عامل - لا تخصني إلا إذا وضعت نفسي بين الآخرين، باعتباري خارجاً عنهم. يقوم هذا النوع من التفكير، السارترى الصبغة، على فرضية مزيفة تفصل بشكل حاسم بين مقولتي «من أجل الذات» و«من أجل الآخرين». غير أن علينا أن نفهم أن بين من أجل الآخرين هي من قبل امتدادات لـ من أجل الذات، وذلك لأنه، عليّ أن أدرك، حتى في التفكير الأكثر راديكالية، ما يشبه هالة من العمومية أو مناخاً من «الاجتماعية»⁽⁹⁵⁾ يحيط بفرديتي. وبكلمات أخرى، لا نفهم كيف يمكن لكلمات مثل «برجوازي» و«إنسان» أن تحمل لي دلالة: «يجب أن أدرك ذاتي وأنا خارج ذاتي عموماً، وأن ينشر وجودي المتفرد - إذا صح القول - حولي وجوداً نوعياً. ويجب أن تنفصل الـ من أجل الذات - أنا من أجل ذاتي والآخر من أجل ذاته، على خلفية من

أجل الآخر - أنا من أجل الآخر والآخر من أجلي أنا. ويجب أن يكون لحياتي معنى لا أصنعه أنا وأن يكون هناك، أقلّه نوع من التفاعل بين الناس، وأن يكون كل منا مُعقلاً بالمعنى الفردي المطلق ومُعقلاً بالمعنى العام المطلق. إن وجودنا في العالم حامل عينيّ لهذا «الإغفال»⁽⁹⁶⁾. وتقوم أفكار ميرلو - بونتي الملموسة حول المجتمع والتاريخ، على هذه الأطروحة. إن ما يثبت، في الواقع، فجأة خلال تجربة الاحتلال، هو أن «هالة العمومية» تحيط بكل منا. وقد أظهرت النزعة الألمانية المناهضة للسامية حقيقة ظلت مجهولة حتى ذلك التاريخ: في الوقت الذي كنا نعتقد فيه أنه ليس هناك يهود وألمان «بل بشر فقط، أو حتى وعي»، بدا فجأة أن «كلاً منا يظهر للآخرين ضمن التعايش على خلفية تاريخية لم يحترمها، ويتصرف تجاههم بصفته "أرياً" ويهودياً وفرنسياً أو ألمانياً»⁽⁹⁷⁾. ويسعى التفسير الذي قدّمه ميرلو - بونتي عن مكيافيلي، بخاصة، إلى سبر هذه المسألة في المجال السياسي البحث، هذه المرة، وإلى أن يبين - باستعادة مقولات فينومينولوجيا الإدراك - أن سلوك السلطة وفعلها يحملان معنى «لا يشكله» المجال السياسي؛ وعليه، يكتشف الأمير، نفسه، "خارجاً عن ذاته"، وملزماً بالقيام بدور لا يستطيع أن يكون هو سيده، بنحو تام. إن نتائج هذه التفسيرات كبيرة جداً لأنها تمنع التفكير بأن الأمير ذات مطلقة تفرض قراراتها، بشكل تعسفي، على شعب سلبى تحوّل إلى مادة بسيطة لفعله السيادي.

المسؤولية التاريخية: الأمير وعالمه العام

يقوم تفكير ميرلو - بونتي، بأكمله، حول المسؤولية التاريخية وكذلك حول الأمير المكيافيلي، بخاصة، على توصيف تجربة الذات باعتبارها خارج نفسها. من المهم، كي نقتنع بهذه الفكرة، أن نتفحص كيف دُرست هذه الفرضية في ما يتعلق بعلم نفس الطفل. يظهر، في الواقع، من خلال هذه التحليلات، تساؤل حول مفهوم المسؤولية نجده في فصل «مذكرة حول مكيافيلي». وعلينا أن نذكر أن محاضرات السوربون حول علم نفس الطفل تبين أن «نظرة الآخرين توقظ لدى الطفل الوعي بأنه ليس فقط ما يبدو لذاته، إذ يضاف إلى هذا الأمر وعيه بذاته من خلال نظرة

الآخرين»⁽⁹⁸⁾. إن ما نستخلصه من دراسة علماء النفس والمحللين النفسيين - بخاصة فالون (Wallon) ولاكان (Lacan) - لصورة المرأة و«مرحلة المرأة» هو أن الطفل ليس أنا مدركة فقط، بل هو ما نلاحظه أيضاً. وهكذا يتم التجاوز - الناقص دوماً - للعلاقات التلقينية مع الآخرين. وعلينا أن نستخلص، وبشكل متصل، أن هذا التجاوز يشير قلقاً جديداً لدى الطفل: «إن نظرة الآخرين تسحقنا في نقطة من الحيز، فيما نظن أننا غير محدودين مكانياً. لذلك، يدرك الطفل هذا النوع من الصنوع، ويرى أن للأشياء مظهراً آخر. فحين تبرز الأنا (Ego) بالفعل، فإنها تترافق بأنا أخرى في نظر الآخرين»⁽⁹⁹⁾. وعلينا أن نشير إلى أن تجربة الطفل ليست تجربة حرجل بالمعنى السارترى للكلمة: إنها ليست تحويل الأنا إلى شيء، من خلال نظرة الآخرين التي تجمد هذه الأنا، بل هي مضاعفة للأنا ضمن الأنا ذاتها التي يشعر بها الطفل. تمثل هذه المضاعفة، بالضبط، صك الولادة الحقيقي للأنا. وبالتزامن مع هذا الأمر، ترسم، بطريقة ضمنية، في هذا التوصيف، شروط تجربة المسؤولية.

في الواقع، يقوم توصيف ميرلو - بونتي للمسؤولية، - والمسؤولية السياسية بخاصة - على أفكاره حول تجربة المرأة. وترى الأطروحة الواردة في كتاب *الإنسانية والوعب*، أن «الأطفال وحدهم يتخيّلون أن حياتهم يمكن أن تنفصل عن الآخرين، وأن مسؤوليتهم تقتصر على ما قاموا به هم، وأن هناك حدوداً بين الخير والشر»⁽¹⁰⁰⁾. لقد قدم «الفكر الليبرالي» تعريفاً ضيقاً جداً وغير كافٍ، في النهاية، للمسؤولية، وذلك لأنه لم يوضح، بشكل كافٍ هذه المسائل: ويتمثل خطؤه في اقتصره على تمييزات جامدة بين «الغايات والأفعال» وبين «الظروف والإرادة»، أو بين «موضوعي» و«ذاتي» أيضاً. وعلى العكس، إن «المسؤولية التاريخية»، كما علينا أن نفهمها بشكل مناسب، تسحق الفرد في أعماله، وتمزج الموضوعي بالذاتي، وتنسب الظروف إلى الإرادة، وتستبدل الفرد، كما يشعر بذاته بدور «شبح لا يتعرف على ذاته من خلاله، بل عليه أن يتعرف على ذاته فيه، وذلك لأن هذا هو حاله، في نظر ضحاياه الذين هم على حق اليوم»⁽¹⁰¹⁾. غير أنه إذا كان ميرلو - بونتي يولي، اليوم، الكثير من الأهمية لفكر مكيايلي، فذلك لأن هذا الفكر ينظم فكرة المسؤولية التاريخية هذه بطريقة مثالية.

يجب ألا يُغفل توضيح المواقف السياسية لميرلو - بونتي، من خلال معطيات محاضرات علم نفس الطفل، بعداً خاصاً للسياسة يتمثل في أنها تتحقق بشكل علني. وهكذا نستطيع القول، إذا تجرأنا على المقارنة، إن على كتاب الأمير ألا يكفي فقط، مثل الطفل، بالمرور «بمرحلة المرأة»، بل عليه أن يمر بمرحلة «المرأيا المنتظمة دائرياً» التي تعكس عمله. كما أن على كتاب الأمير أن يعترف بانتسابه إلى هذه المرحلة، حتى في حال عدم السيطرة الكاملة على تأثيرات عمله المنعكس في كوكبة الوعي. إنه في الواقع، درس مكيافيلي العظيم: إن من شروط السياسة أن تجري في العلن لأنها تتبع الشأن العام. لذلك علينا أن نأسف لأننا نفسر مؤلف الأمير من خلال ذكر «بعض حكمه التي تتحدث عن شرف الحياة الخاصة، ونجعل من مصلحة السلطة قاعدة السياسة الوحيدة»⁽¹⁰²⁾. نلّمح، من خلال هذا الحكم، إلى أن السياسة كما يفهمها مكيافيلي بعيدة عن هذا المطلب الأخلاقي؛ وهذا ما نقصده أحياناً في الحديث عن «استقلال السياسة»⁽¹⁰³⁾. يدين الفلورنساوي - في الحقيقة - «الحكم الأخلاقي الصرف» لوحده، باعتباره حكماً ينبثق عن النطاق الخاص لوحده. ما من فصل إذاً بين الأخلاق والسياسة، كما يقال، في الغالب، إذ تستجيب الاثنان إلى المتطلبات نفسها، ولا تحل الثانية محل الأولى، لأنها تتميز بالتفرد بالتحقق في عالم مكشوف: «إن ما يحول اللطافة إلى قسوة أحياناً، والشدة إلى قيمة، ويقلب مبادئ الحياة الخاصة، هو تدخل أفعال السلطة في حالة معينة من الرأي، ما يؤدي إلى تغيير في معناه. وتحدث هذه الأفعال صدى مضخماً أحياناً»⁽¹⁰⁴⁾. وسنضطر إلى ملاحظة أنه في العمل التاريخي، تكون الطيبة كارثية أحياناً والقسوة أقل قسوة من المزاج الطيب»⁽¹⁰⁵⁾، إذا نظرنا مثلاً إلى الطريقة التي يدرس فيها مكيافيلي حالة سيزار بورجيا في الفصل السابع عشر من الأمير⁽¹⁰⁶⁾. يعني هذا الأمر أنه ليس باستطاعتنا فهم السياسة من دون التساؤل بعمق عما دعاه رونوديه «الرأي العام»⁽¹⁰⁷⁾، في شرحه لمكيافيلي.

وهكذا يجد تفسير ميرلو - بونتي لدى مكيافيلي الأساس النظري للمواقف المعروضة بدءاً من كتاب *الترعة الإنسانية والرعب*، والمتعلقة بمسؤولية رجال السياسة، بخاصة في زمن التواطؤ (مع الألمان). وترى الأطروحة التي يدافع عنها

ميرلو - بونتي، في الواقع، أن المتواطئ ليس - إذا كان نزيهاً - أقل ذنباً من الجشيع والمأجور، وذلك بالقدر الذي تزول فيه الفضائل الخاصة، في السياسة، أمام المسؤولية التاريخية. إن من الضروري إذاً أن نحكم على الممثل السياسي، كما يدعونا إلى ذلك مكيافيلي، باعتباره رجل شأن عام وحسب، بدل أن نحاول تبرئته باسم النيات المفترضة: «تلك هي الفكرة التي لا نريد أن نناقشها، ولا نريد أن تكون السياسة شيئاً خطيراً أو جدياً فقط. إن ما ندافع عنه، في النهاية، هو انعدام المسؤولية لدى رجل السياسة، وليس من دون سبب. إن هذا الكاتب الذي كان يرى، في فترة ما قبل الحرب، وحتى ما بعدها بقليل، عدداً أكبر من الوزراء في الأسبوع، مما نراه اليوم في حياتنا، لا يستطيع السماح بالجِد في السياسة، فكيف الحال بالمأساء؟»⁽¹⁰⁸⁾. إن المطلوب هنا تعريف العمل السياسي باعتباره عملاً يجري عن بعد بالضرورة، وهو مكرّس للدعاية والمظاهر، ويخضع بالنتيجة لحكم «الرأي العام». ليس علينا إذاً أن نبحث عن حقيقة الفعل السياسي، في نيات من يعمل وقناعاته، وكأن معرفة هذه القناعات قادرة لوحدها على كشف أسرار هذه القناعات والنيات، بل يجب أن نبحث عنها في النتائج والأصداء التي تثيرها في الرأي. وتؤيد المراحل الأكثر مأساوية في التاريخ، درس مكيافيلي، ضمن هذا السياق، على ما يبدو.

العلاقة بين الرعايا والأمير باعتبارها تجربة عاطفية

من الضروري من أجل تعميق مفهوم المسؤولية السياسية أن نفسر هذا النوع من العلاقة التي يمكن أن تنشأ بين الرعايا والسلطة. يذكر ميرلو - بونتي أن على السلطة التي نعتبرها شرعية، وفقاً لمكيافيلي، أن تكون قادرة على تجنب ظهور شعورين في الرأي العام: الكره والازدراء⁽¹⁰⁹⁾. إن من أهم ميزات الفلورنساوي أنه استطاع، بذلك، توصيف الطريقة التي يرتبط فيها الرعايا بالأمير: «تُبنى العلاقة بين الرعايا والسلطة، كما العلاقة بين الأنا والآخرين بعيداً عن المحاكمة العقلية، وتتجاوز الاحتجاج طالما بقي بعيداً عن الاحتجاج الراديكالي للازدراء»⁽¹¹⁰⁾. إن هذه الصلة السياسية التي تتجاوز التفكير والمحاكمة العقلية تمثل، بشكل عام، الصلة

بين «الأنا والآخرين»، إضافة إلى الصلة بين الأنا والعالم. ندرك كيف تَتمّ فينومينولوجيا ميرلو - بونتي بإثبات أنني لست واعياً خالصاً، بل إنني منحرف، دوماً، في العالم من خلال جسدي المدرك. إن علينا توصيف الظاهرة الأصلية للإدراك، ومحاولة استعادة الحياة ما قبل العلمية للوعي، قبل التمييز الفكري بين الذات والموضوع، وبين الأنا الفكرية والعالم الموضوعي. ويبين هذا التوصيف للعالم المعاش أن الإدراك ليس عملاً عقلياً يمتلك موضوعه بأكمله، وبشكل مؤقت: «أفترض، في تجربة الحقيقة المدركة، أن التوافق القائم، حتى الآن، سيستمر، في سبيل ملاحظة أكثر تفصيلاً؛ إنني أثق بالعالم. ويعني الإدراك أن نوظف دفعة واحدة، مستقبلاً مليئاً بالمتطلبات في حاضر لا يضمّنه، وهو يدلّ، في أسوأ الأحوال، على الإيمان بالعالم»⁽¹¹¹⁾. علينا أن نضيف أن هذا التوصيف الوارد في الفصل الذي يحمل عنوان «الآخرون والعالم الخارجي»، يبدو ملائماً للتعبير عن العلاقة بالآخرين: «ما إن يجتمع الوجود ويوظف في سلوك، حتى يقع تحت حكم الإدراك. وهو مثله مثل أي إدراك آخر يؤكد، عدداً من الأشياء أكثر مما يستوعب: حين أقول إنني أرى منفضة السجائر الموجودة هنا، أفترض أن نمو التجربة الجارية والتي تصل إلى اللانهاية قد انتهى وأطلق مستقبلاً إدراكياً كاملاً. كذلك الأمر، إذا قلت إنني أعرف أحداً ما أو أحبه، فإنني أشير إلى عمق لا ينضب يتجاوز صفاته ويمكن أن يفجر يوماً الصورة التي أكونها عنه. هذا ما يكلفنا إياه وجود أشياء و«آخرين»، بالنسبة إلينا، وليس بالوهم وإنما بفعل عفيف هو الإدراك ذاته⁽¹¹²⁾». يعني هذا الأمر أن علاقتنا بالآخرين - وخصوصاً حبنا للآخر، تحتوي على عنصر من الإيمان لا يمكن استبعاده، يتجاوز التفكير والمحاكمة العقلية. لذلك، إن محاضرات السوربون تؤكد أن «علينا أن نفسح المجال لإدراك الآخر كما هو، وأن نتحمل أخطار احتوائه على المجهول». ويظهر هذا البعد "اللاعقلي" بشكل كامل في التجربة الغرامية: «فكما يقول آلان: يعني حب أحد ما أن نقسم في شأنه ونؤكد، أكثر مما نعرف عما سيكون عليه. إننا أمام التخلي، بشكل ما، عن حريتنا في إعطاء حكمنا. لا تتيح التجربة مع الآخرين راحة الذات، لذلك يمكن أن تبقى دوماً موضع الشك. وأستطيع، إذا رغبت أقلّه، أن أشك بحقيقة عواطف

الآخرين تجاهي، وذلك لأنها ليست مؤكدة قط. لا يقدم الشخص الذي يقول «أحب» لمن يحبه كل لحظة من حياته، لا بل إن حبه يذبل إذا كان مكرهاً عليه. ويصطدم بعضهم بهذه البديهية وكأنها رفض للحب، فيرفضون منح الثقة لتأكيد لا محدود والقناعة به، من خلال شهادات هي دوماً محدودة⁽¹¹³⁾.

نستطيع، على ضوء هذه التحليلات، التي تدين بالكثير لألان، أن نقدر سبب اكتشاف ميرلو - بونتي في فكر مكيافيلي تحريضاً على توصيف تجربة السياسة المعاشة، كما تكون عليه قبل التفكير فيها. ألم يوصف الفلورنساوي، في الواقع، علاقة الرعايا بالأمير باعتبارها علاقة ثقة أو خيبة أمل أو كراهية؟ ألم يتجنب بذلك تصوراً للسياسة مفرطاً في نزعته "الفكرية"، لا يعبر عما يحدث، في العمق، بين الرأي العام والسلطة السياسية؟ إن الازدراء هو، في الواقع، الحد الوحيد، بين الرعايا والسلطة في هذه العلاقة، كما في الحب الذي يربط بين شخصين: تصل الثقة القائمة، بذلك، إلى مستوى تصطدم معه بفرض جذري لدرجة لا تستطيع أن تنجو منه. وذلك لأن على الأمير أن يتجنب، قبل كل شيء، هذا السقوط في الازدراء، إذا أراد المحافظة على سلطته.

وتبين هذه المكانة المركزية التي يمنحها مكيافيلي "للازدراء" (وليس للخطأ) أن علاقة الرعايا بالأمير ليست ذات طابع معرفي وحسب. فلا يعرف الرعايا الأمير، إذا أردنا أن نعبر بدقة: فهو يقدم على أنه شخصية أسطورية؛ يمجده الناس أو يكرهونه، "بشكل أعمى"⁽¹¹⁴⁾. وبكلام آخر، يستكشف مكيافيلي، في المجال السياسي، نوعاً من العلاقة بالسلطة لا يقوم على "التمثيل" لوحده، لذلك فإن قراءة ميرلو - بونتي لمكيافيلي شكل علامة على تعميق الأطروحة التي قدمت في كتابه *بنية السلوك*، التي ترى «أن امتلاك تمثيل وممارسة المحاكاة العقلية لا يمتد أثرهما على حياة الوعي. وكما أوضح ميرلو - بونتي ذلك، يمكن للرغبة، في الواقع، أن ترتبط بالشيء المرغوب، أو للإرادة أن ترتبط بالشيء المراد، من دون أن ننظر إلى هذه المرجعية وفقاً لأنموذج العلاقة بين التمثيل والشيء الممثل - بالرغم من احتواء هذه المرجعية على «نواة معرفية»: «لا يمكن لأفعال الفكر أن تحمل دلالة لوحدها، من خلال احتوائها على العلم المسبق بما تبحث عنه،

وسيكون هناك نوع من الاعتراف الأعمى بالرغبة بالشيء المرغوب ووبرغبة مماثلة بإرادة بالخير. ونستطيع، بهذه الوسيلة أن نقدم الآخرين للطفل باعتبارهم مركز رغباته ومخاوفه، وذلك قبل فعل التفسير الطويل الذي يوصله إلى ذلك من خلال عالم التمثيل»⁽¹¹⁵⁾. نستطيع القول، إذاً، إن سياسة العفن التي اكتشفها ميرلو - بونتي لدى الفلورنساوي، تنبثق، بشكل دقيق، عن بعد آخر غير البعد المعرفي الحصري. ويتمكن هذا البعد لوحده أن يعبر عن الحب أو الكره الأعمى الذي يحرك الرعايا في مواجهة الأمير. إن ما يقترحه فصل «مذكرة حول مكيافيلي» هو أن يُقدم الأمير إلى رعاياه أولاً على أنه قبله رغباتهم ومخاوفهم، وليس فقط باعتباره كائناً يستطيع أن يضع جرداً لصفاته باعتباره موضوع محاكمتهم العقلية بصورة صريحة.

السياسة حيز المخيال

أن يقول المرء إن السياسة ليست ذات بعد معرفي، بشكل أساسي، بل ذات بعد عاطفي ووجداني، يعني أيضاً، أن السلطة ليست موضوعاً قابلاً للدراسة العقلية الدقيقة. ويشير فصل «مذكرة حول مكيافيلي»، في الواقع، إلى أنه علينا أن نعتبر الأمير مثلاً يتوجه إلى «مشاهدين بكم من حوله»⁽¹¹⁶⁾. ويظهر عمل رجل السياسة، من قبل، في كتاب *الترعة الإنسانية والرعب* شبيهاً بعمل الممثل المسرحي: «لا يستطيع رجل الشأن العام أن يشكو من أنه يُحكم عليه من خلال أعماله التي تسبب العناء للآخرين، ومن خلال الصورة غير الحقيقية التي يقدمها عن نفسه، طالما أنه يتدخل في حكم الآخرين». ونقول، كما يقول ديدرو عن الممثل على المسرح: يحمل كل إنسان، يقبل أن يقوم بدور، صورة "شبح كبير" يختفي خلفها، ويصبح مسؤولاً عن شخصيته حتى حين لا يرى فيها ما يريد أن يكون»⁽¹¹⁷⁾. ليست لهذه المقارنات مع المسرح، والمستوحاة من كتاب *المفارقة حول الممثل*⁽¹¹⁸⁾، نوعاً من النوادر لأنها تبين أن السياسة لا تجري في العفن فقط، بل في المخيال أيضاً⁽¹¹⁹⁾. غير أن هذه الفكرة لا تنفصل عن إظهار العلاقة الوجدانية التي تقوم بين الرعايا والأمير. وتبرز محاضرات السوربون «الطابع

الوجداني للصورة الوارد في أعمال سارتر حول المخيال، تلك الصورة العصبية على الفهم إذا أردنا تعريفها بمفردات المعرفة»⁽¹²⁰⁾. علينا أن نفهم المخيال آخذين بالاعتبار أن مصدره «الانفعالات». يعتمد ميرلو - بونتي، من خلال تساؤله، بعد سارتر، حول "المواقف" الساحرة تجاه الآخرين، أطروحة آلان التي ترى «أن الإنسان ساحر في نظر الإنسان»⁽¹²¹⁾. إن ما علينا أن نؤكد، بخاصة، يتمثل في أن الطابع السحري للعلاقات البشرية لا يتطابق مع تخيل مشؤوم تتوجب إزالته: «إن الموقف التصويري "المجنون" تجاه الأشياء حتمي، نوعاً ما، مع الآخرين، وذلك لأن هؤلاء يمثلون بالتعريف بعضهم الذي أدعي أنني أدركه شخصياً عبر مظهرات جزئية دوماً»⁽¹²²⁾. وتقوم الفكرة المعتمدة في كتاب **المخطط العام لنظرية الانفعالات**⁽¹²³⁾، على أن السلوك السحري تجاه الآخرين ليس حالة بسيطة ومتفردة من الموقف السحري تجاه العالم. وبحول تمسكنا بهذا التفسير دون فهمنا **لفعاليتته**: «إن هذا السلوك الانفعالي الذي يبدو عشياً تجاه عالم الأشياء، فقال في علاقتنا مع الآخرين: إن من طبيعة الوجه البشري أن يؤثر بالآخر عن بعد، في الواقع. ويمكن للآخرين أن يؤثروا من دون استعمال وسائل حقيقية؛ فالعلاقات البشرية سحرية في جوهرها لأنها علاقات بين **دالٍّ ودالٍّ**، وهنا يصنع الكلام قدراً»⁽¹²⁴⁾. ولنوضح أنه إذا كان بالإمكان، في الموقف السحري، التأثير عن بعد في الآخر، فذلك لأن الصورة تقدم فكرة تواصل مباشر ومطلق تتبدى «بشكل مفاجئ».

تسمح هذه الإضاءة بتوضيح كيف وصّف ميرلو - بونتي عمل الأمير المكيافيلي، وقدرته على الحديث إلى «المشاهدين البكم من حوله»، لجرهم إلى تاريخ مشترك. ويهتم أحد الموضوعات الأساسية للـ «مذكرة حول مكيافيلي»، في الواقع، بالطريقة التي يتصرف بها الأمير، من خلال تأييه، في الأصل، عن رعاياه. من الواضح، الآن، أن فعالية هذا التصرف إنما تنتج، بشكل دقيق عن الابتعاد الذي يجب على السلطة أن تظهره أمام مشاهديها. وبكلمات أخرى تتيح، **دعاية** المجال السياسي للمخيال إمكانية التسلسل إلى الميدان. وذلك لأن رجل الشأن العام، غير معروف شخصياً، أكثر من أي رجل آخر، فرعاياه لا يرون حسناته وعيوبه إلا

من بعيد، كما يؤكد ذلك مكيافيلي في صفحة شهيرة من الفصل الثامن من *الأمير*: «يحكم الناس عموماً بأعينهم، أكثر من حكمهم بأيديهم. فيستطيع كل إنسان أن يرى، بينما القليل من البشر قادر على اللمس»⁽¹²⁵⁾.

غير أن الرؤية البعيدة للأمير، حول هذا الموضوع، لا تتميز، بشكل حقيقي عن الخيال. إذ يرى ميرلو - بونتي، في الواقع، أن الخيال يناقض الواقع، باعتباره غير قابل للسبر: «في الخيال، ما إن عقدت النية على الرؤية حتى يتكون لدي الاعتقاد بأنني قد رأيت. فالخيال لا عمق له لأنه لا يستجيب لجهودنا في تنويع وجهات نظرنا، كما لا يتوافق مع ملاحظتنا»⁽¹²⁶⁾. تجد هذه الأطروحة تدقيقاً في محاضرات السوربون المكرسة للتصور السارتري حول الخيال: «عندما أتخيل، أغني المسافة التي تفصل بين الأشياء التي أدركها؛ يختفي مركز وعيي. إن الغرض الذي أتخيله ليس على هذه المسافة، أو، إذا بدا لي على بعد مئة متر، أعرف تماماً أنني لا أستطيع تغيير هذا الجانب بالاقتراب»⁽¹²⁷⁾. وبكلمات أخرى، في الموقف الخيالي، يُقدم العالم لي، دفعة واحدة، ولا يبدو لي على شكل حقل أجوبه كي أكتشفه. ومع ذلك لا يقوم الخيال لدى سارتر على «تمييز مطلق» بين مجالا التخيل والواقع ولكنه يرسم فكرة مختلفة بخصوبتها مفادها «أن الخيال كي يستطيع إزاحة الواقع، يجب عدم وقوع تناقض بين الواقع والتخيل»، وإلا فلن يكون «هناك مكان للأسطورة في هذا التصور». تقول أطروحة ميرلو - بونتي، في الواقع، إن «الإدراك لا ينتظر البرهان كي ينتسب للموضوع، فهو سابق للملاحظة النبئية»، لدرجة «يتجاوز معها الإدراك المقدمات، مثل الخيال»⁽¹²⁸⁾. إن «الغموض المشترك» للخيال والواقع يسمح أحياناً للخيال في أن يوازي الواقع، طالما أن المدرك يحتوي، بالتعريف، على شيء من الظن والغموض. وهكذا «لا يملك» الوعي قط «ما يفترض وجوده»، في كلتا الحالتين.

وإذا تبين لي أن ما من معيار حاسم، في هذا الشأن يسمح بالتمييز بين الإدراك والخيال، فإن بإمكاننا، مع ذلك، التعرف إليهما من خلال الواقعة التي تقول «إن الجانب اللا معقول للإدراك مفتوح على تجربة تبرره» فيما «الجانب اللا معقول للخيال مغلق، ولا يمكن التثبت منه». ويشير الفصل المكرس للحيز

في كتاب **فينومينولوجيا الإدراك**، بهذا الصدد، إلى أن «الرؤية الصحيحة والرؤية الواهمة لا تتمايزان، كما الفكر المناسب والفكر غير المناسب»⁽¹²⁹⁾. على الفكر الفينومينولوجي، في الواقع، أن يعبر عن الطريقة التي ينفذ فيها الوهم إلى تجربتنا: «إن الفرق بين الوهم والإدراك داخلي، ولا يمكن أن نقرأ حقيقة الإدراك إلا من خلال ذاتها. إذ إنني إذا اعتقدت أنني أرى، في البعيد، في درب غائرة، صخرة عريضة مسطحة، هي في الحقيقة بقعة شمس، فإنني لا أستطيع القول إنني رأيت يوماً الصخرة المسطحة، بالمعنى نفسه، حين أرى بقعة الشمس وأنا أقترّب منها». يبرر ميرلو - بونتي هذه الأطروحة، من خلال الإشارة إلى أن «الصخرة المسطحة لا تبدو، كما كل شيء بعيد، إلا في حقل ذي بنية غامضة، حيث لا تزال الروابط غير واضحة تماماً». إن إمكانية الوهم تكمن هنا: «ليس بالإمكان ملاحظة الصورة، ما يعني أن جسدي لا يسيطر عليها، كما أنني لا أستطيع أن أنشرها أمامي من خلال حركات سير، ومع ذلك، أنا قادر على إلغاء هذا التمييز، كما أنني قادر على الوهم. ليس صحيحاً أنني لن أخطئ أبداً، وأن يكون إحساسي بعيداً عن الشك أقله، إذا تمسكت بما أراه بشكل صحيح. فكل إحساس مشبع بالمعنى الوارد ضمن تشكيل غامض أو واضح، وما من معلومة محسوسة لا تتغير إذا انتقلت من الصخرة الوهمية إلى بقعة الشمس الحقيقية. وتقود بداهة الإحساس إلى بداهة الإدراك وتجعل الوهم مستحيلاً»⁽¹³⁰⁾. يسمح هذا التحليل الطويل بتوضيح التساؤل الذي يقوم عليه فصل «مذكرة حول مكياقيلي» والمرتبطة بمكانة الوهم في مجال السياسة. يؤكد ميرلو - بونتي، بالطريقة نفسها تماماً، على *المسافة* التي تفصل الأمير عن رعاياه، تلك المسافة التي تجعل إدخال المخيال أمراً ممكناً، وكما أن الصخرة المسطحة، التي يثبت بعد السير أنها في الحقيقة بقعة شمس، وكما هو الحال عموماً في جميع الأشياء البعيدة، تتبدى صورة الأمير الأسطورية في حقل ذي بنية غامضة، ذي صلات غير واضحة المعالم، وفقاً لمصطلحات **فينومينولوجيا الإدراك**. وإذا كان باستطاعة الأمير أن يصبح أسطورة، فذلك لأن عمله لا يسمح بدراسة متأنية ودقيقة، إذ تتم هذه الدراسة بعيداً عن معظم مشاهدته. إن البعد يجمد سير الرعايا نوعاً ما، فهم غير قادرين على اللمس، إذ عليهم الاكتفاء بالنظر؛ وذلك

أحد العناصر الأساسية للبعد الخياليّ والأسطوري للتجربة المسرحية، في رأي سارتر⁽¹³¹⁾. وهكذا يبيّن ميرلو - بونتي أن صفات الأمير، حتى الحقيقية، هي دوماً معرضة لأن تكون «ضحية الأسطورة»: فالمسافة التي تفصله عن الشعب، وخصائصه غير معروفة في حركة الحياة التي تحملها قد تحولت إلى موقف تاريخي⁽¹³²⁾. يشبه الأمير، بسبب موقعه هذا، البعيد عن الشعب، الممثل على المسرح الذي يضطر إلى تحمل مسؤولية صورته المتخيّلة.

الأمير باعتباره صورة أسطورية:

خطورة "انعدام الثقة" والازدراء

ما من شك في أننا نفهم من الآن فصداً وبشكل أفضل، سبب عدم رغبة مكيافيلي القول، حين يبيّن أن شرط السياسة الأساسي أن تجري في العلن، إن من الضروري أن يمارس الأمير الخداع، «بل أن ترسم شخصية أسطورية تقوم ببعض الحركات أو تنطق ببعض الكلمات وأن يحترمها الناس أو يكرهونها بشكل أعمى ضمن المسافة أو درجة العمومية التي تقوم عليها الحياة السياسية»⁽¹³³⁾. يبين مكيافيلي، بعيداً عن توصيف موقف عرضي، أن السياسة تأخذ في جوهرها بعداً خيالياً، وذلك من خلال الإشارة إلى أن رجل السياسة يتحول إلى صورة أسطورية. وتمثل المشكلة التي تثار، في النتيجة، أمام كل رجل سياسة، ضمن هذه الشروط، في أن صورته الأسطورة توشك على الانهيار، في اختبار الواقع، أمام الإنكار المفاجئ. لذلك يشير مكيافيلي إلى أن على الأمير أن يبقى حراً حتى أمام فضائله، وأن يظهر القدرة على تغيير المظاهر⁽¹³⁴⁾.

لا يأخذ تفكير ميرلو - بونتي حول تأثير الأمير دلالة هنا أيضاً، إلا على ضوء توصيفات فينومينولوجيا الإدراك المتعلقة بالفعل الخيالي. يعرف ميرلو - بونتي هذا الفعل، بالرجوع إلى كتاب ديدور المفارقة حول الممثل، على أنه القدرة على عدم الاندماج بالدور، وعلى عدم الوقوع أسيراً للصورة التي تقدّم: «إن الذات الطبيعية حين تنفذ التحية العسكرية بالأمر، لا ترى في ذلك سوى موقف تجريبي، لذلك فهي تقلص الحركة إلى عناصرها الأكثر دلالة، ولا تندمج فيها،

بشكل كامل. إنها تلعب بجسدها، وتمتّع بلعب دور الجندي، "ولا تندمج" في هذا الدور، مثل الممثل الذي يدس جسده الحقيقي في "الشبح العظيم" للشخصية التي يمثلها». إن القدرة على عدم الاندماج هذه، والتي وصفها سارتر⁽¹³⁵⁾، تعكس سلوكاً غير مرضي تجاه العالم المحيط: «لا يُعتبرُ الإنسان الطبيعي والممثل المواقف الخيالية حقيقية، بل على العكس من ذلك، إنه يفصل جسده الحقيقي عن الموقف الحيائي كي يتيح له التنفس والكلام والبكاء في المخيال عند الحاجة»⁽¹³⁶⁾. وتوضح محاضرات السوربون أن الممثل «يحل المتخيّل محل المعاش»، من دون أن يصبح الموقف المتخيّل واقعياً ومعاشاً مع ذلك أبداً: «ويعني التعبير في هذه الحالة أن نقيم بشكل مؤقت، في هذا الشبح الذي حدد المخطوط معالمه الرئيسة»، بطريقة لا يمتلك معها الممثل «ذكاءً وإحساساً، بل يصبح كائنًا قادراً على عدم الاندماج في الدور»⁽¹³⁷⁾.

تساعد هذه التحليلات حول المخيال، وبدقة أكبر حول عمل الممثل - التي عرض ديدرو بعض متطلباتها السياسية⁽¹³⁸⁾ - في فهم السبب الذي دفع ميرلو - بونتي إلى القول، في تفسيره، إن مكيافيلي، مفكّر البعد المخيالي في السياسة. وكما هو الحال بالنسبة إلى الممثل، ليس على الأمير، الممثل السياسي، أن يبقى، في الواقع سجيناً في دوره الخاص، بل عليه أن يكون قادراً على الاندماج فيه بشكل مؤقت، وأن يتمكن من تغييره. لا يقول مكيافيلي أبداً إنه ليس على الأمير أن يمتلك الصفات التي يبدو أنه يملكها، بل عليه أن يكرّس مبدأ قدرته على أن يكون سيد نفسه كي ينشر نقائصه، إذا بدا ذلك ضرورياً⁽¹³⁹⁾. ويصبح عليه، بذلك، أن يجهد نفسه كي يعرف دوماً، أو يخمن أقله، الصورة الجامدة التي يقدمها بنفسه إلى الآخرين، كما عليه أن يتمتع بشيء من المرونة كي لا يقع في فخ هذه الصورة. كما عليه أن يتجنب الازدراء، أي أن يمتلك القدرة على المحافظة على الأسطورة التي تحيط به وأن يمنحها الشرعية؛ حتى لو كان التغيير ثمناً لذلك. يشير الازدراء، في الواقع، إلى الإنكار المفاجئ للمخيال.

وينطبق ما هو موضح في هذا المجال، في محاضرات السوربون حول العلاقة المبهمة بين المشاهدين والممثلين، أيضاً، وبشكل عام، على العلاقة الوجدانية

والمخيلية التي تجمع بين الأمير ورعاياه. يرى ميرلو - بونتي، من خلال تفكيره حول حب الجمهور للمثل وازدراؤه له، في الازدراء اللحظة التي يزول فيها سحر المسرح، وذلك لأن الممثل لا يعود، فجأة، إلّا مثل رجل بسيط. يستخدم ميرلو - بونتي، هنا، الطريقة نفسها التي استخدمها في توصيف حب الرعايا للأمير وازدراؤهم له، في حديثه عن مكياڤيلي: «نستطيع أن نشرح، بواسطة السحر، العواطف المبهمة القائمة بين الممثل وجمهوره، إن هناك دوماً إعجاباً وكرهاً. ونزدري الممثل بالقدر الذي نعتقد أنه مخلوق فوق العادي، وربما يتم ذلك بسبب حركة السمو التي تمثلها الدلالة التعبيرية للجسد؛ هذا ما يفسر تاريخ الممثلين الذي حظيوا بأسمى آيات المديح والاعجاب، ولكنهم حرموا، مع ذلك، من أبسط الحقوق القانونية الحقوق القانونية الأكثر بداهة⁽¹⁴⁰⁾. ما من شك في أن هذه المفارقة الظاهرة المتعلقة بموقف الجمهور من الممثلين، تتوضح في توصيف ميرلو - بونتي للمخيل. ترى أطروحة ميرلو - بونتي، في الواقع، أن المخيل يشكل مصدر خيبة باعتباره «قناعة عامة»، تدور في المطلق، بينما يتحرك إدراك الواقع في النسبي وهكذا تفسر الخيبة أيضاً، والتي يمكن أن تشعر بها أم بعد ولادة طفلها، باعتبار أن هذا الأخير يجتاز «شرط الطفل المخيالي الذي تنفتح أمامه كل الإمكانيات إلى شرط الطفل الحقيقي الذي لا يستطيع أن يحقق كل التخييلات، وبخاصة، جميعها في الوقت نفسه». إنه الانطباع نفسه أيضاً حين نقابل «رجلاً عظيماً»، وذلك للأسباب نفسها⁽¹⁴¹⁾. يحمل هذا التحليل إضاءة هامة تتعلق بمضمون فصل «مذكرة حول مكياڤيلي». يطلب ميرلو - بونتي، في الواقع، من الممثل السياسي، الأمير، أن يحذر من الهبوط من الأسطورة إلى درجة الإنسان العادي. وعليه من أجل ذلك، أن يكون قادراً على الانسجام مع مرونة الأشياء بدل الإصرار على التمسك بشخصيته، في كافة الظروف. كما عليه أن يستبق التكذيب المفاجئ الذي يمكن للأحداث أن تمس به سمعته، وأن يكون قادراً على تغيير صورته حين يكون ذلك ضرورياً.

النزاع الاجتماعي والمخيال السياسي

لا يأخذ المخيال السياسي إذاً مقام التعمية الصرفة. وبذلك يتعد ميرلو - بونتي عن التفسيرات التي تحصر تعاليم مكيافيلي ضمن قائمة من المبادئ المكيافيلية. ونعرف، في الواقع، «أن الوعي لا يقارن بمادة بلاستيكية تتلقى أشكالها المميزة من الخارج، من خلال أفعال سببية اجتماعية أو فيزيولوجية»⁽¹⁴²⁾. غير أن التفسيرات التي تجعل من مكيافيلي مفكراً مكيافيلياً لا تعترف بهذا البعد ويتمثل خطأها في أنها لا تأخذ بالحسبان توقعات الشعب الذي على الأمير أن يستجيب لها، وهي تستسلم بذلك «لمفهوم بوليسي» للتاريخ سبق أن أدين في كتاب *فيثومينولوجيا الإدراك*. إننا أمام مفهوم ساذج للغاية لأنه «ينسب الكثير من الوعي للرؤساء والقليل منه للجماهير»، كما لا يرى «حلاً وسطاً بين الفعل الإرادي للبعض والطاعة العمياء للبعض الآخر أو بين صانع التاريخ وموضوعه»⁽¹⁴³⁾. هكذا يدين ميرلو - بونتي، في حديثه عن تفسيرات النازية الساذجة التي تقوم على الاعتقاد بأن القادة السياسيين يراعون في الاستخدام المكيافيلي للمظاهر، وكأنهم مفسولون عنها بشكل كامل. وعلينا في مواجهة هذا الشرح، أن نشير إلى أن القادة أنفسهم أسرى المخيال، وأنهم لا يتعاملون معه وفقاً لرغبتهم⁽¹⁴⁴⁾. علينا فهم قراءة ميرلو - بونتي لمكيافيلي على ضوء هذه التحليلات. إذ ترفض هذه القراءة الأطروحة التي ترى أن المخيال، بالنسبة إلى الفكر المكيافيلي، مجرد خداع تلجأ إليه السلطة المطلقة على هواها: «لا يطلب مكيافيلي أن نحكم بالذرائع والكذب والرعب والمكر، إنه يحاول تعريف *فضيلة* سياسية تعني، بالنسبة إلى الأمير، الحديث إلى مشاهديه البكم من حوله، والخاضعين لدوار الحياة الجماعية»⁽¹⁴⁵⁾. ويعني هذا أن أسطورة الأمير لا يمكن أن تقتصر على خديعة شريرة، وأن المخيال كناية عن لحظة عابرة لا بد من تجاوزها للوصول إلى حقيقة في الشأن السياسي. وعلينا أن نشير، في الواقع، إلى أن «مكيافيلي لا يقول في أي من نصوصه بأن الرعايا مخدوعون» لأن الأمير لا يتحكم بشكل مطلق «بصورته الأسطورية»، وكأننا أمام خدعة تستخدم للتلاعب بالشعب. وبدل أن يندرج الطابع المخيالي لصورة السلطة في مشروع تقني ساعٍ لخداع الآخرين، فإنه يوشك أن يخدع الأمير نفسه الذي عليه الحذر من البقاء أسيراً للصورة التي يقدمها لرعاياه، استجابة لتوقعاتهم.

إن من الممكن، الآن، فهم تناسق قراءة ميرلو - بونتي الكاملة لمكيافيلي. فقد رأينا، في مرحلة أولى، أن فصل «مذكرة حول مكيافيلي» يولي أهمية كبرى لموضوع النزاع الاجتماعي والسياسي. فرمما بين الفلورنساوي، في الواقع، أن الاعتراف بالانقسام وحده يسمح بإقامة سلطة لا تمارس "التمعية"، وذلك لأن الانقسامات الاجتماعية ظاهرة، وأن سياسة الحقيقة ممكنة بين الأمير ورعاياه. وبدقة أكثر، لقد أثبتنا أنه إذا كان ميرلو - بونتي يجعل من الاعتراف بالنزاع شرطاً للعمل المشترك والاتفاق الحقيقي، فذلك لأنه لا يعتبر النزاع طبيعياً أو حيوانياً بحتاً. ولقد أجرى مكيافيلي في هذه الحالة فصلاً بين حالة طبيعية متروكة لوحشية كل منا من جهة، وحالة اجتماعية وسياسية تقوم انطلاقاً من قطعة نهائية مع الحالة الحيوانية الأولى هذه من جهة أخرى. ويوضح ميرلو - بونتي أن مكيافيلي لا يؤيد مثل هذا التمثيل للرباط طبيعة/مجتمع، لأنه يبين على العكس من ذلك، أن النزاع هو بالفعل نزاع إنساني، وأن الحالة الاجتماعية والسياسية تعتبر تجاوزاً جزئياً له. أما في ما يتعلق بالجانب الآخر من التحليل الذي كشفنا هنا منطقته، فهو يهتم بالبعد المخيالي للسياسة: إن الأمير، تلك الصورة "الأسطورية"، لا يسيطر بشكل كامل على المظاهر، بل عليه أن يلبي طلباً أقرب إلى العاطفة منه إلى الحساب. وهو مهدد، مثل الممثل المسرحي بالغرق في الازدراء، إذا هبط من الصورة المخيالية إلى مستوى الإنسان السوقي. غير أن في استطاعتنا أن نستنتج بعد الآن أن موضوع النزاع، والمخيال يمثلان وجهين لإشكالية أساسية في تفسير ميرلو - بونتي.

وعلينا أن نلاحظ أولاً، من أجل دعم هذا التحليل، أنه قد تم سير الرابط بين مسألة النزاع ومسألة المخيال، جزئياً، في كتاب النزعة الإنسانية والرعب. وتقوم إحدى الفرضيات التي اعتمدت حينئذٍ، على القول إن أسس كل شرعية عرضية، وذلك لأن تجربة الحرب المحدودة والاحتلال قد بينت، في الواقع، «الأصول العاطفية وغير الشرعية لكل شرعية وكل عقل»⁽¹⁴⁶⁾. لذلك علينا أن نتراجع عن الوهم الذي يرى أن إرادات البشر «متطابقة». إن ما تظهره حالات الأزمة، في الواقع، مثل النزاع بين حكومة فيشتي وفرنسا الحرة، على أعلى الدرجات، هو أن البشر يحكمون على أنفسهم بالموت لأنهم لا يرون المستقبل بالطريقة نفسها.

ويبدو ان المنتصرين يدينون، في النهاية، بانتصارهم إلى اتفاق عفوي، وطبيعي إذا صح القول، مع الجسم الاجتماعي، ويتم ذلك بطريقة استرجاعية، مع مرور الزمن. يشير ميرلو - بونتي في الواقع - توضح هذه النقطة قراءته للأمر - إلى أن الأفراد المسالمين جداً يتحدثون عن ريشوليو (Richelieu) وناپليون من دون خوف، متناسين بذلك الجرائم التي قامت عليها سلطتهما: «إن المسافة وثقل الحدث المكتسب يحولان الجريمة إلى ضرورة تاريخية، والضحية إلى حلم فارغ»⁽¹⁴⁷⁾. نستطيع بهذا المعنى، وبحق، أن نؤكد بأن هناك «عامل دجل» لدى كل «رجل عظيم»⁽¹⁴⁸⁾. إن مثال ريشوليو هام جداً فهو يُعتبر رجل السياسة الذي استوعب بشكل كامل الدرس المكيافيلي⁽¹⁴⁹⁾.

وهكذا تتكون إشكالية مكيافيلية خاصة تجمع مسألة النزاع ومسألة الميخال. وإذا وُصفت صورة «الرجل العظيم» بالخديعة، فليس ذلك لأنه فرد خبيث المسيطر بشكل كامل على صورته؛ ولا نقول هذا، بكل تأكيد أيضاً، كي ندينه أخلاقياً. إن كل موقف مسالم، في الظاهر، يتحول إلى حقيقة بتدخل الميخال، بالقدر الذي يقوم به كل مجتمع جرت دراسته بدقة، على نزاع أولي يتواجه فيه البشر في ما بينهم؛ ليس من أجل هذا الخير أو ذاك فقط، بل من أجل الغايات النهائية للوجود أيضاً. لقد ناضل «الإنسان المكيافيلي العظيم» كي يفرض نفسه أولاً، قبل أن يظهر على ما هو عليه. وهو يبدو للآخرين، بطريقة استرجاعية، وكأنه لا يستخدم العنف والنزاع. غير أن سلطته نفسها مهددة؛ ما يعني أنه لم يتم تجاوز النزاع بشكل كامل. إن المسافة، إذاً التي رأينا أنها شرط مشهد ميخالي، يغير ضمن هذا التحليل وجه فعل الإنسان السياسي: ليس المقصود هنا المسافة المكانية وحسب بل الزمانية أيضاً. فبفضل هذا الأخير، يثبت الإنسان العظيم، باعتباره صورة ميخالية، نظاماً مؤقتاً يسترجع نزاعاً أولياً ويحافظ عليه.

ما من شك في أن هذه الأطروحة، التي لم تكتمل بعد، تقع في لب فصل «مذكرة حول مكيافيلي». ويشير ميرلو - بونتي، في الواقع، إلى أن عرضية كل سلطة، ومسألة معرفة كيفية استرجاع هذه العرضية، تلمن بين الموضوعات الرئيسة لكتاب الأمر: «يصف كتاب الأمر السلطة دوماً: «سواء أكانت وراثية أم

جديدة» باعتبارها موضوع نزاع وتهديد. وإن من أحد واجبات الأمير حل المسائل قبل أن تصبح غير قابلة للحل بسبب انفعال الرعايا. ويقال إن المقصود هنا تجنب استيقاظ الجماهير. ليست هناك سلطة قائمة بالمطلق، بل هناك بلورة للرأي تسمح بقيام السلطة وتجعلها أمراً مكتسباً. وتتركز المشكلة، إذًا، في تجنب انفراط عقد هذا الاتفاق الذي يمكن أن يحدث في زمن قصير، مهما كانت وسائل الإكراه، إذا تجاوزنا حدًا معيناً من الأزمة». «وتصنف السلطة [بهذا المعنى] في إطار الاتفاق الضمني» بالقدر الذي «يقبل فيه البشر بالعيش في أفق الدولة والقانون، طالما لا يثير الظلم لديهم الوعي بما يحل بهم من الأمور غير المبررة»⁽¹⁵⁰⁾. وتظهر بوضوح تام، من الآن فصاعدًا، العلاقة العميقة التي تجمع موضوع النزاع بمسألة المخيال، في شرح ميرلو - بونتي لمكيافيلي. ويمكن تلخيص هذه العلاقة على النحو التالي: إن الصورة الأسطورية «للرجل العظيم» أو الأمير، شرط لاسترجاع عرضية الأصول وتجاوزها، أي النزاع السياسي الكامن في قلب المجتمعات. وبكلام آخر، إن على الأسطورة أن تسمح ببناء التاريخ المشترك بعيداً عن أن تكون مجرد تسمية.

وعدو الإشكالية المكيافيلية:

نحو تجاوز للصيغة الماركسية

وبذلك تشكل إعادة اكتشاف ميرلو - بونتي لمكيافيلي الرد على الصعوبات التي تثيرها إشكالية ماركس. من المهم، بعد الآن، أن نبين كيف تفتح قراءة ميرلو - بونتي على إشكالية واعدة، تقطع الصلة ببعض الفرضيات المسبقة الأساسية للماركسية. لقد ساعد التعامل مع مؤلفات مكيافيلي ميرلو - بونتي على الابتعاد بشكل كامل عن أطروحتين من صلب المرجعية الماركسية: من جهة، فكرة إمكانية تجاوز النزاع السياسي والاجتماعي بصورة نهائية، وتلك التي ترى أن المخيال إن لم يكن وهماً فهو عنصر ارتداد تاريخي أقله من جهة أخرى. ويكشف فصل «مذكرة حول مكيافيلي» في مواجهة هذا الموقف الطابع النزاعي لكل مجتمع والخصوبة التاريخية للمخيال في آن واحد؛ وهما فرضيتان تشكلان وجهين للإشكالية الوحيدة نفسها.

العودة إلى مكيا فيلي باعتبارها رداً على صعوبات

التفاؤل الماركسي: الطابع الأبدي للنزاع

لقد أشار ميرلو - بونتي في كتابه رموز، ومن خلال وضع تقييم للفكر الماركسي، إلى أن أهم ضعف تعاني منه الماركسية التي علينا أن "نعيد النظر" فيها لهذا السبب، كما هو الحال مع علم النفس التحليلي من ناحية أخرى يتمثل في أنها سلّمت بقدم مجتمع بلا نزاعات. غير أن هذه المسلّمة تبدو، بعد الآن، وهمية بشكل تام: «ليس المطلوب تصنيف البشر والمجتمعات، وفقاً لانسجامهم مع قانون المجتمع اللا طبقي أو الإنسان بلا نزاعات: إذ لا يمكن لذين المفهومين أن يساعدا في دراسة مجتمع أو إنسان في الوجود»⁽¹⁵¹⁾. علينا أن نقول، في الحقيقة، "إن الإنسان السليم" ليس بالضرورة «من أزال التناقضات من ذاته»، كما أنه ليس الذي يستخدمها ويقحمها في عمله الحيوي». وهكذا تقود المقارنة التي يقدمها ميرلو - بونتي أحياناً بين التاريخ البشري والتجربة المعاشة - إذا أردنا أن نسير نتائجها كافة - إلى توضيح استحالة اعتماد معيار وحيد نحكم بواسطته على المحاولات المختلفة. ويشرح ميرلو - بونتي، ضمن هذه الرؤية، ومن خلال توجيهه إلى ماركس بالقول إن «تقدم التاريخ الاجتماعي الاقتصادي، حتى في ثوراته، لا يعني الانتقال إلى مجتمع متجانس أو بلا طبقات، بقدر ما يعني البحث، من خلال وسائل ثقافية غير أغنوجية، عن حياة من غير المتعذر على الغالبية أن تعيشها»⁽¹⁵²⁾. وهذا يعني أن التاريخ البشري ليس، منذ الآن، «مصنوعاً بطريقة يحدد معها، يوماً ما، وضوح الهوية، في الساعات كافة وفي الوقت نفسه». وتشير مقدمة كتاب الرموز، من خلال متابعة هذه الفكرة، إلى أنه ليست هناك «ساعة كونية» بل «تواريخ محلية» تتابع ببطء الواحد تلو الآخر⁽¹⁵³⁾. وما من شك في أن هذه الحالة الجديدة تشكل خيبة لمن يؤمن بتاريخ مكرس للخلاص النهائي، في نهاية صيرورة متجانسة - وذلك تماماً حال الماركسية - من الأفضل، مع ذلك، إهمال هذه الفلسفة التي تدعي الحكم، على الحاضر، من برجها العاجي العالي. لا يجوز أن يكون "القنوط" هو النتيجة التي يمكننا أن نستخلصها من هذه الأزمة، بل ما أسماه ميرلو - بونتي، بعد مكيا فيلي، «الفضيلة». يستطيع الفكر المكيا فيلي، إذاً،

أن يشكل السلك الهادي لإعادة النظر في التاريخ العالمي المكوّن من تجارب تاريخية متعددة، تعترف، كل واحدة على طريقته وبشكل مناسب إلى حد ما، بآلية الانقسامات الاجتماعية وتستثمرها، من دون أن تبني المشروع الوهمي الساعي إلى إلغائها نهائياً.

من المؤكد أن ماركس نفسه قد أدرك، بشكل دقيق، التناقضات التي تخترق المجتمعات الحديثة؛ إلا أنه يبقى فيلسوفاً "كلاسيكياً" بالمقدار الذي يسلم فيه أيضاً بأن «الممارسة العملية» (Praxis) تشكل امتداداً للحقيقة التاريخية (من خلال صنعها)⁽¹⁵⁴⁾، وذلك من خلال قناعاته بحقيقة مكتوبة على خلفية العالم. إن وراء التناقض الطبقي الذي توصفه النظرية الماركسية للتاريخ، «مبدأ العقلانية» المتخفي والمتجسد في «طبقة تعد أساساً للحضارة الجديدة»، تلك الحضارة «المتحررة بشكل كامل من التناقضات كافة». علينا أن نلاحظ، في مواجهة مثل هذا التناقض المؤسس للعقلانية "الكلاسيكية"، أن هناك، في الحقيقة «أزمة عقلانية في العلاقات بين البشر». إننا من الآن فصاعداً، أمام «سؤال يحاول أن يعرف ما إذا كانت هناك إمكانية مشتركة وشرعية بين البشر، أي إمكانية وجود مجتمع عضوي». غير أننا رأينا أن هذا السؤال لا يعني شيئاً في نظر ماركس، بينما يمثل، بالمقابل، جوهر الإشكالية المكيافيلية. يمكننا إذاً أن نختم بالقول إن فكر ميرلو - بونتي قد بيّن، بشكل استباقي نوعاً ما، استحالة إلغاء النزاعات، وهذا ما ذهب إليه ميرلو - بونتي في كتاباته الأخيرة، بالرغم من أنه لا يثير هذه الفرضية بشكل ظاهر. ويبقى السؤال إذاً حول معرفة كيف يستطيع المجتمع مواجهة هذه النزاعات وإدماجها ضمن آلية هذا المجتمع كي تصبح منتجة. والحال هذه، أننا إذا أردنا أن نفكر في الإنتاجية الكامنة خلف هذه النزاعات، فإن علينا أن ندرس الشروط التي تتكون خلالها مغامرة جماعية تربط البشر في ما بينهم، بعيداً عن انقساماتهم. من هنا تأتي الأهمية الرئيسة لموضوع آخر، إنه *المخيال السياسي* الذي جعله مكيافيلي موضوعاً للدراسة بنحو مختلف عن ماركس.

البعد المخيالي للسياسة

لدى ماركس ومكيافيلي

لا تشير العودة إلى مكيافيلي، في الواقع، إلى الاعتراف بالطابع الثابت للنزاع السياسي والاجتماعي فقط. فقد رأينا أن ميرلو - بونتي قد وجد في أعمال مكيافيلي، أيضاً، تفكيراً حول المخيال السياسي، ولو بطريقة أقل وضوحاً. غير أن من اللافت أن هذا المخيال لا يقتصر على وظيفته الانكفائية. وذلك لأن ملامح تساؤل ميرلو - بونتي حول الموقع الرئيس للمخيال في السياسة، تظهر في مقالة «وقعت الحرب» التي توصف النزعة السلمية لفترة ما بين الحربين باعتبارها «تعويضاً بالمخيال عن ذكريات عام 1914»⁽¹⁵⁵⁾. كذلك، إن تحليل النزعة المعادية للسامية ينسجم مع تعريف السلوك المخيالي والوعي الأسطوري: «لا يستطيع من يعادي السامية أن يعذب اليهود إذا رآهم على حقيقتهم» ولكنه على وجه التحديد «لا يرى اليهود الذين يتألمون، إنه يعيش أسطورة اليهودي»⁽¹⁵⁶⁾. علينا توصيف السلوك المعادي للسامية بما هو فيه، باعتباره ناتجاً من الوعي الأسطوري. وهكذا يتم توظيف تحليلات فينومينولوجيا الإدراك المكرسة للأسطورة، والتي تشير إلى استحالة تحقيق المساواة «بين جميع التجارب في عالم واحد وجميع الصيغ في وعي واحد»⁽¹⁵⁷⁾. ذلك هو حال الوعي الأسطوري: فطالما أن هذا الوعي لم يملك بعد مفهوم الأشياء أو الحقيقة الموضوعية «فكيف يمكنه نقد ما يعتقد أنه يعانيه؟ وأين سيجد نقطة ثابتة كي يتوقف؟ وكيف سيدرك نفسه باعتباره وعياً صرفاً، ويدرك العالم الحقيقي خلف التوهمات»⁽¹⁵⁸⁾.

وهكذا لا يعتبر النص حول مكيافيلي، أول نص سبر البعد التخيلي للسياسة. فقد ألمح ميرلو - بونتي، في الواقع، من قبل أن المنهجية الفينومينولوجية تسمح بالتأكيد على دور المخيال في العالم الاجتماعي والسياسي، بدل الخط من قدره باعتباره مجرد وهم بسيط علينا التحرر منه للوصول إلى "الواقع". ولنشر، مع ذلك، إلى أن فصل «مذكرة حول مكيافيلي» يبدأ برسم إشكالية أصلية من خلال القول إن فعالية المخيال ليست ذات طبيعة انكفائية فقط. ففي مقالة «وقعت الحرب» اقتصر التحليل على هذا المجال لوحده. في الواقع، إن التعويض بالمخيال عن ذكريات

الحرب؛ الأمر الذي قام به أنصار السلام، كما هو الأمر بالنسبة إلى الأسطورة النازية لا يمكن فهمه إلا على أنه *منقذ للهروب* أمام ضرورات الزمن الحاضر⁽¹⁵⁹⁾.

ما من شك في أنه أمر ذو دلالة أن يعتني التفكير حول المخيال في السياسة، حتى ذلك الحين، بقراءة ماركس. ويبدو واضحاً، في الواقع، الدّين تجاه الإشكالية المعروضة في كتاب *الثامن عشر من برومير* (الشهر الثاني في تقويم الثورة الفرنسية) *للويس نابليون بوناپرت*: «فحين يؤكد ميرلو - يونتي أنه إذا بقيت المشكلات الواقعية للزمن من دون معالجة، فإن الحياة الاجتماعية ستبقى قائمة» في ذلك الحوار وتلك المعركة بين *الأشباح* حيث تذرف فحاة دموع حقيقية، ويسفك دم حقيقي⁽¹⁶⁰⁾، فهو يعتمد في ذلك، من دون شك، تحليلات ماركس حتى في مفرداتها، حيث تظهر الأهمية التاريخية للمخيال في وظيفته الانكفائية. ويعني هذا الأمر أن الاعتراف بفعالية المخيال لا ينفصل عن نقده. يتأتى الموقف التخيلي في المجال السياسي، في رأي ميرلو - يونتي، إذًا، عن القلق في مواجهة تناقضات التاريخ، ويشير إلى محاولة سحرية للتخلص منها. وسنقتنع أيضاً بتأثير ماركس في هذه الإشكالية، إذا نظرنا إلى الطريقة التي يفسر بها ميرلو - يونتي كتاب *الثامن عشر من برومير* في محاضرات السوربون، حين يوحى، في مناقشته لأطروحات جاكوب ليقي مورينو (J. L. Moreno) أن التاريخ لا يسير وفقاً لمخطط مخيالي إلا ضمن بعض المواقف الاجتماعية المحددة: «يرى ماركس أن كل حدث تاريخي يجري مرتين: على وقع مأساوي في المرة الأولى، وعلى وقع هزلي في المرة الثانية (نابليون الأول، نابليون الثالث حيث ولد الثاني من رماد الأول ولم يبدع شيئاً ثابتاً). يرى ماركس أن البروليتاري هو من لا يقوم بأي دور في الواقع، فقد أهلك جسدياً ومعنوياً، وهو يعبر عن الإنسان النقي الواضح، البعيد عن أي مظهر كاذب، حين يبرز في التاريخ العالمي. أما دوره الحقيقي فيتركز في أنه يمثل حقيقة الكائن البشري. ويربط ماركس، بذلك، دجل *الشخصيات التاريخية* بأغموذج من *الموقف البشري* (موقف الرجوازية بكل زيفها). علينا أن نستنتج من هذا التحليل أنه «لا يمكن اختزال التاريخ الاجتماعي كله، وبشكل مسبق، في حقل العلن والمخيال»⁽¹⁶¹⁾. وتلح هذه القراءة لماركس، باختصار، هذه المرة أيضاً، على أهمية المخيال، إلا أنها تمنحه من جديد طابعاً انكفائياً، على طريقة سارتر⁽¹⁶²⁾.

وهكذا يكتشف ميرلو - بونتي في النهاية لدى مكيافيلي، تفكيراً واعداءً، مختلفاً عن تفكير ماركس، حول مكانة المخيال في الحياة السياسية والاجتماعية. وذلك لأن فصل «مذكرة حول مكيافيلي» لا يسمح بفرضية أن «الشخصية الأسطورية» للأمر تعبير أو ظاهرة لموقف انكفائي في مواجهة مسائل الزمن الحاضر، وأن سياسة حقيقية تتطلب، بالنتيجة، الإزاحة النهائية لهذا البعد المخيالي للسياسة، وعلى العكس من ذلك، يحض ميرلو - بونتي على التفكير في أن بالإمكان المشاركة بمخيال قادر على تحريك المجتمعات ذات الطابع التنازعي وأن يخلص مشروعاً تاريخياً، يمكن أن ينضم إليه الجميع⁽¹⁶³⁾.

تؤدي قراءة ميرلو - بونتي لمكيافيلي إلى نقلة تقود إلى إعادة النظر في موضوعين هامين في الماركسية: الفكرة التي ترى أن النزاعات السياسية والاجتماعية تؤول إلى الزوال بشكل نهائي من جهة، والفكرة التي تعتبر المخيال السياسي وهماً، أو انكفائياً، أقله، من جهة أخرى. لقد سمحت إعادة اكتشاف مكيافيلي، في مواجهة هذين الموقفين الفلسفيين المتضامين، بالتعبير عن آلية المجتمعات الحديثة القادرة على استخدام النزاع بطريقة منتجة وتكاملية عبر استخدام الصورة الخيالية للسلطة السياسية. وعلينا أن نعترف أيضاً أن إعادة النظر في هذه الماركسية التقليدية بعيدة عن أن تستثمر كموضوع دراسة، كما هي معروضة في فصل «مذكرة حول مكيافيلي». لا يحتوي تفسير ميرلو - بونتي، في الحقيقة، إلا على بذور هذا النقاش حول الماركسية انطلاقاً من إعادة تفسير الفكر المكيافيلي. وعلينا أن ننتظر قراءة لوفور لمكيافيلي فقط، كي نرى بداية السير الحقيقي للنقد الوارد في فصل «مذكرة حول مكيافيلي». ويعود الفضل لـ «لوفور»، في الواقع، في تطوير التوجهات التي بدأها ميرلو - بونتي، وفقاً لصيغة أصلية، من خلال اعتبار مكيافيلي مفكراً رائداً للحدثة، وبشكل صريح هذه المرة، وينجز لوفور، بذلك العودة الحقيقية إلى مكيافيلي، والمرتبطة بإعادة اكتشاف مجدد للشأن السياسي.

عودة مكيافيلي إعادة اكتشاف الشأن السياسي

من المهم كي نفهم رهانات قراءة لوفور (Lefort) لمكيافيلي أن ندرس الأسباب التي جعلته يهتم بمؤلفات بدت، للوهلة الأولى، غريبة عنه. فقد أولى لوفور، في البداية، مكانة مركزية لمؤلفات ماركس إلى أن أعاد اكتشاف مكيافيلي، بعد عملية تطور طويلة. ولنوضح، مع ذلك، أن المسار السياسي للوفور يختلف عن مسار ميرلو - بونتي. وفي حين يقدم مؤلف *النزعة الإنسانية والرعب*، في البداية، حكماً غامضاً، بل متعاطفاً، في الغالب، مع الشيوعية، فإن لوفور ينتقد عموماً، وبشكل جذري، نظام حكم يعتبره، بكل وضوح، شكلاً جديداً للاضطهاد والاستغلال. وليس من الضروري هنا، أن نذكر، بشكل تفصيلي، الطريقة التي بنى فيها فريق *اشتراكية أم بربرية*، إدانته للمجتمع البيروقراطي⁽¹⁾. سنشير فقط إلى بعض العناصر التي أهملت في أيامنا هذه، والتي تسمح بتحديد الطريق التي أوصلت لوفور إلى مؤلفات مكيافيلي. علينا ألا نهمّل، أولاً، الروابط بين فريق *اشتراكية أم بربرية* وفرضيات انشقاق تروتسكي أميركا، بخاصة تلك الفرضيات التي صاغها بورنهام في كنف برونو ريزي⁽²⁾ (B. Rizzi). يرى هذان المفكران اللذان انفصلوا بشكل تدريجي عن التروتسكية، أن البيروقراطية ليست طبقة طفيلية بسيطة، بل *طبقة اجتماعية جديدة مسيطرة* وحقيقية. وقد قاد هذا الحكم المنشقين التروتسكيين إلى نقد حقيقي للاتحاد السوفييتي، الذي لا مجال، بالطبع للدفاع عنه، إذ لا يمكن أن ينظر إلى هذا النظام، بعد الآن إلا باعتباره نظاماً للاستغلال أشد اضطهاداً من النظام الرأسمالي⁽³⁾. ومع ذلك، إن فريق *اشتراكية أم بربرية*، وبخاصة لوفور، قد نأى بنفسه عن فرضيات بورنهام حول بعض النقاط

الأساسية⁽⁴⁾. يرى بورنهام في صعود المجتمع البيروقراطي، صعوداً لسلطة الإداريين، أي مجموعة من التقنيين والمتخصصين الذين جعل التقدم العلمي والتقني من كفاءتهم أمراً ضرورياً⁽⁵⁾. كما يعتبر هذه الظاهرة، في الوقت عينه، شمولية وشبه حتمية، مع الانتباه إلى التمييز بين الحالات المختلفة⁽⁶⁾. وينتهي بورنهام، في الختام، وبشكل منطقي وخاص، بالقول إن الاشتراكية، كما تصورها ماركس، قد أصبحت مستحيلة، في المجتمعات الحديثة⁽⁷⁾. وباختصار، يقود نقد البيروقراطية الذي قدمه بورنهام إلى تخلص مؤكّد عن المشروع الثوري وإلى رفض النظرية الماركسية. وسيجري عرض هذا الرفض بوضوح وتبرير في كتاب **المكيافليّون**، مع التأثير، الذي خبرناه، في قراءة آرون لمكيافلي. غير أن حكم فريق اشتراكية أم بربرية يبقى مختلفاً جداً، وينسجم إلى حد كبير، على المستوى التوصيفي أقله، مع النقد الذي وجهه آرون لبورنهام⁽⁸⁾.

يرى هؤلاء المؤسسون، أولاً، في البيروقراطية تعبيراً عن السيطرة الاجتماعية والسياسية التي لا تنفصم عراها، والقائمة على نواة **الحزب الدولة**⁽⁹⁾، بعيداً عن ربطها بالصعود المزعوم والحتمي للمدراء. وبالتوافق مع ذلك، يجد التنديد بالبيروقراطية الذي قدمه كورنيليوس كاستورياديس (C. Castoriadis) نفسه، مرتبطاً، بعمق، بمشروع تحول جذري مستوحى من ماركس، على عكس ما هو الحال لدى آرون. ومن المؤكّد أن ماركس الذي يرجع إليه مؤسس فريق **اشتراكية أم بربرية**، بطرائق مختلفة، لم يكن بالطبع ماركس صاحب النزعة العلمية والوضعية التي حملها المفكرون الستالينيون. يتمسك لوفور، بخاصة، وضمن إطار فكر ميرلو - بونتي، بإظهار كل ما يبدو أنه مرتبط بفينومينولوجيا الشأن الاجتماعي في الفكر الماركسي، من دون إنكار مبهماتها⁽¹⁰⁾. ويمكن أن نقدر أن فكر ماركس قد تعرض، باكراً، وبشكل افتراضي للتشويه، من خلال تحليلات فريق **اشتراكية أم بربرية**⁽¹¹⁾. ويبقى أن ماركس لم يوضع، منذ البداية، وبما هو عليه، موضع الشك بشكل صريح: فحين توجه نقد لوفور للبلشقية، فهو لم يمس الماركسية. وبشكل أوضح، لقد تم رفض البلشقية باسم ماركسية "أصيلة"، وبهذا المعنى تندرج تحليلات لوفور الأولى المكرّسة للنزعة الشمولية ضمن الماركسية، في إطار الإخلاص للإيماء النقدي لماركس⁽¹²⁾. وتبدو النزعة

الشمولية - انطلاقاً من هذه الفرضيات - وكأنها صور كارينكاتورية أو محاكاة للشيوعية، فيما المشروع الشيوعي «الأصيل» بعيد عن هذا الاتهام، بشكل فعلي، في مضمونه نفسه. غير أنه، وبعد القطيعة مع فريق اشتراكية أم بربرية؟⁽¹³⁾، قرر لوفور الانفصال عن المشروع الثوري والماركسية في آن، لذلك انطلق نقد النزعة الشمولية بشكل تدريجي، من وجهة نظر أخرى.

يشير كل شيء إلى أن دور ميرلو - بونتي كان هاماً في هذا التطور. فقد طور كتاب *مغامرات الجدلية*، منذ عام 1955، نقداً لم يشمل البلشفية فقط، بل ماركس نفسه⁽¹⁴⁾. يترافق هذا النقد في النتيجة مع رفض لأطروحات لوفور الشاب. ويلوم ميرلو - بونتي، من خلال مقالته التي تحمل عنوان «تناقضات تروتسكي»⁽¹⁵⁾، تلميذه السابق لأنه، في النهاية، قد وجّه نقده إلى البلشفية حصراً، ولم يذهب بالتفنيد، أبعد من ذلك. لم يتمكن نقد لوفور، في الواقع، من إدراك عدم قدرة تروتسكي العجوز على الإفلات من العادات التي اكتسبها ضمن الحزب البلشفي، تلك العادات التي ترتبط، في الحقيقة، بجذور أكثر عمقاً بكثير، علينا أن نبحث عنها في *مؤلفات ماركس نفسه*⁽¹⁶⁾. لقد أخذ لوفور بالاعتبار وبشكل سريع، هذه الاعتراضات، وذلك لأنه قد توصل، هو نفسه، إلى تطوير نقده، ضمن المشروع الشيوعي عينه هذه المرة⁽¹⁷⁾، وليس ضد الشيوعية باعتبارها غطاءً لتحول كامل إلى الملكة الجماعية. غير أن علينا أن ننظر، على ضوء هذه التحولات، إلى الأهمية المتصاعدة التي يوليها لوفور، ومنذ نهاية الخمسينات، لمؤلفات مكيافيلي⁽¹⁸⁾. وبشكل أدق، لا يبدو أن بالإمكان الفصل بين العودة إلى مكيافيلي والإشكالية الجديدة للديمقراطية والنزعة الشمولية. ف فيما اعتبرت الديمقراطية النظام الذي يقبل بالنزاع ويعترف بشرعيته، عُرِّفت النزعة الشمولية، بالمقابل، على أنها النظام القائم على التوهم حول مجتمع موحد ومنسجم وشفاف لذاته. وتظهر الأهمية الرئيسة لمفهوم النزاع، منذ منتصف الستينيات، في توضيح الفرق بين الديمقراطية والنزعة الشمولية: «يدعي كل نظام شمولي إنكار النزاع، ويفرض - بشكل عام، قاسماً مشتركاً على الأنشطة الاجتماعية كافة. ألا يمكن القول إن الديمقراطية تتميز، على العكس من ذلك، بالنية في مواجهة التنافر في القيم والسلوك والرغبات، وفي تحويل النزاعات إلى

محرك للنمو؟ لقد كانت هذه المسألة، في نظرنا، على درجة من الحدة جعلتها ترتبط بإمكانية تجنب تجذر النزاع في شهوات القوة والغنى وفي تحويل عدم المساواة إلى صيغة اجتماعية اقتصادية»⁽¹⁹⁾. لقد ارتبط هذا التصور الجديد للديمقراطية، بعمق، بإعادة اكتشاف ميكافيلي. وذلك لأن تفسير الفلورنساوي قد أجاب عن مكانة الخصومة في حياة الحاضرة. والمقصود هنا، بالطريقة نفسها، توصيف النزاع أيضاً، باعتباره، يعبر، بخاصة، عن الرغبة في الحرية مستخدماً دلالة المؤسسة نفسها، أي باعتباره نزاعاً ذا طابع سياسي، وليس فقط باعتباره نزاعاً متجذراً في «شهوة القوة والثروة»، وبكلام آخر باعتباره نزاعاً ذا طابع اقتصادي صرف.

وانطلاقاً من هذا، يندرج تفسير ميكافيلي في بعض جوانبه، في إطار تفسير ميرلو - بونتي، وندرك بذلك كيف اعتبرت قراءة لوفور امتداداً لبعض الموضوعات التي رسمت خطوطها العريضة في «مذكرة حول ميكافيلي»، وتم تعديلها أو تحويرها. يسمح هذا الاستعراض، بالمقابل، بالفهم الأفضل لمعنى تفسير ميرلو - بونتي لميكافيلي وأبعاده. إن المطلوب، بالنسبة إلينا، شرح «مذكرة حول ميكافيلي» على ضوء تأثيرات مؤلفات ميكافيلي، وأن نفهم، على العكس من ذلك، تفسير لوفور بالعودة إلى القراءة التي قدمها ميرلو - بونتي سابقاً، كي نستخلص تناغم مقارنة قائمة على موضوعين مركزيين متلازمين: التقسيم الاجتماعي والبعد المخيالي للسياسة.

ميكافيلي مفكر التقسيم الاجتماعي

يهدف أحد آراء ميرلو - بونتي إلى إيضاح أن ميكافيلي لم يكن مفكراً متشائماً فقط يختزل الحياة في العنف والإكراه. بل على العكس، إن في الفكر الميكافيلي خياراً شعبياً حقيقياً، وذلك لأن مؤلف الأمير يوحى بأن على السياسة التي تسعى إلى العدل أن تقوم على الشعب الذي يرغب في تجنب الاضطهاد. ومع ذلك، يبقى هذا التحليل ضعيفاً بعض الشيء: إذ يكفي ميرلو - بونتي، بالاستناد إلى آراء رونوديه، بالإشارة بشكل مختصر إلى الأولوية التي يمنحها ميكافيلي لدعم

الشعب، من دون البحث في التحديد الدقيق لمعناها وسير متطلباتها كافة. ولا ينطبق هذا الأمر على قراءة لوفور الذي يتوقف، من جهته، طويلاً عند الخيار الشعبي لمكيافيلي باعتباره خياراً أساسياً في تفكيره السياسي بأكمله.

رغبة الشعب ورغبة الكبار: رغبتان غير متجانستين

يشير تفسير لوفور إلى أنه يجب على السياسة الفعالة والشرعية أن تقوم على الشعب، في رأي السكرتير الفلورنساوي. لذلك يأخذ الفصل العشرون من كتاب الأمير أهمية كبرى، في إسناد هذه الأطروحة، حيث يشير إلى أن «أفضل الحصون اجتناب كراهية الشعب لنا». يفضح مكيافيلي هنا الوهم المتمثل في أن الحصون ضماناً لعدم الاستقرار. غير أننا إذا تابعناه فسنجد أنه يقول إن بناء الحصون يثير النتائج العكسية لتلك التي نتوقعها، إذ تفقد العزلة، التي تسجن السلطة نفسها فيها، في الحقيقة، الشعب إلى الكره والعصيان، مما يسهل، بذلك، دخول الجيوش العدو⁽²⁰⁾. ويتأكد هذا الخيار الشعبي في الفصل الخامس من الكتاب الأول للأحاديث الذي يتساءل مكيافيلي من خلاله «لمن نعهد بحفظ الحرية بأمان» للكبار أم للشعب، ومنْ مِنَ الاثنين يثير الاضطرابات في الغالب، هل من يريد الكسب أم من يريد الاستقرار؟⁽²¹⁾. في معرض تفحص ما يسميه لوفور «الأطروحة الأرستقراطية المحافظة» و«الأطروحة الديمقراطية الليبرالية»⁽²²⁾، يرفض الفلورنساوي الأولى ويمنح الثانية الشرعية، بعد تفحص معقد قائم على قاعدة برهان غير مسبوق، بالطبع. من الواضح، واقعياً، أن ادعاء الرغبة في الاستمرار ليس سوى وهم، وذلك لأن الحرص على الاحتفاظ بما نملك يدفع، في الحقيقة، إلى الرغبة الدائمة في الحصول على المزيد⁽²³⁾. ويبدو، إذًا، أن هذه الرغبة لا ترتوي⁽²⁴⁾، على عكس ما يدعيه الخطاب التقليدي. يرى مكيافيلي أن المهيمنين لا يرضون أبداً بما يملكون، وذلك لأن لا حدود لجشعهم، طالما أنه لا يواجه أي رادع. ويعني هذا الأمر أن تفوقهم لا يشكل أبداً ضماناً لحكمتهم.

إن رغبة الكبار، إذًا، ذات طبيعة خاصة، وتختلف عن رغبة الشعب، كما يقر بذلك مكيافيلي بوضوح، في الفصل التاسع، من الأمير، وكذلك أيضاً في الفصل

الرابع من الأحاديث: «وذلك لأن هناك في كل مدينة، مزاجين مختلفين، مزاج الشعب ومزاج الكبار، وينتج هذا الأمر عن أن الشعب لا يرغب في أن يُحكم ولا أن يُضطهد من الكبار، وأن الكبار يرغبون في أن يحكموا الشعب ويضطهدوه»⁽²⁵⁾. ويبدو هذا التحليل ذا أهمية كبرى، لأنه يبين بدقة، وفقاً للوفور، أنه من المستحيل إقامة توازن بين المزاجين: «تسعى رغبة الكبار للحصول على شيء: إنه الآخر، كما يتجسد في الرموز التي تطمئنهم على موقعهم: الثروة والرفعة والمجد. وبالمقابل، إن رغبة الشعب تتمثل في الكلام بصراحة، من دون أي هدف»⁽²⁶⁾. ويبدو "ميل" البرهان أو "لونه" "ديمقراطياً"⁽²⁷⁾ من وجهة النظر هذه. وذلك شرط أن نفهم طبعاً بأي معنى، وذلك لأن مكيافيلي لا يخفي كم بمقدور الرغبة والكره أن يلهما الشعب، مخالفاً بذلك الفرضية الديمقراطية التقليدية. لا يمكننا القول، بهذا الصدد، إن الشعب طيب: ومع ذلك، فإن الرغبة التي تميز الشعب هي في تجنب الاضطهاد. وهكذا تتبدى سلبية هذه الرغبة من خلال انسجامها مع حرية المدينة ومع القانون»⁽²⁸⁾. فنجد وراء الرغبة والإكراه لدى الشعب - وراء الرغبة بشيء ما - في الواقع، الرغبة في تجنب الاضطهاد. ونجد هنا، في النتيجة، رغبتين مختلفتين: «يرغب الكبار في التملك، ويرغب الشعب في الوجود والحرية. ليس لأنه طيب، بل لأن الرغبة تحطم منطق التملك، إذا استطاعت أن تعبر عن نفسها»⁽²⁹⁾. وهذا يعني أنه ما من تملك قادر على إطفاء الرغبة الشعبية، وذلك لأنه «ليس لهذه الرغبة هدف»، فهي عملية سلبية: «فرغبة الإنسان المتورط في الصراع الشامل للطبقات، لا تختزلها شهوات القوة والثروة والشرف؛ فيما أنها حاملة لرفض الوصاية والاضطهاد فعلياً القبول بأن لا شيء يمكن أن يلبىها مكا تستحق، وأن على المرء أن يفصل هذا الشأن عن تملك خاص وأن يربطه بمطالب غير محدودة»⁽³⁰⁾.

مكيافيلي منظر الخبث الفطري لدى لإنسان

يضطر لوفور إلى تفحص أحد الموضوعات الأكثر رسوخاً في التقاليد التفسيرية لمكيافيلي، إنه موضوع خبث الشعب⁽³¹⁾، وذلك من خلال الإلحاح على

فكرة أن مكيافيلي يختار، عن تصميم، دعم الشعب بالقدر الذي تكون فيه رغبة الشعب، الرغبة في تلافي الاضطهاد. لقد شكك ميرلو - بونتي، سابقاً، بهذا الأمر، من خلال التوضيح بالقول إننا لا نجد لدى مكيافيلي تعريفاً حقيقياً لفطرة الشعب. وهكذا تمت الإشارة إلى التشابه بين السياسة والتربية؛ كما فهمهما ميرلو - بونتي، باعتبار الاثنين نشاطين يعتمدان الممارسة العملية وليس التقنية. وبكلام آخر، لا يمكننا إلا أن نخطئ في فهمهما إذا شرحناهما انطلاقاً من التعارض ذات/موضوع: ففي الحالتين تبقى الملاحظة والفعل أمرين لا ينفصلان، بالرغم من الصيغة الخاصة بكل منهما. يفترض هذا التصور، في ما يخص الشأن السياسي، عدم قدرة السلطة على تبني وجهة نظر منظرٍ متحرر من أي مرجعية حيال الشعب: إن العلاقة التي يمكن أن تقوم بين السلطة والشعب، ضمن هذا المنظور، لا تقوم بدور عرضي، بل جوهرى بالنسبة إلى الوضع. ويعني هذا الأمر أنه من المستحيل أن ننسب إلى الشعب فطرة يمكن للسلطة التعرف عليها من الخارج، من أجل تعديلها في ما بعد، وذلك لأن كل شيء متعلق بأغودج العلاقة التي تقوم بينهما.

إن هذا التحليل، المرسوم في خطوطه العريضة فقط، قد شكل موضوعاً للدراسة من خلال قراءة لوفور. وإذا توقفنا عند النصوص المعروفة جداً والمتعلقة ببحث الرعايا، فإن هذا سيمنعنا من فهم بعض المقترحات المعلنة في كتاب الأمير، في الفصل الخامس، بخاصة، والتي تناقض الأطروحة العامة. ما من شك في أن الشعب ليس طيباً، لكنه لا يجد نفسه مضطراً للبقاء شريراً على الدوام. ويعود خطأ المفسرين المؤيدين لفرضية الحبث المتأصل لدى الإنسان إلى مسلمة ترى أن «فطرة الإنسان تحدد طبيعة العلاقات الاجتماعية»⁽³²⁾. إن تأكيدات مكيافيلي في شأن الإنسان تبقى متناقضة في الحقيقة، وذلك لأنها لا تحمل، في كل مرة، معنى إلا ضمن سياق سياسي خاص: «عدم ثبات أو إخلاص، نكران للجميل، أو استعداد للتضحية؛ تلك هي الملامح التي ترتسم في الشروط السياسية الخاصة»⁽³³⁾. إذا تمسكنا، بخاصة، بفكرة أن الشعب خبيث بالفطرة، فإننا نجعل من الصعب فهم لبّ الموقف لدى مكيافيلي الذي يرى أنه ليس على الأمير أن يخشى من تسليح رعاياه⁽³⁴⁾. يدفع هذا التأكيد إلى التفكير في أنه ليس بالإمكان «الاعتماد على الصفات الداخلية المزعومة

للجماهير كي نقيّم سلوكها»، طالما أن ما يجب الاعتماد عليه بدقة «هو العلاقة التي تقوم بين الجماهير والسلطة»⁽³⁵⁾. وإذا التزمنا بمكيافيلي، فسيصبح من غير المجدي إذا نعت الشعب بالشجاعة أو الجبن، باعتبارهما صفتين طبيعيتين⁽³⁶⁾. وبوضوح أكثر، من المسموح التفكير بأنه من الممكن استخدام نقد الشعب كذريعة لتبرير ضعف الأمير». - وبكلام آخر، تخفي فكرة الملاحظة الواعية المزعومة لدى الشعب استقالة ضمنية. إن ما يقترحه مكيافيلي، في الواقع، هو أنه إذا أثبت الأمير أنه قادر على تقديم «نظام أكثر تسامحاً» وليس حلاً، فإن الجماهير تصبح «قادرة على التوحد والحزم، عندئذٍ»⁽³⁷⁾.

العلاقة بين الشعب والسلطة السياسية

وهكذا، يقطع تفسير لوفور صلته بالقراءات التي تركز على موضوع خبث الإنسان المتأصل، والتي تجعل من الأمير، في الوقت نفسه، مقاماً صرفاً للإكراه. ويسعى رهان النقد الموجه إلى شرح غرهارد ريتسر⁽³⁸⁾ (G. Riter)، بذلك، إلى إظهار حدود كل تصور قائم على المسلّمة التي تؤمن بجوهر الإنسان، وكان باستطاعتنا إهمال تقسيم الطبقات وخصوصية الرغبة الشعبية. وتُستهدف، من وراء ذلك، القراءات التي تنطلق من خبث الإنسان الفطري كافة، والتي ترى في الأمير تلك الصورة المكيافيلية التي تفرض سلطتها وسط النزاع العالمي لشهوات القوة والشرف. لقد رأينا، على العكس من ذلك، أن ميرلو - بونتي يرفض الأطروحة التي تجعل من مكيافيلي مفكراً مكيافيلياً، لأنه يبين، على العكس من ذلك، شروط التبادل بين الأمير والشعب التي تسمح بالتجاوز الجزئي للعنف. ومع ذلك، إذا بدا الخيار الشعبي لمكيافيلي مؤكداً في نظر ميرلو - بونتي فإنه يوضح أن مكيافيلي لم يسعَ بشكل جدي إلى تعريف للسلطة العادلة. وينتج هذا الضعف، بدوره، من تصور دوري للتاريخ يرى أنه على الأمير التصرف مع بشر ذوي سلوك ثابت. وتُستوعب فكرة الممارسة العملية الخصبية من خلال أنموذج تفهني سياسي.

إلا أن تفسير لوفور يهمل انتقادات «مذكرة حول مكيافيلي»، وما من شك في أن ذلك يشكل اختلافاً أساسياً. وذلك لأن لوفور يرفض الفكرة التي ترى أن

مكيافيلي قد ضل طريقه ضمن نزعة انتهازية قائمة على نظرية علمية تختزل المجتمع في شيء خارجي صرف، يمكن التعرف عليه قانونياً بشكل كامل، ويملك «الرجل العظيم» مبدأ حركته. يقوم أحد رهانات كتاب *تأثير مؤلفات مكيافيلي*، في الواقع، على رفض التفسيرات التي تجعل من الأمير المكيافيلي ذاتاً علمية أو «پروميتيوس» حديثاً (رائداً حضارياً)، وذلك أحد أسباب ابتعاد لوفور عن تفسير كاسيرر، بخاصة⁽³⁹⁾. ترى الأطروحة المعروضة في كتاب *الأمير*، في الحقيقة، أنه ليس بإمكان السلطة، إذا احتلت «موقعها الخاص» أن تتصور أن لديها القدرة على امتلاك رؤية شاملة للمجتمع، والزعم أنها تستطيع التأثير فيه عن بعد، إلا إذا جازفت بالزوال: «إذا كان صحيحاً أن حل الرمز لمهمة ما يتم من ضمن الأشياء، فكيف لنا أن ننسى أن السلطة نفسها مندرجة في السجل الذي يحل رموزها؟». هذا ما يفسر، إذاً، عدم كف مكيافيلي عن الإلحاح على تحذير السلطة من خطورة بقائها أسيرة قوة وهمية، وبالتالي نسيان اندراجها، باعتبارها سلطة، ضمن المجتمع. لا يعني القول إن الأمير "ذات" إذاً، في أي حال، أنه قادر على جعل الحقل الاجتماعي موضوعه، وذلك لأن هذا التشيء المزعوم «يخفي عنه حقيقة موقعه الخاص»، ويمكن لهذا الزيغ المطمئن أن يصبح قاتلاً في النهاية.

إذا كانت قراءة لوفور لا ترى أبداً، على عكس ميرلو - بونتي، أن كتاب *الأمير* يصوغ مفهوماً يقسم البشرية إلى جزأين: الجزء الذي يتحمل من جهة، أي الشعب، والجزء الذي يأمر من جهة أخرى، أي الأمير، فذلك بسبب الدلالة الثابتة التي يمنحها مكيافيلي للسلطة السياسية. إن عنف الكبار لا يحمل الدلالة ذاتها التي يحملها عنف الأمير. ففيما يُعتبر الكبار العدو "الطبيعي" للشعب، إذا صح القول، فإن الأمير باعتباره طرفاً ثالثاً، يفكك هذا النزاع المباشر الذي لا يشارك فيه، ويصنع بحضوره، حداً لرغبة السيطرة التي تحرك الكبار دوماً. ويحصل الشعب، من هذا الخلاص على فائدة واضحة، فهو يحقق حمايته المادية، ويستبدل اضطهاد الكبار بشر أقل. غير أن هذه الفائدة لا تكفي لوحدها من أجل شرح العرفان بالجميل الذي يشعر به الرعايا تجاه الأمير. وذلك لأن السلطة التي يمارسها ليست من الطبيعة عينها التي تمارسها الطبقة المسيطرة، وذلك تمايز رئيس لم يتمكن كل

من كاسيرر وستروس من تحديد أبعاده بشكل صحيح⁽⁴⁰⁾. فإذا كان الشعب يخضع، من دون الكثير من التردد، للسلطة السياسية للأمير، فذلك لأن باستطاعة الأمير الاستجابة لرغبته الأساسية. ليست هذه الرغبة، التي نفهمها في خصوصيتها، رغبة في الحكم، على عكس رغبة الكبار، بل هي رغبة في تجنب الاضطهاد فقط، وهو رفض يؤسس للقبول بسلطة جديدة⁽⁴¹⁾.

إن ما علينا استخلاصه، في الواقع، هو أن الأمير، الشعب، غير مدركين بشكل تام لدلالة هذا المسار، ويعترف ميرلو - بونتي نفسه بأن مكيافيلي قد استطاع أن يصف: «بداية لإنسانية منبثقة عن الحياة الجماعية، وكأنما من دون علم السلطة، وذلك من خلال مجرد سعيه لغواية الضمائر»⁽⁴²⁾. ويشير لوفور، في معرض تعميق هذا التحليل، إلى أن تحولاً يحدث ضمن هذه العلاقة أسماء هيغل، لاحقاً، «مكراً عقلياً»، تلتحق من خلاله رغبة الشعب برغبة الأمير⁽⁴³⁾. وذلك لأن الأمير، ومن خلال معارضته للكبار، ضمن رغبته بالتمايز، يتوصل إلى الارتقاء إلى السلطة لوحده، انسجماً مع أمنيته، غير أن هذا الفتح يفترض، حتماً، إرضاء رغبة الشعب في تجنب الاضطهاد، بعيداً عن انتصار الأمير المطلق باعتباره ذاتاً متحررة من كل ارتباط. وفي الوقت نفسه، يجب على الشعب الذي يرغب في إلغاء كل وصاية، أن يخضع لوصاية أخرى - وصاية تتناقض، هنا أيضاً، مع رغبته الجوهرية - وذلك كي يتخلص من خصمه "الطبيعي" (الكبار). ويمنع هذا التفاف المعقد والمؤثر هنا، بالنتيجة تصور الأمير باعتباره «رجلاً عظيماً» يعمن التفكير، بعقل نير، في سلوكه تجاه شعب يقع، بطبيعته فريسة للخبت والجهل. يقود الإلحاح حول خصوصية السلطة السياسية، إذًا، إلى توصيف المسار المتعلق بالرابط بين الأمير والشعب، والذي أمسك ميرلو - بونتي بخيوته، إلا أنه لم يستخلص منه النتائج كافة، أي عدم قدرة الأمير على أن يُعتبر ذاتاً تزعم السيطرة المطلقة على المجتمع والتاريخ.

دلالة السذاجة الشعبية

هناك برهان آخر يرتبط بالسذاجة الشعبية، ولا ينفصل عن دراسة خصوصية السلطة السياسية، ويدعو إلى رفض انتقادات «مذكرة حول مكيافيلي»، هنا أيضاً.

يرى ميرلو - بونتي أن مؤلف الأمير ينسب «الكثير من الزيغ» إلى الرعايا، لدرجة يجعل منه المادة السلبية للتاريخ المعروف والذي يتحكم به الآخرون. وبالمقابل يشير لوفور إلى أننا لا نستطيع أن نختزل زيغ الشعب في الجهل الصرف باعتباره نقيض بُعد نظر السلطة. لا تقوم العلاقة بين الرعايا والسلطة، في التوصيف الذي قدمه لوفور عن الحياة السياسية وتوافق فيه مع رأي ميرلو - بونتي، على المعرفة والمحكمة العقلية فقط: إذ تجري السياسة في العلن، أي ضمن حيز اجتماعي معروف بشكل مسبق، ومعاش باعتباره محرضاً، كما لا تعتبر شيئاً خارجياً بشكل واضح. ويبين مكيافيلي أنه إذا سقط المكر الذي يخضع الشعب من خلاله للأمير من يد هذا الأخير، فذلك لأن الأمير يملك رؤية شاملة ودهاء أقل من الكبار⁽⁴⁴⁾. يمنع هذا الإلحاح على مسألة الزيغ التي تميز الشعب، فهم قيام السياسة باعتبارها نتيجة للتوافق، وذلك لأن عملية مثل هذه تفترض أن يكون لدى المتعاقدين وعي واضح بما يصبون إليه: «إذا كنا ميالين إلى تعريف الاتفاق بين الأمير ورعاياه، من خلال مصطلحات عقد يقوم على أن هناك فريقاً يأتي بمنفعة الحماية للآخر، فيما الآخر يلتزم بالطاعة، فإن الإشارة إلى السذاجة الشعبية تزيد من أوها منا»⁽⁴⁵⁾. يبين هذا الأمر المدى الذي يتعد فيه فكر مكيافيلي عن أي تفسير منطقي لعلاقات السلطة. وهكذا يؤخذ على محمل الجد وبشكل كامل، نقد ميرلو - بونتي "للنزعة الفكرية"، الذي يبين، مع صدور كتاب *بنية السلوك*، أنه ليس بالإمكان اختزال حياة الوعي بأكملها في المعرفة، كما لا يمكن قياس صيغها الأخرى بمقياس التمثيل لوحده، وذلك لأن الوعي يمثل في الحقيقة، «شبكة نيات ذات دلالة تكون واضحة أحياناً في ذاتها، أو، على العكس، تكون معاشة أكثر من كونها معروفة، تارة أخرى»⁽⁴⁶⁾. أضف إلى ذلك، أن لوفور يتبنى، حول هذه المسألة، إرث فكر ميرلو - بونتي المعد بعد «مذكرة حول مكيافيلي»، خصوصاً وأن النقد المعروض في كتاب *المروني واللامروني* ضد «الأحكام المسبقة الموضوعانية» لعلم النفس الاجتماعي، يغني من دون شك قراءة لوفور لمكيافيلي، ونقصد هنا جهده في عدم اختزال "زيغ" الشعب في مجرد جهله⁽⁴⁷⁾.

إلى جانب هذه المتطلبات الفلسفية، يحرص المضمون الحرفي لنص مكيافيلي عينه المفسر على ألا يرى في "زيغ" الشعب رمز سلبيته فقط. ويشير لوفور، في

سياق دعم هذا الموقف، ومن خلال قراءة الفصل الأخير من كتاب الأمير، إلى أن قوة الأمير الذي يأتي ليقبّل النظام القائم ترتبط، بشكل وثيق، بالشعور بالثقة الذي يمكن أن يوحى به للجماهير⁽⁴⁸⁾. فحين تغيب الجماهير في الأزمة السياسية، لا يكون السبب في ذلك جنبها «الفطري» المزعوم، بل حدسها حول الوضع: «فهي تشعر بالفراغ السياسي حين لا تجد من يمنحها الثقة، غير أنها تشعر أيضاً بمسار جديد يسلكه رجل فضيلة»⁽⁴⁹⁾. وتؤكد دراسة كتاب الأحاديث، وخصوصاً الفصل الثامن والخمسين، من الجزء الأول الذي يحمل عنوان «الشعب أكثر ثباتاً من الأمير»، هذه الأطروحة حول طبيعة الشعور الشعبي. وذلك لأن الشعب يحتفظ دوماً بإدراك ما هو قريب منه، حتى حين يعتبر غير قادر على تقويم الوضع تقويماً صحيحاً. غير أن هذا الإدراك يتيح له القدرة على التخمين، من دون أن يدفع به إلى الجهل. وعلى الرغم من أن الشعب محروم من المعرفة الحقيقية، إلا أنه يتنبأ، في الواقع، بقوة السلطة أو ضعفها، معتمداً على الحدس. ويعني هذا أن مكياقيلي لا يزدري السذاجة الشعبية، لأنه على العكس من ذلك، يصل إلى درجة المقاربة بين صوت الشعب وصوت السماء، من خلال الاعتراف بصحة توقعاته وبفضيلته الخفية في التنبؤ بخيره وشره⁽⁵⁰⁾. علينا إذاً أن نلح، من أجل فهم هذه التحليلات المتوافقة، على استحالة اختزال السذاجة الشعبية في مجرد قصور، كما قدمها مكياقيلي. إن صيغة المعرفة لدى الشعب لا تدفع به في الواقع إلى الظلام كما أن علينا أن نفهمها في خصوصيتها: «هناك إثبات بوجود صيغتين من المعرفة: تلك التي ترتبط بالإدراك وهي من خصائص الطبقة المسيطرة، على ما يبدو، أو من اختصاص أولئك الذين يملكون السلطة، والصيغة الأخرى التي تقوم على المعرفة الحسية وتجري ضمن الإدراك الحسي والخيال، وتلك هي صيغة الشعب»⁽⁵¹⁾. ولا يسمح تفحص دقيق للصيغة الخاصة بمعرفة الشعب، في النتيجة باعتباره - بشكل ما، موضوعاً سلبياً لتلاعب الأمير.

إن التبعات السياسية لهذا التحليل كبيرة جداً: فإذا كان صحيحاً أن الشعب لا يمتلك المعرفة الواضحة في السياسة والحساب، فلا يجوز أن نرى، في هذا الشرط الخاص بالشعب، مع ذلك، رمز خضوعه أو استلابه. وإن الشعب يخطئ في

الشؤون العامة، وليس في الشؤون الخاصة، ولا يعني ذلك أنه محكوم عليه البقاء،
 حتماً، تحت سيطرة الكبار والأمير، بسبب حجره ضمن دائرة العلن والتفرد. يلح
 تفسير لوفور، بالاستناد إلى هذا الإثبات، على نصوص الأحاديث، وبخاصة الفصل
 السابع والستين من الكتاب الأول الذي يشير فيه مكياقيلي إلى حكمة الشعب
 حين يختار مرشحي الطبقة المسيطرة إلى منصب القنصلية، ويمتدح حكمة ممثلي
 الشعب الذين يجدون قدوة في سلوك أولئك الذين كانوا قد عارضوهم في
 السابق⁽⁵²⁾. لا شيء يسمح بالظن - وهذه فرضية رئيسة في تحليل لوفور - بأن
 الشعب، في نظر مكياقيلي، يتخلى بذلك عن سلطته ومتطلباته. تقود قراءة لوفور
 إلى استنتاج مختلف تماماً: إن اعتبار الشعب «محروماً من المعرفة والتعبير عن قدراته
 الخاصة» يجعل منه «ممثل الرغبة في الحرية، وحامل مطلب يحد من طموح النبلاء
 ويفرض على السلطة أن تكون حذرة»، كما يجعل منه، في الوقت عينه، «ذاتاً لا
 تمتلك أي سلطة همها الخضوع الإرادي لسلطة بشر معتادين على ممارسة هذه
 السلطة ووضعها بين أيدي بعض أعضائها المستعدين لممارستها ضمن الحيز الذي
 يحتله المسيطرون»⁽⁵³⁾. إننا في نظر مكياقيلي، بعيدون جداً عن مذهب يمتدح
 الديمقراطية المباشرة. ومع ذلك، لا يعني هذا، في الأحوال كافة، أن الوساطة
 السياسية ليست سوى خدعة للجم سلطة الشعب من أجل إخضاعه لسلطة
 المسيطرين. وهكذا يمكن الاستنتاج، بالتوافق مع لوفور، بأن انتقادات ميرلو -
 بونتي التي يأخذ بموجها على مكياقيلي تقسيم البشرية إلى جزأين - الشعب
 سجين العلن من جهة، والسلطة التي تتصرف بشكل سيادي من خلال امتلاك
 معرفة المجتمع من جهة أخرى - لا يقبلها فحص دلالة السلطة السياسية، كما أنها
 لا تسمح بفهم ما يجري في العلاقة بين الشعب والنخب السياسية.

الاعتراف بالتقسيم الاجتماعي

باعتباره أساساً كامناً للحرية

تُظهر المواجهة القائمة بين ميرلو - بونتي ولوفور، حول العلاقة بين الأمير
 والشعب، إذاً، تباينات كبيرة في وجهات النظر، إلى جانب توافقات ثابتة. غير أنه

ليس بإمكاننا الوقوف عند هذا الحد، لأن التفسيرين يتوافقان، في المقابل، حول نقطة أساسية: إنها وجود موضوع النزاع باعتباره شرطاً للعمل المشترك. فلا يكتفي ميرلو - بونتي بالتأكيد على الخيار الشعبي لمكيافيلي، بل يشير أيضاً إلى أن مؤلف الأمير قد وضع النزاع في أصل السلطة. ومع ذلك، فقد اقتصر الأمر على رسم الخطوط العريضة لهذا الموضوع، في فصل «مذكرة حول مكيافيلي»، الذي لا يتحدث، سوى قليلاً، عن نصوص الفلورنساوي حول هذه النقطة، مفضلاً الإشارة إلى صوابية هذه الإشكالية للإضاءة على التاريخ الحديث. ويعود الفضل إلى تفسير لوفور في التوضيح الصحيح للفكرة التي ترى أن التفكير حول موضوع التقسيم الاجتماعي موجود في لبّ الفكر المكيافيلي.

علينا أن نؤكد أنه لا يجوز أن يُساء تفسير خيار مكيافيلي الشعبي: ليس المقصود أبداً الادعاء بأن على الشعب، الطيب بفطرته، أن يمارس بنفسه السلطة بشكل مباشر. وإذا كان الفلورنساوي قد اعتبر في الأحاديث، وبعد تفكير عميق، أن علينا أن نعهد بحماية الحرية للشعب وليس للكبار، فإنه يكون قد بنى مع ذلك أطروحته على مقدمات لا تتوافق مع «الأخلاق الديمقراطية الشعبية»، طالما أنه يعترف بأن رغبة الشعب قد تتأرجح بين الرغبة والكره، وأن «رغبته الخاصة منقسمة» إذاً.⁽⁵⁴⁾ ولا يريد مكيافيلي، عندما يشرح أن الشعب قد يكون مقبولاً إن كان بدافع من رغبة الشعب، أن يكيل المديح لطيبة هذا الأخير، إنما يريد التأكيد، في الحقيقة، على خصوبة النزاع. كتب مكيافيلي، في الواقع، في الفصل الرابع الشهير من الكتاب الأول من الأحاديث، هذه المقولة التي يدل كل شيء فيها على أنها أساسية، في المطلق، ما يوضح التوجهات النهائية لفكره: «إنني أؤكد أن الذين يدينون الشعب بين النبلاء والعامة، إنما يدينون ما كان السبب الأول في استقرار الحرية في روما؛ وهم يكثرثون أكثر ما يكثرثون للصراخ والضجيج اللذين ينبعثان من هذا الشعب، بدل الاهتمام بالتأثيرات المفيدة التي تنتج منه»⁽⁵⁵⁾. يقوم المشروع الفلسفي لمكيافيلي، إذاً، على الاعتراف بالتقسيم بدل إنكاره. إن الرهان النهائي للأحاديث يسعى، في الواقع، إلى إظهار «أن المكان الذي يتبدى فيه الصراع، أي المكان الذي يبدو فيه الشعب قادراً على مقاومة الكبار، فيه تصنع

القوانين الجيدة، وفيه تستحق الجمهورية اسمها بشكل صحيح»⁽⁵⁶⁾. وهذا يعني أنه ليس للجمهورية الفاضلة من غاية سوى استبعاد كل صيغة للوصاية من أجل فرض أنموذج من الديمقراطية المباشرة: يبقى الكبار في المؤسسات الحرة، وتقبل شغفهم بالثروة والقوة؛ مع فرق أساسي، وهو أن تبقى رغبتهم تحت حكم القانون. ليس الشعب قادراً، هو أيضاً من جانبه، على الوصول إلى هدفه بشكل كامل، أي إلى التحرر من كل سيطرة. وبكلام آخر، إذا لم يُرضِ المجتمع الحر بشكل كامل رغبة الكبار، فإنه لا يسمح أيضاً، وبالمقدار ذاته، للرغبة الشعبية بأن تفتح: «لا يمكن لرغبة الكبار ولا لرغبة الشعب أن تتحقق. ولا تجد تلبية لها لا تحت شعار الإيجابية أو لا تحت شعار السلبية»⁽⁵⁷⁾. إن المؤسسات الحرة هي، في الحقيقة، تلك التي تعيش من الفرق الفاصل بين هذين "المزاجين" أو الرغبتين المتنازعتين والمتلازمتين في آن. لا يمكن إذاً أن نفهم الخيار «الديمقراطي» لبرهان مكيافيلي إلاً على ضوء الأولوية الممنوحة للتقسيم الاجتماعي الذي يعتبر شرطاً ضرورياً لقانون عادل: «ترتبط خصوبة القانون بشدة تعارضهما (الكبار من جهة والشعب من جهة أخرى) وبما أن من المؤكد أن رغبة الكبار ستنمو إذا لم يقف في وجهها حاجز، فإن شدة التعارض ترتبط بشدة مقاومة الشعب»⁽⁵⁸⁾. وهكذا يبقى الانحياز للشعب في النزعة الجمهورية لدى مكيافيلي غير مفهوم طالما أننا لا نرى الرابط العميق الذي يربطه بمدىحه للانقسام باعتباره شرطاً لمجتمع سياسي حرّ.

القطيعة بين طبيعة ومجتمع

باعتبارها حجاباً للنزاع الاجتماعي

لقد رأينا أنه إذا كان مكيافيلي لا يعتبر الخصومة لحظة مؤقتة وحسب يجب على الأمير أن يكون قادراً على تجاوزها، بل يرى فيها، على العكس من ذلك، شرطاً للسلطة "الزيفة"، فذلك، لأنه بالتحديد، لم يفكر، في رأي ميرلو - بونتي، في المشكلة السياسية المتعلقة بأساس القطيعة طبيعة/مجتمع. وبكلام آخر، لا يفصل مكيافيلي بين حالتين متميزتين بشكل جذري: الحالة الحيوانية التي يتواجه فيها البشر في ما بينهم في حرب يائسة، من جهة، والحالة الاجتماعية والسياسية التي

تضع حداً نهائياً لكل أنواع النزاع، من خلال إقامة السلطة المطلقة. ولقد تبين، في الواقع، أن الفلورنساوي يجد في النزاع شيئاً آخر تماماً، غير الخصومة الصرفة: إذ تحمل الخصومة، في ذاتها الوعد بعالم مشترك. يضع مكياڤلي مبدأ الصراع ويتجاوزهُ، من دون أن ينساه أبداً: إن القول إن الخصومة نوع من التعايش يشير إلى عدم وجود قطيعة جذرية بين الحالة الفطرية والحالة الاجتماعية، وإلى أن الحالة الأولى تترسم في الحالة الاجتماعية، وأن هذه الأخيرة لا يمكن أن تسعى إلى إلغاء النزاع إلغاءً نهائياً. لقد قام لوفور بتنظيم هذا التحليل الذي أدرك ميرلو - بونوتي معالمة وسر مندرجاته، من خلال التوضيح بأنه يمنح الشرعية للنزاع بدل إدانته باعتباره بعثاً لطبيعة علينا قمعها.

لقد عمق تفسير الفصل الثالث من الكتاب الأول للأحاديث هذه الأطروحة. تعتمد نقطة الانطلاق في المحاكمة العقلية التي أجراها مكياڤلي على القول إنه إذا أراد أحدهم إقامة دولة، فعليه أن يفترض أن البشر سيئون⁽⁵⁹⁾، مستنداً في ذلك إلى سلطة تقاليد سياسية عريقة. نجد، مع ذلك، تبريراً لهذا التأكيد في رواية نكشف تشوّه معناها إذا أمعنا النظر فيها. وفيما يبدو أن التأكيد العام لمكياڤلي يثبت في الواقع الرأي "المشترك" الذي يرى أن البشر أشرار بالفطرة، فإن الرواية التي يقترحها تبين، على العكس من ذلك، كيف يبدأ النبلاء - وليس الإنسان "الفطري" - باضطهاد الشعب من دون هوادة، ما إن يتحرر من الخوف من العقاب⁽⁶⁰⁾. وبذلك يقلب مكياڤلي التمثيلات المشتركة، بخاصة التمييز بين الحالة الطبيعية والحالة السياسية: «وهكذا يجد القارئ المرغم على تذكر التعارض الكلاسيكي بين الحالة الطبيعية والحالة السياسية، نفسه مضطرباً في الحال، وضمن حكمه المسبق، إلى إيجاد البرهان على خبث البشر الفطري، وأن يكتشفه في سلوك الطبقة المسيطرة، وذلك في إطار الحالة السياسية»⁽⁶¹⁾. وحرى بنا القول إن مكياڤلي لا يتمسك بالفكرة التي ترى أن البشر أشرار بالفطرة، لأنه، على العكس من ذلك يهاجم، بشكل ضمني المجموعات الاجتماعية المسيطرة التي تبث مثل هذه الفكرة بهدف دعم موقعها المسيطر: «يستفيد من يعلن هذه الفكرة من فرضية فساد الطبيعة البشرية، من التأكيد على أن القانون جيد بما هو عليه، ومن تجنب

كل سؤال حول النزاع الاجتماعي. فهو يرى أن القانون من عمل العقل، وأنه ليس للعقل من مكان في تجريبية المجتمع المدني. ويعبر مكيافيلي، بالمقابل، عن عدم اهتمامه بصورة الإنسان الطبيعي، أي الإنسان الذي لم يصل بعد إلى الحالة السياسية⁽⁶²⁾. ويعني هذا الأمر أن أصل القانون لا يرتبط في علاقته بحالة طبيعية سابقة؛ على عكس ما استطاع عدد من المفسرين توضيحه، بخاصة غرهارد ريتير⁽⁶³⁾. وعلى العكس من ذلك تماماً، يكتشف مكيافيلي، في رحم المجتمع السياسي نفسه، أصل القانون والشرط الذي يتكون خلاله وينحل: «ويمكننا أن نتلمس العلاقة بين القانون وكبح الاضطهاد»⁽⁶⁴⁾، من خلال معرفة التوجهات الطبيعية للكبار في المجتمع، وإطلاق العنان لشهواتهم». وبذلك يقلب الفكر المكيافيلي الخطاب حول النظام رأساً على عقب.

لقد تم التأكد من أن أطروحة الفساد "الطبيعي" للإنسان قد استدعت لخدمة خطاب محافظ، من خلال قراءة الفصل الخامس الشهير في الأحاديث، حيث يتساءل مكيافيلي: لمن يُعهد بالمحافظة على الحرية للكبار أم للشعب؟ ولقد رأينا كيف اختار مكيافيلي الشعب، بعد دراسة معمقة، باعتبار أن الرغبة في تجنب الاضطهاد تحركه، على عكس رغبة الكبار التي لا يمكن إشباعها. بذلك يجري تنفيذ الرأي السائد الذي يرى أن الكبار وحدهم يشكلون ضماناً للاعتدال، وذلك لأنهم مشغولون فقط بالمحافظة على مكاسبهم. إن ما علينا أن نشير إليه الآن هو أن الأطروحة الأرستقراطية، كما يقدمها مكيافيلي، تقوم على "كذبة"، وتتغذى هذه الكذبة بشكل واضح من التعارض المعلن بين خبث الإنسان الطبيعي من جهة، والاعتدال المفترض للمجموعات الحاكمة من جهة أخرى: «نكتشف هنا التزييف الذي يشجعه المحافظون البارعون في نشر الاعتقاد بأنهم يدافعون عن السلم الأهلي. يؤكد هؤلاء، في مرحلة أولى، أن الإنسان خبيث بالفطرة، وأن علينا أن نقمع شهواته، ويلغون التقسيم الطبقي ويستبدلونه بتناقض عام بين الطبيعة والقانون. كما أنهم لا يرغبون في الحديث عن جوهر الإنسان والمجتمع؛ ثم وفي مرحلة ثانية، يعتمدون التقسيم بين الكبار والشعب للتأكيد أن البشر الذين تُشبع شهواتهم يتمسكون، بشكل طبيعي، بالدفاع عن القانون، وأن المصادفة التي أشبعتهم جعلت منهم حماة

للنظام الذي يستفيد منه المجتمع بأسره»⁽⁶⁵⁾. إلا أن التفكير المكيافليّ قد قلب هذه الأطروحة القائمة على قطيعة مزيفة بين الطبيعة والمجتمع: «يعترض مكيافليّ بشكل أساسي بالقول إن المجتمع يفسر الطبيعة، وإن عنف الشهوة واضح في سلوك الحاكمين الذين يميلون بشكل طبيعي إلى مد نفوذهم، ولا يخضعون للقانون إلاّ مكرهين. ويقطع بذلك الرابط القائم عموماً بين اعتدال المالكين وحكم القانون»⁽⁶⁶⁾. إن ما يُقترح هنا، إذاً هو أن التعارض بين الحالة الفطرية والحالة السياسية ليس فرضية ذات بعد فلسفي، إذ يندرج، بعمق أكبر، ضمن نظام يسعى إلى منح الشرعية للنظام القائم ولا امتيازات الذين يعتبرون أنفسهم حراسها. ويتمثل هذا الخطاب، في الواقع، في إنكار النزاع السياسي والاجتماعي: يعمل التمييز بين الطبيعة البشرية وحكمة المجموعات الحاكمة، على تبرير المحافظة على الأوضاع المكتسبة من خلال قمع متطلبات الحرية التي يعبر عنها الشعب. ويبيّن لوفور، من خلال مدّ هذا التحليل ليشمل دراسة حول النزعة الإنسانية عند مكيافليّ⁽⁶⁷⁾، كيف يسمح التعارض بين "الإنسانية" و"البربرية" بإنكار التقسيم الاجتماعي، وذلك من خلال عرض أحاديث أحد مؤسسي «النزعة الإنسانية المدنية»، كولوتشيو سالوتاتي (Coluccio Salutati): «إذا استطعنا البحث خارج المعنى الظاهر للمفهوم، فإن البربرية تعيش في قلب المدنية وتمثلها البروليتاريا البسيطة التي شكلت محاولاتها للتحرر في القرن الرابع عشر، وكذلك عصيان (التشيومبي)، بخاصة، تهديداً غير مسبوق لسلطة الطبقة الحاكمة. نحن هنا أمام أشخاص كليين يعتبرون أعداء الداخل المحملين بأثقال الجهل والغباء والخطيئة والذين يتم، بالقياس عليهم، بناء مفهوم الإنسان الإنساني»⁽⁶⁸⁾. غير أن مكيافليّ يشكك من جهة بهذا النوع من الأحاديث القائمة على التمييز الطبيعة/المجتمع، مبتعداً بذلك، وبشكل حاسم، عن أهم وجوه النزعة الإنسانية المدنية. وبذلك يبرز تفسير لوفور المكانة التي تحتلها مسألة النزاع في النزعة الجمهورية المكيافليّة، باعتبارها شرطاً لقيام المجتمع الحرّ الذي يستجيب فيه القانون لرغبة الشعب في تجنب الاضطهاد. ولا يزال علينا أن نشير إلى أنه لا يمكن فهم هذا الموقف بشكل كامل إلاّ إذا ربطناه بموضوع آخر نبحثه في صلب قراءة لوفور لمكيافليّ: إنه المخيال السياسي.

البعد المخيالي للسياسة

تقوم مسألة المخيال بدور رئيس في فصل «مذكرة حول مكياڤلي». لا ترى فرضية ميرلو - بونتي، في الواقع، أن السياسة حيز العلن وحسب - على طريقة آرندت - بل هي حيز المخيال أيضاً. ويظهر هذا البعد المخيالي للسياسة أيضاً في دراسة العلاقة على مستوى العواطف، وليس مستوى النظرية الصرفة، التي تربط الشعب بالأمير. يلح ميرلو - بونتي، في الواقع، وضمن فكر آلان وسارتر بخاصة، على «الطابع الوجداني للصورة»: «يجب الرعايا الأمير أو يكرهونه، ليس من خلال معاناة موضوعية وحسب، ولكن باعتباره قطباً خيالياً يستجيب لطموحاتهم أو لخوفهم. ويبيّن هذا الأمير المعنى الذي تأخذه هذه المقارنة بين رجل السياسة والممثل المسرحي: فعلى الأمير، كما الممثل، كما يصفه ديدرو، أن يكون قادراً على "عدم الاندماج" في الدور الذي يُعهد به إليه، وأن يغير هذا الدور أيضاً. وكما بين ميرلو - بونتي أن الممثل قد أثار دوماً الإعجاب والكره لدى جمهوره، بسبب حركة «التسامي» التي تمثلها «الدلالة التعبيرية للجسد» فقد أوضح، في ما يتعلق بمكياڤلي، أن على الأمير أن يحافظ دوماً على سمعته الحسنة من خلال تغيير صورته - إذا دعت الحاجة - لتجنب ازدراء الرأي العام. وهكذا إننا نجد مسألة المخيال السياسي، في صلب التفسير الذي قدمه ميرلو - بونتي حول مكياڤلي. غير أن هذه المسألة لم توضح بعد، كما لم نجد التعبير الكامل عنها إلا في شرح لوفور الذي يولي أهمية جذرية للشروحات التي خصصها مكياڤلي «للصورة الجيدة» للأمير.

«الصورة الجيدة» للأمير

ستكون لدينا صورة ناقصة عن الثورة التي أحدثها مكياڤلي، إذا سلّمنا بأنها تقوم فقط على نقض التعاليم الكلاسيكية، التي تدين عمل الأمير مهما كانت نتائجه، طالما أن نيته فاسدة. ما من شك في أن مكياڤلي يدين بشدة التقاليد المسيحية من خلال اعتبار فضيلة الأمير خطأ، طالما أنها تؤدي به إلى ضياع الدولة. ولقد رأينا، في النتيجة، أن تخريب المسيحية هذا موجود، مثلاً، في صلب الاعتراضات التوماوية الجديدة لماريتان الذي دعى إلى «نهاية المكياڤليّة». ومع

ذلك ومهما كان هذا التأكيد المتمثل في استبدال الحيز الأخلاقي بفائدة الدولة مرفوضاً من التقاليد الأخلاقية الكلاسيكية فإنه يبقى تقليداً ويعبر بشكل كامل عن غاية المفكر الفلورنساوي. ولئن كان صحيحاً أن صورة الأمير لا تتسجم مع صورة الأمير الطيب، كما تعرفها التقاليد، فعلى القارئ القبول، مع ذلك بأن «الوضع لا يسجنه ضمن الكذب والاضطهاد». وعلى العكس من ذلك، يؤمن له هذا الوضع «علاقة حقيقية مع رعاياه وجيرانه»⁽⁶⁹⁾.

ولكن، كيف يمكن فهم إمكانية العلاقة الحقيقية بين الأمير والشعب حين نذكر المبادئ المكيافيلية التي ترى أن على الأمير أن يبقى قادراً على عدم الوفاء بوعوده، وأن يتصرف بمكر حين يكون ذلك ضرورياً؟ علينا أن نقبل بأن مكيافيلي لا يتمسك بمثل هذه التعاليم لأنه يؤكد بأن على الأمير أن يكون قادراً على إخفاء مكره بالذات، وأن يزين نقص إيمانه⁽⁷⁰⁾، وفقاً لما يقوله مكيافيلي. تسمح هذه التحليلات إذاً بالاعتقاد بأن المكر الذي يصفه مكيافيلي لا يختزل في خديعة محضة: «يتجاوز مكر السلطة المكر الشعبي، لأن على المكر الشعبي أن يبقى متخفياً، فهو لا ينتج من هدف خاص، كما لا يُعرف على أنه وسيلة يمكن استخدامها أو عدم استخدامها وفقاً للظروف، إنه فن ربط كل فصل خاص وكل صورة يثيرها بصورة الأمير الجيدة»⁽⁷¹⁾. وفي النتيجة، وبعيداً عن اللاتعة التقنية للوسائل الفعالة الخاصة بخداع الشعب، إن الأمير يثير سؤالاً مختلفاً تماماً يرتبط بشرعية السلطة السياسية. يسعى لوفور، في الواقع، إلى إظهار أن مكر الأمير ناجم عن ضرورة المحافظة على «صورته الجميلة». ولا ينفصل ما يسميه «تسامي السلطة» في الواقع عن «نشر المخيال»: تتمثل مشكلة الأمير في تجنبه انهيار صورته الجيدة، أي في المحافظة على شرعيته. وبكلام آخر، لا يجوز له أبداً أن يظهر على هيئة رجل مختزل في شخص سوقي مهتم فقط بمصلحته الشخصية، وذلك لأن مثل هذا السقوط يعني انهيار شرعيته وسقوطه إذاً.

وهكذا، كما أشار ميرلو - بونتي إلى أن الممثل معرض دوماً لخطر ازدياد الرأي العام بسبب «حركة التسامي» التي تمثلها الدلالة التعبيرية للجسد، فإن لوفور يبين أن الأمير الذي يجسد «تسامي الدولة» يخاطر في النهاية، في الظهور

على هيئة فرد يهتم بالمحافظة على سلطته من أجل التمتع بالامتيازات المنبثقة عنها. لذلك على الأمير أن يحذر الظهور بشكل مطلق، أمام مشاهديه على أنه كلبى وقاس بشكل محض، خشية أن يفقد تأييدهم ويثير ازدرائهم، ويسرع، في النهاية، في ضياع الجماعة السياسية: «إن قسوة الأمير وخياناته تبقى مقبولة من المشاهدين طالما ظلت مغلفة بغلاف الخير المشترك. أما إذا رمى القنّاع، وتحدث بشكل كلبى فإنه سيرتد إلى حدود شخصيته، ويظهر في أعين الناس على أنه شخص مثل بقية الأشخاص المعرضين للكره والازدراء»⁽⁷²⁾. وتبرهن الطريقة التي يشرح فيها مكيافيلي حالة أغاثوكل (Agathocle) (طاغية سيراكوزا وملكها) أن من المستحيل توصيف قتل المواطنين أو خيانة الأصدقاء أو غياب الشفقة *بالفضيلة*، إذ تحول هذه الوسائل من دون الوصول إلى المجد⁽⁷³⁾، حتى ولو كانت كافية لامتلاك السلطة بشكل مؤقت. ويعني هذا الأمر أن السياسة لا تختزل في نظر مكيافيلي، كما تزعم تقاليد تفسيرية عريقة، في *موازين قوى صرفة*. «فمن خلال الكشف بأن *لا فضيلة* من دون مجد، يدفعنا مكيافيلي إلى القناعة بأن ليس بالإمكان تعريف العمل السياسي من دون أن نحدد دور التمثيل الذي يتفق الناس عليه». لنشر بوضوح إلى أن مكيافيلي لا يزعم أن *الفضيلة* لا تتوافق مع الجريمة، بل يزعم أنه ليس باستطاعتنا إطلاق مثل هذه التسمية على وسائل امتلاك السلطة: فإذا لم يكن أغاثوكل قادراً على الوصول إلى أعظم مجد ممكن، فليس ذلك بسبب الجرائم التي تسم أصل سلطته، بل لأن هذه الجرائم كانت من فعل كبار السياسيين، وقد ارتكبت «من دون مرر ومن دون خجل من قبل إنسان لا يؤهله للحكم سوى طموحه»⁽⁷⁴⁾. وتتمثل مشكلة الأمير في مجملها في تفادي إثارة الشك بأنه فرد متعطش لامتلاك موقع مهمين والمحافظة عليه، من أجل مصلحته الخاصة وحسب.

المخيال باعتباره استجابة

للتوقع الشعبي: البحث عن شرعية السلطة

لا تقتصر تعاليم مكيافيلي، إذًا، على البحث الذرائعي عن الوسائل الفعالة التي بحوزة الأمير للحفاظ على الدولة. يتلقى الأمير هذه الوسائل، في الحقيقة، بقدر

ما يختارها: «إذ لا يشك مكياڤيلي لحظة واحدة بالضرورة التي يجد الأمير نفسه فيها للتصرف أمام أعين رعاياه ولتكوين الصورة التي ينتظرونها منه»⁽⁷⁵⁾. ولا يمكننا الحديث عن تلاعب أو احتيال إلا إذا توافرت للأمير الحرية الكاملة في فرض كذبه على الشعب. والحال هذه، إن الحقيقة عكس ذلك، إذ عليه أن يستجيب للطلب الشعبي تلافياً للضياع. وإذا كان مكياڤيلي ينصح الأمير، في الواقع، بامتلاك القدرة على خداع رعاياه عبر إخفاء المكر ذاته، فليس ذلك لأنهم سيئون جداً وحسب، بل لأنهم لا يتحملون، بخاصة، منظر الشر أيضاً ويتمسكون بالرغم من كل شيء بمظهر الخير: «على الرغم من أن الرعايا خبثاء لدرجة يمنعون معها الأمير من أن يكون طيباً، فإنهم ليسوا خبثاء لدرجة يقبلون معها أن يجسد الشر أمام أعينهم. إنهم يرغبون، إذًا، بالإيمان بفضيلته، أي بصورته الصالحة، ويكفي ألا يجعل من هذا الإيمان أمراً مستحيلاً كي يقيهم راضين». ما يعني، وهذه مفارقة، أنه «إذا لم يكن من الصعب عليه أن يخدعهم، فذلك لأنهم يرغبون في ذلك»⁽⁷⁶⁾. وهكذا، يجد الأمير نفسه، مثل كل كائن بشري، وأكثر من أي كائن بشري، وبسبب موقفه باعتباره رجل دولة، مكلفاً من رعاياه بدور لا يسيطر عليه بشكل كامل. إلا أن المشكلة التي يثيرها مكياڤيلي تتمثل في أنه ليس على الأمير أن يستجيب بطريقة لا عقلانية إلى هذا الطلب، وذلك لأنه يخاطر، في هذه اللحظة، في رؤية سمعته تهوي. ويمكن أن تكون للطبقة أيضاً نتائج كارثية في بعض الأوضاع. ونقع هنا على خطر كبير لا يرتبط بحالات عرضية بل بموقف تضطر كل سلطة لمواجهة. على الأمير أن يجسد «المخيال الذي تفرضه عليه وظيفته في المجتمع»، غير أنه «يبقى سجيناً للمخيال في الوقت عينه»⁽⁷⁷⁾. وانطلاقاً من ذلك، يمكن أن يفتتن بصورته الخاصة ويصبح غريباً عن الشعب، في النهاية، من خلال القيام بوظيفته بطريقة ساذجة: «يبقى الآخرون مستعدين ليجدوا فيه موضوعاً للحب أو الكره، غير أن نظرتهم ترن هذه النظرة. فإذا انساق مع الافتتان بالصورة التي يكوها الآخرون عنه، فقد سلطته. ولذلك فهو يسعى كي يكون ما يتمناه الآخرون، كما سيصبح مكروهاً في حال سعيه إلى أن يكون محبوباً. ومع ذلك، إن المطلوب دوماً هو أن يؤخذ ما يتوقعه الرعايا بالحسبان؛ حتى حين يغير الأمير

صورته، لأنه «إذا كان عليه أن يتحرر من الصور التي يحملها من دون حق، والتي تسبب ضياعه، يبقى واجباً عليه، مع ذلك الظهور، كما يريد الآخرون أن يظهر»⁽⁷⁸⁾.

تستأنف هذه القراءة ما جاء في فصل «مذكرة حول مكيافيلي» حول هذه النقطة: يثبت أن عمل الأمير لا ينبثق عن تلاعب، بل يرتبط بالتوقع الشعبي الذي لا يسيطر عليه بأي شكل من الأشكال. على الأمير أن يستمر «بالتواصل مع شهوده الذين يمنحونه سلطته الكاملة»، مما يعني أنه لا يجب أن «يحكم باعتباره صاحب رؤية»، فعليه بالنتيجة «أن يبقى حراً حتى بالنسبة إلى فضائله». لذلك، باستطاعتنا أن نصل إلى درجة اقتراح هذه المفارقة، التي تصطدم بشكل مباشر مع التفسيرات الدارجة، والتي ترى أن مكيافيلي قد برهن في حديثه إلى آل ميديسس، بأن «السلطة لا تستقيم من دون الحرية» لدرجة «ربما يصبح معها الأمير هو المخدوع»⁷⁹، ضمن هذا الانقلاب. وبين لوفور، من خلال سير نتائج هذا التفسير أن المكانة الرئيسة التي يمنحها مكيافيلي للمخيال تسمح بالتفكير بخصوصية السلطة السياسية. ونخطئ إذا اعتقدنا في الواقع أن من مصلحة الأمير فقط، أن يصبح التمسك بالعلانية من واجبات الشعب. نحن هنا، في الحقيقة، أمام شرط تستطيع السلطة من خلاله أن تتميز عن القوة وحدها، ويصبح بمقدورها انتزاع شرعية: «لعل من غير الممكن أن يتحقق تسامي السلطة - الذي يتوحد بفضلها الشعب، ويتجنب أن يصبح مادة صرفة للاضطهاد - من دون نشر مخيال؟ إذا كان الأمر كذلك، علينا أن نقبل أن الأمير يخضع للمكر أكثر من قيادته له، وأن سبب مكره مندرج ضمن مكر العقل، وأن رعاياه لا يكونون على خطأ، بشكل تام، حين يفتنون بجلالة الدولة، وأن العدد القليل، أخيراً، لا يستحوذ سوى على نصف الحقيقة حين يكتشف رذائل الأمير ويدينها»⁽⁸⁰⁾. ويفقد هذا العدد القليل الذي يظن أنه قادر على الدخول إلى قلب الحقيقة الخفية للسياسة، معناه، من خلال إهمال العلانية الصرفة. أما إذا كان الحديث يتعلق بالكبار، فإن هؤلاء يدون غير قادرين على الارتفاع أعلى من مستوى النزاع المباشر مع الشعب. وإذا كان المطلوب "رجال أخلاق"، فإن خطأهم يتمثل في تمسكهم بالشأن الخاص، وبإهمال

السياسة في شموليتها، وتلك - مع ذلك - هي الطريقة الوحيدة لفهم الدلالة الحقيقية لعمل الأمير: «إنهم يشعرون أن الأمير مختلف عما يظهر عليه. غير أن عليهم كي يقتربوا منه، أن ينسوا معنى مشروعه كما يظهر في النتائج». إن "علماء الأخلاق" ينكرون، في الواقع، جوهر السياسة باعتبارها حيز العن والمخيال، من خلال ادعائهم توضيح السياسة بالتمسك بكواليسها، بدل الاهتمام بما يجري في مقدمة المسرح.

التقسيم الاجتماعي والمخيال

من الممكن من الآن فصاعداً، توضيح العلاقة العميقة التي تجمع جانبي فكر مكيافيلي، أي مسألة التقسيم الاجتماعي من جهة، ومسألة المخيال السياسي من جهة أخرى. ويشكل هذان الجانبان في الحقيقة، وجهين لإشكالية واحدة في تحليل لوفور. فضلاً عن ذلك، كان هذا معنى القراءة التي قام بها ميرلو - پونتي. إن ما يدفع للتفكير حول «مذكرة حول مكيافيلي»، هو أن الصورة الأسطورية للأمير ليست وهماً، إذ يرسم خلف المخيال السخيف للأمير المتلاعب، موضوع آخر تماماً، إنه الأمير باعتباره صورة متخيلة تسمح بتجاوز عَرَضِة الأصول. تجري الإشارة، في الواقع، إلى أن الصورة الخرافية «للرجل العظيم»، أي الأمير، تشكل الشرط لاستعادة النزاع الأساسي الذي يمزق كل مجتمع، ولتجاوزه جزئياً. ومع ذلك، إن ميرلو - پونتي نفسه لا يعرض أبداً مثل هذا التفسير بشكل واضح. في الواقع، إن لوفور هو من درس الرابط بين مسألة التقسيم الاجتماعي والتخييل.

يبين لوفور، كما ميرلو - پونتي، أن كل سلطة عَرَضِة، في نظر مكيافيلي. فالتحليل الذي يقدمه الأمير حول الإمارات الوراثة عموماً لا يسعى في الواقع، إلى تعريف هذه الإمارات بالاستناد إلى أنموذج «نظام جيد» منسجم مع الطبيعة. وإذا بدا الأمير مطمئناً في المحافظة على سلطته، فليس ذلك لأنها منسجمة مع نظام ما للعالم. وعلى عكس ما نتصور، يبين كل شيء، في الواقع، أن مكيافيلي يقلب الصورة التقليدية «للأمير الطبيعي» التي تنقلها التقاليد. وذلك لأنه ما من فرق أساسي في النهاية بين «الأمير الطبيعي» والأمراء الجدد: «علينا أن نعرف أنه

محبوب أكثر من أمير جديد، غير أنه ليس علينا، بسبب ذلك، أن نبحث عن السبب ضمن نظام منسجم مع الطبيعة حيث تزدهر طيبة الأمير، لأنه يكفي - كما نعلم، ألا تؤدي "ردائل خارقة" إلى كره الناس له، كي يحافظ على إجماع رعاياه. تكمن الحقيقة إذاً في أن السلطة تستفيد من التعود على الاضطهاد: إن ديمومة المسيطر تضعف مقاومة المضطهدين، لدرجة نكسب معها خضوعهم بأبخس الأثمان»⁽⁸¹⁾. لذلك، تظهر دراسة حالة الإمارات الوراثية، بشكل مسبق، المضمون العام لكتاب **الأمير**: «يتوضح النظام الأكثر استقراراً من خلال أخذ التعارض بين الأمير ورعاياه بعين الاعتبار، وليس بسبب اتفاق قائم على الاستعداد الحميمي للجسد الاجتماعي. يستمتع القارئ حين يرى في الاستقرار نتيجة لصيغة جيدة يستجيب قيامها لمخطط السماء أو لغاية طبيعية، كما يضيف هذا القارئ إلى حساب الأمير القدرة على تحويل هذا الاستقرار إلى أداة، على خلاف الطاغية الذي يهتم دوماً بالعنف، غير أنه يتضح أن علينا فهم الاستقرار من خلال عدم الاستقرار والعنف الأولي، وأن الأمير القلم يمتلك فقط ميزة استغلال النجاحات المحققة سابقاً في الصراع ضد «الأمير الجديد». يمكننا أن نختم بالقول إنه «بين نظام الأول ونظام الآخر فرق في الدرجة وليس في الطبيعة، فرق ينبع من موقع كل منهما إزاء الخصوم الذين عليهما السيطرة عليهم»⁽⁸²⁾. وما تظهره دراسة الإمارات الوراثية في النهاية، هو أن كل إمارة تقوم على أصل عرضي: فليس هناك، من وجهة نظر مكيافيلي، اتفاق طبيعي وعفوي للجسد الاجتماعي قائم على نظام العالم، بل هناك، على العكس من ذلك، حالة نزاع أساسية ينطلق منها بناء السلطة.

وندرك بشكل أفضل، من الآن فصاعداً، سبب اعتبار مسألة المخيال مركزية: فبالقدر الذي تكون فيه الإمارات كافة قائمة على نزاع أول، ولا نعود نرى بذلك أن انسجامها مضمون من خلال نقاط علامات تراتبية "طبيعية". فإنها لا تتمكن من أن تتوحد إلا من خلال مخيال السلطة السياسية التي عليها أن تعهد بدورها، بهذه الطريقة، لطرف ثالث، أي لوسيط في النزاع الاجتماعي. يندرج الفكر المكيافيلي حول «الصورة الجيدة» للأمير إذاً، ضمن رؤية للعالم، متحررة من نقاط

الاستدلال للفلسفة السياسية الكلاسيكية كافة، مفسحة في المجال للعرضية والنزاع ولاضطرابات تاريخ مرتقن من الآن فصاعداً لحركة لا تتوقف⁽⁸³⁾.

يوضح تحليل لوفور لحالة سيفير⁽⁸⁴⁾ (Sévère) (إمبراطور روماني)، والتي قدمها مكيافيلي كمثال عن الفعل الملائم، معنى تفسيره العام: يبين سيفير أنه قاسٍ وجشع، غير أنه لا ينسى ما يدين به لجلال الدولة، فلا تزال سياسته تحمل قناع الفضيلة، وينقذه هذا التخفي، في الوقت الذي يمنع فيه الجماهير من الغرق في الفجور⁽⁸⁵⁾. لم يرغب مكيافيلي بالقول إن الأمير طيب من خلال الإشارة إلى هذه الصورة الطيبة. كما لم يرغب بالقول إن "عدم كره" الشعب يمكن أن يتحول إلى حب: «لا شيء يسمح لي بالظن أن فعالية الصورة الطيبة تأتي من ميل فطري لدى البشر إلى تجاوز النزاعات وإلى التفاهم. ويبقى صحيحاً أنهم لا يتحملون رؤية الشر، وأن هذا النفور يربطهم بأسطورة جلال الدولة، محدداً بذلك شرط تعايشهم السياسي. أمّا أن تستقر السلطة تحت هذا التأثير، وأن يكون الفجور لحظه فاشلة، فلا يعني هذا طبعاً أن نظاماً دائماً يمكن أن يقوم، كما لا يعني، بكل تأكيد، أن حيز الأمير متضافر مع الخير المشترك⁽⁸⁶⁾». ومع ذلك، إن الرابط العميق بين موضوع التقسيم الاجتماعي وموضوع المخيال يرتسم ضمن هذا التحليل. يبدو لي، في الواقع، أن مسألة المخيال لدى مكيافيلي مرتبطة بشكل وثيق بفهمه للنزاع الاجتماعي: لا يتأسس المجتمع المقسم إلا من خلال وساطة الصورة المخيالية للسلطة، فهي لا تستطيع الاعتماد على نفسها بشكل مباشر وعفوي. تحافظ صورة الأمير وحدها، باعتبارها طرفاً ثالثاً يبرز في الخصومة الاجتماعية، على وحدة المجتمع الممزق والمهدد بالغرق في الفجور وتعبر عنها: «ذلك هو سور (سيفير)، سور غير مرئي لا ينتج من القوة، ولا من الأعمال الصالحة، إنه مخيال يشكله البشر بأنفسهم لأنه يستطيع أن يجعلهم راغبين فيه. ففي المجتمع الروماني الذي يتمزق في كل جوانبه، وحيث يفشل القانون، لا يعود اسم الأمير قادراً على ضبط الشهوات الجامحة، وعلى تأمين تحويل المجتمع المدني إلى سياسي⁽⁸⁷⁾». علينا أن نبرز، بالطبع، بشكل دقيق، الطريقة التي يُعتمد فيها النزاع، سواء أكان ذلك في نظام الإمارة أم في الجمهورية. ومع ذلك، يدعم لوفور الأطروحة التي ترى أن

حالة (سيفير) توضح، في الواقع، المنهج العام لمكيافيلي، بما في ذلك المقاربة الجمهورية للأحداث، بالرغم من انبثاق هذه الأطروحة من وضع متفرد: «غير أن علينا أن نتعلم من خلال مثاله، قراءة حقيقة التجربة الكلية، وذلك لأنه حيث تكون الفوضى محدودة، وحيث تتركز النزاعات على التعارض بين الشعب والكبار، تصبح وظيفة المخيال ردم هوة لا يمكن ردمها، ومنح هوية لمن لا يملكها. فالسلطة تفشل دوماً في الفراغ الاجتماعي، فهي لا تصمد إلا في الحركة التي يصمد من خلالها المجتمع بمجموعه»⁽⁸⁸⁾. وبكلام آخر، ليس هذا التفسير صالحاً فقط في المواقف المتطرفة الموصوفة في كتاب الأمير: لا يمكن تجاوز التقسيم في المجتمعات كافة، إلا من خلال توسط المخيال. وبدل أن يعود المجتمع المنقسم إلى ذاته، بشكل طبيعي، من خلال اتفاق عفوي - إن جاز القول - فإنه يجد نفسه مضطراً للوصول بشكل ما، إلى رؤية لذاته بفضل صورة السلطة البعيدة عن الكبار والشعب، وإلا فإن التمزقات الاجتماعية ستؤدي به إلى التهلكة⁽⁸⁹⁾.

مكيافيلي أو عودة الشأن السياسي

يبقى تفسير لوفور عصياً على الفهم إذا لم نضعه ضمن توجه فلسفي أكثر اتساعاً. وذلك لأن المطلوب - مع إعادة اكتشاف الفكر المكيافيلي، أن نضيء على حدود الماركسية، وأن نرسم طريقة إعادة اكتشاف الشأن السياسي. ولا تلغي أصالة هذا المنهج، بالطبع، ما يدين به لوفور لفينومينولوجيا ميرلو - بونتي. وقد بينا في الواقع، أن القراءة التي بدأها ميرلو - بونتي لمكيافيلي لا يمكن أن تنفصل عن إعادة نظر متنامية في الماركسية. ويشكل فصل «مذكرة حول مكيافيلي» نقطة وصول وتحول في الوقت عينه، كما يحمل أبعاداً جديدة: فهو يجيب عن الصعوبات المتنامية للنظرية الماركسية من جهة، كما يضع مقدمات فكر منفصل عن المبادئ الأساسية للمذهب الماركسي من جهة أخرى. وترتبط القطيعة الأولى التي ترسم بالمكانة التاريخية للتقسيم الاجتماعي: فيما يسلم ماركس بأن على النزاع أن يزول بشكل نهائي، يوحى مكيافيلي بأنه لا يمكن تجاوز الخصومات

الاجتماعية والسياسية. أضف إلى ذلك أن تفسير ميرلو - بونتي يبرز نظرية المخيال السياسي الأصيلة، بالقدر الذي يعتبر فيه هذا المخيال عنصر انكفاء. وما من شك، في أننا نكتشف هنا، أيضاً، في مؤلفات مكيافيلي، تعاليم أخرى تختلف عن تعاليم ماركس. لقد رأينا في الواقع، أن ماركس قد اعتبر المخيال عنصراً انكفاًياً بشكل أساسي، وذلك في كتابه *الثامن عشر من برومير*: فالسلوك المخيالي يميز الطبقات المسيطرة، فيما تحمل البروليتاريا حقيقة متحررة من كل تمثيل مزيف. لذلك، إن إعادة اكتشاف مكيافيلي تضع الأسس لمقدمات النقد الجذري للماركسية. غير أننا هنا بصدد البدايات، فلا شيء يسمح، في الواقع، بالتأكيد على أن فصل «مذكرة حول مكيافيلي» مهين، بشكل كامل، لتصور جديد للمخيال. وما من شك في أنه كان من الواجب، كي يتم ذلك، أن يعدل ميرلو - بونتي، بشكل أكثر جرأة، الإطار التصميمي لكتاب *فينومينولوجيا الإدراك*، كما سيكون الأمر مع كتاب *المرئي واللامرئي*، حيث يعاد صوغ مسألة المخيال بشكل جذري، وهذا ما سيشهد به، بشكل خاص، الابتعاد المتنامي عن التصور السارترى للعدم والخيال، هذا الابتعاد الذي يصل إلى درجة الانفصال الصريح، يرافقه اهتمام واضح بأفكار باشلار حول المخيال المادي⁽⁹⁰⁾. وحتى حين لا نكشف، إذاً، في هذا التفسير، التحضير الواضح لفكر يقطع الصلة بشكل صريح بالماركسية، فإن هذه التحولات جذيرة بالتسجيل، لا سيما أنها ستغني القراءة التي اقترحها لوفور لفكر المكيافيلي، بعيداً عن إرث ماركس.

من ماركس إلى مكيافيلي

التقسيم الاجتماعي، أفق حتمي لكل زمان

يعود الفضل بالدرجة الأولى لتفسير لوفور الذي اغتنى هو أيضاً بالتجربة الشيوعية، في التعبير الواضح عن الفرضية التي ترى أن إحدى مساهمات مكيافيلي تتمثل في الاعتراف بالخصوبة الكامنة للخصومة الاجتماعية. تستجيب مؤلفات الفلورنساوي بذلك لصعوبات الماركسية، بالقدر الذي ترفض فيه التسليم بوجود "توافق في الإمكانات" (compossibilité) بين البشر، ليس في الواقع وحسب، بل

في القانون أيضاً، وفقاً لمصطلحات ميرلو - پونتي. وهكذا يشرح لوفور، من خلال مفهوم "توافق الإمكانات"، أن أحد تعاليم الأمير هو أن «السياسة المطلوبة هي تلك التي تنسجم مع كنه المجتمع والتي تقبل التناقضات وتتجذر في الزمن وتنظم في محاذاة الهوة التي يقوم عليها المجتمع، وفي مواجهة الحد الذي يشكله عدم توافق الإمكانات في الرغبات البشرية»⁽⁹¹⁾. ويسعى مكيافيلي، بعد ذلك، إلى دراسة الشرط الذي يمكن للتقسيم الاجتماعي أن يعبر عن نفسه فيه، أو أن يحتجب وراءه، ودراسة كيف يمكن للسلطة أن تثبت في هذه الحاضرة المقسمة⁽⁹²⁾. إذاً لم يكن مكيافيلي يقصد مطلقاً، إذاً، الدعوة إلى التحرر الكامل للشعب، باعتبار هذا التحرر اعتناقاً من كل سيطرة وفقاً لأ نموذج ديمقراطية "مباشرة"، بل كان يشير إلى الطاقة الإنتاجية لعدم التوافق الذي يقع بين رغبة الشعب ورغبة الكبار، تحت بعض الشروط. ذلك النزاع الذي لا يمكنه استبعادته، كما هو، بالقدر الذي لا يكون فيه سوى معارض، بين مجموعتين معرفتين اجتماعياً يمكن لوضعهما التجريبي أن يتغير بشكل جذري، بل بين "مزاجين" وبين رغبتين خاصتين لا يمكن إشباع أي منهما. غير أنه ليس من الصعب أن نرى إلى أي درجة يؤكد تاريخ الشيوعية وفشلها باعتبارها مشروعاً وهمياً لإلغاء التقسيم الاجتماعي - بالتلازم مع إلغاء الدولة/المجتمع المدني، التحليلات المكيافيلية حول الموقع الحتمي لعدم التوافق، في حياة الحاضرة: «وبالنسبة إلينا، نحن القراء الذين عرفوا المشروع الرائع الذي سعى - تحت اسم الشيوعية، إلى تحقيق التحرر التام للشعب، يؤكد التاريخ بشكل كامل، الدرس المكيافيلي. لقد انبثق عن تدمير الطبقة الحاكمة شكل جديد من التقسيم الاجتماعي، بدل المجتمع المتناغم. إن هذا التقسيم ليس تقسيماً فعلياً، كما نلاحظ، لذلك يترافق الانتصار المفترض للشعب مع انقسام جديد بين أقلية ترغب في السيطرة والاضطهاد والتملك، والآخرين»⁽⁹³⁾. إن ما تبنيه تعاليم مكيافيلي، بالنتيجة، حول النزاع، هو نوع من بنية للتاريخ يمكن التعبير عنها على النحو التالي: إن كل مشروع سياسي يسعى إلى الانعتاق التام من السيطرة وإلى عزل للطبقة المسيطرة يقود بشكل حتمي إلى إعادة تنظيم التقسيم الاجتماعي. إلا أنه ينكره هذه المرة. ذلك هو مصير الأنظمة

الشمولية التي تثبت أنها **محافظة** بشكل جذري، على عكس الرأي السائد - فهي كذلك، مثلاً، وفقاً للتحليلات التي جاءت بها آرندت: تحاول هذه الأنظمة نزع فتيل بذور التغيير وتجميد الصيرورة غير المنظورة للتاريخ⁽⁹⁴⁾ وراء ستار تعويذة التقدم المعلنة، وذلك من خلال استبعاد حركية النزاع الاجتماعي والاضطرابات التي تثيرها الرغبة في الحرية لدى المحكومين.

ليس من الضروري التوقف طويلاً هنا، عند مسألة مسؤولية ماركس المحتملة في صعود الأنظمة الشمولية التي انتسبت إليه⁽⁹⁵⁾. إن ما هو مؤكد هو أنه ليس باستطاعة المبادئ الأساسية للماركسية أن تعبر عن واقع هذه الأنظمة ذات النموذج الجديد. ويسمح التعارض، ذو الطابع **السياسي**، بين الديمقراطية والشمولية، فقط، في الواقع، بالتوصيف المناسب لحقيقة يعجز التمييز بين الرأسمالية والاشتراكية عن تفسيرها. من الصحيح، من دون شك، أن ماركس يعترف، كما مكيافيلي، بالمكانة المركزية للنزاع الاجتماعي، غير أن هذا النزاع لا يمثل بالنسبة إليه أفقاً نهائياً، إذ يفترض أن يترافق الانتصار النهائي للبروليتاريا، باعتبارها طبقة عالمية، والذي يتحدث عنه في فلسفته التقريرية للتاريخ، مع إلغاء الأسباب الأساسية للتقسيم الاجتماعي. إذا كان ماركس يصف الصراعات الاجتماعية بهذا الوضوح، وصراعات عصره، بخاصة، فهو لا يعتبرها، مع ذلك مؤسّسة لكل مجتمع. وذلك لأنه حتى في قلب المجتمع الرأسمالي «هناك شبح يهدد أوروبا»، إنه الشيوعية - ليست شيوعية الديمقراطية⁽⁹⁶⁾ كما يفهمها الجمهوري مازيني - والتي عليها أن تعلن قدوم مجتمع موحد ومتصالح، يقدم في النهاية حلاً لعدم التوافق الاجتماعي. وعلى العكس من ذلك، يظهر صفاء الرؤية المكيافيلية من طريقة مكيافيلي في اعتبار النزاع أمراً ثابتاً. وتبقى المسألة، والحالة كذلك، في معرفة كيف نعترف بهذا الصراع وننكره. لقد تأكد، بهذا الصدد، أن المرحلة التاريخية لمكيافيلي، كانت في النهاية، أكثر ملاءمة من مرحلة ماركس، من أجل توضيح العلاقة الأساسية بين النزاع الاجتماعي والحراك السياسي: «من المفيد أن نتساءل في ما إذا لم يكن مكيافيلي، في الموقف الذي هو فيه، يملك آلية اكتشاف العلاقة بين التقسيم الاجتماعي والسلطة التي أصبح الفكر الحديث، بخاصة الماركسي، غير

قادر على رؤيتها بسبب الغشاوة التي أحاطتها بها التقلبات العامة للمجتمع والناجئة عن الصناعة الكبرى. إن ما يبرزه مكيافيلي، بشكل واضح، هو وظيفة النزاع باعتباره عنصر تغيير تاريخياً»⁽⁹⁷⁾. وبذلك يساهم قدوم العنصر الصناعي، بطريقة لافتة، في إخفاء ما يمثل، مع ذلك، خصوصية حراك المجتمعات السياسية الحديثة، أي الاعتراف الضمني بخصوبة النزاع، من خلال تركيز اهتمام ماركس، بخاصة بعد سان سيمون، على المسار الاقتصادي الصرف. غير أنه لا يمكن لانتشار الاقتصاد هذا، مهما كان أساسياً، لوحده أن يعبر عن طبيعة هذه المجتمعات «الساخنة»؛ تلك المجتمعات الغربية الحديثة التي تتميز بالانفتاح غير المسبوق على الخصومة باعتبارها المحرك الأساسي للتغيير. وتسمح مقارنة اجتماعية سياسية لوحدها، بعيدة عن الطابع الاقتصادي الصرف، إذاً، في تفسير التغييرات المستمرة التي تعرفها المجتمعات الحديثة.

مسألة الإيديولوجيا والمخيال

لا نستطيع مع ذلك، الاقتصاد على التعارض بين النزعة الاقتصادية الماركسية والفكرة السياسية المكيافيلية حول النزاع. لم يكن الوضع التاريخي، في النتيجة، عنصر غواية وحسب: فقد شكلت بعض أحداث عصر ماركس فرصة لتفكير محدد يتعلق بأهمية الفعل السياسي ومكانة المخيال في التاريخ. نحن نعرف، بخاصة، أن الأحداث التي رافقت انقلاب لويس نابليون بوناپرت قد أوحى إليه بالأفكار التي عرضها في كتاب الثامن عشر من برومير⁽⁹⁸⁾. وعلينا أن ندرس هنا القراءة التي اقترحها لوفور حول هذه الأفكار، لأنها توضح تقييمه للمساهمة المكيافيلية. يولي لوفور، بعد ميرلو - بونتي وآرون، أهمية كبرى لهذا المؤلف المدهش، الذي يندرج بصعوبة، ضمن إطار النظرية الماركسية التقليدية، بخاصة في شروحها المكرسة لأهمية المخيال في الحدث التاريخي⁽⁹⁹⁾. يشرع ماركس، في الواقع، في مقدمة كتابه، ببناء نظرية للتاريخ تبدو للوهلة الأولى وكأنها تعدل، أقله، الأطروحات المادية لكتاب الإيديولوجيا الألمانية، إذا لم تناقضها: «يصنع البشر تاريخهم، إلا أنهم لا يصنعونه بشكل اعتباطي، من خلال شروط يختارونها، بل

ضمن شروط متوافرة بشكل مباشر، وموروثة من الماضي. ترخي تقاليد الأجيال البائدة جميعاً بوزرها الثقيل جداً على عقول الأحياء. وحتى حين يبدو البشر مهتمين بتغيير أنفسهم والأشياء حولهم وبإبداع شيء جديد جداً، فإنهم سيتذكرون، في عصور الأزمة الثورية هذه تماماً، مع شعور بالخوف، أرواح الماضي ويستعيدون أسماءها وشعاراتها ولباسها، كي يظهروا على المسرح الجديد للتاريخ بهذا اللباس التنكري المحترم، وبهذه اللغة المستعارة»⁽¹⁰⁰⁾. إذا بدت الإشكالية التي رُسمت في كتاب الثامن عشر من برومير، من الأكثر خصوبة، فذلك لأنها تحتوي على تناقض أساسي يتمثل في ربط مفصلين للتاريخ: يرتسم المستقبل الختمي للثورة، من جهة، خلف التاريخ "الشبحي" الذي يوصفه ماركس - انسجاماً مع الأطروحات المعروفة للماركسية - مستخدماً الأحداث كافة لمصلحته. غير أن المدهش، من جهة أخرى، أن نشير إلى أن ماركس لا يتحدث هنا سوى قليلاً عن البروليتاريا وعن مشروع سيطرة البرجوازية لأن «من البديهي أن ما يهمله هو تفكيك حبكة سياسية والتحسيس بتعقيدها والتنديد ببطلانها»⁽¹⁰¹⁾. ويمكننا أن نستخلص بذلك، وفي ما يتعلق بالنزاعات بين (الأورليانيين) (ليبراليو الجمهورية الثالثة) والشرعيين (المطالبون بعودة الملكية)، أن منطق المصالح لا يعطي المفتاح الحاسم لتفسير الأحداث، بل إن ما يحقق ذلك هو، بالأحرى، منطق «عدم الاعتراف بهذه المصالح». إن ما يبرزه التحليل الماركسي بهذه الطريقة هو «قوة المخيال»، وبشكل أدق، الدور الذي يقوم به هذا المخيال في المجتمعات الحديثة ولا نستطيع أن نعتبر كتاب الثامن عشر من برومير، بهذا المعنى تطبيقاً بسيطاً لأهم موضوعات المادية التاريخية، ولا تحويراً هامشياً للمذهب. وإذا وجدنا هنا، في الواقع، تجديداً فلسفياً سياسياً، إلى جانب هذا التساؤل حول المخيال، فذلك ما يمكن أن نتعرف به، من خلال دراسة الطريقة التي حدد فيها ماركس الغاية من مؤلفه: «لقد لفت هيغل، في مكان ما، إلى أن الأحداث التاريخية جميعها والشخصيات التاريخية تتكرر، إذا صح القول، مرتين. وقد نسي أن يضيف أننا، في المرة الأولى أمام مأساة، وفي المرة الثانية أمام مهزلة»⁽¹⁰²⁾. والحال، أن باستطاعتنا أن نشير إلى أن الأسئلة التي يوردها ماركس ليدعم هذا التأكيد ترجع

إلى العصر الحديث. أضف إلى ذلك أنه حين يصف، في نصوص أخرى، المجتمع ما قبل الرأسمالي، ويلح هنا أيضاً، على ثقل التمثيل والمخيال، فإنه لا يتحدث هذه المرة عن "شبح" ولا عن "مهزلة": «يقول ماركس عن الكائن القبلي المصوّر في صورة كائن فوق طبيعي أو في مستبد بأنه يجسد جماعة خيالية تتجاوز تعددية الجماعات الأساسية، غير أنه لا يطلق على هذا الكائن لقب الشبح»⁽¹⁰³⁾. لماذا إذا يُحتشد مصطلح "شبح" بشكل مميز للتعبير عن تجربة الحدّات الاجتماعية والسياسية. يعود سبب هذا التغيير إلى أن انبعاث المخيال في المجتمعات الحديثة يحمل دلالة جديدة. فإذا تحدث ماركس في هذه الحالة عن "أشباح" فذلك لأن الثورة الرأسمالية تستثير بالمقابل ردوداً مقاومة و«قوى تحتشد لتفكيك تأثيرات كل جديد»، وذلك من خلال تذويب الصيغ الجماعية التقليدية كافة وافتتاح تاريخ غير مسبوق. وفيما كان المخيال يشكل جزءاً، ومن الداخل، من البناء الرمزي للمجتمعات القائمة على تصور نظام راسخ ما للعالم، يصبح علينا أن نفسر انبعاث هذا المخيال على أنه محاولة إجابة عن مسار غير مسبوق لاختلال الروابط التقليدية المترافق مع الرأسمالية: «يصادف دخول الأشباح إلى المسرح قيام مجتمع بلا جسد، مجتمع خال من الجوهر»⁽¹⁰⁴⁾. إن ما يريد ماركس قوله هو أن الطبقات الحاكمة تتراجع أمام هذه المهمة، بسبب مواجهتها للحديد ووقوعها في تاريخ غير مسبوق يتطلب ابتداء حلول غير مسبقة: تقوم هذه الطبقات «باستذكار الموتى، وتلبس الحاضر لباس الماضي، كما تلبس لباس الرومان» و«تخترع ماضياً»، في اللحظة نفسها التي يكون فيها تواصل الزمن متوقفاً بشكل لا عودة فيه. يمكن أن يشرح التكرار التاريخي، إذاً، باعتباره تعبيراً عن سلوك هروب مرتبط بالقلق أمام مهام الحاضر. ليس ما يقود البرجوازية إلى سلوك انكفائي هو مصلحتها المفهومة جداً، بل الوعي بعرضية سيطرتها: «تؤسس صورة الرومان للثورة البرجوازية، لأن البرجوازية غير قادرة على أن توحد صورتها وصورة المجتمع بما هو عليه، إلا بشرط أن تخفي طبيعتها الطبقيّة في المجتمع، كما لا تستطيع أن تبرز غموضها الخاص مع التاريخ، إلا بشرط أن تستر على عرضية الحاضر»⁽¹⁰⁵⁾. ومن هنا يبدأ من هنا رسم الخطوط العريضة للتفكير حول تأثير المجتمعات الحديثة بالإيديولوجيا التي يحتل

دورها في مجرد تمويه للمصالح، ولا تقرها بشرحية اجتماعية اقتصادية تعتبر مدخلاً لتفسيرها.

علينا أن نشير، في ما يخصنا، إلى أن هذه المشكلة غير المسبوقة التي تواجهها السلطة السياسية في العصر الحديث، التي يوصفها ماركس في كتاب الثامن عشر من برومير، تجد أصلها، وفقاً للوفور، في نهاية العصر الحديث، بين آخر عقود القرن الرابع عشر والثلث الأول من القرن الخامس عشر، بخاصة في فلورنسا⁽¹⁰⁶⁾. شهدنا آنذاك صعود خطاب ذي نزعة إنسانية تؤسس مبادئه للفكر الديمقراطي الحديث؛ بخاصة في ما يتعلق بالمساواة بين المواطنين أمام القانون، والشراكة في المواطنة بين جميع من يتمتعون بحقوقها، والعمل كمصدر شرعي ووحيد للتمييز بين البشر. ولكن من المهم، في الوقت نفسه، أن نبرز وظيفة التمويه لهذا الخطاب، أي الفرق بين معناه الظاهر ومعناه الباطن. إذا تفحصنا، في الواقع، السياق الاجتماعي التاريخي الذي أدى إلى ظهور هذا الخطاب، فلا يسعنا إلا ملاحظة أنه لا يصادف صعود الديمقراطية، بل يترافق مع تراجع للطبقة الحاكمة ضمن حدود حكم الأقلية⁽¹⁰⁷⁾. وتشير الطريقة التي تدافع فيها الأقلية عن سطوتها إلى «خيال التكرار التاريخي»: تقوم المجموعات الحاكمة الفلورنساوية بتقليد الأبطال الرومان، وتكلم لغتهم لدرجة تعدّل معها رواية تأسيس فلورنسا كي تجعل منها وريثة لهذا التأسيس. فكيف لا نتذكر، والحال كذلك، تحليلات ماركس في كتاب الثامن عشر من برومير والتي تبين أن البرجوازية تستدعي بقلق أرواح الماضي لمواجهة متطلبات الحاضر؟

وهكذا، إن قراءة مكيافيلي قد حثت لوفور على إظهار هذا الطابع المتفرد للخطاب الإنساني باعتباره محاولة لإنكار التقسيم الاجتماعي. وقد كشف مكيافيلي، في الواقع، وبفضل نقده للأفكار السائدة في زمانه، عن وظيفة التمويه التي تقوم بها التصورات المؤسسة، وأشار على هذا الأساس، وبشكل مسبق، إلى طبيعة الخطاب "الإيديولوجي" ووظيفته، بالرغم من أنه كان يجهل المصطلح. وفي كل الأحوال، ترافق ظهور مؤلفات مكيافيلي مع صعود الخطاب "الإيديولوجي" المؤسس للمجتمعات الحديثة، والذي لا يمكن أن نفصله بالذات عن تداخل الشأن

السياسي والشأن الديني الأسطوري: لم يعد التفكير الذي يمارس حول السلطة خاضعاً بنحو صارم للتصور الديني للعالم الذي يحدد لوحده «علامات الحقيقي والمخيالي، والحقيقي والمزور، والخير والشر». ويمكننا أن نقدر، على هذا الأساس أن نقد الأوهام السياسية الانكفائية يوحد ماركس ومكيافيلي لأسباب مشابهة. فقد سبر الفيلسوفان السياسة، في الواقع، بعد انهيار البنى التقليدية للشرعية من خلال إدراكهما لمندرجات مثل هذه الطفرة، بوضوح استثنائي. وإذا كان ماركس ومكيافيلي يشكلان جوهر تفكيرنا، فذلك لأنهما قد «دمرا أوهام المثالية من أجل مواجهة مجتمع بلا تراتبية طبيعية، وسلطة بلا، شرعية وتاريخ بلا غاية»⁽¹⁰⁸⁾. وتنتمي «الواقعية المكيافيلية الماركسية»⁽¹⁰⁹⁾ إلى تاريخنا، وذلك، تحديداً، بمقدار ما تواجه به أهم مسلّمات الفلسفة الكلاسيكية، آخذة بالاعتبار الطفرات التاريخية التي لا عودة عنها والتي رافقت الحداثة. إذ نجد في هذه الواقعية الشك نفسه، في كل نزعة عقلانية غائية، والرفض المماثل لتأسيس «نظام صالح»، على فرضية جوهر إنسان عاقل، واتهماً مشابهاً ينال من النزعة الإنسانية الأخلاقية التي يخفي تشجيعها العقيم، بأسلوب منافق، لعبة العنف بدل مواجهتها، وأخيراً - وهذه أهم نقطة في هذا السياق - نقداً مشابهاً، في الكثير من النقاط، يتناول الإيديولوجيا والعودة الانكفائية إلى الماضي.

مقام الخطاب لدى ماركس ومكيافيلي

لا يمكن لهذه النقاط المشتركة والتي توحى بوجود روابط حقيقية أن تخفي التباينات بين المفكرين؛ الأمر الذي جعل لوفور غير قادر على التأكيد مثلما فعل كروتشي، بأن ماركس هو «مكيافيلي البروليتاريا»⁽¹¹⁰⁾. ولئن كان الفلورنساوي يشير، في بعض الجوانب، إلى ما سمي لاحقاً خطاب "الإيديولوجيا"، فإنه لا يواجه هذه المسألة بالطريقة عينها التي واجهها بها ماركس. وذلك لأن مشروع ماركس (وليس الماركسي) لم يسع إلى سبر دلالة الخطاب الإيديولوجي بالذات، بمقدار ما كان إظهار «ما يخفيه وكيف يخفيه، بفضل الفهم المكتسب للعلاقة الاجتماعية، ولأساسه الاقتصادي، وللتناقض التاريخي للطبقة الحاكمة»⁽¹¹¹⁾. وهكذا، لم يكن

هذا بالطبع مشروع مكيافيلي الذي كان يجهل هذه الأولية الممنوحة للاقتصاد. وبكلام آخر، يبدو أن نقد الإيديولوجيا لدى ماركس مرتبط بشكل وثيق بتعريف مسبق لماهية "الواقع".

من المؤكد أنه من الخطأ اختزال فكر ماركس في هذا التفسير الوضعي الوحيد، حيث أننا لن ندرك بهذه الطريقة سوى "نصف الحقيقة". لذلك علينا أن نلاحظ، في الواقع، أن ماركس لا يدرك "الواقع" إلا من خلال نقد خطابات أخرى، بخاصة، خطابات الفلسفة الألمانية⁽¹¹²⁾. ففيما يزعم أنه يعتمد الواقع "القائم" كنقطة انطلاق، علينا الاعتراف، من جهة أخرى، أنه يبدل الجهد للعودة إليه، من خلال نقد خطابات تدّعي أيضاً، أنها تكشف حقيقة هذا الواقع. ويعني هذا الأمر أن نظرية ماركس ونقده للإيديولوجيا لا تقتصران - كما يُزعم غالباً - على استبدال الفكرة بالواقع، بشكل تقريرى: «يترافق هذا الانقلاب مع تخريب عميق لمقام المعرفة، طالما أن الوهم الفلسفي مستهدف ضمن مسار بناء المعرفة، باعتباره معرفة منغلقة على ذاتها، تخفي شروط صعودها من خلال فصل نفسها عن الممارسة الاجتماعية، وتتمثل في صورة النظام، وتناهى عن التناقض، وتعيد إنتاج التناقضات التي تقوم في أصلها، ومن دون دراية منها، ضمن حقلها، وهي في النهاية تمنح الشرعية للنظام الاجتماعي القائم فيما يعتقد نفسه في كنف الكلّي»⁽¹¹³⁾. إذا كان صحيحاً أن ماركس نفسه، يقع من جديد في الوهم الفلسفي الذي يدينه من خلال بناء تصوره المادي للتاريخ، فلا يجوز أن نقل، من جهة أخرى، من قيمة الطريقة التي يستخدمها، في تغيير مقام المعرفة نفسها. وبالتوافق مع هذا، وفيما يبدو أن مصطلح الإيديولوجيا يفترض مسبقاً في نظر القارئ الحديث وثوق الذات العارفة بالواقع والحقيقي، فإن علينا ألا ننسى أن ماركس كان يؤسس لهذا المفهوم لدرجة علينا معها إبراز هذا الاكتشاف للخطاب الماركسي الرسمي: «فيما يستثمر الآخرون معرفة مزعومة حول الإيديولوجيا، يفكر ماركس في محنة ما لم يعد خاضعاً للتفكير فيه؛ فهو يفكك تمثيل الواقع؛ أو بما أن هذا التمثيل ليس مدركاً على أنه كذلك، يذهب إلى الكشف عما هو معتبر واقعاً فيرده إلى كونه تمثيلاً، ويجعل واقعياً كل ما هو

مستتر»⁽¹¹⁴⁾. غير أن عملية القراءة الكاشفة هذه قائمة، بشكل جزئي في مؤلفات مكيافيلي نفسه، حيث أن مسعاه هو «تحرير الحقيقة من السياسة ومن تاريخ تمثيل مؤسساتي، وإظهار تكوينها ضمن الشروط الاجتماعية، ووظيفتها في التستر»⁽¹¹⁵⁾. يمكن تفسير التفكير المكيافيلي، بهذا المعنى، على أنه نقد للنزعة الإنسانية الفلورنساوية التي يتشارك معها جزئياً، في المفاهيم، فيما يكشف، في الوقت نفسه، وظيفتها التمويهية⁽¹¹⁶⁾. يرى مكيافيلي، في الواقع، أن النزعة الإنسانية الفلورنساوية تعبر عن نوع من الكذب، بخاصة، وأن الخطاب الجمهوري يتبنى فكرة تفوق الحياة العملية. غير أن هذا التبنى يخفي شراً قائماً بين البرجوازي والمواطن؛ يُعهد للمرتزقة، في الحقيقة، بالدفاع عن الحاضرة، أضف إلى ذلك أن فكرة مساهمة الجميع في الحياة العامة تخفي احتكار السلطة من قبل الأقلية. لا يدعي الخطاب المكيافيلي المعتاد إذاً، أنه يطل على التاريخ كي يكشف حقيقته النهائية.

تطابق الطريقة التي يقدم فيها الطموح الفكري لمكيافيلي، بهذه الطريقة، تعريف ميرلو - بونتي للفلسفة باعتبارها نقداً لوضعية "التحليق" «إن الفلسفة في صميم التاريخ، فهي لا تنفصل أبداً عن الخطاب التاريخي، غير أنها تستبدل - من حيث المبدأ - الرمزية الضمنية للحياة برمزية يقظة، والمعنى الكامن بالمعنى الظاهر»⁽¹¹⁷⁾. ويجب أن تُفهم ضمن هذا المنظور، على ما يظهر، ووفقاً للوفور، غاية الخطاب المكيافيلي الذي لا يدعي كشف الحقيقة النهائية حول كنه المجتمع والتاريخ، وكأن بإمكان هذا الخطاب أن يتواجد في وضع خارجي صرف، وفقاً لأنموذج عقلانية العلم الكلاسيكي: تبين أن هذا الخطاب «شيء مختلف في الحقيقة، عن خطاب حول تقسيم الطبقات، وحول رغبة الطبقة، وحول المؤسسة والوهم. إنه خطاب حول شيء اختلس أساسه، وهو يكتسب شرعية من إطلاق خطاب تخفيه الحياة الجماعية ويتبدى بشكل جزئي، وتتطلب كذباته ما يشبه الصمت، أي أن يصبح المرء شارح شروح مكتومة - أو كأن هذه الشروح مخبأة بالضرورة، في اللغة المتاحة للكاتب - وأن يصبح الشارح الذاتي للخطاب الذي يستخدمه المجتمع في الحديث عن ذاته»⁽¹¹⁸⁾. نستطيع من الآن فصاعداً أن ندرك التقارب، والتباعد بين مكيافيلي

وماركس. يخرب مكيافيلي -، كما ماركس على طريقته - مقام المعرفة نفسها، مع هذا الاختلاف في أنه لا يدّعي من جهته امتلاك تعريف "للواقع"، إذا كان المقصود من ذلك «واقعي فاته»، باعتباره نظام أشياء صامته، يغطيه نظام أشياء معلنة، وكأنه انعكاس له»⁽¹¹⁹⁾. وبالمقابل، علينا أن نقبل بأن ماركس، غالباً ما يخضع لمثل هذا التصور: والمثال على ذلك وارد في كتاب *الإيديولوجيا الألمانية*، حيث تدعونا القناعة حول الواقعي والحقيقي التي تظن المعرفة المادية أنها تملكها، إلى التخلص من الفلسفة من أجل بناء «واقعة الإنتاج الصرف، من دون أي لغة»، وكأنه يكفي أن "نرى" كي "نعرف"⁽¹²⁰⁾. يمكننا أن نقدر، إذاً، أن عمل الفيلسوف، كما يفهمه لوفور في متابعته لفينومينولوجيا ميرلو - پونتي، أي باعتباره استبدال «رمزية واعية» «برمزية صامته» و«الصمت الظاهر» «بالصمت الضمني»، و«المعنى الظاهر» «بالمعنى الكامن»، يشير بشكل مناسب إلى فكر مكيافيلي أكثر منه إلى فكر ماركس؛ إذ يتمسك الأول بهذه الغاية، على عكس الثاني الذي يهملها كي يقع في وهم المعرفة النهائية حول الواقع.

البعد المخيالي للسياسة:

من ماركس إلى مكيافيلي

وهكذا، إذا لم يكن بالإمكان الزعم بكشف حقيقة مؤلفات ماركس النهائية⁽¹²¹⁾، فعلينا أن نلاحظ أن تصوراً وضعياً، أو علمياً للتاريخ، يفسر في النتيجة، أحاسيسه الخصبية المتعلقة بمقام المعرفة. وتبدو حدود فكر ماركس هذه واضحة، بشكل خاص، في تحليله للمخيال السياسي، على الرغم من حدسه الواعد. ما من شك في أن لكتاب *الثامن عشر من برومير* الفضل في إبلاء المخيال مكانة جوهرية، غير أنه علينا أن لا نهمّل واقعة أن ماركس يعتبر المخيال ظاهرة *انكفائية* وحسب، على عكس ما ذهب إليه مكيافيلي ويمكن أن تفسر عودة لوفور إلى مكيافيلي، ضمن هذا السياق، على أنها إعادة اكتشاف للخصوبة التاريخية للمخيال. وتعتبر المقارنة بين مكيافيلي وماركس، بهذا الصدد، امتداداً لأحاسيس ميرلو - پونتي، بخاصة، الآفاق النهائية المفتوحة في كتاب *المُرئي واللا مرئي* حول

مسألة المخيال، وبشكل أدق، حول مسألة المخيال السياسي والاجتماعي. يريد ميرلو - بونتي، في الواقع، أن يبين أنه قد اعتبر، دوماً، وفي ما يتعلق «بالإنسان المكوّن على المعرفة الموضوعية للغرب»، أن من البديهي أنه لا يكون للسحر والأسطورة «حقيقة ضمنية» وأن «علينا أن نفسر التأثيرات السحرية والحياة الأسطورية والطقسية بأسباب «موضوعية» مردها في النهاية إلى أوهام الذاتانية»⁽¹²²⁾. ومع ذلك، يبدو أن هذه الإشكالية غير كافية في النهاية: لئن كان من الصحيح «أننا قد استودعنا السحريّ في الذاتانية»، فما من ضمان على الإطلاق مع ذلك لخلو العلاقة بين البشر «وبشكل حتمي من مكونات تمت بصلة إلى السحرية والحلم»⁽¹²³⁾. وتندرج قراءة لوفور لماركس، على ما يظهر، ضمن امتداد هذه الأفكار الأخيرة حول المخيال الاجتماعي: في الواقع، يكشف تفسيره لكتاب الثامن عشر من برومير، أن الفكر الماركسي يبقى - بسبب عجزه عن تقدير خصوبة المخيال، مرتبطاً بما أسماه ميرلو - بونتي «المعرفة الموضوعية للغرب»⁽¹²⁴⁾.

يدفع تحليل لوفور، في الواقع، إلى التفكير بأن ماركس لم يمنح المخيال سوى وظيفة سلبية ووهية عموماً: ففي حين لا يعتبر «بعث الأموات» سوى علامة على سلوك هروب البرجوازية الساعية بشكل يائس إلى التخلص من متطلبات الحاضر كي تتماهى مع أدوار الماضي، فإن الثورة البروليتارية، كما يفهمها ماركس، تعتبر الوحيدة القادرة على تدمير آلية التكرار، ولا تتطلب، في ما يخصها، «أية صورة للتاريخ»⁽¹²⁵⁾. ونلاحظ، في الواقع، أنه إذا كان «الشكل يتجاوز المضمون»، مع البرجوازية، فإن العكس يكون صحيحاً مع قدوم البروليتاريا كما يرى ماركس، «فالمضمون يتجاوز الشكل». لقد وصّفت البرجوازية على أنها محرك لثورة تتم من دون علمها وأنها تبذل الجهد كي تخفيها بتصورات تعود إلى التاريخ الماضي. أما مع البروليتاريا، فهناك على العكس من ذلك، إبداع «لا يعود يتجاهل ذاته»، إلا أنه «لا يظهر لنفسه»، ويحمل معه الشيوعية «من دون أن يتصورها». ومع ذلك، يدعو هذا الإلحاح الذي يسعى ماركس «إلى أن يستخرج من التمثيل الحركة الفعلية للتاريخ، أي الثورة الشيوعية، إلى إدراك «حدود لفكره»⁽¹²⁶⁾. وتقوم هذه

الحدود، بشكل دقيق، على الادعاء بإعلان الحقيقة النهائية حول واقع متحرر أخيراً من كل تمثيل، وعلى المعارضة، بشكل جذري، بين «الإنتاج» و«التمثيل». ومع ذلك، يرفض مضمون خطابه نفسه هذا الادعاء، لأن هذا الخطاب يتشكل ضمن الارتباط بالإيديولوجيات التي يكشف عنها. وحين يوصف ماركس، في النتيجة، البروليتاريا، باعتبارها «ورثة من دون ميراث»، ومتحررة من «شعر الماضي» الذي يقضي على كل تقليد من خلال تحقيق قدر البشرية، يمكننا أن نتساءل، بشكل مشروع، في ما إذا كان على البروليتاريا، هذا «الكائن الغريب»، أن تعرف باعتبارها «مدمر المخيال الاجتماعي» أم أن من المحتمل، أن يكون واجباً أن نضيف أنها آخر ناتج لمخيال ماركس»⁽¹²⁷⁾.

هل من واجب أيضاً، أن نصل بالقطيعة مع ماركس إلى ما «يعتبره السؤال النهائي»، أي «السؤال حول الوحدة المستقبلية لمسار اكتساب الطابع الاجتماعي، في الواقع»⁽¹²⁸⁾. يرتبط هذا الموقف الماركسي، ارتباطاً شديداً بالاختزال الأولي للإيديولوجيا الذي جعل منها "انعكاساً" للواقع المفترض. ولأن ماركس يعتقد، في الواقع، أنه - وبعبداً عن وهم الخيال - يمتلك تعريفاً للواقع «في ذاته»، يعتبر أنه قادر على الإعلان عن التحقق الكامل للإنسانية الموحدة والمتصالحة مع ذاتها، في النتيجة - تحقق يفترض أنه مترافق بحق مع إلغاء التمثيل والمخيال. أما الاعتراض الذي يمكن أن يوجه إليه، مع ذلك، فيقول «إن مسألة الوحدة تطمس مسألة الهوية الاجتماعية التي لا يمكن أن تثبت كيانها في الواقع، إذ تتطلب انشقاقاً، وتسجيل دخول الممارسة في نظام اللغة»⁽¹²⁹⁾. يقوم وهم ماركس، في الواقع، على القناعة بأن تقسيم المجتمع كما وحدته، يقبلان الدراسة التجريبية القائمة حصرياً على منهجيات العلم الوضعي. ويتمثل الدليل على ذلك في الطريقة التي يرجع فيها تقسيم العمل في كتاب الإيديولوجيا الألمانية إلى نظام واقع قائم، حيث يشرح ماركس أن هذا التقسيم لم يكن - في نظرة معمقة إلى الأمور - شيئاً آخر في البداية غير تقسيم العمل الجنسي. ويصبح من الضروري، من الآن فصاعداً، نقد الماركسية حول هذه النقطة: إذ علينا أن نتوقف عن الخلط بين «التقسيم الاجتماعي والتوزيع التجريبي للبشر في عملية الإنتاج». وترى أطروحة لوفور، في الواقع، أننا «لا نستطيع أن

نحدد هذا التقسيم، كما هو الحال بالنسبة إلى التقسيم الجنسي، في حيز موضوعي يسبقهما». و«إننا لا نستطيع أن ننسبه لنواح إيجابية، فيما تنبثق هذه النواحي، بهذه الصورة، من خلال حركة التقسيم الاجتماعي نفسها». في الواقع، «إن ما يتأسس (...) مع التقسيم هو الحيز الاجتماعي، وهو لا يتأسس إلاً بالقدر الذي يظهر فيه أمام نفسه»⁽¹³⁰⁾: «إذا لم يكن التقسيم الاجتماعي داخل المجتمع، فسيصبح مفهوماً ألاً تتحقق وحدة العالم الاجتماعي في الواقع. وتنجز هذه الوحدة بواسطة مشهد تخيالي، ولا يعني هذا الأمر، مع ذلك، أنه وهمي بالضرورة، وذلك لأننا نقع، بذلك في الفرضيات الوضعية. لقد درس لوفور، على ضوء هذه الإشكالية، وفي مواجهة الاختزال الماركسي، ما طُروح من مسائل في أثناء تشكل الدولة الحديثة: «فحيث ترسم حدود السلطة السياسية داخل المجتمع، بصفتها ذلك الجهاز الذي يمنحه وحدته، وحيث يفترض بهذه السلطة أن تجدد أصلها، المكان الذي يفترض أن يتولد فيه هذا الأصل بفعل تأثيرها بالذات، يتبدى المشهد الاجتماعي، وتأسيسها هو الذي يتقدم ليظهر على هذا المسرح، ضمن ما يجري عليه من أحداث وفي إطار العلاقات التي تقوم بين الأفراد والمجموعات هناك يتم رصد خيوط "الواقع"»⁽¹³¹⁾. إن ما يقودنا ميكافيلي إلى التفكير حوله بدقة، هو استحالة الانفصال النهائي عن المخيال، وكأنه ليس بالإمكان أن يكون هناك شيء آخر سوى الخداع⁽¹³²⁾. من هنا يأتي التأكيد على المكانة المركزية للسياسة. إذ تثبت معها، في الواقع، مسألة الصورة التي تبثها السلطة عن نفسها، والتي يرجع إليها مجتمع على جانب شديد من التنوع والتعدد والتنازع. وهذا يعني أنه ليس بالإمكان اختزال السياسة - كما لدى ماركس - بمقام "البنية الفوقية"، ولو بشكل يلحظ فيه طابع التعقيد. وذلك لأننا لا نستطيع مقارنة تقسيم المجتمع ووحدته، بعيداً عن أخذ "المشهد" السياسي الذي ترى نفسها معروضة فيه كموضوع للتفكير أيضاً. ومن دون هذا الإخراج، لا يمكن لهذا المجتمع، في الحقيقة، «أن يتماسك»، بالرجوع إلى ذاته من باب طرف ثالث متمثل بالسلطة السياسية. وما من شك في أننا نصبح أكثر قدرة الآن على قياس أهمية كلامنا من خلال الإلحاح بشكل عام، على مكانة الاستعارة المسرحية في قراءة ميرلو - بونتي لميكافيلي، والتي عمقها لوفور. ويتبع تفسير لوفور، في الواقع، الحركة

نفسها في إيضاح البعد المسرحي والمخيالي البحث لفعل الأمير، ويقدم فكرة عن الشأن السياسي باعتباره «إخراجاً مسرحياً» و«إخراجاً دلاليّاً»⁽¹³³⁾.

مقام الدولة الحديثة لدى مكياڤيلي وماركس

يرتبط أحد أهم رهانات المقارنة بين مكياڤيلي وماركس، إذاً، بمسألة دلالة السلطة السياسية في المجتمعات الحديثة. نحن نعرف أهم ملامح النقد الماركسي للوهم السياسي الذي يقود تطرفه، في الغالب، إلى إنكار كل حيثة خاصة بال مجال السياسي من أجل ردّه، على الأغلب، إلى المجال الاجتماعي، وفي النهاية إلى المجال الاقتصادي وإخضاعه له. لنذكر باختصار جداً، أن «الثورة» البرجوازية، كما تفهمها الماركسية، تشير إلى ظهور انقسام بين المجتمع المدني والدولة. وضمن هذا الإطار، تعتبر الدولة التمثيلية الحديثة حيّز عام، فيما هي ليست، في الواقع، سوى مؤسسة تسعى إلى حماية المصالح الاقتصادية للبرجوازية، وبشكل مباشر تقريباً. على الثورة البروليتارية المندرجة ضمن التناقضات الداخلية للرأسمالية، إذاً، أن تقوم بإلغاء هذا الانشقاق بين المجتمع المدني والدولة. وما من شك في أنه من المناسب جعل الصورة أكثر تعقيداً، من خلال تحليل الطريقة التي يعالج فيها ماركس، في تحليلاته الدقيقة، مسألة الدولة، آخذين في الاعتبار انعطافاته⁽¹³⁴⁾. وعلينا أيضاً تفحص ما يميز المواقف التي تقدم بها أنغلز، بشكل منفرد، عن مواقف ماركس. ويكفي، في ما يخصنا، أن نذكر أن التصور الماركسي يرى في الدولة، عموماً، حقيقة مشتقة وذرائعية. فهي ليست سوى أداة سيطرة لطبقة، ولذلك هي آيلة إلى الزوال. وذلك لأنه وفقاً للتعبير الوارد في *البيان الشيوعي*، ليس الحكم الحديث سوى «لجنة تدبير الشؤون العامة للطبقة البرجوازية بأسرها»⁽¹³⁵⁾. وبالمقابل، إن ما تحب الإشارة إليه هنا، هو أن القراءة الماركسية لمكياڤيلي يمكن أن تؤيد هذه الأطروحة المادية حول الوهم السياسي: ألم يدشن مؤلف *الأمير* عصر الفكر السياسي الحديث من خلال مفهومه للسلطة باعتبارها كياناً مستقلاً ومجرداً؟ تلك أقله، الأطروحة التي صاغها سامي ناير (Sami Naïr) في مؤلفه *القيم مكياڤيلي وماركس*⁽¹³⁶⁾، الذي يقدم القراءة الأكثر منطقية للفكر المكياڤيلي. من المفيد هنا

التوقف عند هذا المؤلف لأن دراسته تسمح بتقويم أفضل - من خلال التباين - لرهانات تفسير لوفور.

إذا اتبعنا إعادة التركيب الإجمالية التي قام بها ناثير، يصبح مكيافيلي رائداً لهوبس وللفكر السياسي الحديث، من خلال ما قام به من فصل جذري بين المجتمع المدني الذي يحكمه الغموض والأنانية من جهة، و«أسطورة الدولة» من جهة أخرى، أي المشهد السياسي حيث تُعرض بشكل خادع الكلية الاجتماعية. ويشكل فكر ماركس الشاب قطيعة جذرية ومخلصة في الفكر الحديث، من خلال نقده "لوثنية الدولة" - التي كان مكيافيلي صاحب المبادرة فيها على المستوى النظري - ومن خلال إظهاره «الأقنوم الذي يتحول من خلاله الشأن الخاص والمجتمع الممزق إلى حالة كلية مزيفة الملموسية»⁽¹³⁷⁾. إذا استطعنا أن نقارن، ضمن هذا المنظور، بين مؤلفات مكيافيلي وماركس، فلن يتم ذلك بسبب التوافق في مشروعهما، بل - على العكس - لأن هذه المؤلفات تمثل لحظتين رئيسيتين ومتعارضتين، بشكل جذري، في الفكر السياسي الحديث: فيما «يفتح [الفيلورنساوي] أمام السياسات الغربية حقل تفكير جديداً»، مشاهداً للثورة الغالية الديكارتية «من خلال اعتبار الشأن السياسي يشكل موضوع معرفة، ومن خلال إدراكه في تجريده، كما في استقلاله»، فإن الشاب ماركس، ومن خلال حركة معاكسة، «يدشن القارة الاجتماعية الحقيقية للفكر الحديث من خلال اعتماد نقد أشكال السيطرة الخاصة بتنظيم المجتمع البرجوازي». وباختصار، فيما يبني [مكيافيلي] علم الشأن السياسي على نفي المجتمع، يحاول ماركس الشاب، على العكس من ذلك، «التفكير في الشروط التي يمكن من خلالها للصيغ المجردة للشأن السياسي أن تُفكك وتُنسب إلى حضور الذات الاجتماعية بنفسها»⁽¹³⁸⁾.

إن هذا التفسير "الماركسي" لمكيافيلي، والذي يجعل منه مفكر التجريد السياسي، جذاباً إلا أنه قابل للنقاش، بخاصة إذا قارناه مع تفسير لوفور. لقد أشرنا، في الواقع، إلى الصعوبات التي يمكن أن تثيرها القراءات السريعة التي لا ترى في مكيافيلي سوى منظر للحقل السياسي باعتباره حقلاً مستقلاً قابلاً لأن يُعرف معرفة علمية. ولا شك في أننا سنتجاوز النصوص، إذا استطعنا أن نجعل من مكيافيلي بروميتيوس الحديث، أو

كما يقول ناثير، إذا جعلنا منه «أنا مسيطرة» تفرض إرادتها على رعايا خبثاء وعميان⁽¹³⁹⁾. ليس من المؤكد، في الواقع، أن إلحاح مكياڤيلي على مسألة خبث الرعايا، يهدف فقط إلى تبرير ضرورة السلطة السياسية باعتبارها مقاماً للإكراه بعيداً عن المجتمع. توحى قراءة ميرلو - بونتي ولوفور، على العكس من ذلك أنه ليس للشعب طبيعة محددة بشكل دائم في الفكر المكياڤيلي، كما توحى بالتزامن مع ذلك، بأن النزاع باعتباره اجتماعياً وليس طبيعياً يمنع قيام سلطة مطلقة. ما من شك في أن التفسير الماركسي الذي قدمه ناثير يعترف بأن مكياڤيلي لم يفصل، بشكل جذري، بين المجتمع المدني والحقل السياسي؛ ذلك لأن وظيفة السلطة هي "التعبير" عن المجتمع الذي أنتجها⁽¹⁴⁰⁾. غير أن علينا أن نفهم هذا التعبير عن المجتمع باعتباره مرتبطاً حصرياً بالدفاع عن المصالح الخاصة. يعني تحقيق أمن الشعب، ضمان شرعية ممتلكاته. ويسمح تفسير لوفور، هنا أيضاً، بتجنب هذا النوع من القراءة الاختزالية ذات الطابع الماركسي، من خلال إبرازه لخصوصية رغبة الشعب باعتبارها رغبة في تجنب الاضطهاد. يبين ناثير من جهته، ومن خلال إهماله الظاهر لهذا التمييز، أن السلطة تعبر عن المجتمع، شرط أن نعتبر "هذا التعبير" خادعاً ومتلاعباً بالرأي العام: إن الشعب المحكوم عليه بالحالة العلنية، لا يتحرك إلا في اللحظة المباشرة والمجال الخاص، فيما يمسك الأمير لوحده بمعرفة السياسة⁽¹⁴¹⁾. وبكلام آخر، إن المصالح الخاصة، في مستوى المجتمع المدني، محدودة بشكل حتمي، فيما تبدو السلطة وكأنها حيز الكليات. وهكذا، يتصور مكياڤيلي التمثيل السياسي الحديث باعتباره كلية مزيفة. وهنا أيضاً، يرفض لوفور هذا المنهج من خلال الإشارة إلى أنه علينا أن نفهم سذاجة الشعب في خصوصيتها، باعتبارها صيغة متفردة للمعرفة، وليس على أنها جهل مطبق خاضع لتلاعب الأمير الذكي؛ ما يعني أن الصورة الأسطورية للسلطة لا تأتي من الخداع بل تستجيب - على العكس من ذلك - لمطالب شرعية.

يوضح هذا الفحص الدراسة لقراءة ناثير التي تأتي ضمن أفق فكر ماركس - الشاب بخاصة - ومن خلال المقارنة، الطريقة التي يتمسك بها لوفور لتجنب هذا النموذج من القراءة. إن ما يقصده، في الواقع، هو إظهار أن دراسة مكياڤيلي تجرد، بشكل مسبق، النقد الماركسي من الوهم السياسي. وإذا حاول ناثير

توصيف «اقترب مكياڤيلي من ماركس الشاب»⁽¹⁴²⁾، فإن بإمكاننا القول، بالمقابل، إن مشروع لوفور يتمثل في توجيه قارئ ماركس إلى مكياڤيلي، من خلال الإشارة إلى حدود التفسيرات الكبرى للفلورنساوي، بخاصة تلك التي تنسب إلى الفلسفة الماركسية⁽¹⁴³⁾. وهكذا، يعتبر السؤال الذي أثاره تحليل نائير والمتعلق بمكانة السلطة السياسية في العصر الحديث، من خلال عودته إلى لحظتين مفصليتين، مكياڤيلي وماركس، سؤالاً يتبناه كتاب **تأثير مؤلفات مكياڤيلي**، بالرغم من سعيه إلى استخراج تعاليم أخرى منه. يقوم الاختزال الماركسي للحقل السياسي في أداة تخدم سيطرة طبقة، في الواقع، على فرضيات أساسية تتعلق بطبيعة التمثيل، والتمثيل السياسي، بخاصة. ويتمثل خطأ ماركس في أنه لم يستطع أن ينظر إلى التمثيل من دون إرجاعه إلى أساس إيجابي؛ لدرجة حوِّله معها إلى صنف إنتاج اجتماعي صرف: «إن ما يبدو لنا أنه يصنع حدوداً لفكر ماركس هو معالجة مسار التمثيل وكأنه نتاج مغامرات التعاون والتقسيم، وكأن هذه الحقيقة تتحدد على المستوى الطبيعي للعمل. ولذلك، فهو لا يستطيع إلا أن يعرض نفسه للخلط بين نظام الإيديولوجيا والرمزية، ولاختزال الخطاب الأسطوري والديني والسياسي في إسقاط النزاعات "الحقيقية" في المخيال، وأن يهبط أخيراً بالعلامات الفارقة للقانون والسلطة، إلخ، إلى المستوى التحريبي، وتحويلها إلى "منتجات" اجتماعية»⁽¹⁴⁴⁾. ومع ذلك، من غير المشروع أن نعيد التمثيل إلى فرضية واقعية. كما هو الحال مع «المستوى الطبيعي للعمل» أو مع الاستقلاب في الطبيعة البشرية. يبدو هذا النقد للمادية الماركسية، في هذا المجال، وفيما لدرس ميرلو - بونتي، الذي أشار، مع صدور كتابه **فينومينولوجيا الإدراك**، إلى أن الاستخدام الذي يقوم به الإنسان لجسده «متسام بالنسبة إلى هذا الجسد باعتباره كائناً بيولوجياً وحسب»⁽¹⁴⁵⁾. وتلك الأطروحة يستند إليها فصل «مذكرة حول مكياڤيلي»، حين يبين أن النزاع نزاع بشري، بعيد عن أي اشتباك بين غرائز حيوانية صرفة. ويرفض تفسير لوفور لمكياڤيلي، ضمن التفكير نفسه، الفكرة التي ترى أن كتاب **الأمير** قد بنى نظرية لطبيعة الإنسان باعتباره كائناً خبيثاً، وغير وفي بشكل نهائي، كي يبرر السلطة المطلقة بشكل أفضل.

جذور نسيان الشأن السياسي لدى ماركس:

تصور موضوعاني للطبيعة والشأن الاجتماعي

لا يشكل نسيان الشأن السياسي أمراً عرضياً في فكر ماركس، بل يجد جذوره في المسلّمات الأساسية لهذا الفكر التي علينا أن نهمّلها. ويعتمد لوفور، في هذا المجال، النقد الذي صاغه ميرلو - بونتي، في مواجهة النظرية الماركسية وتصورها للطبيعة. تشير محاضرات ميرلو - بونتي حول الطبيعة إلى أن أشهر الفلاسفات في التاريخ أي الماركسية، تقوم على مفهوم للطبيعة لم يتوضح من قبل قط، بل ربما كان طابعه "أسطورياً". نحن هنا أمام تعبير يحمل مفارقة؛ إذا تذكرنا أن ماركس لم يشكك لحظة بأن مفهومه عن الطبيعة يمكن أن يكون إنشاءً خيالياً⁽¹⁴⁶⁾. وهكذا فقد اختزل الماركسيون، من خلال تبني الفكرة «الموضوعية عن الطبيعة»، التي وجدوها لدى ماركس، الطبيعة في «موضوع مجرد» أو «كائن في ذاته» فيما يسعى جهد فينومينولوجيا ميرلو - بونتي، على العكس من ذلك، إلى إظهار مأزق التفكير الموضوعاني حول الطبيعة. غير أن هذا النقد للموضوعانية، والذي يؤسس لتصور ماركس حول الطبيعة، يغني بشكل عميق قراءة لوفور لمكيافيلي.

ونجد في جوهر تفكير ميرلو - بونتي حول الطبيعة، وبخاصة في ما يتعلق بمشكلتنا، موضوع استجلاء الجسد باعتباره جسداً تعبيرياً، وذلك بدءاً من عالم الحيوان. وتشير التحليلات المكرّسة للحالة الحيوانية في المحاضرة عن مفهوم الطبيعة، بذلك، إلى الغريزة باعتبارها «نشاطاً أساسياً» من دون موضوع، مستندةً بذلك إلى أعمال لورنز (Lorenz)، ولا يعتبر هذا الموقف نهائياً⁽¹⁴⁷⁾ من حيث المبدأ. فعلى أن نفهم الغريزة باعتبارها نشاطاً قائماً من الداخل، وتتصف بنوع من "العمى"، وهي تتحقق بهذه الصفة من «أجل المتعة». وبذلك يمكن مقارنة الاتجاهات الغريزية بنشاط ينتسب إلى الحلم، بالقدر الذي يظهر في هذه النشاطات في حالتها الصافية، نوع من الإحالة إلى ما لم يعد راهناً، وإلى حياة تتصل بالحلم، وبذلك «تنوجه الغريزة نحو الصورة، أو نحو ما هو أنموذجي». نجد هنا ما نفكر فيه، بما في ذلك في مرحلة الغريزة الحيوانية عندما تكتمل في الفراغ، باعتبارها

انفتاحاً من أجل التواصل، البعيد عن المنطق الذرائعي: «ستتمكن الغريزة من الانحراف ومن التحول من النشاط الغريزي إلى النشاط الرمزي، عبر النشاط في الفراغ. إن الأفعال في الفراغ أو في بداياتها، ستصبح وسائل اتصال للحيوانات، في ما بينها. وبدل أن تتحقق هذه الأفعال بشكل فعلي، فإنها تتم كبدايل للفعل الحقيقي، وذلك لأن جزءاً مما تجاوزه الزمن قائم في الغريزة»⁽¹⁴⁸⁾. وهكذا يتم تنظيم الفكرة الواردة سابقاً في فينومينولوجيا الإدراك التي ترى أن السلوك «يبدع الدلالات التي تعتبر متجاوزة تجاه الجهاز التشريحي، فيما هي ضمنية بالنسبة إلى السلوك في ذاته، طالما أنه يُدرّس ويُفهم»⁽¹⁴⁹⁾.

ويبين لوفور، بدوره، وبشكل واضح، وعلى أساس هذه المواقف المتعلقة بالطبيعة والجسد المعبر، أن النزاع البشري، لا يخضع، في رأي مكيافيلي، لمنطق المصلحة وحده. فرغبة الشعب التي تقوم على تجنب اضطهاد الكبار، لا يمكن أن تفهم على أنها الرغبة في شيء ما فقط، وكأنها شهوة صرفة، بل باعتبارها رغبة «بلا موضوع» بشكل أساسي، أي حالة سلبية. إن رغبة الشعب "موضوع" (Objektlos): فهي لا تسعى للحصول على هذا الشيء أو ذاك الذي يمكن أن يشبعها بشكل ملموس، بل هي موجهة، على العكس من ذلك، نحو «الصورة أو النموذج» - أي نحو صورة الأمير الجيدة - كما هي مفتوحة على التواصل، طالما أنها تدعو إلى الاعتراف العلني بها. لقد رأينا أيضاً أن المخيال الذي يظهر من خلاله «تجاوز الدولة» لا يمكن أن يعتبر احتيالياً يفسر بمجرد ميزان القوة القائم بين شهوات كل طرف من الأطراف. من الخطأ إذاً أن نتصور أن كل قانون، هو نتيجة طبيعية للتوترات بين الطبقات المتخاصمة، في نظر مكيافيلي، حيث تسعى كل واحدة منها لتحقيق مصالحها الخاصة. لا يؤدي النزاع، من وجهة النظر هذه، إلا إلى تبادل خاضع لأهداف ذرائعية، وفقاً لأنموذج المساومة. وسيعني ذلك، إهمال الرأي الذي يرى أن النزاع بين الشعب والكبار لا ينتج من حساب خلفيته المصلحة، طالما أنه يراهن على إعادة النظر في امتلاك الكبار للقانون وهم يضمنون استمرار سيطرتهم تحت مظهر الكليات. لا يخضع النزاع في الحقيقة، وبشكل أساسي لعقلانية ذرائعية، بل يندرج، على العكس، في أفق التواصل، كي ينتظم في

تحقيق متطلب للاحترام العام. وعلينا، في الواقع، أن نعتبر أن القوانين «المؤيدة للحرية»، ليست «مثل غيرها» من القوانين، بالقدر الذي يفترض معه وجود القانون، وبشكل دائم، إنكاراً ضمنياً للقوة واعترافاً برغبة المضطهد»⁽¹⁵⁰⁾. "اعتراف" و"إنكار"، لسا هنا في إطار ميزان القوة والعقل الذرائعي بل في إطار التواصل. وننتقل، إذاً، بالاستعانة بمصطلحات ميرلو - پونتي حول الطبيعة، ومن خلال تأسيس القوانين المؤيدة للحرية، من الغريزة، أي من الرغبة في شيء، إلى التواصل؛ باعتباره نشاطاً في الفراغ منفتحاً على الآخرين. وتتمثل خصوبة تعاليم مكياڤيلي، في النتيجة، وفقاً للوفور، ضمن هذا التوضيح للسياسة باعتبارها التعبير القادر على إغناء التاريخ المشترك الذي لا يحتزل في لعبة المصالح القائمة، بل يفتح مسألة شرعية المؤسسة السياسية، وتحقيق أهدافها الكلية من دون الادعاء أبداً بإغلاق هذا التساؤل.

رغبة الشعب والتعبير السياسي

يعتبر مفهوم ميرلو - پونتي حول التعبير، في نظرنا إذاً، مرشداً للوفور في عملية توضيح الفكر السياسي لمكياڤيلي، وفي رسم طرق إعادة اكتشاف الشأن السياسي؛ مما يسمح بالكشف، بالمقابل، عن ضعف فكر ماركس. وعلينا في الواقع - انسجاماً مع آراء لوفور - أن نفسر رغبة الشعب لدى مكياڤيلي على أنها البحث من دون انقطاع عن تعبير سياسي، ولا نريد القول، ونحن نتحدث عن التعبير، كما فعل ناثير في كتابه *مكياڤيلي وماركس*، إن الحقل السياسي يعكس بعض موازين القوى أو الحاجات الاجتماعية. ويجب أن يُفهم هذا المصطلح، في الواقع، ضمن المعنى الدقيق الذي يمنحه إياه ميرلو - پونتي في فصل من كتاب *فينومينولوجيا الإدراك*، حيث يتحدث عن الجسد باعتباره تعبيراً والكلام باعتباره: «عملية تعبير، حين تنجح ولا تترك للقارئ والكاتب مذكرة مساعدة وحسب، بل تبعث الدلالة أيضاً باعتبارها شيئاً في قلب النص، وتحببها ضمن عضوية من الكلمات، وتقيمها ضمن المؤلف أو القارئ على شكل عضو جديد منتج للمعنى، كما تفتح حقلاً جديداً أو بعداً جديداً لتجربتنا»⁽¹⁵¹⁾. كل شيء يدعو إلى التفكير

بأن فينومينولوجيا التعبير - التي ستقوم بدور متنام في تطور ميرلو - بونتي⁽¹⁵²⁾ - تبدو فعالة، وفقاً للوفور، في تفسير مؤلفات مكيافيلي، وفي فهم جوهر الشأن السياسي، بشكل أوسع. يشير لوفور، في الواقع، ومن خلال استخدام مفردات ميرلو - بونتي إلى أن رغبة الشعب باعتبارها رغبة في تجنب الاضطهاد أقله تشكل شرطاً لانفتاح الجسد الاجتماعي على التاريخ. إنها الإمكانية المتاحة لهذا الجسد لاكتساب أعضاء جدد، وهي لا تسهم فقط في إطالة عمره، بل في قلب المعطيات البدائية للعبة السياسة. إنها مبدأ التخلص من التكرار الذي تقود إليه شهوات الطبقة المسيطرة، حين تزدهر هذه الشهوات من دون حدود⁽¹⁵³⁾. تفتح رغبة الشعب، باعتبارها رفضاً للاضطهاد، حقلاً للتعبير السياسي يمكنه لوحده بناء تاريخ مشترك، شرط ألا يتعرض للإنكار. وهكذا، وكما أن اللغة لا تختزل في نظر ميرلو - بونتي، في فكرة، وذلك في المجال الذي لا تعتبر فيه سوى أداة عرضية، بل تدشن، على العكس من ذلك، حقلاً غير مسبوق للاستقصاء، فإن التعبير السياسي لا يختزل، وفقاً للوفور، في لعبة القوى الاجتماعية كما توصف موضوعياً، من خلال تنافس أفراد متفرقين يحركهم السعي وراء القوة، وذلك لأن هذا التعبير يبنى تاريخاً غير مسبوق تتجاوز دلالاته موازين القوى البسيطة.

وتستحق المقارنة بين تصور ميرلو - بونتي للتعبير وتصور لوفور، في قراءته لمكيافيلي، أن تعمق أكثر. وفي الواقع، كما أننا نجد في أصل الحاجة إلى الكلام، وفقاً لميرلو - بونتي، «شيئاً من النقص يسعى إلى الاكتمال»، وليس إلى السيطرة على فكرة أصبحت واضحة تماماً، علينا أن نفهم الحيز السياسي في قراءة لوفور، على أنه عضو التعبير عن رغبة الشعب - رغبة لا ترغب في شيء، بل ترفض الاضطهاد - وبكلام آخر، إن التعبير السياسي الذي يعني القانون، لا ينفصل عن النقص والرغبة باعتبارهما حالة سلبية. لذلك، وكما أن من الوهم، في نظر ميرلو - بونتي، أن نؤمن، كما لدى الفلاسفة: «بقول ينهيه جميعاً»⁽¹⁵⁴⁾، فقد تمثل وهم حكام فلورنسا في تصورهم لنظام سياسي مستقر خال من النزاع بشكل نهائي، كما يشرح ذلك لوفور. لنذكر، دعماً لهذه الأطروحة، كيف يميز ميرلو - بونتي، في تجربة اللغة، «الكلام الناطق» عن «الكلام المنطوق». يشير الأول إلى الرغبة الدلالية في حالة

الولادة: «يتركز الوجود هنا في "معنى" ما، لا يمكن تعريفه من خلال موضوع طبيعي، ويسعى هذا الوجود إلى الانضمام إلى ذاته خارج الوجود، لذلك فهو يبدع الكلام باعتباره سناً تجريبياً لعدم وجوده. إن الكلام فائض لوجودنا على الكائن الطبيعي»⁽¹⁵⁵⁾. أما «الكلام المنطوق»، فينتج من واقعة أن فعل التعبير يشكل عالماً لغوياً وثقافياً، يُسقط على الوجود ما كان يميل إلى ما يتعداه، وهو يتمتع مع ذلك، «بدلالات جاهزة، مثل ثروة مكتسبة». إن من الممكن على أساس هذه الدلالات المترسبة أن نختار دلالات جديدة، لاستعمالها في أفعال التعبير الأخرى. ويمكننا أن نفهم، بدقة أكبر، من خلال العودة إلى هذا التمييز بين «الكلام الناطق» و«الكلام المنطوق»، كيف تصور لوفور حركة الشعب التعبيرية. ما من شك في أن الرغبة الشعبية، التي هي أيضاً رغبة في الشعارات التي تمنعها من رؤية اضطهادها، تقع، في كل مرة، في ما يسميه ميرلو - بونتي "المؤسس"، إلا، أن هذه الرغبة باعتبارها رغبة مؤسّسة، تعرض المفاهيم المكتسبة للاحتجاج بشكل دائم، على أساس هذه المكتسبات المترسبة، وذلك من خلال تسليط الضوء على التوترات بين الادعاءات الكلية للمؤسسة وصيغ الهيمنة الاعتبارية التي تستمر في منحها شرعية الأمر الواقع: «ولكن الرغبة في تجنب الاضطهاد تفضح الخداع على الرغم من إعادة بسطه المستمرة، وذلك لأنه يبقى دوماً في أوجّه حيث يبدو الموقع مكتسباً وحيث تعتبر القوانين قوانين الطبيعة، وحيث يكافئ الغنى والشرف والقوة، الانتظار، أي في المكان الذي تحتله الطبقة المسيطرة. «يستسلم وجود المجتمع من خلال رغبة في الوجود وسلبية بالفعل، من ذاته، بشكل مفرط، أمام كل حقيقة قائمة»⁽¹⁵⁶⁾. واستناداً إلى مقولات ميرلو - بونتي، إن القوانين القائمة تنتمي إلى «الكلام المنطوق»، فيما الرغبة، باعتبارها سلبية تعمل عكسياً واضحة الكلية الحقيقية للمؤسسات قيد الاختبار للتحقق من أن ادعاءاتها المساواتية تطابق «الكلام الناطق»، أي الكلام المعدّ بمثابة فائض من وجودنا الطاعني على الوجود الطبيعي». إن هدف التعبير السياسي إذاً، السماح بالخروج مما يفرضه التكرار على شهوات الطبقة المسيطرة، حين تزدهر من دون حدود، تحت مظهر الكلية المنادی بها. ونصل هنا إلى إشكالية خصبة غابت عن الفكر الماركسي. ففيما يعتبر المخيال

انكفاًياً بدرجة أساسية، وعنصر تكرار لدى ماركس - إن حركة البروليتاريا الصامته لوحدها قادرة على تخليص المجتمع من قيوده - يبدو أن التعبير هنا، يسمح، على العكس من ذلك، باجتناّب "التكرار" وبإبداع تاريخ مشترك. يمكن أن يعتبر المخيال بهذه الطريقة، وفي الوقت عينه، عنصر تكرار حيث يتجمد بعيداً عن الرغبة الشعبية، ويحجب سيطرة الكبار عن الأنظار، كما يعتبر عنصر إبداع حين ينفّتح ويستجيب لهذه الرغبة.

يسمح التشابه بين تفسير لوفور لمكيافيلي وفلسفة التعبير التي طورها ميرلو - بونتي إذاً، بفهم أفضل لدلالة السياسة باعتبارها تعبيراً عن النزاع. ونجد تأكيداً لهذا القول إذا نظرنا إلى الطريقة التي يتبنى فيها لوفور، بشكل واضح، أفكار ميرلو - بونتي حول العلاقة بين التعبير والتكرار لتوظيفهما في قراءته لمكيافيلي. لنذكر أن ميرلو - بونتي قد أشار في محاضرات السوربون، ومن خلال "الدراما الاجتماعية" لمورينو (Moreno)، إلى أن فكرة «العملية التعبيرية» تتعارض مع بعض المبادئ الفرويدية، من خلال المكانة الحاسمة التي أوليت لعملية التعبير: «لا يواجه مورينو فرويد بحرية غير مشروطة، بل بإمكانية اكتساب أو تجديد بواسطة الموقف، في بعض اللحظات: إن العفوية هي تلك القدرة على ارتجال دور استجابة لوضع جديد»⁽¹⁵⁷⁾.

وتشكل الشروط السابقة في الواقع، وفقاً لمورينو، مخططات عمل، أي "احتياطات" ظهورها شديد الاحتمال حين تواجه الذات مواقف جديدة تريد التخلص منها. غير أن ما تكشفه أعمال مورينو يتمثل في أن عمل الدراما الاجتماعية يقوم على السماح بتجاوز التكرار الذي تميل الذات إلى سجن نفسها ضمنه، وذلك بفضل تعبير مخيالي، بل "مسرحي" يصادف استيقاظ العفوية: «يبقى هدف المسرح العلاجي إعادة بناء الوحدة الأصلية بين المخيال والواقع. فليس عليه أن يقلد الحياة، ولكن ذلك ليس سبباً ليقوم على مستوى آخر، فالفرد يعبر عن همومه الأكثر حيوية، على مستوى الخيال، ويمكنه بذلك أن يوضحها بطريقة «التعبير الذاتي عن المزاج (Humorous self-expansion)، والخروج من المآزق حيث سجّنه كبح عفويته»⁽¹⁵⁸⁾. لنشر إلى أن المخيال المسرحي لا يقوم على مستوى

آخر «سوى الحياة»، وبكلام آخر، إنه لا ينبثق عن سلوك هروب، بل عن مسار توضيح⁽¹⁵⁹⁾. إن «الإخراج»، ومنح معنى للنزاعات يمكن أن يسمح للأفراد بالخروج من التكرار الذي وقعوا فيه. ويقوم كتاب *نشر العالم* بتوضيح فرضية التعبير التخيلي باعتباره وسيلة حاسمة للخروج من التكرار. يجري التلميح إليها هنا فقط، وذلك من خلال دراسة الطريقة التي تحمل فيها الحضارات، والأفراد أيضاً، ثقل الماضي. نحن هنا أمام تحليل على جانب من الأهمية بالنسبة إلينا، فقد أثر تفسير لوفور لمكيافيلي، حتى على مستوى المفردات. فهو يبين في الواقع، كيف يدرك الآباء طفولتهم في طفولة أطفالهم، أو كيف يمارسون بسبب الحقد تربية متحررة إذا تلقوا تربية تسلطية، وفي هذه الحالة الثانية، فهم يعودون إلى التقاليد لأن أطفالهم التائهين سيصبحون آباءً متسلطين، من خلال ردة الفعل. وهكذا تقوم تقاليد سلبية، وكأنها قدر، حتى لو حدثت بعض التغييرات؛ شرط أن نوضح تماماً أن هذه التغييرات «تحدث في الظلام» بسبب عدم البوح بها صراحة. لذلك من الممكن أن نختم بالقول «إن تقاليد ثقافة ما رتيبة ومنتظمة في ما هو ظاهر منها على السطح، بينما هي اضطرابات وفوضى في العمق، وإن القطيعة لا تعود تحرراً بل طاعة»⁽¹⁶⁰⁾. غير أن التوضيح وحده، والذي يتم بفضل العمل التعبيري، يمكن أن يسمح بالخروج من التكرار: «يتمثل التجديد الفائق التعبير في أنه يحرر الثقافة الصامتة، أخيراً، من حلقته القاتلة».

إن من المؤكد أن لوفور يستدعي، في تفسيره لمكيافيلي ضمناً، إشكالية ميرلو - بونتي حول التعبير بأكملها، باعتبارها وسيطاً لا بد منه لتلافي السلوك المحافظ التكراري. يشير لوفور من خلال سير التعبير السياسي، في الواقع، إلى أن المفكر الفلورنساوي لا يمتدح النزاع في حد ذاته، بل النزاع الخلاق الذي ينتهي إلى تعبير سياسي. وإن حالة سيفير (Sévère)، الواردة في كتاب *الأمر*، ذات دلالة في هذا المجال: فهو لم يستطع الاستجابة للموقف بطريقة مرضية لأنه بطل المجتمع الفاسد الذي تمزقه العديد من النزاعات العقيمة. وهكذا يوضح لوفور، أن بإمكان النزاع أن ينحدر إلى تكرار محض أو أن يتم تجاوزه في تعبير مبدع: «ففي الحالة التي تكون فيها خصومات الطبقة غير قادرة على تطوير التاريخ، لا يمكن للسلطة أن

تندرج في الزمن. وهكذا، ما إن يختفي سيفير حتى ينهار ما بناه، وينبعث مع ماكسمين هيجان العنف. وعلى الرغم من المظاهر، ليس العالم التسامح عالم الحركة الأكثر حيوية، إنه بالأحرى عالم التكرار. وبالمقابل، حين يجمع النزاع الأهلي البشر، من كل الأطراف، حول أهداف مشتركة، وحين يشكلهم المستقبل كما الحاضر، ترتسم أمام السلطة مهمة ذات بعد آخر⁽¹⁶¹⁾. إن ما يلوم مكيافيلي، من أجله "حكماء" زمانه هو أنهم اتخذوا موقفاً محافظاً، من خلال رفض التعبير الإبداعي للنزاعات، تحت خطر تركها تتحول إلى عنف عقيم وإلى فوضى في النهاية. لم تعرف فلورنسا سوى «عنف بين أشخاص منفردين، وكذلك الارتياح العام والافتراء والانقسامات»⁽¹⁶²⁾، لأنها في الواقع لم تمنح الحرية لرغبة الشعب ولرفضه الاضطهاد، كما رفضت توضيحه من خلال الإخراج. وبما أن الحكم قد انفصل عن الشعب، فقد تعرض لفقد ثقة عميق لدرجة تعرض فيها النظام الهش للغزوات الأجنبية. لذلك علينا أن نميز بدقة، كما أشار إلى ذلك ميرلو - پونتي، بين النزاع بين شخص وآخر من جهة، والذي يتحول إلى فوضى لأنه لا يجد أي ترجمة مؤسسية خصبة له، وبين النزاع القادر على جمع الناس حول مغامرة تعبيرية مشتركة من جهة أخرى. ويعني هذا الأمر أن نزاعاً حقيقياً لا تواجه فيه مصالح خاصة فقط، يطلب إليها أن تتوافق من خلال مساومة تخضع لغاية ذرائعية حصراً، بل يقدم فضيلة جامعة لاهتمامه بعدالة المؤسسة السياسية نفسها.

ذلك هو رهان النقد الذي قدمه مكيافيلي لحكام زمانه. فقد منعوا ظهور تاريخ مشترك، وتركوا الفوضى تنمو، لأنهم رفضوا التعبير عن النزاع. غير أن لوفور يشرح بالقول: «ليست الفوضى بالمعنى الصحيح للكلمة، نزاعاً صرفاً ولا شغباً تصطدم من خلاله المصالح الخاصة، لأن هذه الفوضى تنسجم كثيراً، كما حصل في فلورنسا، مع مظهر النظام، أي مع التوازن المكتسب للقوى الاجتماعية: إنها عملية الرغبة التي تبقي مسألة وحدة الدولة مفتوحة وبطرحها على الملأ، تضطر من يمسك بزمام إدارتها إلى تعريض هذه الوحدة للخطر»⁽¹⁶³⁾. يستعيد هذا التحليل للسلوك المحافظ للطبقات الحاكمة في مواجهة النزاعات الاجتماعية، ونزاعات "الأمزجة"، بشكل أدق بالطبع، وحتى على مستوى المفردات، الفكرة

التي طورها ميرلو - بونتي في كتاب *نثر العالم* والتي ترى أن التقاليد رتابة ونظام في الظاهر، فيما هي «فوضى واضطراب» في العمق. وبدل أن يقوم حكام فلورنسا بجعل التعبير عن النزاعات ممكناً، جاهدوا في إخفائها من خلال سلوك إنكار في مواجهة تاريخ غير مسبوق لا يستطيعون فهمه. وهكذا، بدل أن يكون فساد المدينة نتيجة لجوهر الإنسان الرديء، يصبح هذا الفساد، في الواقع، نتيجة خيار سياسي مستمر، «تنكر [الحاضرة من خلاله] حقيقة الرغبة والعدوان، وترفض صراع الطبقات، وتمنع مطالب الشعب، وتخفي الإنكار والاضطهاد من خلال خطاب حول النظام والسلام»⁽¹⁶⁴⁾. وفي النهاية، إن الطبقات الحاكمة الفلورنساوية لجأت إلى الإنكار والتحريض العقيم لكونها رفضت مخرجاً تعبيرياً لرغبة الشعب.

وكي نفهم بشكل أفضل لِمَ يمكن للمخيل أن يشكل مبدأ تكرار وإبداع تاريخي، في الوقت ذاته، علينا إذاً أن نفهم بشكل جيد التعبير باعتباره حركة استعادة للماضي وتجاوز له. وتقدم المقارنة بين نظرية التعبير لدى ميرلو - بونتي وقراءة لوفور لمكيافيلي، هنا أيضاً، الكثير من الإيضاح. لنذكر أن كتاب *نثر العالم* يقابل بين اللغة والرسم، وذلك لأن الرسم لا يسمح، فعلاً، بتطوير تاريخ تراكمي، باعتباره تجاوزاً، بالمعنى الذي يمنحه هيغل لهذا المصطلح⁽¹⁶⁵⁾. وعلينا أن نقبل، من دون شك، أن عمل الرسام، باعتباره حركة ثقافية، لا يمكن أبداً أن ينزل إلى مستوى «التكرار الصرف»، الأمر الذي يفسر، تحديداً، وجود تاريخ للفن⁽¹⁶⁶⁾. ولذلك أيضاً يشير ميرلو - بونتي، من جهة أخرى، إلى أن أعمال الرسام تضاف لبعضها بعضاً و«تنفي الماضي بإفراط وبشكل مقصود كي تتمكن من «تجاوزه بشكل حقيقي» (بالمعنى الهيجلي)، فيما يقيم الكاتب الأصل، من جهة، علاقة من أتمودج آخر مع اللغة التي تعلّمها: «فهو يرغب في تحقيقها وتدميرها في آن معاً، تحقيقها من خلال تدميرها، وتدميرها من خلال تحقيقها»⁽¹⁶⁷⁾. يدمر الكاتب اللغة، في الواقع، باعتبارها كلاماً جامداً غير قادر بعد الآن على استحضار ما تعبر عنه، غير أنه يحققها في الوقت عينه، وكأن هذه اللغة تحمل بالفعل الكاتب ويكون هو بالتالي «وكانه أحد إمكاناتها». ويبدو أن لوفور

تلقى درس مكياڤيلي من زاوية مثل هذا التوضيح. إن الحركة الاجتماعية ترتبط، في الواقع، بنمو سلطة «لا تتحمد عن بعد، مهما كانت منفصلة عن الشعب، وتمثل أمراً يتجاوز تقسيم الطبقات، وتدع الحركة الاجتماعية تعمل وتستغل آثارها»⁽¹⁶⁸⁾. ويمكننا أن نختتم، بهذا المعنى، بالقول إن فكر الكاتب مكياڤيلي يقيم مع الخطاب المؤسسي للنزعة الإنسانية الذي اعتمده الشعب تجاه السلطة علاقة من الأنموذج عينه: «يترابط الضمان بأن تحمل الحياة الجماعية الاحتجاب المتواصل لفعل الرغبة والإمكانية المتواصلة لعملية إسقاط الحجاب، مع الضمان في أن يكون الكلام، المشارك في عملية احتباس الفكر والخاضع إلى اللغة الجمعية، متضمناً الموارد المطلوبة من أجل افتتاح على الحقيقة»⁽¹⁶⁹⁾. إن بإمكاننا، في الواقع، مقارنة الفكر المكياڤيلي باعتباره خطاباً مضاداً «يُبنى في مصفوفة النزعة الإنسانية السياسية، في الوقت نفسه الذي لا يكتسب فيه هويته إلا من خلال التخلي عنها»⁽¹⁷⁰⁾. من الخطأ الظن أن مكياڤيلي يقطع تماماً صلته بلغة قدامى فلورنسا، فهو على العكس من ذلك، يغتنى بها بشكل واسع، «ويقوم عمله [في الحقيقة] على اكتشاف هذه اللغة كي يعود الناس إلى استخدامها من جديد، بعيداً عن الخطابات المعتادة، كما يقوم هذا العمل على العودة إلى التعبيرات المكتسبة لإدانة القيود التي سجت نفسها ضمنها، وأخيراً على تفسير التفسير الضمني الذي أغناها في الماضي»⁽¹⁷¹⁾. لنأخذ مثلاً خطاب بروني، الشخصية الأساسية في النزعة الإنسانية الفلورنساوية. علينا أن نلاحظ أن مكياڤيلي يشاركه في مديح أنموذج الجمهورية الرومانية ومفهوم كلي للإنساني، مع فرق رئيس، مع ذلك: «تستند المثالية الديمقراطية (لدى بروني) إلى إنكار النزاع»، ويمنح الدفاع عن المؤسسات الجمهورية هذه المؤسسات حقيقة جوهرية تستخلص من المشكلات الملموسة للصراعات الاجتماعية ومن الهيمنة الطبقية. وهكذا يغتنى مكياڤيلي بلغة النزعة الإنسانية، كما يوضح ذلك الرجوع المشترك إلى "مشهد" التاريخ الروماني، غير أنه «يستخلص [من هذا الشرط] القدرة على تخليص الفكر، سجين منطق المخيال»⁽¹⁷²⁾. ولا يجب أن يفهم هذا الخلاص، مع ذلك، على أنه بحاجة إلى الإلغاء النهائي لأي شكل من أشكال المخيال⁽¹⁷³⁾. فلم يكتسب التساؤل الفلسفي

المكيافيلي ولا رغبة الشعب أيضاً، هوية من خلال التحرر الجذري من التخيل. وإذا حبس الخيال على ممثلين في التدريب (كما هو الحال في «الأسطورة الرومانية»، التي رفع حكماء فلورنسا من شأنها)⁽¹⁷⁴⁾ أو بين تاريخاً مشتركاً، وبشكل إيجابي، فلا يمكن أن يُلغى. وهو كذلك، بشكل نهائي ليحل محله "واقع" قائم. ويبقى الخيال ملتصقاً بالحركة النزاعية للمجتمعات الحديثة، بعيداً عن أن يكون مجرد احتيال.

نرى، في نهاية هذا التحليل، أننا لا نستطيع الخلط بين "الشعب" لدى مكيافيلي والبروليتاريا التي يصفها ماركس. ويتبع الشرح الذي قدمه لوفور لمكيافيلي والذي يركز على مفهوم التعبير، مواقف ميرلو - بونتي سواء أكان على المستوى الوجودي أم السياسي⁽¹⁷⁵⁾. نحن نعرف، في الواقع، أن ميرلو - بونتي قد أشار، مستبقاً بذلك تصور لوفور، وذلك في كتابه *مغامرات الجمالية*، إلى أي درجة يكون المرء واهماً إذا نسب إلى واقعة تاريخية ولادة البروليتاريا ونموها والدلالة الشاملة للتاريخ، وظن أن التاريخ ينظم بنفسه استعادة قوته، وأن سلطة البروليتاريا تحمل زواها الذاتي، إنه *نفي النفي*⁽¹⁷⁶⁾. غير أن ما يستخلصه لوفور من تعاليم مكيافيلي يتمثل في أنه لا يمكن للشعب أن يكون *نفياً للنفي* أبداً، إذا كان يحمل السلبية حقاً. إن رغبة الشعب، باعتبارها رغبة في تجنب الاضطهاد، لا تنفصل عن تعبيره المستمر دوماً. ومن الوهم الاعتقاد بتحقيق كامل لهذه الرغبة يجعل من الآن فصاعداً «كل تعبير غير مفيد وخادع». ويوضح لوفور، من دون شك، بأن «نقد ماركس لا يقود أبداً إلى تأكيد أولية التمثيل، وإلى الوقوع في وهم منطق الأفكار الذي يدينه»⁽¹⁷⁷⁾. ولكن من المناسب أن نضيف بأننا إذا سبرنا مفهوم التعبير، بالمعنى الذي يمنحه ميرلو - بونتي له، فإننا نتجنب وهم ماركس الذي يقوم على الادعاء باستعادة كل دلالة للتاريخ في الحركة الصامتة للبروليتاريا. تفتح فلسفة التعبير، إذاً، كما عرضتها قراءة لوفور إمكانية إعادة اكتشاف الشأن السياسي الذي يقطع بشكل جذري الصلة بالاختزال الماركسي للحقل السياسي في وهم بسيط من خلال الإلحاح، أكثر، على أهمية العناصر السياسية والإيديولوجية. لقد وضعت إعادة التقييم لمكيافيلي التي قام بها لوفور موضع

التساؤل مسلّمات الماركسية نفسها من أجل فتح التساؤل حول الديمقراطية الحديثة⁽¹⁷⁸⁾ على أسس جديدة. ومع ذلك، إن القطيعة مع ماركس والعودة إلى مكيافيلي لا تقود إذاً إلى إعادة بناء الفلسفة السياسية أو الأخلاقية، مع إهمال المسائل التي أثارها الماركسية كافة. ويقوم الرهان على التفكير في حالة النزاع الاجتماعي، والمؤسسة السياسية ضمن أفق جديد.

اللحظة المكيافيلية اليوم

هل بإمكان اللحظة المكيافيلية الفرنسية «أن تساهم في النقاشات التي تسود في الفلسفة السياسية الحديثة، على المستوى التاريخي والمعياري؟ علينا أن نشير أولاً إلى أنه ليس بالإمكان الخلط بين النماذج المختلفة للتحديد المكيافيلي الفرنسي، حتى لو كانت تتلاقى جميعاً عند إبراز أهمية النزاع باعتباره عاملاً كامناً للحرية السياسية. وذلك مفهوم قام بورنهام بتلخيصه، مسبقاً، من خلال التأكيد على أن «الحرية في العالم بما هو عليه، هي نتيجة للنزاع والاختلاف، وليست نتيجة للوحدة والانسجام»⁽¹⁾. ومع ذلك، يشير فهم آرون لكتاب *المكيافيليون* إلى أنموذجين ممكنين لليبرالية التعددية - النزاعية. ويرى بورنهام أن الموضوع المكيافيلي للنزاع تدرج ضمن مشروع ليبرالي يمنح دوراً أساسياً للتوازن النزاعي للقوى الاجتماعية، في المحافظة على الحرية التي تمثل معياراً للاختلاف بين الديمقراطية الليبرالية القائمة على الاعتراف بعدم التوافق من جهة، والنزعة الشمولية من جهة أخرى، والتي يقوم مشروعها على إلغاء التقسيم الاجتماعي. ومع ذلك، تبقى متطلبات قراءة بورنهام محافظة جداً. لقد توصل بورنهام إلى إضفاء الشرعية على مفهوم متشائم جداً يقوم على المحافظة على الحرية الفردية⁽²⁾، وذلك من خلال إلحاحه على تهشيم المبدأ الديمقراطي الكلاسيكي الذي ينادي «بحكم الشعب من الشعب»، تحت شعار مقاربة مكيافيلية تكرر لفهم «الحقيقة الفعلية للأشياء» وإذا توصل بورنهام، كما سوريل إلى زرع الشك في فكرة الخير العام نفسه، تحت شعار نقد عادل لانحرافات⁽³⁾، وإلى رفض الخيارات التقدمية لفلسفة ديوي الترابطية لدرجة انتهت معها بالحديث عن *انتحار الغرب*⁽⁴⁾ كي يهاجم "الليبراليين"، أي "اليسار" الأمريكي، ويدعم انحرافه الشخصي باتجاه مواقف محافظة متطرفة، فهذا

ما يؤكد حدود إعادة قراءته لمكيافيلي. يعمل آرون، على العكس من ذلك، على استرجاع مسألة النزاع من خلال متابعة المقاربة الواقعية للظاهرة الأقلوية، وذلك من منظور يعتمد الأفكار الديمقراطية بجدية، ويرفض المظاهر "العلموية" لعلم اجتماع پاريتو. ولا يتعد، هنا، التساؤل عن الدور التحريري المحتمل للشعب عن التفكير في الطريقة التي يمكن فيها لحركات الاحتجاج التعبير عن متطلبات العدالة الاجتماعية. تجد ليبرالية آرون نفسها، في الواقع، في نقطة تلاقي نوعين من التقاليد: النوع الأول ذو اتجاه "واقعي" قائم على موضوع «السيطرة»، والثاني ذو طابع ديمقراطي متمسك بإظهار «القوة التغيرية» لأفكار المساواة، وهو يجد أفضل تعبير له لدى الكتاب الجمهوريين، بعد توكفيل، مثل ميشيل وبوغليه (Michel et Bouglé)⁽⁵⁾. وبذلك تبقى التعددية النزاعية المكيافيليّة لدى آرون ليبرالية وديمقراطية في آن، وذلك لأن المجموعات الفقيرة تستطيع من خلال النضال أن تأمل بالاعتراف بشرعية مطالبها⁽⁶⁾.

وتعتبر قراءة آرون لمكيافيلي أكثر ملاءمة من قراءة بورنهام، إلّا أنّها ربما، لا تميز بشكل كافٍ، حول نقطتين: دور الرغبة الشعبية في تجنب الاضطهاد، والبعد المخيالي للسياسة. ويفتح التفسير الذي قدمه مكيافيلي ولوفور، بهذا الصدد، طريقاً خصبة توضح الخيار الشعبي لدى مكيافيلي. تتميز هذه المقاربة، التي تنسجم بشكل أفضل مع النص المكيافيليّ، بالإدماج بين الروح النزاعية الاجتماعية والرغبة الشعبية في تجنب الاضطهاد. وبالتوازي مع ذلك، تكمن أهمية القراءات الفينومينولوجية في كشف البعد المخيالي للسلطة، وفي البحث في السياسة باعتبارها مغامرة "تعبيرية": إنها إخراج النزاعات كي تصبح منتجة من أجل إغناء العيش المشترك بين المجموعات المتخاصمة، بشكل إيجابي، وذلك لأنه إذا كان لدى مكيافيلي نزاع صالح - النزاع الذي يولد الحرية ويوسع الجمهورية الرومانية - فإن هناك نزاعاً سيئاً، يتحول إلى صراع عقيم بين الأفراد، كما يشهد بذلك تاريخ فلورنسا العثي. وهكذا لا يقود النزاع بالضرورة إلى الخير المشترك وإلى الحرية السياسية. إن فهم «الانقسام» باعتباره عاملاً داعماً للحرية، يعني إذاً فهم ضرورة السلطة السياسية، باعتبارها وسيطاً - تحت صيغة جامدة سواء أرتبط الأمر بإمارة

أو جمهورية - قادراً على إيجاد مخرج لنزاع الأمزجة. ونصل هنا إلى مقارنة مجددة للشأن السياسي، تحوله إلى لحظة لا يمكن تجاوزها في حركة المجتمعات الحديثة، بدل أن نجعل منه مقاماً ثانوياً.

تتجنب اللحظة المكيافيلية الفرنسية، بفضل هذا الربط بين النزاع والمخيال، الصعوبات التي يصادفها موقفان مختلفان، استدعى كل منهما مكيافيلي، بهذه المناسبة، إلهما علم الاجتماع النقدي لبوردو من جهة، وفكر آرندت حول الشأن السياسي من جهة أخرى. ولقد شهدنا أن بوردو قد ركز بدوره في إشارة منه إلى مكيافيلي، على الطابع النزاعي للعلاقات الاجتماعية وعلى اعتبارية موازين القوى التي يغطيها وجه السلطة⁽⁷⁾، مع فارق رئيس، بالرغم من ذلك، إذ توصف السلطة هنا على أنها احتيال من واجب عالم الاجتماع أن يكشف آلياته، ونفهم لِمَ يُحتزل مخيال السلطة هنا في فرض المظهر الذي يحيط به المسيطرون أنفسهم على أجساد المحكومين⁽⁸⁾. غير أن هذا الموقف، الذي يبقى مغلقاً على مهمات الفلسفة السياسية، يدفع إلى نقد منظم للسلطات بدل أن يثير تساؤلات حول قدرتها على التحريض على فعل جماعي. أما قراءة آرندت المعاكسة، فتكشف، من دون شك، عن علاقات متينة مع اللحظة المكيافيلية الفرنسية، إلا أنها تحمل مسألة "التعددية"، ومع ذلك، فهي تعتبر، بشكل مؤكد، وفي الوقت نفسه، أن الحيز العام هو حيز العلن، ولكن من دون أن تسبر بعده التخيلي. وحتى حين تفكر آرندت بأن السياسة «إخراج»، فإن مراجعها حول المسرح لا تقودها إلى فلسفة المخيال، وذلك لأن الحيز يسعى إلى إظهار وحدة كل فرد⁽⁹⁾. إن القول إن آرندت لم تنظم هذا البعد المخيالي لا يجب أن يفاجئنا، وذلك لأن الشأن الاجتماعي لا يعتبر تقسيماً حتمياً ينكشف من خلاله ما أسماه ميرلو - بونتي «استحالة التوافق بين الرغبات البشرية»⁽¹⁰⁾.

إذا كانت اللحظة المكيافيلية الفرنسية تستحق دراسة خاصة، فذلك لأنها تعتبر أولاً موقفاً فلسفياً. وهكذا تدرج قراءة آرون لمكيافيلي ضمن التفكير حول جوهر الديمقراطية الليبرالية باعتبارها نظاماً يستقبل النزاع كي ينظمه في خدمة الخير المشترك، على عكس النزعة الشمولية القائمة على إنكار الخصومة. تطلب هذا الأمر من وجهة نظر تاريخية تجاهلاً للمساهمة المكيافيلية، وذلك لأن لا أحد

يفكر بالادعاء بأن ميكافيلّي كان «ديمقراطياً ليبرالياً»، بشكل مسبق. وفي ما يتعلق بقراءات ميرلو - بونتي ولوفور، فإن هدفنا إظهار فرضياتهما الفينومينولوجية، بخاصة في ما يتعلق بمسألة المخيال وموضوعة التعبير. وبعيداً عن هذا، تأخذ هذه القراءات دلالة، إذا وضعناها في إطار تساؤل مركزي للفلسفة الفرنسية في القرن العشرين، حول دور النزاع وأهمية المخيال في الحياة الاجتماعية. إن الأفكار حول "سلبية" الرغبة، وحول "الاعتراف" في الوقت نفسه، تعتبر، على طريقتها، استمراراً للمشروع الفرنسي في إعادة قراءة ماركس وهيجل، بخاصة، «جدلية السيد والعبد» التي قدم كل من هيبوليت وكوجيف. تفسيراً لها، كما أنها تركت أثراً لدى كل من سارتر وميرلو - بونتي ولاكان⁽¹¹⁾. أما البحث حول المخيال، والذي أعيد توظيفه في القراءات الفرنسية لميكافيلّي، فقد احتل موقعاً، هو أيضاً، ضمن مرحلة طويلة من الفلسفة الفرنسية، التي أولت أهمية، أهملت طويلاً، لموضوع الخيال، منذ الآن وحتى سارتر وباشلار ولاكان وكاسترياديس.

حدود قراءات ليو-ستروس

والجمهوريين الجدد لميكافيلّي

يمكن للمؤرخين أن يقدموا اعتراضات لغوية حول الطريقة التي فسر فيها لوفور رغبة الشعب في تجنب الاضطهاد، باعتبارها لخطّة "سلبية". يبدو من الصعب توظيف مقولة "السلبى" هنا، إذ من المناسب أكثر، من دون شك، إعادة النظرية الميكافيلّية حول "الأمزجة" إلى سياقها المعرفي (الإبستمولوجي) الذي بين أنتوني ج. پارل (A. J. Parel) أنه مرتبط بمفاهيم طبية وكونية بالية⁽¹²⁾. أضف إلى ذلك أن پارل يلوم لوفور لأنه «عالج مفهوم النزاع الميكافيلّي للأمزجة ضمن المفهوم الحديث لنزاعات الطبقات»، والتحق بذلك بمفكرين ما بعد ماركسيين، مثل أنياس هيلر (A. Heller) التي رأت في ميكافيلّي رائداً لماركس⁽¹³⁾. إن هذا النقد خاطئ جزئياً لأنه ينسب إلى لوفور يقين الماركسيين بأن الانقسامات زائلة. وقد أخطأ پارل حين ظن أنه يتعد هنا عن لوفور من خلال المعارضة بين «المفهوم الميكافيلّي لنزاع الأمزجة» و«المفهوم الجدلي لصراع الطبقات» الماركسي، وذلك

لأن المفهوم الثاني يقوم على مسلمة مجتمع من دون طبقات، فيما الأول يستند إلى فكرة أن على الأمزجة أن تُشبع من خلال خصومة حتمية تقوم بينها⁽¹⁴⁾. لقد أشار لوفور، في الواقع، وقبل بارل، إلى أنه ليس [النزاع] حل نهائي ممكن، في نظر مكيافيلي، لذلك فهو يرى في هذا بديلاً حقيقياً للماركسية. أضف إلى ذلك أن تفسير لوفور يبين أن النزاع بين المجموعات المتخاصمة يُعد نزاعاً منزعجاً، وليس صراعاً قائماً على البحث "العقلاني" عن المصلحة. ومن الصحيح أن لوفور، المتأثر بإرث التحليل النفسي، لا يربط نظرية الأمزجة هذه بمفهوم طبي ما قبل حدائي موروث من أبوقراط وغاليان، يجد مكانه في تمثيل كوني أبطلته ثورة غاليليه⁽¹⁵⁾. ولكن هل باستطاعتنا أن نعترض بالقول إن قراءة بارل، القائمة على ما يسميه فوكو معتقدات عصره (L'épistémè)، تميل إلى «إلغاء هدف مكيافيلي» الذي يرجع، في النهاية، إلى نزاعات فعلية بين مجموعات متخاصمة. ومهما يكن، إن تفسير لوفور يشير إلى موضوع جوهري لم يدرسه الجمهوريون الجدد بشكل عميق، إلى جانب مسألة النزاع، فيما بين أهم الأخصائيين الإيطاليين أن بإمكانه أن يشكل دليلاً لقراءة مكيافيلي⁽¹⁶⁾.

ما من شك في أن الجمهوريين الجدد قد أهملوا موضوع النزاع. لذلك يشير بوكوك إلى أصالة الفلورنساوي، غير أن علينا أن نلاحظ أنه لم يستطع سير معناها. ويعتبر تفسيره لعداء مكيافيلي للصيغة الفينيسية (نسبة إلى البندقية) - التي ثمن العديد من أصحاب النزعة الإنسانية عالياً طابعها الأرستقراطي - ذا دلالة، من خلال نسبة هذا الخيار إلى "ولادته" و"معتقداته"⁽¹⁷⁾. يعترف بوكوك، بكل بساطة، وضمن هذا السياق بتفرد التفكير المكيافيلي المتعلق بدور النزاع. غير أن تحليله لم يكن عميقاً، ويبقى هامشياً في مؤلفه. كل شيء يجري وكأن التفرد المكيافيلي لا يشكل، في المحصلة النهائية، شيئاً سوى صيغة، من بين صيغ أخرى ممكنة ومشروعة جميعاً، للطراز الجمهوري. خصوصاً وأننا لا نرى بوضوح، كيف يندمج هذا التحليل في جدول النزعة الجمهورية الفلورنساوية التي تعتبر استعادة للفكرة الأرستقراطية حول الحيز السياسي. وللمفهوم القديم «للدستور المختلط» للانسجام والتفاهم بدل تقييد عدم التفاهم⁽¹⁸⁾.

يمكن لهذا النوع من النقد أن ينطبق على سكينر أيضاً، رغم أنه يتعد عن بوكوك، من خلال لومه لمبالغته في شرح الخيار المكيافليّ انطلاقاً من معاداته «الصيغة الفينيسية»⁽¹⁹⁾. كان علينا، في رأي سكينر أن نشير، بشكل أفضل، كيف قطع مكيافليّ الصلة بالنزعة التقليدية المسيطرة. ومع ذلك، إن سكينر لا ينسب لهذا التحليل سوى دور هامشي في دراسته حول أسس الفكر السياسي الحديث⁽²⁰⁾. وكما هو الحال لدى بوكوك، كان عليه تبرير الطريقة التي وفق بها هذه الفرضية حول النزاع مع الفكرة التي تقول إن مكيافليّ «لا ينزعج مطلقاً من تحمل مسؤولية الفرضية الأرسطية الكلاسيكية التي ترى أن نوعاً من النظام الجمهوري المختلط أفضل من أي شكل "صافٍ" للحكم، بما في ذلك حكم الأمراء»⁽²¹⁾. أما أن يستبعد مكيافليّ - بشكل جزئي بالنتيجة - فكرة الدستور المختلط، فلا يعني هذا، أن هذا الدستور ذو طابع "أرسطي" ولا بوليبي، وذلك بسبب الأهمية التي يوليها للنزاع بين "أمزجة" الكبار والشعب حصراً، وفقاً لتوجهه لا نجده لدى أرسطو الذي يمنح الطبقة "الوسطى"⁽²²⁾ دوراً حاسماً. ولا يستطيع سكينر، كما بوكوك، سوى الوصول إلى إدراك بسيط لأصالة فكر الفلورنساوي الذي يختزل هنا أيضاً ضمن صيغة الأنموذج الجمهوري⁽²³⁾.

لذلك، هو يمنح عدم التوافق مكانة ثانوية باعتباره أداة، من بين أدوات أخرى ممكنة لتحقيق الخير المشترك⁽²⁴⁾. أما بتيت فلا يسير هذا التنظيم المكيافليّ للنزاع المدني الذي ربما أدى إلى تعقيد جدولته حول النظام الجمهوري باعتباره نظاماً يتيح فرصة لاحتجاج المواطنين ويقظتهم⁽²⁵⁾.

غير أنه يبدو أن هذه الإشكالية المكيافليّة التي تركز على الدور الكامن والمحرّر من الخلافات المدنية في حياة الحاضرة، وكأنها تفتح آفاقاً جديدة تجعل من الممكن إعادة كتابة تاريخ الفكر السياسي الحديث. ويتطلب هذا الأمر الاعتراف بأن الطريقة التي يسير فيها مكيافليّ أوجه عدم التوافق الإيجابية، بعيداً عن النزعة الجمهورية التقليدية، تكتسي طابعاً "حديثاً" بشكل مؤكد، ويرفض مفسرون، مثل پارل، هذه الأطروحة، عبر الرهان على أن نظرية "الأمزجة" المكيافليّة تأخذ معناها ضمن سياق معرفي ما قبل حديثي، قبل القطيعة المكيافليّة الديكارتيّة.

ولكن هل باستطاعتنا تأييد پارل هنا؟ يتطلب هذا الأمر القبول بفرضياته المنهجية التي تشير إلى فرضيات فوكو، طالما أنه يلح على انتماء ميكياڤيلي إلى *المعتقدات*، أو إلى ما يسميه توماس سامويل كون (T. S. Kuhn) *صيغة*، من دون أي تشابه مع من لحق به⁽²⁶⁾. غير أن هذه الفرضية التي تحدد الانقطاعات المعرفية، يمكن أن تنطبق على العديد من الفلاسفة والعلماء في القرن السادس عشر، لدرجة يتوقف معها استمرار بعض التساؤلات التي وجدت أصداء لها في القرون اللاحقة. ويدور أن پارل، بخاصة، يفترض أن تتطابق الحداثة مع القطيعة الغاليلية - الديكارتية. وربما فهمنا الآن، سبب اعتبار هوبس أكثر "حداثة" من ميكياڤيلي، وسيكون من الممكن، ربما أن نبين أن مونتسكيو، فيلسوف «ما قبل حداثة»، في بعض مظاهره. ولكن هل نسلّم بأن يواكب الفكر السياسي حالات القطيعة العلمية - التي يبقى النقاش حولها قائماً - وهل نكون في مأمن من المخاطرة، بالحد الأدنى، في تقليص المنطق الخاص بتاريخ الفلسفة الذي يتأثر بعمق بتحويلات العلم، هذا المنطق الذي لا يستطيع إلا أن يفتح على هذه التحويلات بطريقة تقريرية؟ وماذا نقول إذاً في الطريقة التي يتأمل فيها بعض الكتاب "الحداثيين"، مثل مونتسكيو، بعمق، المساهمة الميكياڤيلية؟ هل المسألة تمثل "انكفاء"؟ في ما عدا ذلك، إنه لذنو دلالة أن يحاول پارل، من خلال السجّال مع مدرسة ستروس - لكن من دون التوقف، بالمقابل عند تلقي سيدني (Sidney) أومونتسكيو لميكياڤيلي.

نحو صيغة ثالثة: التيار التعددي النزاعي

نود أن نبني، بعيداً عن پارل، فرضية حول حداثة الفكر الميكياڤيلي في مسألة النزاع، لا تخضع للحدود الخاصة بالصيغة الستروسية والصيغة الجمهورية الجديدة، وذلك في مواجهة النقد السطحي جداً لوجهة نظر ستروس. لقد كان تلاميذ ستروس على حق في اعتراضهم على الجمهوريين الجدد لأنهم يقللون من أهمية القطيعة التي بدأها ميكياڤيلي مع التقاليد الكلاسيكية⁽²⁷⁾. إن الانتقادات التي جاءت بعد ستروس بخاصة، وتوجهت إلى بوكوك، مثل انتقادات هارفي كلافن مانسفيلد (H. C. Mansfield)، تعد صالحة حين تبين أننا لا نجد لدى ميكياڤيلي تكراراً

للفكرة الأرسطية حول الحيز السياسي، وحين تبين أن هذا النسب يطمس أنثروبولوجيا مكيافيلي المتشائمة. وهي على حق أيضاً حين تلح، ضد بوكوك، على واقعة أن الوسائل العنيفة لممارسة السلطة والتي يوصفها كتاب الأمير ويشجعها، موجودة في الأحاديث⁽²⁸⁾. غير أن الستروسيين يستتجون من هذا النقد المقبول أن مكيافيلي يقطع بشكل جذري مع عصره لدرجة لا يعود معها من شيء مشترك بين خطابه وخطاب النزعة الجمهورية في زمانه. إلا أن هذا الأمر يؤدي إلى التقليل من قيمة الطريقة التي يغني بها مكيافيلي من الخطاب الجمهوري، كي يغير معناه. وبالتوازي مع ذلك، تقود قراءة ستروس إلى الكشف عن مستقبل مكيافيلي - بطريقة تذكر بتحليل مارتان⁽²⁹⁾ - في الفكر السياسي ما قبل الليبرالي لهوبس: طالما أن هذا الفكر يقطع بشكل جذري مع فرضيات الفلسفة الكلاسيكية، فإن المشروع المكيافيلي يستبق لحظة هوبس في الحداث السياسية التي ستلغي البحث التقليدي عن «النظام الأفضل». ينجز هوبس الشرخ المكيافيلي، في هذا الشأن بالرغم من بعض الاختلافات، وذلك من خلال رفض قانون الأقدمين الطبيعي، وعبر انطلاقه من وجود البشر والخوف من الموت العنيف، فيما تتمثل أصالته في إدماج هذه القطيعة في إطار شرعنة المؤسسات السياسية القائمة إضافة إلى أمور أخرى⁽³⁰⁾. تأتي أهمية النسب - المناقض تماماً للنسب الذي قدمه الجمهوريون الجدد الذين يعتبرون هوبس، ما قبل الليبرالي، نقيضاً للجمهوري مكيافيلي⁽³¹⁾ - من خلال تحديده لاستمرار معين يربط المقاربتين الواقعتين تماماً للحياة السياسية والاجتماعية، ومن خلال استخراج الأبعاد التي لا يمكن تجاوزها لقراءة بوكوك "الأرسطية" ومدرسته. علينا أن نشير، دعماً لهذا النسب، إلى الأهمية التي يأخذها موضوع النزاع لدى هوبس. فقليلون هم الكتاب، باستثناء مكيافيلي بخاصة، الذين يبدون، في الواقع، اهتماماً بالطابع النزاعي للعلاقات الاجتماعية، الذي من خلاله تنجز هنا القطيعة مع الإرث الأرسطي.

ومع ذلك، نصل هنا أيضاً إلى حدود الموقف الستروسي، إضافة إلى مسألة النسب مكيافيلي/هوبس، وذلك لأنه انطلاقاً من الالتقاء الجزئي حول ملاحظة وجود الخصومة، يستخلص مكيافيلي وهوبس دروساً متنافرة: فيما يعتبر مؤلف

الأحاديث أن من الواجب تشذيب الخصومة التي لا يمكن استبعادها كي تصبح منتجة، وتعزيز حرية الحاضرة، يبذل مؤلف كتاب *الليثياتان* (Leviathan) الجهد لتجنب النزاع من خلال تبرير السلطة المطلقة للحاكم باعتبارها مقاماً للإكراه قادراً على السيطرة على هذه الحالة النزاعية التي تعتبر خطيرة في جوهرها. ويمكن في حالة الفلورنساوي، أن تكون هناك انقسامات "سيئة" و"جيدة"، وشغب مفيد ضمناً للحرية، وفي حالة أخرى، حالة هوبس، يعتبر الانقسام عامل فوضى على السلطة إزالة مفعوله.

ومن ناحية أخرى، إن رفض هوبس العنيد للنزاع، وهذا التوجس من التهديدات والشغب⁽³²⁾، يترافق مع حركتين تتم من خلالهما، هنا أيضاً، القطيعة مع مكيافيلي. تتمثل الحركة الأولى في إعادة بناء المسارات المؤدية إلى ظهور حالة المجتمع، انطلاقاً من الحالة النزاعية الأولى التي تتواجه فيها، في «الحالة الطبيعية»، ذرات معزولة عن بعضها بعضاً، فيما يُكتشف النزاع، لدى مكيافيلي، داخل المجتمع نفسه، ولا يضع في المواجهة ذرات عديدة يحركها الخوف من الموت العنيف، بل مجموعات اجتماعية حقيقية: "الكبار" و"الشعب" الذين تحركهم "أمزجة" ذات الطابع مختلف جذرياً، والرغبة في ممارسة الاضطهاد، والرغبة في تجنبه. وبالتالي مع هذا، ينضم هوبس إلى خصوم فكرة الدستور المختلط الذين يعتبرون هذا الدستور عامل تقسيم كئيباً، وينهي، بعد جان بودان (J. Bodin) إنجاز فكرة السيادة المطلقة غير القابلة للتقسيم⁽³³⁾؛ فيما تستمر هذه الفكرة الكلاسيكية حول الدستور المختلط لدى مكيافيلي، والتي استقاها من بوليب بشكل خاص، في القيام بدور هام، مقابل إدخال فكرة النزاع والأخذ في الحسبان اضطرابات التاريخ، حتى لو كان ذلك مخالفاً للنموذج الكلاسيكي.

تحت هذه الفروق على الاستنتاج بأن إذا كان الستروسيون على حق في مواجهة الجمهوريين الجدد، بتصنيف مكيافيلي في تيار يقطع الصلة بالنزعة الجمهورية التقليدية، فإنهم لا يخطئون فقط في المبالغة في هذه القطيعة لدرجة يهتمون معها الطريقة التي يحافظ فيها مكيافيلي على رابط مع النزعة الجمهورية لعصره، بل وفي عدم معرفة أنه بعيد كل البعد عن أن ينذر بمجيء هوبس، بل إنه

أكثر خصومه الفلاسفة بأساً؛ وربما علينا أن نجد هنا أحد أسباب صمت الثاني المدهش تجاه الأول.

يجب ألا ينسينا هذا النقد للحجج التي يوجهها الستروسيون للجمهوريين الجدد بعض الهشاشة في إعادة بناء بوكوك وسكينر وبتيث وفيرولي أيضاً. لقد انقاد الجمهوريون الجدد إلى اعتبار مكيافيلي أنموذج النزعة الجمهورية الحديثة في مجملها، من دون أن يتساءلوا عما تبقى من الإرث المكيافيلي أو زال من خلال التعبيرات المختلفة للتيار الجمهوري، وذلك لأنهم لم يسروا أصالة القطيعة المكيافيلية - من دون الوصول إلى درجة عدم المعرفة به - سواء أرتبط الأمر بالنزعة الجمهورية القديمة أم بفكر عصر النهضة الخاص بالخصوبة الكامنة في النزاع. إذا كان علينا - كما نظن في الواقع - البحث عن أصالة مكيافيلي، في الأهمية التي يوليها للخلافات المدنية، فعلى أن نقول إن جزءاً كبيراً من النزعة الجمهورية الأوروبية، بما في ذلك الكتاب الذين ينتسبون إلى مكيافيلي، قد رفض أو أهمل، أقله، ما لا يزال قائماً من المشهد الأكثر تمثيلاً للإرث المكيافيلي. وفي النتيجة، إن من السذاجة المنهجية أن نخلط نسباً يدعيه هذا الجمهوري أو ذاك مع نسب فعلي، ولناخذ الحالة الحاسمة لجيمس هارنغتون الذي أشار الجمهوريين الجدد كافة، منذ بوكوك، إلى أنه وريث مكيافيلي، بالرغم من نأيه عنه في مسألة توزيع الملكية⁽³⁴⁾. ومع ذلك، هناك مسألة قل أن يدرسها الجمهوريون، إنها معرفة إذا كان هارنغتون قد استخدم عدم التوافق، في القيام بدور رئيس، كما لدى مكيافيلي؛ وتلك مسألة جوهرية تماماً، لأن الربط بين هارنغتون ومكيافيلي يشكل العمود الذي تقوم عليه إعادة بناء النزعة الجمهورية الجديدة بكاملها: فإذا انهار هذا العمود، يتوجب علينا عندها إعادة النظر في الانموذج المثالي كله. غير أن الاختلاف كبير هنا بين هارنغتون ومكيافيلي لدرجة نجد معها، ومن دون أي شك، مساراً يجب سبره للتمييز بين نماذج عدة من النزعة الجمهورية أو أنموذجين بخاصة، وذلك ضمن الاقتراب أو الابتعاد عن الإشكالية المكيافيلية: يقوم أحد هذه النماذج على منح القيمة للنزاع (ضمن السياق المكيافيلي) فيما يقوم الثاني على فكرة التوافق أو الانسجام الاجتماعي (ضمن السياق الغيشاردي بالأحرى) باعتبارهما وسائل لتحقيق الخير المشترك⁽³⁵⁾.

وتظهر فائدة هذا التمييز الجديد الساعي إلى أنموذج مثالي جديد يعقد أنموذج الجمهوريين الجدد، إذا درسنا الرابط بين مكيافيلي وروسو. حين يدرس الجمهوريون الجدد هذه النقطة فإنهم يبرزون، عموماً، الاستمرار الذي يربط روسو بمكيافيلي⁽³⁶⁾، وتلك غواية كبرى لدرجة أن مؤلف العقد الاجتماعي، كما هارنغتون من قبله، يبدى إعجابه بالنزعة الجمهورية المكيافيلية. وما من شك في أن التوافقات تبدو ذات دلالة للوهلة الأولى، في ما يتعلق ببعض الموضوعات الجمهورية، مثل الأهمية الممنوحة لـ "عادات" المواطنين أو للحيز العام. ومع ذلك، بخاطر المرء، إذّاك بإهمال فرق جوهري يتعلق بمكانة النزاع: فيما يدمج نقد "الانشقاقات" لدى مكيافيلي ضمن تفكير مكرّس لوسائل ضمان الحرية، من خلال تاطير النزاع على أسس مؤسساتية يجري العكس لدى روسو، حيث لا تنفصل إدانة "الأحزاب" عن تصور للإرادة العامة لا يفسح المجال لعدم التوافق، وللتعبير، وإخراج النزاعات بين المجموعات المتخصصة. ويثبت بذلك، أنه من المستحيل متابعة جمهوري جديد مثل سكينر حين يؤكد أنه ليس من حاجة للإلحاح على «التطابق بين موقف مكيافيلي» المتعلق «بالدولة الحرة» التي تعرّف بأنها قادرة على أن تحكم نفسها بنفسها و«مذهب الإرادة العامة لدى روسو»⁽³⁷⁾. يتجاهل هذا النسب الخاطئ لسكينر الفرق الرئيس بين مكيافيلي وروسو حول مسألة النزاع، كما يهمل واقعة أن مفهوم روسو للإرادة العامة - التي تعود جذورها، في جزء منها، إلى الشريعة من خلال وساطة مالبرانش الحاسمة⁽³⁸⁾، بعيداً عن المكيافيلية - لا تنفصل عن فكرة سيادة وحيدة لا تتجزأ. لذلك لا نستطيع أيضاً اتباع الجمهوريين الجدد الذين يشيرون، بشكل عابر، إلى شروحات روسو الذي يرفع من قيمة المشاغبات السياسية⁽³⁹⁾ كي يصل إلى البرهان على وجود رابط حقيقي مع مكيافيلي حول هذه النقطة بالذات: من البديهي أن نكون في عالمين فكريين مختلفين جذرياً حيث لا يمكن أن يكون لموضوع النزاع المقام نفسه⁽⁴⁰⁾. ونجد برهاناً على هذا الاختلاف في الطريقة التي يحتفي من خلالها روسو بإسبارطة، فيما ينتقد مكيافيلي، في ختام دراسة حقيقة، الأنموذج الإسبارطي، ويقترح التفوق لروما التي استطاعت أن تستقبل الأجانب

وأن تعتمد عدم التوافق أساساً لحركتها السياسية وازدهارها. ونشعر بفشل الجمهوريين في استخلاص أصالة روسو أيضاً من خلال إهمالهم لتأثير أفلاطون الجوهري⁽⁴¹⁾. أما ما يدين به لنيكولا مالبرانش، سواء بآكان ذلك شكل مباشر أم من خلال ديدرو، فقد أهمل. وأسباب ذلك بديهية: وذلك لأن الاعتراف بهذه التأثيرات التي أهملها جمهوريون آخرون، ربما يقود إلى الاعتراف بالطابع المتصل للتاريخ الجمهوري وإلى وضع الاستمرار بين روسو ومكيافيلي موضع التساؤل⁽⁴²⁾.

ولا تقل أهمية الصعوبة التي واجهها الجمهوريون الجدد في التعرف إلى عناصر الاستمرار بين مكيافيلي ومونتسكيو. وليست هذه الصعوبة مستغربة، إذ اعتبر الأول "جمهورياً" فيما الثاني "ليبرالياً"⁽⁴³⁾ بالفعل. ألاّ تقودنا دراسة الروابط بين المفكرين، بعد ذلك، إلى زعزعة فرضية وجود تيار مكيافيلي متناسق؟ ومن اللافت أنه حين يدرك الجمهوريون الجدد هذا الرابط، فإنهم يستخدمون هذا الإدراك من أجل الإشارة إلى استمرار موضوع «الفضيلة» التي سننظر عليها في مديح مونتسكيو لهشاشة الجمهوريات التي نعرف، مع ذلك، أنها لم تعد تشكل بالنسبة إليه حالة مثالية ممكنة ومرغوبة في المجتمعات الحديثة. إن القطيعة بين مكيافيلي ومونتسكيو، هي في الواقع، كبيرة جداً في مجالات عديدة، كما يؤكد ذلك رفض مؤلف روح الشرائع للانحياز الشعبي الفلورنساوي، من بين أمور أخرى. ليس من حقنا، أقله، إهمال الطريقة التي أشار من خلالها مونتسكيو، عبر اتباع الدرس المكيافيلي الكبير وتنظيمه، في كتابه تأملات حول أسباب عظمة الرومان وأنهارهم، إلى أن الانقسامات والمشاعات في الجمهورية الرومانية كانت السبب الرئيس لحصولها على الحرية وتوسعها، لدرجة يصبح معها، «طلب رجال شجعان، في وقت الحرب، وخجولين في وقت السلم، في دولة حرة، تعبيراً عن الرغبة في أمور مستحيلة، عموماً، ففي كل الأحوال التي نرى فيها أن الناس هادئون، في دولة تحمل اسم الجمهورية، يمكننا أن نطمئن إلى أن الحرية غائبة»⁽⁴⁴⁾. وعلينا أن نشير إلى تشابهات أخرى، بخاصة وأن مونتسكيو يهتم بالحياة المضطربة في المجتمعات الحديثة، من خلال رفض القطيعة التي قام بها هوبس بين «الحالة

الطبيعية» و«الحالة الاجتماعية». غير أن هذه الموضوعات المكيافيلية موجودة حتى ضمن تحليل الدستور الإنكليزي الذي يشير إلى الدور الرئيس الذي يقوم به التوازن بين القوى الاجتماعية المتخاصمة⁽⁴⁵⁾. يجدر بنا التنويه بهذا النسب، حيث نجد تأثير الأحاديث، إلى جانب إهمالات كبيرة، بخاصة وأن فيرغوسون (Ferguson) قد أعاد صوغ مديح النزاع، الذي قدم عنه الجمهوريون الجدد، هنا أيضاً، قراءة مختزلة، من خلال إلحاقه بتيار أكثر اتساعاً حيث يتربع كتاب معادون لكل شكل من أشكال الحالة النزاعية⁽⁴⁶⁾.

وهكذا، إن التحليل النقدي لإعادة البناء الجمهوري الجديد يضعف الأطروحة التي ترى أن الصيغة الجمهورية، وحدها، قادرة على السماح بالخروج من مأزق الأنموذج المثالي الليبرالي الكلاسيكي. ونصيغ الفرضية التي ترى أن أنموذجاً مثالياً ثالثاً سيسمح في تجنب قصور الأنموذجين المثاليين الأخيرين: إنه الأنموذج المثالي التعددي- النزاعي، الجمهوري، والليبرالي في الوقت عينه (مع نبرات متنوعة وفقاً للمؤلفين)، فهو الوحيد القادر على التعبير عن التوافقات الجزئية لمجموعة من المفكرين من أصحاب المواقف المتباعدة جداً، بالرغم من ذلك، من مكيافيلي إلى سيدني وحتى مونتسكيو وفيرغسون وألفيري، وتوكفيل⁽⁴⁷⁾ الذين لا ينضون تحت صنف اللحظة المكيافيلية سوى بالمعنى الذي يعتمد به بوكوك أو سكينر أو بيتيت، ولا تحت صنف لحظة لوك، بالمعنى الذي يعتمد هارتز. وتحمل مؤلفات سيدني، التي أهمت كثيراً في فرنسا، مكانة هامة ضمن هذا الأنموذج المثالي الثالث الذي يمنح دوراً حاسماً للنزاعات والمشاغبات. ونجد لدى هذا الجمهوري، في الواقع، وهو الأكثر قرباً من مكيافيلي مما هو عليه هارنغتون، إعادة صوغ الموضوعة المكيافيلية لحالة النزاع المدني. وهكذا يردد مؤلف أحاديث في الحكم أصداء الأحاديث، من خلال الذهاب إلى التأكيد على أن الحرب و«المشاغبات الأهلية» بالعودة إلى المشاغبات المكيافيلية ليست «أكبر الشرور التي يمكن أن تصيب أمة ما»⁽⁴⁸⁾. ويمتدح سيدني "عدم التوافق" بما في ذلك ما حدث في فلورنسا، بنبرات يمكن أن نلمحها عبر نصوص من القرن التاسع عشر أيضاً، في «ملاحظات حول مكيافيلي» لصاحبه توكفيل⁽⁴⁹⁾. يحثنا هذا المخطط العام لإعادة

البناء إلى التفكير بأن النزعة الجمهورية والنزعة الليبرالية ليستا في الواقع تقليديين متجانسين، فهما تحملان، في طياتهما، تناقضات كبيرة جداً وإن من الممكن توضيح المواقف المتاحة اليوم، من أجل إعادة التفكير بالشأن السياسي، شرط سير فرضيات الانقسامات الداخلية ومتطلباتها فقط.

وذلك لأنه على الصعيد المعباري، تفتح اللحظة المكيافيلية الفرنسية أفقاً أكثر خصوبة من النزعة الجمهورية الجديدة: إذ تأخذ هذه اللحظة، لوحدها، على عاتقها مسألة النزاع من خلال تحليل الدور الذي يمكن أن يقوم به في تحقيق الغايات الشاملة والمؤسّسة للشرعية الديمقراطية. وعلينا أن نلاحظ أن هذه النزعة الجمهورية الجديدة لم تعالج هذا البعد النزاعي فكرياً إلا بشكل محدود، على طريقة بوكوك، الذي بدا أنه يؤثر أحياناً في خطابات الحنين التي تمجد الانسجام الثقافي والمشاركة الجماعية في تصور جوهرى للخير باعتباره شرطاً للعيش المشترك المتناغم. تبدو النزعة الجمهورية الجديدة التي نادى بها سكينر أكثر قبولاً، بهذا الصدد. وذلك لأن بحثه عن فكرة الحرية لدى مكيافيلي قد انساق وراء الرغبة في إدماج تعددية مفاهيم الخير، باعتبارها قاعدة لا يمكن تجاوزها. ومع ذلك ليس لدى سكينر تفكير محدد حول الرابط بين النزاع والحرية. ولكن ما من شك في أن جمهوريين جدداً، مثل بتييت، يعرفون النزعة الجمهورية من خلال تبني مبدأ حق الاحتجاج والطعن وطلب الرد على ذلك والإقرار بضرورة قيام المواطنين بمراقبة أفعال السلطة⁽⁵⁰⁾. غير أن هذا التوجه لم يعمق سوى قليلاً، ولا توجد لدى مكيافيلي مصادر مفهومية يستند إليها.

ليبرالية نزاعية أم نزعة ليبرالية جديدة؟

يبدو أنه من الضروري، من أجل إظهار البعد النزاعي لدى مكيافيلي، والإشارة إلى أنه قد أعيد توظيفه، من خلال إهمالات هامة، من قبل "الليبراليين"، أن يصبح بمقدور هذا المنظور اعتماد نقد نوع من الليبرالية القائمة على منح قيمة للتفاهم. ذلك هو حال "الليبرالية الجديدة" وأشكالها الإيديولوجية المشتقة⁽⁵¹⁾. غير أن مناقشة ليبرالية قائمة على رفض النزاع غير مريحة، بشكل لافت، في مواجهة

ليبرالية جديدة، بالرغم من أننا أمام مهمة ضرورية في عصرنا. ويعتبر هذا الرفض صعباً في حالة بوكوك: وذلك لأن نزعته الليبرالية لا تترك فسحة كبيرة للخصومة ولأن لوحته الليبرالية منسجمة لدرجة لا تسمح معها بنقد يظهر الانقسامات الداخلية التي تفرق الليبراليين. ليس الحال كذلك مع سكينر وبتيت وفيرولي: فهم يبدلون الجهد لإظهار تفرد موقعهم، كي يتجنبوا نقد الليبراليين الذين يتهمونهم بإعادة الاعتبار للأفكار المثالية القديمة التي لا تتسجم مع «حرية الحداثيين». وهكذا يفضل بتيت أن يتحدث عن حرية "رومانية جديدة"، أما تعريف الحرية لدى بتيت، باعتبارها "غياب الهيمنة"، فهو غير بعيد عن التقاليد «الدستورية الليبرالية»، بما في ذلك النزعة الدستورية لدى هايك، في كتابه *دستور الحرية* الذي ينتسب، من ناحية أخرى، إلى الكتاب الجمهوريين أنفسهم أحياناً⁽⁵²⁾. فكيف، والحال كذلك، لا نضطرب من أن «النزعة الجمهورية الجديدة» المكرسة لرفض "الليبرالية" - والليبرالية الجديدة بخاصة - تعبر عن الكثير من الارتباك في فصل تصورها عن تصور هايك؟

وبالمقابل، إذا اعتمدنا دليلاً، مسألة الخصومة الأهلية التي تخترق التيار الذي نعتناه بالتعددي - النزاعي، والذي يشتمل على كتاب يوصفون بأنهم "جمهوريون" و"الليبراليون" في الوقت نفسه، يصبح سهلاً استخلاص حدود الخطاب الليبرالي الجديد. لأنه إذا كان هناك موضوع غائب في النزعة الليبرالية الجديدة، فسيكون خصوبة "التفرقة" باعتبارها عاملاً مؤسساً للحرية. وعلى العكس من ذلك، يعبر فكر هايك عن رفض لعدم التوافق الذي تحول إلى ممارسة مغرضة "للمساومة" والابتزاز، من قبل زبائنية انتخابية تسعى إلى الحصول على امتيازات لا تستحقها تحت اسم فكرة خادعة للعدالة الاجتماعية. إذا كان باستطاعة هايك إذاً أن ينتسب إلى جزء من النزعة الجمهورية، كما فعل ذلك سكينر أو بتيت أو فيرولي، كل على طريقته، فإنه لا يستطيع أن يلتحق بالفكرة المكيافيلية حول الخصوبة الكامنة للنزاع، لأن مثل هذه الاسترجاعية ستدمر الانسجام الداخلي لنظريته.

تقوم فرضيتنا إذاً على وجود نوعين من الليبرالية، من وجهة النظر هذه ما سنسميه ليبرالية "ما بعد مكيافيلي" من جهة - تعتبر الإشارة إلى مكيافيلي أساسية

لدى "الليبرالين" الحقيقيين من أمثال غوبيتي أو بورزيو أو بورنهام أو آرون أو ماتيو تشي⁽⁵³⁾ - وليبرالية "معادية لمكيافيلي"، مثل حالة "الليبرالية الجديدة"، من جهة أخرى. يرفض هايك وتلاميذه بشكل قاطع فرضية معجب "ليبرالي" بالأحداث، مثل غوبيتي، يؤكد أن «صراع الطبقات هو التجربة الحسية للممارسة الليبرالية» وأن «بإمكان الليبرالية أن تعبر عن غناها كله عبر صراع الطبقات فقط»⁽⁵⁴⁾؛ أو تأكيد بورزيو (Burzio)، الذي اعتُبر أحياناً تلميذاً «لمكيافيلي» في إيطاليا، والذي يذكر أن «صراع الأحزاب والطبقات لا يضر بالدولة [في نظر مؤلف الأحداث] إذا هي لم تتحول إلى زمر»⁽⁵⁵⁾؛ أو فرضية ليبرالي كبير، غيدو دي رودجيو (G. De Ruggiero)، الذي يرى أن صراع الحركات العمالية قد ساهم بشكل نهائي في إغناء الليبرالية⁽⁵⁶⁾؛ أو تعريفهم الليبرالية القائم على الصراع أيضاً الذي قدمه الاشتراكي الليبرالي روسيلي، الذي يلمح إلى ضرورة تنظيم النزاعات التي لا مناص منها والمفيدة حتى⁽⁵⁷⁾، وفقاً لقواعد اللعب؛ وذلك لأن الصراعات وسيلة تنتزع الطبقة العاملة بواسطتها الاعتراف بها وتحصل على كرامتها. ومع ذلك، لا يجهل هايك تماماً هذا التوتر الداخلي في الليبرالية، فهو الذي كان يرفض بقوة الليبرالية النزاعية لقارئ كبير آخر لمكيافيلي، وملهم غير مباشر «للاشتراكية الليبرالية»، إنه كروتشي⁽⁵⁸⁾. وبذلك يسمح النموذج المثالي التعددي-النزاعي الذي وجد التعبير السامي في الليبرالية الإيطالية واللحظة المكيافيلية الفرنسية، بإظهار حدود الليبرالية الجديدة، أكثر من النزعة الجمهورية الجديدة. وما من شك في أن النزعة الليبرالية الجمهورية الجديدة تعتبر نفسها وريث الليبرالية، على أن عداؤها لعدم التوافق يبعدها عن أحد توجهات هذه التقاليد. وإذا قبلنا أن الديمقراطية الليبرالية تتميز بالاعتراف بشرعية عدم التوافق، وبالجهد من أجل جعله منتجاً لمصلحة الخير المشترك، فإن كل شيء يشير إلى أن تحقق المشروع الليبرالي الجديد سيقود إلى تشويه خطير في الحياة الديمقراطية⁽⁵⁹⁾.

لذلك نخطئ إذا اعتبرنا اللحظة المكيافيلية الفرنسية "بائدة" بذريعة أن إلحاحها على النزاع لا ينفصل عن نقدها للنزعة الشمولية. وبما أن لوفور بنى تحليله للنزعة

الشمولية من خلال إظهار الطريقة التي تنفي فيها التقسيم الاجتماعي، فإن تفسيره لمكيافيلي سيأخذ بعداً مرتبطاً بالحركة المناهضة للشمولية⁽⁶⁰⁾. وسيكون ذلك نوعاً من إهمال واقعة أن الخطاب الليبرالي الجديد يحفز هو أيضاً، وضمن نمط معاكس تماماً، أسطورة المجتمع الخالي من النزاعات، حيث يقاد الشأن السياسي إلى الهلاك، أو إلى الاقتصار على القيام بدور محدود، كي يفسح في المجال لازدهار مجتمع تجاري يُنظم ذاتياً. توضح اللحظة المكيافيلية الفرنسية، في مواجهة هذا التصور حول «نهاية التاريخ»، الطابع الحتمي للتقسيم الاجتماعي والفناء السياسي معاً، باعتبارهما وسيطاً يسمح بالتعبير عن النزاعات ويُقيي مسألة عدالة المؤسسات مفتوحة. غير أن هذا المنظور واضح لدرجة تمنع معها الإيديولوجيا الليبرالية الجديدة حول التوافق، ورفض إظهار الانقسامات وفتح القانون على متطلبات العدالة الاجتماعية، كل حل إيجابي لطلبات الاعتراف بالمجموعات المغبونة، وهو لا يقود بذلك إلى تحقيق مشروعه المعلن للتخفيف الحقيقي عن المجتمع. وأفضل من ذلك، نستطيع أن نتساءل في ما إذا كان الإنكار الليبرالي الجديد لحالة النزاع لا يشجع على إعادة نظر جذرية باللعبة السياسية الديمقراطية. علينا أن نتساءل أقله، حول واقعة أن ظهور الحركات الشعبية في أوروبا، في نهاية القرن العشرين، والتي استندت إلى خطاب عنصري ورفض للجهاز السياسي، قد تراكمت مع برودة في النزاع الاجتماعي والسياسي. ويمكن أن نعرض الفرضية من خلال القول إن الزوال المصطنع للنزاعات ورفض إيجاد مخرج لها، أي إغلاق التساؤل الجماعي حول عدالة المؤسسات سيشتجع الأمراض الشعبية، مثل الإيديولوجيا، ويغذيان المشروع الخيالي لمجتمع منسجم ومتحرر من سيطرة «الطبقة السياسية»، بدل أن يمنح قيمة للخصومة.

أنموذج «صراع من أجل انتزاع الاعتراف»

قد يكون مفيداً إذا التفكير في الشأن السياسي بالاعتماد على موضوع النزاع. تقيم اللحظة المكيافيلية الفرنسية، في هذا الصدد، روابط مع موقف بعيد عن النزعة الجمهورية الجديدة، أي مع المنظور الذي فتحه في ألمانيا، أكسيل

هونيث، وتسمح دراسته، في النهاية، بإبراز الأهمية التي يمكن أن يأخذها سير القراءات الفرنسية لمكيافيلي. لنذكر أن هونيث يرغب في تجاوز حدود الأنموذج المثالي للتواصل الذي تبناه هابرماس، كي يدمج البعد النزاعي. وإنه لأمر ذو دلالة أن يقدم أنموذجاً مثالياً جديداً من خلال فحص المساهمة الفرنسية في مرحلة "ما بعد النبوية" التي رفضها هابرماس⁽⁶¹⁾. يقوم الرهان على استخلاص الدروس من نقده لفرضيات هابرماس وفوكو⁽⁶²⁾، عبر استنباط طريقة جديدة تقوم على «الصراع من أجل انتزاع الاعتراف»، كان هابرماس قد شعر بأهميتها⁽⁶³⁾، إلا أنه لم يعمد إلى تطبيق سماها: «لا نستطيع إدماج الأبعاد الاجتماعية التي فتحت آفاقها التحليلات التاريخية التي قام بها ميشيل فوكو، ضمن إطار نظرية التواصل، إلا باللجوء إلى فكرة الصراع الاجتماعي القائم على أسباب أخلاقية»⁽⁶⁴⁾. ومن الممكن، انطلاقاً من كتابات هيغل في مرحلة «إينا» أن نوصف «المنطق الأخلاقي» للنزاعات الاجتماعية. ويلح هونيث على تجربة وجدانية في أساس الصراع من أجل انتزاع الاعتراف، إنها تجربة الازدراء والإهانة التي تجسد الذات نفسها، من خلالها، محبطة بسبب طلباتها في «التحقق الذاتي» للهوية ضمن مجتمع يرفضها⁽⁶⁵⁾.

غير أن هونيث لا يكتفي بالابتعاد عن كافة وجوه اللحظة المكيافيلية الفرنسية كافة، بل ينسب لمكيافيلي، وبشكل واضح، الأصل المشووم «للفلسفة الاجتماعية الحديثة». فلا يعتبر الصراع المكيافيلي، في الواقع، أبداً «صراعاً من أجل انتزاع الاعتراف»، بل مجرد «صراع من أجل الوجود». وربما قلل الفلورنساوي من أهمية البحث الكلاسيكي عن «الحياة الطيبة» انطلاقاً من «علم وجود اجتماعي» يفترض حالة دائمة من النزاع بين الأفراد. وهكذا إن الانشغال المكيافيلي الوحيد سينصب على تحديد «كيف يمكن أن يستغل هذا النزاع الدائم بين البشر لمصلحة السلطة القائمة»⁽⁶⁶⁾. ويبدو هذا التعارض الذي أقامه هونيث بين هيغل ومكيافيلي مدهشاً حين نعرف حالة الانبهار التي شعر بها هيغل الشاب تحت تأثير الفلورنساوي، من خلال إعجاب بوطنية الأمير⁽⁶⁷⁾. إن قراءة مكيافيلي، المقترحة هنا، هي من جهة أخرى، "ألمانية" صرفة، إذ تشير إلى فريدريش ماينكه

(F. Meinecke) و كارل ريتّر (C. Ritter)، وكذلك إلى تيودور قولفغانغ أدورنو (Th. W. Adorno) وماكس هوركهايمر (M. Horkheimer)، من دون أن ننسى إرنست بلوك (E. Bloch)⁽⁶⁸⁾. وبذلك يستمر تفسير يشوبه الشك لم يحتو على أفضل ما في الشروح المكيافليّة قائماً. ونكشف هنا أصول التحليلات غير الدقيقة: ومثال ذلك، حين يؤكد هونيث أن مكيافليّ يوكّل، مثل هوبس، للدولة مهمة «الإزالة الدائمة لمفعول خطر الصراع الدائم»، فإنه يلغي واقعة أن الفيلسوفين لا يمنحان النزاع المقام نفسه أبداً.

من المؤسف، على المستوى المعياري، ألاّ نواجه قراءة هونيث لمكيافليّ بقراءة لوفور الذي وجد في الفكر المكيافليّ تفكيراً حول النزاع باعتباره صراعاً من أجل انتزاع الاعتراف. يقوم لوفور بالكشف هنا عن أنموذج مثالي للنزاع يمنح دوراً رئيساً للبحث عن الاعتراف، وذلك من خلال الإشارة، في الواقع، إلى أنه لا يمكن لرغبة الشعب في تجنب الاضطهاد أن تختزل في البحث عن "المصلحة"، وبأنها «بلا موضوع»، وهي تفتح بذلك على التواصل، من خلال إلحاحه على واقعة أن القوانين الداعمة للحرية ليست مثل غيرها من القوانين، لأنها تفترض «الاعتراف برغبة المضطهد».

وبذلك، حين يعيد هونيث بناء «تقاليد جزئية» تكشف عن أنموذج مثالي «للصراع من أجل انتزاع الاعتراف»، فهو لا يشير إلى قراءة ميرلو - بونتي ولوفور لمكيافليّ. أما اللحظات التي اختارها فهي تمثل ماركس وسوريل وسارتر. ومن المفيد أن نشير إلى أن سوريل قد تأثر بالإرث السياسي الإيطالي لدرجة يصنفه معها بورنهام بأنه من بين "المكيافليّين"⁽⁶⁹⁾. ويمكننا مع ذلك، اقتراح تيار آخر يستبق بشكل واضح منظور هونيث «للصراع من أجل انتزاع الاعتراف». فمن حقنا أن نستبدل الثلاثي ماركس - سوريل - سارتر بثلاثي آخر غوييتي - ميرلو - بونتي - لوفور⁽⁷⁰⁾. تتركز لدى الأول الذي يستبق جزئياً «الاشتراكية الليبرالية» جميع مكتسبات الليبرالية النزاعية الإيطالية التي تعيد الارتباط مع النزعة الجمهورية المكيافليّة⁽⁷¹⁾؛ مع تلك الميزة التي تفيد بأن غوييتي يمنح قيمة أكبر لعدم التوافق، من هونيث، وكذلك الحال مع ميرلو - بونتي ولوفور. وذلك لأن أحد

أوجه الاختلافات مع هونيث يتمثل في أن اللحظة المكيافيلية الفرنسية لا تدرك النزاع ضمن منظور نشر السلام النهائي. يرى هونيث، في الواقع، أن «السوعي التعيس» للمجموعات المهانة ليس سوى لحظة مؤقتة. غير أن هذا المنظور الذي تقوده ضرورة التصالح، يتعارض مع القراءات الفرنسية لمكيافيلي والتي تلح على فكرة أن غياب إمكانية التوافق في الرغبات البشرية، يشكل أفقاً غير قابل للتجاوز. ولا يعني هذا الأمر أن التفاهم مستحيل؛ بل إن هذا التوافق لا يمكن أن يكون له مقام نهائي. ويدفعنا منظور ميرلو - بونتي إلى اكتشاف أطروحات هونيث، كما هو الحال لدى هيغل وماركس. إنه تفاؤل مفرط يتبع ما أسماه ميرلو - بونتي أحياناً "النزعة الكلاسيكية". وهو يعني بذلك فكرة عالم "مكتمل" في الواقع، أو بالقانون أقله، لدرجة يخرج معها مجتمع متصالح مع نفسه إلى الوجود بشكل افتراضي، أو لا ينتظر حتى التحقق. ولقد عارض ميرلو - بونتي هذا الأمر، من خلال التوضيح أن علينا أن نشكك في مسلمة "إنجاز" العالم سواء في مجال الإدراك أم الفن أم السياسة.

تبين اللحظة المكيافيلية الفرنسية أن إحدى نقاط ضعف فرضيات هونيث تتأتى عن التزامه بمفهوم سلمي مفرط بالعالم الاجتماعي الذي لا يلزم هنا، بما يكفي، الحقل السياسي بدور الوسيط. وتشهد بهذه الصعوبة، الطريقة التي يعتمد فيها هونيث على "النزعة الترابطية" لدى ديوي⁽⁷²⁾. غير أنه، وبالعودة إلى ديوي - وهذا ما يعرضه للتشويش طالما أنه يرغب في التخلص من علم اجتماع دور كهام بسبب عدم قدرته على التفكير بالنزاع⁽⁷³⁾ - يكشف نزوعه إلى منح قيمة للتوافق وإلى عدم قبول النزاع إلاّ باعتباره لحظة مؤقتة⁽⁷⁴⁾. ويبدو هذا الرجوع إلى الترابطية الأمريكية ذا دلالة، بخاصة وأن الخيار المكيافيلي لبورنهام والذي يسعى إلى إعادة الاعتبار لدور النزاع، يتشكل في مواجهة تفاؤل ديوي، أستاذه السابق. وهكذا، نستطيع أن نتساءل في ما إذا كانت قراءة هونيث لديوي تجيب عن المهمات التي فتحها «توصيف الصراع من أجل انتزاع الاعتراف»، وفي ما إذا كانت لا تفقد من جديد، إلى بعض الصعوبات التي عرفت فلسفات ترابطية تجدد صعوبة في التفكير في دور السلطة السياسية في حياة الجماعة التي يمزقها الاختلاف

في المصالح. غير أن إحدى المهام التي تفرض نفسها على المجتمعات المعاصرة في مواجهة ضعف الروح المدنية، لا تقوم فقط على تفعيل المشاركة على المستويات كافة: وربما افتقدت النظريات الترابطية لمعنى الأزمة الحالية من خلال إهمال إعادة الاعتبار للتمثيل السياسي لكونه تسامياً، أي حيزاً يمكن أن يتم تجاوز الانقسامات ضمنه في تاريخ مشترك⁽⁷⁵⁾.

بعيداً عن الانقسام بين النزاع والتوافق

تجنب اللحظة المكيافليّة الفرنسية بذلك مآزق بعض الخطابات ذات التعددية الثقافية والتمييزية التي ترى أن «سياسة اختلاف» تتطلب القطيعة مع النزعة الجمهورية. وتعتبر أطروحات إيريس ماريون يونغ التي أثرت هونيث⁽⁷⁶⁾، مثالية بهذا الصدد. فوفقاً لكتاها العدالة وسياسة الاختلاف، تقف المبادئ الجمهورية، في الواقع، حاجزاً أمام تحرر الأقليات⁽⁷⁷⁾. وتؤكد يونغ أن النزعة الجمهورية تغذى باعتقاد واهم بمثاليات النزاهة والمصلحة العامة، فيما ليست هذه المثاليات سوى إيديولوجيا تخفي التنافر بين الثقافات والمواقف. وهكذا، علينا ترك النزعة الجمهورية، فهي تستخدم من خلال اعتمادها على «منطق الهوية» و«ميتافيزيقا الحضور»، في تأكيد سيطرة المجموعات المهيمنة، أي «الذكور البيض» و«البرجوازيين»، وذلك هو معيار الحيز العام، أي التناقض بين العقل والوجدان الذي يستبعد النساء والمجموعات المسيطر عليها⁽⁷⁸⁾. غير أنه من الخطأ، على المستوى التاريخي، اختزال النزعة الجمهورية ضمن «منطق الهوية»⁽⁷⁹⁾، أضف إلى ذلك أن الأطروحة التي تحتزل الفكرة الجمهورية في الانقسام بين العقل والغريزة، تبقى موضع نقاش أيضاً: وتؤكد ذلك حالة النزعة الجمهورية المكيافليّة القائمة على النزاع في «الأمزجة». وما من شك في أن صمت يونغ حول مكيافلي وميلها لاعتبار روسو صورة مثالية للفكر الجمهوري، يحملان دلالة⁽⁸⁰⁾. وأخيراً، وعلى المستوى المعيارى، يضعف هذا النقد الصريح للفكرة الجمهورية حول «الخير المشترك» والمداولات العامة، إمكانية التجاوز، حتى الجزئي، للانقسامات والنزاعات. ولا نفهم، في هذه الحالة، كيف يمكن للمجتمع «أن يتماسك» أيضاً،

وبأي طريقة يمكن الحكم بين المطالب المتناقضة. وعلى العكس من ذلك، تتمثل مصلحة النزعة الجمهورية النزاعية المكيافيلية في استيعاب مطلب الخير المشترك. يبقى صحيحاً أنه يمكن لمنح القيمة للنزاع - إذا أخذ بعداً متطرفاً - أن يثير الشك في فرضيات المداولات العامة، حتى ضمن هذا الإطار الجمهوري. وهكذا، أظهر منظرو «الديمقراطية التداولية» بطريقة واضحة، ابتعادهم عن بعض وجوه اللحظة المكيافيلية الفرنسية: ألا تقود إعادة قراءة مكيافيلي هذه إلى إضعاف الطلب باتخاذ القرارات انطلاقاً من نقاش منطقي ومنفتح على الجميع حيث يجب أن تسيطر أفضل البراهين؟ ذلك هو اعتراض جان مارك فيري (J.-M. Ferry) الذي تقارن موافقه من أجل «مفهوم تواصل للسلطة والسيادة»⁽⁸¹⁾ بين نظريات الديمقراطية التي تقوم على نقد النزعة الشمولية مثل نظرية لوفور، مع المقاربات ما بعد كانط التي قدمها هابرماس وجون رولس (J. Rawls) والتي يمكن أن تجيب بشكل أفضل على الأسئلة التي تنبثق عن المجتمعات الغربية والتي تغذيها سلسلة من ترسبات القيم والممارسات الديمقراطية. ويمكن لحالة لوفور الذي يولي الكثير من الأهمية لعدم التوافق⁽⁸²⁾ أن تحمل مؤشراً عن حدود "النزعة المعادية للشمولية": وترسم مقارنة لوفور، بكل تأكيد، وبشكل غير مباشر، بسبب غياب المعلومات، فكرة أساس تواصلية للشرعية، وذلك من خلال نقده للسلطة الشمولية، إلا أنها تبقى بعيدة عن مثل هذه المتطلبات. والأسوأ من ذلك أن يفتح موضوع «التقسيم الأصلي» للشأن الاجتماعي "ثغرة" أمام رفض كل منظور توافقي.

يبدو هذا النقد، الذي نتفهمه، ظالماً جزئياً في ما يتعلق بلوفور - الذي يعتبر فيلسوف الحيز العام⁽⁸³⁾، مثل هابرماس - غير أنه يبقى له الفضل الكبير في إظهار المأزق الذي تقود إليه، بشكل حتمي، المبالغة في منح أهمية لعدم التوافق. تأكدت في الواقع، وبعد قراءة لوفور لمكيافيلي، الأطروحات التي تنكب على الاعتراض على النزاع الاجتماعي في ذاته، وعلى مديح غير نقدي لعدم التوافق، على حساب المتطلبات الكلية، وذلك ضمن نزاع مفتوح مع أشكال النزعة العقلانية لما بعد كانط كافة. وعلينا من وجهة النظر هذه، والتي تنتسب إلى ما بعد الحداثة أحياناً وإلى الماركسية المتجددة أحياناً أخرى - أو إلى تركيب بين الاثنين - أن نقارن

المنظور التوافقي «لأخلاق النقاش» و«الديمقراطية التشاورية» مع مقارنة مناقضة بشكل تام تنادي بالطابع المفيد «للصراعات» ضد أشكال السلطة كافة. وهكذا فقط استطاع أنتونيو نيجري (A. Negri) ضمن أفق ما بعد ماركسي أن يجعل من فكر مكيافيلي، حقيقة الماركسية في القرن الحادي والعشرين⁽⁸⁴⁾، من دون أي اهتمام بتبرير ذلك، كي يعارضه مع النزعة العقلانية ما بعد كانط لفيلسوف مثل رولس، ومن خلال نسب الفكرة التي ترى أن «صراع الطبقات» يسيطر على النظرية الفلسفية، إلى مؤلف الأحاديث⁽⁸⁵⁾. إلا أن التجديد المكيافيلي الفرنسي لا يحمل أية أهمية إذا قاد إلى مثل هذه الأوضاع التي تسعى إلى منح أهمية لأشكال الديمقراطية التمثيلية كافة، رافضاً بذلك الإرث الليبرالي بحمله. لا ينفصل منح القيمة للنزاع⁽⁸⁶⁾، عن فكرة التواصل في السلطة، لدى لوفور، في كل الأحوال، والذي يستقر ضمن منظور مختلف تماماً. يدرس لوفور كيف يمكن للقانون أن يفتح على متطلبات المجموعات الخاضعة من أجل تحقيق الرغبات الشمولية المؤسسة للشرعية الديمقراطية، بعيداً عن وضع الشأن السياسي موضع الشك وإعادة الاعتبار «للمجتمع في مواجهة الدولة». أضف إلى ذلك، أنه بعيداً عن أن تقود قراءة لوفور لمكيافيلي إلى مديح بحميلي "للمتعدد" و"غير المتجانس" و"الخلاف"، فإنها تهم بإمكانية مجتمع ما في جعل النزاعات منتجة لدرجة لا تصبح معها سبباً للفساد والفوضى، بل عنصر توحيد يسمح «بالاعتراف برغبة المضطهد». لذلك، هناك «نزاعات جيدة» إلى جانب نزاعات من دون منظور تاريخي، تتحول إلى صراع عقيم حيث تتواجه مصالح أنانية⁽⁸⁷⁾.

ومع ذلك، يستحق النقد الموجه من الفلاسفة الذين يعلنون انتسابهم إلى «مبادئ أخلاق النقاش»، ذات المنظور المكيافيلي، أن يؤخذ على محمل الجد، وذلك لأنه، من خلال الإلحاح الشديد على خصوبة «الفرقة»، نوشك أن نهمل إحدى مهمات الفكر السياسي في القرن الحادي والعشرين ألا وهي تلك التي تتمثل في تحديد الطريقة التي يمكن لتوافق بين مختلف الأطراف أن يتم بعيداً عن المساومة المغرضة، وذلك ضمن مجتمعات متميزة أكثر فأكثر، ومتعددة الثقافات، تخترقها، إضافة إلى ذلك، تيارات فردية قوية. لقد أصبح من الممكن الآن أن يدمج

المنظور "التوافقي"، بشكل أفضل مما كان عليه، في اللحظة المكيافيلية الفرنسية⁽⁸⁸⁾، طالما أن التهديد الشمولي، باعتباره رفضاً مؤسسياً للنزاع، قد أصبح خلفنا وأن المشكلة المثارة هي معرفة كيف نعيد الرابط الاجتماعي إلى مجتمع مجزأ.

علينا أولاً أيضاً أن نخرج من بعض النقاشات المنحرفة التي تسيطر على الفكر المعاصر. ويتمثل الخلاف الأول في الفصل بين منظور اجتماعي يقوم على السيطرة، و«مبادئ أخلاق النقاش» التي قالها آيل وهابرماس. ويمكن لعلم اجتماع نقدي، من هذا النموذج، أن يعارض بين المقاربات التوافقية وحقيقة علاقات القوة وعمل الإيديولوجيا الذي يخفي عدم المساواة في المواقف بين الأشخاص والفروق الطبقيّة، وكذلك استيعاب المضطهدين لواقعهم الخاص⁽⁸⁹⁾. فهل فرض علينا اختيار محتوم بين تصور واقعي ناقص لشروط النقاش من جهة، واختزال الخطاب في فرض ضمني لعلاقة القوة أو في إيديولوجيا تخفي حقيقة الاختلافات الاجتماعية من جهة أخرى؟ ليس من الضروري، ربما، أن نؤيد انقساماً بسيطاً جداً بين "الدعاية" التي تبني فلسفة التواصل والحيز العام من جهة، ومتطلبات الوضوح لعلم اجتماع نقدي خالٍ من الغرور وساعٍ إلى كشف موازين القوى والممارسات الحقيقية للنخب ضمن منظور نزاعي من جهة أخرى. إن الحل البديل مخيب، وذلك لأنه لا يمكن لأحد هذين الموقفين أن يكتفي بذاته بشكل شرعي أقله. من الضروري كي يكون الحيز العام موضع تبادل فعلي، القيام بعمل اجتماعي يظهر المصالح الحقيقية، ويكشف الاستراتيجيات، وإلا فإن هذا الحيز سينحدر إلى مستوى أداة للسيطرة ومن جديد، نجد ضرورة اتخاذ موقف مكيافيليّ صرف؛ وعلى العكس من ذلك، إن علم اجتماع يركز بشكل أولي على الهيمنة يسمح بتسرب الطاقة الكامنة المحررة للتنافس العام، ويوشك أن يحجب وعود المجتمعات الديمقراطية الحديثة. وباختصار، إن الممارسات الاجتماعية الساعية إلى العودة إلى الصواب والمثال الفلسفي وراء الدعاية ليست متناقضة بالضرورة، ولا تشير إلى التوجهين الوحيديين الممكنين للفكر السياسي. ويبدو من الصعب، في كل الأحوال وهذه الأسباب، تأكيد نزعة مكيافيلية جديدة ما بعد الماركسية الراديكالية على طريقة بورديو⁽⁹⁰⁾، أو تأكيد موقف معادٍ للمكيافيلية بشكل صريح، مثل موقف

هابرماس، كما يظهر ذلك رفضه الحاسم لموسكا وباريتو⁽⁹¹⁾. إن علينا في مواجهة هذا النوع من البدائل أن نحاول دراسة معايير النقاش السليم، وأن نستقصي عن عمل الإيديولوجيا التي تميل دوماً إلى إخفاء عدم التناظر في المواقف. وبالتلازم مع ذلك، يصبح بالإمكان تجاوز الانقسام الذي أصبح موضوعاً مشتركاً في النقاشات المعاصرة الدائرة حول "التوافق" و"عدم التوافق". وذلك لأنه على جميع المشاركين المحتملين في النقاش أن يقدموا أنفسهم على أنهم متحدثون شرعيون، كي ينجح التواصل، وكي لا يكون قناعاً لميزان قوة يستخدم التهديد أو الإغراء أو البلاغة أو التخفي. وهكذا، إن جميع المشاركين بعيدون جداً عن امتلاك كل هذه المداخل إلى الرؤية وإلى الكلام العام، وبالطريقة ذاتها، في الواقع الفعلي، حيث يسعى الخطاب، في الغالب، إلى إخفاء المصالح غير النزيهة. لا يمكن لتواصل حقيقي أن يحصل إذاً، إلا إذا تمكن المتحدثون الخاضعون بشكل حقيقي، من خلال نزاع فعلي، من الصراع من أجل الأمل في الوصول إلى مكانة المتحدث الشرعي - تلك المكانة التي تخضع دوماً للتهديد وتتطلب دوماً استعادة السيطرة عليها. وكي يستطيع الأفراد الحصول على لا مركزية أصلية، من خلال الاستيعاب الحقيقي لوجهة نظر الآخرين، ومن خلال التحرر من أنانيتهم الخاصة، وكي يتم التجاوز الأفضل لما يسميه جان بياجيه (J. Piaget) «التمركز على الذات الوطنية، والتمركز على الذات الطبقية، والتمركز على الذات العرقية»⁽⁹²⁾، فإن جهودهم من أجل العالمية لا يمكن أن تمر من خلال عملهم على أنفسهم فقط، مهما كان هذا العمل ضرورياً: فعليهم مواجهة وجهات نظرهم الخاصة بشكل فعلي، ويتطلب هذا اللقاء بدوره، بطريقة أو بأخرى - باعتباره تهديداً بسيطاً بخاصة - بعداً نزاعياً بحته التقاليد المكيافيلية بشكل أفضل من التيارات المعاصرة⁽⁹³⁾.

ويعني هذا الأمر أن تواصلاً بحثاً يتطلب الاعتراف بالخصوبة الكامنة للنزاع، باعتباره لحظة جوهرية للمشاركة في الحياة الاجتماعية والسياسية، وأن الإلحاح على عدم التوافق، ليس أبداً غير منسجم مع الثقة مع مصادر النقاش، تلك هي، أقله، إحدى الطرق التي يمكن للحظة المكيافيلية الفرنسية أن تفتحها اليوم أيضاً، للفكر السياسي، كي يتجنب العديد من البدائل البسيطة.

الهوامش

هوامش المدخل

- (1) B. Ackerman, *Au nom du peuple. Les fondements de la démocratie américaine*, trad. (J.-F. Spitz, préface p. Weil, Paris, Calmann-Lévy, 1991, p. 55 sq. *أسس الديمقراطية الأمريكية*). M. p. Zuckert, *Natural Rights and the New Republicanism*, New Jersey. Princeton University Press, 1994, p. 150 sq. *الطبيعية والنزعة الجمهورية الجديدة*). وحول التجدد الجمهوري، أسمح لنفسي بالإحالة إلى سيرج أوديه: (S. Audier, *Les théories de la république*, Paris, La Découverte, 2004 *(نظريات الجمهورية)*).
- (2) حول هذا الموضوع، انظر: جان فايان سبيتس «لوك أو لا أحد؟ تلقى النزعة التحريفية الجمهورية» J.-F. Spitz, «Locke et praeterea nihil? La réception du révisionnisme républicain». *Les Cahiers de Philosophie*, n.°18, Hiver 1994/1995, p. 213-243 أيضاً: الدراسة الموسعة لروبرتو فاريني، *القانون الحديث وعلم الأنساب* R. Farneti, *Il canone moderno. Filosofia politica e genealogia*, Torino, Bollati Boringhieri, 2002, p. 128.
- (3) L. Hartz, *The Liberal Tradition in America: An interpretation of American Political thought since the Revolution*, New York, Harcourt Brace Jovanovich, 1955 (*Histoire de la pensée libérale aux États-Unis*, trad. J. Eymesse, Paris, Economica, 1990). هارتز، *التقاليد الليبرالية في أمريكا شرح الفكر السياسي الأمريكي بعد الثورة*. مترجم إلى الفرنسية بعنوان: *(تاريخ الفكر الليبرالي في الولايات المتحدة)*.
- (4) انظر: المقال الريادي لجان فايان سبيتس الذي يدافع عن أعمال بوكوك (J.-F. Spitz, «La face cachée de la philosophie politique moderne», *Critique*, n°504, mai 1989, p. 307-344) «الوجه الخفي للفلسفة السياسية الحديثة»، انظر أيضاً: روبرتو فاريني، م س، ص 247، وما يليها.
- (5) B. Bailyn, *The Origins of the American Revolution*, Cambridge, Harvard University Press, 1967; Voir aussi G. Wood, *La création de la république américaine, 1776-1787*, préface C. Lefort, Paris, Belin, 1991. (برنارد بيلن، *أصول الثورة الأمريكية*؛ انظر أيضاً: غوردون وود، *تأسيس الجمهورية الأمريكية 1776-1786*).

(6) J. G. A. Pocock, *Le moment machiavélien. La pensée politique florentine et la tradition républicaine atlantique*, trad. L. Borot, préf. J.-F. Spitz, Paris, PUF, 1997. Voir aussi (جون غريثيل أغارد بوكوك، *اللحظة المكيافيتية. الفكر السياسي الفلورنساوي والتقاليد الجمهورية الأطلسية*)؛ انظر أيضاً: (J. G. A. Pocock, *Vertu*,) (commerce, histoire, trad. H. Aji, Paris, PUF, 1898. Sur l'approche de Pocock, ج غ أ بوكوك، *الفضيلة والتجارة والتاريخ*) وحول مقارنة بوكوك انظر (cf. G. Buttà, «John Pocock e la storia del pensiero politico», in J. Pocock, *La ricostruzione di un impero. Sovranità britannica e federalismo americano*, trad. S. Luzzato, Manduria, (Piero Lacaita Editore, 1996, p. IX-XXV) (جيوسيبي بوتّا، «جون بوكوك وتاريخ الفكر السياسي»، في كتاب بوكوك *إعادة بناء إمبراطورية، السيادة البريطانية والاتحاد الأمريكي*).

(7) H. Baron, *The Crisis of the Early Italian Renaissance*, Princeton, Princeton University Press, 1966; (هانس بارون، *أزمة عصر النهضة الإيطالية الحديثة*)؛ (In Search of) (Florentine Civic Humanism, Princeton, Princeton University Press, 1988. (في البحث عن النزعة الإنسانية الفلورنساوية المدنية). يتمثل أحد أوجه الأصالة لدى بارون في تبيان عدم إمكانية اختزال النزعة الإنسانية المدنية في عملية إصلاح بسيطة للمثاليات القديمة دون أن يشر، بسبب ذلك بثوره غاليله وديكارت العلمية (The) cf. H. Baron, «Querelle of the Ancient and Modern as a problem for Renaissance Scholarship», in p. O. Kristeller et Ph. Wiener (eds.), *Renaissance Essays*, New York, Harper, 1968, p. 95-114. (انظر: بارون، "الصراع بين القدم والحديد باعتباره مشكلة في معرفة النهضة"، في بول أوسكار كريستلر وفيليب فينر (محرران)، *دراسات في النهضة*)؛ انظر: حول هذه المسألة: p. Rossi, *Naufragi senza spettatore. L'idea di progresso*, Bologna, Il Mulino, 1995, p. 62-63. (بيرو روسي، *حطام السفن دون عارض. فكرة التقدم*).

(8) Voir notamment D. Held, *Models of Democracy*, Cambridge, Polity Press, 1996: (انظر) خاصة: دافيد هلد، *نماذج الديمقراطية*)؛ M. Ignatieff, *La liberté d'être humain*, trad. M. (Sissung, Paris, La Découverte, 1986, p. 103 sq. (إينياتييف، *حرية الكائن البشري*)؛ Ch. Lasch, *Le seul et vrai paradis*, trad. F. Joly, Castelnau-le-Lez, Climats, 2002. (كريستوفر لاش، *الجنة الوحيدة والحقيقية*). قامت أعمال جان فايان سبيتس في فرنسا بدور حاسم في اكتشاف آراء بوكوك ومنحها الشرعية. Cf. J.-F. Spitz, *La liberté politique. Essai de généalogie conceptuelle*, Paris, PUF, 1995. (انظر: جان فايان سبيتس، *الحرية السياسية بحث في النسب المفهومي*). انظر أيضاً: M. Abensour, *La démocratie contre l'État. Marx et le moment machiavélien*, Paris, PUF, 1997. (ميغيل أبنصور، *الديمقراطية ضد الدولة. ماركس واللحظة المكيافيتية*). انظر

أيضاً المؤلفات المؤيدة جداً ليو كوك والمستوحاة من النقد الراديكالي لليبرالية، لأنتونيو
 نغري، *السلطة المؤسسية*) (Cf. également les travaux très favorables à Pocock, inspirés par une critique radicale du libéralisme, de A. Negri, *Le pouvoir constituant*,
 (trad. É. Balibar, F. Matheron, Paris, PUF, 1997. أنظر أيضاً: أنتونيو نغري، دليل.
 خمسة دروس في "الإمبراطورية" والمناطق المحيطة) (Negri, *Guide. Cinque lezioni su* "Impero" e dintorni, Milano, Raffaello Cortina Editore. 2003, p. 111. أنظر أيضاً
 وضمن منظور مختلف تماماً: P.-A. Taguieff, *Résister au bougisme. Démocratie forte* (contre mondialisation techno-marchande, Paris, Mille et une Nuit, 2001, p. 145.
 أندريه تاغيف، *مقاومة نزعة التحرك. الديمقراطية القوية ضد العولمة التقانية -*
التجارية)؛ يبقى تاغيف على المستوى الفلسفي أكثر قرباً من أفكار بنيامين باربر
 (B. Barber) الذي ينتمي إلى ذرائعية ديوي (Dewey) من انتمائه إلى النزعة الجمهورية
 الجديدة على طريقة يو كوك: (Dewey, *Démocratie forte*, trad. J.-L. Piningre, Paris, Desclée de Brouwer, 1997) *ديمقراطية قوية*).

(9) يرى الجمهوريون الجدد أن الدور المركزي للوك في إعادة بناء الليبرالية إنما يقوم على
 خطأ ناتج من الإيديولوجيا. وذلك لأن الليبرالية ربما وجدت مصادرها بشكل أفضل
 في ليبرالية هيوم وليس في ليبرالية لوك. انظر جان فايان سبيتس: «لوك ولا أحد غيره؟
 تلقي النزعة التحريضية الجمهورية»، مقس؛ John Locke, père fondateur du libéralisme? John Pocock et la réévaluation du rôle de Locke dans l'histoire de la
 philosophie politique moderne», in J. Bidet (éd.), *Les paradigmes de la démocratie*,
 Paris, PUF, 1994. p. 227-250. «جون لوك، الأب المؤسس لليبرالية؟ جون يو كوك
 وإعادة تقييم دور لوك في تاريخ الفلسفة السياسية الحديثة» في جاك بيديه (محرر)
المنافذ المثالية للديمقراطية.

(10) جان فايان سبيتس، *الوجه الخفي للفلسفة السياسية الحديثة*، م س، ص 323.

(11) م ن، ص 308.

(12) تعتبر طريقة المؤرخين الليبراليين، في ترجمة تحليل الجمهوريين الجدد إلى لغة
 ايبستيمولوجيا توماس صموئيل كون (T. S. Kuhn) مرحلة من «العلم الطبيعي»: لذلك
 فلن يدخلوا أبداً في مرحلة "ثورية" تتطلب تغييراً للمرجعية، أي استبدال المرجعية
 الليبرالية بالجمهورية، رغم تراكم الاعتراضات. انظر توماس صموئيل كون: (Cf. T. S. Kuhn, *La structure des révolutions scientifiques*, trad. L. Meyer, Paris, Flammarion,
 1983) *البنية الثورات العلمية*). انظر أيضاً: (I. Lakatos, *Histoire et méthodologie des sciences*, trad. J.-F. Spitz, C. Malamoud, Paris, PUF, 1994.
 العلوم ومنهجية). يعود جان فايان سبيتس إليها بشكل صريح، انظر الحرية
 السياسية، م س، ص 137-269.

(13) جان فايان سبيتس، *الوجه الخفي للفلسفة السياسية الحديثة*، م س، ص 316.

- (14) يعتمد هذا التشخيص على كتاب هام جداً لكروفورد بروو ماكفيرسون: (C. B. McPherson, *La théorie politique de l'individualisme possessif*, trad. M. Fuchs, Paris, Gallimard, 1971) *(النظرية السياسية للفردية المستأجرة)*، الذي يناقش بوكوك في الفصل الثالث حول هارنغتون (Harrington). لا يجد "الماركسيون" أنفسهم، طبعاً ضمن هذا التقييم، لذلك فإن ألتوسير (Althusser) يولي أهمية كبرى لمكيافيلي وسبينوزا. وتدافع الماركسية الفرنسية، بشكل أوسع، عن نسب الحرية الذي يمنح قيمة للمفكرين الماديين لعصر التنوير، ولرواد الاشتراكية (يكفي النظر إلى فهرست المنشورات الاجتماعية (Éditions Sociales) لتبين ضعف التشخيص الجمهوري الجديد: انظر مثلاً بوليت شاربونيل (P. Charbonnel) في مقدمة كتاب: (P. Charbonnel, *Préface à* D'Holbach, *Textes choisis*, Paris, Éditions Sociales, 1957) *(حولياخ، نصوص مختارة)*. لم يؤيد غرامشي، في إيطاليا، وجهة النظر هذه أيضاً، ولا مجموعة الماركسيين الذين اتبعوا روسو. انظر حول «لحظة روسو» لدى الماركسيين الإيطاليين مارينيلّا فيديلي دي تشيكو (M. Fedeli de Cecco, *Rousseau e il marxismo italiano nel dopoguerra*, Bologna, Capelli Editore, 1982) *(روسو والماركسية الإيطالية بعد الحرب)*.
- (15) جان فايان سبيتس، *الوجه الخفي للفلسفة السياسية الحديثة*، م س، ص 316، قد لا يوافق تلاميذ آرنلد وستروس بالتأكيد على هذه التسمية العامة، بخاصة وأن آرنلد تُعتبر جمهورية، في الولايات المتحدة، ورائدة لأفكار بوكوك (الذي يرجع إليها في كتابه *اللحظة المكيافيلية*، ص 568).
- (16) م ن، ص 317.
- (17) جان فايان سبيتس، *لوك ولا أحد غيره؟ تلقي النزعة التحريفية الجمهورية*، ص 227 وما يليها. ينتقد سبيتس تلميذ ستروس توماس لي بانغل (T. L. Pangle) صاحب كتاب: (T.-L. Pangle, *The Spirit of Modern Republicanism: The Moral Vision of the American Founders and the Philosophy of Locke*, Chicago, University of Chicago Press, 1988) *(روح النزعة الجمهورية الحديثة، الرؤية الأخلاقية للمؤسسي أمريكا وفلسفة لوك)*.
- (18) E. Cassirer, *Le mythe de l'État*, trad. B. Vergely, Paris, Gallimard, 1993. (إرنست كاسيرر، *أسطورة الدولة*)، 993. انظر أيضاً لكاسيرر: *Individu et cosmos dans la philosophie de la Renaissance*, trad., p. Quillet, Paris, Minuit, 1983. *فلسفة عصر النهضة*). يدرس كاسيرر العلاقة المعقدة لفلسفة عصر النهضة بأرسطو مميزاً بين «أرسطو المتشدد في التمسك بالتقاليد» وأرسطو الحقيقي، ص 7 وما يليها. انظر أيضاً: من منظور ماثل ليوناردو أولشكي (L. Olschki, *Machiavelli the Scientist*, Berkeley, Gillick Press, 1945) *(مكيافيلي العلمي)*، وقد انتقد ليو ستروس هذه الأطروحة في كتابه: (L. Strauss, *Qu'est-ce que la philosophie politique?*, trad. O. Sedeyn, Paris, PUF, 1992, p. 272-275) *(ما الفلسفة السياسية؟)*.

- (19) انظر: انتقادات بوكوك، التي جرى تجاهلها في فرنسا بشكل لافت: (V. B. Sullivan,)
 «Machiavelli's Momentary "Machiavellian Moment": A reconsideration of Pocock's
 Treatment of the Discourses», *Political Theory*, vol. 20 n°2, mai 1992, p. 309-
 318)؛ (فيكي ب. سوليفان «اللحظة المكيافيلية» إعادة النظر في معالجة بوكوك
 لـ «الأحاديث»، *مجلة النظرية السياسية*)؛ (M. Fischer, «Machiavelli's Political
 Psychology», *The Review of Politics*, vol. 59, n°4, 1997, p. 789-829)؛ (ماركوس فيشر
 «علم النفس السياسي لمكيافيلي»، *مجلة السياسة*، من أجل تنفيذ أكثر دقة لآراء بوكوك
 انظر: (S. Audier, «Machiavel, héritier du républicanisme classique?» *Cahiers de
 philosophie de l'Université de Caen*, A. Boyer et S. Chauvier (éd.), n° 34, 2000, p. 9-
 35.) «مكيافيلي وريث النزعة الجمهورية الكلاسيكية» *دقاتر الفلسفة جامعة كان*،
 الآن بوايه وستفان شوقيه (محرران)، العدد 30، 2000، ص 9-35.
- (20) حول هذا النقاش انظر كتاب: (cf. *Libéraux et communautariens*, A. Berten, p. da)
 (Silveira, H. Pourtois (eds.), Paris, PUF, 1997.)؛ (الليبراليون والجماعيون لمؤلفيه
 (إشراف) أندريه بيرتن وبابلو دا سيلفيرا وهيرفي پورتا. انظر أيضاً: الدراسة الهامة
 لجوستين لاكروا: (J. Lacroix, *Communautarisme versus libéralisme. Quel modèle
 d'intégration politique?*, Bruxelles, Éditions de l'Université de Bruxelles,
 2003.)؛ (النزعة الجماعية ضد النزعة الليبرالية. أي نموذج للاندماج السياسي؟) علينا
 أن نأسف مع ذلك، لأن معظم المؤلفات المعاصرة حول الجماعية تبالغ في تقييم التجديد
 الذي حمله هذا التيار ضمن حقل الفلسفة والعلوم الاجتماعية. نعمل اليوم فيلسوفاً مثل
 جاك ماريان كان قد أثر بشكل كبير في أوروبا (بخاصة فرنسا وإيطاليا) والولايات
 المتحدة، في فترة نفيه، فيما بشر الكثير من موضوعات نقده للفردية الليبرالية بالمواقف
 الجماعية. وحول ما يمكن تسميته «الجماعات الدينية» (ماريتان (Maritain)، مونييه
 (Mounier) وبابر (Buber)، انظر أيضاً: التوليفة التي توصلت إليها فلنتينا بازي (V. Pazé,
 2004, p. 55-80.) *Il comunitarismo*, Roma-Bari, Laterza, 2004, p. 55-80. في كتابها *النزعة الجماعية*.
 لنضف إلى هذه اللوحة ليبراليين مثل مايكل بولاني، أعطوا لفكرة الجماعة دوراً رئيساً
 يظهر أن التباين بين الليبراليين والجماعيين أكثر تعقيداً مما يبدو.
- (21) M. Walzer, «Communauté, citoyenneté et jouissance des droits», dans *Pluralisme et
 démocratie*, introd. et trad. J. Roman, Paris, Esprit, 1997, p. 168 sq.
 «الجماعة والمواطنة والتمتع بالحقوق» في *التعددية والديمقراطية*).
- (22) انظر بخاصة: (Ch. Taylor, «L'atomisme», dans *La liberté des modernes*, prés. et trad.)
 (Ph. de Lara, Paris, PUF, 1997, p. 223-254.)؛ (تشارلز تايلور، *النزعة الذرية في حرية
 المحدثين*).
- (23) J. Habermas, *L'intégration républicaine. Essais de théorie politique*, trad. Rochlitz,
 Paris, Fayard, 1998, p. 296 sq. et 320 sq. (يورغن هابرماس، *الاندماج الجمهوري*).

مقالات حول النظرية السياسية). لنشر من جهة أخرى، أنه بدءاً من نقده لمرجعية الذات، يعيد هابرماس صوغ فكرة السيادة الشعبية الجمهورية، ضمن منظور تواصلية، مؤكداً على استمرارية تنطلق من بودان (Bodin) إلى روسو. يرى هابرماس أن مفهوم السيادة الشعبية «يعود إلى بداية الأزمنة الحديثة» و«ارتبط أولاً بعاهل الحكومة المطلقة»، ص 325. وما يلفت أن هابرماس يبقى من خلال هذا الربط، قريباً جداً عن الأفكار التوماسية الجديدة المناهضة للحدثة، التي قالها جاك ماريان، انظر: (*L'homme et l'État*, Paris, PUF, 1965, p. 27 sq. وربما أثارت مناقشة هابرماس لأنموذج الذات المثالي بعض الشك، إذا تابعنا أبحاث ألان رنو (A. Renaut (*Kant*)). (*aujourd'hui*, Paris, Calmann-lévy, 1997 (*كانط اليوم*) في فرنسا أو في ألمانيا (M. فرانك، **العلة النهائية للذات**). ومن أجل دراسة شاملة لمواقف فرانك، انظر: (A. Bertinetto, *Autocoscienza e soggettività nel pensiero di Manfred Frank*, Torino, Silvio Zamorani Editore, 1998). (*ألساندرو مارتينيرو، الوعي الذاتي في فكر مانفرد فرانك*). لنشر إلى أن موقف هابرماس يمكن أن يوصف أيضاً بأنه "جمهوري" ولكن بالمعنى الذي اعتمده كانط لهذه الكلمة.

(24) M. Viroli, *Per amore delle patria. Patriottismo e nazionalismo nella storia*, Roma-

Bari. Laterza, 1995, p. 168 sq (*ماوريزيو فيرولي، من أجل حب الوطن، الوطنية والقومية في التاريخ*).

(25) م ن، ص 34 وما يليها، انظر أيضاً: (M. Viroli, *Machiavelli*, Oxford, Oxford (*ماوريزيو فيرولي، مكيافيلي*). University Press, 1998, p. 156 sq.

(26) من أجل محبة الوطن، م س، ص 169.

(27) J. Rawls, *Libéralisme politique*, trad. C. Audard, Paris, PUF, 1995, p. 250-251 (*جون رولس، الليبرالية السياسية*).

(28) م ن، ص 250.

(29) م ن، ص 251.

(30) لم يمنع هذا الأمر رولس من أن يرى في توكفيل مفكراً ليبرالياً، مثل كونستان وميل، انظر **الليبرالية السياسية**، م س، ص 361.

(31) Q. Skinner, *The Foundations of Modern Political Thought*, t. I-II, Cambridge,

(*Les fondements de la pensée politique moderne*,)/Cambridge University Press, 1978;

(trad. J. Grossman et J. Y. Pouilloux, Paris, Albin Michel, 2001). (*كوانتن سكينر،*

أسس الفكر السياسي الحديث)؛ يظهر في الكتاب التأثير الكبير لپوكوك الذي يضعف

لاحقاً. ويعترف سكينر عندئذٍ بدينه تجاه فليكس جيلبير. انظر أيضاً: (F. Gilbert,

(*Machiavelli e il suo tempo*, Bologna, Il Mulino, 1977). (*المجموعة الإيطالية، فليكس*

جيلبير، **مكيافيلي وزمنه**). وحول أعمال سكينر، انظر: (K. Palonen, *Quentin Skinner*).

K.) (History, Politics, Rhetoric, Cambridge, Polity Press, 2003) (كارى بالونى)
(Palonen)، كوانتن سكينر: التاريخ والسياسة والبلاغة). حول مكياڤلي انظر بخاصة:
ص 97 وما يليها.

(32) Q. Skinner, «Machiavelli's Discorsi and the pre-humanist origins of republican ideas»
in G. Bock, Q. Skinner. M. Viroli (eds.), *Machiavelli and republicanism*, Cambridge,
Cambridge University Press, 1990, p. 121-141; «أحاديث مكياڤلي
والأصول ما قبل الإنسانية للأفكار الجمهورية»، في كتاب جيزيلا بوك، كوانتن سكينر،
موريزيو فيرولي (محررون)، مكياڤلي والنزعة الجمهورية؛ («Political philosophy»)
in *The Cambridge History of Renaissance Philosophy*, C. B. Shmitt, Q. Skinner (eds.),
Cambridge, Cambridge University Press, 1988, p. 389-452.
تاريخ كامبردج لفلسفة عصر النهضة، تشارلز ب. شميث وكوانتن سكينر (محرران)؛
(Q. Skinner, *L'artiste en philosophe politique. Ambrogio Lorenzetti et le Bon*)
Gouvernement, trad. R. Christin, Paris, Raisons d'Agir, 2003, p. 16 sq.
133. (p.) (كوانتن سكينر، الفنان فيلسوف سياسي. أمروجيو لورنيتي والحكومة
الصالحة). لقد استقبلت أفكار سكينر وبوكوك، في فرنسا بشكل مناسب إلى حد ما،
ليس لأنها تبدو للوهلة الأولى وكأنها تعتمد في توجهها على مواقف مناهضة للبرالية-
من هنا تأتي، من دون شك، الأهمية التي منحها إياها پيار بورديو، لدرجة أنه قام
بنشرها ضمن مجموعته-، بل لأنها أيضاً ذات مظهر علمي (انظر: المقدمة المادحة التي
كتبها پيار كريستان (P. Christin) لكتاب الفنان فيلسوف سياسي، ص 8-9. ومع
ذلك لم تقع أفكار سكينر أفضل المختصين الإيطاليين في عصر النهضة تماماً (F. Bruni,
La città divisa. Le parti e il bene comune da Dante a Guicciardini, Bologna, Il Mulino,
2003, p. 34. (انظر: فرانيسكو بروني، المدينة المقسمة. الأطراف والمصلحة العامة
من دانتى إلى غويتشاردينى).

(33) الفنان فيلسوف سياسي، م س، ص 114.

(34) Q. Skinner. *Liberty before liberalism*, Cambridge, Cambridge University Press, 1990
(La liberté avant le libéralisme, trad. M. Zagha, Paris, Seuil, 2000). (كوانتن سكينر،
الحرية قبل الليبرالية). انتقدت هذه القراءة ذات التوجهات "الليبرالية" جزئياً، وبشده،
لهذا السبب، من قبل منظرين جمهوريين جدد آخرين كانوا أكثر قرباً من بوكوك مثل
جان فايان سبيتس، الحرية السياسية، م س، ص 142-177.

(35) Ph. Pettit, *Republicanism: A theory of Freedom and Government*, Oxford, Clarendon
Press, 1997 (trad. p. Savidan et J.-F. Spitz, *Républicanisme*, Paris, Gallimard,
2003). (فيليب بيتيت النزعة الجمهورية، نظرية في الحرية والحكم). وحول هذه
الموضوعات، انظر P. Springborg, «Republicanism, Freedom from Domination, and the
Cambridge Contextual Historians», *Political Studies*, 2001, vol. 49, p. 851-

875/«سرنغبورغ» النزعة الجمهورية، الحرية انطلاقاً من السيطرة، ومؤرخو السياق في كامبردج"، في دراسات سياسية). ويتميز فيليب بتيت من جهة أخرى عن سكينر («Keeping Republican Freedom Simple. On a difference with Quentin Skinner»,) (Political Theory, juin 2002, p. 339-353) «بقاء الحرية الجمهورية بسيطة. حول اختلاف مع كوانتن سكينر»، النظرية السياسية). حول هذه القضايا، انظر: كاري بالون، كوانتن سكينر، م س، ص 128 - 129.

(36) Ph. Pettit, «L'idée républicaine», trad. J.-F. Spitz, *Les Cahiers de philosophie*, n°18, Hiver 1994/1995, p. 179, 211; «الفكرة الجمهورية»، دفاتر الفلسفة؛

(النزعة الجمهورية، م س، ص 5، 19، 28، 182).

(37) كوانتن سكينر، الحرية قبل الليبرالية، م س، انظر بخاصة ص 97.

(38) نشير هنا إلى ميل لافت لدى بتيت، كما لدى معظم الجمهوريين الجدد لاهمال المصدر الإغريقي. لقد أكد بعض كبار المفكرين الجمهوريين في القرن التاسع عشر على المثال الإغريقي المحكم الحر (eleutheria)، منهم فرانسوا بيون - أحد المعاونين المقربين من رونوفييه - (Renouvier) الذي يقول في حديثه عن الإغريق وروما أن كلمات قانون وجمهورية وحرية مترادفات لدى هذه الشعوب الرائدة التي ندين لها بأفضل مقومات الحضارة الحديثة، ويذكر بيون هذا: «حين كانت تتحرر مدينة من سلطة الملك، مهما كانت هذه السلطة لطيفة، كان يقال عن هذه المدينة بأنها فضلت القوانين. فقد كانت فكرة القانون وسلطة القانون تقابل في اللغة نفسها فكرة السيطرة الملكية (...). وكان كل مواطن يشعر حقاً بسيادته من خلال سيادة الملك نوموس» (F. Pillon, «Décentralisation et self-government», *La critique philosophique*, 1^{re} année, n°31, 5 sept. 1872, p. 65) (فرانسوا بيون، «اللامركزية والحكم الذاتي»، النقد الفلسفي). وحول بيون انظر: (S. Audier, «Les républicains français ont-ils ignoré Tocqueville?», *Res Publica*, n°40, janvier 2005) (سرج أوديه، «هل تجاهل الجمهوريون الفرنسيون توكفيل؟»، رس بوبليكا). وحول إهمال الجمهوريين الجدد بخاصة بتيت - المصدر الإغريقي، أنظر: (A. Boyer, «De l'actualité des anciens républicains», dans A. Boyer et S. Chauvier (eds.), *Cahiers de philosophie* de l'Université de Caen, n° 34, 2000, p. 37-58) (ألان بوايه «حول آنية الجمهوريين القدامى»، في ألان بوايه وستفان شوفييه محرران)، الدفاتر الفلسفية لجامعة كان).

(39) R. A. Modugno, Mary Wollstonecraft. *Diritti umani e Rivoluzione francese*, Soveria Mannelli, Rubbettino, 2002, p. 88 sq. (روبرتا أدلايد مودونيو، ماري فولستونكرافت، حقوق الإنسان والثورة الفرنسية).

(40) G. H. Sabine, *A History of Political Theory*, London, George G. Harrap & Co, 1937p. 421-437. (جورج هولاند ساين، تاريخ النظرية السياسية). في حديثه عن مكيافلي، يشير ساين إلى «حماسة طبيعية صادقة للحرية والحكم الذاتي في الجمهورية الرومانية».

ص 298. ولنذكر أن كتاب ساين كان مرجعاً هاماً في القرن العشرين، مما يضعف رأي بوكوك حول غياب المسألة الجمهورية لدى المؤرخين.

(41) م ن، ص 403. ومع ذلك يؤكد ساين، بدقة أكثر من الجمهوريين الجدد المعاصرين على مسألة التباينات ضمن هذا التيار. كما يركز على الأوجه الليبرالية في فكر هارنغتون، ص 430. أنظر أيضاً: في فرنسا، كتاب پيار مسنار (P. Mesnard, *L'essor de la philosophie politique au XVI^e siècle*, Paris, Boivin et Cie, 1935, p. 17-85) (اندفاعة الفلسفة السياسية في القرن السادس عشر). وقد أثر هذا الكتاب بشكل خاص بسكينر، كما اعترف هذا الأخير بذلك.

(42) Z. S. Fink, *The Classical Republicans: An Essay in the Recovery of a Pattern of Thought in Seventeenth Century England*, Evanston, Northwestern University, 1945. (زيرا سلفر فينك، *الجمهوريون الكلاسيكيون: مقالات حول استعادة نماذج الفكر في القرن السابع عشر الإنكليزي*). يولي كتاب فينك الهام، أهمية كبرى لمكيافيلي وهارنغتون وميلتون وسدي. ولقد قام فرانكو فانتوري من بين آخرين في إيطاليا - أوجينيو غارين وأعماله الكبرى (بخاصة: *La cultura filosofica del rinascimento italiano*, Firenze, Sansoni Editore, 1961) (الثقافة الفلسفية لعصر النهضة الإيطالي) - بدراسة مسألة النزعة الجمهورية، في كتابه F. Venturi, *Utopia e riforma nell'illuminismo*, Torino, Einaudi, 197. (chap. II, «I repubblicani inglesi», p. 61-87.) (الطوباوية والاصلاح في عصر التنوير) (الفصل الثاني: «النزعة الجمهورية الإنكليزية»). واللافت أن المسألة قد أهملت في ما وراء الأطلسي.

(43) B. Groethuysen, J.-J. Rousseau, Paris, Gallimard, 1949 (برنارد غروتيويس، *جان جاك روسو*)؛ J. Starobinski, *Jean-Jacques Rousseau: la transparence et l'obstacle*, Paris, Gallimard, p. 102 sq. (جان ستاروبنسكي، *جان جاك روسو، الشفافية والحاجز*)؛ C. Nicolet, *L'idée républicaine en France*, Paris, Gallimard, 1982, p. 70-74. (كلود نيكوليه، *الفكرة الجمهورية في فرنسا*). وإذا اتبعنا مع ذلك، رأي جان فايين سبيتس (الحرية السياسية، م س، ص 227)، فإننا نصل إلى رأي مفاده أن المفسرين الفرنسيين قد قاموا بالتشويه المنظم لروسو من خلال اعتباره رائداً للنزعة الشمولية، وذلك ضمن إطار فكرة جاكوب لايب تالمون، الهزيلة جداً في كتابه: J. L. Talmon, *Les origines de la démocratie totalitaire*, trad. p. Fara, Paris, Calmann-Lévy, 1966. (أصول الديمقراطية الشمولية). غير أن إعادة اكتشاف الليبرالية قد تم في وقت متأخر في فرنسا. لذلك، من الخطر أن تطبق على الحالة الفرنسية، نظرية بوكوك حول "النسيان" والتي تعتبر، مع ذلك نسبية جداً - في التقاليد الجمهورية. وعلينا أن نحدّر أكثر، من نزعة مركزية عرقية في الأعمال الأنكلوسكسونية التي تنكر أحياناً غنى الإرث الأوروبي (بخاصة الإيطالي)، في القرنين التاسع عشر والعشرين. يؤكد جان فايان سبيتس، مثلاً، ومن خلال العودة إلى بوكوك، أن هذا الأخير يرهن، وذلك في معرض نقده للمؤرخين الليبراليين، على أن كتاباً مثل غويتشارديني

الذين لا يمكن أن نعتبر أنهم قد أسهموا بشكل ما في إعادة تركيب المفردات القانونية قد أهملوا بكل بساطة (جان فايان سيبتس، الحرية السياسية، م س، ص 288). فهل بإمكاننا تأييد بوكوك في هذه المسألة؟ لننظر إلى غايتانو موسكا (أهم الليبراليين الأوروبيين في النصف الأول من القرن العشرين. لم يقرأ موسكا كتاب عصر النهضة ويتأملهم فقط (الذين أخذ عنهم موضوع "الدستور المختلط")، بل إنه قد منح غويتشارديني، إضافة إلى ذلك، مكانة ذات دلالة في تاريخه عن الفكر السياسي، من خلال تركيزه على تصوّره الجمهوري أو الروماني الجديد للحرية بواسطة القانون: «لقد قدم غويتشارديني تعريفاً دقيقاً للحرية السياسية، فهو يقول: "إنها تتمثل في تفوق القوانين والمؤسسات على الشهوات الخاصة"» G. Mosca, *Histoire des doctrines politiques depuis l'antiquité jusqu'à nos jours*, trad. G. Bouthoul, Paris, Payot, 1936, p. 127). تاريخ المذاهب السياسية منذ العصور الوسطى حتى أيامنا هذه. ونشير إلى أن "الليبرالي" المثالي موسكا هذا، يعتمد التعريف "الروماني الجديد" الأثير لدى الجمهوريين الجدد المعاصرين الذين يظنون خطأ، أنهم يجدون فيه، بديلاً منسياً عن الليبرالية.

(44) كوانتن سكينر، الحرية قبل الليبرالية ص 74-76.

(45) I. Berlin, *Concepts and Categories: Philosophical Essays*, London, Hogart Press, 1978; (انظر: إيزياه برلين، المفاهيم والمقولات، مقالات فلسفية)؛ انظر بخاصة كتاب *En toutes libertés*, trad. G. Lorimy, Paris, Éditions du Félin, 1990, p. 31 sq, p. 185) (sq) (بكل الحريات).

(46) من المفيد التذكير بأن سكينر نفسه، قد اعتمد على برلين في سير أصالة مكيافيلي (أسس الفكر السياسي الحديث، م س، ص 200). وينطبق الأمر على جان فايان سيبتس، الحرية السياسية، م س، ص 500.

(47) I. Berlin. «Deux conceptions de la liberté» dans *Éloge de la liberté*, trad. J. Carnaud et J. Lahana, Paris, Calmann-Lévy, 1988, p. 269. (إيزياه برلين، «مفهومان للحرية» في مدح الحرية).

(48) كوانتن سكينر، الحرية قبل الليبرالية، م س، ص 62.

(49) انظر مثلاً في إسبانيا، أفكار ماريا زامبرانو في تأييدها «لليبرالية الجديدة». M. Zambrano, *Orizzonte del liberalismo*, trad. it. D. Cessi Montalto, Milano, Selene Edizioni, 2001, p. 118-123. (آفاق الليبرالية).

(50) فكرة الاستمرار مكيافيلي/مازيني التي غالباً ما أثّرت في إيطاليا في الثلاثينيات من القرن الماضي تستوجب مع ذلك أن تدقق. كان مازيني في الواقع متشدداً تجاه مكيافيلي. انظر A. Panella, *Gli antimachiavellici*, Firenze, Sansoni Editore, 1943, p. 116-118. (أنتونيو پانيلا، ضد مكيافيلي).

(51) وحول هذا الموضوع، انظر: (S. Audier, «Le républicanisme singulier de Giuseppe Mazzini et la question du socialisme» dans G. Mazzini, *Pensées sur la démocratie en*

(Europe, Caen, PUC, 2002). (سيرج أوديه، «النزعة الجمهورية الفردية لجيوسيه مازيني ومسألة الاشتراكية» في جيوسيه مازيني، أفكار حول الديمقراطية في أوروبا). في الواقع يشير برلين غالباً لمازيني.

(52) إيزياه برلين، مديح الحرية م س، ص 245. نوه مايكل إنياتيف بأهمية مازيني بالنسبة إلى برلين. انظر: (M. Ignatieff, Isaiah Berlin: A Life, London, Vintage, 2000). (مايكل إنياتيف، إيزياه برلين، حياة).

(53) Y. Tamir, *Liberal nationalism*, Princeton, Princeton University Press, 1993, p. 96-97 (يثيل تامير، القومية الليبرالية) يعتبر تامير وطنية مازيني "قومية ليبرالية" ص 79.

(54) حول رفض هايك (Hayek) «الليبرالية الجديدة» انظر: (S. Audier, Raymond Aron. La démocratie conflictuelle, Paris, Michalon, 2004, chap. III) (سيرج أوديه، ريمون آرون الديمقراطية النزاعية).

(55) فيليب بتي، «الحرية الجمهورية»، مق س، ص 183.

(56) انظر: سيرج أوديه، «النزعة الجمهورية الفردية لدى جيوسيه مازيني والمسألة الاشتراكية»، مق س، ص 34 وما يليها. انظر أيضاً: نظريات الجمهورية، م س، ص 68-69 و) (Une conception de l'État "socialiste libérale"?, Corpus, n°48, 2005) («تصور للدولة "الاشتراكية الليبرالية"؟»). ويؤكد تلقي مازيني في النصف الثاني من القرن العشرين، ثبات هذه التقاليد. لذلك اعتبر جيوسيه سانتاناستازيو، في كتابه (G. Santanastasio, *Il neo-liberalismo di Giuseppe Mazzini*, Bari, Adriatica Editrice, 1958)، (ليبرالية جيوسيه مازيني)، مازيني "ليبرالياً جديداً"، ليس بالمعنى الذي يستخدمه هايك طبعاً، بل بمعنى «الليبرالية الجديدة» الإنكليزية. ويشير سانتاناستازيو إلى أن مازيني يرفض «الليبرالية الفردية» التي تؤسس «لليبرالية الاقتصادية» و«لحرية المنافسة» - وتبرر أسوأ حالات عدم المساواة: ويبقى الوطني الإيطالي أكثر قرباً من «نوع من التضامن» - بالمعنى الذي يعتمد التيار بورجوا (Bourgeois) الجمهوري الفرنسي - والذي يسعى إلى تجاوز مازق الليبرالية الكلاسيكية. انظر أيضاً: كيف أن «ليبرالياً» من مدرسة كروتشه (Croce) مثل فرديريكو كافورا (F. Cafora) قد استند إلى مازيني كي يقدم رؤية أكثر غنى عن «الفكر العلماني» ((F. Canfora, *Lo spirito laico. Manifesto degli uomini liberi*) (فرديريكو كافورا، الروح العلمانية. البيان الرسمي للإنسان الحر والمواطن الحر من جميع أنحاء العالم). لقد كان «الاشتراكيون الليبراليون» وحدهم من درس مازيني. أما مصطلح «الاشتراكية الليبرالية» فهو خادع في السياق الفرنسي، بالنسبة إلى من لم يطلع، بشكل مباشر على المصادر الإيطالية ولا يعترف بأفكار النهضة الإيطالية (Risorgimento)، لدرجة يتصور نفسه معها، أن هذا التيار صيغة بسيطة لليبرالية وهذا أمر خاطئ تماماً. ونضرب مثالا على ذلك، أحد الرواد، فرانثيسكو سافيريو ميرينو، الذي يمثل التيار الأكثر «ليبرالية» في «الاشتراكية الليبرالية»، وهو بعيد كل البعد عن التيارات الفوضوية (P. C. Masini, *Storia*).

degli anarchici italiani da Bakunin a Malatesta (1862-1892), Milano, Rizzoli Editore, (1972) (انظر: بيار كارلو مازيني، تاريخ الفوضوية الإيطالية من باكونين إلى مالاتيسا (1862-1892)). يبدو هذا الرائد على اطلاع عميق بالإرث المازيني، ويتبدى ذلك في كتاباته وحتى في أسلوبه (cf. F. -S. Merlino, *La nuova religione*, Napoli, Edizioni) (انظر: فرانسيسكو سافيريو ميرلينو، الديانة الجديدة). ولم يكن الجيل التالي أقل تأثراً بمازيني، إنها حالة ألدو كاييتيني بخاصة في كتابه *المجديدة* (A. Capitini, *Aggiunta religiosa all'opposizione*, Firenze, Parenti, 1958) (إضافة إلى المعارضة الدينية). حول كاييتيني، انظر: (N. Bobbio, *Maestri e compagni*, Firenze,) (Passigli Editori, 1994, p. 239-299) (نوربرتو بوبيو، المعلم والمعاون)، وأيضاً كارلو روسيلي (Carlo Rosselli) الذي ورث عن أسرته (التي عرفت مازيني) وعن معلميه، مثل أليساندرو ليفي (A. Levi) وغايانو سالفيميني (G Salvemini) تقديساً حقيقياً لبطل النهضة الإيطالية. من جهة أخرى، يتعد روسيلي جزئياً عن مازيني من خلال إضفاء قيمة على صراع الطبقات وتقويته الأكثر تعقيداً مما توقعناه للماركسية. من أجل مقارنة أوضح تظهر البعد الإرادي لفكر روسيلي ونقده للرأسمالية وبعض علاقاته بغرامشي، انظر: فايو فاندري، (F. Vander, *Che cos'è socialismo liberale? Rosselli, Gramsci e la*) (rivoluzione in Occidente, Roma, Piero Lacaita Editore, 2002) (ما هي الاشتراكية الليبرالية؟ روسيلي، غرامشي والثورة في الغرب). وتبدو هذه التذكيرات أكثر أهمية لأن «الاشتراكية الليبرالية» تعيش مرحلة أفول جديدة، في أوروبا، بعد أن اختفت تقريباً مع هيمنة الأحزاب الشيوعية الأوروبية: وذلك لأنها تتعرض أكثر فأكثر لعملية تحول ذرائعية عقائدية تبدل مضمونها. ونجد إحدى حالات الغواية الأكثر وضوحاً في تلميح استخدمه دومينيك ستروس - كان، في كتابه (D. Strauss-Kahn, *La flamme et la*) (cendre, Paris, Grasset, 2002) (اللهب والرماد). وهناك تزييف آخر يقارب بين الاشتراكية الليبرالية والطريق الثالثة التي اقترحها انتوني جيدنس (A. Giddens) عقيدة لحزب توني بلير «العمال الجدد»، فيما المذهبان مختلفان بشكل جذري. إن هذا النوع من التفسير الخاطي الخطير مقبول في انكلترا أو في فرنسا (فغالبية المدونة غير متوفرة إلا باللغة الأصلية في المكتبات الإيطالية): ولذلك يقودنا عدم التمكن من الرجوع إلى الأصول إلى الحصول على معلومات خاطئة تخفي، على سبيل المثال، مسار روسيلي الذي عرف تطورات هامة. وتفسح هذه العيوب في المجال للشروح الأكثر عشوائية. أما في إيطاليا، فإن الخطأ القائم على التقريب بين الطريق الثالثة التي قالها جيدنس و«الاشتراكية الليبرالية» هو أقل حدوثاً بكثير. لا يستسلم رومانو پرودي (R. Prodi) المؤيد للطريق الثالثة، مع ذلك لغواية تحويل التقاليد الإيطالية الكبرى «للاشتراكية الليبرالية» إلى ذريعة، وذلك في مقدمة الترجمة الإيطالية لكتاب جيدنس (Giddens, *La*) (terza via, Milano, Il Saggiatore, 1999, 9-13) (الطريق الثالثة). من الصحيح أن الجمهور الإيطالي معتاد أكثر على هذه التقاليد من الجمهور الإنكليزي أو الفرنسي.

(57) حول هذه الموضوعات، انظر: سيرج أوديه، ريمون آرون. الديمقراطية النزاعية، م س، الفصل 4.

(58) Voir l'anthologie de L. Sturzo, *Coscienza e politica*, Roma, Biblioteca del Vascello. (1993, p. 14, 23, 29. انظر: مقتطفات لويجي ستورزو، الوعي والسياسة).

(59) L. Sturzo, «La partitocrazia» in *Opere scelte*, t. II, M. D'Addio (ed.), Roma, Laterza, (1992, p. 135 sq. (لويجي ستورزو، حكم الأحزاب في الأعمال المختارة). وهنا أيضاً يجب التخفيف جداً من صفة "الجديد" في الأفكار الجمهورية الجديدة.

(60) نسي الجمهوريون الجدد الذين استندوا إلى أرسطو في تقديم الليبراليين المتهمين بإهمالهم لعدم المساواة، أن ليبرالياً مثل ليّمان اعتمد على أرسطو لإظهار الطابع المشووم سياسياً لعدم المساواة الكبرى (W. Lippmann, *La cité libre*, trad. G. Blumberg, Paris, Librairie (Médicis, 1945) (والتر ليّمان المدينة الحرة).

(61) L. Marlio, *La Révolution d'hier, d'aujourd'hui et de demain*, New York, Brentano's, (1943, p. 37, p. 46 sq, p. 115 sq. (لويس مارليو، ثورة الأمس واليوم وغدا).

(62) (B. de Jouvenel, *La civilisation de puissance*, Paris, Fayard, 1976. (برتران دُ جوفونيل حضارة القوة).

(63) M. Polanyi, *La logique de la liberté*, trad. et introd. Ph. Nemo, Paris, PUF, 1989, (p. 60. (مايكل بولاني، منطق الحرية).

(64) م ن، ص 26.

(65) Cf. A. Boyer, *L'explication en histoire*, Lille, Presses Universitaires de Lille, 3 e (1999; partie, chap. 1. (انظر: ألان بوايه، الشرح في التاريخ). وانظر أيضاً: «Le tout et ses

(individus ou d'une querelle à l'autre», *Revue philosophique*, n°41, 1999; وأفراده أو من صراع إلى آخر»، وبشكل أكثر توسعاً، انظر «في حداثة الجمهوريين القدامى»، مق س. انظر أيضاً: جوزيف أغاسي الذي يرفض القراءات المختصرة لبوبر cf. J. Agassi, «Methodological Individualism and Institutional Individualism» (1987) trad. ital. in *Scienza, metodologia e società*, M. Segre (ed.), Roma, Luiss Editore, (2000, p. 17-74. (انظر: جوزيف أغاسي «المنهجيات الفردية» و«الفردية المؤسساتية» (1987) مترجم إلى الإيطالية في العلم، المنهجية والمجتمع، مايكل سيغر (محرر)). وحول بوبر وبولاني، انظر: النقاش مع أغاسي في الجامعة الرومية، لويس، م ن، ص 143-144.

(66) حول دور القانون عند هايك، انظر ألان بوايه، بخاصة مقالته «في حداثة الجمهوريين القدامى» مق س.

(67) فيليب بّيت، النزعة الجمهورية، م س، ص 50، 89، 204.

(68) انظر: نقاش شارل لارمور، «النزعة الجمهورية والليبرالية لدى فيليب بّيت»، دفاتر الفلسفة لجامعة كان، م س، ص 115-125.

(69) L. Hartz, *La nécessité du choix*, trad. p. E. Dauzat, Paris, PUF, 1995, p. 201- 207. (لويس هارتز، ضرورة الاختيار).

(70) S. Hampshire, *Justice is Conflict*, Princeton, Princeton University Press, 2000 (ستيوارت هامبشاير، العدالة نزاع). وحول برلين وتابعيه، انظر (J. Kekes, *The Morality of Pluralism*, Princeton, Princeton University Press, 1993) (جون كيكس، أخلاق التعددية)؛ J. Gray, *Berlin*, London, Fontana Press, 1995 (جون غري، برلين).

(71) P. Gobetti, «Commento a un preludio». *La Rivoluzione liberale*, III, n°20, 13-5, 1924, p. 277. (بييرو غوبيتي، «الثورة الليبرالية»). يشكل النص المؤلف من تركيب لاقتباسات من الأحاديث، إجابة عن عملية تحويل الفكر المكيافيلي إلى فكر ذرائعي من قبل الفاشيين، وعلى رأسهم موسوليني. النص من تأليف غوبيتي، غير أنه يحمل توقيع «نيكولو مكيافل»، ونجد في مقدمته تنبيها يشير إلى مسافة تفصله عن الفلورنساوي: «لسنا محرري الإمبرو (Impero): فلا نستخدم التاريخ إذا كي نؤلف لعباً من الأفكار المحبة إلى حد ما، ولا نطلب من مكيافيلي أيضاً، أن يشرح عقيدتنا: تفصلنا إذا عنه قرون طويلة وأفكار كثيرة. لقد سبقت الثورة البروتستانتية والأنظمة الملكية الكبرى المستبدة الديمقراطية الحديثة: إن مكيافيلي الذي لم يعرف هذه الثورة لم يكن يملك سوى حدساً بالدول الحديثة الكبرى، وتبقى تجربته مرتبطة بالمدينة-الدولة. ومع ذلك، من الممكن للإيطاليين اليوم أيضاً أن يتعلموا شيئاً من السكرتير الفلورنساوي. لقد كان لدى مكيافيلي إيمان بالقوى الشعبية، ووعي بأن الشعب أساس الدولة، ولا يفسر هذا الموقف فقط من خلال ولادته في فلورنسا، وشغفه الجمهوري، وسنواته الساقونارولية (Savonaroliennes) لفترة الشباب وبحماسه الإنسانية. لنعد اليوم إلى مكيافيلي الأمير وننسى أن طوباوية الأمير كانت عبثية حتى في الزمن الذي نشأت فيه، إن الاعتقاد بأن الدولة البدائية الذي تحدث عنها كتاب الأمير يمكن أن تكون دولة حديثة لا يعني فقط، أننا ننسى تاريخ أوروبا على مدى أربعة قرون، بل يعني أيضاً الاعتراف بأننا أقل حداثة من مكيافيلي نفسه. وهكذا بينما عاد موسوليني إلى الأمير لمنح شرعية لدولته الفاشية، عاد غوبيتي إلى مكيافيلي الجمهوري في الأحاديث، وبخاصة إلى الأفكار حول خصوبة النزاع الذي يستبقه، بشكلٍ ساخر، بهذا العنوان الذي يهاجم الفاشيين: «إهداء إلى رجال النظام» (Dedicato agli uomini d'ordine).

(72) إن الإحالة إلى مكيافيلي حاسمة لدى الليبراليين الإيطاليين، لذلك فقد سمي غيدو دورسو (G. Dorso) «مكيافيلي الريف» وفرانشيسكو بورزيو (F. Burzio) «تلميذ مكيافيلي» (G. Spadolini, «Burzio, allievo di Machiavelli», *La Stampa*, n°20, 25 janvier, 1978,) (جيوفاني سبادوليني، بورزيو «تلميذ مكيافل»، لاستامبيا).

(73) Montesquieu, *Considérations sur les causes de la grandeur des Romains et de leur décadence*, dans *Œuvres complètes*, Paris, Gallimard, 1952, p. 390 (مونتسكيو، تأملات حول أسباب عظمة الرومان وانهارهم).

(74) V. Alfieri, *De la tyrannie*, trad. M. Baccelli, Paris, Allia, 1992. (فيكتور أليفي، في الطغيان). مع ذلك، فقد قام أليفي بتعميق نقد مكيافيلي للنبلاء. من هنا جاء تفسيره للنظام الإنكليزي: «إذا بدت بعض مظاهر الجمهورية الإنكليزية أكثر صلابة من الجمهورية الرومانية، فسبب ذلك أن الانقسامات المستمرة والمتأججة لا تشتعل أبداً بين الشعب والنبلاء، كما في روما، ولكن بين الشعب والشعب، أي بين الحكومة والمعارضة». ويرى أليفي في هذا النزاع وحده المصدر المولد للخير المشترك. ويعبر عن إعجابه بمكيافيلي في كتابه: (Du prince et des lettres (trad. anonyme, Paris, Allia, 1989) (في الأمير والرسائل)، الذي يحمل الفصل قبل الأخير منه عنوان «دعوة لتخليص إيطاليا من البرابرة». ويوضح أليفي بأنه يلمح إلى «مكيافيلي المعظم» (Divino Machiavelli). وتنسب هذه العبارة إلى هنري نفيل (H. Neville)، الذي أشار في كتابه *أفلاطون المعظم* (1680) (Plato Redivivus)، إلى مكيافيلي المعظم.

(75) نفهم ضمن هذا السياق، الرهان الرئيس الذي يمثل تفسير توكفيل في رأي بعض الجمهوريين الجدد، والذي يندرج في إطار النزعة الجمهورية، كما هو الحال في رأي بتيت. لقد اعتبر توكفيل في فرنسا ليبرالياً، أحياناً، على الرغم من أن بعض المفسرين مثل جان كلود لامبرتي (J. C. Lamberti) قد وجدوا فيه آخر وريث «للنزعة الإنسانية المدنية» لعصر النهضة، وقد انضم جان فايان سبيتس إلى هذه التقاليد العريقة، التي كان من أهم شخصياتها في فرنسا، روسو ومابلي (Mably). لذلك فقد اعتبر جان فايان سبيتس أن النقاش القائم حول التعارض بين التجارة (المؤيدة من الليبرالية) والفضيلة (المؤيدة من الجمهوريين) قد وصل إلى نتيجته في أعمال توكفيل: «لقد اختفى هذا النقاش في القرن التاسع عشر بشكل كامل من المشهد الفكري الفرنسي باستثناء توكفيل الذي تميز مصيره الغريب بغياب أتباع له، ولو قل عددهم، وبانخراطه ضمن مذاهب الليبرالية الدستورية، فيما ظل مهتماً طبعاً بمسائل العادات أكثر من اهتمامه بمسائل القانون». (جان فايان سبيتس، مقدمة لـ جون غريفييل أغادر بوكوك، *اللحظة المكيافيلية*، م. س. لقد جرى الدفاع عن فكرة وجود قطع للصلة بين مفكري الجمهورية الثالثة وتوكفيل في كتاب: (d'Agnès Antoine, *L'impensé de la démocratie*. (Tocqueville, la citoyenneté, la religion, Paris, Fayard, 2003) (آنياس أنطوان، ما لم تفكر فيه الديمقراطية، توكفيل، المواطنة، الدين). من أجل مناقشة هذه الأفكار أسمح لنفسي بالإحالة إلى مقالي: (Tocqueville, disciple de Rousseau?», *Littératures*, n°1, 2004, p. 19-37) (هل كان توكفيل تلميذاً لروسو؟). وبالنسبة إلى الفكرة التي ترى أنه لم يكن لتوكفيل تابعون انظر: (cf. S. Audier, *Tocqueville retrouvé. Genèse et enjeux du renouveau tocquevillien français*, Paris, Vrin/EHESS, 2004) (سيرج أوديه، توكفيل العائد. جنود تجديد توكفيل الفرنسي وأبعاده). انظر أيضاً: سيرج أوديه، «هل أهمل الجمهوريون الفرنسيون توكفيل؟»، مق. س. لقد قرأ بعض أهم المفكرين الجمهوريين في النصف

الثاني من القرن التاسع عشر تو كـفـيـل وحلّوه بعمق، في الواقع، أذكر منهم فرانسوا فيون (F. Fillon) وهنري ميشيل (H. Michel) (المقربون من مدرسة رنوفييه (Renouvier) «النقدية الجديدة»، وكان الأول أكثر ليبرالية من الثاني وسيلستان بوغليه أيضاً (Célestin Bouglé). أضف إلى ذلك أن الليبراليين من أتباع تو كـفـيـل، لم يكونوا أبداً، كما يظن بعضهم فردين ضيق الأفق غير قادرين على الاندماج في موضوع الشراكة. وعلى سبيل المثال، تبدو مرافعة ليبرالي من أنصار تو كـفـيـل - إنه بريفو - پارادول (Prévost-Paradol) - المؤيدة للامركزية مخصصة لإراث الشراكة: «إن أول نتيجة لمثل هذه المركزية (...) تتمثل في إضعاف اهتمام المواطنين بالشأن العام» (M. Prévost-Paradol, «De la centralisation», in *Essais de politique et de littérature*, III, Paris, 1865, p. 20) (Michel Lévy, 1865, p. 20) «في المركزية»، في *مقالات في السياسة والأدب*، III). تجد موضوع الشراكة نفسها، في القرن العشرين، ضمن نزعة آرون الليبرالية، وتبرهن، هنا أيضاً، أنه لم يُسأ فهم تو كـفـيـل إلى هذا الحد.

(76) A. Honneth, *La lutte pour la reconnaissance*, trad. p. Rusch, Paris, Cerf, 2000. A. Honneth, *Kritik der Macht. Reflexionsstufen einer Kritischen Gesellschaftstheorie*, Francfort. Suhrkamp Verlag, 1986: (أكسل هونيث، *النضال من أجل انتزاع الاعتراف؛ ونقد العمل، الفكر التدريجي حول نظرية المجتمع*). وحول هذا التحليل انظر: (S. Vaccaro et l'introd. de F. Riccio à la trad italienne: A. Honneth, *Critica del potere. La teoria della società in Adorno, Foucault e Habermas*, Bari, Edizioni Dedalo, 2001, p. 5-25. 389-412) خاتمة سالفو فاكارو (S. Vaccaro) ومدخل فراكو ريتشيو (F. Riccio) للترجمة الإيطالية. أكسل هونيث، *نقد القوة. نظرية المجتمع في أودورنو وفوكو وهابرماس*).

(77) P. Veyne, préface à Machiavel, *Le Prince*, Paris. Gallimard, 1980, p. 8 (بول فين، مقدمة لمكيافيلي، *الأمير*). وحول تحليل فوكو المتعلق بمكيافيلي انظر: (Foucault, *Cours*) (au Collège de France, 1976, Paris, Gallimard/Le Seuil, 1997) (ميشال فوكو، *الدفاع عن المجتمع دروس كوليج دُ فرانس*). يدرس فوكو التوافق والاختلاف بين بولينفيليه (Boulainvilliers) ومكيافيلي: «لقد استطاع بولينفيليه أن يسترجم - بالمعنى التاريخي هذه المرة - أ نموذج تحليل نجده عند مكيافيلي، ص 145)، من خلال استدعاء علاقة القوة باعتبارها نوعاً من الحرب الدائمة داخل المجتمع».

(78) م ن، ص 16.

(79) Sur Veyne et Foucault, cf. p. Veyne, «Foucault révolutionne l'histoire» dans *Comment* (حول فين وفوكو انظر: بول فين، «فوكو يصنع ثورة في التاريخ»، في كتاب *كيف يكتب التاريخ*).

(80) L. Althusser, «Machiavel et nous», dans *Écrits philosophiques et politiques*, t. II, Paris, Stock, 1995, p. 43-173; (لويس ألتوسير، «مكيافيلي ونحن» في *الكتابات الفلسفية*

والسياسية)؛ *L'avenir dure longtemps*, Paris, Stock, 1992, p. 481 sq. ويشير ألتوسير في حديثه عن مكياڤلي إلى أنه «لا مجال للشك بأنه أكثر كاتب جذبي، وأكثر من ماركس بكثير»، ص 82.

(81) مكياڤلي ونحن، م س، ص 43.
(82) يجب أن نضيف إلى ذلك أعمال فرويند القريب من آرون، لكن ضمن منظور محافظ أكثر.

(83) حول نموذج «الديمقراطية التشاورية»، انظر: (S. Macedo, *Deliberative Politics*, Oxford, Oxford University Press, 1999) (ستفان ماسيدو السياسة التشاورية). وحول مسألة النزاع، انظر: النقد المفصل — (A. Pintore, *I diritti della democrazia*, Roma-) (Bari, Laterza, 2003) (أنا بنتوري، قانون الديمقراطية). وحول ميل الفلسفة السياسية المعاصرة لتفعيل مقارنة معيارية وأخلاقية أحياناً، على حساب فكر أكثر «واقعية» حول العيش المشترك، انظر تحليلات نيكولا تينزر (N. Tenzer) الذي ينتقد «النزعة المعادية للمكياڤلية التي تهيمن على التصورات السياسية المعاصرة»، (N. Tenzer, *Le tombeau de Machiavel. De la corruption intellectuelle de la politique*, Paris, Flammarion, 1997, p. 293) (نيكولا تينزر، قبر مكياڤلي. في الفساد الفكري في السياسة).

(84) I. M. Young, *Justice and the Politics of Difference*, Princeton, Princeton University Press, 1990, p. 98 (إريس ماريون يونغ، العدالة وسياسة الاختلاف). وحول أطروحات يونغ انظر: سيرج أوديه، نظريات الجمهورية، م س، ص 95-97.

هوامش الفصل الأول

(1) بقيت أربعة أجزاء من هذا المؤلف الناقص، الذي كتب في الفترة بين 1938 وأيار 1940. نجد هذا النقص (الذي ربما أسماه آرون مقالات حول المكياڤلية الحديثة في القسم الأول من كتاب (R. Freymond, *Machiavel et les tyrannies moderne*, Paris, Éditions de Fallois, 1993) (مكياڤلي وأنظمة الطغيان الحديثة). نجد موضوعات هذه النصوص أصداء لها في كتاب فرنسا الحرة بخاصة (Le) France Libre, en particulier, «Le machiavélisme, doctrine des tyrannies modernes» et, à un moindre degré, «Tyrannie et mépris des hommes» dans *L'homme contre les tyrans, Chroniques de guerre. La France Libre 1940-1945*, préf. J. M. Soutou, Bachelier (éd.), Paris, Gallimard 1990, p. 47 sq. et p. 466 sq. (المكياڤلية مذهب أنظمة الطغيان الحديثة، وبدرجة أقل «الطغيان واحتقار البشر» في كتاب الإنسان ضد الطغاة، حوليات حرب، فرنسا الحرة). انظر أيضاً: ريمون آرون، علم اجتماع پاريتو.

(2) A. Koyré, «La pensée moderne» [1930] dans *Études d'histoire de la pensée scientifique*, Paris, Gallimard, 1973, p. 21-22. (ألكسندر كوارى، الفكر الحديث).

(3) J. Benda, *La trahison des clercs*, Paris, Pauvert, 1927 (جوليان بندا، خيانة الرهبان).

- (4) م ن، ص 93.
- (5) م ن، ص 122.
- (6) يعود بندا إلى نص فيخته الذي يحمل العنوان: «حول مكيافيلي وحول فقرات من نصوصه» ونجد هذا النص اليوم في كتاب (Fichte, Machiavel et autres écrits) philosophiques et politiques de 1806-1807, trad. et prés. L. Ferry et A. Renaut, Paris, (Payot, 1981, p. 39-86. (فيخته، مكيافيلي وكتابات أخرى فلسفية وسياسية للعالمين 1806-1807). عرف بندا نص فيخته هذا من خلال شارل أندلر، انظر: (Ch. Andler, (Les origines du pangermanisme de 1800 à 1888, Paris, L. Conard, 1915 (أصول القومية الجرمانية من 1800 إلى 1888). ويستهدف موقفه العام بشكل مباشر فيخته، كما يشهد بذلك (Discours à la nation européenne de 1933 Paris, (Gallimard, (الخطاب إلى الأمة الأوروبية لعام 1933)، الذي يشكل جواباً عن الخطاب إلى الأمة الألمانية). يستهدف بندا، هذه المرة مكيافيلي بشكل مباشر: «فلنوضح أتباع بودان (Bodins) والمكيافيليين، مخترعي السيادة الوطنية»، ص 41. ينحاز بندا في النقاش الفرنسي حول فيخته، بوضوح، إلى تفسيرات شارل أندلار أو إميل بوترو ضد وقراءات فرانسوا باش (F. Bach) وكزافييه ليون (X. Léon, Fichte et son temps, Paris, A. Colin, (1922-1927 (كزافييه ليون، فيخته وزمانه). وحول التحليل الضعيف الذي قام به أندلار وبوترو للقومية الجرمانية، يمكننا الرجوع إلى (D. Losurdo, Hegel et la catastrophe allemande, trad. Ch. Alunni, Paris, Albin Michel, 1994. (دومنيكو لوزوردو، هيغل والكارثة الألمانية).
- (7) يذكر بندا أحد المقاطع من نص فيخته يمدح الواقعية التي تنطوي عليها العلاقات بين الدول (انظر: «حول مكيافيلي الكاتب»، ص 62. مذكور في بندا، م ن، ص 93.
- (8) حياة الرهبان، م س، ص 93.
- (9) A. Renaudet, Machiavel. Étude d'histoire des doctrines politiques, Paris, (Gallimard, 1942. (أغوستين رونوديه، مكيافيلي. دراسة تاريخية للمذاهب السياسية).
- (10) مكيافيلي ونحن، م س. والكتاب متأثر كثيراً بفراشيسكو إيركوله، المعلق الأكثر شهرة في إيطاليا في عهد موسوليني، وصاحب الأطروحات المتطورة من القومية الفختوية إلى التنظير لـ «الدولة الأخلاقية» الفاشية (La politica di Machiavelli, Roma, Edizioni Anonima Romana, 1926 (سياسة مكيافيلي). لاقت أطروحات إيركوله مقاومة. انظر: C. Carista, Il pensiero politico di Niccolò Machiavelli, Napoli, Edizioni Eugenio) (Jovene, 1951 (1 re version 1929), p. 2 (الفكر السياسي لنيكولو مكيافيل. وانظر: حول هذه النقاشات (F. Battaglia, Lineamenti di storia delle dottrine politiche, Milano, (Giuffrè Editore, 1952, p. 114-118. (خصائص تاريخ المذاهب السياسية).
- (11) H. Berr, Machiavel et l'Allemagne, Paris, Albin Michel, 1939. (هنري بير، مكيافيلي وألمانيا).

(12) M. Duconseil, *Machiavel et Montesquieu. Recherches sur un principe d'autorité*.

(Paris, Denoël, 1943. /مارك دوكونسي، *مكيافيلي ومونتسكيو. بحوث في مبدأ*

السلطة). الأمر متعلق بمشور مناهض للديمقراطية والسامية. وفي المصاف ذاته انظر:

A. Fabre-Luce, *Anthologie de la nouvelle Europe*, Paris, Plon, 1942, p. 49-)

(52. /مختارة من نصوص أوروبا الجديدة). انظر أيضاً: Ch. Simon, *Machiavel*, Paris,)

(Louis-Michaud, 1933, p. XIII /شارل سيمون، *مكيافيلي*).

(13) En revanche, la lecture mussolinienne est tacitement contestée en 1931 par L. Russo,

Machiavelli, Roma-Bari, Laterza, 1988.

Mussolini, «Preludio al Machiavelli», *Gerarchia*, II [1924], trad. fr. Le Prince, préf.)

(Mussolini, Paris, Helleu et Sargent, 1929 /موسوليني «مدخل إلى مكيافيلي»

جيرارشيا "التراتبية" (2) 1924).

يذهب كتاب ماريو فيرارا بعيداً في هذا المجال حيث يقارن، بشكل منتظم، بين

مكيافيلي وموسوليني ومذهب نيتشه حول "الإنسان المتفوق" (M. Ferrara, Machiavelli,)

(Nietzsche e Mussolini, Firenze, Vallecchi Editore, 1939 /مكيافيلي ونيتشه

وموسوليني). وبالمقابل انتقد لويجي روسو، بشكل ضمني قراءة موسوليني في عام 1931،

في كتابه (Machiavelli, Roma-Bari, Laterza, 1988) /مكيافيلي). روما، باري، لاتيرزا

1988.

(14) *Scritti politici*, S. Priano (ed.), أعيد نشره في كتابات سياسية /

(Torino, Einaudi, 1960, p. 673. وحول أبعاد هذا النص انظر: المقدمة

صفحة 28.

(15) سيمون فيل «تأمل فوق جثة» نسخة مشروع مقالة تحمل العنوان ذاته (حزيران تموز

1939) في (S. Weil, *Œuvres complètes. Écrits historiques et politiques*, t. II, vol. 3 Vers)

(la guerre (1937-1947), S. Fraisse (éd.), Paris, Gallimard, 1989, p. 289 /سيمون فيل

الأعمال الكاملة، الكتابات التاريخية والسياسية، ج 2 المجلد 3 نحو الحرب (1937-

1947)، يختتم فيل في النسخة الأخرى من هذا النص نقدها لبلوم (Blum) بهذه

العبارات: «ليس ماركس كاتباً جيداً من أجل التدريب على المحاكاة العقلية،

فمكيافيلي أفضل منه بكثير»، ص 77. وحول نص موسوليني، انظر أيضاً: الكتاب

نفسه: «هل تدخل أوروبا الحرب من أجل تشيكوسلوفاكيا؟» [أذار 1938]، صفحة 86.

تستعيد فيل عندئذ أو بشكل مباشر النص المنشور في غيرارشا. انظر: أخيراً في م ن،

«تفكرات من أجل حكم على النتائج (1939)»، ص 109.

(16) Ch. Benoist, *Le machiavélisme*, 1^{re} partie, Avant Machiavel; 2^e partie, Machiavel; 3^e

(partie, Après Machiavel, Paris, Plon-Nourrit, 1907, 1934, 1936 /شارل بنوا،

المكيافيلية، القسم الأول قبل مكيافيلي، القسم الثاني مكيافيلي، القسم الثالث بعد

مكيافيلي). جرى تسجيل الكتاب من قبل إريك فيل في عام 1937 (Zeitschrift für

(sozialforschung) (مجلة للبحوث الاجتماعية). استقبل الكتاب اسقبلاً جيداً في محافل اليمين الكاثوليكي في ليون، كما ذكره لويس سالرون (L. Salleron) وأدرج على قائمة البريد الملكي. ومن المرجح يكون ألتوسير الشاب قد اكتشف مكيافيلي من خلال ذلك: (Y. Moulier-Boutang, Louis Althusser. Une biographie, t. 1, Paris, Grasset, 1992, p. 183) (يان موليه، بوتانغ، لويس، ألتوسير، سيرة حياة جزء 1).

(17) المكيافيلية، القسم الأول، م س، ص 3.

(18) انظر: (A. Comte, Discours sur l'esprit positif, Paris, Vrin, 1987) (أوغوست كونت، حديث حول الفكر الوضعي). كما نعلم، يلخص كونت الفكر الوضعي بهذه العبارات بكلمة واحدة، تشمل الثورة الأساسية التي تميز قدرة الذكاء بشكل أساسي، في استبدال استحالة تحديد الأسباب الحقيقية بالبحث البسيط عن القوانين، أي العلاقات الثابتة القائمة بين الظواهر الملاحظة»، ص 19-20.

(19) المكيافيلية، الجزء الأول، ص 3.

(20) المكيافيلية، الجزء الأول، ص 348.

(21) وحول عقيدة نيتشه هذه، انظر: (P.-A. Taguieff, «Le paradigme traditionaliste: horreur de la modernité et antilibéralisme. Nietzsche dans la rhétorique réactionnaire» dans Pourquoi nous ne sommes pas nietzschéens, ouvrage collectif, préf. L. Ferry et A. Renaut, Paris, Grasset, 1991, p. 219-305. (ب. أ. تاغييف، «المرجعية التقليدية، رعب الحداثة ومعاداة الليبرالية. نيتشه في البلاغة الرجعية» في لماذا لسنا نيتشويين). لقد رأينا أن هذه البلاغة موجودة لدى م. فيرارا (M. Ferrara) في كتابه: (Ferrara, Machiavelli, Nietzsche e Mussolini, p. 37 sq) (مكيافيلي ونيتشه وموسوليني، ص 37 (وحول إرادة القوة).

(22) Le machiavelisme, 1 re partie, p. 465. (المكيافيلية، الجزء الأول) انظر أيضاً: بخاصة

(Le machiavélisme après Machiavel, p. 374) (المكيافيلية بعد مكيافيلي). يستعيد بونوا

هنا موضوعات كتابه الذي يحمل عنوان: (Le Prince de Bismarck. Psychologie de l'Homme fort, Paris, Librairie académique, Perrin et Cie, 1900.

(الأمر بسمارك، سيكولوجيا الرجل القوي).

(23) موسوليني، مقدمة الأمير، م س، يذكره بونوا، ص 386.

(24) المكيافيلية، القسم الثالث، م س، ص 387.

(25) م ن، ص 387-388.

(26) كما أوضح ذلك، بدقة، غايتانو كواغلياريلو، انظر كتاب: (La politica senza partiti. Ostrogorski e l'organizzazione della politica tra '800 e '900, Roma-Bari, Laterza,

(1993) (السياسة بلا أحزاب وستروغورسكي وتنظيم السياسة بين 800-900)).

وحول بونوا، انظر: ص 245-260. يبين كواغلياريلو أن بونوا، النائب والديبلوماسي، قد انتقل من اليمين المحافظ (باعتباره رئيساً للاتحاد الجمهوري عام 1902) إلى اليمين

المعادي للديمقراطية والجمهورية، مقرباً، منذ عام 1924 من «المبادرة الفرنسية» (Action Française) (حزب).

(27) يعد دُ فيلفوس المصدر الآخر بكل تأكيد، مكيافيلي ونحن، م س.

(28) A. Chérel, *La pensée de Machiavel en France*, Paris, L'Artisan du Livre, 1935, avant-propos, p. 8. (ألبير شيرل، فكر مكيافيلي في فرنسا).

(29) ستتاح لنا الفرصة كي نرى أن قراءة بونوا لمكيافيلي تبدو، أحياناً، وكأنها تردد حرفياً بعض تحليلات كتاب بارتو المطول في علم الاجتماع العام.

(30) حول اهتمام بونوا بأعمال أوستروغورسكي، انظر: غيتانو كواغلياريلو، م س، ص 256 وما يليها. خصص بونوا مقالين لأوستروغورسكي في مجلة العالمين (*Revue des deux mondes*)، في نيسان وحزيران 1904، حيث يشير إلى مكيافيلي، ومع ذلك، فإن اشكالية أوستروغورسكي وبارتو تختلفان جذرياً (انظر: F. Tuccari, *Capi, élites, masse. Saggi di storia del pensiero politico*, Roma-Bari, Laterza, 2002) (فرانشيسكو توكاري، القادة والنخب، الجماهير. مقالات عن تاريخ الفكر الساسي).

(31) É. Halévy, «L'ère des tyrannies», communication à la Société Française de Philosophie, (1936), dans *L'ère des tyrannies*, Paris, Gallimard, 1938, p. 213-249 («عصر أنظمة الطغيان»، مداخلة في الجمعية الفرنسية للفلسفة [1936] في كتابه *عصر أنظمة الطغيان*).

(32) إذا كان هاليفي قد أشار إلى الأوجه الشمولية للعقيدة الشيوعية، إلا أنه لم يمنع هذه الأوجه مكانة مركزية في تحليل الشيوعية في روسيا. علينا إذا أن نبحث عن مصدر آخر للطغيان الشيوعي، خارج العقيدة الشيوعية: إن استنتاج هذا الطغيان لا يعتمد على الدعاية للفكرة الشيوعية، بل على تجربة أربع سنوات من الحرب العالمية التي أظهرت إلى أي حد استطاع تطور النزعة العسكرية والبيروقراطية والعلم محاصرة الدولة الحديثة، م ن، ص 225. ولا تختلف الشيوعية من جهة النظر هذه، من الناحية الشكلية أقله، عن أنظمة الطغيان الفاشية وإذا كان هاليفي يعلن أنه يفضل مفردة «طغيان» على «ديكتاتورية» للإشارة إلى الأنظمة التي خلفتها الحرب، فذلك بهدف الإشارة إلى أصالتها وقدرتها على البقاء في الوقت نفسه. غير أن آرون لا يوافق تماماً على هذا التشخيص العام، ففي إحصاء نشر عام 1939 في مجلة *الميتافيزيقا والأخلاق* إنسان 1939 | يعترض بخاصة بالقول إن الشمولية «في المجال الفكري» لا يمكن أن تفهم باعتبارها نتيجة بسيطة لاعتماد اقتصاديات الحرب.

(33) مقالات في المكيافيلية الحديثة، ص 119.

(34) م ن، ص 120.

(35) م ن، ص 61.

(36) م ن، ص 61.

(37) «المكيافيلية مذهب أنظمة الطغيان الحديثة»، في كتاب *الإنسان ضد الطغاة*، م س، ص 418.

(38) مقالات حول المكيافيلية الحديثة، إشارة إلى إدانة مكيافيلي من قبل الكاردينال الإنكليزي ريجينالد پول (Reginald Pole) في كتابه (Apologia ad Carolum V...Caesarem...) (الدفاع عن كارولوم الخامس سيزار)، المنشور بين عامي 1535-1545، وهي المرحلة الأولى من إدانة الكنيسة لمكيافيلي (1559) 9. انظر أنتونيو بانيلّا مناهضو مكيافيلي، م س.

(39) مقالات حول المكيافيلية الحديثة، م س، ص 61.

(40) م ن، ص 73.

(41) المكيافيلية «مذهب أنظمة الطغيان الجديدة»، مق س، ص 418.

(42) مقالات حول المكيافيلية الحديثة، م س، ص 61.

(43) الأمير، الفصل الخامس عشر في (الأعمال الكاملة). «كما أن غاييتي كتابة أمور مفيدة لمن يفهمها، يبدو لي من الملائم أن اتبع الحقيقة الفعلية للأمر بدل الخيال الذي نعلمه حوله».

(44) مقالات حول المكيافيلية الحديثة، م س، ص 61.

(45) م ن، حول هذه الميزة التاريخية، انظر: الأمير الفصل 4، ص 35.

(46) «الطغيان واحتقار البشر»، في الإنسان ضد الطغاة، م س، ص 467.

(47) التذكير بمكيافيلي، الأحاديث، الفصل (27)، في الأعمال الكاملة، م س، ص 590-591.

(48) مقالات حول المكيافيلية الحديثة، م س، ص 63.

(49) م ن، ص 61-62.

(50) م ن، ص 63.

(51) مكيافيلي، الأحاديث، الكتاب (1) الفصل (3) «كما يبرهن ذلك جميع المفكرين السياسيين، ويثبت ذلك أمثلة تاريخية عديدة، من الضروري لمن يؤسس جمهورية ويشرع لها القوانين أن يفترض أن الناس خبيثاء ومستعدون دوماً للتصرف بخبث في كل مرة يجدون فيها الفرصة سانحة لذلك (ص 388-389).

(52) م ن، ص 389.

(53) الأحاديث، الكتاب (1)، الفصل (32)، ص 461.

(54) م ن، الكتاب (3)، الفصل (35)، ص 696.

(55) م ن، الكتاب (1)، الفصل (27)، ص 442-443.

(56) انظر بخاصة: الأمير، م س، الفصل (21)، ص 351 وما يليها. وكذلك الأحاديث، الكتاب (1)، الفصل (27)، ص 442-443.

(57) مقالات حول المكيافيلية الحديثة، م س، ص 75.

(58) م ن، ص 69. انظر: فيخته «حول مكيافيلي كاتباً» في مكيافيلي وكتابات أخرى

فلسفية وسياسية من 186-187، م س، ص 56.

(59) مقالات حول المكيافيلية الحديثة، م س، ص 69.

- (60) م ن، ص 70.
- (61) لويس دُ فيلفوس، *مكيافيلي ونحن*، م س، ص 192-193.
- (62) *مقالات حول المكيافيلية الحديثة*، م س، ص 70.
- (63) لويس دُ فيلفوس، *مكيافيلي ونحن*، م س، ص 80.
- (64) *الأحاديث*، الكتاب الأول، الفصل 14، ص 419.
- (65) م ن، الكتاب الأول، الفصل التاسع، ص 405: «لا يلوم فكر حكيم أبداً شخصاً قام بعمل خارق من أجل تنظيم مملكة أو تأسيس جمهورية. وإن من المرغوب إذا أقمه الفعل أن تبرّته النتيجة: فحين يكون طيباً، كما هو حال رومولوس فإنها ستبرّته دوماً».
- (66) *مقالات حول المكيافيلية الحديثة*، م س، ص 74.
- (67) *الأحاديث*، الكتاب الأول الفصل التاسع، ص 405.
- (68) *مقالات حول المكيافيلية الحديثة*، م س، ص 75.
- (69) انظر بخاصة: *الأحاديث*، الكتاب الأول، الفصل الثاني عشر، ص 415.
- (70) *مقالات حول المكيافيلية الحديثة*، م س، ص 80.
- (71) م ن، ص 80-81.
- (72) م ن.
- (73) م ن، ص 75.
- (74) م ن، ص 75-76.
- (75) انظر: (H. Arendt, *Les origines du totalitarisme. Le système totalitaire*, trad. J. L.) (Bourget et alii, Paris, Seuil, 1972, p. 171-173) «هنا آرندت، *أصول النظام الشمولي*». بعد تبني آرندت تعبير دافيد روسيه (D. Rousset) توضح، ص 173: تُستخدم معسكرات الاعتقال والتصفية في الأنظمة الشمولية مخابر، حيث يجري التحقق من العقيدة الأساسية للنظام الشمولي: «كل شيء ممكن».
- (76) هنا آرندت، *أصول النظام الشمولي*، م س، ص 85.
- (77) V. Pareto. *Traité de sociologie générale*, préf. Aron, Genève, Droz, 1968, § 1975, p. 1254-1255. (فيلفردو پاريتو، *المطول في علم الاجتماع العام*).
- (78) *مقالات حول المكيافيلية الحديثة*، م س، ص 85.
- (79) *المطول في علم الاجتماع العام*، فقرة 845، م س، ص 451.
- (80) م ن، فقرة 1397، ص 785. علينا أن نضيف، مع ذلك، أن "البواقي" لا تتطابق مع الأحاسيس بشكل دقيق. حول هذا التوضيح، انظر: م ن، § 875، ص 85. وحول مفهوم "البواقي" و«المشتقات» انظر: (J. Freund, Pareto. *La théorie de l'équilibre*,) (Paris, Seghers, 1974, p. 80 sq. (جوليان فرويند، *پاريتو نظرية التوازن*)).
- (81) *مقالات حول المكيافيلية الحديثة*، م س، ص 85-86.
- (82) م ن، ص 88-89.
- (83) *مقالات حول المكيافيلية الحديثة*، م س، ص 88-89.

- (84) م ن، ص 102. انظر أيضاً: ومن أجل تعريف أكثر دقة، ص 91.
- (85) م ن، ص 103.
- (86) مقالات حول المكيافيلية الحديثة، م س، ص 88-89.
- (87) م ن، ص 102.
- (88) مقالات حول المكيافيلية الحديثة، م س، ص 89-90.
- (89) م ن، ص 94.
- (90) المطول في علم الاجتماع العام، م س، § 1786، ص 1124.
- (91) مقالات في المكيافيلية الحديثة، م س، ص 94-95.
- (92) المطول في علم الاجتماع العام، م س، § 889، ص 486.
- (93) م ن، § 1015، ص 545.
- (94) مقالات حول المكيافيلية الحديثة، م س، ص 95.
- (95) م ن، ص 105 (التشديد لنا).
- (96) م ن، ص 115.
- (97) م ن، ص 98-99.
- (98) Cf. H. Arendt, *Condition de l'homme moderne*, trad. G. Fradier, préf. p. Ricœur, Paris, Calmann-Levy, 1961, p. 322 sq. (انظر: أرندت، *شرط الإنسان الحديث*).
- (99) Cf. M. Heidegger, «Dépassement de la métaphysique» dans *Essais et conférences*, trad. A. Préau, préf. J. Beaufret, Paris, Gallimard, 1958, p. 80-115. «تجاوز ماوراء الطبيعة» في مقالات ومحاضرات). لندكر أن النص قد كتب بين عامي 1936-1946، وحول «إرادة الإرادة»، انظر: تحليلات لوك فيري: (La critique du monde) de la technique chez Heidegger» dans *Penser la technique*, T. Ferrenzi (éd.), Bruxelles, Complexe, 2001, p. 47-74. («نقد عالم التقنية لدى هايدغر» في التفكير في التقنية).
- (100) M. Heidegger, *Nietzsche*, trad. p. Klossowski, Paris, Gallimard, 1971, p. 239. (مارتن هايدغر، *نيتشه*). إن إعادة البناء التي قام بها هايدغر تذكر بتلك التي قام بها المفكر التقليدي رينيه غينون الذي وضع نزعة كانط "النقدية" في إطار "النزعة الإنسانية" المتميزة حول الإنسان، من عصر النهضة حتى ديكرات، وقبل النزعة الوضعية و"الذرائعية" (La crise du monde moderne, Paris, Gallimard, 1946, p. 105) (*أزمة العالم الحديث*).
- (101) Voir la préface d'Aron à M. Weber, *Le savant et le politique*, trad. J. Freund, Paris, Plon, 1997, p. 49 sq. (انظر: مقدمة آرون لفيبر، *العالم والسياسي*). يشير آرون في تقديمه لكتاب المطول في علم الاجتماع العام، إلى الروابط بين مفهوم فيبر عن «الفعل العقلي في علاقته مع غاية» (بعقلانية) أو «الفعل المنطقي» لدى باريتو.
- (102) من الصحيح أن آبل يشير إلى نظام التكامل هذا باعتباره ميزة للمجتمعات الليبرالية والتعددية أيضاً، ويعترف كذلك، أن هذا البناء، بالرغم من ضعفه، يبدو كأنه يشكل النقيض، أقله، لإيديولوجيا الدولة في البلدان الشرقية) (Cf. K-O Apel, «La situation de

l'homme» dans *Discussion et responsabilité*, t. 1, *L'éthique après Kant*, trad. C. كارل أوتو آبل «موقف الإنسان» في المناقشة والمسؤولية الجزء الأول مبادئ الأخلاق بعد كانط. يختلف البناء، من وجهة النظر هذه، وعلينا ألا ننسى، مع ذلك، أنه حين يبدأ آبل بمحريات «نظام التكامل هذا» فإنه يشير بخاصة، إلى «النزعة الذرائعية» في نسختها الغربية المتمثلة في نيتشه وسوريل وباريتو، أي وبشكل رئيس، إلى الكتاب الذين استهدفهم آرون في كتاباته حول المكيافيلية). (انظر: K-O Apel, *Éthique de la discussion*, (trad. M. Hunyadi, Paris, Cerf, 1994, chap. 3, p. 23-32) (كارل أوتو آبل، مبادئ أخلاق المناقشة). وحول موضوعنا، انظر أيضاً: إحالة آبل ذات المغزى، إلى علم اجتماع باريتو، في الفصل بعنوان «كانط وهغل والمشكلة الحالية للأسس المعيارية للأخلاق والقانون»، والمنشور في كتاب *المناقشة والمسؤولية الجزء الأول، علم الأخلاق بعد كانط: «وأخيراً، وفي ما يخص النزعة الذرائعية، فقد كانت نسختها "القارية" (نيتشه وسوريل وباريتو) نقطة انطلاق فخمة لحركة معادية لعصر التنوير، أي لذرائعية تقوم على كافة الادعاءات من العقل إلى المشروعية (المنطق والأصالة والدقة الأخلاقية) الموضوعية بتصرف تأكيد شبه بيولوجي للحياة وأنظمتها الوظيفية، ص 56. لنشر إلى أن آرون يشرك، بشكل ضمني باريتو وسوريل ومذهب نيتشه معاً ضمن منظور مشابه (رومانتيكية العنف) في كتاب: الإنسان ضد الطغاة، م س، ص 431؛ انظر أيضاً: الإشارة إلى الانقلاب النيتشوي الذي قام به باريتو وسوريل مقالات حول المكيافيلية الحديثة، م س، ص 112.*

(103) مبادئ أخلاق النقاش، ص 38.

(104) كارل أوتو آبل «العودة إلى الحالة الطبيعية؟» في مناقشة ومسؤولية الجزء الثاني، المساهمة في مبادئ أخلاق المسؤولية، م س، ص 146. إن العلاقات بين آرون ومدرسة فرانكفورت الثانية، وابتعاده عن الأولى، كانت واضحة لدرجة أنه كان حينها على اتصال مع هوركهائمر وأدورنو وماركوزه من خلال مشاركته بمجلة (*Zeitschrift für soziales forschung*) (البحوث الاجتماعية)، بخاصة من خلال مقالته حول باريتو.

(105) مقالات حول المكيافيلية الحديثة، م س، ص 70.

(106) م ن.

(107) الأحاديث، م س، الكتاب الأول الفصل 29، ص 445.

(108) م ن، الكتاب الأول، الفصل الخامس 392 وما يليها.

(109) م ن، الكتاب الأول الفصل 66، ص 480 وما يليها.

(110) «الطغيان واحتقار البشر»، مق س، ص 473.

(111) «المكيافيلية وعقيدة أنظمة الطغيان الحديثة»، مق س، ص 423.

(112) «الطغيان واحتقار البشر»، مق س، ص 469.

(113) يعترض الفحص النقدي المكرس لكتاب *عصر أنظمة الطغيان على «التشبيه الضمني للطغيان السوفييتي بطغيان الأنظمة الرجعية»*، مق س، ص 264. يشير آرون في كتاب

ديمقراطية شمولية، معارضة أطروحات آرندت، أيضاً، إلى أن النظام السوفييتي الذي تأسس بإرادة ثورية أوحى بها فكرة "إنسانية" قد اقتيد إلى إرساء الرعب بشكل رئيس، بسبب الحواجز الحتمية التي تحول دون تنفيذ مشروعه غير الواقعي. وهكذا وعلى الرغم من التشابه بين النظامين، علينا أن نشير إلى الفرق الرئيس بين الفكرة التي تحرك هذا المشروع وذاك - وذلك لأن النتيجة - في حالة - هي معسكر العمل، وفي الأخرى غرفة الغاز» (Démocratie et totalitarisme, Paris, Gallimard, 1992, p. 291-). (292) (الديمقراطية والشمولية).

R. Aron, «Machiavel et Marx» (1969), dans *Études politiques*, Paris, Gallimard, 1972, (114) p. 56 sq. (آرون، «مكيافيلي وماركس» (1969) في (دراسات سياسية)).

Voir Gramsci, *Cahiers 13 et 14 dans Cahiers de prison*, trad. p. Fulchignoni et alii, (115) Paris, Gallimard, 1978 et 1990. (غرامشي، الدفتران 13 و14 في دفاتر السجن).

(116) «مكيافيلي وماركس»، مق س، ص 66.

(117) مق س، ص 67 (التشديد لنا).

(118) على العكس، يلح كورنيليوس كاستورياديس على البعد "المكيافيلي" للشيوعية المتأخرة. (أمام الحرب).

(119) Voir les *Mémoires*, Paris, Julliard, 1983, p. 68 et 69, sur G. Davy et C. Bouglé. (انظر: المذكرات، حول جورج دافي وسليستان بوغليه). في بداية الثلاثينيات، اعتبر آرون فيبر أهم عالم اجتماع (انظر: م ن، ص 70-72) ومع ذلك، لنشر إلى أن سليستان بوغليه قد شكك بدحض أطروحات دوركهام، تحت التأثير الكبير للزعة النقدية الجديدة. (cf. *Les sciences sociales en Allemagne*, Paris, Alcan, 1896, p. 162 sq. في ألمانيا).

R. Aron, *La sociologie allemande contemporaine*, Paris, PUF, 1981 [1^{re} éd., 1935], (120) p. 99. (بمون آرون، علم الاجتماع الألماني المعاصر، باريس). الكتاب وضع بطلب من بوغليه ولا يذكر نقده للشهادة الوضعية في العلوم الاجتماعية في ألمانيا.

R. Aron, *La philosophie critique de l'histoire. Essais sur une théorie allemande de l'histoire*, S. Mesurc (éd.), Paris, Julliard, 1987, p. 261. (آرون، الفلسفة النقدية للتاريخ، مقالات حول النظرية الألمانية للتاريخ).

(122) الفلسفة النقدية للتاريخ. مقالات حول نظرية ألمانية للتاريخ، م س، ص 262.

M. Weber, «Le métier et la vocation de l'homme politique», dans *Le savant et le politique*, trad. J. Freund, préf. R. Aron, Paris, Plon, 1963, p. 207. (م. فيبر، «مهنة رجل السياسة وقدره» في العالم السياسي).

(124) حول هذه النقطة انظر: فيخته، حول «مكيافيلي وكتابات أخرى فلسفية وسياسية للعامين 1806-1807»، م س.

(125) «مهنة رجل السياسة وقدره»، م س، ص 217.

(126) م ن.

(127) علم الاجتماع الألماني المعاصر، م س، ص 212. يفسر فيبر الواقعة السياسية لبعض الحكيم الهندية بالرجوع إلى مكيافيلي. وبعد أن لاحظ الطريقة التي حولت بها هذه الحكم الفن السياسي إلى حيز فعالية مستقل، أشار إلى أن الأدب الهندي يحتوي على عرض تقليدي «للمكيافيلية» الجذرية بالمعنى الشعبي للكلمة تعرف بـ «أرتاساسترا (Arthasastra)»، وتعتبر كتاباً «مسالماً بالمقارنة مع أمير مكيافيلي».

(128) م ن، ص 103.

(129) م ن، ص 107.

(130) م ن.

(131) لقد قامت رحلة آرون إلى ألمانيا، بين عامي 1930-1933، بدور حاسم في عملية خروجه من النزعة السلمية. انظر: المذكرات ص 55-67. وانظر أيضاً: (N. Baverez, Aron. Un moraliste au temps des idéologies, Paris, Flammarion, 1993, p. 59 sq. (نيكولا بافريز، آرون، عالم أخلاق في زمن الإيديولوجيات) يُرجع آرون في المذكرات (ص 70-72) اهتمامه، الشغف أحياناً، بغير علي حساب دوركهام - في السنوات 31-32. «لا يتخذ علم الاجتماع موقفاً مأسوياً من الثورات، بل يخلق فوق مصيرها. ولم يفكر ماكس فيبر بالأنظمة الاجتماعية ولا بالقرارات التي لا يجري التراجع عنها، القرارات القدرية التي يتخذها رجال القدر». نتلمس هنا فرقاً بين آرون والجمهوريين الوضعيين في عصره. وكما يشير ألان بوايه: «إن ما يميز أتباع دوركهام عن آرون طبيعتهم وإيمانهم العلماني». (انظر: A. Boyer, «Le désir et la réalité. Remarques sur la pensée aronienne de l'histoire» dans Raymond Aron, la philosophie de l'histoire et les sciences sociales, J. C. Chamboredon (éd.), Paris, Éditions de la rue d'Ulm, 1999, p. 44) (ألان بوايه، الرغبة والواقع، ملاحظات حول فكر آرون في التاريخ في ريمون آرون فلسفة التاريخ والعلوم الاجتماعية).

(132) علم الاجتماع الألماني المعاصر، م س، ص 109.

(133) ريمون آرون، «فلسفة النزعة الإنسانية»، في الإنسان ضد الطغيان، م س، ص 481، وما يليها.

(134) م ن، ص 484.

(135) Aron, «De l'objection de conscience», dans Études politiques, p. 342-353. (انظر: آرون «في رفض الحرب»، في دراسات سياسية، ص 342-353. يعود هذا النص إلى عام 1934، حيث عرضت بوضوح تناقضات السياسة (لكن دون الرجوع الصريح إلى فيبر) وهو يعمق الدراسة المنشورة في كلمات حرة في شباط 1933، تحت عنوان «أفكار حول النزعة السلمية المتكاملة». حول هذا الموضوع، انظر: المذكرات، م س، ص 55-58.

(136) فلسفة النزعة السلمية، م س، ص 484.

(137) م ن.

(138) م ن، ص 485. إن هذا النقد لا يمكن أن ينفصل عن الدفاع عن المكيافيلية، وبشكل أدق، عن مكيافيلية معتدلة تسمح بمواجهة المكيافيلية المطلقة لأنظمة الطغيان الحديثة.

(139) «دول ديمقراطية ودول شمولية»، مداخلة في الجمعية الفرنسية للفلسفة 17 حزيران 1939. في مكيافيلي وأنظمة الطغيان الحديثة، م س، ص 165 وما يليها.

(140) م ن، ص 166.

(141) مكيافيلي وأنظمة الطغيان الحديثة، م س، ص 178.

(142) م ن، ص 180.

(143) م ن، ص 181.

(144) جاك ماريان، (Paru d'abord dans la *Review of* Maritain, «La fin du machiavélisme» puis dans *La Revue catholique de la Suisse romande* (avril-juin 1942) puis dans *La Revue catholique de la Suisse romande* (avril-juin 1942). (1942). «نهاية المكيافيلية» نشر أولاً في مجلة السياسة). ثم في المحلة الكاثوليكية لسويسرا الروماندية (نيسان - حزيران 1942) ثم أعيد نشره مع تعديل طفيف في *Principes d'une politique humaniste* dans *Œuvres Complètes*, Paris, Éditions Universitaires Fribourg/Éditions Saint-Paul, t. VIII, 1978 (الفصل الخامس من كتاب مبادئ سياسية إنسانية).

(145) هنري بير مكيافيلي وألمانيا، م س، ص 26: «ديكارت ضد مكيافيلي». وحول ثبات الرجوع إلى ديكارت في الخطاب "العقلاني" للثلاثينيات، انظر: (F. Azouvi, *Descartes et* la France. *Histoire d'une passion nationale*, Paris, Fayard, 2002, p. 299 sq. أزوفي، ديكارت وفرنسا، قصة شعف وطني). مع ذلك، وبما أن بير مطلع بشكل جيد على التقاليد الجمهورية الأوروبية، فقد فهم بشكل أفضل من ماريان، النزعة المكيافيلية ومستقبلها. لذلك فهو يشير إلى أن «مكيافيلي ليس نذلاً شقياً» بل «إيطالياً وطنياً»: لقد رأى إدغار كيني، ذلك الإنسان صافي الذهن، في خاتمة الأمير البليغة - حيث يبين مكيافيلي أن إيطاليا تنتظر «وهي تحتضر تقريباً، من يستطيع أن يلام جراحها - التشديد الوطني للقرن السادس عشر». وتذكر تحليلات بير حول النزعة القومية الجرمانية، وبشكل جزئي وفي ما يتعلق بالتوثيق، بكتاب: (F. Meinecke, *Die Idee der Staatsräson in der neueren Geschichte*, publié en 1924 (*L'idée de la raison d'État dans l'histoire des temps modernes*, trad. M. Chevallier, Genève, Droz, 1973) (فريدش ماينكه، فكرة مصلحة الدولة في تاريخ الأزمنة الحديثة). الذي أثر كثيراً في أوروبا جميعاً، خاصة في ما يتعلق برؤوس روتشفايك (Rosenzweig) ويشير بير، مثل ماينكه، إلى نص لبولمان (Bollmann) «مبرير المكيافيلية»، شارحاً أن روح الأمير موجودة «على هيئة الأمير بسمارك».

(146) انظر: (J. Maritain, *Trois réformateurs: Luther, Descartes, Rousseau* [1925] dans *Œuvres* complètes, t. III, p. 429-655.) (جاك ماريان، الإصلاحيون الثلاثة ليوثر وديكارت وروسو [1922] في الأعمال الكاملة ج3). بدأ نقد ماريان للحدث في

كتابه *(Antimoderne)* *(ضد الحداثة)* منذ عام 1932. وقد أعاد صياغته عام 1934 في *(Humanisme integral)* (O. C. VI, p. 301-634) *(الإنسانية المتكاملة)* الذي احتوى على شروح هامة حول المكيافيلية. وكتب «نهاية المكيافيلية» في إحدى المراحل الختصة من حياته، حين كان مبعداً إلى الولايات المتحدة حيث نشر، بخاصة، *حقوق الإنسان والقانون الطبيعي* (1942). وعن المرحلة الأمريكية انظر: (Piero Viotto, *Introduzione a*) (Maritain, Roma-Bari, Laterza, 2000, p. 61 sq) *(بيرو فيوتو، المدخل إلى ماريان)*. وحول تنقلاته، منذ صدور كتابه *الإنسانية المتكاملة*، انظر: بيرو فيوتو في مقدمة *الإنسانية المتكاملة*، وحول تحليله الأكثر نقداً، انظر: (A. Renaut et L. Sosoe, *Philosophie du droit*,) (Paris, PUF, 1991, p. 257-273) *(الآن رونو ولوكاس سوزو، فلسفة القانون)*. لنشر إلى أنه قد أعيدت صياغة أفكار ماريان حول الحداثة ومكيافيلي من قبل الفكر التقليدي غينون (R. Guénon) (التأثر بالنزعة التماوية الجديدة) الذي أرخ لكارثة الحداثة بقدم النزعة الإنسانية لعصر النهضة *(أزمة العالم الحديث)*، م ن، ص 37). ومهما كانت أبعاد أفكار ماريان، فهي تستحق إعادة الدراسة لسببين لا يمكن الفصل بينهما: أولاً يستبق نقد ماريان للحداثة والفردية الليبرالية، أكثر مما تتصور، المواقف الجماعية التي فرضت نفسها في الثمانينات، وعلى عكس فكرة سائدة، لم يشهد موضوع «الجماعة» أفولاً في القرن العشرين. (انظر: حول هذا الموضوع التأليف الناجح الذي قامت به V. Pazé, II) (comunitarismo, Roma-Bari, Laterza, 2004, p. 61-67) *(فالانتينا بازيه، النزعة الجماعية)*. أضف إلى ذلك أن أعمال ماريان قد ساهمت، على طريقتها، في تجديد «الفلسفة العملية»، وبشكل أوسع الفلسفة الأرسطية، ففي ألمانيا، مثلاً أدت أعمال ريتير إلى العودة إلى الفلسفة السياسية لأرسطو (J. Ritter, *Metaphysic und Politik. Studien zu Aristoteles* und Hegel, Frankfurt, Suhrkamp, 1969) *(جواشيم ريتير، الميتافيزيق والسياسة، دراسة في أرسطو وهيجل)*. حول السياق التاريخي لأفكار ريتير، انظر: (voir la préface de G. Cucino) (1983, p. VII-XLVIII) *(مقدمة ج. كوتشينو «الميتافيزيق والسياسة»)*. وحول العودة لأرسطو في القرن العشرين، انظر: (E. Berti, *Aristotele nel novecento*, Roma-Bari,) (Laterza, 1992) *(أنريكو بيرتي، أرسطو في القرن التاسع عشر)*.

(147) *نهاية المكيافيلية*، ص 308.

(148) م ن، ص 308.

(149) م ن، ص 322.

(150) م ن.

(151) «نهاية المكيافيلية»، ص 323) وحول التحول من مكيافيلي إلى هيجل، في إطار رفض

ماريتان النزعة الإنسانية المتركة حول الإنسان في الأزمنة الحديثة، انظر: (Pour la

Justice (1945) dans O. C. VIII, p. 710-711) *(من أجل العدالة في الأعمال الكاملة)*.

سيوضح هذا النقد لاحقاً في (La philosophie morale (1960), O. C. XI,)

(p. 581) / (الفلسفة الأخلاقية). لقد كان رفض مكيافيلي وهيجل منتشرًا إلى حد ما في الأواسط الكاثوليكية آنذاك. انظر: (A. Brucculeri, dans *La civiltà cattolica*, II,) (1938) / (تحليل أنجيلو بروكوليري، أحد الآباء اليسوعيين، - منظر النظام الشمولي باعتباره دولة عابرة للدول - في الحضارة الكاثوليكية). (La civiltà cattolica) وستتهي فلسفة هيجل المسار الذي استوحاه مكيافيلي من عصر النهضة، والمتمثل في استخدام الدين واعبار رعاية بديلة عن رعاية السماء. انظر: إميليو جنتيله (E. Gentile, *Le religioni della politica. Fra democrazia e totalitarismo*, Roma-Bari, Laterza, 2001, p. 135) / (مذاهب السياسة من الديمقراطية إلى الشمولية). إن هذا النوع من التفسير الهيجلي وتأثيره ثابت، كما توضح ذلك أعمال دومينيكو لوزوردو، هيجل والكارثة الألمانية، م. س. يقف لوزوردو موقفًا معاكسًا للرأي الذي يرى في هيجل الملهم الرئيس للسياسة الواقعية الألمانية والنزعة القومية الألمانية. ويوضح أن مفهوم التاريخ عند هيجل يقع على نقيض مفهوم بسمارك للتاريخ. ويشير لوزوردو بخاصة إلى أن ترايتشكه (Treitschke) و"القوميين الليبراليين" الآخرين ليسوا التلاميذ المباشرين لهيجل، كما تمت الإشارة إلى ذلك، غالبًا، بخاصة تحت تأثير أندلر وماينكه (Andler, Meinecke) أو روزنسفلت (Rosenzweig). وعلى العكس، طور "القوميون الليبراليون" نقدًا هامًا ضد هيجل من خلال لومه على الأهمية المبالغ فيها التي يوليها للدولة («البعد المكيافيلي لهيجل») وبعد ذلك، يقوم رهان «القوميين الليبراليين» على التخلص من الإعجاب الهيجلي بفرنسا والثورة الفرنسية. يريد اصحاب «النزعة الجرمانية» «المعادون للغالية» (نسبة إلى غاليا الاسم القديم لفرنسا) أيضًا قطع الصلة مع مؤلف مبادئ فلسفة القانون. انظر: أيضًا تحليلات لوزوردو حول منظر السياسة الواقعية روشو (Rochau)، الذي استوحى أفكاره من نزعة فردية «اجتماعية داروينية» أكثر من الفلسفة الهيجلية للدولة.

(152) نهاية المكيافيلية، ص 323.

(153) م ن، ص 313.

(154) م ن، انظر: التحليل الوارد في كتاب النزعة الإنسانية المتكاملة المرتبط بالعلاقات بين الروحي والزمني، م س، ص 617-619. وحول الطابع الخاص للأخلاق السياسية «ليست مبادئ الأخلاق، في الحقيقة نظريات ولا معبودات، بل قواعد عليا لنشاط ملموس يسعى إلى إنجاز عمل في هذه الظروف أو تلك، مستخدمًا القواعد الأقرب، قواعد الفضيلة والحذر التي لم ترسم أبدًا بشكل مستبق في النتيجة» ص 535، أي إنها الجذر الأرسطي المعادة صياغته في الإطار التوماوية الجديدة.

(155) يوضح ماريان أن مكيافيلي قد أخطأ في اقتراح مفهوم «فني بحث للدولة». ويشير من خلال العودة إلى التمييز الأرسطي بين «الممارسة العملية» والإبداع، إلى أننا هنا أمام «الخطأ الفلسفي الجسيم» الذي ارتكبه مكيافيلي، «إذا كان صحيحًا أن السياسة تعود إلى الممارسة (Praktikon) وليس إلى الإبداع (Poietikon) وأنها في جوهرها فرع - الفرع

الرئيس وفقاً لأرسطو - من الأخلاق»، ص 316. ونعرف الأهمية الرئيسة لهذا التمييز لدى آرنست.

(156) م ن، ص 325-326.

(157) م ن، ص 326.

(158) من وجهة النظر هذه، يعتبر ماريان في كتابه *الإنسانية المتكاملة* أن مكيافيلي، هرطوقي السياسة الكبير في العصور الحديثة، قد أثار أسئلة ذات أهمية: فكل خطأ حقيقته وحقيقة المكيافيلية تقوم على ردة الفعل تجاه مفهوم خاطئ للأخلاق، تجاه ما نسميه «الأخلاقية الفائقة» (Le surmoralisme)

(159) م ن، ص 327.

(160) م ن، ص 330 (التشديد لنا).

(161) «J. Maritain et la querelle du machiavélisme», dans *Machiavel et les tyrannies modernes*, p. 375. (جاء ماريان، ونزاع المكيافيلية»، في *مكيافيلي وأنظمة الطغيان الحديثة*، ص 375).

(162) م س، ص 376.

(163) انظر: نقد دُ فيلفوس (De Villefosse) الذي يعود إلى مكيافيلي وسافونارول في النزعة السلمية وإلى (SDN). لو أن مكيافيلي قد عاش في القرن العشرين لكان انتقد على الأرجح، مبادئ المؤسسة التي تشرع القوانين باسم الضمير العالمي، دون أن تنشئ قوة إكراه مناسبة، م س، ص 78.

(164) انظر: *مقالات حول المكيافيلية الحديثة*، م س، ص 113. ومع ذلك، لا يرى آرون، هنا أيضاً، في فكرة «عدم تجانس الغايات النهائية» التي قدمها باريتو دليل فهم واضح لتناقضات السياسة، بل مؤشر «نزعة ذاتانية» عديمة في الجوهر فقط.

(165) «نزاع المكيافيلية»، م س، ص 376-377.

(166) نزاع المكيافيلية، م س، ص 378.

(167) ريمون آرون «حول المكيافيلية»، حوار مع جاك ماريان (كانون أول 1982) في *مكيافيلي وأنظمة الطغيان الحديثة*، م س، ص 408-416.

(168) L. Strauss, «Qu'est-ce que la philosophie politique?» dans *Qu'est-ce que la philosophie politique?*, trad. O. Sedeyn, Paris, PUF, 1992, p. 45-51. (انظر: ليو ستروس، «ما الفلسفة السياسية؟» في *ما الفلسفة السياسية*). وانظر أيضاً: (P. Edmond et T. Stern, prés. M. P. Edmond, Paris, Payot, 1982 entre autres p. 319

(sq) /*أفكار حول مكيافيلي*). انظر أيضاً: («Nicolas Machiavel» dans *Études de philosophie politique platonicienne*, trad. O. Sedeyn, Paris, Belin, 1992, p. 300-326). (نيكولا مكيافيلي» في *دراسات في الفلسفة السياسية الأفلاطونية*).

(169) (Sur le machiavélisme. Dialogue avec J. Maritain», p. 412. «حول المكيافيلية»، حوار مع جاك ماريان).

(170) م ن، ص 412. حول الأخلاق الخمسة التي تعيد توظيف المفهوم الأرسطي للحذر في مواجهة النزعة الكونية لكانط، انظر: *الأنسانية المتكاملة*، م س، ص 535. انظر: نقد الأخلاق عند كانط التي اعتبرت شديدة التجريد، ص 537.

(171) «حول المكيافيلية»، حوار مع جاك مارتان، ص 408-416.

(172) لنوضح أن الأرسطية الجديدة التي يستهدفها آبل (وهاربيرماس) تختلف عن إعادة صياغتها التوماوية الجديدة، وتشتمل على متطلبات نسبية. يحق لنا أن نأسف لأن آبل لا يأخذ دوماً بالاعتبار وبشكل جدي مساهمة «السياسة العملية» التي تمثل أحد التيارات الأكثر غنى في الفكر الألماني، في عصره. ويعتبر كتاب رينغر بونر (R. Bubner, *Handlung, Sprache und Vernunft. Grundbegriffe praktischer Philosophie*, Frankfurt, Suhrkamp, 1976) *العمل والعلة والعقل، المبادئ الأساسية للسياسة العملية* من أهم الكتب التي صدرت حول هذا الموضوع. مما يؤسف له أن هذا الكتاب غير متوافر باللغة الفرنسية، فيما ترجم إلى الإيطالية منذ عام 1985. يحتوي الكتاب على نقد هام (الفصل الأول) للنظريات الاجتماعية حول العمل (بخاصة فير وشولتز وبارسن)، وإعادة صوغ لمبادئ فلسفة العمل (الفصل الثاني)، من خلال العودة بشكل خاص إلى أرسطو. أما الفصل الرابع فيشتمل على دراسة نقدية هامة «لمبادئ أخلاق النقاش» لدى هابرماس. وحول تجديد «الفلسفة العملية» في ألمانيا. انظر:

F. Volpi, «La rinascita della filosofia pratica in Germania», in Pacchiani (ed.), *Filosofia* (pratica e scienza politica, Padova, Edizioni Aldo Francisci, p. 11-97, 1980. فولبي، «نهضة الفلسفة العملية في ألمانيا»، في كلاوديو باشيان، *الفلسفة العملية والعلم السياسي*). ومن أجل مقارنة تركيبة، انظر: (E. Berti, *Filosofia pratica*, Napoli, Alfredo Guida Editore, 2004.) *الفلسفة العملية*. وانظر: من أجل الاستزادة حول الصيغة المختلفة في العودة إلى أرسطو: إميليو بيرتي، *أرسطو المتجدد*، م س.

(173) انظر: كارل أوتو آبل، «وضع الإنسان باعتباره مشكلة أخلاقية» في *المنافشة والمسؤولية*، الجزء (1) *الأخلاق بعد كانت*، م س، ص 32. يذكر نقد النزعة السلمية لدى فرانتر آلت - انظر: «حل النزاعات في العصر النووي: مشكلة أخلاق المسؤولية» في *المنافشة والمسؤولية* الجزء (2) *مساهمة في أخلاق المسؤولية*، م س-، هنا أيضاً، بنقد آرون لماريتان. يعترف آبل أولاً بأن دفاع فرانتر آلت، من أجل "انطلاقة جديدة" و"تكييف القلوب"، يجب أن يؤخذ على محمل الجد، إلا أن سداجة الإشكالية التي قدمها آلت، تعود إلى أنه لم يكن يرى على الإطلاق المشكلة المتعلقة بالأفعال المسؤولة من منظار نتائجها في العالم - وتلك مشكلة ترتبط بالعقل، حتى بعد "تكييف القلوب"، ص 47. يسعى آبل للتمييز بين موقف فير ومكيافيلي، ص 43.

(174) R. Aron, *Préface au Prince*, Paris, Le livre de poche, 1962, p. 5-12. (رعمون آرون، المقدمة لكتاب الأمير).

(175) انظر بخاصة: ليو ستروس، *أفكار حول مكيافيلي*، م س، ص 194.

(176) مقدمة كتاب الأمير، م س، ص 9.

(177) وبالمقابل عرضت فكرة النزعة المكيافيلية الأساسية للشيوعية في كتاب: (U. Spirito, Machiavelli e Guicciardini, Roma, Edizioni Leonardo, 1945, p. 64) (أوغو سبيريتو مكيافيلي وغويتشارديني، الكلاسيكي).

(178) تدين أفكار آرون، حول تناقضات السياسة، بالكثير لباريتو. لنشر أيضاً للشروح حول تحرك النخب وتحدددها، التي أوحى بها باريتو (انظر: «إصلاحات» في كتاب حوليات الحرب، م س، ص 795).

(179) انظر: «ملاحظات حول العقيدة اللينينية» في «تنويعات على شرف إريك فوغلان» 1981. ومن الآن فصاعداً في مكيافيلي وأنظمة الطغيان الحديثة، م س، ص 388-402. يذكر آرون أن موضوع «الشرائع الأرضية» الذي ظهر في أعماله عام 1944، لم يكن أصيلاً: فالكثير من علماء الاجتماع، وأولهم فيلفريدو باريتو، قد قارنوا المعتقدات الإيديولوجية السياسية في عصرنا بالمعتقدات السماوية الحقة، ص 388.

(180) انظر: (J. Monnerot, Sociologie du communisme. Échec d'une tentative religieuse au XX e siècle, Paris, Gallimard, 1963 (1 re éd. 1949). علم اجتماع الشيوعية، فشل محاولة دينية في القرن العشرين). إذا لم يذكر مؤثر باريتو (إلا في الصفحات 34-36 و62) فهو يستند بشكل واسع جداً إلى مبادئ علم اجتماعه. (بخاصة القسم الثالث، الفصل الثاني، سيكولوجيا المذاهب الدنيوية، ص 283-293. وبالمقابل، يظهر اعتراف مؤثر باريتو لموسكا وباريتو في كتاب: (Sociologie de la Révolution, Paris, Fayard, 1968.) (علم اجتماع الثورة). لقد انتقدت آرنولد بشدة أفكار مؤثر، في كتابها: (La nature du totalitarisme, trad. M. I. B. de Launay, Paris, Payot, 1990,) (طبيعة النزعة الشمولية). p. 166).

(181) ريمون آرون، مقدمة إلى المطول في علم الاجتماع، م س، ص 27.

(182) (V. Pareto, Les systèmes socialistes, Genève, Droz, 1965, chap. IX, p. 169) (فيلفريدو باريتو، الأنظمة الاشتراكية).

(183) المقدمة إلى المطول في علم الاجتماع العام، م س.

(184) (G. La Ferla, Vilfredo Pareto, filosofo volteriano, Padova, CEDAM, 1958.) (جيوسيف لافيرلا، فيلفريدو باريتو، فيلسوف فولتيري). وبعيداً عن إيمان باريتو بالعلم التجريبي، فإنه يبقى رجل عصر التنوير، القريب من فولتير والمشارك له في الفكر النقدي والساخر في مواجهة الأفكار المسبقة كافة ص 50 و76.

(185) مراحل الفكر الاجتماعي، م س، ص 475.

(186) م ن، ص 588.

(187) مراحل الفكر الاجتماعي، م س، ص 49.

(188) V. Zincone, Lo stato totalitario, préf. D. Colofrancesco, Roma, Ideazione Editrice, (1947) [1999]. Voir chap. I et la préface, p. 44.

(انظر: فيتوريو زينكوني، الدولة الشمولية)، انظر: الفصل الأول والمقدمة.

(189) S. Tchakhotine, *Le viol des foules par la propagande politique*, Paris, Gallimard, 1952. (p. 343 et 450-451). ينقذ

تشاخوتين بورنهام نفسه لأنه أبدى إعجابه بالنظام الفاشي، مثل ميتشلس. وهذا أمر غير صحيح، على ما يبدو، في ما يتعلق بالفيلسوف الأمريكي.

(190) كما يذكر بذلك آرون في كتابه *مراحل الفكر الاجتماعي*، م س، ص 491. لقد وقع

نزاع شهير بين موسكا وباريتو، إذ لام الأول الثاني لعدم اعترافه بفضل عليه، انظر

بخاصة: (R. Tanturri, *Pensiero e significato di Gaetano Mosca*, Padova, CEDAM, 1973, p. 18-22).

يبدو ما يدين به سوريل لباريتو، وميتشلس لموسكا واضحاً، وقد اعترف هذان المؤلفان به بكل وضوح.

(191) A. Livingston, préface à la trad. des *Elementi di scienza politica*, *The Ruling Class*, (trad. T. H. D. Kahn, New York, Mc Graw-Hill Book Company, 1939, p. XXXVI sq.

(آرثر ليفينغستون، مقدمة ترجمة: مبادئ في العلم السياسي، طبعة القرار).

(192) J. Burnham, *The Machiavellians: Defenders of Freedom: A defense of political truth against wishful thinkings*, Londres 1943, nouv. éd. préf. S. Hook, Washington,

(Gateway Edition, 1963). (جيمس بورنهام، *المكيافليّون المدافعون عن الحرية*. دفاع

عن الحقيقة السياسية ضد الأوهام). وحول بورنهام، انظر: (les Mémoires de S. Hook, 1987.

Out of Step, New York, Harper & Row, 1987). (مذكرات سيدني هوك، خارج

المرحلة).

(193) انظر: *المذكرات*، ص 242

(194) *Les machiavéliens: défenseurs de la liberté*, trad. H. Claireau, Paris, Calmann-Lévy, 1949.

(المكيافليّون المدافعون عن الحرية). لقد طبعت دار كالمان ليفي أربعة كتب

أخرى في أقل تقدير، لبورنهام في سلسلة «حرية الفكر» بإشراف آرون، خصوصاً

كتابته الشهير: (L'ère des organisateurs, 1947, préfacé par L. Blum (Managerial

Revolution, 1941). (عصر المنظمين). وقد قدم له ليون بلوم (الثورة المدبرة) وكذلك

الاستيعاب أم التحرير؟ مع خاتمة لآرون. ونذكر أن آرون كان على علاقة شخصية

ببورنهام.

(195) G. Spadolini «Mémoire de Gaetano Mosca à l'occasion du quarantième anniversaire

de sa mort», dans *Études sur la pensée politique de Gaetano Mosca. Classe politique*

(et gouvernement, Albertoni (dir.), Milano, Giuffrè Editore, 1984, p. 6.

سپادوليني، «مذكرات غايتانو موسكا». بمناسبة الذكرى الأربعين لوفاته في دراسات

حول الفكر السياسي لغايتانو موسكا، الطبقة السياسية والحكم).

(196) نوربرتو بوبيو «المدخل إلى علم اجتماع باريتو» (1964)، في بحث حول العلم السياسي

في إيطاليا، م س، ص 62-63.

(197) نوربرتو بويو، «غايتانو موسكا والعلم السياسي» (1960)، في بحث حول العلم السياسي في إيطاليا، م س، ص 60.

J. H. Meisel, *The Myth of Ruling Class: Gaetano Mosca and the Elite*, Ann Arbor, The University of Michigan Press, 1962, chap. XII: «Machiavelli and the Machiavellians»

(p. 263 sq) (جيمس هـ. مايزل، أسطورة الطبقة الحاكمة: غايتانو موسكا والنخبة).

(199) م ن، ص 27، وبالمقابل، يؤكد ستوارت هوغ وجود علاقة ما (S. Hugues,)

(Consciousness and Society, New York, A. A. Knopf, 1958) (الوعي والمجتمع). وانظر

أيضاً: ألبرتو إيزيرو (A. Izzo, *Storia del pensiero sociologico*, t. II, Bologna, Il Mulino,)

(1975, p. 273) (تاريخ الفكر الاجتماعي).

(200) المكيافيكيون، المدافعون عن الحرية، م س، ص 6-7.

(201) م ن، ص 10.

(202) م ن، ص 26-27.

(203) المكيافيكيون، المدافعون عن الحرية، م س، ص 35.

(204) لقد رفض مفسرون مختلفون، مثل ليو ستروس ولوفور، بالطبع هذه الفكرة، ودرسوا

على طريقته فن الكتابة لدى مكيافيلي.

(205) م ن، ص 38.

(206) عصر المنظمين، م س، ص 43.

(207) م ن، ص 44.

(208) م ن، ص 53.

(209) م ن، ص 55-58.

G. Mosca, *Elementi di scienza politica*, in *Scritti politici*, t. II, G. Sola (éd.), Torino, (210)

Unione Tipografico-Editrice Torinese, 1982 (il existe aussi une version abrégée: *La*

classe politica, N. Bobbio (ed.), Roma-Bari, Laterza, 1966.

في علم السياسة في كتابات سياسية الجزء الثاني). وهناك نسخة مختصرة: نوربرتو بويو

(محرر)، الطبقة السياسية).

(211) م ن، ص 91. لا يعبر بورنهام إلا القليل من الاهتمام، مع ذلك، للمسافة التي تفصل

موسكا عن مكيافيلي، وهي أبعد مما هي عليه لدى باريو انظر: غايتانو موسكا (G.)

Mosca, «Il "Principe" di Machiavelli quattro secoli dopo la morte del suo autore»

(1925) in *Ciò che la storia potrebbe insegnare. Scritti di scienza politica*, Milano,

(Giuffrè Editore, 1958, p. 671-720). لا يدرس بورنهام أيضاً سبب تفضيل موسكا

لفويتشارديني (E. A. Albertoni, *Il pensiero politico di Gaetano Mosca. Valori-Miti-*

Ideologia, Milano, Cisalpino Goliardica Editore, 1973, p. 135-136) (انظر: إتيرو

ألبرتوني). أخيراً، أهمل بورنهام سياق ليبرالية بالرمو المحافظة (M. Fotia, *Il liberalismo*

incompiuto. Mosca, Orlando, Romano tra pensiero europeo e cultura meridionale,

قد (Milano, Guerini Editore, 2001). ومع ذلك، فإن فكرة موسكا القرية من مكيافيلي قد

قدمت أيضاً في إيطاليا (G. Spadolini, «Il centenario di Gaetano Mosca. Un discepolo di

(Machiavelli», *Il Resto del Carlino*, n°86, 10 avril 1958, p. 3

(212) مبادئ في علم السياسة، م س، ص 609.

(213) م ن، ص 609 وما يليها و 633 وما يليها.

(214) م ن، ص 712. الفصل الرابع (سجال) الذي ينقد نظرية الاستفتاء العام.

(215) م ن، ص 634.

(216) م ن، ص 1067، انظر أيضاً: ص 770. يقتبس موسكا من *قصص فلورنساوية* VII، 6.

R. Michels, *Zur Soziologie des Parteiwesens in der modernem Demokratie* (1911) (Les (217)

partis (politiques. Essai sur les tendances oligarchiques des démocraties, trad. S.

(Paris, Flammarion 1914 Jankelevitch, (روبرت ميتشلس، الأحزاب السياسية، بحث حول

الاتجاهات الأقلوية في الديمقراطيات). إن التحليل الذي قدمه بورنهام حول ميتشلس قابل

للتناقش لغوياً، فهو يهمل أصل هذا الفكر من أجل نقد بورنهام. انظر: الكتاب الأساسي

الذي ألفه فرانثيسكو توكاري (F. Tuccari, *I dilemmi della democrazia moderna. Max* (Weber e Robert Michels, Roma-Bari, Laterza, 1993, p. 55, 334

الحديثة، ماكس فيبر، روبرت ميتشلس). ونشر إلى أن أعمال ميتشلس قد أثرت بعمق في

نقد برونو ريزي (Bruno Rizzi) حول الشيوعية في نص مطبوع على الآلة الكاتبة *فلسفة*

الأحزاب 1948 (Filosofia del partito) المنشور في مجلة (Palingenesi) تشرين الثاني وكانون

الأول 1949 (حول هذه النقطة انظر: (A. Orsini, *L'eretico della sinistra, Bruno Rizzi elitista*)

(الأساندر (V. Cerroni, Milano, Franco Angeli Editore, 2004, p. 117 (democratico, introd.

أورسيني، اليساري الهراطوقي، برونو ريزي، الديمقراطي النخبوي).

(218) المكيافيليون، م س، ص 149.

(219) م ن، ص 150.

(220) م ن، ص 156.

(221) م ن، ص 161-162.

(222) روبرت ميتشلس، الأحزاب السياسية، م س، ص 33.

(223) م ن، ص 36.

(224) المكيافيليون، م س، ص 166. بالمقابل، يشير ميتشلس، في بعض النصوص المؤيدة

للفاشية، بشكل مباشر، إلى مكيافيلي انظر: فرانثيسكو توكاري، *القادة والنخب*

والجماهير، موضوع في تاريخ الفكر السياسي، م س، ص 152.

(225) الأحزاب السياسية، م س، ص 302.

(226) لا يعرض تحليل بورنهام، مع ذلك، لأسباب انتماء ميتشلس الحازم للفاشية (على عكس

موسكا، وحتى ياريتو). انظر: تحليل فرانثيسكو توكاري الذي يفسر انهيار ميتشلس

بـ «الزعيم الكارزمي»، الذي لا يعود إلى ارتباطه بنظرية النخب - وفقاً للتفسير

- المعروف - بل إلى مساره الفكري الشخصي المستند بشكل لافت إلى انتمائه الأول، إلى الأفكار الديمقراطية. (معضلات الديمقراطية الحديثة، م س، ص 315 وما يليها.
- (227) م ن، ص 193، انظر بخاصة: لوحة المراجعة § 151 من كتاب *المطول في علم الاجتماع العام*، م س، ص 67-68.
- (228) *المكيافيليون*، م س، ص 196.
- (229) م ن، ص 198.
- (230) م ن، ص 223.
- (231) يقلل بورغهام، هنا أيضاً، من أهمية الفروق الفكرية بين النظريتين.
- (232) م ن، ص 227-228.
- (233) يبدو هذا المظهر "المكيافيلي" أيضاً في الدراسات الإيطالية (D. Fiorot, *Il realismo politico di Vilfredo Pareto*, Milano, Edizioni di Comunità, 1969) (مثال: دينو فيوروت، *الواقعية السياسية لدى فيلفريدو باريتو*).
- (234) لقد أهملنا، هنا، الفصل الرابع من *المكيافيليون* المكرس لسوريل لسببين: أولاً يشير بورغهام نفسه إلى أن سوريل لا يمكن أن يعتبر، في كل الأحوال، مكيافيلياً لأنه يرفض «المنهجية العلمية»، ص 131. وسنرى لاحقاً، وبشكل خاص، أن سوريل قام بالدور الأقل أهمية، من بين جميع الكتاب الذين قدمهم بورغهام، في المسار الفكري لآرون. (إن ابتعاد سوريل هذا عن آرون قد تأكد من خلال شهادة جوليار الشخصية؛ (*préface à* (G. Sorel, *Réflexions sur la violence*, M. Prat (éd.), Paris, Seuil, 1990. (انظر: *أفكار حول العنف*).) وعلينا، مع ذلك ألا نسيء تقدير اهتمام آرون بسوريل، كما يظهر ذلك عنوان كتابه نفسه *نخبات التقدم* الذي يعتبر صدى لمؤلف سوريل (*Les illusions du progrès*, Paris, Marcel Rivière, 1908) (أو *وهم التقدم*).
- (235) *المكيافيليون*، م س، ص 251.
- (236) م ن، ص 254.
- (237) B. Croce, *La mia filosofia*, Milano, Adelphi Edizioni, 1993, p. 228-231. (بنديتو كروتشي، *فلسفتي*). نجد أفضل مناقشاته لدى إدوارد ماكن بـرنس في مقالة «ليبرالية مكيافيلي»، *مجلة انطاكية* المجلد الثامن، أيلول 1948. يدرس بـرنس علاقة مكيافيلي بالليبرالية، وفقاً لبورغهام: «فيعتبره ليبرالياً حقيقياً بسبب نزعته الجمهورية وإيمانه بتفوق القانون وإخلاصه للسعادة الوطنية وإدانتها لنظام الطغيان»، ص 322. يسلّم بـرنس بأن المقصود هنا أطروحات قريبة من الليبرالية؛ عليه، فإذا قبلنا أن الليبرالية تقوم على فكرة كانط بأن «الإنسان مخلوق يتمتع بكرامة لا يمكن معها أن يعامل على أنه أداة فقط»، ص 321. فعلياً أن نلاحظ أن مكيافيلي ليس ليبرالياً، إذ تميل مواقفه، أحياناً، بشكل أكبر إلى المذهب النفعي، ص 329-330.
- (238) جاك مارتان، «نهاية المكيافيلية»، مق س، ص 336.
- (239) G. Mounin, *Machiavel*, Paris, Seuil, 1958, p. 160. (جورج مونا مكيافيلي).

- É. Weil, «Machiavel aujourd'hui», *Critique IV* (1948). Désormais dans *Essais et* (240)
conférences, t. 2, Politique, Paris, Vrin, 1991, p. 189 sq.
 نجده الآن في مقالات ومحاضرات الجزء الثاني).
- (241) م ن، ص 195.
- (242) مقالات في المكيافيلية الحديثة، م س، ص 102.
- (243) R. Aron, *Introduction à la philosophie politique. Démocratie et révolution*, préf. J.-C. Casanova, Paris, Éditions de Fallois, 1997.
 (رعمون آرون، مدخل إلى الفلسفة السياسية. الديمقراطية والثورية).
- (244) م ن، ص 13.
- (245) المدخل إلى الفلسفة السياسية، م س، ص 13.
- (246) م ن، ص 36.
- (247) ديمقراطية وشمولية، م س، ص 54.
- (248) من المؤكد أن هذا النوع من الديمقراطية، لا يستبعد، مع ذلك، المساهمة الفعالة للمواطنين، ويمنح آرون، نفسه، أهمية خاصة لهذا الموضوع.
- (249) الديمقراطية والشمولية، م س، ص 57-58.
- (250) مدخل إلى الفلسفة السياسية، م س، ص 57.
- (251) أفيون المثقفين، ص 110.
- (252) *La lutte des classes. Nouvelles leçons sur les sociétés industrielles*. Paris, Gallimard, 1965, p. 163-164.
 (صراع الطبقات/دروس جديدة حول المجتمعات الصناعية).
- (253) م ن، ص 195.
- (254) م ن، ص 161.
- (255) لقد طور مفهوم "المقاومة" المكشوفة اجتماعياً، لاحقاً وبشكل واسع من قبل پيار بورديو الذي اتبع في ذلك، بورهام وآرون.
- (256) المكيافيليون، م س، ص 86.
- (257) صراع الطبقات، م س، ص 162.
- (258) M. Djilas, *La nouvelle classe dirigeante*, trad. M. Prudhommeaux, Paris, Plon, 1958, p. 131-132.
 (انظر: نقد آرون للمؤلف الشهير ميلوفان جيلاس الطبقة الحاكمة الجديدة، في ديمقراطية وشمولية). ينعت آرون مشروع جيلاس بأنه "مكيافيلي".
- (259) مدخل إلى الفلسفة السياسية، م س، ص 56.
- (260) ديمقراطية وشمولية، م س، ص 128.
- (261) م ن.
- (262) «Catégorie dirigeante ou classe dirigeante?» dans *Études sociologiques*, Paris, PUF, 1988, p. 188.
 («فئة حاكمة أم طبقة حاكمة؟» في دراسات اجتماعية).

- (263) م ن .
- (264) ثمانية عشر درساً حول المجتمعات الصناعية، م س، ص 86.
- (265) جيمس بورنهام، المكيافيليون المدافعون عن الحرية، م س، ص 178-180. انظر: حول هذه النقطة روبرت ميتشلس، الأحزاب السياسية، م س، الجزء الثالث، الفصل الثاني «الإيديولوجيا البونابرتية»، ص 147.
- (266) المكيافيليون، م س، ص 268. حول هذه النقطة، انظر: وبشكل أوسع، ص 267-273.
- (267) ثمانية عشر درساً حول المجتمعات الصناعية، م س، ص 87-88.
- (268) علينا، بكل تأكيد، أن نأخذ بالاعتبار حالة الحكام «غير الحكماء».
- (269) م ن، ص 89.
- (270) م ن، ص 90.
- (271) حول هذه النقطة، انظر: مراحل الفكر الاجتماعي، م س، ص 547.
- (272) «الطبقة الاجتماعية، الطبقة السياسية، الطبقة الحاكمة» في دراسات اجتماعية، م س، ص 152.
- (273) م ن، ص 155.
- (274) مراحل الفكر الاجتماعي، م س، ص 477.
- (275) م ن، ص 477-478.
- (276) ريمون آرون خيبات التقدم، بحث حول جدلية الحداثة، م س، ص 51.
- (277) «المكيافيلية، مذهب أنظمة الطغيان الحديثة»، في مكيافيلي وأنظمة الطغيان الحديثة، م س، ص 185.
- (278) مكيافيلي وأنظمة الطغيان الحديثة، م س، ص 72-73 (التشديد لنا).
- (279) المكيافيليون، م س، ص 78.
- (280) م ن، ص 8.
- (281) مكيافيلي، الأحاديث، م س، الكتاب الأول، الفصل الرابع، ص 390.
- (282) المكيافيليون، م س، ص 80.
- (283) م ن، ص 119.
- (284) م ن، ص 123.
- (285) م ن، ص 124-125 (التشديد لنا). ربما استند بورنهام إلى بعض تحليلات موسكا في كتابه مبادئ في علم السياسة، حيث نجد صدى لكتاب الأحاديث حول هذا الموضوع: «في كل الأحوال، كانت روما الجمهورية، الدولة القديمة التي تحقق فيها، بشكل أفضل، الدفاع القانوني، وكانت الحروب الأهلية فيها أقل دموية، بالنتيجة». ويشير موسكا إلى المشاغبات التي حركت حياة الجمهورية الرومانية، من دون أن تتحول إلى زمر (مبادئ في علم السياسة، م س، ص 782-783).
- (286) المكيافيليون، م س، ص 125-126. حول تطور موسكا (M. delle Piane, Gaetano) Mosca. Classe politica e liberalismo, Napoli, Edizioni scientifiche italiane, 1952,

(p. 296 sq.)/انظر: ماريو ديليه بيانته، غايتانو موسكا الطبقة السياسية والليبرالية.

(287) المكيافيليون، ص 273-274.

(288) م ن، ص 274.

(289) م ن، ص 275.

(290) مدخل إلى الفلسفة السياسية، م س، ص 72-73.

(291) م ن، ص 72.

(292) م ن.

(293) م ن.

(294) موسكا، مبادئ العلم السياسي، م س، ص 681.

(295) مدخل إلى فلسفة السياسة، م س، ص 77.

(296) م ن، ص 79.

(297) م ن.

(298) م ن، ص 80.

(299) مبادئ في علم السياسة، ص 692) بخاصة، حول أهمية «الدستور المختلط» لدى

موسكا)/انظر: نوربرتو بويو، «موسكا والحكم المختلط» في بحث حول العلم

السياسي في إيطاليا، م س، ص 201-219.

(300) المكيافيليون، م س، ص 126.

(301) مدخل إلى الفلسفة السياسية، م س، ص 121.

(302) م ن.

(303) م ن، ص 132.

(304) م ن، ص 133.

(305) حول هذه النقطة، انظر: م ن، ص 185-187.

(306) مدخل إلى الفلسفة السياسية، م س، ص 135.

(307) م ن، ص 136.

(308) م ن.

(309) م ن، ص 137.

(310) ديمقراطية وشمولية، ص 166، لا يقتصر آرون، مع ذلك، على هذا التعريف السلبي.

انظر: سيرج أوديه، ريمون آرون، الديمقراطية التنافسية، م س، ص 27 وما يليها.

(311) م ن.

(312) م ن، ص 176.

(313) م ن، ص 191.

(314) م ن، ص 342-343.

(315) ديمقراطية وشمولية، م س، ص 342-343.

(316) مراحل الفكر الاجتماعي، م س، ص 21-95.

- (317) غايتانو موسكا، *مبادئ في علم السياسة*، م س، ص 692-693، 986، 1040.
- (318) حول بعض عناصر نقد موسكا لمونتسكيو انظر: إتيان ألبرتوني، *الفكر السياسي لغايتانو موسكا*، م س، ص 96-99.
- (319) م ن، ص 138.
- (320) G. Mosca, *Histoire des doctrines politiques depuis l'Antiquité jusqu'à nos jours*, préf. (et trad. G. Bouthoul, Paris, Payot, 1936, p. 205-210). (موسكا، *تاريخ المذاهب السياسية منذ العصور القديمة حتى أيامنا هذه*).
- (321) م ن، ص 209.
- (322) م ن، ص 210.
- (323) م ن، ص 209.
- (324) *مراحل الفكر الاجتماعي*، م س، ص 42.
- (325) م ن.
- (326) م ن، ص 51.
- (327) م ن.
- (328) م ن، ص 53.
- (329) T. B. Bottomore, *Elite and Society*, New York, Basic Books, 1964 (توم ب. بوتومور، *نخب ومجتمع*)، تحمل هذه التحليلات تقاطعات مع رفض نظرية النخب التي قال بها بيتر باشراش (P. Bachrach, *The Theory of Democratic Elitism: A Critique*, Boston, Little, 1967) (Brown and co, 1967) *نظرية النخبوية الديمقراطية*. لنشر إلى أن هابرماس يدين بالكثير لباشراش في نقده المتسرع لنظريات النخب يورغن هابرماس (J. Habermas, *Raison et légitimité*, trad. J. Costes, Paris, Payot, 1973, p. 168) (العقل والشرعية).
- (330) م ن، ص 110.
- (331) م ن، ص 118-119.
- (332) «ألان والسياسة 1952»، في *دراسات سياسية*، م س، ص 75-84.
- (333) *مدخل إلى الفلسفة السياسية*، م س، ص 69.
- (334) م ن، ص 60.
- (335) *مدخل إلى الفلسفة السياسية*، م س، ص 61 (التشديد لنا).
- (336) حول الطريقة التي يركب فيها آرون الأنموذج المثالي المكيفلي مع مرجعية توكفيل، للتعبير عن التوترات بين «مساواة الواقع» و«مساواة الحق» (وفقا للأنموذج مثالي يمكن نعتة بالمكيفلي التوكفيلي)، انظر: سيرج أوديه، *توكفيل العائد*، م س، ص 86-121.
- (337) *مقالات حول المكيفلية الحديثة*، م س، ص 111.
- (338) م ن.
- (339) انظر: سيرج أوديه، *ريمون آرون الديمقراطية النزاعية*، م س، فصل أول.
- (340) *مكيفلي وأنظمة الطغيان الحديثة*، م س، ص 111.

- (341) م ن.
- (342) م ن.
- (343) مكياثيلي وأنظمة الطغيان الحديثة، م س، ص 111-112.
- (344) R. Aron, «Structure sociale et structure de l'élite», dans *Études sociologiques*, 142 (p. 112-113) (ريمون آرون، «البنية الاجتماعية وبنية النخبة» في دراسات اجتماعية). انظر أيضاً: «طبقة اجتماعية، طبقة سياسية، طبقة حاكمة»، مق س، ص 143-146.
- (345) «البنية الاجتماعية وبنية النخبة»، م س، ص 112.
- (346) م ن، ص 141.
- (347) انظر: «الطبقة الاجتماعية والطبقة السياسية، الطبقة الحاكمة»، ص 161-162.
- (348) المذكرات، م س، ص 339.
- (349) مدخل إلى الفلسفة السياسية، م س، ص 208.
- (350) سيستخدم هذا التعبير في كتاب أفرون المثقفين، ص 177، وبخصوص الماركسية: «متشائمة دفعة واحدة ومتفائلة بالتقسيم، فهي تنشر الإيمان الرومنطقي في خصوبة التغيرات».
- (351) مدخل إلى الفلسفة السياسية، م س، ص 223.
- (352) المكياثيليون المدافعون عن الحرية، م س، ص 55-58.
- (353) مدخل إلى الفلسفة السياسية، م س، ص 210.
- (354) م ن، ص 239.
- (355) م ن، كما سيوضح ذلك آرون في صراع الطبقات، ليس من سبب للتفكير في أن الخصومة بين الأفراد والجماعات "مرضية"، وأن من الأفضل إزالتها، م س، ص 119.
- (356) مدخل إلى الفلسفة السياسية، م س، ص 239.
- (357) *Introduction à la philosophie de l'histoire. Essai sur les limites de l'objectivité*, nouvelle édition revue et annotée par S. Mesure, Paris, Gallimard, 1986, p. 413. (مدخل إلى فلسفة التاريخ، مقال في حدود الموضوعية).
- (358) يتطرق آرون، في حديثه عن فيير، إلى فكرة سياسة الإدراك، في كتابه فلسفة التاريخ النقدية، م س، ص 260.
- (359) مدخل إلى فلسفة التاريخ، م س، ص 414.
- (360) علينا أن نذكر أنه في كتاب الفلسفة النقدية للتاريخ، تسمح «سياسة الإدراك، التي قال بها فيير، وفقاً لآرون، بتجنب الخيارين» «كل شيء يتكرر» أو «كل شيء متحدد دوماً»، ص 259. غير أنه، بمعنى ما، من الواضح أن علم اجتماع پاريتو يتطابق مع القسم الأول من الخيارين. ومن جهة أخرى، فإن التعارض الذي أدخله كتاب مدخل إلى فلسفة التاريخ، بين «سياسة الإدراك» و«سياسة العقل»، يقدم في جزء منه على أنه رد على «تشاؤم پاريتو»، ص 413. غير أن علينا أن نلاحظ أن آرون يشير هنا إلى المبادئ الأساسية لعلم اجتماع پاريتو وليس إلى الطريقة التي يتصور بها هذا الأخير عمل النخب.

(361) عرضت هذه الدراسة في *دراسات سياسية*، وهي تستعيد وتعمق السلسلة الثانية (1967) من برنامج محاضرات جيفوردز «De la conscience historique dans la pensée et dans l'action dans R. Aron, *Leçons sur l'histoire, Cours du Collège de France, édition, présentation et notes par S. Mesure*, Paris, Éditions de Fallois, 1989, p. 532 sq. (في الوعي التاريخي ضمن الفكر والعمل» في كتاب ريمون آرون *دروس حول التاريخ*، محاضرات كوليج دوفرانس).

(362) «مكيافيلي وماركس»، مق س، ص 60.

(363) م ن.

(364) B. Croce, *Materialismo storico ed economia marxista*, Roma-Bari, Laterza, 1951, p. 112. (بنديتو كروتشي، *المادية التاريخية والاقتصاد الماركسي*).

(365) «مكيافيلي وماركس»، مق س، ص 63.

(366) م ن، ص 64.

(367) م ن، ص 66.

(368) *مدخل إلى فلسفة التاريخ*، م س، ص 414.

(369) «مكيافيلي وماركس»، مق س، ص 66.

(370) يشتمل الدفتر الثالث عشر من *دفاتر السجن*، م س، على مراجع ذات أهمية حول

موسكا وميتشلس. حول هذه النقطة انظر: هومش كارمينو دونزيلي، في (A. Gramsci.

Quaderno 13. Noterelle sulla politica del Machiavelli, C. Donzelli (ed.), Torino,

24-25 p. (Einaudi, 1981) (أنتونيو غرامشي، *الدفتر 13، ملاحظات حول سياسة*

مكيافيلي). حول غرامشي، مكيافيلي ومنظرو النخب، انظر أيضاً: (A. R. Buzzi, *La*

théorie politique d'Antonio Gramsci, Louvain, Nauwelaerts, 1967, p. 236, p. 145-

161) (أ. ر. بوزي *النظرية السياسية لدى غرامشي*. ثم أشار إلى ذلك نوربرتو بويو

(N. Bobbio, «Gramsci e gli studi politici in Italia» in *Saggi su Gramsci*, Milano,)

87 sq (Feltrinelli, 1990) (غرامشي والدراسات السياسية في إيطاليا)، في بحث حول

غرامشي). حول هذه المسألة انظر (G. Galli, «Gramsci e le teorie delle "élites"» in

Gramsci e la cultura contemporanea, t. II, p. Rossi (ed.), Roma, Editori Riuniti, 1975,

201-216 p.) (جيورجيو غالي، «غرامشي ونظرية النخب»، في *غرامشي والثقافة*

المعاصرة). انظر أيضاً: (M. A. Finocchiaro, «Gramsci e Gaetano Mosca», in *Gramsci e*

l'Italia, R. Giacomini, D. Losurdo, M. Martelli (eds.), Napoli, La Città del Sole, 1994,

113-158 p.) (ماوريزيو فينوشيارو، «غرامشي وغايتانو موسكا»، في *غرامشي*

وإيطاليا).

(371) «مكيافيلي وماركس»، مق س، ص 67-68.

(372) م ن، ص 70.

(373) م ن، ص 72-73.

(374) م ن، ص 73.

(375) م ن، (التشديد لنا).

(376) م ن، (التشديد لنا).

(377) انظر بخاصة: (Pensée 121 éd. Lafuma des Pensées de Pascal) (الفكرة الشهيرة (121)

(منشورات لافوما أفكار بيسكال)، من الخطر أن نبين بوضوح للإنسان كم هو مساو للوحوش، من دون أن نوضح له عظمته، كما أن من الخطر أكثر أن نبين له عظمته من دون دناءته. نادرون هم الليبراليون مثل آرون، الذين استعانوا هكذا بيسكال. انظر: مع ذلك، أعمال الألماني فلهلم روبكه (W. Röpké) أكثر المفكرين الليبراليين قرباً من بيسكال. وهكذا يقارن روبكه بين "نفاؤل" روسو و"تشاؤم" بيسكال. ويشير إلى أن الليبرالي يؤمن تماماً، كما بيسكال، بعظمة الإنسان، كما يؤمن بدناءته» (La crisi del collettivismo, trad.) (أزمة الجماعية). لنشر أن نقد روبكه لـ "نفاؤل" روسو قريب من النقد الذي قدمه موسكا الذي عرفه خير معرفة.

(378) حول هذه النقطة (S. Mesure, Aron et la raison historique, Paris, Vrin, 1984). (انظر: سيلفي موزور، آرون والعقل التاريخي). وبدقة أكثر، وحول الفرضيات الفلسفية للتناقضات التي تمناها هنا: (A. Renaut, «Politique de l'entendement et politique de la raison. De Raymond Aron à Fichte», Cahiers de philosophie politique et juridique (Caen, PUC), 1989, p. 27-39) (ألان رنو سياسة الإدراك وسياسة العقل، من آرون إلى فيخته، دفاثر الفلسفة السياسية والحقوقية).

(379) سيلفي موزور، م ن، ص 55.

(380) انظر: الجزء الثاني من كتاب سيلفي موزور المكرس لـ «الفلسفة التعددية التاريخية»، ص 59.

(381) م ن، ص 54.

(382) حول النزعة التقدمية لدى آرون، انظر: سيلفي موزور، «الموضوعية النظرية والموضوعية العملية لدى ريمون آرون. من التاريخ إلى السياسة»، دفاثر الفلسفة السياسية والحقوقية، مق س، ص 22-23)

(383) «مكيافيلي وماركس»، مق س، ص 74.

(384) ننسى في الغالب، أن آرون وبعض الليبراليين في عصره لم يكونوا جميعاً من العقائدين المناهضين للماركسية، كما سيكون الحال لاحقاً. (انظر: مثلاً، في إيطاليا الليبرالي بانفيلو جنتيله الذي يشرح في كتابه لعام 1955 - P. Gentile, L'idea liberale, introd. T.) - (Amato, Soveria Mannelli, Rubbettino Editore, 2002, p. 71) (الفكرة الليبرالية) - أن على «المذهب الليبرالي أن يتعلم شيئاً من ماركس». يقول جنتيله: «علينا أن نؤكد أنه لا يمكن لليبراليين إلا أن يعتبروا أنفسهم ماركسيين. بمعنى ما»، مشيراً إلى نص كروتشي الشهير: (Perchè non possiamo non dirci cristiani, Bari, Laterza, 1943) (لماذا لا

نستطيع أن نفصح عن مذهبنا؟). (بقيت الليبرالية الإيطالية غير معروفة في فرنسا. ويفسر هذا العيب سوء الفهم المتكرر لهذه الموضوعات وينطبق الأمر كذلك على «الليبرالية الاشتراكية» و«الاشتراكية الليبرالية»: إن كاتباً مثل نوربرتو بوبيو ليس عقائدياً مناهضاً للماركسية، على عكس الفكرة السائدة في فرنسا. وتوضح ذلك مقدمة كتابه الذي يحمل عنوان: (N. Bobbio, *Né con Marx, né contro Marx*, C. Violi (éd.), Rome, Editio Riuniti, 1997)/«لست مع ماركس ولا ضده». إن تحويل «الاشتراكية الليبرالية» إلى أداة يسمح وحده بتجاوز تعقيد هذا التيار الذي من غير الممكن اختصاره في شعار ما مرمج.

(385) حول آرون و«الاشتراكية الليبرالية»، انظر: سيرج أوديه، ريمون آرون والديمقراطية النزاعية، م س، ص 61-88. نبين في هذا الكتاب ارتباطات آرون الشاب مع بعض التيارات ذات الإلهام «الاشتراكي الليبرالي». كذلك هو الأمر مع سلسلتان بوغليه الذي استخدم مثل ليون بورجوا التعبير عينه «الاشتراكية الليبرالية» (لنشر إلى أن التعبير والموضوع مهمان في مذهب رونوفييه (renouviériste) بخاصة لدى معلم بوغليه، هنري ميشيل. حول هذه النقطة، انظر: سيرج أوديه «تصور عن الدولة» الاشتراكية الليبرالية؟» كوربوس رقم 48 (2005). ونذكر بخاصة أن آرون قابل كارلو روسلي شخصياً لدى إيلي هاليفي، وأنه قرأ باهتمام أعمال هنري دُ مان (H. De Man) التي ساهمت في نشوء «الاشتراكية الليبرالية» بالرغم من أن دُ مان لم يكن «اشتراكياً ليبرالياً» بالمعنى الدقيق للكلمة، كما تشهد بذلك انحرافات السياسة والإيديولوجية الخطرة، والتي لم تكن عرضية فقط. ومع ذلك، نبين أن آرون، بالرغم من بعض ارتباطاته مع الاشتراكية الليبرالية، لا ينتمي إلى هذا التيار الفكري، باعتباره أكثر ميلاً لليبرالية منه إلى الاشتراكية.

هوامش الفصل الثاني

- (1) تقع مسألة المكيافيلية، أيضاً، في صلب تساؤلات سارتر حول الشيوعية، وحول مسألة الغاية والوسائل، وحول دور الكاتب، انظر: محاضرة 1946 (*La responsabilité de l'écrivain*, Paris, Verdier, 1998, p. 48, 50, 58.)/«مسؤولية الكاتب».
- (2) Merleau-Ponty, *Humanisme et terreur. Essai sur le problème communiste*, (Introduction C. Lefort, Paris, Gallimard, 1980 [1947], p. 39-79.)/«ميرلو - بونتي النزعة الإنسانية والرعب، بحث حول المشكلة الشيوعية، مقدمة كلود لوفور».
- (3) Merleau-Ponty, «La guerre a eu lieu» (1945), dans *Sens et non-sens*, Paris, Gallimard, [1948] 1996, p. 182.)/«وقعت الحرب» (1945)، في كتاب المعنى واللامعنى.
- (4) لقد نسق ميرلو - بونتي، بشكل حقيقي، مفهوم «الممارسة» في كتابه *مغامرات الجدلانية* الذي يقوم عليه فهمه للماركسية ماركس في كتابه *النزعة الإنسانية والرعب*. انظر

- بخاصة: «إن كلية عبارة «بكل الوسائل» المرحة، لا تمت بصلة إلى الماركسية. فعلينا أولاً أن نلاحظ أن صنفى "الغايات" و"الوسائل" غريين تماماً عن الماركسية، ص 232.
- (5) «وقعت الحرب»، م س، ص 182 (التشديد لنا)
- (6) (Note sur Machiavel) (1949), dans *Signes*, Paris, Gallimard, 1960, p. 283. «مذكرة حول مكيافيلي» (1949) في رموز).
- (7) «وقعت الحرب»، م س (التشديد لنا)، ص 173.
- (8) *النزعة الإنسانية والرعب*، م س، ص 171.
- (9) م ن، ص 206.
- (10) م ن، ص 207، انظر بخاصة: «تحليلات ماركس التي تؤكد أن مكيافيلي وكامبانيلا أولاً، ثم سبينوزا وهوبس وهوغو غروتويس، وحتى روسو وفيخته وهيجل، قد بدأوا النظر إلى الدولة بعيون بشرية، وعرضوا قوانينها الطبيعية بناء على العقل والتجربة» (*Rheinische Zeitung*, 14 juillet, dans *K. Marx, Œuvres, III, Philosophie*, M. Rubel (éd.), Paris, Gallimard, 1842, 219 (صحيفة الراين 14 تموز 1842 في ك ماركس، الأعمال (3) الفلسفة، مكسيميليان روبيل (محرر) باريس غاليمار، ص 219. انظر أيضاً: حكم إنجلترا على عصر النهضة في كتابه (*Introduction à la Dialectique de la nature*, Paris, Éditions Sociales, 1952, p. 31)) (مدخل إلى جدلية الطبيعة): «كان مكيافيلي رجل دولة ومؤرخاً وشاعراً، كما كان الكاتب العسكري الأول الجدير بهذا الاسم في العصور الحديثة». ونشير إلى أن هذه الأحكام تتعارض مع أحكام پرودون حول مكيافيلي.
- (11) *النزعة الإنسانية والرعب*، م س، ص 225.
- (12) Merleau-Ponty, *Phénoménologie de la perception*, Paris, Gallimard, p. 456 (ميرلو - بونتي، فينومينولوجيا الإدراك).
- (13) *النزعة الإنسانية والرعب*، م س، ص 194-195.
- (14) م ن، ص 307.
- (15) «مذكرة حول مكيافيلي»، مق س، ص 275.
- (16) منهج يدعونا ميرلو - بونتي نفسه إلى اتباعه، كما ورد لاحقاً في مقدمة *مغامرات الجدلية*: «طالما أن علينا أن نتفادى، في الفلسفة السياسية، «المظهر المزيف للمؤلفات المنهجية التي تنشأ، كما غيرها، من تجربتنا، إلا أنها تدعي أنها نتجت من العدم، وتبدو بذلك، وفي اللحظة التي تلتحق فيها بمشكلات الحاضر، أنها تهرن على تدخل السماء حين تقتصر على اكتشاف أصولها بطريقة علمية» (*Les aventures de la dialectique*, Paris, Gallimard, 1955, p. 7) (مغامرات الجدلية).
- (17) انظر بخاصة: *النزعة الإنسانية والرعب*، م س، ص 125-134.
- (18) Merleau-Ponty, «*Psycho-sociologie de l'enfant*», dans *Merleau-Ponty à la Sorbonne*, Paris, Cynara, 1988, p. 276. (ميرلو - بونتي، «علم الاجتماع النفسي للطفل»، في ميرلو - بونتي في السوربون).

- (19) «الوعي واكتساب اللغة»، في ميرلو - بونتي في السوربون، م س، ص 86.
- (20) «البطل، الإنسان»، في المعنى واللامعنى، ص 22.
- (21) وفقاً للعبارة الموقفة التي استخدمها بول فالادييه (P. Valadier) في كتابه (Machiavel et) «مذكرة حول ميكافيلي» (la fragilité du politique, Paris, Seuil, 1996).
- (22) «وقعت الحرب»، م س، ص 180.
- (23) «مذكرة حول ميكافيلي»، م س، ص 281.
- (24) «وقعت الحرب»، م س، ص 170.
- (25) «Le manifeste communiste a cent ans», *Le Figaro littéraire*, avril 1948, p. 1-2, dans Merleau-Ponty, *Parcours 1935-1951*, Paris, Verdier 1997, p. 103-10 «مضت مئة عام على البيان الشيوعي» في ميرلو - بونتي، مسارات، 1951-1935).
- (26) م ن، ص 107.
- (27) النزعة الإنسانية والرعب، م س، ص 306.
- (28) «مذكرة حول ميكافيلي»، م س، ص 281.
- (29) رفض ميرلو - بونتي تشخيص بورنهام المتعلق ببيروقراطية العالم الحديث. انظر: الحوار مع بيار فوجيرولاس، حيث يسأل ميرلو - بونتي: «لِمَ هناك حتمية بيروقراطية وسماعية؟» (P. Fougeyrollas «L'avenir du socialisme», *Cahiers de la république* [1959] dans) (Merleau-Ponty, *Parcours deux*. 1951-1961, Paris, Verdier, 2000, p. 245 «مستقبل الاشتراكية»، *دفاتر الجمهورية* [1995]، في ميرلو - بونتي المسار الثاني 1961-1951، م س، ص 245.
- (30) «مذكرة حول ميكافيلي»، م س، ص 283.
- (31) م ن، حول كونية فكرة ميرلو - بونتي في الاعتراف، انظر: (J. Hyppolite, «Le phénomène de la "Reconnaissance Universelle" dans l'expérience humaine» dans *Figures de la pensée philosophique, t. II*, Paris, PUF, 1991, p. 249-253) «جان هيوليت، ظاهرة "كونية الاعتراف" في التجربة البشرية» في *أعلام من الفكر الفلسفي*).
- (32) ميرلو - بونتي، مقدمة رموز، م س، ص 18.
- (33) م ن، ص 19.
- (34) م ن، ص 47.
- (35) *Umanesimo e scienza politica*, E. Castelli (ed.), Milano, Carlo Marzorati Editore, 1951, p. 297-308. (النزعة الإنسانية والعلم السياسي) يشتمل الكتاب على مساهمات فرنسية، بخاصة يانكيلفيتش وهيوليت ولوسين ورونوديه، وهو يتموضع ضمن سياق تحديد التساؤلات حول موضوع «ميكافيلية» ميكافيلي، حتى لو لم يكن السؤال جديداً، في ذلك الحين. (انظر على سبيل المثال: L. Bizzari, *Machiavelli antimachiavellico*, Firenze, La Nuova Italia 1940) (إدواردو بيزاري، ميكافيلي ضد ميكافيلي).

(36) Les Temps modernes, n°48, 1949, p. 577-593 (مجلة الأزمنة الحديثة).

(37) م ن، ص 297، انظر: حول هذا الموضوع جيوفاني إنفيتو (في كتابه G. Invito, Merleau-Ponty)

(e la filosofia come vigilanza, Lecce, Edizioni Milella, 1981, p. 113. (ميرلو - بونتي

وفلسفة اليقظة).

(38) انظر: رونوديه، مكيافيلي، م س. لنذكر أن ميرلو - بونتي يورد فقرات من الأحاديث

بالعودة الصريحة إلى الترجمة التي اعتمدها رونوديه. وحول تفسير هذا الأخير، انظر:

التقدم والنقاش القاسي الذي قام به لوفسور (Le travail de l'œuvre Machiavel, Paris,)

(Gallimard, 1972, p. 178-190) (تأثير مؤلفات مكيافيلي).

(39) S. Weil, «Un soulèvement prolétarien à Florence au XIV e siècle», La critique sociale,

n°11, mars 1934, désormais dans Œuvres complètes, t. II, Écrits historiques et

politiques, vol. 1, L'engagement syndical (1927-juillet 1934), établi et annoté par G.

(Leroy, p. 334-350) (سيمون فيل، «انتفاضة بوليتارية في فلورنسا القرن الرابع عشر،

النقد الاجتماعي» في الأعمال الكاملة الجزء الثاني الكتابات التاريخية والسياسية الجزء

الأول، الالتزام النقابي، تستحق هذه الدراسة الذكر، بشكل خاص، إذا علمنا أن

لوفور منح لاحقاً أهمية أكبر لنص مكيافيلي هذا حول عصيان تشيوميبي (Ciompi).

(40) لويس دُ فيلفوس، مكيافيلي ونحن، م س، ص 93. يشير بيار مسنار، من جهته، إلى أن

مكيافيلي «يرى في صراع الشعب ضد مجلس الشيوخ، ثم في صراع خطباء الشعب ضد

القناصل، مصدر الحرية الرومانية، بالرغم من كل التطرف وكل العنف، وهو أيضاً

المحرض على قيام الجمهورية وحياتها ذاتها. إننا أمام مفهوم سوريل حول التعارضات

الخصبة والنزاع الضروري الذي لا يحدث، من دون قدر من العظمة المأساوية (انطلاقة

الفلسفة السياسية في القرن السادس عشر، م س، ص 61). انظر: E. Janni,)

(Machiavelli [1927], Milano, dall'Oglio, 1989, p. 289-290) (أثوره ياني، مكيافيلي

[1927])؛ وانظر: أيضاً (G. De Ruggiero, Storia della filosofia, part. III, Rinascimento,)

(rifirma e controriforma, Bari, Laterza, 1950, p. 65) (انظر غيدو دُ رجيريو، تاريخ

الفلسفة، القسم الثالث، النهضة والإصلاح والاصلاح المضاد). يعتبر بيرو غوبيتي

(P. Gobetti) منشط مجلة الثورة الليبرالية في إيطاليا، الفيلسوف الذي فهم بدرجة عالية

من الوضع التطورات المكيافيلية حول خصوبة النزاع. لا يغيب هذا الاهتمام بموضوعة

النزاع عن أهم توجهات الليبرالية النزاعية التي دافع عنها هذا الفيلسوف. ويأتي من هنا

أيضاً حكمه المعقد على الماركسية: فإذا هو رفض مظاهرها الحتمية، إلا أنه قد وافق،

بالمقابل على تحليلها للصراع الطبقي. ويرى غوبيتي، أن ليبرالياً، مثل كروتشي، قد

أخطأ في رفض المفهوم الماركسي للصراع الطبقي. ويعتبر هذا النقد صحيحاً، بالتأكيد،

في مواجهة الفهم الغيبي، ذي الطبيعة المثالية الهغلية، الذي يؤمن بالزوال النهائي

للطبقات. ولا يعتبر هذا النقد ملائماً للتعبير عن الحقيقة الفعلية للمجتمعات الحديثة،

حيث يقوم النزاع السياسي والاجتماعي بدور جوهري في بزوغ الحرية.

- (41) «مذكرة حول مكيافيلي»، م س، ص 267.
- (42) الأمير، الفصل الخامس والعشرون، م س، ص 345.
- (43) «مذكرة حول مكيافيلي»، م س، ص 267.
- (44) الأمير، الفصل الرابع عشر، م س، ص 332.
- (45) «مذكرة حول مكيافيلي»، م س، ص 271.
- (46) الأمير، الفصل التاسع، م س، ص 317: «أضف إلى ذلك أننا لا نستطيع أن نرضي، بطريقة مشرقة، الكبار من دون الإساءة إلى الآخرين. غير أن من الممكن، بكل تأكيد أن نقوم بذلك مع الشعب: لأن هدف الشعب أكثر شرفاً من هدف الكبار، إذ يسعى هؤلاء إلى الاضطهاد، فيما يرغب الشعب في تجنبه».
- (47) الأمير، الفصل العشرون، م س، ص 325.
- (48) «مذكرة حول مكيافيلي»، م س، ص 269.
- (49) م ن، ص 271.
- (50) الأمير، الفصل الثالث والعشرون، م س، ص 361.
- (51) «مذكرة حول مكيافيلي»، م س، ص 271.
- (52) م ن، ص 267-268.
- (53) انظر: الأمير، الفصل العاشر، م س، ص 321-322.
- (54) م ن. (يستعيد هنا ميرلو - بونتي، كما في مكان آخر، ترجمة للنص الإيطالي، فيها الكثير من التصرف).
- (55) ميرلو - بونتي «الطفل في نظر البالغ» في ميرلو - بونتي في السوربون، م س، ص 90 (التشديد لنا).
- (56) م ن.
- (57) انظر: رونوديه، مكيافيلي، م س، الفصل الرابع والخامس.
- (58) «مذكرة حول مكيافيلي»، م س، ص 280.
- (59) رسالة مكيافيلي إلى فرانثيسكو قتوري، العاشر من كانون الأول (1513) انظر: الأعمال الكاملة، م س، ص 1436.
- (60) «مذكرة حول مكيافيلي»، م س، ص 280.
- (61) فينومينولوجيا الإدراك، م س، ص 415.
- (62) م ن، (التشديد لنا).
- (63) «مذكرة حول مكيافيلي»، م س، ص 280-281.
- (64) م ن، ص 272.
- (65) ميرلو - بونتي، «الحركة الفلسفية الحديثة» (1946)، في مسارات (1935-1951)، م س، ص 66.
- (66) انظر: إريس ماريون يونغ، «العدالة وسياسة الفروق»، م س، ومع ذلك، فإن معالجة ميرلو - بونتي لهذا الموضوع لا تخضع للفرضيات نفسها.

- (67) Merleau-ponty, «Les relations avec autrui chez l'enfant», dans *Parcours* 1935-1951, (p. 161) (ميرلو - بونتي «علاقات الطفل بالآخرين» في مسارات، 1951-1935).
- (68) J.-P. Sartre, *Réflexion sur la question juive*, Paris, Gallimard, 1954, p. 178 (جان بول سارتر، حول المسألة اليهودية).
- (69) «مذكرة حول مكيافيلي»، ص 278.
- (70) م ن، ص 279.
- (71) *فينومينولوجيا الإدراك*، م س، ص 409-410.
- (72) «المنهجات في علم نفس الطفل» في ميرلو - بونتي في السوربون، م س، ص 466.
- (73) م ن، ص 467.
- (74) م ن، ص 472.
- (75) لقد عمق لوفور هذه التساؤلات حول التربية. انظر: (1979) «Formation et autorité» (1992) (dans *Écrire à l'épreuve du politique*, Paris, Calmann-Lévy, 1992) «التأهيل والسلطة» (1979) في الكتابة في امتحان الشأن السياسي؛ انظر: النقد البارغ في كتاب الخطابات التحريرية المزيفة التي تتطلب، من وجهة نظر لوفور، هدم كافة العلامات الرمزية.
- (76) «مذكرة حول مكيافيلي»، م س، ص 275.
- (77) م ن.
- (78) م ن.
- (79) حول هذه النقطة «الحركة الفلسفية الحديثة» مقابلة مذكورة، ص 68. «اتفق تماماً مع إسارتر في تعريف الإنسان من خلال عدد من التناقضات، مثل تناقض الوعي والهدف، ومن أجل الذات، وفي الذات، أو تناقض من أجل الذات ومن أجل الآخرين. ويختلف توجهي عن توجهه لأنه يرى باستحالة تجاوز هذه التناقضات الأساسية». وحول التعارض بين ميرلو - بونتي وسارتر في ما يتعلق بهذه المسائل: A. de Waelhens, *Une philosophie de l'ambiguïté. L'existentialisme de Maurice Merleau-Ponty*, Louvain, (Nauwelaerts, 1978, p. 250, sq) (انظر: ألفونس دُ فايلهنس، فلسفة الغموض، وجودية موريس ميرلو - بونتي).
- (80) «مذكرة حول مكيافيلي»، م س، ص 268.
- (81) من أجل تحليل هذه العبارة الشهيرة، انظر: فرانسيس جينسون (F. Jeanson, *Le problème moral et la pensée de Sartre*, préf. J.-P. Sartre, Paris, Seuil, 1965, p. 213-216. (المشكلة الأخلاقية وفكر سارتر. يرى سارتر أنه قد أسيء فهم هذا التأكيد (Un théâtre de situations, M. Contat et (M. Rybalka (éd.), Paris, Gallimard, 1973) (انظر: مسرح المواقف): «مهما كانت حلقة الجحيم التي نعيش فيها، اعتقد أننا قادرون على كسرها»، ص 238.
- (82) لقد صاغ سارتر هذه الأولوية بوضوح «إن النزاع، هو المعنى الأصلي للكائن - من أجل الآخرين»، *الوجود والعلم*، باريس، غاليمار، 1943، ص 431.
- (83) «الوجودية عند هيجل»، في *المعنى واللامعنى*، ص 86.

- (84) «مذكرة حول مكيافيلي»، م س، ص 268.
- (85) «الوجودية عند هيجل»، م س، ص 85.
- (86) *فينومينولوجيا الإدراك*، م س، ص 408.
- (87) انظر: حول هذه النقطة فرانسيس جينسون، *المشكلة الأخلاقية وفكر سارتر*، م س، بخاصة ص 214 وما يليها.
- (88) *فينومينولوجيا الإدراك*، م س، ص 414-415.
- (89) انظر: التحليلات حول السادية في كتاب *الوجود والعدم*، م س، ص 449-450.
- (90) «مذكرة حول مكيافيلي»، م س، ص 268.
- (91) «العلاقات مع الآخر لدى الطفل»، في *ميرلو - بونتي في السوربون*، م س، ص 322. والتعارض هنا واضح مع سارتر أيضاً.
- (92) م ن، ص 350.
- (93) «مذكرة حول مكيافيلي»، م س، ص 273.
- (94) *فينومينولوجيا الإدراك*، م س، ص 511.
- (95) م ن.
- (96) م ن، ص 511-512.
- (97) «وقعت الحرب»، مق س، ص 175.
- (98) «العلاقات مع الآخرين لدى الطفل»، في *ميرلو - بونتي في السوربون*، م س.
- (99) م ن، ص 319.
- (100) *النزعة الإنسانية والرعب*، م س، ص 152-153.
- (101) م ن، ص 133.
- (102) «مذكرة حول مكيافيلي»، م س، ص 272.
- (103) وفقاً لفرضية كروتشي: (B. Croce, *Etica e politica*, Roma-Bari, Laterza, 1945, p. 251)
(*الأخلاق والسياسة*)؛ (Storiografia e idealità morale, Roma-Bari, Laterza, 1950,)
(p. 153-166) (*علم التاريخ والمثالية الأخلاقية*). ومن أجل تحليل متوازن لشرح كروتشي لمكيافيلي، انظر: (V. Masiello, *Classi e stato in Machiavelli*, Bari, Adriatica)
(*فتيليو ماسيليو، الطبقات والدولة عند مكيافيلي*). Editrice, 1971, p. 13 sq
- (104) «مذكرة حول مكيافيلي»، م س، ص 273.
- (105) م ن.
- (106) *الأمير* الفصل السابع عشر، ص 338-339، «يعتبر سيزار بورجيا قاسياً غير أن قمسوته أعادت بناء روما ووحدها، وأعادتها إلى السلام والثقة».
- (107) أغوسطين رونوديه، *مكيافيلي*، م س، ص 273، ما يليها.
- (108) *النزعة الإنسانية والرعب*، م س، ص 74-75.
- (109) م ن، ص 539: «يجب على الأمير أن يفرض الخوف كي لا يكون مكروهاً إذا لم يكن محبوباً».

- (110) «مذكرة حول مكيافيلي»، م س، ص 269.
- (111) «فينومينولوجيا الإدراك»، م س، ص 344.
- (112) م ن.
- (113) «العلاقات مع الآخرين لدى الطفل»، م س، ص 228. وحول تحليلات ميرلو - بونتي حول الحب - الذي يدين بالكثير منها لآلان - انظر: *Le primat de la perception*, Paris, Verdier, 1996, p. 70-71 (أولية الإدراك). يستخدم ميرلو - بونتي، أيضاً، مصطلح «الثقة» الذي يظهر في «مذكرة حول مكيافيلي» (مع مصطلح "نقد الثقة") في حديثه عن الحب لدى البالغ المدعوم بحنان موثوق. («الإنسان والعداوة» رموز)، م س، ص 289 (التشديد لنا).
- (114) «مذكرة حول مكيافيلي»، م س، ص 274.
- (115) Merleau-Ponty, *La structure du comportement*, Paris, PUF, 1990 (1^{re} éd. 1942), p. 187 (ميرلو - بونتي (بنية السلوك)).
- (116) «مذكرة حول مكيافيلي» م س، ص 275.
- (117) «النزعة الإنسانية والرعب»، م س، ص 61-62.
- (118) (51، 22، 15، 14. p. نعرف أن ديدرو يعرف الممثل بفقدان الإحساس، أي «بالاستعداد المتساوي للقيام بكافة الشخصيات والأدوار» (Mille et une nuit, 1999, p. 12) (المفارقة حول الممثل) ويظهر تعبير "أشباح"، مرات عدة في كتاب *المفارقة*، ص 14، 15، 22، 51.
- (119) علينا ان نشير، إلى جانب بعض الروابط المؤكدة، إلى أن هذا الإلحاح على البعد المخيالي للسياسة يميز ميرلو - بونتي، بشكل واضح، عن توصيف آرنلدت للخير العام باعتباره خيراً للملا. تلح آرنلدت بقوة، في الفصل الخامس من *شروط الإنسان الحديث* (ترجمة فراديه Fradièr) وتقدم بول ريكور (P. Ricoeur)، باريس، كالمان ليقي (1983) على مسألة حيز العلن الذي يسمح «يكشف الفاعل في القول والفعل»، ص 231. وعلى العكس من ذلك، يظهر كتاب «مذكرة حول مكيافيلي» أن الأمير لا يظهر على الإطلاق أنه فرد متفرد كاشف عن ذاته، بل باعتباره صورة متخيلة.
- (120) «Structure et conflits de la conscience enfantine», dans Merleau-Ponty à la Sorbonne, p. 226 («بنية الوعي الطفولي ونزاعاته»، في ميرلو - بونتي في السوربون).
- (121) انظر حول هذا الموضوع: 34، 55، p. *Les Dieux*, Paris, Gallimard, 1958، يشير ميرلو - بونتي إلى «الطابع السحري» للعلاقات البشرية. («بنية الوعي الطفولي ونزاعاته»).
- (122) م ن، ص 233.
- (123) J.-P. Sartre, *Esquisse d'une théorie des émotions*, Paris, Hermann, 1975 1^{re} éd. 1938. (جان بول سارتر، *المخطط العام لنظرية الانفعالات*). انظر بخاصة: الإحالة إلى آلان، ص 38. وحول أهم موضوعات *المخطط العام* انظر: فرانسيس جينسون *المشكلة الأخلاقية وفكر سارتر*، م س، ص 39-54) وحول السلوك السحري، انظر أيضاً: ص 228-229. إن دين سارتر لآلان، في هذا النص كبير جداً.

- (124) «بنية الوعي الطفولي ونزاعاته»، م س، ص 228.
- (125) الأمير، الفصل الثامن عشر، ص 343: «كل منا يرى ما تبدو عليه، والقليل يدرك ما تكون، ولا يجزؤ هذا القليل على معارضتها، تلك الكثرة التي تملك جلال الدولة، من أجل الدفاع عنها.
- (126) فينومينولوجيا الإدراك، م س، ص 374.
- (127) «بنية الوعي الطفولي ونزاعاته»، م س، ص 230.
- (128) م ن، ص 231.
- (129) فينومينولوجيا الإدراك، م س، ص 343.
- (130) م ن، من أجل شرح أدق لهذه التحليلات، انظر: ألفونس د فايلهنس، فلسفة الغموض، م س، ص 210.
- (131) من هنا تأتي أفكار سارتر حول الفرق بين السينما والمسرح. يلح سارتر على البعد الذي يظهر فيه الممثل: فيما أستطيع، في السينما، الاندماج مع هذه الشخصية أو تلك، فإن بعداً مطلقاً يحل محل هذا كله في المسرح. وهكذا، «إن الآخر في المسرح لا ينظر إلي أبداً، وإذا ما نظر إلي مصادفة، فإن الممثل والمخيال يزولان عندئذ». يوضح سارتر أن «الممثل بعيد لدرجة أستطيع معها، في الوقت ذاته، أن أراه، فيما لا أستطيع أن ألمسه ولا التأثير فيه» («الأسلوب الدرامي» [1944] في كتاب مسرح المواقف، م س، ص 28). يقوم الفرق بين سارتر وميرلو - بونتي على أن الأخير يجهد في تحليل العمل الأسطوري للأمير من خلال إعادة النظر بالطريقة التي يعرض بها سارتر الفرق بين الحقيقي والمختل. وتأخذ إعادة النظر هذه أهمية متنامية في بعض هوامش المرنى واللا مرنى: «يعادل صمت الإدراك سلوكاً من الحديد لا أستطيع أن أتحدث عن ماهيته، ولا عن عدد جوانبه. وهو مع ذلك حاضر (يتعرض للنقض هنا المعيار نفسه لما يمكن ملاحظته، وفقاً لسارتر وكذلك معيار المخيال وفقاً لألان في الإدراك) (المرنى واللا مرنى، م س، ص 322. يلمح ميرلو - بونتي إلى نقاش سارتر لألان حيث يشرح سارتر، في حديثه عن مثال المجمع الإلهي الشهير، بأن ليس بإمكان المجمع الإلهي الظهور لوعي يستخدم الخيال بالطريقة التي يظهر فيها الوعي الإدراكي (L'imaginaire, Paris, Gallimard, 1986, p. 174 - المخيال). وليس مستبعداً حول هذه النقطة أن يتذكر ميرلو - بونتي القارئ المواظب على آلان (كما سارتر، هذه المناسبة) - بعيداً عن نقده لنظرية المعرفة وتصوره للمخيال - التمييز الأساسي الذي قام به آلان بين النظر واللمس - وهو تمييز قام عليه كتاب *Système des Beaux-arts*، (نظام الفنون الجميلة)، وتم استخدامه في تصور كتاب *Les Dieux*. انظر: بخاصة، «مصادر الأسطورة الطفولية»، في كتاب *Les Dieux*، م س، ص 219-257. يستند آلان نفسه إلى مين دو بيران (Maine de Biran، ص 33) الذي يعتمد على بيركلي (Berkley). إن موضوع البعد يعتبر رئيساً بشكل أوسع في نظرية المخيال التي صاغها آلان.

(132) «مذكرة حول مكيفيالي»، م س، ص 274.

- (133) م ن.
- (134) الأمير، الفصل الثامن عشر، ص 342. يكتب ميرلو - بونتي، مقتبساً نصف هذه الجملة، ص 274 «على الأمير أن يمتلك الصفات التي يبدو أنه يملكها، كما يقول مكيافيلي. غير أنه ينهي قائلاً: "وأن يبقى سيد نفسه بشكل كافٍ، كي يعرض تناقضاتها، حين يكون ذلك حلاً"».
- (135) انظر: الإحالة إلى سارتر في كتاب «المفارقة حول الممثل» في المخيال، م س، ص 367.
- (136) فينومينولوجيا الإدراك، م س، ص 121-122.
- (137) تجربة الآخرين، في ميرلو - بونتي في السوربون، م س، ص 56.
- (138) يشير ديدرو إلى أن تحليلاته حول الممثل تنطبق على رجل السياسة، الذي عليه أيضاً أن يبقى حبيس أحاسيسه، وأن يستطيع تغيير دوره: «يقع الإنسان الحساس، بكثرة، تحت تأثير حجاب الحاجز لدرجة لا يمكنه معها أن يصبح ملكاً وسياسياً عظيماً وقاضياً عظيماً ورجلاً عادلاً وملاحظاً دقيقاً، م س، ص 72.
- (139) «مذكرة حول مكيافيلي»، م س، ص 274-275.
- (140) تجربة الآخرين، ص 563. لنشر إلى أنه في كتاب المفارقة يلح ديدرو على الطابع "المضاعف" للممثل، ويشير في حديثه عن الممثلين الذين اعتمدوا المهنة بعد حياة "عابثة" أو "فاشلة"، إذ تعرضوا للطرْد: «لقد ازدراهم الجمهور الذي لم يستطع التخلي عنهم»، م س، ص 65.
- (141) «الطفل في نظر البالغ» في ميرلو - بونتي في السوربون، م س، ص 104.
- (142) بنية السلوك، م س، ص 183-184.
- (143) «وقعت الحرب»، مق س، ص 173-174.
- (144) م ن، ص 174.
- (145) «مذكرة حول مكيافيلي»، م س، ص 275.
- (146) النزعة الإنسانية والرعب، م س، ص 126.
- (147) م ن، ص 84 (التشديد لنا).
- (148) م ن، ص 65.
- (149) انظر: دُ فيلفوس، م س، ص 221-233، «مكيافيلي وریشوليو»؛ L. Couzinnet, *Le "Prince" de Machiavel et la théorie de l'absolutisme*, Paris, Éditions Rousseau, 1910. (لويس كوزيني، "الأمير" من مكيافيلي إلى الحكم المطلق).
- (150) «مذكرة حول مكيافيلي»، م س، ص 269. يمكننا أن نتوجه باللوم إلى هذا التحليل لأنه لم يميز بين مسألة شرعية السلطة ومسألة العدالة وفقاً لمعيار عام. ولقد قامت قراءة لوفور بهذه المهمة بشكل أفضل.
- (151) «في كل مكان وفي أي مكان» في رموز، م س، ص 164.
- (152) م ن، ص 164-165.
- (153) مقدمة رموز، م س، ص 47.

Merleau-Ponty, «La philosophie aujourd'hui. Cours de 1958-1959» dans *Notes de cours, 1959-1961, texte établi par S. Ménéasé*, préf. C. Lefort, Paris, Gallimard, 1966, p. 40. (ميرلو - بونتي «الفلسفة اليوم» محاضرات 1958-1959 في المحاضرات 1959-1961، أعد النص سستيفاني مينازي وتقلسم كلود لوفور.

(155) «وقعت الحرب»، مق س، ص 169.

(156) م ن، ص 174.

(157) *فينومينولوجيا الإدراك*، م س، ص 335.

(158) م ن.

(159) استدعى ميرلو - بونتي مفهوم الأسطورة هذا في مقاله «مئة عام مضت على البيان الشيوعي» للإشارة إلى الفاشية والنازية (مق س، ص 107.

(160) «وقعت الحرب»، مق س، ص 175 (التشديد لنا).

(161) «الطفل في نظر البالغ»، في ميرلو - بونتي في السوربون، م س، ص 159.

(162) إن التحليل السارترى للنزعة المعادية للسامية ذو دلالة، في هذا المقام، فهو يعتبرها سلوكاً تخيالياً يسقط "أسطورة" اليهودي على النزاع الاجتماعي الذي يمزق المجتمع. *حول المسألة اليهودية*، م س، ص 180. من اللافت أن سارتر لا يرى، من أجل إلغاء هذا المخيال المعادي للسامية، مخرجاً سوى تغيير هذا الاستلاب في واقع المصادر الاقتصادية والاجتماعية. ونكتشف هنا إذاً إلى أي درجة يقتصر التحليل، وفقاً لمنظور ماركسي أعيد تفسيره في ضوء مكتسبات فينومينولوجيا الخيال - على ظاهرة ناتجة من استلاب أكثر عمقاً. لا نجد هنا بداية لدراسة وضعية الخيال.

(163) يفتح ميرلو - بونتي طريقاً مختلفة تماماً عن تلك التي فتحها علم اجتماع بورديو (Bourdieu) «ما بعد الماركسي». وذلك من خلال الأهمية الممنوحة للمخيال السياسي باعتباره استعادة للنزاع وشرط إنتاجه في آن معاً - وذلك مهما كان الجهد الذي بذله بورديو من أجل إعادة النظر بالماركسية من خلال مفهوم «السلطة الرمزية». ويبدو مؤكداً أن بورديو يلتحق، بشكل جزئي، بقراءة ميرلو - بونتي لمكيافيلي حيث يشير، من خلال العودة إلى بسكال، إلى أن «الأساس الوحيد الممكن للقانون موجود في التاريخ الذي يلغي تماماً، كل نوع من الأسس» وإلى أننا «لا نجد سوى الاعتبارية في مبدأ القانون (بمعناها الشائعي)، أي «حقيقة النهب» و«العنف غير المبرر» (P. Bourdieu, *Méditations pascaliennes*, Paris, Seuil, 1997, p. 114).

ويوضح بورديو أيضاً، أن ديكاوت قد امتنع دوماً، في هذه المسألة - كما يؤكد ذلك "الحذر" الذي يمارسه «في الحديث عن مكيافيلي» - عن تطبيق صيغة الراديكالية في التفكير في مجال السياسية، خشية أن يقوده ذلك إلى اكتشاف «أن حقيقة النهب» التي أدخلت، مع ذلك من دون مبرر قد أصبحت عقلانية». وهكذا يشير بورديو إلى أن «الشرطة تذكر بوجودها وحده، بالعنف الخارج عن الشرعية الذي يقوم عليها النظام الشرعي»، م س، ص 115. حين يدرس بورديو، وبطريقة ذات دلالة، البعد المخيالي

للسلطة، من خلال دراسة «السلطة الرمزية»، فهو يوضح، في ما يتعلق بمفهوم "الخيال" لدى بيسكال (الذي يوصّف كيف يفرض "الكبار" احترامهم على المحكومين)، أن على هذا المفهوم أن يندرج ضمن منظور اجتماعي يركز على العنف الرمزي: «نحن هنا بعيدون جداً عن لغة الخيال، التي تستخدم في هذه الأيام أحياناً (...) بالرغم من التوافق اللفظي، مع ما يسميه بيسكال الخيال "أو" "الرأي"، أي الحامل والتأثير في أجساد العنف الرمزي في آن معاً»، ص 205. ولا نعثر لدى بورديو على تفكير حول خصوبة الخيال: يسعى علم الاجتماع في نظره، إلى الكشف عن العنف الأصلي، من خلال إظهار النزاعات الأولية وحلها الاعتباطي (انظر مثلاً: *Raisons pratiques. Sur la théorie de l'action*, Paris, Seuil, 1994, p. 107). ويسعى المشروع الفلسفي لميرلو - بونتي، على العكس من ذلك، إلى إيضاح حدود كل مشروع يعتمد الأصول (بخاصة الفرويدية التقليدية، وكذلك مختلف أشكال النزاعات الاقتصادية والاجتماعية، مثل الماركسية في نسختها الضيقة) من خلال إظهار الخصوبة الكامنة في الخيال، بخاصة السياسي والاجتماعي باعتباره شرطاً لقيام مغامرة جماعية.

هوامش الفصل الثالث

- (1) انظر: فيليب رينو Ph. Raynaud, «Société bureaucratique et totalitarisme. Remarques sur l'évolution du groupe "Socialisme ou barbarie"» dans *Autonomie et autotransformation de la société. La philosophie militante de Cornelius Castoriadis*, Genève, Droz, 1989, p. 255-268. «المجتمع البيروقراطي والنظام الشمولي، ملاحظات حول تطور مجموعة "اشتراكية أم بربرية"، في الاستقلالية والتحول الذاتي للمجتمع، الفلسفة النضالية لكورنيلوس كاستورياديس»؛ M. Abensour: «Réflexions sur les deux interprétations» dans *La démocratie à l'œuvre. Autour de Claude Lefort, du totalitarisme chez Lefort* C. Habib et C. Mouchard (éd.), Paris, Éditions Esprit, 1993 حول تفسير النزعة الشمولية لدى لوفور»، في كتاب الديمقراطية الفاعلة؛ H. Poltier, *Passion du politique. La pensée de Lefort*, Genève, Labor et Fides, 1998, p. 30-38, p. 57-92 (هوغ بولتييه، الشغف بالشأن السياسي، فكر لوفور).
- (2) انظر: B. Rizzi, *La Bureaucratisation du monde* (1939); rééd. *Il collettivismo* (burocratico, Milano, Sugarco Edizioni, 1977/ (برونو ريزي، التحول البيروقراطي للعالم (1993)؛ إعادة طباعة الجماعة البيروقراطية). لقد أثار كتاب عصر المنظمين اتهامات بالسرقة من بيار نافّي (P. Naville). نجد في الواقع، الكثير من نقد الشيوعية الذي قدمه بورهام في كتاب ريزي، التحول البيروقراطي للعالم. انظر: حول هذا النزاع وثائق الملف في كتاب برونو ريزي، الجماعة البيروقراطية، ص 103. وانظر: حول استرجاع النزاع A. Orsini, *L'eretico della sinistra. Bruno Rizzi elitista* (democratico, intro. V. Cerroni, Milano, Franco Angeli Editore, 2004, p. 38 sq/ (الساندرو

أورسيني، هرطقة اليسار، برونو ريزي، النخبة الديمقراطية، مقدمة أوغو تشيرون (U. Cerroni). لنشر إلى أن ريزي يلتحق، كما سيفعل ذلك بورنهام، بنظرية النخب من خلال أعمال ميتشلس، ويظهر مفهوم «الطبقة السياسية» أيضاً، في كتاب *Il socialismo dalla religione alla scienza*, 6 vol., Milano, Razionalista, 1939-1943 (الاشتراكية، من الدين إلى العلم الجزء السادس. وحول مساهمة ريزي في تاريخ الفكر الفوضوي، انظر: G. Berti, *Il pensiero anarchico dal Settecento al Novecento*, Roma-Bari, Manduria, 1998, p. 987-1009 *الفكر الفوضوي من القرن السابع والقرن التاسع*).

(3) كان هذا هو المعنى الذي حمله مقال كاستورياديس الذي نشره عام 1946 «حول نظام الحكم ضد الدفاع عن الاتحاد السوفييتي»، في كتاب (*La société bureaucratique*, Paris, Christian Bourgois, 1990, p. 57-64) *المجتمع البيروقراطي*.

(4) انظر: نقد لوفور لبورنهام في دورية Arguments الذي نشر بعد ذلك تحت عنوان مقال بعنوان «ما البيروقراطية؟» في كتاب *مبادئ نقد البيروقراطية*، م س، ص 306-307. وانظر: من منظور آخر، يار نافتي «البيروقراطية والثورة» في دورية Arguments العدد 17 عام 1960 الذي يرد على بورنهام و«المنظرين البورجوازيين للبيروقراطية»: فمن خلال رفض ماركس لا يمكنهم إلا الانكفاء على استقلال السلطة وتكوينها الذاتي الذي ينسبونه خطأ إلى مكيافيلي، ص 58.

(5) انظر: جيمس بورنهام، *عصر المنظمين*، م س، الفصل السابع، «من هم المدراء؟»
(6) م ن، الفصل الرابع عشر «الصيغة الروسية»، الفصل الخامس عشر: «الصيغة الألمانية»؛ الفصل السادس عشر: «مستقبل الولايات المتحدة». وكما يشير، إلى ذلك، ماريو بروتو (M. Proto) فإن الأطروحة العامة تتحدث عن المواقف التي يدافع عنها ماركوزه بروتو، *المدخل إلى ماركوزه*.

(7) م ن. الفصل الرابع، «نظرية الثورة الاشتراكية البروليتارية».
(8) ريمون آرون حوليات حرب فرنسا الحرة (1940-1945)، م س، ص 623-624. قام ماكس كولينييه (M. Collinet) وجان مينو (J. Meynaud) بنقد أطروحات بورنهام حول سلطة البيروقراطيين، J. Meynaud, *Technocratie et politique*, La Ferté-Bernard, R. Bellanger, 1960 *(التكنوقراطية والشأن السياسي)*.

(9) انظر: «ما البيروقراطية؟»، مق س، ص 307.
(10) انظر: C. Lefort, «L'image du corps et le totalitarisme», dans *L'invention démocratique. Les limites de la domination totalitaire*, Paris, Fayard, 1981 et 1994, p. 162-163 *(لوفور «صورة الجسد والنزعة الشمولية» في الاختراع الديمقراطي، حدود السيطرة الشمولية)*.

(11) انظر: فيليب رينو، مق س.

- (12) انظر: ميغيل أبينسور، مق س، ص 83.
- (13) لقد حلل لوفور نفسه، هذا التطور، بخاصة في مقدمة إعادة طباعة مبادئ نقد البيروقراطية، م س، ص 7-28.
- (14) ميرلو - بونتي مغامرات الجدلية، م س، بخاصة ص 84-86. وحول نقد ميرلو - بونتي لماركس، انظر بخاصة: V. Peillon, *La tradition de l'esprit. Itinéraire de Maurice Merleau-Ponty*, Paris, Grasset, 1994 (فانسان بيو، *تقاليد الفكر، مسار ميرلو - بونتي*).
- (15) كلود لوفور، «تناقضات تروتسكي» في مبادئ نقد البيروقراطية، م س، ص 33. (لنذكر أن المقال قد نشر في مجلة *الأزمة الحديثة* نهاية 1948).
- (16) انظر: تشخيص ميرلو - بونتي: «يعتقد لوفور أن علينا الرجوع إلى مبادئ البلشفية كي نجد بدايات «الانحطاط». ونتساءل في ما إذا كان علينا الرجوع إلى ما هو أبعد من ذلك. إن الماركسية وليس البلشفية من يؤسس لتدخلات الحزب في القوى القائمة والعمل على حقيقة تاريخية (مغامرات الجدلية، م س، ص 116).
- (17) حول هذ التطور انظر: ميغيل أبينسور، مق س، ص 94.
- (18) لنذكر بأن المقالات التي كتبها لوفور حول مكيافيلي تعود إلى عام 1960: «أنكار اجتماعية حول مكيافيلي وماركس»، أعيد نشرها في: (*Les formes de l'histoire*, Paris, Gallimard, 1978) (صيف التاريخ). انظر أيضاً: (*Machiavel jugé par la tradition*) (classique», *Archives européennes de sociologie*, tome 1, n°1, 1960) (مكيافيلي في التقاليد الكلاسيكية»، *المحفوظات الأوروبية لعلم الاجتماع*). نحن هنا بصدد جرد نصوص نقدية تتعلق بالأفكار حول مكيافيلي، قام به ليو ستروس. نشر لوفور عام 1971، أي قبل ظهور مؤلفه الرئيس *تأثير مؤلفات مكيافيلي* عام 1972، مقال «مكيافيلي والشباب» في *منوعات على شرف آرون*، وأعيد نشره في كتاب *صيف التاريخ*، م س، ص 153-168. انظر أيضاً: (*C. Lefort, préface à N. Machiavel*, *Discours sur la première décade de Tite-Live*, trad. T. Guiraudet, Paris, Berger-Levrault, 1980, p. 1-19) (أحاديث حول العقد الأول من حكم تيت ليف).
- (19) «من أجل علم اجتماع الديمقراطية» في مبادئ نقد البيروقراطية، م س، ص 348.
- (20) كلود لوفور، *تأثير مؤلفات مكيافيلي*، م س، ص 430. انظر: الأمير الفصل العشرون، ص 355-356. لقد كان قصر ميلانو الذي بناه فرانسوا سفورزا (F. Sforza) وسيفي أكبر أذى لحق بآل سفورزا من أية فوضى لحقت بالدولة، لدرجة أقول معها: «إن أفضل قلعة هي ألا يكرهنا الشعب أبداً. وذلك لأنه حتى حيث يكون لديك قلاع، وحين يكرهك الشعب، إن القلاع لن تنقذك، ولأنه ما إن يحمل الرعايا السلاح حتى يأتي الكثير من الأغراب لمساعدتهم».
- (21) مكيافيلي، *الأحاديث*، الفصل الخامس الكتاب الأول، ص 392: «إن من بين الأشياء الضرورية جداً التي رسخها من أقام الجمهورية بحذر، نجد تلك التي تحمي الحرية،

ويرتبط استمرار الحرية لفترة طويلة أم قصيرة، بالطريقة التي تبني بها حمايتها، وكما نجد في كل جمهورية الكبار والشعب، فإننا نتساءل من الأفضل كي يعهد إليه بالحرية؟»
(22) كلود لوفور «مكيافيلي، البعد الاقتصادي للشأن السياسي» في صيغ التاريخ، م س، ص 135.

(23) يكتب مكيافيلي في الفقرة الأخيرة من هذا الفصل الخامس من الأحاديث، بخصوص السؤال حول معرفة من الأكثر طموحا، هل هو الذي يريد الاستقرار (النبلاء) أم الذي يريد المكاسب (الشعب): «إن هذه الرغبة وتلك يمكن أن تكون سببا لاضطرابات خطيرة جداً. ومع ذلك، فإن هذه الاضطرابات تأتي في الغالب ممن يملك لأن الخوف من الخسارة يولد لديه رغبات مماثلة لرغبات من يريد الكسب، ص 394.

(24) حول هذه النقطة انظر: پيار مانان، «نحو العمل ونحو العالم» في الديمقراطية في الممارسة، حول كلود لوفور، م س، ص 182-184.

(25) الأمير، الفصل التاسع، ص 317.

(26) كلود لوفور، «مكيافيلي: البعد الاقتصادي للشأن السياسي»، مق س، ص 131.

(27) پيار مانان، مق س، ص 182.

(28) «مكيافيلي: البعد الاقتصادي للشأن السياسي»، مق س، ص 136.

(29) م ن.

(30) كلود لوفور، تأثير مؤلفات مكيافيلي، م س، ص 722-723.

(31) انظر مثلاً: حكم لويس كوزينيه، م س، ص 224-225: «يستلهم مكيافيلي أولاً، مسلمة الخبث البشري (...) (Homo homini lupus) (الإنسان ذئب على الإنسان)، كما يقول هوبس لاحقاً: لقد عبرت أيضاً هذه الجملة وبشكل جيد عن قناعة السياسي الإيطالي.

(32) «مكيافيلي، البعد الاقتصادي للشأن السياسي»، مق س، ص 131.

(33) م ن.

(34) نعرف أن هذا الموضوع قد عولج بشكل واضح في الفصلين الثاني عشر والثالث عشر من الأمير: ونجده أيضاً في الفصل العشرين («في ما إذا كانت القلاع والحصون وأشياء أخرى غيرها يبينها الأمراء كل يوم، مفيدة أم لا؟» ص 352: «لا يحصل إذا على الإطلاق أن ينزع أمير جديد سلاح رعاياه، بل على العكس من ذلك، فإذا وجدهم بلا سلاح، فإنه يمنحهم السلاح دوماً، وذلك لأنك إذا منحتهم السلاح، يصبح هذا السلاح ملكك، ويصبح من تخشى ولاءهم خلصاء ويبقى المخلصون على ما هم عليه، ويتحولون من رعايا إلى أنصار».

(35) تأثير مؤلفات مكيافيلي، م س، ص 635.

(36) م ن، ص 520.

(37) م ن، ص 386.

(38) انظر: حول تفسير جيرهارد ريتز، تأثير مؤلفات مكيافيلي، م س، ص 206-207.

(39) انظر: حول نقد التفسير الذي اقترحه كاسير في أسطورة الدولة كتاب تأثير مؤلفات

مكيافيلي، م س، ص 191-205.

- (40) حول هذه النقطة، انظر: نقد ليو ستروس في كتاب *تأثير مؤلفات مكيا فيلي*، م س، ص 303-304.
- (41) م ن، ص 383.
- (42) «مذكرة حول مكيا فيلي»، م س، ص 272 (التشديد لنا).
- (43) *تأثير مؤلفات مكيا فيلي*، م س، ص 415.
- (44) *الأمير*، الفصل التاسع، ص 318.
- (45) *تأثير مؤلفات مكيا فيلي*، م س، ص 384.
- (46) ميرلو - بونتي، *بنية السلوك*، م س، ص 187.
- (47) ميرلو - بونتي، *المرئي واللا مرئي*، م س، ص 42-48.
- (48) *الأمير*، الفصل السادس والعشرون، ص 370 («التشجيع لاستعادة روما وتخليصها من البرابرة»).
- (49) *تأثير مؤلفات مكيا فيلي*، م س، ص 526.
- (50) *الأحاديث*، الكتاب الأول، الفصل الثامن والخمسون، م س، ص 504: «أما في ما يتعلق بالحذر والثبات، فأؤكد أن الشعب يكون أكثر حذراً وأكثر ثباتاً وأفضل حكماً من الأمير، فهناك سبب وراء مقارنة صوت الشعب بصوت السماء: لأننا نجد الرأي العام ناجحاً جداً في توقعاته الخاصة، وبدرجة كبيرة وجيدة، يبدو معها وكأنه مزود بالفضيلة الخفية التي تسمح له بتوقع الخير والشر المرتبطين به. أما في ما يتعلق بطريقة الحكم على الأشياء، فنادرًا ما نرى الشعب يحجم عن اختيار الأفضل، أو يعجز عن تمييز الحقيقة التي ينطق بها أمامه، حين يستمع إلى خطيبين متساوين في الموهبة، يعرضان عليه حلين متناقضين.
- (51) *تأثير مؤلفات مكيا فيلي*، م س، ص 525-526.
- (52) *الأحاديث*، الكتاب الأول، الفصل السابع والستون: «إن البشر، بالرغم من تعرضهم للخطأ في الشؤون العامة، لا يخطئون في الشؤون الخاصة».
- (53) *تأثير مؤلفات مكيا فيلي*، م س، ص 522.
- (54) م ن، ص 479.
- (55) *الأحاديث* الكتاب الأول، الفصل الرابع، ص 390.
- (56) كلود لوفور، «مكيا فيلي وتأثيرات الحقيقة» في *الكتابة في امتحان الشأن السياسي*، م س، ص 166.
- (57) «مكيا فيلي، البعد الاقتصادي للشأن السياسي»، مق س، ص 136.
- (58) «مكيا فيلي والحقيقة الفعلية»، مق س، ص 174.
- (59) *الأحاديث*، الكتاب الأول، الفصل الثالث، ص 388-389.
- (60) م ن، ص 389.
- (61) *تأثير مؤلفات مكيا فيلي*، م س، ص 472 (التشديد لنا).
- (62) م ن، ص 473.

- (63) انظر: بشأن نقد لوفور لـ (جيرهارد ريتز)، *تأثير مؤلفات مكيا فيلي*، م س، ص 206-217.
- (64) م ن، ص 473.
- (65) م ن، ص 478.
- (66) م ن، ص 479.
- (67) كلود لوفور «نشوء الإيديولوجيا والنزعة الإنسانية» في *صيف التاريخ*، م س، ص 234-277.
- (68) م ن، ص 276.
- (69) *تأثير مؤلفات مكيا فيلي*، م س، ص 403.
- (70) *الأمير*، الفصل الثامن عشر، م س، ص 341-342 («كيف يحافظ الحكام على إيمانهم»): «لم تنقص الأعداء الشرعية حاكماً يوماً كي يزین خبثه بأقواله».
- (71) *تأثير مؤلفات مكيا فيلي*، م س، ص 413.
- (72) م ن، ص 422-424.
- (73) حول الطريقة التي يقدم بها مكيا فيلي أغاتوكل انظر: الفصل السابع من *الأمير*، م س، ص 313-314. يشرح مكيا فيلي، في خاتمة تحليله، وبالعودة إلى حالة «أغاتوكل»، بالقول إننا لا نستطيع أن نطلق صفة الفضيلة على قتل المواطنين، وحين تغيب كل شفقة.
- (74) *تأثير مؤلفات مكيا فيلي*، م س، ص 380.
- (75) م ن، ص 404.
- (76) م ن، ص 414.
- (77) م ن، ص 434.
- (78) م ن، ص 408. يعيد لوفور هنا توظيف تحليلات ميرلو - بونتي حول الجسد الذي يرى/ويُرى، بشكل جزئي، انطلاقاً من أعمال بورتمان، حول الملأ في عالم الحيوان، ص 298.
- (79) «مذكرة حول مكيا فيلي»، ص 272 (التشديد لنا).
- (80) *تأثير مؤلفات مكيا فيلي*، م س، ص 415.
- (81) م ن، ص 350، انظر: الفقرة الأخيرة من الفصل الثاني من *الأمير* (الإمارات الوراثية) المكرسة لحالة دوق فيراري، م س، ص 291.
- (82) *تأثير مؤلفات مكيا فيلي*، م س، ص 350-351.
- (83) انظر: م ن، ص 348-447، حول هذه النقطة، وبشكل أدق، حول المقارنة بين مكيا فيلي وأرسطو.
- (84) حول سيفير، انظر: *الأمير*، الفصل التاسع عشر (علينا أن نتجنب الكره والازدراء): «إن من سيدرس أعماله بدقة، سيجد أنه كان أسداً متوحشاً جداً وثعلباً حاذقاً، وسيرى أن كل شخص قد خشيه واحترمه، دون أن تكرهه الجيوش، وسوف لن نندهش، إن استطاع وهو الرجل الحديد أن يحكم مثل هذه الامبرطورية: وذلك لأن شهرته تحميه دوماً من الكره الذي تمكن الشعب حملته ضده بسبب اختلاساته»، ص 349 (التشديد لنا).

(85) تأثير مؤلفات مكيايلي، م س، ص 422.

(86) م ن.

(87) م ن، ص 214.

(88) م ن.

(89) لقد أشرنا سابقاً، ومن خلال المقارنة بين ميرلو - بونتي وهورديو، إلى أية درجة يقف هذا التفكير حول دور المخيال في التعبير عن النزاع، بعيداً عن كل علم اجتماع "مخيب للآمال"، يسعى إلى كشف موازين القوى أولاً. غير أن المسافة كبيرة جداً بالنسبة إلى موقف جذري آخر، إنه موقف آرندت. تبدو آرندت، للوهلة الأولى، قريبة جداً من تفكير لوفور حول المخيال. ولقد رأينا، كما لدى ميرلو - بونتي أن هذا التفكير يعتبر الحيز العام «حيز الملاء». كما تولي، بدورها، أهمية رئيسة لأعمال پورتمان (Portmann) التي تكشف، حتى لدى الحيوان، «الحاجة للظهور»، التي تصل إلى «نقطة حاسمة لدى الجنس البشري». (H. Arendt, *La vie de l'esprit*, 1, *La pensée*, trad. Lotringer, Paris, 1996, p. 44-45). (هنا آرندت حياة العقل، الفكر). تفسر آرندت، ضمن هذا المنظور، ومن خلال عدة نصوص، مؤلف الأمير: «يرى مكيايلي أن معيار العمل السياسي هو المجد، كما كان الحال في العصور القديمة الكلاسيكية، وأن الشر ينأى عن المجد كما ينأى عن الخير». (شرط الإنسان الحديث، م س، ص 120). تشير آرندت، في الواقع، إلى أن «العمل يرغب بالنور المضيء الذي سميناه سابقاً المجد الذي لا يتحقق أبداً إلا في الشأن العام»، (ص 237)، انظر: (La crise de la culture, trad. p. Lévy, Paris, Gallimard, 1972, p. 179 sq.; *Essai sur la révolution*, trad. M. Chrestien, Paris, 1967, p. 145 sq). (أزمة الثقافة؛ ومقال حول الثورة). غير أن آرندت لا تعتبر الحيز السياسي حيزاً مخيالياً، تسمح من خلاله، صورة السلطة بالتعبير عن النزاع. غير أنه إذا كانت آرندت لم تعتمد موضوع المخيال، فذلك لأنها لا تنظر إلى الشأن السياسي ضمن فئة النزاع بل ضمن مقولة التعددية.

(90) لقد جذب نقد فكرة العدم عند سارتر انتباه شارحي المرنمي واللا مرنمي. وعلينا مع ذلك، أن نرى أن هذا الرفض للعدم السارترتي مرتبط بنقد تصوره عن المخيال. وهكذا يتحدث ميرلو - بونتي عن الاستحالة الفلسفية للوجود والعدم: «فالمستقبل ليس عدماً، وليس الماضي خيلاً بالمعنى السارترتي. ما من شك في أن هناك الحاضر، غير أن تسامي الحاضر يؤدي، حتماً، إلى ارتباطه بالماضي والمستقبل، اللذين ليسا، على عكس ذلك، عملية عدمية». (المرنمي واللا مرنمي، م س، ص 249. كما يعترض ميرلو - بونتي، بشكل ضمني، على كتاب المخيال لسارتر، وذلك من خلال الحديث عن «تسامي الأشياء» و«تسامي الخيال»: «يضطرننا تسامي الشيء للقول بأنه لا يكون كاملاً: إذا كان غير قابل للنضوب، أي حين لا يكون أنياً تحت النظر غير أنه يعد بهذا الحضور الآني الكامل، لأنه هنا. وحين نقول، على العكس من ذلك، أنه لا يمكن ملاحظة الخيال وأنه فراغ ولا وجود، لا يكون التباين مع المحسوس مطلقاً إذاً، ص 245. يبين

ميرلو - بونتي بالتوازي مع نقده للمفهوم السلبي لدى سارتر (الذي يتحدث عن عالم غير عمودي، بل عالم في ذاته، أي عالم مسطح، وعن عدم «هوية مطلقة»، ص 290، حدود الفرضيات السارترية حول المخيال من خلال التركيز على خصوصية الأطروحات الباشلارية: «إن الوجود والمخيال «أشياء» في نظر سارتر، إنها «موجودات» - أما بالنسبة إلي فهي "عناصر" بالمعنى الباشلاري، أي أنها ليست أشياء، بل حقول، كُنه لطيف، غير وجودي، كُنه قبل الكنه - تحمل في ذاتها سجلها الذاتي» (...). ويشكل مقابلها الذاتي جزءاً منها»، ص 320. انظر أيضاً: نقد كتاب *المخيال*، ص 320 (حول التمييز بين الإدراك والمخيال)، والتعارض بين المخيال السارترية والفلسفة الباشلارية «للعناصر» التي يكون بموجبها «لكل معنى مخياله»، ص 298. لا يقل هذا الاهتمام الظاهر بالأطروحات الباشلارية حول المخيال أهمية عن الاهتمام المتزايد بهایدغر (Heidegger) في نظرننا. أضف إلى ذلك أنها تسمح بتوضيح ما يبقي ميرلو - بونتي بعيداً عن فكر هایدغر.

(91) تأثير مؤلفات مكيافيلي، م س، ص 427 (التشديد لنا).

(92) انظر: *Pensée politique et histoire. Entretien avec Claude Lefort interrogé par p. Pachet.*

(Mouchard. C. Habib, et p. Manent, Paris, EHESS, 1996, p. 25-34. C. *الفكر السياسي والتاريخ*. حديث مع كلود لوفور، أجراه پيار پاشي، كلود موشار، كلود حبيب، وپيار مانان).

(93) كلود لوفور «مكيافيلي والحقيقة الفعلية»، في *الكتابة في امتحان الشأن السياسي*، م س، ص 173-174.

(94) C. Lefort, *Un homme en trop*, Paris, Seuil, 1986. كلود لوفور رجل زائد.

(95) م ن، ص 200 وما يليها. انظر أيضاً: (La complication, Paris, Fayard, 1999, p. 45) (sq) (التعليق).

(96) انظر: سيرج أوديه «النزعة الجمهورية الفريدة لجيوسبي مازيني والمسألة الاشتراكية» في *جيوسبي مازيني، أفكار حول الديمقراطية في أوروبا*، م س.

(97) «مكيافيلي، البعد الاقتصادي للشأن السياسي»، مق س، ص 139.

(98) Marx, *Le 18 Brumaire de Louis Bonaparte*, Paris, Éditions Sociales, 1984 (ماركس)، *الثامن عشر من برومير للويس بوناپرت*.

(99) حول غموض هذا النص، انظر: (P. Birnbaum, *La fin du politique*, Paris, Seuil, 1994,) (p. 63-66) (پيار بيرنوم، نهاية الشأن السياسي).

(100) *الثامن عشر من برومير للويس بوناپرت*، م س، ص 13 (التشديد لنا).

(101) كلود لوفور، «ماركس: من رؤية للتاريخ إلى أخرى»، في *صيف التاريخ*، م س، ص 223.

(102) *الثامن عشر من برومير للويس بوناپرت*، م س، ص 12.

(103) «ماركس: من رؤية للتاريخ إلى أخرى»، م س، ص 233.

- (104) م ن، ص 233.
- (105) م ن، ص 224-225.
- (106) كلود لوفور، «ولادة الإيديولوجيا والنزعة الإنسانية»، مق س، ص 235.
- (107) إنها أطروحة رونوديه، مكيافيلي، م س، ص 320 وما يليها.
- (108) C. Lefort, «Réflexions sociologiques sur Machiavel et Marx», dans *Les formes de l'histoire*, p. 175. «أفكار اجتماعية حول مكيافيلي وماركس في صيف التاريخ».
- (109) م ن، ص 194.
- (110) B. Croce, *Materialismo storico ed economia marxista*, Roma-Bari, Laterza, 1951. (p. 112) (بنديتو كروتشي، المادية التاريخية والاقتصاد الماركسي). انظر أيضاً: بخصوص اكتشاف الواقعية الماركسية في إيطاليا، وانتقادها للإيديولوجيا: «مع الماركسية، كان مكيافيلي هو العائد إلى إيطاليا» (H. Bédaridat, Paris, Payot, 1929, p. 168.) *Histoire de l'Italie contemporaine* (1871-1915), trad. (تاريخ إيطاليا المعاصرة).
- (111) «ولادة الإيديولوجيا والنزعة الإنسانية»، مق س، ص 237.
- (112) م ن، ص 252 وما يليها.
- (113) م ن، ص 253.
- (114) م ن، ص 251.
- (115) م ن، ص 238.
- (116) «مكيافيلي والحقيقة الفعلية»، مق س، ص 154.
- (117) Merleau-Ponty, «Éloge de la philosophie» dans *Éloge de la philosophie*, Paris, Gallimard, 1960 [1953], p. 66. (ميرلو - بونتي، مديح الفلسفة»، في مديح الفلسفة).
- (118) تأثير مؤلفات مكيافيلي، م س، ص 731.
- (119) م ن، ص 742.
- (120) «ولادة الإيديولوجيا والنزعة الإنسانية»، مق س، ص 251.
- (121) م ن، ص 261v.
- (122) المرئي واللا مرئي، م س، ص 43.
- (123) م ن، ص 43-44.
- (124) بشكل أعم، حول هذه النقطة، انظر: (C. Lefort, «La politique et la pensée de la politique», dans *Sur une colonne absente. Écrits autour de Merleau-Ponty*, Paris, Gallimard, 1978, p. 104.) (كلود لوفور، «السياسة والفكر السياسي» في حول عمود غائب كتابات حول ميرلو - بونتي).
- (125) «ولادة الإيديولوجيا والنزعة الإنسانية»، مق س، ص 257.
- (126) م ن، ص 258-259.
- (127) «ماركس: من رؤية للتاريخ إلى أخرى»، مق س، ص 233.

- (128) «رسم أولي لأصل الإيديولوجيا» م س، ص 285.
- (129) م ن.
- (130) م ن، ص 290.
- (131) م ن، ص 283.
- (132) بعد ذلك، يميز لوفور، بدقة، لتكرار ذلك، بين تخيال قادر على إغناء التاريخ المشترك، وتخيل رجعي صرف ووهمي، يأسر الممثلين، وبخاصة السلطة السياسية. يعباً لوفور، من أجل توضيح هذه الفرضية في نصوص أخرى، التمييز المستوحى من لاكان (Lacan) بين المخيال والرمزية. وحول التمييز رمزية/تخيال المأخوذ عن لاكان، انظر: (C. Lefort, M. politique et l'institution du social», *Textures*, 71/2-3: Gauchet, «Sur la démocratie le غوشيه «حول الديمقراطية، الشأن السياسي ومؤسسة الشأن الاجتماعي»، مقالة كتبها غوشيه، انطلاقاً من دروس لوفور).
- (133) انظر: كلود لوفور («Permanence du théologico-politique?» dans *Philosophie politique*) (XIX^e-XX^e siècle, Paris, Seuil, 1986, p. 257. «استمرار الشأن الديني السياسي» في *فلسفة السياسة، القرنان التاسع عشر والعشرون*).
- (134) حول هذه المسائل جميعاً، انظر: من بين آخرين، J. Michel, *Marx et la société juridique*, Demichel, Paris, Publisud, 1983. Cf. aussi M. Barbier, *La pensée politique de Marx*, Paris, L'Harmattan, 1992. Cf. également A. Artous, *Marx, l'État et la politique*, préf. J.-M. Vincent, Paris, Syllepse, 1999. *الفكر السياسي لدى ماركس؛ انظر أيضاً: ماركس، الدولة، السياسية*. الدراسة الأهم هي التي قام بها F. Kaplan, *Les trois communismes de Marx*, Paris, Noësis, 1996. *(ماركسيات ماركس الثلاثة)*.
- (135) «Le manifeste communiste», dans *Œuvres de Karl Marx. Économie. I*, M. Rubel (éd.), (135) «Bibliothèque de la Pléiade», Paris, Gallimard, 1963, p. 163. *البيان الشيوعي في أعمال كارل ماركس الاقتصادية*.
- (136) S. Naïr, *Machiavel et Marx*, Paris, PUF, 1984. (سامي ناير، *مكيافيلي وماركس*).
- (137) م ن، ص 12.
- (138) س. ناير، *مكيافيلي وماركس*، م ن، ص 99-100.
- (139) م ن. الفصل الرابع، ص 79-80.
- (140) م ن، ص 75.
- (141) م ن، ص 49.
- (142) م ن. الفصل الخامس، ص 99-105.
- (143) انظر: نقد غرامشي (علماً أنه يمثل الماركسي غير الأنموذجي) في *تأثير مؤلفات مكيافيلي*، م س، ص 237-258، بخاصة نقد جورج مونان، ص 133.

- (144) «رسم أولي لأصل الإيديولوجيا»، مق س، ص 290-291.
- (145) فينومينولوجيا الإدراك، م س، ص 220.
- (146) Merleau-Ponty, «Le concept de nature», dans *Résumé des cours. Collège de France* (1952-1960, «Tel», Paris, Gallimard, 1995, p. 93 ملخص المحاضرات كوليغ دُ فرانس 1952-1960).
- (147) Merleau-Ponty, «Le concept de nature. 1957-1958», dans *La nature. Notes. Cours du Collège de France*, établi et annoté par D. Ségler, Paris, Seuil, 1995, p. 249 («مفهوم الطبيعة» 1957-1958 في الطبيعة: ملاحظات. محاضرات كوليغ دُ فرانس).
- (148) م ن، ص 254.
- (149) فينومينولوجيا الإدراك، م س، ص 221.
- (150) تأثير مؤلفات مكيا فيلي، م س، ص 724 (التشديد لنا).
- (151) فينومينولوجيا الإدراك، م س، ص 213.
- (152) انظر: R. Barbaras, *De l'être du phénomène. Sur l'ontologie de Merleau-Ponty*, (Grenoble, Millon, 1991) (رُنو بارباراس، في كنه الظاهرة. حول المنهجية الفكرية لميرلو - بونتي).
- (153) تأثير مؤلفات مكيا فيلي، م س، ص 729.
- (154) فينومينولوجيا الإدراك، م س، ص 222 (التشديد لنا).
- (155) م ن، ص 229.
- (156) تأثير مؤلفات مكيا فيلي، م س، ص 729 (التشديد لنا).
- (157) «لطفل في نظر البالغ»، في ميرلو - بونتي في السوربون، م س، ص 162. لنذكر أن برنامج مورينو قد صمم كي يشكل حلاً محدودية التحليل النفسي الفرويدي: «إن الغاية من الدراما النفسية تحريض الحاكم على استعادة الحلم بدل تحليله له» (J.-L. Moreno, *Psychothérapie de groupe et psychodrame*, trad. J. Rouanet et A. Ancelin, Paris, PUF, 1965, p. 370). يشرح مورينو، من خلال إشارته إلى أن «اللغة لا تستوعب الوضع النفسي برمته إلى أنه لا يمكن أن يكون لإخراج النزاعات أثر علاجي. ويذكر وهو مؤسس «مسرح الارتجال» أن أصل الدراما النفسية موجود في «التطهير» الذي تخوضه النزاعات التي تقع بين الأزواج: «كنت أحلل أصل الدراما النفسية هؤلاء على ضوء مشاهد قاموا فيها بأدوار، وأشرح لهم أسباب تجاوزهم لنزاعاتهم» ص 20. انظر أيضاً: J.-L. Moreno, *Théâtre de la spontanéité*, trad. J.-F. de Raymond, Desclée de Brouwer, 1 re partie: «Le théâtre de conflit», p. 47 (مسرح العفوية، مسرح النزاع). وحول مسار مورينو وعلاقته بفرويد، انظر: R. Marineau, J.-L. Moreno et la troisième révolution psychiatrique, Montréal, Métailié, (1989, p. 78 sq. (جاكوب ليفي مورينو، والثورة النفسية الثالثة).
- (158) م ن.

(159) انظر: تحليل مورينو حول «الانفصال بين المخيال والحقيقة المعاشة»: ليست المشكلة في إهمال عالم الحلم والخيال» من أجل عالم الحقيقة، أو بالعكس، فهذا أمر مستحيل عملياً، إن المطلوب بناء وسائل تمكن الفرد من اكتساب سيطرة كاملة على الموقف، فهو يقف أمام منهجين، ويبقى قادراً على الانتقال من الواحد إلى الآخر، ص 117. وحول تجاوز الفصل بين خيال/حقيقة، بواسطة التعبير المسرحي انظر أيضاً: ص 159. من المفيد أن نذكر أن باشلار قد اهتم أيضاً بمنهج قريب من "الدراما الاجتماعية"، لتجاوز حدود المدرسة الفرويدية. ولذلك فقد ميز *الدراما الكونية*، وذلك بالمعنى الذي يستخدم فيه التحليل النفسي *الدراما الاجتماعية* لتحليل الخصومات البشرية» (G. Bachelard, *Le droit de rêver*, Paris, PUF, 1970). من هنا يأتي اهتمام باشلار بمنهج روبرت ديزواي (R. Desoille) الذي يؤكد على فعالية المخيال، قاطعاً بذلك الصلة بفرويد، وبمورينو أيضاً (G. Bachelard, *L'air et les songes*, Paris, PUF, p. 129-145). (ج باشلار *الهواء والأحلام*).

(160) Merleau-Ponty, «Le langage indirect» dans *La prose du monde*, texte établi et présenté par C. Lefort, Paris, Gallimard, 1969, p. 138. النص وقدمه كلود لوفور.

(161) *تأثير مؤلفات مكيافيلي*، م س، ص 431 (التشديد لنا).

(162) م ن، ص 486. وحول هذه النقطة أيضاً، ص 702.

(163) م ن، ص 477.

(164) م ن، ص 486.

(165) *نشر العالم*، م س، ص 140.

(166) م ن، «من الأساسي أن يتطور الفن، أي أن يتغير و«يعود لنفسه» في الوقت عينه، وفقاً لما يقوله هيغل، أي أن يقدم نفسه، إذاً، تحت صيغة تاريخ، وإن معنى الحركة التعبيرية التي بنينا عليها وحدة اللوحة، هي من حيث المبدأ معنى قيد الولادة.

(167) م ن.

(168) «مكيافيلي، البعد الاقتصادي للشأن السياسي»، مق س، ص 139.

(169) *تأثير مؤلفات مكيافيلي*، م س، ص 732.

(170) م ن، ص 771.

(171) م ن.

(172) *تأثير مؤلفات مكيافيلي*، م س، ص 772. مكيافيلي

(173) م ن، ص 424. لنذكر أن لوفور يوضح فرضيته في نصوص أخرى، من خلال التمييز، هذه المرة، بين الرمزي والمخيال بالرجوع إلى لاكان (Lacan)، انظر: مارسيل غوشيه (M. Gauchet) كلود لوفور، «حول الديمقراطية: الشأن السياسي وتأسيس الشأن الاجتماعي»، مق س، ص 16-17): تتوقف السلطة (...) عن أن تكون المؤسسة في النظام الرمزي حين يأخذها المخيال، وحين تفرض هذه الهوية المرسومة لها أن تبقى مفتوحة، من خلال مدلول، وحين تصبح العنصر الفاعل في الانسجام الظاهر لحيز تبقى حدوده غير مرسومة

بشكل دائم. علينا الإيضاح أن هذا النص قد أعد وكتب من قبل غوشيه، من خلال محاضرة للوفور. يقوم تحليل لوفور للنزعة الشمولية على هذه الإشكالية.

(174) م ن.

(175) تجيب فكرة لوفور حول الديمقراطية «المتوحشة» على الفرضيات النهائية لميرلو - بونتي التي تقوم على استرجاع العالم باعتباره مضمون «الكنه» المختلف جذرياً عن «المتصور» أي باعتباره الكنه العمودي الذي لا يستطيع أي تصور أن يستوفيه، في حين "يدرك" (هذا التصور) «الكنه الوحشي» (المركبي واللا مركبي)، ص 306. لا تحبذ هذه الفكرة أبداً إلغاء المؤسسات والحكومة التمثيلية لمصلحة ديمقراطية مباشرة، لأنها تتبع فلسفة المؤسسات التي تقوم على التمييز بين المؤسس/المؤسس مفسحة في المجال للرغبة التعبيرية للشعب. ويلتحق لوفور، بذلك، بآخر فرضيات ميرلو - بونتي حيث يجري استخلاص حدود فينومينولوجيا الإدراك، من خلال منح دور رئيس لفكرة التعبير (انظر: حول فكرة «أنا أفكر الصامتة» (cogito) كتاب المركبي وغير المركبي ص 224). وحول هذه التنقلات لفينومينولوجيا ميرلو - بونتي حول مفهوم التعبير، انظر: A. L. Kelkel, «Merleau-Ponty entre Husserl et Heidegger» dans *Merleau-Ponty. Le philosophe et son langage. Recherche sur la philosophie et le langage*, n°15, 1993, (p. 183-206) («ميرلو - بونتي بين هوسيرل وهايدغر» في ميرلو - بونتي الفيلسوف ولغته، مقالات حول الفلسفة واللغة). انظر بخاصه: R. Barbaras, *De l'être du* (phénomène. *Sur l'ontologie de Merleau-Ponty*, Grenoble, Millon, 1991. «الكنه الظاهرة»، حول علم الوجود لدى ميرلو - بونتي). ومع ذلك فإن لوفور قد أشار في «المحاضرات» إلى ابتعاده عن ميرلو - بونتي، بسبب الصعوبات المتعلقة بالتفكير بتسامي المؤسسات. يتطلب تفكير لوفور، من هذه الناحية، إعادة صوغ لتركة ميرلو - بونتي.

(176) ميرلو - بونتي، مغامرات الجملية، م س، ص 276-277.

(177) انظر: كلود لوفور، «رسم أولي لأصل الإيديولوجيا»، م س، ص 290.

(178) تجبذ هذه الفكرة حول الديمقراطية في فكر توكفيل دليلاً مميزاً (انظر: سيرج أوديه، توكفيل المستعاد، م س).

هوامش الخاتمة

(1) جيمس بورغهام، المكيفيون، م س، ص 124-125.

(2) ومع ذلك، يعتبر بورغهام أيضاً أن الديمقراطية الليبرالية هي النظام الذي يقدم أفضل الفرص للتقدم الاجتماعي، «إن قادتنا وسلطاننا، تسعى، مع ذلك، إلى منع الإضراب، في ما قد يؤدي مجرد الإشارة إلى الإضراب في النظام الشيوعي إلى الموت». إن من الضروري «التحذير من اللامبالاة التي تعتبر مرادفاً للنزعة الكلية» *Pour la domination mondiale*, trad. H. Claireau, Paris, Calmann-Lévy, 1947, p. 295 (من أجل السيطرة العالمية).

(3) انظر: رأي سوريل: «يتم تكوين الرأي العام من خلال الصحف مثل أي درجة أو شهرة أدبية أو قيمة تجارية لسلعة صيدلانية». (*Les illusions du progrès*, Paris, Marcel Rivière, 1908, p. 57) ونجد هذه الفكرة حول «فكرة الرأي» - وفقاً لتعبير اعتمد في تلك الحقبة - لدى كتاب رجعيين مثل شارل بونوا، أو تقليديين متطرفين مثل رينيه غينون، ومؤخراً وضمن خيارات متناقضة، في كل علم اجتماع ناقد لوسائل الاتصال. يشير بورنهام، من جهته، وكأنه يرد على معلمه السابق ديوي، إلى أن «ما يسميه "الرأي العام" هو مجموعة أفكار ومشاعر متغيرة ومتناقضة». (*من أجل السيطرة العالمية*، م س، ص 192-193. ومع ذلك، يشير قيام بورنهام بمهاجمة «الرأي العام» كي ينقذه من نزعته السلمية التقريرية في مواجهة الخطر الشيوعي، وبالرغم من كل شيء، إلى ثقته في وعود "الدعاية" بالمعنى الذي يمنحه كانط لها. أضف إلى ذلك أنه يعترف بأننا نخطئ «في الرفض الكامل لمذهب الإنسانية المشتركة والأخوة البشرية» وذلك لأن «هدف الإنسانية الموحدة» يبقى «أفضل أمل للمستقبل»، مهما بعد أمده، ص 32)، وذلك من خلال تذكير الغربيين بأنهم يقعون في الوهم إذا هم أسأوا تقدير خطورة التهديدات المعادية، من خلال التوضيح بأن «نفي وجود النزاعات بين الأمم لا يلغيها»، ص 195.

(4) J. Burnham, *Suicide of the West*, Londres, Jonathan Cape, 1965. (*انتحار الغرب*). يتوجه الكتاب إلى ديوي وتلاميذه بخاصة.

(5) حول قراءة ميشيل وبوغليه لتوكفيل، وحول ما أسميناه «الصيغة المكيافيلية - التوكفيلية» انظر: سيرج أوديه، *توكفيل المستعاد*، م س، ص 48-59، 228-230.

(6) R. Aron, «Qu'est-ce que le libéralisme?», rééd. *Commentaire* n°84, 1998-1999, p. 945. («ما الليبرالية؟»).

(7) حين يشير بورديو، في موقف ذي دلالة إلى أن «علم الاجتماع يكشف الحيلة الذاتية، والكذب على الذات الذي يُمارس بشكل جماعي ويُحفز، ويقوم في أساس القيم الأكثر قدسية في كل مجتمع، وفي كل وجود اجتماعي، بشكل أوسع، فهو يلمح، من خلال مثال على هذا العلم "المعادي للتقاليد" إلى نقد آرون «للشرائع الدنيوية»، التي أشرنا إلى ما تدين به إلى منهجية پاريتو المكيافيلية، بخاصة، وفقاً لمونرو (P. Bourdieu, *Leçon sur la* *leçon*, Paris, Minuit, 1982, p. 33) (*الدرس حول الدرس*)، كذلك تقدم المقارنة التي قام بها بورديو بين «التشاؤم المخيب» لعلم الاجتماع والثورة الغاليلية، لمحات مكيافيلية واضحة، بالمعنى الذي يرغب بورنهام (م ن، ص 19). وقد رأينا، بالنتيجة، أن الفرضية التي لا ينفك بورديو عن تكرارها بأن «"الوعي" الاجتماعي يثير "مقاومات" تظهر بشكل واضح لدى بورنهام وآرون. كذلك يبدو بورديو وفيما لزعة بورنهام المكيافيلية الجديدة، بالرغم من كل ما يبعده عنها على المستوى المعياري، وذلك من خلال تأكيده بأن لا شيء أبعد عن الأخلاق وعن المكيافيلية من الانكشاف الاجتماعي للمؤسسة (ص 55) ويتميز بورديو في المجال عينه عن «الوهم المكيافيلي» الذي يقع فيه علماء

اجتماع العلوم الذين ينسبون للعلماء غايات «كليية» (*Les usages sociaux de la science. Pour une sociologie clinique du champ scientifique*, Paris, INRA, 1997, p. 19) (الاستخدامات الاجتماعية للعلم، من أجل علم اجتماع سريري للحقل العلمي). الغاية، هنا في الحقيقة رفض المكيافيلية التقريرية، تحت شعار موقف مكيافيلي أكثر تعقيداً. وهكذا يتعد بورديو في الغالب، عن المكيافيلية الجديدة (انظر: على سبيل المثال كتاب (Questions de sociologie Paris, Minuit, 1984, p. 45) «قضايا علم الاجتماع»؛ أو، أيضاً النقد الضمني الذي قدمه موسكا حول «الطبقة الحاكمة» ملمحاً إلى كتاب (Meisel, «The Myth of Ruling Class», dans *Choses dites*, Paris, Minuit, 1987, p. 151) «أسطورة الطبقة الحاكمة»، في أشياء قيلت). ولا يجوز لهذه الفروق، مرة أخرى أن تلغي ما يدين به علم اجتماع بورديو لنظرية النخب المكيافيلية (وهذا تعبير كان أحد الندر من العلماء الذين أشاروا إليه، في الغالب). يشير بورديو بشكل إيجازي إلى النموذج المكيافيلي «للجماعة العلمية» التي تحرض الأفراد على الظهور بمظهر الفضيلة من أجل مصلحتهم الخاصة (الأسباب العملية، حول نظرية العمل، ص 96). وما يثير الفضول أن شارحي بورديو قد أهملوا هذه المساهمة بشكل كامل (فقد غاب هذا الموضوع، مثلاً لدى لويس بينتو في كتابه (L. Pinto, Pierre Bourdieu et la théorie du monde social. Paris, Seuil, 2002. الاجتماعي) الذي يبرز المرجعيات الفلسفية الأدبية على حساب إرث العلوم الاجتماعية السياسية. انظر أيضاً: (R. Jenkins, Pierre Bourdieu, Londres, Routledge, 2002) (بيار بورديو) وربما قلّ هؤلاء الشارحون، بشكل كبير من قيمته (انظر: L. Wacquant, présentation de p. Bourdieu, Réponses, Paris, Seuil, 1992, p. 41-42. إجابات). وحول موضوع النزاع لدى بورديو انظر: A. Accardo, Initiation à la sociologie de l'illusionnisme social, Bordeaux, Le Mascaret, 1983. (أكاردو، الإرشاد إلى علم الاجتماع الاجتماعي).

(8) پيار بورديو، تأملات پسكالية، م س، ص 205.

(9) إن أكثر تحليلات آرنندت دلالة هي تلك التي تفسر التجربة المسرحية بالعودة إلى أرسطو. تشير آرنندت إلى أن المسرح فن سياسي بامتياز «ذلك لأن موضوعه الأول هو الإنسان في علاقته مع الآخرين». لا يمكن للصفة الخاصة بالفعل والكلام أن تمثل إلا «بفضل نوع من التكرار والمحاكاة أي (mimésis)». وهكذا «فإن باستطاعة الممثلين وحدهم الذين يقدمون الحبكة، أن يعبروا بدقة عن المعنى، وليس عن معنى القصة نفسها، بل عن معنى الأبطال الذين يظهرون فيها». (شرط الإنسان الحديث، م س، ص 245). لذلك، فإن آرنندت تعتبر أن المسرح، فن التنفيذ، على صلة وثيقة بالسياسة. وبالمقابل، إن «المدينة الإغريقية، كانت تمثل في الماضي «هذا النوع من الحكم» الذي يقدم للناس منصة يستطيعون أن يلعبوا فوقها، ونوعاً من المسرح حيث يمكن للحرية أن تظهر». (أزمة الثقافة، م س، ص 200). وهكذا تعود آرنندت نفسها إلى المسرح، وذلك من

خلال إهمال بعده المخيالي. ونذكر هنا المسافة التي تفصل فينومينولوجيا آرندت المشبعة بفكر هايدغر عن فينومينولوجيا ميرلو - بونتي التي غيرت بعمق فينومينولوجيا سارتر حول المخيال، وتأثرت بقراءة ألان (Alain)، وذلك بالرغم من الارتباطات الوثيقة والثابتة بينهما، ومن اللافت أنه حين تفكر آرندت في كتاب *المرنمي واللا مرنمي* الذي يعتبر تلميحاً إلى شروح ألان في كتابه *Les Dieux* فإنها تعتمد موضوع "الملا" وليس المخيال (حياة الفكر، م س، ص 39، 40، 47، 49). وقد أشرنا، حول هذه النقطة، إلى أهمية عودة ميرلو - بونتي إلى نظرية باشلار حول المخيال. إن تفرد المساهمة الفرنسية في تاريخ الفينومينولوجيا، سيقتني في رأينا، إذا سبر ضمن هذه الرؤية.

(10) تعرفت آرندت على التقاليد الجمهورية من خلال كتاب زيرا فينك، *الجمهوريون الكلاسيكيون*، م س، الذي يولي أهمية مركزية لجيمس هارنغتون (أكثر من مكياثيلي) ولا يهتم بموضوع النزاع إلا قليلاً.

(11) A. Kojève, *Introduction à la lecture de Hegel*, R. Queneau (éd.), Paris, Gallimard, 1947, p. 161-195 (ألكساندر كوجيف، *مدخل إلى قراءة هيغل*؛ جان هيبوليت، *أصل فينومينولوجيا الفكر وبنيتها*، م س، ص 151-171؛ *أعلام الفكر الفلسفي*، م س، ص 73 وما يليها).

(12) A. J. Parel, *The Machiavellian Cosmos*, New Haven-London, Yale University Press, 1992, chap. 6, (Humours), p. 1001-112 (أنتوني ج. پارل *الكون المكياثيلي*). أضف إلى ذلك أن كلمة «تقسيم» تعتبر من دون شك، صدى لتحليلات لاكان لدى لوفور، بالرغم من ظهورها عند مكياثيلي.

(13) A. Heller, *Renaissance Man*, trad. R.E. Allen, London, Routledge & K. Paul, 1978. (أنياس هيلر، *رجل عصر النهضة*) يبالغ پارل مع ذلك، في تجديد هدفه ويقلل من أهمية معرفة المفسرين بنظرية «الأمزجة». وهكذا يشير أوغو دوتي من دون اعتماد القراءة الماركسية لمكياثيلي إلى أنه وجد لديه حدىً بما سنسميه «صراع الطبقات»، غير أنه يوضح بأن مصطلح «المزاج» يعود إلى علم غاليلان (U. Dotti, *Niccolò Machiavelli*, La fenomenologia del potere, Milano, Feltrinelli, 1979, p. 64). *فينومينولوجيا الممكن*. يستند دوتي في هذا التحليل على كتاب O. Tommasini, *La vita e gli scritti di Niccolò Machiavelli*, Torino, Loescher Editore, 1889-1911, p. 38 sq. (حياة نيكولو مكياثيلي وكتابه). لم يكن المنظور الذي فتحه پارل على درجة عالية من التجديد. انظر: سيرج أوديه، *نظريات الجمهورية*، م س، ص 18-19، من أجل عرض نقدي لهذا التفسير.

(14) أنتوني ج. پارل، م ن، ص 111. ما هو صحيح هو أن لوفور يستدعي أحياناً مفهوم «الطبقة»، انظر: مقدمة *أحاديث حول العقد الأول من حكم تيت ليف*، م س. حيث يشير لوفور إلى «التضاد في رغبات الطبقتين، الكبار والشعب»، ص 10. ومع ذلك لم يعد أفق هذه القراءة ماركسياً.

(15) م ن، يقطع بارل، بذلك، الصلة بالتقاليد التفسيرية التي تجعل من مكياڤلي، غاليليه السياسة. ويبدو أن منهجه يشكل صدى لمنهج أوغو فريدرش (H. Friedrich) الذي بين، بشكل واضح، أن مونتيني (Montaigne) لا يستبق الثورة العلمية الحديثة. (Montaigne, trad. R. Rovini, Paris, Gallimard, 1968, p. 151-155) (مونتيني).

(16) انظر بخاصة: R. Esposito, *La politica e la storia. Machiavelli e Vico*, Napoli, Liguori Editore, 1980; (السياسة والتاريخ، مكياڤلي وفيكو). *Ordine e conflitto. Machiavelli e la letteratura politica del Rinascimento italiano*, Napoli, Liguori Editore, 1984; (تاريخ النزاع، مكياڤلي والأدب السياسي لعصر النهضة الإيطالية). Cadoni, *Crisi della mediazione politica e conflitti sociali: N. Machiavelli, F. Guicciardini, D. Giannotti*, Roma, Jouvence Editore, 1994; (أزمة الوساطة السياسية، النزاعات الاجتماعية). انظر أيضاً: تحليلات de F. Bruni, *La città divisa. Le parti e il bene comune da Dante a Guicciardini*, Bologne, Il Mulino, 2003, p. 458-474. المنقسمة، الحزب والجماعة الطيبة، من دائتي إلى غويتشارديني). لقد قام ساسو (Sasso) الذي أهمل في فرنسا بشكل يدعو للدهشة، بدور هام في الدراسات حول مكياڤلي. انظر المرجع الكلاسيكي: (Niccolò Machiavelli, Bologne, Il Mulino, t. I, 1993. et t. II, 1993. (notamment le chap. VI) وفي للمراجع الإنكليزية انظر: A. Bonadeo, *Corruption, Conflict, and Power in the Works and Times of Niccolò Machiavelli*, Berkeley, University of California Press, 1973) (الفساد والنزاع والقوة في أعمال نيقولا مكياڤلي وزمانه). إن بوناديو الذي لم يكن معروفاً مثل تفسيرات بوكوك وسكيتير، كان أكثر عمقاً وأكثر ملائمة. ولا يمكن تفسير عدم التوازن هذا إلا اعتماداً على علم اجتماع الحقل الجامعي.

(17) J.G.A. Pocock, *Le moment machiavélien*, p. 196 (اللحظة المكياڤلية، ص 196).

(18) لقد قام جان فايان سبيتس بتعميق تفسير بوكوك هذا، إذ رأى أن مكياڤلي يأخذ مكاناً ضمن هيولى أكثر تسامحاً، إنها هيولى «النزعة الإنسانية المدنية» التي اشتملت على معاصرين، مثل غويتشارديني كما على سابقين مثل سالوتاتي وبروني. ويرى سبيتس أن جميع هؤلاء الكتاب يساهمون في «تصور أنثروبولوجي يعرف الإنسان بأنه كائن سياسي في الجوهر، لا تتحقق طبيعته إلا في خلاص المواطن ومشاركته العقلية في الحياة العامة ضمن جمهورية فاضلة». وينضم كل من سالوتاتي وبروني ومكياڤلي وغويتشارديني، جميعهم، في النهاية إلى أنموذج «المدرسة الأرسطية» ودستور أرسطو وبوليب المختلط (J.-F. Spitz, «Humanisme civique», in Ph. Raynaud, S. Rials (dir.), *Dictionnaire de philosophie politique*, Paris, PUF, 1996) («النزعة الإنسانية المدنية» في قاموس الفلسفة السياسية). يدفع هذا التحليل المتأثر ببوكوك (والمشتب إليه) إلى التساؤل عما إذا كانت «النزعة الإنسانية المدنية» تنسجم على هذا النحو، مع تعددية تصورات الخير التي تميز المجتمعات الديمقراطية. وإذا وافقنا على أفكار رولس، في كتابه

الليبرالية السياسية، م س)، فإن «النزعة الإنسانية المدنية» - بالمعنى الذي يعتمد عليه بوكوك - لا تنسجم مع تعددية القيم. وعلى العكس، ووفقاً لسبيتس، فإن فرضيات بوكوك لا تنادي قطعاً بالعودة إلى النموذج قديم الحرية لا ينسجم مع التعددية الحديثة (الحرية السياسية، م س. ومع ذلك، إذا قبلنا معه بأن «النزعة الإنسانية المدنية» وفقاً لبوكوك تتطلب الفرضية التي ترى أن الإنسان لا يحقق جوهره وتميزه إلا في المشاركة السياسية الفعالة، فيمكننا أن نختتم بالقول إن هذا الكون بعيد عن أن يكون حديثاً وتعددياً بشكل كامل. وذلك لأنه إذا اتبعنا منطق تفكير بوكوك، فإن فرداً لا يجعل السياسة من أولياته لا يعتبر إنساناً كاملاً. غير أن أطروحة من هذا النوع تناقض الأفكار الأكثر عمقاً في الحداثة. يشرح ميرلو - بونتي في أحد نصوصه حول الرسم قائلاً: إن الأنظمة التي تهاجم الرسم «المنحط» نادراً ما تدمر اللوحات وإنما لا نعتب على سيزان (Cézanne) لأنه عاش متخفياً في منطقة الإستاك (Estaque)، خلال حرب 1870 (L'œil et l'esprit, préf. C. Lefort, Paris, Gallimard, 1964) (العين والفكر) ومع ذلك، لا يعتبر هذا التأكيد صالحاً بشكل كامل، في خطاب «النزعة الإنسانية المدنية»، كما يظن بوكوك أن بإمكانه استعادته أقله: فوفقاً لمعايير هذا الخطاب، لن يكون سيزان رجلاً حقيقياً. وأخيراً، إن وصف بوكوك «للنزعة الإنسانية المدنية» ليس مقنعاً تماماً، كما توحي بذلك أعمال فيرولي التي تبين، إضافة إلى ذلك، الفروق ضمن الحقل المدروس من قبل بوكوك (ماوريزيو فيرولي، من أجل حب الوطن، م س، ص 23). ينطبق تحليل بوكوك، بشكل أفضل على فرضيات روسو التي تثير مشكلة هنا، بشكل حقيقي (انظر حول هذه النقطة الأخيرة: B. Kriegel, «La cité républicaine Rousseau contre les philosophes», dans La cité républicaine. Les chemins de l'État, 4, Paris, Galilée, 1998, p. 91-100. «المدينة الجمهورية: روسو ضد الفلاسفة» في المحاضرة الجمهورية، دروب الدولة).

- (19) كوانتن سكينر، أسس الفكر السياسي المعاصر، م س، ص 263.
- (20) لا يخصص سكينر لهذا سوى صفتين من أكثر من 800 صفحة.
- (21) كوانتن سكينر، أسس الفكر السياسي المعاصر، م س، ص 233. يقلل سكينر هنا، كثيراً، كما الجمهوريون الجدد الآخرون، من أهمية تعقيد مشكلة علاقة مكيافيلي بنظرية «الدستور المختلط» التي أطلع مكيافيلي عليها من خلال بوليب، وليس من خلال أرسطو (A. Momigliano «Polybius's reappearance in Western Europe», dans Fondation Hardt pour l'étude de l'antiquité classique. Entretiens, t. XX. Polybe, Genève, 1974, p. 347-362) («انبعاث بوليب في أوروبا الغربية» في مؤسسة هاردت من أجل دراسة العصور القديمة الكلاسيكية، مقابلات، الجزء العشرون). وتلك نقطة هامة: لا يجوز الخلط بين أطروحات أرسطو وبوليب (انظر: حول هذه النقطة كلود نيكوليه «بوليب والمؤسسات الرومانية»، م س، ص 209-265. ومن أجل تحليل أكثر تفصيلاً، يبين في النهاية المسافة التي تفصل مكيافيلي عن نظرية «الدستور المختلط» بما

في ذلك لدى بوليب، انظر: (F. Bausi, *I "Discorsi" di Niccolò Machiavelli. Genesi e*) (*strutture*, Firenze, Sansoni, 1985, p. 16 sq) (فرانشيسكو بوسي، *أحاديث نيقولو مكياڤيلي أصلها وبنيتها*). وفيما تتطلب نظرية الدستور المختلط في الحقيقة عناصر ثلاثة، إن مكياڤيلي يركز تحليله على مجموعتين: الشعب والكبار. لبنين إضافة إلى ذلك، أن نظرية «الدستور المختلط» قد استخدمت من قبل مفكري عصر النهضة مثل، دوناتو جيانوتي، كجهاز مهياً لتحديد النزاع. حول مساهمة جيانوتي، انظر: الأعمال الهامة لجيورجيو كادوني، *أزمة الوساطة السياسية*، م. س. تسمح هذه الفردة بتحديد المسافة الكبيرة جداً التي تفصل مكياڤيلي عن سالواتي وبروني (المسافة التي أساء بوكوك ومدرسته تقديرها) وكذلك بتحديد الخلافات العميقة مع غويتشارديني. ينتبه هذا الأخير في كتابه *ملاحظات حول أحاديث مكياڤيلي حول العقد الأول من حكم تيت ليش*، إلى أن ليس «الانفصال بين العامة والشيوخ ما جعل من روما دولة حرة وقوية»، لأنه كان من الأفضل ألا توجد أسباب هذا الانفصال. ومع ذلك، يعترف بأن مكياڤيلي يمتلك جزءاً من الحقيقة، إلا أنه يعترض عليه بالقول إن مديح الانفصال مثل مديح مريض، بسبب طبيعة العلاج الذي نقدمه له. ويرى غويتشارديني في الانقسامات علامات مرض الجسد الاجتماعي، وليس مؤشر صحة؛ وحول مساهمة غويتشارديني، انظر: الخلاصة الممتازة التي تحتوي على بعض الانتقادات الموجهة إلى بوكوك والتي توصل إليها جيورجيو كادوني (G. Cadoni, *Un governato immaginato. L'universo*) (*politico di Francesco Guicciardini*, Roma, Jouvence, 1999) (الكون السياسي لفرانشيسكو غويتشارديني، أربع دراسات). انظر أيضاً: (G. Sasso,) («Guicciardini e Machiavelli», dans *Per Francesco Guicciardini. Quattro studi*, Roma, Istituto storico italiano per il Medio Evo, 1984) (جيناو ساسو «غويتشارديني ومكياڤيلي» في من أجل فرانشيسكو غويتشارديني، أربع دراسات)، وأخيراً يمكننا الرجوع إلى كتاب (F. Gilbert, *Machiavel et Guichardin*, trad. J. Vивиès, Paris, Seuil,) (1996) (فرانسوا جيلبير الكلاسيكي، مكياڤيلي وغويتشارديني).

(22) M. P. Edmond, *Aristote. La politique des citoyens et la contingence*, Paris, Payot, 2000, p. 170 sq.

(23) وبطريقة أكثر دقة، يبين دوتي أن موقف مكياڤيلي في الأمير يعبر عن نزعة إنسانية جديدة لا تشبه النزعة الإنسانية المدنية (U. Dotti, *La città dell'uomo. L'Umanesimo da*) (*Petrarca a Montaigne*, Roma, Editori Riuniti, 1992, p. 158 sq) (أوغو دوتي، *مدنية الإنسان، النزعة الإنسانية من بيترايك إلى مونتيني*).

(24) كما هو الحال دوماً لدى سكيتر، يتم منح قيمة زائدة للبعد «الذرائعي». إن التحليلات التي قدمها سكيتر، في ما بعد، من خلال التمايز بشكل أكبر عن بوكوك، ومن خلال التقليل من أهمية الصيغة الأرسطية، سوف لن تغير الأمور بشكل جذري، في هذا السياق. أضف إلى ذلك أنه، ومع الإلحاح على وجود تفكير حول شروط الحرية

- الشخصية لدى ميكافلي، فإن سكينر يقلل أيضاً من أهمية مكانة موضوع "التقاليد السياسية، كما يقلل من أهمية عدم التوافق بين "الأمزجة".
- (25) فيليب بتييت، *النزعة الجمهورية*، م س، ص 183 وما يليها.
- (26) انظر: حول هذه النقطة نقد ميركيور (Merquior) لكتاب «الكلمات والأشياء» (J.-G. Merquior, *Foucault ou le nihilisme de la chaire*, trad. M. Azuelos, Paris, PUF, 1986, p. 62 sq.) (خوسيه غيلهرم ميركيور، *فوكو أو عدمية كرسي الأستاذ*. انظر أيضاً: مناقشة فوكو من قبل أوليفيه رفو دالون (O. Revault d'Allonnes, «Michel Foucault: les mots contre les choses», dans *Structuralisme et marxisme*, Paris, UGE, 1970, p. 13-37. الكلمات ضد الأشياء» في *البنوية والماركسية*). وحول حدود مفهوم فوكو للمعتقدات، انظر: أخيراً أعمال باولو روسي، أحد أهم الاختصاصيين في تاريخ العلوم في القرن السادس عشر (Francesco Bacone. *Dalla magia alla scienza*, Bologna, Il Mulino, 2004;) (فرانشيسكو باكوني، *من السحر إلى العلم*)؛ Paragone degli ingegni moderni e postmoderni, Bologna, Il Mulino, 1989. (المقارنة بين الحداثة وما بعد الحداثة) (Naufragi senza spettatore. *L'idea di progresso*, Bologna, Il Mulino, 1995, p. 14. فكرة التقدم). ويقوم عمل پارل، في النهاية، في رأينا، على بعض المسلمات المتعلقة بطبيعة العلم في زمن ميكافلي التي تقلل من قيمة النقاشات المعاصرة حول هذه المسائل (من أجل قائمة مرجعية حول هذا الموضوع، انظر: C. Shapin, *La révolution scientifique*, trad. C. Larssonneur, Paris, Flammarion, 1996. (ستفن شابين، *الثورة العلمية*)).
- (27) H. C. Mansfield, *Le Prince apprivoisé. De l'ambivalence du pouvoir*, trad. P.-E. Dauzat, Paris, Fayard, 1994, p. 14-15 et 198. (هارفي كلافلين مانسفيلد، «الأمير المدجن» في *غموض السلطة*).
- (28) م ن، ص 195.
- (29) جاك مارتينان، *الفلسفة الأخلاقية، في الأعمال الكاملة*، الجزء التاسع، م س، ص 397.
- (30) L. Strauss, *La philosophie politique de Hobbes*, trad. A. Enegrén et M.B. de Launay, Paris, Belin, 1991. (ليو ستروس، *فلسفة هوبس السياسية*).
- (31) انظر: بخاصة، فيليب بتييت (Ph. Pettit)، *النزعة الجمهورية*، م س، ص 37 وما يليها. انظر أيضاً: كوانتن سكينر، *الحرية قبل النزعة الليبرالية*، م س، ص 19.
- (32) انظر: نقد ليبرالي إيطالي، S. Alloggio, *Critica della concezione dello Stato in Tommaso Hobbes*, Napoli Casa Editrice Sabina, 1930. (سيرجيو ألوجيو) (S. Alloggio)، *نقد تصور الدولة لدى توماس هوبس*. يشير ألوجيو إلى أن هوبس «يكره الصراع من حيث المبدأ»، وذلك بعد وضعه ضمن السياق، ص 47.
- (33) لا يعني هذا الأمر أن هناك استمراراً مباشراً بين بودان وهوبس، وحول تفرد لحظة بودان، انظر: (التحليلات الواضحة لجان فايان سبيتس J.-F. Spitz, *Bodin et la souveraineté*, Paris, PUF, 1998. (بودان والسيادة)).

(34) لقد جرى استقبال تفسير بوكوك هذا، ضمن خياراته الكبرى، مع نوع من الشك من قبل بعض الاختصاصيين في هارنغتون. انظر: (G. Proccacci, *Machiavelli nella cultura*) (ج. بروكاتشي *مكيافيلي في الثقافة الأوروبية في العصر الحديث*). وهكذا فقد أيد جان فايان سبيتس قراءة بوكوك الذي وضع هارنغتون في سياق مكيافيلي، ومجموعة «الإنسانية المدنية»، في ما عدا مسألة الملكية. (جان فايان سبيتس، النزعة الإنسانية «المدنية» مق س) ومن أجل نقد شامل لإعادة بناء بوكوك، أسمح لنفسني بالإعادة إلى سيرج أوديه نظريات الجمهورية، م س، ص 15.

(35) يعتبر ألفيرنون سيدني (Algernon Sidney)، من النزعة الجمهورية البريطانية، بهذا المعنى، كاتباً أكثر قرباً من مكيافيلي، وليس هارنغتون، فإن كانت هناك «لحظة مكيافيلية» بالمعنى الحرفي للكلمة، فعلينا بالأحرى أن نسير في هذا الاتجاه الأول، فهارنغتون هو أقرب من غويتشاردين، بخاصة في ما يتعلق بالأمودج الفينيقي الذي عرفه من خلال جيانوتي وكونتارين ولا نجد من النزعة الجمهورية النزاعية لمكيافيلي، في النتيجة، سوى آثاراً قليلة جداً لدى هارنغتون: فهو يرى ألا نزاع بين الأحزاب، بالمعنى المكيافيلي للكلمة، في جمهورية منسجمة. كما لا نجد أيضاً لدى هارنغتون عدم الثقة التي نجدها لدى مكيافيلي في ما يتعلق بطبقة النبلاء. أضف إلى ذلك أنه يلح أقل بكثير من مكيافيلي، على اليقظة الضرورية ومساهمة المواطنين في الحياة العامة. لذلك يجد الشعب نفسه مكلفاً بدور مختصر جداً، لديه في الواقع: فعليه قبل كل شيء أن يقبل أو يرفض القرارات الصادرة عن مداولات أرستقراطية بالضرورة. وتعتبر سلطته في المراقبة والتدخل في قرارات النخب السياسية محدودة جداً، على عكس ما هو الحال لدى مكيافيلي. لذلك يعتبر هارنغتون، وهو يقطع في ذلك الصلة بمكيافيلي، أن إسبارطة ديمقراطية بالقدر الذي تقوم فيه هذه الديمقراطية على المساواة الاقتصادية وحيث بإمكان الشعب أن يختار شيوخه ويؤيد المداولات. وبالروح نفسها، تعتبر جمهورية البندقية (فينيزيا) الأرستقراطية ديمقراطية على عكس ما يراه مكيافيلي، فيما تقتصر حكومتها على فئة محدودة جداً. وعلينا أن نشير إلى اختلاف رئيس آخر مع مكيافيلي: يحكم هارنغتون بقسوة على الجمهورية الرومانية والنزاعات التي تقوم في ما بين مجلس الشيوخ والرعايا، مما يحیی إسبارطة من أجل السلم الداخلي والاستقرار. ويعترينا الأسف لأن شرح بوكوك قد أهمل مشروع فيليكس راب (F. Raab) الذي يحتوي على ملاحظات هامة، بالرغم من أنها ذات طابع محدود، وذلك في ما يتعلق بهارنغتون وعلاقته بمكيافيلي وهوبس (F. Raab, *The English Face of Machiavelli*, London, Routledge & Kegan Paul, 1965, chap. VI, «Harrington, Hobbes, God and Machiavelli»), p. 185-217. *الوجه الإنكليزي لمكيافيل: الفصل السادس «هارنغتون وهوبس وغود ومكيافيلي»*).

(36) درس ماوريزيو فيرولي هذا الاستمرار في كتاب: (M. Viroli, *Jean-Jacques Rousseau e la teoria della società bene ordinata*, Bologna, Il Mulino, 1993) (جان جاك روسو

نظرية المجتمع جيد التنظيم). ومع ذلك يقبل فيرولي بشكل عَرَضِي بوجود مسافة بين روسو ومكيافيلي ترتبط بموضوع العقد. انظر: النزعة الجمهورية، م س؛ وانظر: (A.M. Revedin, *Politica e verità. Jean-Jacques Rousseau e il ritorno del principe*, Milano, (Giuffrè, 1983, p. 268 sq. (أنطون مارينو، رُقْدِين، السياسة والحقيقة، جان جاك روسو، العودة إلى المبدأ). من بين مفسرين من آفاق أخرى انظر: (R. Wokler, (Rousseau, Oxford-New York, University Press, 1995Oxford) (روبرت ووكلر، روسو) مع ذلك بلح ووكلر على الفرق بين مكيافيلي وروسو في ما يتعلق بتقييم المسيحية. غير أننا هنا أمام خلاف جوهري. ويضع جان فاييان سبيتس، الأقرب إلى فيرولي، وخصوصاً إلى بوكوك روسو (ومابلي)، في مسار «النزعة الإنسانية المدنية» بخاصة نزعة مكيافيلي (جان فاييان سبيتس، «النزعة الإنسانية المدنية»، مق س)؛ انظر أيضاً: مقدمة جان فاييان سبيتس لكتاب **اللحظة المكيافيلية**، التي تضم توكفيل إلى هذه التقاليد.

(37) Q. Skinner, «Sur la justice, le bien commun et la priorité de la liberté», dans A. Berten p. da Silveira, H. Pourtois (éd.), *Libéraux et communautariens*, Paris, PUF, 1997, p. 218 (كوانتن سكينر «حول العدالة والخير المشترك وأولية الحرية» في **ليبراليون وجماعيون**). وحول العلاقة المحتملة بين مكيافيلي وروسو، انظر أيضاً: فيليب بتييت «الفكرة الجمهورية» مق س، ص 201.

(38) إنه لأمر ذو دلالة ألا يشير الجمهوريون الجدد، كما الاختصاصيون بروسو جميعاً، إلى كتاب نعتيره أساسياً (P. Riley, *The General Will before Rousseau*, Princeton, (Princeton University. Press, 1986) بين ريلي ضمن هذه الدراسة الغنية، الأهمية الكبرى للمقولات الشرعية وصياغتها الفلسفية من قبل مالبرانش في أصل التعارض بين «الإرادة العامة» و«الإرادات الخاصة». ولقد رسخ هذا التناقض بشكل تدريجي من قبل كتاب تأثروا بمالبرانش: بَيْل (Bayle) (الفصل الثاني) ومونتسكيو (الفصل الرابع)، وأخيراً ديدرو، بخاصة روسو (الفصل الخامس). وتبرز مؤلفاته خاتمة مسار ترسيخ الإرادة العامة من خلال تعديل واضح لأطروحات ديدرو. ويجعل عدم الاعتراف بهذا النسب التفسيرات الجمهورية الجديدة هشة جداً. فقد أقام فيرولي، مثلاً رابطاً بين روسو ومكيافيلي حول موضوع الفضيلة من خلال إبراز أن الطابع الانفعالي للفضيلة الأخلاقية لدى روسو ليس «صوت الضمير الذي يتكلم ضمن العواطف» (من أجل محبة الوطن، م س، ص 80). إذا أعاد روسو، إذاً، توظيف مقولة الإرادة العامة من المنظور التاريخي، فذلك لأنه يُعتبر الأكثر قرباً من وجهة نظر فلسفية، من مالبرانش إلى مكيافيلي... لقد استعير هذا النوع من التعبير، في الواقع، من مالبرانش، في كتابه **بحث في الأخلاق**، وذلك بواسطة ديدرو.

(39) لقد درس هذا الموضوع أيضاً وبشكل جيد، من قبل آرثر م. ميلنزر (A.M. Melzer, *Rousseau. La bonté naturelle de l'homme. Essai sur le système de pensée de Rousseau*, (trad. J. Mouchard, Paris, Belin, 1998, p. 348-349. (روسو طبيعة الإنسان الطبيعية،

بحث حول نظام التفكير لدى روسو). ومع ذلك فقد نسينا أنه قد تمت الإشارة إلى هذه التأكيدات من قبل معاصري روسو المؤيدين للملكية الفردية، والذين أصابهم الرعب من دفاعه الآتي عن الانشقاقات. انظر: كتاب 1762 (الذي أعيد نشره عام 1789، من أجل الدفاع عن الملكية الفردية لمؤلفه غيوم-فرانسوا بيرتييه (G.F. Berthier, «À l'écart», 1988. (ملاحظات حول العقد الاجتماعي لجان جاك روسو). يشير بيرتييه «أن الحرب الأهلية هي أعظم الشرور التي تصيب دولة، بعامه، ومن الاستهتار بصير القراء القول إن "بلاد الإغريق قد ازدهرت في أحضان الحروب القاسية، وحين سأل فيها الدم مدراراً، ص 202)"» يواجه بيرتييه هذا الرأي بنقد أرسطو للانشقاقات ومدعيه "للانسجام". لنشر أن بيرتييه قد وجد المصدر المباشر لنص روسو هذا لدى سيديني وليس لدى مكيافيلي الذي تأثر بعمق بالإرث المكيافيلي، في هذا الشأن).

(40) أضف إلى ذلك أنه من المخبى أن نرى الجمهوريين الجدد يتبنون وجود استمرار بين مكيافيلي وروسو فيما عالماهما مختلفان بشكل جذري. فيما يرى روسو، كما بين ذلك ستاروبنسكي أن أنموذج المجتمع الصالح هو أنموذج مدينة صغيرة حيث العلاقات بين الناس شفافة، وتلك مثالية غائبة لدى مكيافيلي: تكشف هنا، ارتباطاً في البنية بين أنموذج العيد الجمعي وأنموذج الإرادة العامة (جان ستاروبنسكي، جان جاك روسو، الشفافية والحاجز، م س، ص 120). يعارض العيد المسرح، كما يعارض عالم "الشفافية" عالم "الكثافة"، ص 118. إن أنموذج الأكثرية الذي احتفى به في قصته لانونفيل إيلويز (La Nouvelle Héloïse)، يقدم معشر كلارنس (Clarens) باعتباره «مكاناً خالياً من أي نزاع يهدد انسجام الجماعة»، ص 123. وهكذا نجد عند روسو هنا رفضاً ثنائياً - لا يمكن الجمع بين طرفيه، من وجهة نظرنا - للنزاع الاجتماعي وللحالة المسرحية باعتبارها وسيطاً مشؤوماً (J.-J. Rousseau, Lettre à M. d'Alembert, Paris, Flammarion, 1967 (رسالة إلى السيد دالمبير). لن يكون بإمكاننا أن نبتعد أكثر عن التساؤل المكيافيلي حول المظهر والحالة المسرحية (في ما يتعلق بمكيافيلي والمسرح، انظر: (E. Raimondi, Politica e commedia. Il centauro disarmato, Bologna, Il Mulino, 1998 (إيزيو ريموندي، السياسة والكوميديا المستور الأعزل). لا يجوز للتوافقات الجزئية بين الكاتبين أن تقودنا إلى النتائج الخاطئة التي توصل إليها الجمهوريون الجدد.

(41) لقد ركز روبرت ووكلر بشدة على هذه النقطة في كتابه روسو، م س، ص 110-111. انظر أيضاً: (S. Sayers, Plato's Republic: An Introduction, Edimbourg, Edinburgh University Press, 1999, p. 63. (شين سيرز، جمهورية أفلاطون). وبالمقابل، يهمل الجمهوري الجديد فيرولي، بشكل كامل، هذا النسب لمصلحة المساهمة الشيثرونية (نسبة إلى شيثرون)، انظر: ماوريزيو فيرولي، جان جاك روسو ونظرية المجتمع حسن التنظيم، م س، ص 153.

(42) حول روسو ومسألة النموذج الإسبارطي، من اللافت أيضاً ميل الجمهوريين الجدد إلى استبعاد الكتاب الذين لا يندرجون بشكل واضح ضمن المسار الفكري لروسو ومابلي، من تحليلاتهم (وهم كتاب لا نستطيع أن نقلل، مع ذلك، من أهمية الفروق بينهم، كما بينت ذلك بريجيت كوست (B. Coste, *Mably pour une utopie du bon sens*, Paris, 1975. (Klincksiek, 1975. (من أجل طوباوية المنطق)). وتمثل الحالة الأكثر وضوحاً في معالجتهم لمساهمة كوندورسيه (Condorcet)، التي تعتبر حاسمة، مع ذلك. وهكذا يرفض بوكوك أحياناً كوندورسيه، وذلك لأسباب بديهية: ذلك لأن هذا الأخير، لا يدخل ضمن مخططه، لأنه قد أدان النموذج الإسبارطي وكذلك نقد العلوم والفنون المتأثر بروسو. ومع ذلك، فإنه لمن الاعتباطي أن نصنف مفكراً كان من أوائل من دافع عن الجمهورية إبان الثورة الفرنسية (مع توماس بين (T. Paine) وكان لثقله دور مركزي في إعادة تعريف أفكار الجمهورية الثالثة، خارج النزعة الجمهورية: لقد اعترف كل من بويسون (Buisson) أو فيري أو جوريس بدينهم في هذا المجال. وعلمنا أن نشير بالمقابل إلى أن كوندورسيه قد انضم إلى الإرث الجمهوري الأوروبي، انظر: كتابه *حياة فولتير* الصادر عام 1787 (Vie de Voltaire parue en 1787, Paris, Librairie de la bibliothèque nationale 1895, p. 152. حيث يحيل إلى ألجيرنون سيدني. وتعود الصعوبة التي واجهها بوكوك في الانضمام إلى هذه التقاليد أيضاً، إلى تفكيره الناقص حول مكانة العلم والتكنولوجيا في الأفكار الجمهورية الحديثة. فقد أشار بوكوك إلى أن النزعة الجمهورية تشير إلى نهضة النموذج الأرسطي «للحيوان السياسي»، إلا أنه لا يبدو أنه قد اهتم سوى قليلاً بالطريقة التي نشأت فيها فكرة التقدم في العلوم والتكنولوجيا، خلافاً لرأي أرسطو، في جزء كبير منها. انظر: حول هذه النقطة تحليلات باولو روسي (P. Rossi, *I filosofi e le macchine*, Bologna, Il Mulino, 1962, p. 23 sq. (الفلسفة والآلة)). وكما بين ذلك ب. روسي، فإن رهان الخطابات التي تعيد الاعتبار للثقافة لا تنفصل عن السياسة: فيما استبعد أرسطو العبيد والحرفيين أيضاً من مفهوم المواطنة (وهذا موضوع لا يتوقف عنده الجمهوريون الجدد، إلا قليلاً جداً، ما يثير الاستغراب)، فإن أنصار التقدم العلمي والتقني يخرجون المهن اليدوية من الصنف الذي فرضته عليها تقاليد عريقة. ونجد في هذه اللفتة عنصر قطع ينتمي إلى النموذج الأرسطي، يمكن أن ندرك نتائجه، حتى لدى كوندورسيه ومنظري الجمهورية الثالثة. أضف إلى ذلك أنه، وبعيداً عن إدانة روسو للعلوم والفنون، فقد ربط الجمهوريون، في الغالب، تقدم مفهوم المواطنة بتقدم العلوم، وهذا واضح حتى لدى مازيني الذي يجد الدور المحرر لكوبرنيك وغاليليه، في تحرير البشرية). إن القول بأن الدفاع الجمهوري عن العلوم قد ساعد، مع ذلك، أحياناً، في تكوين تصور علمي للمجتمع والتاريخ ضد مصلحة أفكار المواطنة، مسألة أخرى، تسمح أيضاً بإقامة بعض الحواجز في وجه النزعة الجمهورية التي تبناها كوندورسيه (من أجل تحليل قريب من بوكوك، الذي يستبعد كوندورسيه من النزعة الجمهورية ليجعل منه ليبرالياً، انظر أيضاً: جان فايان سبيتس، الحرية الجمهورية، م س، ص 499-500.

(43) لنشر مع ذلك إلى أن فيليب بتييت قد حول مونتسكيو أحياناً إلى جمهوري، وهذا أمر مثير للاستغراب، كما هو الحال مع توكفيل، مما يسمح بتقليص حيز الليبرالية بذكاء.

(44) مونتسكيو، *تأملات حول أسباب عظمة الرومان وانحطاطهم، الأعمال الكاملة الجزء الثاني*، (م، س، ص 74). نجد الوساطة بين مكيافيلي ومونتسكيو، بكل تأكيد، في الفكر الجمهوري للجيرون سيديني. حول مساهمة سيديني انظر: (P. Carrive, *La pensée* (politique anglaise. De Hooker à Hume, Paris, PUF, 1994, p. 248-268. (بوليست

كاريف، *الفكر السياسي الإنكليزي من هوكر إلى هيوم*). يشير سيديني من خلال تبني تعاليم مكيافيلي إلى الطابع الحتمي، والجيد ضمناً للمشاغبات والنزاعات. ولا يمنع سيديني على عكس هارنغتون، مكانة حاسمة لتوازن الخصائص، كما أنه لا يولي قيمة للاستقرار المكاني، وذلك لأنه يرى على العكس، أن على الحياة السياسية أن تكون فعالة ومتحركة وقادرة على التأقلم مع التغيرات. ونجد أحد أهم نصوص سيديني حول موضوع "المشاغبات" في كتاب الحديث عن نظام الحكم الجزء الثاني، القسم 26. لقد صدم هذا النوع من التحليل، بعمق، أنصار الملكية. وهكذا ينتقد الأب غيوم فرانسوا برتية سيديني قائلاً: «لا يراعي هذا الكاتب أي حد في اللوحة البغيضة التي يرسمها عن الأمم الخاضعة والحكام، فهو يمتدح انقسامات الإغريق القديمة، والرومان والفلورنتساوين، وبفضلها بشكل نهائي، على هدوء هذه الشعوب نفسها، التي تعيش تحت سلطة ولادة سينين». «*تأملات حول النقد الاجتماعي*»، م، س، ص 200-201.

(45) يشير مونتسكيو في كتابه *الرسائل الفارسية* (136) أيضاً، إلى الطريقة التي أبعثت فيها الحرية الإنكليزية «نيران الشقاق والتمرد».

(46) نجد لدى فيرغسون مديحاً للنزاع و"المشاغبات" (وكان أستاذه مونتسكيو، هذا القارئ الكبير لمكيافيلي، قيمة كبيرة لهذا المصطلح)، ونقداً "للهدوء"، مما يلحقه جزئياً بالتقاليد المكيافيلية. يشير فيرغسون في كتابه (Essai sur l'histoire de la société civile (trad. M. (Bergier, prés. C. Gautier), Paris, PUF, 1992. بذلك (بخاصة في القسم الأول، الفقرة 9) وبالعودة أحياناً إلى مونتسكيو، إلى خصوبة التنافس وعدم التوافق، بما في ذلك الحرب. يعتبر السلم والأغلبية عموماً المصدر الرئيس للسعادة العامة. ومع ذلك، إن النزاع بين الجماعات المتباعدة ومشاغبات الشعب الحر تشكل مبادئ الحياة السياسية ومدرسة الإنسانية الكبرى، م، س، ص 61. تبين بعض هذه التحليلات أن الحرية تنبثق من النزاع بين المواطنين الذين يساهمون بفعالية في حياة المدينة. وإذا كان فيرغسون لا يذكر مكيافيلي، فإنه قد قرأه، وذلك لأن عديداً من تحليلاته ذا طابع مكيافيلي، حتى في المفردات. وأخيراً، يظهر اعتراف فيرغسون بمكيافيلي في نصه المتأخر *تاريخ التقدم ونهاية الجمهورية الرومانية* الذي يعود إلى عام 1783.

(47) يجب، من وجهة نظر ما، أن نعدل بشكل كبير الأطروحة التي صاغها بشكل كبير ومنذ فترة طويلة ولهم هينس بخاصة (W. Hennis)، والتي يتبناها اليوم الجمهوريون الجدد - وهي تقول بالتواصل بين روسو وتوكفيل، حتى لو كان إرث روسو ثابتاً من أوجه

عدة، بخاصة على المستوى الأسلوبي. لقد دافعت أنياس أنطوان حديثاً عن هذه الأطروحة (ما لم تفكر به الديمقراطية، توكفيل المواطنة والدين، م س)، من خلال تعميق بعض تحليلات جان فايان سبيتس حول النزعة الجمهورية المتأثرة بروسو. أسح لنفسي بالإحالة إلى سيرج أوديه: «هل كان توكفيل تلميذاً لروسو؟»، مق س. انظر أيضاً: تحليل ل. د. ديلكورال حول توكفيل والعصور القديمة (L.D. del Corral, *Tocqueville. Formazione intellettuale e ambiente storico*, trad. it. O. Bin, Bologna, Il Mulino, 1989, p. 211-266.) (توكفيل التاهيل الفكري والبيئة التاريخية)؛ انظر بخاصة: الرفض المنتظم لأطروحة توكفيل التي تحمل تأثير روسو من قبل أنطون مارينو رفدين (A. M. Revedin, *Tocqueville e Rousseau. Malinconia e utopia*, Trieste, Proxima, 1992.) (توكفيل المنحوليا والطوباوية). إن البعد شاسع، في الواقع، بين توكفيل ومكيافيلي، غير أن توكفيل يحتفظ بقسم من الإرث المكيافيلي من خلال وساطة مونتسكيو بخاصة. ونجد الإشكالية المكيافيلية المتضمنة في تأملات حول أسباب عظمة الرومان والمخاطبهم، والتي تقوم على موضوعي "المشاغبات" و"الانقسامات" باعتبارهما عاملين من أجل الحرية، في جزء منهما، لدى توكفيل، مهما كانت الأهمية التي يمنحها، مع ذلك، للتوافق في المجتمع الأمريكي. ففي مديحه للمواطنة و«لتنشيط القلق» للجمهورية الأمريكية، يعود توكفيل إلى مونتسكيو من خلال الإشارة إلى أن ميل الأمريكيين إلى الحياة العامة قوي لدرجة أن حرمانهم منه يؤدي بهم إلى ألم كما هو الحال لدى المواطنين الرومان الذين وصفهم مونتسكيو وقال إنهم «عادوا فجأة إلى هدوء الحياة العامة، بعد اضطرابات الوجود السياسي (Montesquieu, *De la démocratie*) (في الديمقراطية (en Amérique, t. I, 2 e partie, chap. VI, Paris, GF-Flammarion, p. 340. في أمريكا). تؤيد تحليلات توكفيل حول فلورنسا هذا الموقف، حتى لو اختلف حكمها العام بشدة عن حكم مكيافيلي. انظر: (Notes sur Machiavel) dans Œuvres). ومع ذلك فإن من البديهي أن جزءاً كبيراً من النزعة الجمهورية المكيافيلية لا يجد نفسه لدى توكفيل الذي أعلن ابتعاده الكبير أو حتى نزعته العدائية، تجاه الفلورنساوي (كما بين ذلك پانيلا، م س). ونجد هذه النزعة العدائية في القرن التاسع عشر، حتى ضمن النزعة الجمهورية الإيطالية، بخاصة لدى مازيني. لنشر أيضاً إلى أن هناك روابط قوية بين توكفيل وفيرغسون، في ما يتعلق بنقد هدوء المجتمعات التجارية، وأخطار تقسيم العمل والتحذير من أخطار استبداد جديد قائم على زوال الفضائل المدنية، والمديح المرافق «لمشاغبات» الشعوب الحرة (حول الروابط بين توكفيل وفيرغسون، انظر: سيرج أوديه في مقاله بعنوان «هل كان توكفيل تلميذاً لروسو؟» مق س).

(48) سيدني، أحداث في الحكم، الفصل الثاني القسم 26 (ليست القلاقل والحروب أكبر الشرور التي تصيب الأمم). يرجع سيدني بوضوح، في هذا الفصل، إلى مكيافيلي في قصص فلورنساوية التي يقدم عنها قراءة انتقائية جداً، من دون عرض كاف لتعقيد

التحليل المكثف للنزاع والتعارض الجذري بين فلورنسا وروما حول هذه المسألة (من أجل شرح دقيق انظر: جيورجيو ساسو، نيكولو مكيافيلي، الجزء الثاني، م س، ص 169).

(49) انظر: تحليل سيدني: «بالرغم من كافة العصيانات التي وقعت في فلورنسا وبقيّة المدن التوسكانية وزمر «غليفي» و«جيبيلان» الرهيبة (...)، بقيت مدننا أهلة بكثافة وقوية وغنية، غير أنه وفي حقبة لا تتجاوز مئة وخمسين عاماً، دمر حكم آل دي ميديتشي السلمي تسعة أعشار شعب هذه المنطقة»، م س. سنقارن تأكيد توكفيل في «الملاحظات حول مكيافيلي» التي ترى أن «الزمن الذي مُزقت فيه فلورنسا بقسوة على يد الزمر، كان الزمن الذي صارت فيه غنية وقوية وواسعة الأفق وأديبة (...)»، فيما غابت جميع هذه الميزات الواحدة تلو الأخرى، بدءاً من الزمن الذي تمتعت فيه بالهدوء وأصبحت خاضعة»، ص 549. لا يبدو أنه قد تم إدراك هذه الروابط مع سيدني، تلك الروابط التي فتحت طريقاً أكثر أهمية من النسب بين روسو وتوكفيل. وفي الختام، إن المفسرين الذين يدافعون عن هذا النسب يغفلون الفرق الرئيس في التقويم والمتعلق بأفلاطون، وذلك لأن توكفيل يبدو شديد النقد للنزعة الأفلاطونية، على عكس روسو (حول هذا الفرق انظر: سيرج أوديه، «هل كان توكفيل تلميذاً لروسو»، مق س).

(50) فيليب بتييت، النزعة الجمهورية، م س، ص 183 وما يليها.

(51) ومع ذلك، إن تاريخ «الليبرالية الجديدة» شديد التعقيد، ولا يسمح بالتبسيط الإيديولوجي: ننسى اليوم أن ندوة والتر ليمان (Walter Lippmann) لعام 1938، كانت مركز اختلافات هامة بين الاقتصاديين الليبراليين. وكان علينا أن ننتظر طويلاً حتى نرى انتصار النسخة «الليبرالية الجديدة» التي جسدها هايك. وحول رهانات هذا النقاش، انظر: سيرج أوديه، ريمون آرون، الديمقراطية النزاعية، م س. لا نستطيع إذاً أن نتابع التحليلات المختزلة جداً التي قام بها كيث ديكسون (K. Dixon, Les évangélistes du marché, Paris, Raisons d'agir, 1988, p. 6-7). يعترف المؤلف، نفسه، بأنه يورد ندوة ليمان بشكل سيئ (وهذا أمر مزعج من أجل حفريات «الليبرالية الجديدة»)، وأنه يخلط أيضاً بين كارل بولاني (K. Polanyi) وميشيل بولاني (M. Polanyi). ومنذ ذلك الحين، اعتمدت الكثير من المؤلفات الناجحة، والتي تهجم «الليبرالية الجديدة» أعمال ديكسون السيئة مما أدى إلى استمرار تاريخ الندوة المزيف بشكل كامل. وكما نعرف، إن الليبرالية الجديدة بالمعنى الذي منحه لها هايك، قامت بدور بالغ الأهمية في نهاية 1970 في «الثورة» التي قامت في الولايات المتحدة بقيادة ريغان. وفي بريطانيا العظمى بقيادة السيدة تاتشر. وهكذا ألم تكن مصادفة تماماً أن تولد الثورة في انكلترا، وأن تفرض «الطريق الثالثة» نفسها، بعد ذلك، ليدافع عنها حزب العمال الجديد برئاسة توني بلير، وبحولها عالم الاجتماع أنتوني جيدنس إلى نظرية. يجمل المدافعون عن هذه الأطروحات، في فرنسا، والذين يدافعون عما يسمونه «يسارا جديداً» إلى عدم اعتبار «الطريق الثالثة» التي فرضت نفسها برنامجاً يضم جزءاً من الإرث الليبرالي. ويبدو رومانو پرودي (R. Prodi) واضحاً جداً حول هذه المسألة: «بعد

النجاحات الثابتة التي حققتها موجة الليبرالية الليبرالية الاقتصادية التي دافع عنها الليبراليون الجدد من خلال السماح للحكومات بالتخلي عن جهود الاقتصاد الموجه القديم وبيروقراطيته، إنها لم تتمكن من طمأنة الشعوب في مواجهة تحدي العولمة، التي يزداد انتشارها، لاقتصاداتها (رومانو برودي مقدمة الترجمة الإيطالية لأنتوني جيدنس الطريق الثالث، م س، ص 10). لا يمكن إذا تصور الطريق الثالث من دون اللحظة الليبرالية الجديدة. لذلك من غير الممكن أبداً، التأكيد في فرنسا، كما في غيرها، بأن تقاليد الاشتراكية الليبرالية ستعرف ازدهارها في «الطريق الثالث».

(52) يذكر هايك روسو نفسه (الذي ينتقده في مكان آخر) في الرسائل المكتوبة من الجبل، التي تؤكد أن لا حرية بلا قوانين، ولا حرية حيث هناك من هو فوق القانون (دستور الحرية، م س، ص 485). يستبق هايك، بشكل لافت، سكينر وبيت، في الكثير من الأمور: وهو يرجع إلى شيشرون وإلى المفهوم الروماني الجديد الريطاني (بالاستناد إلى ميلتون وسيدني، اللذين عرفهما من خلال كتاب زيرا فينك، الجمهوريون الكلاسيكيون، م س). كما ينتقد أيضاً هوبس لأنه فهم خطأ «فكرة الحرية الإغريقية»، ص 455. حول هذه الموضوعات، انظر: آلان بوييه «في آنية الجمهوريين الجدد»، مق س.

(53) N. Matteucci, *Il liberalismo in un mondo in trasformazione*, Bologna, Il Mulino, 1998 46,72/(نيكولا ماتيويتشي، النزعة الليبرالية في عالم متغير). انظر أيضاً: (N. Matteucci, «Machiavelli politologo», *Rassegna italiana di sociologia*, XI, 1990, p. 169-206)/(نيكولا ماتيويتشي «مكيافيلي، عالم السياسة»، المجلة الإيطالية لعلم الاجتماع). وانظر ضمن السياق نفسه: (N. Bobbio, *La teoria delle forme di governo nella storia*) (نوربرتو بوبيو، نظرية شكل الحكم في تاريخ الفكر السياسي).

(54) P. Gobetti, *La rivoluzione liberale. Saggio sulla lotta politica in Italia*, Torino, Einaudi, 1995, p. 134 sq. (trad. fr. M. Raiola, *La révolution libérale*, Paris, Allia, 1999, p. 124. (بيرو غوبيتي، الثورة الليبرالية، بحث حول الصراع السياسي في إيطاليا)/(الترجمة الفرنسية (الثورة الليبرالية). يؤكد غوبيتي أيضاً أن «الحلم الوطني في تدمير الطبقات أو تدجينها هو من الطبيعة نفسها للحلم السلمي: فهو ينسى الوظيفة التربوية للنزاع في حياة البشر». وكما رأينا ينبثق عن هذا حكم معقد حول الماركسية التي يرفض غوبيتي مظاهرها الحتمية، فيما يتبنى موضوعاً صراع الطبقات.

(55) F. Burzio, *Ritratti*, Torino, Ribet, 1929, p. 59. (فيليبو بورزيو، ريتراي).

(56) G. De Ruggiero, *Storia del liberalismo europeo*, Roma-Bari, Laterza, 1995. (غيدو دي رودجيرو، تاريخ الليبرالية الأوروبية). يحكي المؤلف في نص 1995 هذا «الممارسة العملية الاشتراكية لليبرالية»، إن نضال الحركة العمالية من أجل الاعتراف بها، بعيداً عن النزعة التقديرية لبرنامجها، يجعل منها أكبر حركة تحرر بشرية في تاريخها بعد الثورة الفرنسية، ص 415. ونفهم بذلك سبب انتقاد هايك لغيدو دي رودجيرو.

(57) C. Rosselli, *Socialismo liberale*, introd. N. Bobbio, Torino, Einaudi, 1997,

p. 100. (كارلو روسيلي الاشتراكية الليبرالية). يقطع روسيلي، غير منح قيمة للنزاع، الصلة بالنزعة الجمهورية لمازيني الذي كان قريباً منه في جوانب أخرى (انظر: سيرج أوديه، «النزعة الجمهورية المتفردة لإغناسيو مازيني، ومسألة الاشتراكية»، مق س، ص 47-48). إذا كان روسيلي أشد نقداً للماركسية من غوبيتي، فمن غير المنطقي أن نرى فيه عدواً لدوداً للإرث الماركسي بكامله... فحكمه شديد التعقيد في هذا المجال. انظر: (من بين آخرين كارلو روسيلي، *الاشتراكية الليبرالية*، م س، ص 73: «حين نقول إن الزمن تجاوز ماركس، فلا نقصد أبداً بأنه لم يبق شيء حي وحيوي من فكره. بل على العكس من ذلك»). ونكشف هنا بعض المسافة التي تفصل التيار «الاشتراكي الليبرالي»، عن تيار برودون. ويثبت ذلك، تحليلات أحد الوجوه البارزة في الحركة، ألدو غاروشي (A. Garosci) الذي يشير إلى أن مفهوم «الدستور الاجتماعي» قد اعتمد من قبل المفكرين التعاونيين الكاثوليك الفرنسيين «الماهرين جداً ودوماً في تبني المظاهر الرجعية لبرودون». وهكذا فقد سعى اتباع برودون الكاثوليك هؤلاء إلى «نفي الصراع الطبقي» من خلال الدعوة إلى نظام يربط العامل بالمشروع و«يمنعه من إقامة اتفاقات، على المستوى الوطني مع العمال الآخرين من صنفه»، و«يتحرك وحيداً من دون قوة أمام رب عمله» (A. Garosci, *Verso una società liberal socialista*, Quaderni del partito, 1943, p. 14-15. (d'Azione)). (ألدو غاروشي، *نحو مجتمع اشتراكي ليبرالي*) حيث نرى أن «الاشتراكية الليبرالية» تستمر في منح صراع الطبقات (بالمعنى الشامل للكلمة) دوراً هاماً، بعيداً عن التفكير في الشأن الاجتماعي ضمن إطار فردي.

(58) G. Sartori, *Croce etico-politico e filosofo della libertà*, Bologna, Il Mulino, 1997.

(جيوفاي سارتوري، *المبادئ الأخلاقية والفلسفة السياسية للحرية عند كروتشي*). وحول كروتشي ومكيافلي، يمكن العودة إلى كتيب كروتشي (Prima del del) (Machiavelli, Bari, Laterza, 1944.) (ما قبل مكيافلي).

(59) (A. Gamble, *Politics and Fate*, Cambridge, Polity Press, 2000.) (انظر: أندرو غامبل،

السياسة والحتميات). عليه، فإن هذا التشخيص الذي اقترحه آرون في نقده المكيافلي لليبرالية الجديدة حين حلل العلاقة بين «الليبرالية السياسية» و«الليبرالية الاقتصادية» (مدخل إلى الفلسفة السياسية، م س، ص 127). تصل ليبرالية آرون، في الواقع، إلى حد التشكيك الجذري بالأطروحات الليبرالية الجديدة: «أظن أن الليبرالية السياسية، إذا عرّفنا كذلك، النظام الانتخابي البرلماني للمنافسة من أجل ممارسة السلطة، تقود بشكل حتمي إلى نظام اقتصادي موجه جزئياً واشتراكي جزئياً. وأعتقد شخصياً، أنه إذا أردنا الحصول، في الوقت الحاضر، على نظام اقتصادي حديث، كما يرغب بذلك السيد فون هايك أو السيد جاك رويغ، فعلينا بالديكتاتورية السياسية»، م س. يظهر هذا النقد لليبرالية الجديدة الطابع المكيافلي للإنشاء الآروني. يعتبر آرون، في الواقع، أن المجتمعات الحديثة مجتمعات محكوم عليها بالانقسام والنزاعات - أي بما يسميه عموماً بشكل دقيق «الاضطرابات»، وفقاً لمفهوم مكيافلي.

- (60) وتبدو الإحالات إلى تفسيرات لوفور لمكيافيلي من قبل أندريه غلوكسمان (A. Glucksmann) ذات دلالة بهذا الصدد، وذلك في إدائته للنظام الشمولي. انظر: (*La cuisinière et le mangeur d'homme. Essai sur l'État, le marxisme, les camps de concentration*, Paris, Seuil, 1975, p. 48, 207) (الطباخة و آكل البشر، حول الدولة والماركسية ومعسكرات الاعتقال).
- (61) (C. J. Habermas, *Le discours philosophique de la modernité. Douze conférences*, trad. Bouchindhomme et R. Rochlitz, Paris, Gallimard, 1985, p. 281-294) (يورغن هابرماس، الخطاب السياسي والحدثة، اثنتا عشرة محاضرة)
- (62) أكسل هونيث، نقد العمل، م س، انظر: الفصل الخامس «من تحليل الخطاب إلى نظرية السلطة: الصراع باعتباره صيغة اجتماعية»، والفصل السادس.
- (63) (J. Habermas, «Travail et interaction. Remarques sur la «Philosophie de l'Esprit» de Hegel à l'égard de la technique et la science comme idéologie», trad. J. R. Ladmiral, Paris, Gallimard, 1973, p. 163-211.) (يورغن هابرماس، العمل والتفاعل، ملاحظات حول «فلسفة الفكر، من هيغل إلى إينا» في الثقافة والعلم باعتبارهما إيديولوجيا.
- (64) الصراع من أجل انتزاع الاعتراف، م س، ص 7.
- (65) م ن، ص 161 وما يليها.
- (66) الصراع من أجل انتزاع الاعتراف، ص 15.
- (67) (J. Walh, *Le malheur de la conscience dans la philosophie de Hegel*, Paris, Gérard Monfort, 1951, p. 16-17.) (جان فال، مصيبة الوعي في فلسفة هيغل). وحول حكم هيغل على مكيافيلي، انظر: (*La constitution de l'Allemagne*, trad. M. Jacob, Paris, Champ Libre, 1974, p. 133-139.) (أوتو. بوجلير «هيغل ومكيافيلي النهضة الإيطالية والمثالية الألمانية»، في دراسات هيغلية).
- (68) (M. Horkheimer, T. Adorno, *La dialectique de la raison*, trad. E. Kaufholz, Paris, Gallimard, 1974, p. 100.) (ماكس هوركهايمر، تيودور أودورنو (جدلية العقل). يقارن مكيافيلي بهوبس وماندفيل.
- (69) لقد رأينا يار مسنار قد أشار، في ما يتعلق بالدفاع عن النزاع لدى مكيافيلي «إلى مفهوم سوريل حول التعارضات والنزاع الضروري» (انطلاقة الفلسفة السياسية في القرن السادس عشر، م س، ص 6.
- (70) تساهم ليبرالية آرون النزاعية أيضاً في هذه الحركة على طريقته.
- (71) إذا كان «الاشتراكيون الليبراليون» أكثر بعداً عن الماركسية من الاشتراكيين الفرنسيين، مثل بلوم (Blum)، وحتى جوريس (Jaurès) - اللذين لم يكونا اشتراكيين ليبراليين - فإنهم يحتفظون من الماركسية اهتمامها بموازين القوى التي تبني العالم الاجتماعي: يستمر الصراع الطبقي الذي أعيد صوغه ضمن أفق إصلاحي ذي دلالة للعديد منهم. ويؤكد

هذا الأمر استحالة استيعاب موقف يسار الوسط مثل جيندس والأطروحات «الاشتراكية الليبرالية»، كما حدث في فرنسا؟ إن حديث «الاشتراكيين الليبراليين» عن «الطريق الثالثة» لم يؤد إلى جعل هذه الطريق التي تبناها حزب العمال الجديد «اشتراكية ليبرالية». وتسمح مسألة الحالة النزاعية بتقدير الفروق بين الموقفين. فإذا كان جيندس يهتم أحياناً بالصراعات الاجتماعية - انظر: (The Consequences of modernity, Cambridge, Cambridge University Press, 1999, chap. 5. (تبعات الحداثة) - فإن موقفه العام حيال تجاوز التصنيف بين يمين ويسار، يندرج ضمن رؤية توافقية للمجتمع. ولم يتكلم أميروجيو سانتامبروجيو (A. Santambrogio) عنباً، في حديثه عن جيندس «عن كلية غير نزاعية» تقوم على أطروحات غامضة لدرجة يقبلها الجميع (A. Santambrogio, *Destra e sinistra. Un'analisi sociologica*, préf. F. Crespi, Roma-) 25. (سانتامبروجيو، يمين ويسار، تحليل اجتماعي). إن القول بأن فرضيات جيندس، ومن ينتسب إليه، بشكل قريب أو بعيد، بعيدة جداً عن «الاشتراكية الليبرالية» موجود في تفكير أحد أو آخر ورثة هذه التقاليد، إنه نوربرتو بوبيو (الذي يعتبر ليبرالياً اشتراكياً أكثر من كونه «اشتراكياً ليبرالياً» الذي يختلف تحليلاته عن تحليلات جيندس حول التصنيف يمين/يسار: فيما يوضح جيندس استهلاك هذا التصنيف من خلال الدعوة إلى موقف وسط اليسار (A. Giddens, *Beyond left and right: The future of radical politics*, Cambridge, Polity Press, 1994. (بين اليمين واليسار: مستقبل السياسة الراديكالية). يحافظ بوبيو، حتى النهاية، على أهمية هذا التمييز (N. Bobbio, *Destra e sinistra. Ragioni e significati di una distinzione politica*, Roma, Donzelli Editore, 2004, avec la référence à Giddens, p. 157. (يمين ويسار، أسباب تمييز سياسي ودلائله، مع إحالة إلى جيندس، ص 157). وفي الأحوال كافة، إن الطريق الثالثة التي انتهجها الحزب العمالي الجديد أكثر قرباً من «الطريق الثالثة» لروبوكة (Röpke) (أحد مؤسسي جمعية مونت بيلران - Mont Pèlerin)، حتى لو كان روبوكة ينتقد بشدة أكبر، من جيندس وتلاميذه المجتمعات الرأسمالية.

(72) A. Honneth, «La démocratie, coopération réflexive: John Dewey et la théorie contemporaine de la démocratie», *Mouvements*, n°6, 1999, p. 169-178. (أكسل هونيث «الديمقراطية، تعاون انعكاسي، جون ديوي والنظرية المعاصرة للديمقراطية»، حركات العدد 6، 1999، ص 169-178).

(73) التناقض صارخ إذا اعترفنا مع فيليب شانيل ببعض الروابط بين ديوي ودور كهامم. انظر: الكتاب البالغ الأهمية لفيليب شانيل (Ph. Chanial, *Justice, don et association. La délicate essence de la démocratie*, Paris, La Découverte, 2001, p. 226. (عدالة وهبة واشتراك، جوهر الديمقراطية الدقيق).

(74) من أجل مناقشة أعمق عن «عودة ديوي» لدى هونيث، انظر: (E. Vitale, *Liberalismo e multiculturalismo. Una sfida per il pensiero democratico*, Roma-Bari, Laterza, 2001,

(p. 45-57.) (إرماتو فيتال، الليبرالية والتعددية الثقافية، التحدي للفكر الديمقراطي).
انظر أيضاً: مناقشة قراءة هونيث لديوي في (V. Marzocchi, «Democrazia politica, democrazia sociale e riconoscimento», dans *Per un'etica pubblica*, Napoli, Liguori Editore, p. 271-297. (فيرجينو مارزوشي الديمقراطية السياسية والديمقراطية الاجتماعية، والاعتراف، في من أجل أخلاق جمهورية، نابولي). وبعيداً عن ذلك، تنسب إحدى أهم المعوقات أمام إعادة البناء الذي قام به هونيث، في رأينا، إلى الأهمية المركزية التي يوليها إلى تجربة «الازدراء الاجتماعي، مهما كانت هذه الأهمية المركزية، فعدد من النزاعات الاجتماعية التي تقوم على رهان المسائل المتعلقة بالمصلحة العامة لا تجد مصدرها ضمن هذه التجربة.

(75) انظر: أعمال دومينيك شناپر (D. Schnapper) الذي يبين خطورة أزمة التمثيل و«التسامي الجمهوري»، على عكس الاتجاهات المسيطرة في الفلسفة السياسية وعلم الاجتماع. يشير المؤلف، من خلال تعديل الخطاب المسيطر حول «المشاركة المحلية» إلى أن هذه المشاركة، مهما كانت مرغوبة، «لا تكفي من أجل توحيد المواطنين حول مشروع يؤسس إرادة مشتركة» ولا من أجل ضمان أن تعي الجماهير أنفسهم عند الضرورة للدفاع عن الجماعة السياسية والقيم التي تمنحها الشرعية (La communauté des citoyens. Sur l'idée moderne de la nation, Paris, Gallimard, 1994, p. 201). وفي النتيجة، إن هشاشة «التسامي السياسي»، لا تتأتى، في الغالب، عن طلب محبط للمساهمة المدنية، أكثر من صدورها عن الصمود القوي للفردية التي تضع التنظيم الرمزي للتمثيل نفسه موضع الشك. سيعتبر الخطاب المسيطر حول "الحوار" إذاً، بشكل أقل، مظهراً لفشل النخب السياسية التي تعتبر حتى الآن "بعيدة جداً" عن التعبير عن إعادة تشكيل للرابط الاجتماعي على أساس فردي، حيث تبدو الوساطة، من الآن فصاعداً، مقبولة في جوهرها، من الأفراد (La démocratie providentielle. Essai sur l'égalité contemporaine, Paris, Gallimard, 2002, p. 219 sq.) (الديمقراطية الإلهية بحث حول المساواة المعاصرة). علينا، من وجهة النظر هذه، أن نعدل تفاؤل علماء الاجتماع حول وعود التجديد الاشتراكي انظر مثلاً: (R. Sue, Renouer le lien social. Liberté, égalité, association, Paris, Odile Jacob, 2001) (روجييه سو، إعادة الرابطة الاجتماعي، حرية مساواة، اشتراك).

(76) الصراع من أجل انتزاع الاعتراف، ص 8.

(77) نجد في علم الاجتماع الفرنسي بعض الروابط مع منهج يونغ، لدى ألان تورين الذي ينتقد «الروح الجمهورية» بسبب «تقاليد اللامبالاة أو عدم الثقة الطويلة تجاه الصراعات من أجل الحقوق الاجتماعية والثقافية» (A. Touraine, Comment sortir du libéralisme?, Fayard, 1999, p. 47 Paris. (كيف الخروج من الليبرالية؟). إن تورين قريب فكرياً من هذا النوع من الشك في النزعة الجمهورية، بعيداً عن نقد اليعقوبية (jacobinisme) الذي يستعيد بعض القوالب الجامدة.

(78) I.M. Young, *Justice and the Politics of Difference*, Princeton, Princeton University Press, 1990, p. 98. (إريس ماريون يونغ، العدالة وسياسة الاختلاف). انظر: الفصل

الرابع حيث يستوحي يونغ من دريدا وإيراغاري (Iragaray) للدفاع عن «نقد ما بعد الحداثة لمنطق الهوية». ويعتبر يونغ، بالمقابل، أن المثالية الجمهورية للحيز العام تنبثق في جوهرها عن مثالية العلاقة الاجتماعية باعتبارها «حضوراً متزامناً للرعايا»، ويرفض أيضاً الليبرالية السياسية الكلية لرولس (ص 16 وما يليها) كما يرفض «نمط الديمقراطية التشاورية» التي وضع مفهومها هابرماس بخاصة (106-107، 117-118) وكذلك النزعة الجمهورية لبنيامين باربر (B. Barber)، ص 117-118، 128، 230.

(79) تحمل دلالة إهمال يونغ للمساهمة الرئيسة في تاريخ النزعة النسوية التي مثلتها النزعة الجمهورية المعتمدة من قبل ميري فولستونكرافت (M. Wollstonecraft) الذي تعرض للنقد، في أغلب الأحيان، من قبل أصحاب النزعة النسوية "التمييزيين". انظر: R. A. Modugno, *Mary Wollstonecraft. Diritti umani e Rivoluzione francese*, Soveria (R. A. Modugno) (روبرت أداثيد مودونيو) (Mannelli, Rubbettino, 2002, p. 178 sq.) ميري فولستونكرافت، *القانون البشري والثورة الفرنسية*.

(80) انظر: النقد الراديكالي لروسو، الذي يتبع فوكو: يعبر *العقد الاجتماعي* عن نوع من الوهم في شأن الشفافية المطلقة. تستوحي يونغ أيضاً من دريدا، انظر: (De la grammatologie, Paris, Minuit, 1967.) (في النحو). يرى دريدا أن فكر روسو يتبع «ميتافيزيقا الحضور»، ص 436. انظر أيضاً: إريس ماريون يونغ *الإدماج والديمقراطية*. إذا لم تكن تبعية يونغ لأطروحات دريدا كافية للتعبير عن تعقيد نزعة روسو الجمهورية، فلها تظهر بشكل أوضح أيضاً حدودها في سير النزعة الجمهورية المكياقيلية وما بعد المكياقيلية لسيدني أو ألفيري (Alfieri). تخفق هنا، الانتقادات الموجهة إلى النزعة الجمهورية في إصابة أهدافها.

(81) J.-M. Ferry. «Un concept communicationnel du pouvoir et de la souveraineté» dans J. (جان مارك فيري، «مفهوم تواصل للسلطة والسيادة» في *صيف الديمقراطية* (تحرير جاك بيديه). انظر أيضاً: J.-M. Ferry, «Max Weber ou Jürgen Habermas. Administration rationnelle» (جان مارك فيري، «ou politique raisonnable?», *Raison présente*, n°63, 1982, p. 57-75، ماكس فير أو يورغن هابرماس، «إدارة عقلانية أم سياسة عقلانية؟»). ويشخص فيري بطريقة مقنعة، عندئذٍ «إهاكا» فلسفياً للنزعة المناهضة للشمولية: سيؤكد المستقبل صحة تشخيصه.

(82) J.-M. Ferry, *L'Éthique reconstructive*, Paris, Cerf, 1996. (جان مارك فيري، *الأخلاق البنائية*). «تشارك الحالة النزاعية والتقسيم في الجوهر، بالشأن الاجتماعي عموماً. وربما قام كلود لوفور، بالتسامي بملح هام من ملامح المجتمعات الحديثة. وسيكون هذا الأمر على شكل تفخيم لعلم الوجود يتحقق على هذه الواقعة الاجتماعية، أي الواقعة التعددية لديمقراطيتنا الغريبة المعاصرة»، ص 83.

(83) تجعل إشكالية لوفور من حقوق الإنسان شرط قيام الحيز العام - فقد اعتبرت حرية الفكر والتعبير على أنها حرية *التواصل* (انظر: «حقوق الإنسان والسياسة» في

الاختراع الديمقراطي، م س، ص 56. وبعيداً عن ذلك، تركز مؤلفات لوفور على موضوعة الحيز العام).

(84) A. Negri, *Guide. Cinque lezioni su "Impero" e dintorni*, Milano, Raffaello Cortina Editore, 2003. (أنتونيو نيغري، دليل. خمسة دروس حول الحكم وما حوله).

(85) م ن، ص 14.

(86) يرى نيغري أن فكر لوفور، كما فكر كاستورياديس، ينتسب إلى «أسوأ صيغ النزعة الدستورية السوسيولوجية» (السلطة الدستورية، م س، ص 27. يعبر هذا الأمر عن الجهل بفلسفة المؤسسات لدى لوفور، التي فهمت، كما بينا، ضمن منظور ميرلو-بونتي. تلخص قراءة نيغري لمكيافيلي تقاليد إيطالية تعود إلى ماين الحريين، وتبسطها. غير أنها تشوه، بشكل خطير، فكر مكيافيلي بخاصة، وذلك من خلال الطريقة التي تغفل فيها مسألة المؤسسة. أضف إلى ذلك أن النسب بين مكيافيلي وسبينوزا وماركس ليست مسندة بصورة مقنعة من قبل نيغري. من ناحية ثانية يرتبط مذهب نيغري بصورة أوثق بمذهب كارل شميت منه بمذهب مكيافيلي. حول ارتباط نيغري بشميت انظر: J. W. Müller, *A Dangerous Mind: Carl Schmitt in Post-War European Thought*, New Haven-London, Yale University Press, 2003, p. 229-231. (يان ورنر مولر العقل الخطر، كارل شميت في الفكر الأوروبي ما بعد الحرب).

(87) إلى ذلك، لا يفترض موضوع «التقسيم الأصلي» للشأن الاجتماعي، مطلقاً، عدم إمكانية الوصول إلى توافقات بين الأطراف المعنية؛ فهو يعني على المستوى السياسي المحسوس، أن السلطة لا تبني من خلال القطع الكامل مع «حالة طبيعية» مفترضة تحتلط فيها ذرات تبحث كل منها عن مصلحتها الخاصة - وحين يظهر أن «التقسيم الأصلي» هو في الحقيقة، وفي الوقت نفسه، تواصل أصلي، فذلك لأن العلاقة بين الأفراد محدودة دوماً. وبكل بساطة، لا يصنع هذا التواصل في المواجهة أشخاصاً محددين يعرفون ويقفون منذ البداية على قدم المساواة - من هنا يأتي الحذر تجاه النزعة التعاقدية - وذلك لأن هذا التواصل يتعلق بأشخاص متحسدين ومستقرين وملتزمين في مواقف مختلفة - وتتركز المشكلة، هنا، في معرفة كيف يمكن للشأن السياسي احترام الفروق وكيف يمكن احترامها بدل إنكارها، من أجلفل قيام تواصل أصيل ممكناً.

(88) إنه لأمر ذو دلالة أن تكون إحدى أولى المقدمات حول موضوع الحالة النزاعية لدى مكيافيلي في علم الاجتماع الفرنسي، في القرن العشرين، من إنتاج كاتب مجدد لنيته، ومعاً بشدة للأفكار التضامنية للنزعة الجمهورية الفرنسية، مثل جورج بالانت (G. Palante). يرجع بالانت في كتابه: (*Précis de sociologie*, Paris, Alcan, 1901) (الوجيز في علم الاجتماع)، إلى ياريتو وإلى مكيافيلي أيضاً لرفض مذهب التضامن: «علينا أن لا نخشى الاعتراف بأن التعارض والصراع يظلان مقولة ضرورية من مقولات الحياة الاجتماعية. ولنعد إلى ما قاله مكيافيلي حول فائدة الصراعات بين مجلس الشيوخ والشعب من أجل تكوين القوة الرومانية». وإذا كانت النزعة النيتشوية الجديدة لبالانت

تبين، بحق، حدود المذهب التوافقي المتطرف للنزعة التضامنية (من خلال إدخال كاتب مثل باريتو الذي رفضه بوعليه، ثم أعيد له الاعتبار من قبل آرون ضد الدوركهائمين)، فإن هذه النزعة تحدد أبعاد كل مديح غير نقدي لعدم التوافق، من خلال الطابع الجذري لرفضها للأفكار الجمهورية.

(89) ينسب إلى هذه المقاربة النقد الذي وجهه بورديو إلى هابرماس في *تأملات يسكالية*، م س، ص 80-81.

(90) حول الصعوبة الكبرى التي عاناها بورديو في تكوين تصور حول فكرة الحيز العام، انظر: جفري تشارلز ألكسندر، (J.C. Alexander, *La réduction. Critique de Bourdieu*, trad. N.)

(Zaccaï-Reigniers et Lejeune, Paris, Cerf, 2000, p. 117 sq.

(91) حول حكم هابرماس بشأن نظرية النخب، انظر: (*Raison et légitimité*, trad. J. Coste,)

(Paris, Payot, 1978, p. 168 sq.

في حينه إلى كتاب *المكيافيتيون* لبورنهام. يرفض هابرماس، بالاعتماد على أعمال بيتر

باشراش (*نظرية النخبوية الديمقراطية، دراسة نقدية*، م س) «النظرية النخبوية للمهيمنة»

التي تعني تنازلاً عن الأفكار الديمقراطية، وذلك لأن الرهان لا يعود قائماً على تطوير

مشاركة المواطنين في مسارات خطائية لتأهيل الإرادة، وإنما تيسر قيام مساومات بين

نخب مهيمنة. إلا أنه بالإمكان الاعتراض بالقول بوجود استعمالات أخرى لنظرية

النخب، أكثر تنظيماً، ممكنة، وتنسجم مع المتطلبات الديمقراطية، كما يقدمها هابرماس.

ويبدو واضحاً أن حكم هابرماس خاضع تماماً لمواقف باشراش (حتى في المقارنة المرفوضة

بشكل مطلق بين النظريات النخبوية وبعض التفسيرات لفكر توكفيل، التي اعتبرته خطأ

مفكراً محافظاً متطرفاً). غير أن أطروحات باشراش منحازة جداً، وتميل، في أغلب

الأحيان، إلى الخصومة من خلال المقاربة بين نظرية النخب والنظرية الديمقراطية. أضف

إلى ذلك أنها تحمل تماماً أهمية مساهمة بورنهام وكذلك أفكار موسكا وباريتو المستقبلية.

لنشر إلى أن الصعوبة التي صادفها هابرماس في التفكير بطريقة موضوعية بمسألة الحيز

العام، قد تمت الإشارة إليها من قبل بول هيرست (P. Hirst) الذي وصل إلى درجة

التأكيد على أن «الاقتصاديين الليبراليين الجدد، مثل هايك والرايديكاليين مابعد

الماركسية مثل هابرماس، هم رفاق درب غير حقيقيين، غير أنهم يشتركون في القناعة

بأن المجتمع المدني نظام عفوي» (P. Hirst, *From Statism to Pluralism: Democracy, Civil*)

(Society and Global Governance, Londres, UCL Press, 1997) (من نظام الدولة إلى

التعددية، الديمقراطية والمجتمع المدني ونظام الحكم الشمولي). يبدو نقد هيرست

متطرفاً غير أنه يتوجه إلى صعوبة المواقف المعادية للنزعة المحافظة على طريقة هايك. يبقى

أن نعرف، في ما إذا كانت الديمقراطية الاشتراكية لهيرست تستجيب، هي أيضاً،

لمتطلبات مقارنة أكثر واقعية من هابرماس، من خلال استيعاب المساهمة المكيافيالية. (إن

نزعة هارولد جوزيف لاسكي (H. J. Laski) التي تعتبر أنموذجاً لها، لا تقدم هذه

الضمانة، في رأينا).

(92) J. Piaget, *Où va l'éducation?* (1948), Paris, Denoël, 1988 (جان بياجيه التربية إلى أين؟) (1948).

(93) إن الاندماج المنقوص للبعد النزاعي في فلسفة هابرماس موجود بشكل ذي دلالة في فرضيات بياجيه حول اللامركزية والتعاون (في ما يتعلق بمفهوم "التمركز حول الذات"، انظر: J. Montangero et D. Maurice-Naville, *Piaget ou l'intelligence en marche*, Liège, Mardaga, 1994, p. 128-135). ونحن نعرف الأهمية الكبرى التي يوليها هابرماس و(آبل) بياجيه أو الذكاء المتحرك). ونحن نعرف الأهمية الكبرى التي يوليها هابرماس و(آبل) لإعادة البناء التي قام بها بياجيه، لمراحل الحياة الأخلاقية (بشكل مباشر، أو من خلال لورانس كولبرغ، لدرجة أصبح معها بياجيه، بكل تأكيد، أحد الرواد (المهملين) «لمبادئ أخلاق النقاش» في القرن العشرين. غير أنه إذا لاحظ بياجيه، بشكل لافت، واعترف أحياناً بأهمية النزاع في ظهور التواصل الناجح، فإن هذا لا يمنحه، مع ذلك، دوراً حاسماً، لأن المقصود، من دون شك، بعد يصعب دمج في نظامه. ويشرح بالتالي أنه «كي نجد مساواة حقيقية وحاجة تبادلية، لا بد من قاعدة للحياة المشتركة تنبثق عن ذاتها: يجب أن ينشأ الوعي بتوازن ضروري بين أفعال الأفراد وردود فعلهم تجاه بعضهم بعضاً، ويلزم في الوقت نفسه الآخر والأنا، ويضع لهما حدوداً. يفترض هذا التوازن المثالي الذي تنلمحه بمناسبة كل نزاع وكل حل سلمي، بالطبع، تربية بعيدة المدى وتبادلية للأطفال بين بعضهم بعضاً» (J. Piaget, *Le jugement moral chez l'enfant*, Paris, PUF, 1932, p. 254). (جان بياجيه، الحكم الأخلاقي لدى الطفل). إذا لم يتصور بياجيه إلا بشكل جزئي النزاعات التي لاحظ مع ذلك دورها هنا، فربما كان ذلك بسبب تصور مركز جداً على تطور الذكاء، لم يمنح مجالاً كافياً للمشاعر أن تميز بين الأفراد. انظر: D. Cohen, *Piaget, une remise en question*, trad. M. Proux, Paris, Retz, 1992, p. 92 sq. 139 sq. (دافيد كوهين، بياجيه، موضع التساؤل). ومع ذلك، يرى بياجيه في النزاع لحظة ضرورية للاعتراف بين الأفراد، أحياناً، بل يرى فيه، على العكس، علامة فشل في التبادل (انظر مثلاً: نقد النزاعات الدولية التي تشير «إلى النزاعات التبادلية عينها، وإلى عدم الفهم ذاته الذي تشير إليه الحياة الاجتماعية» - وذلك لأن "التمركز الاجتماعي" «معادل للتمركز حول الذات»، ففي كلا الحالتين، تتطلب اللامركزية «إرادة ثابتة»، بل «نوعاً من البطولة» (تجريبية إلى أين، ص 109-115). لا يبدو أن بياجيه، مثل منظري «مبادئ أخلاق النقاش» يقدر بشكل كاف الدور الذي يقوم به النزاع ضمن مسار الانعتاق من المركز. وتُظهر نزعتة الكانطية الجديدة، الموروثة عن برنشتك، هنا، حدودها في رأينا، في مواجهة مكتسبات اللحظة المكافئية الفرنسية.

ÉLÉMENTS BIBLIOGRAPHIQUES 1

- L'édition française des œuvres de Machiavel mentionnée dans cette étude est celle qui a fait longtemps autorité pour les interprètes du XX^e siècle (Machiavel, *Œuvres complètes*, texte présenté et annoté par E. Barincou, Introduction J. Giono, «Bibliothèque de la Pléiade», Paris, Gallimard, 1952). Cette traduction présente bien des imperfections: nous l'avons systématiquement révisée.
- ALTHUSSER L., «Machiavel et nous» dans *Écrits philosophiques et politiques*, t. II, Paris, Stock/IMEC, 1995.
- ARON R., «Préface» à Machiavel, *Le Prince*, Paris, Le livre de poche, 1962.
- «Machiavel et Marx», *Études politiques*, Paris, Gallimard, 1972.
 - *Introduction à la philosophie politique. Démocratie et révolution*, préf. J.-C. Casanova, Paris, Éditions de Fallois, 1997.
 - *Machiavel et les tyrannies modernes*, établi, présenté et annoté par R. Freymond, Paris, Éditions de Fallois, 1993.
- BEER H., *Machiavel et l'Allemagne*, Paris, Albin Michel, 1939.
- BENOIST Ch., *Le machiavélisme*, 1^{re} partie: *Avant Machiavel*, 2^e partie: *Machiavel*, 3^e partie: *Le machiavélisme après Machiavel*, Paris, Plon-Nourrit, 1907.
- BERLIN I., «L'originalité de Machiavel», *À contre-courant. Essais sur l'histoire des idées*, trad. A. Berelowitch, Paris, Albin Michel, 1988.
- BONADEO A., *Corruption, Conflict, and Power in the works and times of Niccolò Machiavelli*, Berkeley, University of California Press, 1973.
- BRUNI, *La città divisa. Le parti e il bene comune da Dante a Guicciardini*, Bologna, Il Mulino, 2003.
- CADONI G., *Crisi della mediazione politica e conflitti sociali: N. Machiavelli. F. Guicciardini. D. Giannotti*, Roma, Jouvence, 1994.
- CASSIRER E., *Le mythe de l'État*, trad. B. Vergely, Paris, Gallimard, 1993. CHÉREL A., *La pensée de Machiavel en France*, Paris, L'Artisan du Livre, 1935.
1. Ne figure ici qu'un nombre limité de titres. On trouvera l'ensemble des références en notes.
- CROCE B., *Etica e politica*, Roma-Bari, Laterza, 1945.
- *Prima del Machiavelli*, Bari, Laterza, 1944.
- DOTTI U., *Niccolò Machiavelli. La fenomenologia del potere*, Milano, Feltrinelli, 1979.
- ESPOSITO R., «I Discorsi di Machiavelli e la genesi della forma moderna della politica», in *La politica e la storia. Machiavelli e Vico*, Napoli, Liguori Editore, 1980.
- *Ordine e conflitto. Machiavelli e la letteratura politica del Rinascimento italiano*, Napoli, Liguori Editore, 1984.
- GRAMSCI A., *Quaderno 13. Noterelle sulla politica di Machiavelli*, introd. et notes C. Donzelli, Torino, Einaudi, 1981.
- HULLING M., *Citizen Machiavelli*, Princeton, Princeton University Press, 1983.
- JANKÉLÉVITCH V., «Machiavélisme et modernité», *Premières et dernières pages*, Paris, Seuil, 1994.
- JANNI E., *Machiavelli*, Milano, dall'Oglio, 1927
- LARIVAILLE P., *La pensée politique de Machiavel*, Nancy, PUN, 1982
- LEFORT C., «Machiavel jugé par la tradition classique», *Archives européennes de sociologie*, t. I, n°1, 1960.

- *Le travail de l'œuvre Machiavel*, Paris, Gallimard, 1972.
 - *Les formes de l'histoire. Essais d'anthropologie politique*, Paris, Gallimard, 1978.
 - *Écrire à l'épreuve du politique*, Paris, Calmann-Lévy, 1992.
- MANSFIELD H.C. Jr., *Le Prince apprivoisé. De l'ambivalence du pouvoir*, trad. P.E. Dauzat, Paris, Fayard, 1994.
- MARITAIN J., *Principes d'une politique humaniste, Œuvres, 1940-1963*, Paris, Desclée de Brouwer, 1978.
- MASIELLO V., *Classi e stato in Machiavelli*, Bari, Adriatica Editrice, 1971. MERLEAU-PONTY M., «Note sur Machiavel», in *Signes*, Paris, Gallimard, 1960. NAÏR S., *Machiavel et Marx. Fétichisme du pouvoir et passion du social*, Paris, PUF, 1984.
- NAMER E., *Machiavel*, Paris, PUF, 1961.
- NAMER G., *Machiavel ou les origines de la sociologie de la connaissance*, Paris, PUF, 1979.
- PALONEN K., *Quentin Skinner: History, Politics, Rhetoric*, Cambridge, Polity Press, 2003.
- PAREL A.J., *The Machiavellian Cosmos*, New Haven, Yale University Press, 1992. PETTIT Ph., *Republicanism: A theory of Freedom and Government*, Oxford, Clarendon Press, 1997 ; trad. p. Savidan et J.-F. Spitz, *Républicanisme*, Paris, Gallimard, 2003.
- POCOCK G.A., *The Machiavellian Moment: Florentine Political Thought and the Atlantic Republican Tradition*, Princeton University Press, 1975 ; trad.
- L. Borot, préf. J.F. Spitz, *Le moment machiavélien*, Paris, PUF, 1997. PROCACCI G., *Machiavelli nella cultura europea dell'età moderna*, Roma-Bari, Laterza, 1995.
- RENAUDET, *Machiavel. Études d'histoire des doctrines politiques*, Paris, Gallimard, 1942.
- RUSSO L., *Machiavelli*, Roma-Bari, Laterza, 1988.
- SASSO G., *Niccolò Machiavelli*, Bologna, Il Mulino, t. I, 1980, et t. II, 1993 SKINNER Q., *The Foundations of Modern Political Thought*, t. I-II, Cambridge, Cambridge University Press, 1978 ; *Les fondements de la pensée politique moderne*, trad. J. Grossman et J.Y. Pouilloux, Paris, Albin Michel, 2001.
- SMITH B. J., *Politics and Remembrance: Republican Themes in Machiavelli, Burke, and Tocqueville*, Princeton, Princeton University Press, 1985.
- SPIRITO U., *Machiavelli e Guicciardini*. Roma, Edizioni Leonardo, 1945. STRAUSS L., *Pensées sur Machiavel*, trad. M.P. Edmond et T. Stern, prés. M.P. Edmond, Paris, Payot, 1982.
- VALADIER p. *Machiavel et la fragilité du politique*, Paris, Seuil, 1996. VILLEFOSSE de L., *Machiavel et nous*, Paris, Grasset, 1937.
- VIROLI M., *Per amore della patria. Patriotismo e nazionalismo nella storia*, Roma-Bari, Laterza, 1995.
- *Machiavelli*, Oxford, Oxford University Press, 1998.
 - *Repubblicanesimo*, Roma-Bari, Laterza, 1999.
- VISSING L., *Machiavel et la politique de l'apparence*, Paris, PUF, 1980.
- WEIL É., «Machiavel aujourd'hui» (1951), in *Essais et conférences*, t. 2, *Politique*, Paris, Vrin, 1991.
- WEIL S., «Un soulèvement prolétarien à Florence au XIV e siècle», *La critique sociale*, n°11, mars 1934, in *Œuvres complètes*, t. II, *Écrits historiques et politiques*, vol. 1, *L'engagement syndical (1927-juillet 1934)*, établi et annoté par G. Leroy, Paris, Gallimard, 1988.

المحتويات

7.....	مدخل
29	الفصل الأول: الواقعية المكيافيلية: النزاع في قلب الشأن السياسي
	هل كان مكيافيلي رائد المكيافيلية الحديثة؟
	تناقضات السياسة من فيير إلى مكيافيلي: «أخلاقية الإقناع» و«أخلاقية المسؤولية»
	نخب وتعددية: من مكيافيلي إلى المكيافيليين
	مكيافيلي وماركس أولية السياسة أم أولية الاقتصاد والاجتماع
145.....	الفصل الثاني: فينومينولوجيا التجربة السياسية «المنعطف» المكيافيلي لميرلو - بونتي
	«المنعطف» المكيافيلي لميرلو - بونتي
	مكيافيلي ومسألة النزاع
	العلن، حيز السياسة
	وعود الإشكالية المكيافيلية: نحو تجاوز للصيغة الماركسية
197.....	الفصل الثالث: عودة مكيافيلي إعادة اكتشاف الشأن السياسي
	مكيافيلي مفكر التقسيم الاجتماعي
	البعد المخيالي للسياسة
	مكيافيلي أو عودة الشأن السياسي
255.....	الخاتمة: اللحظة المكيافيلية اليوم
281.....	الهوامش
281	هوامش المدخل
297	هوامش الفصل الأول
325.....	هوامش الفصل الثاني
336.....	هوامش الفصل الثالث
348.....	هوامش الخاتمة

